

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدد الثاني عشر

أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

ربيع الأول ١٤٣٣ هـ / شباط ٢٠١٢ م.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن جامعة أهل البيت عليه السلام

رئيس التحرير: أ.د. عبود جودي الحلي
سكرتير التحرير: أ.م.د. باقر جواد الزجاجي

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. محمد عبدالحسين الخطيب
أ.م.د. حسن حنتوش رشيد
أ.م.د. حكمت عبد حسين الخفاجي
أ.م.د. مهدي داخل العيادي
أ.م.د. كمال عبدحامد آل زيارة
أ.م.د. عبد حمزة محسن

كربلاء، شارع فاطمة الزهراء (عليها السلام)، جامعة أهل البيت عليه السلام

ص.ب: ١٠١٩، هاتف: ٣٥١٢٥٧-٩

Karbala, Fatimah-al-Zahra street, P.O.Box: 1019, Tel: 351257-9

karbala@ahlulbaitonline.com ، www.ahlulbaitonline.com

الهيئة الاستشارية

الأستاذ الدكتور

حسن عودة زعال

رئيس جامعة كربلاء

الأستاذ الدكتور

حاکم محسن محمد

عميد كلية الادارة والاقتصاد / جامعة كربلاء

الأستاذ الدكتور

ناظم رشيد شيخو

كلية التربية / جامعة الموصل

الأستاذ الدكتور

خديجة الحديثي

كلية الآداب / جامعة بغداد

الأستاذ الدكتور

عباس زيون العبودي

كلية القانون / جامعة كربلاء

الأستاذ الدكتور

صبيحي ناصر حسين

كلية البنات / جامعة بغداد

الأستاذ الدكتور

هادي حسين الكرعوي

معاون عميد كلية الفقه / جامعة الكوفة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٨٥٤ لسنة ٢٠٠٥

ISSN 1819-2033

قواعد النشر في المجلة

ترحب مجلة أهل البيت عليه السلام بمساهمات الاساتذة والكتاب والباحثين في مجالات الفكر الإسلامي، والعلوم الإنسانية والاجتماعية مع الإهتمام بقضايا المشكلات الثقافية في العالم العربي والإسلامي، والتجديد والبناء الحضاري، وكذلك قضايا الإنماء التربوي والتعليمي.

يشترط في المادة المرسلّة:

أن لا تكون قد نشرت أو أرسلت للنشر في مجلات أخرى.

☑ أن تلتزم بقواعد البحث العلمي والأعراف الأكاديمية بتوثيق المصادر والمراجع، بذكر البيانات كاملة، مع تحقق الموضوعية والمنهجية والمعالجة العلمية، مع تخرّيج النصوص القرآنية والحديث النبوي الشريف بصورة دقيقة وكاملة.

☑ أن يراعي الباحث سلامة اللغة وحسن صياغتها.

☑ يقدم البحث من نسختين مطبوعة على الآلة الكاتبة والحاسوب ويرافقه ملخص في صفحة واحدة مع تعريف بالباحث.

☑ تخضع المادة المرسلّة للنشر لمراجعة المقومين المتخصصين.

☑ لا تعاد المواد التي ترسل إلى المجلة ولا تسترد، نشرت أم لم تنشر. ولا تلتزم المجلة بإبداء أسباب عدم النشر.

ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه.

توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان.

كربلاء، شارع فاطمة الزهراء عليها السلام،

جامعة أهل البيت عليه السلام

ص.ب: ١٠١٩، هاتف: ٣٥١٢٥٧-٩

محتويات العدد

٥	كلمة هيئة التحرير
٦	الشعراء الرواد والبحور المركبة أ.د. عبود جودي الحلبي ، رئيس جامعة أهل البيت عليه السلام م.م. علاوي كاظم كشيش ، جامعة كربلاء ، كلية التربية
١٦	أهل البيت عليه السلام في الصحيفة السجادية (قراءة تأويلية) أ.د. حاكم حبيب الكريطي ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة
٢٦	ظاهرة التضخم النقدي في العراق وانعكاساتها الاقتصادية أ.م.د. كمال عبد حامد آل زيارة ؛ كلية القانون - جامعة أهل البيت عليه السلام أ.م.د. حكمت عبدالرزاق الدباغ ؛ كلية القانون - جامعة بابل
٤٨	دور الأم في نقل الجنسية الى الأولاد في التشريعات العربية والعراقية (دراسة مقارنة) د. حسن الياسري ، كلية القانون ، جامعة أهل البيت عليه السلام
٨٣	أساليب الأمر والنهي والاستفهام في جزء من الصحيفة السجادية (الأيام المباركة أنموذجاً) أ.م.د. باقر جواد الزجاجي ؛ جامعة أهل البيت عليه السلام د. محمد حسن الأسدي ؛ جامعة أهل البيت عليه السلام
٩٥	مدينة الكاظمين ؛ معلم ديني سياحي (دراسة تأريخية) م.م. علي جاسم طلال الموسوي ؛ كلية الشريعة ، جامعة أهل البيت عليه السلام
١١٧	دراسة نقدية في تطور فكرة التجديد في النحو العربي عند شوقي ضيف محمد باقر حسيني ؛ قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة الفردوسي - مشهد احمد حنيفي زاده ؛ طالب دكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة الفردوسي مشهد
١٣٠	استعمال حروف المعاني وأثرها في البنية الإيقاعية عند الجواهري م.م. جواد عودة سبهان ؛ معهد إعداد المعلمين ، كربلاء المقدسة
١٤٧	القيود الدستورية على عمل السلطة التنفيذية والتشريعية في العراق م.م. خالد عبد الأمير الجاروش ؛ كلية القانون ، جامعة أهل البيت عليه السلام م.م. رشا شاكر حامد ؛ كلية القانون ، جامعة أهل البيت عليه السلام
١٦٦	تجليات الانبعاث والموت في الطللية والتموزية - طلليلة لبید بن ربیعة وتموزية السيّاب انموذجاً - (دراسة مقارنة) د. لیلی نعیم عطیة الخفاجي ؛ المديرية العامة لتربية الصرافة ، بغداد
١٨٦	المسؤولية السياسية للقائمين بأعباء السلطة التنفيذية (دراسة مقارنة) م. ميثم حسين الشافعي ؛ كلية القانون ، جامعة أهل البيت عليه السلام

- ٢٢٢ شعر الاستنهاض بالإمام الحجة (عجل الله فرجه) عند أبي الحب الكبير
(دراسة في المضمون الموضوعي)
أ.د. عبود جودي عبود الحلبي ؛ رئيس جامعة أهل البيت عليه السلام
م.م. روية محمد هادي حسون الكلش ؛ كلية التربية ، جامعة كربلاء
- ٢٤٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الأدب الصغير والأدب الكبير
أ.م.د. سيد محمد رضا ابن الرسول ؛ قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة أصفهان
م.م. فهيمه سلطاني نژاد ؛ جامعة أصفهان ، فرع اللغة العربية
- ٢٥٢ السيد حسن نصر الله في الشعر العربي المعاصر .
د. عبد العلي آل بويه ؛ جامعة الإمام الخميني الدولية
بيوند سفرى ؛ جامعة الإمام الخميني الدولية
د. عبد الحسين عباس الحلبي ؛ جامعة أهل البيت عليه السلام
- ٢٦٧ الطباقي في الصحيفة السجادية .
د. جعفر علي عاشور ؛ كلية الآداب ، جامعة أهل البيت عليه السلام
م.م. هدى حسين
- ٢٧٣ السجود على الأرض أبلغ صور التذلل لله سبحانه وتعالى
فريدة الاعرابي ؛ الجامعة الحرة - فرع مدينة سسنان
سيد مسعود السيادتي
- ٢٩٤ الحكمة في شعر الصعاليك (دراسة تحليلية).
د. عمار المسعودي ؛ الكلية التربوية المفتوحة ، كربلاء.

قسم الانكليزي :

- 6 اللاحق كدراسة مقارنة بين اللغتين الانكليزية والعربية
شيماء عبد الحسين المعمار ، كلية التربية ، جامعة كربلاء

كلمة هيئة التحرير

كربلاء عاصمة الثورات

لم تحدث الثورات العربية من فراغ، ولم تخرج من رحم المجهول بل هي تضرب بجذورها إلى تاريخ الأمة المجيد، وتأخذ حرارتها من أمجاد المسلمين وتستلهم جذوتها من مواقف الرجال العظام الذين قارعوا الظلم والقهر وبذلوا دمائهم رخيصة على طريق الحرية، ويأتي على رأس هؤلاء الرجال الامام الحسين بن علي عليه السلام الذي مرت ذكرى شهادته قبل أيام. فالحسين عليه السلام أصبح امثولة ونموذجاً حياً لكل الثائرين على مدى التاريخ حتى من غير المسلمين كغاندي وجيفارا، كان الحسين في وجدانهم يستلهمون منه العزيمة والقوة في نضالهم ضد قوى الظلم والاستبداد.

ولاشك فإن أدبيات الثورة الحسينية وجدت طريقها في الثورات العربية التي كان شعارها هيهات منا الذلة وهي الكلمة الرائعة التي أطلقها الامام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء: "وأن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة فهيهات منا الذلة". والتي تحولت إلى شرارة تؤجج روح الثورة في الشعوب المظلومة المغلوب على أمرها.

من هنا كان الحسين عليه السلام ملهماً للثوار معبداً لهم طريق الثورة وأساليب التحدي وواضعاً بين أيديهم المنهج المؤدي إلى النصر وهو منهج غلبة منطق الدم على منطق السيف.

فالدم الذي اريق في كربلاء في اليوم العاشر من محرم من عام ٦١ للهجرة هو الذي زلزل عرش الطاغية يزيد و من جاء من بعده ولو بعد بضع سنوات، وامتد هذا الدم ليمد في عضد الأمة الروح الثورية التي رأيناها في تونس و مصر و... والتي استطاعت أن تنتصر على الظالمين.

وكان شعار الثوار هو انتصار الدم على المدفع والبنديقة. ومن هنا أيضاً أصبحت كربلاء محجة للثوار على مدى التاريخ فعلى رباها مر كل ثائر وأخذ من ترابها سلاحاً لثورته.

وقد شاهدنا قبل أيام وفود الملايين الذين جاءوا لزيارة الأربعين من كل فج عميق ليشهدوا دراما انتصار الدم على السيف وليؤكدوا من جديد أن كربلاء ليست مدينة عادية بل هي عاصمة الثورات. التي اندلعت والتي لازالت في الطريق...

الشعراء الرواد والبحور المركبة

آ.د. عبود جودي الحلي^(١)
م.م. علاوي كاظم كشيش^(٢)

المقدمة

نشأ الشعر العربي على أوزان نبعت من اللغة العربية الثرة العظيمة، الغنية بأساليبها وفنونها البيانية وخصائصها البنائية التي لا تحد. وقد انقسمت هذه الأوزان على نمطين من البحور، النمط الأول: هو البحور الصافية، تلك التي تتشابه تفعيلاتها، وهي: الرجز، والرمل، والبهزج، والكامل، والمتقارب، والمتدارك. والنمط الثاني: هو البحور المركبة، تلك التي تختلف تفعيلاتها، مثل: الطويل، والبسيط، والمديد، والمنسرح، والخفيف، والسريع، والوافر، والمجثث، والمقتضب، والمضارع.

وقد اختلفت هذه البحور في نسبة شيعوها على خارطة الشعر العربي، وقد كان للطويل والبسيط النصيب الأكبر من نسب الشيع، حتى سمي الطويل بـ"الركوب". وبلغ من درجة شيوع هذه البحور أن المعلقة نظمت عليها عدا معلقة لبني ربيعة العامري ومعلقة عنتره فقد نظمتا على البحر الكامل. وفي بداية حركة الشعر الحر مال الشعراء الرواد إلى النظم على البحور الصافية تخلصاً من رتابة القصيدة العربية ذات الشطرين بحسب زعمهم، ومحاولة منهم لتطوير السطر الشعري العربي، فتطلب ذلك تفعيلة واحدة تستمر في القصيدة كلها وتكرر في عدد غير محدود، على أن القافية ووحدة (الضرب) ظلاً شرطين من شروط القصيدة الحرة الجديدة.

إلا أن بعض الشعراء الحدائين لم يتوقفوا عند هذا الحد بل عمدوا إلى البحور المركبة وحاولوا تطويرها لنظام شعر التفعيلة الحر، فاختلقت المحاولات وتنوعت. ولكن ما يجمع بينها أنها قليلة العدد، فكانت محاولات الشاعر بدر شاكر السياب أكثرهم عدداً. إلا أن المهم في هذا المجال أن المحاولات لم تتوقف حتى هذا اليوم.

١- رئيس جامعة أهل البيت (عليه السلام)
٢- جامعة كربلاء، كلية التربية

وإذا كان شعر التفعيلة قد عد ثورة وتجديداً باستخدامه ما يقل عن نصف بحور الشعر العربي (الصفافية فقط)، فإن محاولة النظم على البحور المركبة يعد بالقياس على ما سبق مغامرة أكثر جرأة وإبداعاً وأوثق أصالة وارتباطاً بالقصيدة العربية العريقة وتحديثاً لها وانتهاها إبداعياً نحو استثمار ثروة هائلة نبعت من رحم اللغة العربية وجمالياتها.

الشعراء الرواد والبحور المركبة

على الرغم من أن الشعر الحر اتخذ التفعيلة وحدة، وخص البحور الصفافية مضامير لجياده. إلا أن طموح الكتابة على البحور المركبة ظل هاجساً ورغبة يستفز ان الشعراء الرواد وبعض من تلاهم (لأن النظام الإيقاعي الذي اقترحه الرواد، واستبشروا بما أتاح لهم من حرية، سرعان ما بدا ضيقاً رتيباً، فهو ضيق لأنه لم يخرج على عدد البحور الموروثة، بل لقد ضاق حتى اقتصر على عدد منها^(٣)، هي البحور التي أطلقت عليها نازك الملائكة اسم البحور الصفافية. وعلى الرغم من المحاولات التي بذلها بدر شاكر السياب وشاذل طاقة في النظم على بحور أخرى من البحور التي سميتها نازك الملائكة بـ "البحور الممزوجة" ظل النظام الإيقاعي ضيقاً^(٤). ولأن هذا النظام الإيقاعي الذي بدا جديداً في حينه لم يكن جديداً في جوهره فلا عجب إذا ما طغت الرتبة على النظام الإيقاعي برمته، وأصبحت بسرعة ظاهرة محسوسة، وتحولت إلى محفز لخروج جديد وبحث عن نظام إيقاعي آخر^(٥)، وبالبحث في مغامرات الكتابة عند الرواد يظهر أن هناك حصيلة لا بأس بها من القصائد التي جاءت على البحور المركبة (الطويل والبسيط والخفيف والسريع)، وبالتخلي قليلاً عن معيار الكم سيتم النظر إلى هذه القصائد بعدها خطأ آخر موازياً لخط التغيير الذي استعمل البحور الصفافية منذ نشأة الشعر الحر، خصوصاً أن السياب كان في التجريب أكثر كماً منهم، إلا أن شاذل طاقة كان في تجربته العروضية أجراً من السياب ومن نازك، ولكن فتور اهتمامه بالكتابة نحاه عن الصف الأول من الشعراء^(٦). فيكون بهذا شاذل طاقة أول شاعر استخدم في قصيدته الحرة بحراً مركباً في حين جرب الشعراء بعد عدة سنوات إخضاع القصيدة الحرة لبحر مركب^(٧).

فيلاحظ من ذلك أن شاذل طاقة لم يكتب على تفعيلة الخبب ولا الرجز ولا الوافر ولا البهز، بينما غامر في تلك الفترة المبكرة من تاريخ حركة التجديد فكتب قصيدة على البحر الخفيف في وقت كان فيه السياب ونازك يتحاشيان الكتابة على بحر من البحور المركبة، وعنوان هذه القصيدة "انطلاق"^(٨). ولم يكن شاذل السابق في هذا فحسب، بل كان السابق في مزج الأبحر أيضاً. ففي قصيدة "غضب" مزج شاذل بين المتدارك والخفيف مزجاً مقبولاً، فكانت تلك مغامرة أخرى لم يقدم على مثلها إلا السياب بعد أكثر من

(٣) (وبهذا فقد أسقط من الحساب ثمانية أبحر برمتها وهي: الطويل والمديد والبسيط "دائرة المختلف برمتها" والمنسرح والمقتضب والمضارع والخفيف أي ثلثا دائرة المشتبه) ينظر: فن التقطيع الشعري والقافية، د. صفاء خلوصي: ٤٦٥. ونظرياً، لم يبق إلا ثمانية بحور شعرية فقط يمكن أن تسهم في تشكيل إيقاع القصيدة الحديثة، أما عملياً فإن نصف هذا العدد، أو أقل من ذلك، هو ما يؤدي دوراً موسيقياً واضحاً في شعرنا الحديث. ينظر: في حداثة النص الشعري، علي جعفر العلاق، دار الشروق، عمان - الأردن، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٧٧.

(٤) الموجة الصاخبة، شعر الستينيات في العراق، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٤، ص ٢٩٤.

(٥) الموجة الصاخبة: ٢٩٥.

(٦) وعي التجديد والريادة الشعرية في العراق، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الصغيرة ٣٨٧، بغداد، ٦٧، ١٩٩٣.

(٧) الإيقاع في شعر شاذل طاقة، شروق خليل اسماعيل ذو النون الامام، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢.

٣٥،

(٨) وعي التجديد...، سامي مهدي: ٦٨.

عقد من الزمان، ولا بد من الإشارة الى أن هذه المحاولة تختلف عن محاولات أبوللو، وانها نجحت من حيث فشلت محاولات تلك الجماعة. أن قصائد شاذل طاقة التي كتبت على الغرار الجديد كانت جديدة في خروجها على نظام البيت فحسب، أما في ما عدا ذلك فلم يكن فيها من الجدة شيء^(٩). ومهما يكن من أمر تقييم القصائد الاولى فإن مسألة النظم على البحور المركبة مغامرة تتقاسم الأهمية مع مغامرة الشعر الحر الذي نظم على البحور الصافية، بل يبدو أن المغامرة تصبح مجزوءة بدون ان تدرس مسألة البحور المركبة في الشعر الحر، والتي هي مغامرة عراقية المنشأ حالها حال باقي المغامرات، وعلى الرغم من عدم شيوع هذه الظاهرة، فقد قلل أحد الباحثين من أهميتها لأن القصائد القليلة التي كتبها الشعراء على بحور مركبة لم تستطع أن تقدم النموذج المثالي أو المقنع، بل لم تتعد كونها تجارب شخصية قليلة تضع بين قصائد أخرى للشعراء أنفسهم^(١٠). إلا أن الباحث نفسه امتدح الكتابة على البحور المركبة، فد الشاعر الذي ينظم قصيدة في المتقارب تكون فرصته الوحيدة لكسر رتابة هذا الوزن، زحاف القبض الذي يحول فعولن الى فعول. أما الذي ينظم قصيدة على البسيط فيستطيع التنقل بين صور مستفعلن وفاعلن المختلفة^(١١). أو يتمكن الشاعر في حالة النظم على بحر مركب من تكوين عدد من العلاقات بين كلمات البيت ومركباته الوزنية "التفعيلات" فهو يستطيع مطابقتها أو مخالفتها في أماكن مختارة من البيت، ومع أن هذا ممكن أيضا في البحور البسيطة، فإن الامكانية تتضاعف في البحور المركبة^(١٢). وقد تم تجاهل هذه القصائد من الاحصائيات الدقيقة المنضبطة التي حفل بها كتاب "دير الملاك" للدكتور محسن اطيمش الذي صدر عام ١٩٨٢ ثم كتابه "تحولات الشجرة" الذي أنجز وسط تسعينيات القرن الماضي^(١٣). إذ أشار الدكتور اطيمش الى هذه البحور وجدواها عندما نقد ميل نازك الملائكة الى ذوقها الشخصي في بعض القضايا ومنها البحور الصافية وعدد التفعيلات، فقال: (الشاعرة عندما تقرر - مثلا - أن أبحرا كالطويل والبسيط والخفيف غير صالحة إطلاقا لكتابة الشعر الحر لأنها تتكون من تفعيلات متنوعة، فانها تتناسى أن بعضا من معاصريها الجدد قد أفاد من هذه البحور في قصيدته "الحرّة" ووجدتها سائغة ولائقة، بل جديرة بتقديم رؤاه وهواجسه وأفكاره، قبل أن تهتدي الناقدة الشاعرة الى قوانينها بسنوات. ولعل شاذل طاقة وبلند الحيدري ثم بدر شاكر السياب كانوا من أوائل الشعراء الذين تنبهوا الى إمكانية الاستفادة من تلك الأبحر وحاولوا الكتابة فيها....)^(١٤). ثم امتدح هذا التوجه بقوله: (حقا أن توجه الشاعر الى مثل تلك الأبحر، إنما هو إغناء لموسيقى الشعر الحر، ومحاولة للإفادة من طاقات العروض العربي...) فاقترح^(١٥) أن كتابة مقطع يجري على بحر الطويل في قصيدة حرة سيكون أقرب الى القبول لو كانت القصيدة تجري على المتقارب مثلا،

(٩) ينظر: م. ن. : ٦٨ - ٦٩

(١٠) الإيقاع في الشعر العربي الحديث في العراق، ثائر عبد المجيد ناجي العذاري، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ٧٨.

(١١) المصدر نفسه: ٧٥

(١٢) المصدر نفسه: ٧٥

(١٣) توفي الدكتور محسن اطيمش رحمه الله عام ١٩٩٥ - وصدر كتابه (تحولات الشجرة) عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٦

(١٤) تحولات الشجرة : ٨٣ - ٨٨ ، ووجد سيد البحراوي في دراسته للنظام المقطعي في شعر السياب، أن الاوزان المركبة اقتضت على نسبة ٣٠٪ تقريبا. وهذا ينفي عن الشعر الحر الاتهام الذي وجهته اليه نازك الملائكة حين قالت انه لم يتعامل مع الأوزان المركبة ولا ينبغي له، لأنها لا تصلح له. ينظر: الإيقاع في شعر السياب، د. سيد البحراوي، دار نواراة للترجمة والنشر، القاهرة، د. ط، ١٩٩٦، ص: ١٤٣.

(١٥) تحولات الشجرة : ٨٧

وكتابة مقطع من البسيط لن يبدو نايبا جدا لو كانت القصيدة عموما تجري على الرجز أو السريع^(١٦). ومع عناية بعض الشعراء بكتابة قصائد على أبحر غير صافية فإن هذه الظاهرة عموما ليست بالشائعة في النتاج الشعري الجديد، وهي وإن ولدت في حقبة من عمر الشعر الحديث فإنها الآن في طور الانحسار^(١٧). وقد أظهرت نتائج الاحصاءات التي قام بها الدكتور محسن اطيمش (أن الأهمية الكبيرة التي حظي بها بحر الطويل والبسيط في الماضي، لم تعد لتعني الشاعر الحديث كثيرا، لأنه أخذ يلجأ في الغالب إلى الرجز والرمز، وهذا يعني أن ذاكرة الشاعر الحديث الموسيقية لن تفيده كثيرا من الطويل والبسيط والخفيف...)^(١٨).

على أن يوسف الصائغ استبعد أن يكون الشعراء قد استقر اختيارهم على البحور الصافية حتى نهاية عام ١٩٥٨ وظلت البحور ذوات التفعيلتين تغري الشعراء بالتجربة^(١٩). ولكن يوسف الصائغ لم يوضح لماذا كانت هذه البحور تغري الشعراء بالتجربة. أهى المشاكسة والتغيير العبثي؟ أم هو إحساس بالانتماء لتركة سمعية درجت عليها أسماع الشعراء وترت وتدرت فصعبت عليهم مغادرتها؟ أم هو التجاذب بين اللغة الحافلة بأنواع الجمل وبين ما تتمتع به البحور المركبة من تنوع وتجاذب وتناسب؟ فالقصيدة (التقليدية) لم تنته كشكل موسيقي، وما زالت بعض الأذواق العربية تفضلها على الشعر الحر، وجاءت أذواق أخرى من داخل الشعر نفسه أو من الأصوات الأحدث لترفض هي الأخرى شكل الشعر الحر، ولتبحث عن شكل آخر لم يتبلور بعد بوضوح^(٢٠). ولكن هناك مهيمنات تغلبت على الخطاب النقدي العروضي وقادته إلى حيث لا يريد فأوقعته في التشابه والنتائج المستحصلة مسبقا. مثل فكرة، القلب الوزني، أو الأدرج، كما اتفق يوسف الصائغ مع الدكتور عز الدين اسماعيل بأن (البحر العروضي كان بالنسبة للشاعر القديم شيئا ناجزا. انه بمثابة الأدرج التي يطلب منه أن يملأها، أما تصميم هذه الأدرج ذاتها فلا دخل له فيه. إن على الشاعر أن يطوع الكلمات لنسق سابق لم يصنعه، ولم يشارك في صنعه)^(٢١). وقد جاءت التجارب فيما بعد بما لا يتفق مع رأي الدكتور عز الدين اسماعيل بعد مرور ما يقرب من ثلاثة عقود. فقد نشأت قصيدة الشعر فاستثمرت "الأدرج" وحولتها إلى فن شعري يتمتع بخصائص جمالية مغايرة لما سبق... مما يجعل المتبصر يعرف أن الخلل ليس في "الأدرج" بل في من يستخدمها، وأن البحور أو "البحر العروضي" لا يصيبه التقادم أو يقلل منه، وهو مجال إبداع المبدعين، فالشاعران حسب الشيخ جعفر وخالد علي مصطفى قد عمدا إلى نمط صعب في الكتابة وطوعاه إلى الكتابة العربية وذلك بكتابتهما السوناتة^(٢٢) الشعرية، وقد تم التنظير لهذه

(١٦) م. ن: ٩٤

(١٧) ينظر: م. ن: ٩٤

(١٨) م. ن: ٩٤

(١٩) ينظر: الشعر الحر في العراق، يوسف الصائغ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦، ص ١٨٥

(٢٠) الإيقاع في شعر السياب، د. سيد البحراوي، ص ١٤٣

(٢١) الشعر الحر في العراق، يوسف الصائغ: ١٨٢ وينظر: الشعر العربي المعاصر قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين

اسماعيل: ص ٥٤

(٢٢) Sonnet: السوناتة قصيدة شعرية مؤلفة من ١٤ بيتاً، لها وزن وترتيب قافية ثابتان. والاسم مشتق من الإيطالية، ويعني أغنية صغيرة. وتألّف السوناتة الإيطالية من مقطعين: الأول افتتاحي ويدعى أوكتاف، (أول ثمانية أبيات)، ويعرض فيه الشاعر موضوعه أو تجربته، والثاني ختامي ويدعى سستيت، (آخر ستة أبيات)، وفيها تجاوب مع الافتتاحية: أو تعقيب على موضوعها. ترتيب قوافي الأبيات الافتتاحية أب ب أ ب أ ب أ، أي أن الأبيات الأولى والرابع والخامس والثامن لها قافية، والثاني والثالث، والسادس والسابع، لها قافية أخرى. وغالبا يكون ترتيب قوافي الأبيات الختامية على نحو ج د هـ ج د هـ، أماخلال عصر النهضة الإيطالية، أي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، فقد كتب الشعراء مجموعة قصائد غزلية مترابطة موضوعياً أطلق عليها اسم السوناتة المتتالية. فكتب دانتي سوناتات لبياترس. وكذلك بترارك لحبيبته لورا. وكتب شاعر البلاط الفرنسي بيير دو رونسار مجموعة تسمى سوناتا

القضية والتطبيق عليها من قبل "حركة قصيدة شعر" التي ولدت في منتصف التسعينيات من القرن العشرين في العراق، وحققت نتائج طيبة نظرياً وأجازاً وتطبيقاً. ولا يقلل ذلك من أسبقية نصوص عبد الأمير الحصري الشاعر العراقي الذي نهض بالقصيدة "العمودية" نهضة جمالية.^(٢٣) وتشير الدراسات الحديثة إلى أنه يمكن أن يكون في القصيدة الواحدة إيقاعات شتى قد تتقارب وقد تتقابل وقد توجد السمات مجتمعتين.... كل وحدة في القصيدة مثل الفصل أو المشهد أو الجملة الإيقاعية الدلالية تنطق عن سمة إيقاعية قد تكون مغايرة للسابقة لها واللاحقة بها^(٢٤) خاصة وإن اللغة العربية لغة الأذن والسمع والايحاء والتراكيب التي لا تنتهي والاستعارات المتاحة إلى ما لا نهاية (فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء، وهذه الخاصة في اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة إلى تركيب مفرداتها على حدة، إلى تركيب قواعدها وعباراتها، إلى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيدة)^(٢٥). والمتابع لتاريخ الأوزان في الشعر العربي يستطيع أن يلاحظ أن استخدام مجزوءات الأوزان قد ارتبط بأغراض حياتية مثل الرقص والغناء، ولذلك نجدها تزداد في العصور الأموية والعباسية، كذلك نجدها استخدمت بكثرة في الأشكال الشعرية الخارجة على المفهوم العروضي للقصيدة مثل المسمطات والموشحات والزجل، بالإضافة إلى الأشكال المقطوعة الحديثة، ومن هنا نجد أن نسبتها في العصر الجاهلي كانت ١٠٪ ثم زادت في القرن الأول إلى ١٧٪..... لتصل إلى ٣١٪ عند شعراء أبوللو. ومن الطبيعي أن تكون هذه النسبة أعلى كثيراً في الشعر الحر حيث يعتمد أساسه على السطر وليس على البيت، ويكون السطر فيه أقرب إلى الشطر في تواصله أو في عدد تفعيلاته^(٢٦). زيادة على ذلك فإن الشعر العربي ينقاد إلى الموسيقى يسر بفعل غنى الإيقاع الموسيقي فيه وتنوعه، في محوره الصافية، وغير الصافية على الأخص، وجاهزيته هذه ليست إلا موسيقى أيسر ما

لبيلى (١٥٧٨م). تعلم الشعراء الإنجليز هذا النوع من الشعر أثناء رحلاتهم في أوروبا. ونشرت سوناتات للشاعرين السير توماس ويات، وهنري هوارد إيرل سري في كتاب بعنوان مقتطفات توتل (١٥٥٧م). وابتدع الشاعر إدموند سبنسر في مجموعته الشعرية قصائد حب بتركية قواف خاصة به. أما الشكل الذي اعتمده شكسبير في سوناتاته فقد أطلق عليه اسم السوناتة الإنجليزية، وهي تتألف من ثلاثة أجزاء رباعية الأبيات، يتبعها بيتان يطلق عليهما اسم الكوبليت (الدوبيت). وتترتب قافية السوناتة الإنجليزية على نحو أ ب ج د ج د هـ و هـ ز ز. وبعد نشر سوناتات شكسبير عام ١٦٠٩م أصبح هذا النمط الشعري مهماً. ينظر: المكتبة الشاملة، الموسوعة العربية العالمية، قرص ليزري وينظر: Adventures in English Literature, Classic Edition, Harcourt Brace Jovanovich, printed in USA, 1963, P: 89 وفي ما يخص الشعراء، حسب الشيخ جعفر وخالد علي مصطفى، ينظر ديوانيهما على التوالي (كران البور) و (غزل في الجحيم)

(٢٣) ينظر: حركة قصيدة الشعر، بسام صالح مهدي، دار التكوين، دمشق - سورية، ط ١، ٢٠١٠، ص ١٠٧. وينظر: قصيدة الشعر، من الأداء بالشكل إلى أشكال الأداء الفني، د. رحمن غركان، دار الرائي، دمشق - سورية، ط ١، ٢٠١٠، ص ٤٧، ٦٩، ٨٨، وينظر: إشكالية الحداثة في الشعر العربي المعاصر، د. ستار عبد الله، دار رند، دمشق - سورية، ط ١، ٢٠١٠، ص ٩٧، وينظر: فائدة الشعر وفائدة النثر، ت. س. اليوت، ترجمة: د. يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠١٠، ص ٤٥.

(٢٤) الإيقاع في الشعر العربي الحديث، خليل حاوي أمودجا، خميس الورتاني، دار الحوار، سورية - اللاذقية، ط ١، ٢٠١٠، ص ٥٣/٢ و ٥٥.

(٢٥) اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٨. وهذا الرأي كان رحماً لولادة رأي باحث آخر حيث قال: (أن العربية من حيث هي لسان موقعة بطبعها على مستوى جدول الاستبدال. ومرجع ذلك أنها اشتقاقية أساساً. ومعنى هذا أن جزءاً من مفرداتها غير هين ينقسم إيقاعياً إلى مجموعة سمتها التماثل الصيغي. إذ نجد مجموعة اسم الفاعل ومجموعة اسم المفعول وما شابهه "اسم الزمان والمكان" ومجموعة الصفة المشبهة ومجموعة المصادر في المزيد وحتى في الثلاثي المجرد. وكذا الأمر بالنسبة إلى بنية الأفعال. وهذا ما يجعلها تمثل مآتي للإيقاع ثراً، بل إن المشتقات بمرتبة "الرحم الإيقاعي") ينظر: الإيقاع في الشعر العربي الحديث، خليل حاوي أمودجا: ١/ ١٢٢، وينظر: نظريات في اللغة الألسنية، أنيس فريجة، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨١، ص ٦٨ - ٧٢.

(٢٦) ينظر: العروض وإيقاع الشعر العربي، د. سيد البحراوي، ٦٣.

توصف فيه أنها جدية، أو بليغة ثلاثم بلاغته^(٢٧). ويجد من يبحث في هذا الشأن أن في المذخر النقدي العربي نظرة معتدلة للوزن، فأمام كل رأي مثبت ومغال في الوزن نجد رأياً مقابلاً له، وليس من العجيب أن نجد أن علي بن خلف (ت ٤٠٧هـ) قد شمل بالوزن الشعر والكلام، فقد عرف الوزن بأنه «التعديل بالحروف والحركة والسكون. والتعديل بالحروف من وجهين: أحدهما المساواة في غير زيادة ولا نقصان، والآخر المساواة في الخفة والثقل؛ فأما المساواة من طريق عدد الحروف والحركة والسكون فهو للشعر خاصة، لأن كل بيت من الكلم مساو لما قبله وبعده، إلا ما أجازوه للزحاف، وأما المساواة في الخفة والثقل على اللسان فهو في سائر الكلام»^(٢٨). وربما سيستقر الرأي بعد البحث على أن الوزن في حقيقته عند العرب لم يكن ذلك الفاصل الحاد والحد الفاصل بين الشعر والنثر، وأن هذا المفهوم المتداول منذ اكتشاف العروض هو وزن كمي متركب من وحدات قياسية، وأن الوزن الشعري عند العرب هو من النوع الذي صار يسمى فيما بعد بالوزن الكمي الذي يتركب من وحدات صوتية هي الأسباب والأوتاد وهي التي منها تشكل التفعيلة، وتتضمن هذه التفعيلات إلى أخرى على نحو معين هو في الأغلب الأعم متوازن متعادل بحيث ينتج منه البيت الشعري ذو الشطرين^(٢٩). حتى أن عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) لم يجعل للوزن علاقة بالفصاحة والبلاغة، فقال: «لو كان له مدخلا فيهما، لكان يجب في كل قصيدتين اتفقتا في الوزن أن تتفقا في الفصاحة والبلاغة»^(٣٠). وربما تقوي هذه الطروحات الزعم عندما يتحرك البحث باتجاه تقليل الحدود بين الشعر والنثر التي وضعت فيما بعد استقراء ومعياري ورزحت تحت تأثير الغناء والإيقاع الموسيقي والرياضيات، حتى صارت استعارة مصطلحات الإيقاع الموسيقي وإسباغها على الوزن الشعري مطردة جدا في طروحات المذخر النقدي العربي^(٣١).

(٢٧) الفضائل الموسيقية، فوزي كريم، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا - دمشق، ٢٠٠٢، ص: ١٧

(٢٨) مواد البيان، علي بن خلف الكاتب (ت ٤٠٧هـ)، تحقيق: حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس - الغرب، ١٩٨٢، ص ٢١٧

(٢٩) ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي، بحث في المشاكلة والاختلاف، د. احمد محمد ويس، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٢٥٥

(٣٠) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق: محمد رشيد رضا، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٣٦٤
(٣١) وقد نوه د. سيد البحراوي إلى الإفادة من الرياضيات ونظرية التباديل والتوافيق التي أفاد منها الخليل في إقامة أساس كتابه العين عليها، فنحن حين نتحدث عن الرياضيات هنا، فإنما نتحدث بالتحديد عن نظرية التباديل والتوافيق التي كانت معروفة في عصر الخليل جيدا، بدليل أنه أقام على أساس منها كتابه «العين»، وهي النظرية التي تقوم على حساب كل احتمالات التبدل في المكونات الأساسية للوحدة، فإذا كانت الحروف لا تعدو أن تكون حرفين: متحرك وساكن، فإما أن يتكرر كل منهما عددا لا متناهيا من المرات أو يجتمعان معا. ينظر: العروض وإيقاع الشعر العربي، سيد البحراوي، البنية المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٢٢، وقال في موضع آخر: «لقد سبق أن رأينا أن المتحرك والساكن قد نتجا عن التكوين الطبيعي للغة العربية، وأن الوحدات الصغرى «الأسباب والأوتاد والفواصل» قد نتجت عن تداخل التكوين اللغوي الطبيعي والتقاليد العروضية عند العرب القدماء والموسيقى والرياضة، أما في الأوزان والدوائر، فيبدو لنا أن الحكم الأساس كان لنظرية التباديل والتوافيق الرياضية، والدليل الواضح على ذلك، هو أن الدائرة هي الأصل الذي يقاس عليه دائما، فما يتوافق معه وإن كان بالتأويل والتعديل عبر الزحافات والعلل أو حتى بالتعسف أجز، وما لم يقبل التوافق رفض، كذلك فإن الدائرة - دائما - أكبر من الشعر، ومن ثم فقد يكون فيها أوزان لم تقل فيها العرب، ومن ثم فهي أوزان مهملة) سيد البحراوي، المصدر السابق: ٣٧ - ٣٨. وفي موضع آخر رأى سيد البحراوي، بالاستناد إلى حازم القرطاجني أن الأسباب في الشعر العربي أكثر شيوعا من الأوتاد، مما يشكك في اعتبار أن الوتد أصل بمعنى أصل الوضع. ومن ثم لا يبقى أمامنا إلا اعتبار أن مصطلح الأصل هنا هو أصل القاعدة أي أنه جزء من النظرية العروضية أو التجريد العروضي، البعيد عن أصل الوضع في اللغة. وهذا ما يذكرنا مرة أخرى بما سبق قوله عن تدخل عناصر معرفية أخرى غير النصوص الشعرية في وضع النظرية العروضية ومنها كما قلنا الموسيقى والرياضة. وإذا كنا قد أدركنا دور الرياضة في إقامة العلاقة بين الوحدات، فقد أشرنا إلى دور الموسيقى وخاصة «ضربات الصفارين» في تحديد الوحدات نفسها. سيد البحراوي، المصدر السابق: ص ٦٦

إلا أن ما يطرحة المنجز الابداعي الذي مثله النظم على البحور المركبة ، أن إمكانيات الابداع في استخدام هذه البحور لا ينتهي ، وأن هذه البحور تصلح للنظم لأنها تتوافق مع ما تثمر عنه اللغة من تراكيب جمّة. كما أن العبارة الشعرية تميل الى الانبساط والتخلص من قيود النظم بامتدادها على السلسلة الكلامية محملة بالمعنى والايحاء. أي أن هذه المحاولات لو كتب لها الاستمرار (وهي مستمرة) والانتباه الى ما تتمخض عنه من قصائد يذوب فيها الوزن والعبارة ويتصافران بعد أن يمنح الشاعر الحرية في اختيار تدفق خاص لكل عبارة وتخلصه من التطريب وتشابه العبارات وتواتر قيمها الوزنية ، وبذلك لا يعتمد الشاعر على التنغيم المسبق أو تمثل الوزن صوتاً واسقاطه على العبارة وارغامها على أن تخضع لشروط الوزن أو البحر. وما يكشف عنه الجدول التالي ، يعضد هذا الزعم.

جدول بالنصوص التي استعملت فيها البحور المركبة منذ عام ١٩٥٠ - ٢٠٠٨

ت	الشاعر	القصيدة	البحر	الديوان	الجزء والصفحة
١	بدر شاكر السياب ^(٣٢)	أفياء جيکور	البسيط	المعبد الغريق	١٨٦/١
٢		سفر أيوب / ٤	=	منزل الاقنان	٢٥٧/١
٣		أسمعه ييكي	السريع	=	٢٨٧/١
٤		الى جميلة بو حيرد	السريع	أنشودة المطر	٣٧٨/١
٥		العودة الى جيکور / ٣	البسيط	أنشودة المطر	٤٢٢/١
٦		ثعلب الموت	الخفيف	=	٤٤٧/١
٧		بور سعيد	البسيط	=	٤٩٥/١
٨		جيکور وأشجار المدينة	السريع	شنشيل ابنة الجلبي	٦٣٣/١
٩		ها ها هو	الطويل	=	٦٣٥/١
١٠		جيکور أمي	١١ سطر خفيف	=	٦٥٦/١
١١		يا غربة الروح	البسيط	=	٦٦٠/١
١٢		أسير القراصنة	السريع	=	٦٦٨/١
١٣		رسالة	البسيط	شنشيل	٧٠٧/١
١٤		رسالة من مقبرة	السريع	أنشودة المطر	٣٨٩/١
١٥	شاذل طاقة	انطلاق	الخفيف	المساء الاخير	١٠٣
١٦	بلند الحيدري	في الليل	البسيط	أغاني المدينة الميتة	٦٤

(٣٢) ديوان بدر شاكر السياب ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٩

(٣٣) تحتوي القصيدة على ٧ مقاطع ، الاول والثاني والرابع والخامس والسادس والسابع على البحر السريع ، والثالث على البحر البسيط .

(٣٤) تحتوي القصيدة على ٣٧ سطراً شعرياً ٢٢ رمل ، و ٤ رجز ، ١١ خفيف

١٧	عبد الرزاق عبد الواحد	مقدمة قصيدة	البسيط	أوراق على رصيف الذاكرة	
١٨	زاهر الجيزاني	بحر الطويل	الطويل	من أجل توضيح التباس القصد ^(٣٦)	٤٥
١٩		أحضرت مركبتني وأفراسي	البسيط	=	٣٧
٢٠	فوزي كريم	مقاطع	البسيط	الفضائل الموسيقية ^(٣٧)	١٤٣- ١٤٥
٢١	علي جعفر العلاق	وحشة	البسيط	لا شيء يحدث... لا أحد ينجي	١٩٧٣
٢٢		بداية للسفر	السريع	=	
٢٣		انطفاء	البسيط	=	
٢٤		جئنا مساء	البسيط	=	
٢٥		صدأ	البسيط	=	
٢٦		إيقاعان للوحشة	بسيط- رجز	وطن لطبور الماء	١٩٧٥
٢٧		الظبية القادمة	البسيط	شجر العائلة	١٩٧٩
٢٨		نار الرعاة	الخفيف	ممالك ضائعة	١٩٩٩
٢٩		النهر	البسيط	=	
٣٠		ابتهاال	الخفيف	=	
٣١		بكائية	الخفيف	=	
٣٢		سيدة الماء	السريع	=	
٣٣		الغني	السريع	=	
٣٤		طللية	البسيط	=	
٣٥		قفا نبك	الخفيف	=	
٣٦		وحشة	الخفيف	=	
٣٧		أنثى البنايع	البسيط	=	
٣٨		ديك الجن	السريع	=	
٣٩		كم كان عذبا شجر الساحل	السريع	سيد الوحشتين	٢٠٠٦
٤٠		حبر الوحشة	البسيط	=	
٤١		لي بلاد أحبها	الخفيف	=	
٤٢		ما أو حش الكون	البسيط	=	
٤٣		طائر يقبل من مذبحة	الخفيف- الرمل	=	

(٣٥) ديوان بلند الحيدري، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤

(٣٦) من أجل توضيح التباس القصد، زاهر الجيزاني، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨١

(٣٧) الفضائل الموسيقية، فوزي كريم، ص ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥

٤٤		أرض من الأضداد	السريع	=		
٤٥		كذب لا ملاذ له	البسيط	هكذا قلت للريح		٢٠٠٨
٤٦		سنة جديدة	البسيط	=		
٤٧		غليان	البسيط	=		
٤٨		لمن يلوح هذا الركب	البسيط	=		
٤٩	سعدى يوسف	القصيد تآني	البسيط	من يعرف الوردة	٣٣٨/٢	٢٠٠٣ ^{٣٨}
٥٠		تداخل	البسيط			

المصادر والمراجع

- إشكالية الحداثة في الشعر العربي المعاصر، د. ستار عبد الله، دار رند، دمشق سورية، ط ١، ٢٠١٠
- الاعمال الكاملة، سعدى يوسف، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق سورية، ط ٥، ٢٠٠٣
- الإيقاع في الشعر العربي الحديث في العراق، ثائر عبد المجيد ناجي العذاري، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية، ١٩٨٩
- الإيقاع في الشعر العربي الحديث، خليل حاوي أموذجا، خميس الورتاني، دار الحوار، اللاذقية سوريا، ط ١، ٢٠١٠
- الإيقاع في شعر السياب، د. سيد البحراوي، دار نوار للترجمة والنشر، القاهرة، د. ط ١، ١٩٩٦
- الإيقاع في شعر شاذل طاقة، شروق خليل اسماعيل ذو النون الامام، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢
- تحولات الشجرة، د. محسن أطيّمش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٦
- ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي، بحث في المشكلة والاختلاف، د. أحمد محمد ويس، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سورية، ط ١، ٢٠٠٢
- حركة قصيدة الشعر، بسام صالح مهدي، دار التكوين، دمشق سورية، ط ١، ٢٠١٠
- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمد رشيد رضا، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط ١، ١٩٦٦
- ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت لبنان، ١٩٨٩
- ديوان بلند الحيدري، دار العودة، بيروت لبنان، ١٩٧٤
- سيد الوحشتين، علي جعفر العلاق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٦
- شجر العائلة، علي جعفر العلاق، وزارة الاعلام، بغداد، ط ١، ١٩٧٤
- الشعر الحر في العراق، يوسف الصائغ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سورية، ط ١، ٢٠٠٦
- الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين اسماعيل، دار العودة، بيروت

لبنان، ط ١، ١٩٨١

- غزل في الجحيم، خالد علي مصطفى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٦
- فائدة الشعر وفائدة النثر، ت، س، اليوت، ترجمة: د. يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠١٠

- الفضائل الموسيقية، فوزي كريم، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق سوريا، ط ١، ٢٠٠٢
- فن التقطيع الشعري والقافية، د. صفاء خلوصي، منشورات مكتبة المثني، بغداد، ط ٤، ١٩٧٤
- في حداثة النص الشعري، علي جعفر العلاق، دار الشروق، عمان الأردن، ط ١، ٢٠٠٣
- قصيدة الشعر، من الأداء بالشكل الى أشكال الأداء الفني، د. رحمن غركان، دار الرائي، دمشق سورية، ط ١، ٢٠١٠

- كران البور، حسب الشيخ جعفر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٣
- لا شئ يحدث... لا أحد يجي، وزارة الاعلام، بغداد، ط ١، ١٩٧٣
- اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥
- ممالك ضائعة، علي جعفر العلاق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط ٢، ٢٠٠٤

- من أجل توضيح التباس القصد، زاهر الجيزاني، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ط ١، ١٩٨١
- مواد البيان، علي بن خلف الكاتب (ت ١٤٠٧ هـ)، تحقيق: حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس ليبيا، ط ١، ١٩٨٢
- الموجة الصاخبة، شعر الستينيات في العراق، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٤

- نظريات في اللغة الألسنية، أنيس فريجة، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط ٢، ١٩٨١
- هكذا قلت للريح، علي جعفر العلاق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٨

- وطن لطيفور الماء، علي جعفر العلاق، وزارة الاعلام، بغداد، ط ١، ١٩٧٥
- وعي التجديد والريادة الشعرية في العراق، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الصغيرة ٣٨٧، بغداد، ط ١، ١٩٩٣

- A dventuresn English Literature, Classic Edition, Harcourt Brace Jovanovich, printed in USA, 1963,

أهل البيت عليهم السلام في الصحيفة السجادية

قراءة تأويلية

آ.د. حاكم حبيب الكريطي^(١)

المقدمة

لا نريد هنا - ابتداءً - أن نركّز على حدود دلالة مصطلح (أهل البيت) عليهم السلام، فهذا أمر تكفلت به مصادر المسلمين منذ بداية المعارف الإسلامية^(٢)، ولكننا نبتغي استكشاف صفات أهل البيت عليهم السلام من أدعية الإمام علي بن الحسين عليه السلام ومناجاته في الصحيفة السجادية، على الرغم من أن توصيفه - في الغالب يأتي في سياقات لا يراد منها ذلك فقط، وإنما يأتي لبيان السبل التي يسلكها الإمام في دعائه، بغية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وليكون ذلك نهجاً سجادياً لسالك هذه السبل من المسلمين، من خلال الملازمة مع النص والانفعال به، بفعل الفاعلية الثرة له.

إن نصوص الصحيفة السجادية تفتح على دلالات لا تنتهي، لما فيها من سمات أسلوبية، تتعدد بتعدد الناظرين فيها، وتختلف عن بعضها باختلاف رؤية كل ناظر، وثقافته، ومعرفته، وتوجهه، وإلى الآن ما زال نص الصحيفة السجادية غرضاً طرياً مثيراً، يفتح أمام العقل الذي يفتح عليه، بما يمتلكه العقل (أو صاحب العقل) من مؤهلات لغوية أولاً، ومن ثم مساند فكرية وعلمية ثانياً، فلغة الصحيفة السجادية على وفق هذه الرؤية تمثل فكر الإمام عليه السلام في الدعاء والمناجاة، بوصفهما ضربين من ضرور العبادة، يقتربان بالعبد إلى رحمة الله تعالى، وفي الوقت نفسه، تمثل (أي اللغة) أداة نقل الفكر إلى المتضرعين، فهي الأداة والمحتوى في الوقت نفسه.

واستناداً إلى هذه المقدمة، سنقف عند مفردات اللغة وتراكيبها، ونحن نقرأ النص السجادي قراءة تأويلية، أغرانا بها اكتناز هذا النص بدلالات ثرة تحتبئ خلفه، ولا تقدم نفسها إلا للناظر ذي الأناة والتدبر، الذي قد يتاح له تأويله على وفق المعطيات اللغوية التي سمت بالنص هذا السمو الروحي والوجداني والمعرفي، وإن شئت الفلسفي.

١ - كلية الآداب، جامعة الكوفة

٢ - ينظر تفاصيل ذلك في: العصمة - بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني ١٥٥ وما بعدها، إذ استقصى السيد كمال الحيدري ما يربط بهذه القضية لذا أثرنا عدم الحديث عنها.

إنَّ منهجنا في التدبّر التأويلي في نص الصحيفة السجادية سيكشف لنا عن العلاقات المدهشة بين الألفاظ، التي تشبّك مع بعضها اشتباكا دلاليا يفضي إلى معارف إلهية، تتحول بالنص من دعاء منطوق باللسان، إلى تمثّل للوجود والكون، بما يقدمه الإمام عليه السلام من معارف لدنية، حباه الله تعالى - وقبل ذلك آباءه - بها^(٣).

سنعمد في بحثنا التأويلي هذا إلى التوجه نحو المعجم العربي للإفادة مما يعطيه من دلالات للألفاظ، تلك الألفاظ التي تتحرك في حقول متقاربة، ثم تدقيق النظر في علاقة هذه الألفاظ مع بعضها وما ينتج عن ذلك كله من معان ستكون - كما نأمل - تشكيلا عقليا، يمكن أن يكون دليلا لقراءات أخرى، تلتفع بالحسن، وتزهو برقي بياني، نتحسس فيه لمسات من نهج البلاغة تفصح عن نفسها.

ويمكننا أن نضع الجمال الذي تتدثر به نصوص الصحيفة السجادية تحت ركنين:

الأول: جمال حسي في ألفاظ النصوص وصياغاتها، ومعرفي في دلالاتها، ندركه أولا بحواسنا ومشاعرنا، فيتغلغل من خلالها إلى نفوسنا، فيدفع بنا برفق شقيق إلى الميدان الجمالي للمعرفة وقيمتها.

الثاني: جمال عقلي، وهذا الجمال يكشفه لنا استبطان النصوص وقراءة ما ورائها من دلالات، تنتجها (الحركية) التي تتصف بها، والتي تجعلها خالدة على مر العصور، وهذا الركن هو ما يعنينا في بحثنا هذا.

ويلوح لنا هنا أمر، نحسبه محمدا معرفيا، لا يمكن أن نصرف أنظارنا عنه، وهو أن هذا النمط من القراءات التأويلية، ينطوي على مخاطر قد تقود إلى الانزلاق والزلل عن جادة المعرفة السوية، من خلال الابتعاد عن معطيات النص، وهذا أمر سنتحاشاه - إن شاء الله تعالى - من خلال التمسك بالمعاني التي تقدمها المعجمات بعد استشارتها، وبحسب ما يقدمه السياق من معونة في هذا الاتجاه، كما أشرنا إلى ذلك.

والآن سنبدأ بقراءة بعض النصوص التي ذكر فيها الإمام علي بن الحسين أهل البيت عليه السلام، وعلى النحو الآتي:

يقول الإمام عليه السلام داعيا لأهل البيت عليه السلام، وذاكرا بعض صفاتهم: ((رَبِّ صَلِّ عَلَى أَطْلَابِ أَهْلِ بَيْتِهِ الَّذِينَ اخْتَرْتَهُمْ لِأَمْرِكَ، وَجَعَلْتَهُمْ خَزَائِنَ عِلْمِكَ، وَحَفَظْتَ دِينَكَ، وَخَلَفَاءَكَ فِي أَرْضِكَ، وَحُجَجَكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَظَهَرْتَهُمْ مِنَ الرَّجْسِ وَالذَّنْسِ ظَهْرًا بَارَادَتِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ وَالْمَسْلُوكَ إِلَى جَنَّتِكَ))^(٤).

بدأ الإمام عليه السلام دعاءه بمناادة الله - عز وجل - بقوله (رب) لما في هذه اللفظة من تأكيد عبودية العبد لربه، فالرب في اللغة: المالك والسيد والمدير والقيم والمنعم^(٥)، وهذه الصفات تتماهى مع سياق الدعاء، لأن ما يأتي هو ذكر لبعض نعم الله الكبرى على أهل البيت عليه السلام، فتكون لفظة (رب) مشعرة بالنعم المشار إليها كلها، ومن جملة هذه النعم، الصلاة على أطائب أهل البيت عليه السلام، والصلاة رحمته وحسن ثنائه.

وعلى الرغم من معرفة المسلمين بدلالة (أهل البيت) عليه السلام في هذا الدعاء، فإن الإمام عليه السلام أراد أن يبعد من يريد أن يضع نفسه مع النبي وأهل بيته بداعي القرى في النسب^(٦)، فكان قوله توكيدا لما قر في نفوس المسلمين من معرفة أهل البيت، وهم الأطائب، فما دلالة هذه اللفظة؟

الطيب في اللغة يكتنى به عن الشرف والصلاح وطيب الأعراق^(٧)، وهذه بعض من صفات أهل البيت عليه السلام بإجماع المسلمين؛ إذ إن شرفهم وصلاحهم وطيب أعراقهم موصول إليهم من أبيهم إبراهيم عليه السلام^(٨).

٣- ينظر عن علم الإمام (عليه السلام): أصول الكافي ١ / ٢٠٣، وبحار الأنوار ٢ / ٤٠.

٤- الصحيفة السجادية ١٩٠.

٥- ينظر: لسان العرب: رب.

٦- ينظر: شواهد التنزيل ٢ / ٦٤.

٧- ينظر: لسان العرب: طيب.

٨- ينظر: المنق من أخبار قريش ١ - ٤.

والطيب في اللغة - أيضاً - الطاهر، بيد أن استعمالها بهذه الدلالة غالباً ما يكون مقترناً بمن كانت طهارته من الله تعالى، كما في قول الإمام علي عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله وهو يغسله ويجهزه: ((بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتاً))^(٩)، أي طهرت، ومن هنا، فالراجح أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام استعملها بهذه الدلالة، لأن السياق يعارض هذا المعنى ويسانده، ولأن بني هاشم تشعبوا في العصر الأموي كثيراً، والكل يريد شيئاً من شرف أهل البيت عليه السلام، فأثر الإمام عليه السلام أن يقيد دلالة المصطلح بهذا الوصف، - وبما سيأتي بعد قليل - ليبعد من يريد أن يضع نفسه مع أهل البيت وليس منهم.

ثم يأتي التوجيه الآخر لدلالة أهل البيت عليه السلام بقوله عليه السلام: ((الذين اخترتهم لدينك))، فالأطائب من أهل البيت إذن اختارهم الله تعالى للقيام بشؤون دينه، ومن يختاره الله تعالى يعصمه من الزل، حتى يقوي على النهوض بمهمة دين الله دونما هفوة، ولا ينعطف في سيره عن حدود ما رسم الله لعباده. ومن هنا فإن اختيار الله تعالى للأطائب من أهل البيت عليه السلام (الأئمة) هو منحة منه لهم، شرفهم بها.

ثم يضيف الإمام عليه السلام صفتين أخريين لأهل البيت في بقية قوله: ((وجعلتهم خزنة علمك، وحفظة دينك))، فعلم الله تعالى الذي وصل إلى عباده جاء من طريق القرآن الكريم، ومن طريق النبي صلى الله عليه وآله.

فالظاهر الأول لعلم الله تعالى هو القرآن، بوصفه كتاباً يضم بين دفتيه مظاهر الوجود كلها، لأنه جاء تبلياً لكل شيء في الوجود ((وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ))^(١٠)، ولكننا نأخذ منه على قدر معارفنا،

أما معانيه الحقة فهي التي ذكرها الله تعالى: ((هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ))^(١١)، فتأويل معاني القرآن مقصور على الله تعالى وعلى الراسخين في العلم، إذا أخذنا برأي من يقول - وهو الراجح عندنا - أن (الراسخون في العلم) معطوف على اسم الجلالة، وتكون (يقولون) حالاً^(١٢).

والراسخ في العلم بحسب المعجم هو الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً^(١٣)، وهو النبي صلى الله عليه وآله، لأن دخوله في العلم دخول ثابت باختياره من لدن الله تعالى ليكون نبياً، والراسخ في العلم - أيضاً - من علمه النبي صلى الله عليه وآله وأدخله في علمه دخولاً ثابتاً أيضاً، وهم بذلك حقاً خزنة علم الله.

وهنا يمكن أن ندرك حقيقة ما قاله السيوطي في الإتيان عن الإمام علي عليه السلام: ((إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وأن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن))^(١٤)، وهذا هو الرسوخ في العلم الذي كان عليه الإمام عليه السلام والأئمة من بعده.

وثمة نص للإمام علي عليه السلام ورد في نهج البلاغة، يقول فيه: ((... أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذبا وبغيا علينا))^(١٥)، وهذا يؤكد - حقاً - أنهم عليه السلام خزنة علم الله بحسب قول الإمام علي

٩- نهج البلاغة.

١٠- النحل: ٨٩.

١١- آل عمران: ٧.

١٢- أما الرأي الثاني فهو أن (الراسخون في العلم) الواو للاستئناف و(الراسخون في العلم) مبتدأ خبره (يقولون). ينظر:

الإتيان ١ / ٧ - ٨.

١٣- ينظر: لسان العرب: رسخ.

١٤- الإتيان ٤ / ٤٩٣.

١٥- نهج البلاغة ٢ / ٧٢.

بن الحسين (عليه السلام)، لأن الإمام علي (عليه السلام) يستفهم استفهاماً إنكارياً عمن يدعي أنه راسخ في العلم دونهم، لأن في هذه الدعوى ظلم وتجن وكذب وبغي.

وثمة إشارة أخرى وصلت إلينا عن الإمام علي (عليه السلام) تمتن ما نحن بصددده، إذ يقول: ((... والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله ﷺ ألا وإني مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه))^(١٦)، وهذا ضرب من العلم أفضاه الإمام علي (عليه السلام) إلى الخاصة من أصحابه، ممن يعول عليهم في استيعابه وحفظه وعدم البوح به، فما بالك بأبنائه الذين ورثوا العلم، وصاروا خزنة له.

بقي أن نشير هنا إلى أن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) أراد أن يقطع السبيل أمام من يسعى إلى تنمية بغض أهل البيت (عليه السلام) في العصر الأموي، من خالقي الفتن ومن الراكضين وراء السلاطين، إذ من غير المعقول أن يفكر مسلم مستقيم ببغض من كان وما زال خازنا لعلم الله تعالى.

إن من تكون هذه صفاته سيكون - حتماً - متمكناً من حفظ دين الله تعالى، عقيدة يؤمن بها، وسلوكاً يجسدها، كي يعطي لمن يتأسى به القدوة الحسنة في التمسك بما يريد الله عز وجل، كي تستقيم الحياة، ويكون الدين محفوظاً، فهو لاء - إذن - حفظة الدين.

أما قوله (عليه السلام): ((وخلفاءك في أرضك، وحججك على عبادك))، فالخليفة في اللغة: ((من يقوم مقام الذهاب ويسد مسده، والباء فيه للمبالغة))^(١٧)، والمعنى أن الأئمة من أهل البيت خلفاء الله تعالى بعد النبي ﷺ في أرضه، لأنه - أي النبي - استخلفهم بعده، والخليفة الذي يستخلف ممن قبله.

وقد جاء عن بعضهم: ((جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه بقوله عز وجل: "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ" (١٨))^(١٩).

ودلالة كلام الإمام (عليه السلام) تعني أن خلافة أهل البيت (عليه السلام) للنبي ﷺ لم تتأثر بالخلافة الأخرى، لأنها قائمة في الصدور، ويصدر الناس عنها في تدبير شؤون حياتهم.

وقد جاء عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): أن النبي والإمام علي وذريته من الأئمة (عليه السلام)، ((حجتهم واحدة وطاعتهم واحدة))^(٢٠)، فخلافتهم - إذن - قائمة، لأنهم أهل الدين وحماته.

وفي قول آخر له (عليه السلام) يؤكد المعنى نفسه وزيادة: ((نحن في الأمر والفهم والحلال والحرام نجري مجرى واحداً، فأما رسول الله ﷺ وعليهما فضلها))^(٢١)، وهذان القولان يجسدان لنا الخلافة الحقبة التي يريدها الإمام علي بن الحسين في دعائه، ويؤيد هذا أن ثمة قولاً للخليفة أبي بكر يكشف لنا صحة هذا التصور، فقد روي ((أن أعرابياً سأل أبا بكر، فقال له: أنت خليفة رسول الله ﷺ، فقال: لا، قال: فما أنت؟ قال: أنا الخالفة بعده))^(٢٢)، معنى الخالفة، تقول: أنا خالفة أو خالفته أي جئت بعده^(٢٣)، وجمع خالفة خوالف، والخلفاء جمع خليفة، وهذا ما جاء في نص دعاء الإمام (عليه السلام)، ومن هنا نتبين صحة توجيهنا لمراد الإمام في دعائه.

١٦- نهج البلاغة ٢ / ٨٩.

١٧- لسان العرب: خلف.

١٨- سورة ص: ٢٦.

١٩- لسان العرب: خلف.

٢٠- الكافي ١ / ٢٧٥.

٢١- نفسه.

٢٢- الفائق في غريب الحديث والأثر ١ / ٣٣٩.

٢٣- تاريخ مدينة دمشق ١٩ / ٤٧٩، والنهاية في غريب الحديث ٢ / ٦٩، ولسان العرب: خلف، وتاج العروس: خلف.

ثم يأتي قول الإمام عليه السلام: ((وَطَهَّرْتُمْ مِنَ الرِّجْسِ وَالْدَّنَسِ طَهَاراً بِإِرَادَتِكِ))، فالإمام علي بن الحسين عليه السلام أشار هنا إلى أن إرادة الله عز وجل في طهارة أهل البيت عليه السلام استناداً إلى ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ((إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً))^(٢٤)، وهذا ما أجمع عليه أغلب المسلمين، وقالوا: إن المراد بأهل البيت هنا (محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين) عليه السلام^(٢٥)، ونكتفي لبيان ذلك بما قاله الألوسي في تفسيره روح المعاني: ((وأخبار إدخاله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وابنيهما رضي الله تعالى عنهم تحت الكساء، وقوله عليه الصلاة والسلام اللهم هؤلاء أهل بيتي ودعائهم لهم وعدم إدخال أم سلمة أكثر من أن تحصى، وهي مخصصة لعموم أهل البيت بأي معنى كان البيت فالمراد بهم من شملهم الكساء ولا يدخل فيهم أزواجه صلى الله عليه وسلم))^(٢٦).

فقول الإمام هنا يصحح هذه الروايات، ويقويها، ويصحح الأحاديث الأخرى التي وردت في مصادر المسلمين، وتنحو هذا المنحى، وهي تزيد على مائة حديث^(٢٧).

بيد أن ما يستحق الوقوف عنده والتأمل فيه، وتدبر معانيه، استعمال الإمام عليه السلام لفظة الدنس، وقفي بها لفظة (الرجس) الواردة في الآية، وهنا نقول:

إن الدنس في اللغة تعني ((لطح الوسخ ونحوه حتى في الأخلاق، يقال: رجل دنس المروءة، ودنس الرجل عرضه إذا فعل ما يشينه))^(٢٨)، وهذه معان اجتماعية تتصل بمنظومة القيم الأخلاقية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي وأقرها الإسلام، فهل كان الإمام عليه السلام يريد هذا المعنى؟ ونجيب عن هذا السؤال، فنقول:

إن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أظهر في قوله هذا أن طهارة أهل البيت شرعية واجتماعية وأخلاقية، بعد أن رأى تبدل القيم والمقاييس الاجتماعية في العصر الأموي، بما جعل الناس يفكرون بروح قبلية أكثر مما كان عليه الأمر في العصر الجاهلي، ومن هنا فإن من يريد أن يحتكم إلى المعايير الاجتماعية في النظر إلى مقام أهل البيت عليه السلام فسيجد أن هذه المعايير تعطيهم كل ما يجعل لهم الصدارة الاجتماعية بين العرب والمسلمين، كما هي صدارتهم في المعايير الإسلامية.

وبين الإمام عليه السلام مزايا أخرى لأهل البيت عليه السلام في قوله داعياً: ((اللَّهُمَّ إِنَّكَ آيَدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عِلْماً لِعِبَادِكَ وَمَنَاراً فِي بِلَادِكَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَةَ بَحْبُوكَ، وَجَعَلْتَهُ الذَّرِيعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، وَأَفْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَذَرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بِإِتِّبَالِ أَوَامِرِهِ وَالْإِتِّهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَالْأَلَا يَتَقَدَّمُ مَتَقَدِّمٌ، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ، فَهُوَ عَصِمَةُ الْكَافِرِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعُرْوَةُ الْمُتَمَسِّكِينَ، وَبَهَاءُ الْعَالَمِينَ))^(٢٩).

يؤكد الإمام عليه السلام هنا أن الإمامة مفروضة من الله تعالى، وضعها لتأييد الدين وتمكينه، ولولاها لما تمكن الدين على النحو الذي نعرفه، منذ أن جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً في قوله تعالى: ((وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ))^(٣٠)، فالإمامة هنا مقام، وهو غير مقام الرسالة والنبوة، هو المقام الذي يؤيد الدين ويظهره ويمكّنه، وكانت الإمامة وستظل

٢٤- الأحزاب: ٣٣.

٢٥- ذهب غير الإمامية إلى شمول الآية الكريمة نساء النبي ينظر: العصمة ٢٣٤ وما بعدها.

٢٦- روح المعاني ٢٢ / ١٤.

٢٧- ينظر: شواهد التنزيل ٢ / ٦٤ وما بعدها.

٢٨- لسان العرب: دنس.

٢٩- الصحيفة السجادية ١٩١.

٣٠- البقرة: ١٢٤.

مستمرة في عقب إبراهيم (عليه السلام) وذريته من بعده، وقد وضّعها الله تعالى كي تؤيد الدين، وتقويه، إلى أن يرث الله الأرض، وقد كثرت الأحاديث النبوية التي تعضد قضية الإمامة كثرة لافتة^(٣١).

فإن الله تعالى جعل دينه مؤيدا بالأئمة في كل حين؛ إذ إن وجودهم متصل لا ينقطع أبدا، يؤيد هذه القراءة ما أورده الشيخ الصدوق عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) بقوله: ((... فينا نزلت هذه، وجعلها كلمة باقية في عقبه، والإمامة في عقب الحسين بن علي (عليه السلام) إلى يوم القيامة))^(٣٢)، وقول الإمام هذا يصحح هذه الرواية ويقويهها، ويجعل الإمامة أصلا من أصول العقيدة الإسلامية.

ثم يأتي قول الإمام (عليه السلام): ((أقمته علما لعبادك))، وعند استقراءنا هذا النص، وما تقدمه لفظة (علما) من دلالات استطعنا أن نخرج بالدلالات الآتية للفظ (علم) بما يقدمه المعجم والسياق علي السواء.

(العلم) في اللغة: شيء ينصب في الفلوات تهتدي به الضالة^(٣٣)، فالإمام إذن علم نصبه الله تعالى لعباده ليهتدي به الضالون عن طريق الحق، التائهون، الذين لا يعرفون أين يذهب بهم.

و (العلم): الجبل^(٣٤)، فيكون مراد الإمام (عليه السلام) أن الأئمة أوتاد للأرض كما الجبال أوتاد الأرض، قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ((أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا))^(٣٥).

وقد يكون المراد بالعلم: ((الراية التي يجتمع إليها الجند))^(٣٦)، واجتماع الجنود إلى الراية يبعث في نفوسهم الاطمئنان لقربهم ممن يجعلهم قادرين على الغلبة، ويوفر لهم دريئة تحفظ لهم حياتهم، وهذا هو شأن الإمام (عليه السلام) في حياة الناس.

والعلم أيضا: رسم الثوب، يقال: علمه، أي رقمه في أطرافه، جعل فيه علامة، وجعل له علما^(٣٧)، فالإمام على وفق هذا التوصيف هو القادر على رسم الدين على وفق حاجة الإنسان، إذ يضع له ما يحتاج إليه من علامات، هو أقدر على تقدير حاجة الإنسان إليها.

أما قول الإمام (عليه السلام): ((ومنارا في بلادك))، فالمنار: العلم، ما يوضع بين شيئين من الحدود^(٣٨)، فالإمام (عليه السلام) منار وعلم وضعه الله تعالى بين حلاله وحرامه، ليتبين الناس بوساطته ما يسر لهم أمر حياتهم، من دون أن يلتبس عليهم حرام بحلال، وهذا يخص أهل الأرض كلهم، لأن قوله (عليه السلام) في بلادك) يعني ذلك، فالإمامة - إذن - لا تخضع لتأريخ محدد، وقد سجلت عن الإمام (عليه السلام) قبل أن يتحقق مضمونها، وتكتمل فكرة الأئمة الاثني عشر فعلا، وهذا دليل ناهض على دقة المرويات الحديثية في هذا الشأن، وصحة ما جاء فيها من مضامين^(٣٩).

والمنار: علم الطريق، أي ما يوضع على الطرق من علامات لتهتدي بها الناس في سيرها، وهذا الوصف ينطبق على مهمة الإمام (عليه السلام) في حياة الناس، فهو العلامة التي تضمن للمسلمين السير على الطريق المستقيم.

٣١- ينظر: كمال الدين ٣١١، والإرشاد ٢ / ٣٤٧، ومعاني الأخبار ٩٠، وتنظر تفاصيل أكثر في: العصمة ٢٥٤ - ٢٧٤.

٣٢- كمال الدين ٣٢٣، وينظر: الإمامة والتبصرة ٢، وبحار الأنوار ٥١ / ١٣٤.

٣٣- ينظر: لسان العرب: علم.

٣٤- م. ن.

٣٥- النبأ ٦ - ٧.

٣٦- ينظر: لسان العرب: علم.

٣٧- م. ن.

٣٨- لسان العرب: نور.

٣٩- ينظر: كمال الدين ٣١١، والإرشاد ٣٤٧.

والمنازل: المنارة التي يؤذن عليها^(٤٠)، وإذا أردنا أن نعيد صياغة الفكرة، نقول: المنار: المكان الذي يدعى منه إلى الله تعالى، أليس الأذان دعوة إليه جل شأنه، فالإمام عليه السلام يكون في الموضع الذي يدعى إلى الله تعالى منه، والدعاء قد يكون من الإمام نفسه في هذا المكان، أو ممن يخوله من المكان نفسه.

ويُنْتَقَلُ الإمام علي بن الحسين عليه السلام إلى قضية أخرى من قضايا الإمامة، وهي ما بقي من قوله المتقدم: ((بعد أن وصلت جبله بجبلك، وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذرت معصيته)).

جعل الإمام عليه السلام جبل الإمام موصولاً بجبل الله تعالى، وهذا يعني انقياد الإمام إلى أوامر الله تعالى بمشيئة الله، أي بالعصمة التي عصمه بها من الزلل والانزلاق، وهذه السعادة الكبرى، يقول السيد الطباطبائي: ((ثم إن هذا المعنى أعني الإمامة، على شرافته وعظمته، لا يقوم إلا بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الذي ربما تلبس ذاته بالظلم والشقاء، فإنما سعادته بهداية من غيره، وقد قال الله تعالى: "أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى" ((٤١)) ((٤٢)).

واستناداً إلى هذه المرتبة التي وضع الله تعالى الإمام فيها، صار الإمام ذريعة إلى رضوان الله تعالى، والذريعة في اللغة الوسيلة، والذريعة: الجمل يختل به الصيد، يشي الصياد إلى جنبه فيستتر به^(٤٣)، فهل يمكن القول إن من يسير إلى جانب الإمام وفي ظله، يصل إلى مبتغاه (رضا الله تعالى) بأمان ويسر أكيدين؟ أحسب أن هذا ما أراد الإمام علي بن الحسين عليه السلام لأن في الإمام أمر^(٤٤) يصونه عن الوقوع فيما لا يجوز من الخطأ والمعصية^(٤٥)، ومن يهتدي بهداه، ويسير تحت ظله، سيعصمه هذا المسير من الوقوع في الخطأ أيضاً، وإذا كان الأمر كذلك، فقد افترض الله سبحانه وتعالى طاعة الإمام على عبادته، وهذا يرد في نهاية قول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: ((وَأَفْتَرَضْتُ طَاعَتَهُ، وَحَذَرْتُ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتُ بِامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ وَالْإِنْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَالْإِتِّدَامَةِ مُتَعَدِّدَةً، وَلَا يَنَآخِرُ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ))، فالله سبحانه وتعالى جعل الإمام عليه السلام سبيلاً إلى معرفته، ووسيلة لقبول أعمال العباد، لأن طاعة الإمام وعدم معصيته والامتثال لأوامره، ضمان للفوز بما عند الله تعالى، ولعل في مقولة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ما يبين هذا المعنى: ((... فمن عرف من أمة محمد صلى الله عليه وآله واجب حق إمامه، وجد حلاوة إيمانه، وعلم فضل حلاوة إسلامه، لأن الله تبارك وتعالى نصب الإمام علماً خلّقه، وجعله حجة على أهل مواده وعالمه))^(٤٥)، ولا يخفى التطابق شبه التام بين القولين، لأن الإمامين عليه السلام يصدران عن منبع واحد في قضية الإمامة.

إن الإمام بما حباه الله تعالى من صفات ومزايا - كما مر بنا - سيكون مانعاً وحافظاً لمن يلوذ به بتسديده إلى سواء السبيل، لأنه لا يأمر بمعصية، والعصمة تعني الجبل، فاللائذون بأهل البيت يسكون بحبلهم طلباً للهداية والنجاة، والإمام أيضاً يكون كهفاً للمؤمنين، والكهف ملجأ وهو كالبيت المنقور في الجبل، في قوته ومثانته وتحصينه وعصمته، والمؤمن إذا استوطن في مثل هذا البيت - بيت الأئمة - أمن على نفسه من التهلكة التي يوردهم إليها غيرهم.

ثم يلتقط الإمام علي بن الحسين عليه السلام وصفاً آخر للأئمة من أهل البيت فهم ((عروة المتمسكين))، فما دلالة لفظة (عروة) هنا؟

٤٠- لسان العرب: نور.

٤١- يونس: ٣٥.

٤٢- الميزان ١ / ٢٧٣.

٤٣- ينظر: لسان العرب: ذرع.

٤٤- الميزان ٢ / ١٣٤، وينظر: العصمة ١٣٣.

٤٥- أصول الكافي ١ / ٢٠٣.

العروة في اللغة^(٤٦) تعني مقبض الكوز والدلو، وهي ما يمسك به الإنسان بغية الإفادة مما في الكوز والدلو، فالذي يريد أن يتمسك بدينه عليه أن يحكم الإمساك بهذه العروة لينتفع بها، عليه أن يحسن ويحكم الإمساك بالأئمة (عليه السلام).

والعروة أيضا في اللغة: من دق الشجر ماله أصل باقٍ في الأرض، فإذا أحمل الناس عصمت العروة الماشية فبلغت بها.

والعروة أيضا: ما لا يسقط ورقه في الشتاء... الذي يعول الناس عليه إذا انقطع الكلال.

والعروة أيضا: الشجر الملتف الذي تشو فيه الإبل فتأكل منه.

إن القراءة التدبرية لمعاني لفظة (عروة) يكشف لنا عن أنها ضرب من النبات يحتاج إليه الناس في كل حين، لأنه ثابت في الأرض ولا يسقط ورقه وملتف مع بعضه بكثافة، فالناس محتاجون إليه في محلهم وربيعهم. وبإعادة صياغة المعنى الاجتماعي هذا نقول: إن هذا الشجر لا غنى للناس عنه في كل حين، بل لا تستقيم حياتهم إلا به، وهذا التشبيه مصداق للأئمة (عليه السلام)، فهم العروة التي يحتاج إليها الناس من أجل حفظ الحياة، لأنهم ثابتون ويعطون الناس ما يحتاجون إليه في كل حين، ولا يتأثرون بتعاقب الزمان، كما لا تتأثر (العروة) بتعاقب الزمان أيضا.

ويستكمل الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) صفات الإمام بقوله: ((بهاء العالمين))، والبهاء: المنظر الحسن الرائع المائي للعين، إذن تأتي هذه الصفة لتكلم ما ذكره الإمام (عليه السلام) من صفات، وقد يعتقد أن هذا الوصف وصف جمالي قد لا يراد منه غير ذلك، ولكننا نظن أن إشارة الإمام (عليه السلام) تحتضن ما ذكرناه من صفات وتنطوي عليها، وهذا يتجسد في الهبة التي يكون عليها الإمام (عليه السلام)^(٤٧)، وبخاصة في نفوس خصومه، كما عرف ذلك عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)^(٤٨).

لا أريد أن أرفع القلم في هذا البحث، قبل أن أقول الآتي:

لو أخذ المسلمون بما في أقوال الأئمة (عليه السلام) من أفكار تتصل بهذه القضايا العقائدية وغيرها، وابتعدوا عن التأويلات المتصارعة التي ارتبطت في الغالب بالرؤية السياسية لهذا الطرف أو ذاك، لتوحدت المفاهيم والأغراض العقائدية، ولصارت قضية (أهل البيت) قضية توحيد للمسلمين، كما هو شأنها في واقع الحال، ولما اختلف المسلمون بشأنها هذا الاختلاف.

وبعد هذه القراءة التي اعتمدنا على التأويل سبيلها، في بيان صورة أهل البيت (عليه السلام) في الصحيفة السجادية، نخلص إلى بعض النتائج التي توصل إليها البحث:

١. إن دلالات النص في الصحيفة السجادية دلالات لا تنتهي، والتأمل الهادئ والقراءة المتأنية كفيلا بالكشف عن بعض تلك الدلالات التي تثري المعارف الإسلامية والإنسانية على السواء.
٢. إن قراءة الصحيفة السجادية قراءة تأويلية، كشفت لنا عن حمولات غنية من المضامين الفكرية والربوية والجمالية، لم ياتفت إليها من قبل - فيما أظن - لأن المنهج التأويلي الذي طبقناه يفتح على الدلالات اللغوية بكل ما تعطيه الألفاظ والتراكيب من معان.
٣. من الممكن تصحيح كثير من الأحاديث النبوية الشريفة استنادا إلى نص الصحيفة السجادية، لأنها أقدم النصوص المدونة - بعد نهج البلاغة - التي وصلت إلينا من طريق أهل البيت (عليه السلام).

٤٦- لسان العرب: عرا

٤٧- ينظر عن البيبة: الخصال ٤٨٣.

٤٨- ينظر: الأمالي ٧٤.

وفي الختام أدعو الله تعالى أن ينفع بهذا البحث وبمنهجه من يريد أن يضع يديه على بعض من شذرات أقوال الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق سعيد المندودة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ.
٢. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد ت ٤١٣هـ، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، دار المفيد.
٣. الأمالي، الشيخ المفيد ت ٤١٣هـ، تحقيق استاد ولي وعلي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، قم.
٤. الإمامة والتبصرة من الحيرة، ابن بابويه القمي، مدرسة الإمام المهدي، قم، إيران، د. ت.
٥. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٦. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي ت ١٢٠٥هـ، مكتبة الحياة، بيروت.
٧. الخصال، الشيخ الصدوق ت ٢٨١هـ، تحقيق علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.
٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩. شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني - من أعلام القرن الخامس، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الطبع والنشر، طهران، إيران، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
١٠. الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام، تحقيق وتنسيق علي أنصاريان، إصدار سفارة إيران، دمشق، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
١١. العصمة - بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني، محاضرات السيد كمال الحيدري، بقلم محمد القاضي، دار فراقد للطباعة والنشر، إيران، ١٤٢٠هـ.
١٢. الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
١٣. الكافي، الكليني ت ٢٣٩هـ، تحقيق وتعليق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، ط ٣، طهران، ١٣٨٨هـ.
١٤. كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق ت ٣٨١هـ، تصحيح وتعليق علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ١٤٠٥هـ.
١٥. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان.
١٦. معاني الأخبار، الشيخ الصدوق ت ٣٨١هـ، تصحيح وتعليق علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران.
١٧. المنق في أخبار قريش - ابن حبيب.

١٨. الميزان في تفسير القرآن، العلامة محمد حسين الطباطبائي ت ١٤٠٢ هـ، مؤسسة إسماعيليان، ط ٥، قم، إيران، ١٤١٢ هـ.
١٩. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ت ٦٠٦ هـ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، مؤسسة إسماعيليان، ط ٤، قم، إيران.
٢٠. نهج البلاغة، مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح الإمام محمد عبدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د. ت.

ظاهرة التضخم النقدي في العراق وانعكاساتها الاقتصادية

آ.م.د. كمال عبد حامد آل زيارة^(١)
آ.م.د. حكمت عبد الرزاق الدباغ^(٢)

المقدمة:

مر العراق خلال العقود الأخيرة بتطورات سياسية مهمة تركت آثارها على مناحي الحياة المختلفة، ومن ضمنها الجانب الاقتصادي، إذ شهد الاقتصاد العراقي تذبذبا في العديد من المتغيرات الاقتصادية تبعا للواقع السياسي والظروف المحيطة. وعلى الرغم من كل هذه التطورات والتباين في اتجاهات السياسة الاقتصادية وفي استخدام أدواتها، إلا أن القاسم المشترك خلال السنين الماضية كان هو التضخم. إذ شهد العراق ارتفاعا في المستوى العام للأسعار طوال عقد التسعينيات من القرن الماضي والعقد الأول من القرن الحالي وكان من نوع التضخم الزاحف الذي اتسم باستمرارته على مدار هذه المدة. من هنا جاءت أهمية البحث الحالي، إذ حاول الباحثان التصدي لدراسة هذه الظاهرة للوقوف على أسبابها ومدياتها وأبرز انعكاساتها على الاقتصاد العراقي.

انطلق البحث من الفرضيتين الأساسيتين الآتيتين:-

١. التماذي في إصدار العملة بوصفه عاملا أساسيا في التضخم النقدي.
 ٢. ضخامة الموازنة التشغيلية في العراق وبخاصة فقرة الرواتب والأجور لمنتسبي الدولة والقطاع العام بكل ما يولده من زيادة في الطلب الكلي، مقابل تدني الجهاز الإنتاجي وضعف كفاءته.
- شمل البحث ستة مباحث وعلى النحو الآتي:-
- المبحث الأول:- مفهوم التضخم
 - المبحث الثاني:- التضخم في النظرية الاقتصادية
 - المبحث الثالث:- طرق قياس التضخم

١ - كلية القانون - جامعة أهل البيت (عليه السلام)

٢ - كلية القانون - جامعة بابل

- المبحث الرابع: - قياس مستوى التضخم النقدي في العراق
المبحث الخامس: - الانعكاسات الاقتصادية لظاهرة التضخم النقدي في العراق
المبحث السادس: - الاستنتاجات والتوصيات

المبحث الأول: مفهوم التضخم:

اختلفت المدارس الاقتصادية في تحديد مفهوم التضخم (Inflation)، ويعود السبب في ذلك إلى أن نظرية التضخم مرت بتطورات عديدة تبعاً لتطور الفكر الاقتصادي. لذلك يلاحظ وجود تعاريف متباينة للتضخم انسجاماً مع اختلاف النظريات وتعددتها.

وقبل الخوض في تفاصيل أبرز النظريات التي بحثت ظاهرة التضخم، يمكن القول، عموماً، أن التضخم هو تعبير عن حالة الارتفاع المستمر في الأسعار، ونتيجة لذلك فإن الوجه الآخر له يتمثل بالانخفاض المستمر في القدرة الشرائية لوحدة النقد.

ويعكس التضخم حالات اختلال التوازن الاقتصادي في أسواق السلع والخدمات وعوامل الإنتاج، وبشكل عام فإن التضخم ناجم عن حالات عدم التوازن بين التدفقات النقدية وتدفقات السلع والخدمات في السوق، إذ تكون الزيادة في التدفقات النقدية بوتيرة أعلى من الزيادة في التدفقات السلعية والخدمات، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور حالة التضخم في الاقتصاد المعني، بل وتحويلها إلى ظاهرة يعاني منها ذلك الاقتصاد بديمومة ارتفاع العرض النقدي في التداول بالمقارنة مع العرض السلعي في السوق.

ويمكن تعريف التضخم انطلاقاً من أسبابه أو من آثاره. فمن خلال أسبابه يمكن تعريف التضخم بوصفه ظاهرة نقدية: بأنه عبارة عن زيادة في كمية النقود تؤدي إلى ارتفاع في الأسعار. سواء برزت تلك الزيادة من خلال عرض النقود (الإصدار النقدي أو التوسع في خلق الائتمان) أم من خلال الطلب على النقود (الإنفاق النقدي). وواضح مدى تعبير هذا التعريف عن آراء المؤيدين للنظرية الكمية للنقود، التي ترى في كمية النقد المتغير الرئيس المحدد للمستوى العام للأسعار، مع افتراض ثبات العناصر الأخرى على الأقل في الأجل القصير^(٣).

كما يمكن تعريف التضخم من خلال آثاره بوصفه ظاهرة سلعية: فحينما يبرز اتجاهها مستمراً ومؤكداً نحو تصاعد الأسعار، يمكن الاستنتاج بأننا نواجه حالة توصف بكونها تضخمية. وعلى النقيض من ذلك عندما يكون اتجاه الأسعار نحو الانخفاض الدائم والمستمر، يمكن القول إننا أمام حالة توصف بأنها انكماشية. فالتضخم من هذا المنطلق يعني حركة دائمة يرتفع من خلالها المستوى العام للأسعار، بغض النظر عن سبب هذا الارتفاع، سواء أكان زيادة كمية النقود أم اختلال التوازن بين التيار النقدي وتيار السلع والخدمات أم غير ذلك من الأسباب^(٤).

المبحث الثاني: التضخم في النظرية الاقتصادية:

تمحّض عن الفكر الاقتصادي العديد من النظريات التي فسّرت ظاهرة التضخم، ويمكن تناولها بإيجاز على النحو الآتي: -

أولاً: نظرية كمية النقود:-

أقام الكلاسيك علاقة طردية بين عرض النقد (Ms) ومستوى الأسعار (P) وعلاقة عكسية بين عرض النقد وقيمة النقود أي مقلوب المستوى العام للأسعار $\frac{1}{P}$. واستندوا في ذلك إلى معادلة التبادل: -

٣ - مصطفى رشدي شبيحه، اقتصاديات النقود والمصارف والمال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٦، ١٩٩٦. ص ٨٠٩.

٤ - المصدر نفسه. ص ٨١١.

$$Ms V = P Y$$

حيث أن :

Ms عرض النقد بمعناه الضيق (النقود القانونية بشكلها الورقي والمعدني - الودائع الجارية)

V سرعة تداول (أو دوران) النقود

P مستوى الأسعار للناتج الكلي

Y الناتج الكلي الحقيقي

والملاحظ أن هذه المعادلة هي عبارة عن متطابقة أو بديهية والسبب في ذلك لأن الجزء الأيسر من المعادلة (Ms V) يشير إلى الطلب الكلي النقدي ويعبر عن المدفوعات النقدية ، أما الجانب الأيمن (P Y) فيعبر عن قيمة الإنتاج الكلي أو المقبوضات النقدية ، وهذا يعني أن ما يدفع من نقد يقابله بالضرورة قيمة نقدية ممثلة بالناتج^(٥).

أما عن كيفية تحويل هذه البديهية إلى نظرية مفسرة لتغيرات المستوى العام للأسعار ، فينطلق الكلاسيك ابتداء من الافتراضين الآتين :-

١ . تتسم سرعة تداول النقود في الاقتصاد القومي بالثبات ، وذلك لأنها مرتبطة بعوامل محددة غير قابلة للتغير في المدة القصيرة كالعادات الاستهلاكية والانفاقية.

٢ . يفترض الكلاسيك وجود حالة الاستخدام الكامل ، وهو ما يعني أن الناتج الكلي الحقيقي هو عند أعلى مستوى له ، منطلقين من أن الموارد الإنتاجية المتاحة في الاقتصاد مستغلة بصورة تامة أي موظفة توظيفاً كاملاً.

وانطلاقاً من هذين الافتراضين يمكن كتابة معادلة التبادل أعلاه على النحو الآتي :-

$$Ms V = P Y$$

وعليه يصبح :-

$$P = F (Ms)$$

من هنا يرى أنصار المدرسة الكلاسيكية أن أي تغيير في عرض النقد يؤدي إلى تغير منازر (وبالنسبة نفسها) في المستوى العام للأسعار ، بمعنى أن زيادة كمية النقود وإطلاقها في التداول عن طريق الإنفاق الحكومي ، مدعاة إلى ارتفاع مستوى الأسعار أي انخفاض قيمة النقود ، لأن الطرف الأيمن من معادلة التبادل (P Y) يجب أن يزداد مع زيادة الطرف الأيسر (Ms V) بالنسبة والاتجاه ذاتيهما. وهذه الحالة هي التي تكون التضخم النقدي الذي يعني زيادة في كمية النقود دون أن يقابلها ارتفاع في الناتج من السلع المتدفقة إلى الأسواق.

ثانياً: التضخم من وجهة النظر الكينزية:-

لجأ جون ماينرد كينز ، عند دراسته لظاهرة التضخم ، إلى منهجه الكلي في التحليل ، وعلى النقيض من الكلاسيك الذين استندوا إلى النظرية الكمية للنقود في تفسير الارتفاع العام في الأسعار بالعلاقة المباشرة بين عرض النقد ومستوى الأسعار (بافتراض ثبات سرعة تداول النقود ومستوى الناتج الكلي الحقيقي) ، يلاحظ لجوء كينز إلى دراسة تقلبات العرض الكلي والطلب الكلي في تفسير مشكلة التضخم. فهو يرى أن التضخم يتمثل بزيادة في مستوى الطلب الكلي المكون من الاستهلاك والاستثمار والإنفاق الحكومي على مستوى العرض الحقيقي زيادة محسوسة ومتواصلة ، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث سلسلة من الارتفاعات المفاجئة والمستمرة في المستوى العام للأسعار.

وفي هذا الصدد ميز كينز بين حالتين :-

الأولى: - حالة الاقتصاد القومي قبل وصوله مستوى الاستخدام الكامل :

فعند هذه الحالة يكون جزء من الموارد الإنتاجية عاطلاً وتتوافر طاقات إنتاجية غير مستغلة، وحينما تحصل زيادة في الطلب الفعال بوساطة تصاعد الإنفاق النقدي (عرض النقد) فإن الاقتصاد يتمكن من الاستجابة لهذه الزيادة من خلال تحقيق زيادة مماثلة في مستوى الناتج ومن ثم الدخل وذلك عن طريق سعر الفائدة.

إذا فالتأثير الأولي والأساس للتغير في كمية النقود على مقدار الطلب الفعال لا يكون مباشراً، إنما من خلال تأثيره على سعر الفائدة، وبالتفاعل مع العناصر الثلاثة (تفضيل السيولة، الكفاية الحدية لرأس المال، مضاعف الاستثمار) يتحدد المقدار الكمي للتأثير^(٦). فأسعار الفائدة تنخفض نتيجة لزيادة كمية النقود وعند المقارنة بين أسعار الفائدة (المنخفضة) والكفاية الحدية لرأس المال تحصل زيادة في الاستثمار، وبفعل دور مضاعف الاستثمار يستمر الناتج (أو الدخل) بالارتفاع، الأمر الذي يعني زيادة الطلب على عناصر الإنتاج، ولكن طالما وجدت عناصر غير مستغلة فإن ارتفاع الطلب عليها سوف لا يتمخض عنه زيادات محسوسة في أسعارها، بسبب إمكانية زيادة الإنتاج بالنسبة نفسها للزيادة في الإنفاق النقدي. ومع ذلك، يرى كينز، أن تنامي الطلب على الموارد ممكن أن يرفع أسعارها حتى قبل بلوغ حالة الاستخدام الكامل، ويعبر عن هذا النوع من التضخم أسمى (التضخم الجزئي).

ويعمل كينز هذا النوع من التضخم بأنه يحدث للأسباب الآتية^(٧):-

١. ظهور اختناقات ناجمة عن نقص في بعض عناصر الإنتاج لقطاعات معينة مما يعمل على ارتفاع أسعاره.
 ٢. ممارسة الضغوط من النقابات العمالية، وبما يؤدي إلى ارتفاع مستوى الأجور بشكل لا يتناسب مع الزيادة المتوقعة في الإنتاجية.
 ٣. وجود ميول احتكارية في بعض فروع الاقتصاد القومي.
- ويرى كينز التضخم الجزئي حافزاً على زيادة الإنتاج، ويعد حدوثه أمراً طبيعياً ومرغوباً في هذه الحالة بالنظر لما يتوقع من أرباح للمنظمين، وقد تخلق السلطات النقدية هذا النوع من التضخم في أوقات الكساد، بهدف تحقيق قدر أكبر من الاستخدام.

الثانية: - الاقتصاد القومي عند مستوى الاستخدام الكامل :

حينما يكون الاقتصاد القومي في حالة الاستخدام الكامل للموارد الاقتصادية وتكون الطاقات الإنتاجية مستغلة بصورة تامة، وبافتراض تنامي الزيادة في الطلب الكلي الفعال، فإن العرض الكلي سوف لا يتمكن من الاستجابة للطلب الكلي المتزايد، حيث تكون مرونة هذا العرض بلغت الصفر عند نقطة الاستخدام الكامل، وبذلك فإن كل زيادة في الإنفاق النقدي التي تحفز الطلب سوف تنعكس بشكل ارتفاع في مستوى الأسعار أي ظهور التضخم ويرى كينز في هذا الصدد، أنه حينما يتم الوصول إلى مستوى الاستخدام الكامل، فإن أية محاولة لزيادة الاستثمار ومن ثم الطلب بصورة أكثر، سوف تؤدي بالأسعار إلى الارتفاع المحدود، مهما يكن الميل الحدي للاستهلاك، وبالتالي الوصول إلى حالة تضخم حقيقي^(٨).

4- J.M.Keynes , The General Theory of Employment , Money and Interest , London , Macmillan and Co , Ltd , Martin's Street , 1942. pp 298-299.

٧- صلاح الدين عبد المسيح كاكو، التضخم الركودي في المجموعة الاقتصادية الأوربية خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٩، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قدمت إلى مجلس كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة بغداد، آذار، ١٩٩٢. ص ١٩.

6 - J.M.Keynes , Op. Cit. P118-119.

ومع ذلك من المهم التأكيد على أن كينز يعتقد، أنه ليس من الضروري أن تؤدي زيادة كمية النقود (بعد الوصول إلى حالة الاستخدام الكامل) إلى ارتفاع في المستوى العام للأسعار، إذ قد يصاحب الزيادة في كمية النقود زيادة مناظرة في ميل الأفراد للاكتناز بحيث لا يترتب على ذلك ارتفاع في مستوى الطلب الفعال. فالنقود ليست العنصر الحاسم في تقرير المستوى العام للأسعار ومن ثم معدلات التضخم وإنما الزيادة المضطربة والمتواصلة في مستوى الطلب الكلي بالمقارنة مع قلة العرض هو الذي يؤدي إلى ارتفاع الأسعار^(٩).

ثالثاً: نظرية العلاقة بين الادخار والاستثمار (نظرية المدرسة السويدية):

تميز مدرسة الفكر السويدي بين الكميات المتحققة X-Post وبين الكميات المتوقعة X-Ant للمتغيرات الاقتصادية الكلية، فالادخار المتحقق يعادل الاستثمار المتحقق، وتشير كلمة متحقق إلى نتائج القرارات الماضية للجماعة فيما يتعلق بالدخل والاستهلاك والادخار والاستثمار، في حين تشير كلمة متوقع إلى المتغيرات أعلاه المستهدفة، ولا يوجد لدى أنصار المدرسة السويدية من الأسباب ما يحملهم على الاعتقاد بتعادل الاستثمار والادخار المتوقعين، إذ قد يختلفان نتيجة الائتمان المصرفي أو الأرصدية العاطلة، ولكن إذا ادخار والاستثمار والدخل المستهدفة كلها قادرة بالتأكيد على أن تختلف عن مثيلتها المتحققة. إذا أعطت هذه المدرسة أهمية خاصة للتوقعات (Expectation) في التحليل النقدي للتضخم، إذ ترى أن العلاقة بين الطلب الكلي والعرض الكلي لا تتوقف على مستوى الدخل فقط، كما ترى المدرسة الكينزية، إنما أيضاً على خطط الإنتاج القومي. أو بعبارة أخرى تتوقف على العلاقة بين خطط الاستثمار وخطط الادخار، وعليه لا توجد أسباب تدعو إلى الافتراض بأن الاستثمار المتوقع يساوي الادخار المتحقق، إلا في حالة التوازن، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الأفراد متخذي قرارات الاستثمار تحددهم حوافز ودوافع ورغبات تختلف عن تلك التي تدفع الأفراد للقيام بالادخار. وتأسيساً على ذلك يؤدي عدم التساوي بين الاستثمار المتوقع والادخار المتوقع إلى تقلب في مستوى الأسعار، فإذا زاد الاستثمار المتوقع عن الادخار المتوقع، فإن ذلك يعني أن الطلب أكبر من العرض وهذا يؤدي بدوره إلى ارتفاع مستوى الأسعار، وعندما ترتفع الأسعار يحقق المنتجون في هذه الحالة بعض الدخل غير المتوقعة بسبب تفوق خطط الشراء على خطط الإنتاج ليس فقط في أسواق السلع بل كذلك في أسواق عوامل الإنتاج^(١٠).

رابعاً: نظرية تضخم التكاليف:

على أثر منحني (Phillips)^(١١) الشهير، الذي مثل الإطار النظري للمقايضة بين البطالة والتضخم (والذي ظهر لأول مرة عام ١٩٥٤ في بحثه الموسوم سياسة الاستقرار في اقتصاد مغلق)، تمكن اقتصاديان في الستينيات من القرن الماضي وهم (R.Solow) & (R.Lipsey) أن يقيما علاقة تقوم على أساس الربط بين ثلاثة متغيرات هي معدل البطالة ومعدل التغير في الأجور النقدية ومعدل التغير في مستوى الأسعار المحلية (معدل التضخم). واستندا في دراستهما إلى نقطة مركزية هي أن الأجور ليست فقط قوة شرائية أو دخل بالنسبة للعامل، كما بينت النظرية الكينزية، إنما هي أيضاً تعد كلفة بالنسبة لرب العمل، وإن التغير في

٩ - صلاح الدين عبد المسيح كاكو، المصدر السابق. ص ٢٠.

١٠ - وزارة التخطيط - هيئة تخطيط القوى العاملة، الأبعاد الاجتماعية لظاهرة التضخم في الاقتصاد العراقي، بغداد، ١٩٩٢. ص ١٦ - ١٧.

١١ - للمزيد من التفاصيل انظر: -

- A.W.Phillips, (Stabilization Policy in a closed Economy), Economic Journal, No. 254, June, 1954.

الأجور النقدية سوف ينعكس بالتأكيد على هذه الكلفة ومن ثم على مستوى الأسعار، بعد الأخذ بالاعتبار مستوى الإنتاجية لعنصر العمل.

ويمكن توضيح العلاقة المشار إليها أعلاه على النحو الآتي: كلما كان معدل البطالة منخفضاً (أي ارتفاع معدل الاستخدام) واشتداد أسواق العمل كانت الظروف مهيأة للعمال من أجل الضغط باتجاه رفع مستوى الأجر، وعند حصول تغير في معدل الأجور النقدية باتجاه الأعلى (وبافتراض ثبات مستوى الإنتاج)، فإن ذلك لا بد وأن ينعكس على مستوى الأسعار المحلية باتجاه الأعلى أيضاً، بمعنى أن نظرية تضخم التكاليف تركز على نقطة جوهرية تتمثل في أن التغير في الأجور النقدية يعد سبباً مهماً في زيادة التكاليف وارتفاع الأسعار، لكن هذا الأمر يبقى ناقصاً من الناحية النظرية والعملية ما لم يجر ربط تلك المتغيرات بمستوى إنتاجية العمل. أي أنه ليس كل تغير في معدل الأجر النقدي يصب بالضرورة باتجاه زيادة حدة التضخم، إذ قد تقترن زيادة الأجور النقدية بمعدلات موازية في مستوى الإنتاجية، ومن ثم يصبح بالإمكان ضمان المحافظة على مستوى التكاليف وبالتالي الأسعار، ولن يكون معدل التغير في الأجر النقدي عاملاً أساسياً في ظهور التضخم، إلا إذا كان هذا المعدل يفوق في معدلته مستوى نمو إنتاجية العمل. وتجدر الإشارة إلى أن نظرية تضخم التكاليف تشير إلى أن مصادر هذا النوع من التضخم يمكن أن تكون على النحو الآتي:-

المصدر الأول:- تغيرات معدلات الأجور النقدية:

هذه التغيرات يمكن أن تنشأ عن عوامل عديدة أهمها ما يأتي^(١٢):-

١. إذا حصلت زيادات ملموسة أو مهمة في معدلات الأجور النقدية في بعض القطاعات الإنتاجية التي تتسم فيها الإنتاجية بالارتفاع، فإن النقابات العمالية في القطاعات الأخرى التي يكون فيها مستوى الإنتاجية قريب أو أقل من تلك السائدة في القطاعات الأولى يكون بإمكانها وبدافع العدوى أو التقليد المطالبة بزيادات في الأجور لعمالها ومن ثم إمكانية انعكاس هذه الزيادة على مستوى التكاليف فالأسعار، بخاصة إذا كانت معدلات التغير في الأجور النقدية في القطاعات الثانية أشد أو أعلى نسبياً من مستوى إنتاجية العمل فيها.
٢. يمكن حصول زيادات مهمة في أجور العمال إذا أقدمت الحكومة على رفع ما يعرف بالحد الأدنى للأجر دون مراعاة لمستوى إنتاجية العمل.
٣. إذا وجدت نقابات العمال أن معدلات الأرباح لرجال الأعمال بلغت مستويات عالية بالنسبة للدخل القومي وإن هذا الأمر أدى إلى تراجع الأهمية النسبية للأجور في الدخل القومي، فإن مثل هذا الوضع يمكن أن يكون حافزاً للمطالبة بزيادة الأجور، فإذا كانت هذه الأخيرة أيضاً أعلى من مستوى الإنتاجية في القطاعات التي تتولد منها كان هذا عاملاً مساعداً في زيادة معدل التضخم.
٤. إذا كان هنالك فائضاً في الطلب على العمل مقارنة بعرض العمل فإن ذلك يشكل أيضاً عاملاً مساعداً للمطالبة بزيادة الأجور.

المصدر الثاني:- قد ينشأ تضخم الكلفة أيضاً نتيجة تضافر عاملين أساسيين:-

العامل الأول:- وجود درجة عالية من الانفتاح الاقتصادي للبلد إزاء السوق العالمية، ويستخدم الاقتصاديون للكشف عن درجة الانفتاح على العالم الخارجي مؤشر نسبة التجارة الخارجية إلى الناتج القومي أي:-

١٢- عوض فاضل إسماعيل الدليمي، النقود والبنوك، بغداد، ١٩٩٠. ص ٦٥٠ - ٦٥٢.

فكلما كانت درجة الانفتاح أو النسبة المستخرجة من هذه الصيغة عالية دل ذلك على أن البلد له صلات تبعية وثيقة بالعالم الخارجي.

العامل الثاني: - مستوى التضخم في العالم الخارجي، فكلما كان هذا الأخير مرتفعاً وكان البلد في الوقت ذاته يواجه درجة انفتاح عالية يتوقع في مثل هذه الحالة أن تتسرب الزيادات في أسعار السلع والخدمات الأجنبية إلى داخل البلد ومن خلال التجارة الخارجية تلبية للاحتياجات الاستهلاكية والاستثمارية.

المصدر الثالث: - فد يتولد تضخم الكلفة كذلك، بفعل انتهاج الحكومة سياسة تخفيض العملة، فكلما هو معلوم أن التخفيض يعني دفع وحدات أكبر من العملة الوطنية إزاء العملة الأجنبية أو القيادية، مما يقود إلى تحمل المستورد الوطني (المحلي) أعباء إضافية نتيجة هذا التخفيض بمعنى عليه بعد التخفيض أن يدفع وحدات نقدية أكبر من السابق للحصول على الكمية نفسها من السلع والخدمات من العالم الخارجي، الأمر الذي يتمخض عنه تحمل المستورد أعباء مالية أعلى، وهذه الأعباء بالتأكيد سوف تنعكس على مستوى الأسعار الداخلية في البلد سواء من خلال استيراد السلع الاستهلاكية أم السلع الرأسمالية^(١٣).

المبحث الثالث: - طرق قياس التضخم:

هناك العديد من الطرق التي تستخدم في قياس التضخم لعل من أبرزها ما يأتي: -

أولاً: - طريقة الفجوات التضخمية^(١٤):

وهي طريقة متأثرة بالتحليل الكينزي، وتقوم على أساس تقدير الفروق بين حجم السلع والخدمات المنتجة في الاقتصاد، وبين القوة الشرائية المتاحة في أيدي المستهلكين، وتعالج هذه الفروق من خلال علاقات الطلب الكلي أو الإنفاق. وتتمثل بالفرق بين فائض الطلب الكلي النقدي أو الإنفاق القومي (مقدراً بالأسعار الجارية) وبين حجم الناتج القومي الحقيقي GNP (بالأسعار الثابتة). أو الناتج المحلي الإجمالي GDP بالأسعار الثابتة.

أي أن الفجوة التضخمية (Inflationary Gap) $Y - N =$

حيث أن الإنفاق النقدي الكلي يعادل: -

$$Y = C + G + I + X - M$$

وتعني: -

Y: الإنفاق الكلي أو الدخل القومي

N: الدخل الحقيقي أو الناتج القومي الحقيقي

C: الإنفاق الاستهلاكي

G: الإنفاق الحكومي

I: الإنفاق الاستثماري

X: الصادرات

M: الاستيرادات

١٣ - المصدر نفسه، ص ٦٥٥.

١٤ - مصطفى رشدي شيحة، المصدر السابق، ص ٨٥٠.

ويربط فجوة التضخم (فجوة فائض الطلب) بتطورات الأسعار يمكن الوقوف على مدى تأثير هذه الفجوة على مستوى الأسعار المحلية. ومن الواضح أنه كلما اتسعت هذه الفجوة كلما شكلت ضغطاً متزايداً على العرض الحقيقي للسلع والخدمات وبالتالي اختلالاً نقدياً أشد الأمر الذي يولد ارتفاعاً أكبر في مستوى الأسعار.

ثانياً: طريقة فائض المعروض النقدي:

وهي الطريقة التي يعتمد عليها صندوق النقد الدولي (والمستمدة من التحليل الحديث لمدرسة شيكاغو أو ما يعرف بالتحليل النقودي Monetarism) وهي عبارة عن الفرق بين التغير في عرض النقود (السيولة) وبين التغير في الطلب على النقود (أي حجم ما يرغب الأفراد الاحتفاظ به من دخل بصورة نقود) - عند أسعار ثابتة - وذلك خلال مدة زمنية معينة.

فإذا كان: -

ΔM_s التغير في عرض النقود

P الطلب على النقود (مقلوب سرعة التداول الداخلية للنقود)

Y الناتج القومي الإجمالي

ΔY التغير في الناتج القومي الإجمالي.

فإن الفجوة التضخمية ^(١٥) :-

$$\Delta M_s - \frac{\Delta Y}{Y} < 0$$

وبعبارة أخرى فإذا زاد معدل التغير في كمية وسائل الدفع $\frac{\Delta M_s}{M_s}$ عن معدل التغير في الناتج القومي الإجمالي الحقيقي $\frac{\Delta Y}{Y}$ كان ذلك دليلاً على وجود ضغوط تضخمية. أما إذا كان معدل التغير في كمية النقود أقل من معدل التغير في الناتج القومي الإجمالي الحقيقي كان ذلك مؤشراً على وجود اتجاهات انكماشية. مما يدفع مستوى الأسعار إلى الأسفل. أما إذا تساوى معدل التغير في وسائل الدفع مع معدل التغير في العرض الحقيقي للسلع فإن ذلك يدل على استقرار نقدي ^(١٦).

ثالثاً: طريقة الأرقام القياسية:

وهي من أكثر الطرق شيوعاً وتعتمد على تقدير معدل التضخم من خلال تطورات الأسعار (الرقم القياسي للأسعار)، وتستخدم الأرقام القياسية لغرض قياس القوة الشرائية للأفراد والمشروعات والتعرف على تطور الأسعار لسلعة معينة خلال فترة زمنية معينة، إذ يجري اعتماد الأرقام القياسية المقارنة بين سنتين إحداهما سنة الأساس التي تكون ثابتة وتنسب التقلبات السعرية إليها والسنة الأخرى هي سنة المقارنة التي يراد فيها التعرف على مقدار التضخم.

فإذا كان: -

P1 : المستوى العام للأسعار في سنة الأساس

P2 : المستوى العام للأسعار في سنة المقارنة

فإن معدل التضخم =

$$\frac{P_2 - P_1}{P_1} \times 100$$

١٥ - المصدر نفسه. ص ٨٥١.

١٦ - عوض فاضل إسماعيل الدليمي، المصدر السابق. ص ٦٣٨.

ومن الأرقام القياسية التي يمكن استخدامها في قياس التضخم ما يأتي :-

١. الرقم القياسي الضمني للأسعار: - ويمثل النسبة بين مقدار الناتج القومي الإجمالي بالأسعار الجارية ومثيله بالأسعار الثابتة. ويتسم هذا المؤشر بشموليته لأسعار السلع والخدمات جميعها المنتجة والمتداولة في الاقتصاد.

٢. الرقم القياسي لتكاليف الاستثمار: - ويعبر عن العلاقة بين إجمالي تكوين رأس المال بالأسعار الجارية ومثيله بالأسعار الثابتة، ويحسب بقسمة الأول على الثاني. ويعد مؤشراً لأسعار السلع الإنتاجية وبيان أسباب التغيرات الحاصلة في الإنفاق الاستثماري. بمعنى إنه يساعد في الكشف عن طبيعة الزيادة في هذا الإنفاق، وهل إنها ناتجة عن زيادة حقيقية في تكوين رأس المال أم هي زيادة في تكاليف الاستثمار؟ ومن هذا فإنه يعد أيضاً من المؤشرات الهامة المستخدمة في قياس التغيرات في المستوى العام للأسعار^(١٧).

٣. الرقم القياسي لأسعار الجملة: - يستخدم في قياس تطورات أسعار السلع في الأسواق التجارية، إذ تحدد السلع الداخلة في حسابه وكذلك أوزانها استناداً إلى أهميتها النسبية في تلك الأسواق. وغالباً ما يتخذ مجموع مبيعات السلعة في الأسواق المذكورة معياراً لقياس أهميتها^(١٨). ويعاني الرقم القياسي لأسعار الجملة في العراق من نقص في الدقة عند حساب الاتجاهات التضخمية، فهو يتضمن الأسعار لأعداد محدودة من السلع والخدمات، ويستثني العديد من السلع الأخرى (المحلية والمستوردة)، الأمر الذي يقلل من أهميته. كذلك فإن هذا المؤشر يقتصر على اتجاهات الأسعار في منطقة جغرافية معينة كالعاصمة، وأحياناً بعض المدن الكبيرة، دون أن يشمل اتجاهات الأسعار في المناطق الأخرى الحضرية منها والريفية، ويلاحظ من جهة أخرى أن هذا الرقم لا يعبر بصدق عن حركة الأسعار في السوق المحلية بسبب تدخل الدولة في تثبيت الحدود العليا لأسعار بعض السلع الداخلة في تركيب الرقم القياسي^(١٩). وعلى الرغم من هذه الانتقادات الموجهة لهذا المؤشر والتي تقلل من دوره في توضيح الاتجاهات التضخمية. إلا أنه لا زال من المؤشرات المعول عليها في قياس التضخم بخاصة وإنه يشمل عينة كبيرة من السلع الغذائية والنسيجية، وهي من الفقرات الاستهلاكية المهمة، الأمر الذي يجعله معياراً مقبولاً لحساب التغيرات في تكاليف المعيشة.

٤. الرقم القياسي لأسعار المستهلك: - ويطلق عليه أيضاً الرقم القياسي لأسعار المفرد للمواد الاستهلاكية والرقم القياسي لتكاليف المعيشة. والهدف الرئيس عادة من احتساب هذا الرقم القياسي هو تقدير ارتفاع مستوى الأسعار بالنسبة للمستهلك وذلك لمعرفة التغيرات الحاصلة في القوة الشرائية لوحدة النقد^(٢٠). وعلى الرغم من الانتقادات التي توجه لهذا المؤشر في العراق (والتي تتشابه إلى حد ما مع الرقم القياسي لأسعار الجملة)، ومن ذلك شموله لبعض السلع فقط ولمناطق معينة (وبخاصة العاصمة بغداد)، إلا أن هذا الرقم القياسي يعد من المؤشرات التي يمكن التعويل عليها لقياس التضخم، فهو يعطي صورة جيدة عن تكاليف المعيشة، إذ أنه يعتمد على أساس مسح ميزانية الأسرة والذي يتضمن عينة كبيرة من الريف والحضر، وتوزع على فصول السنة، فضلاً عن العدد الكبير للسلع المشمولة بهذا الرقم القياسي سواء في القطاع العام (ومنها بعض السلع الداخلة بالبطاقة التموينية) أم القطاع الخاص^(٢١).

١٧ - وزارة التخطيط، المصدر السابق. ص ٣٥.

١٨ - وزارة التخطيط - المعهد القومي للتخطيط، الإحصاء للمخططين والباحثين، بغداد، ١٩٨٨. ص ٢١٢.

١٩ - عوض فاضل إسماعيل الدليمي، المصدر السابق. ص ٦٣٦.

٢٠ - وزارة التخطيط - المعهد القومي للتخطيط. المصدر السابق. ص ٢١٣.

٢١ - وزارة التخطيط - هيئة تخطيط القوى العاملة، المصدر السابق. ص ٣٤.

المبحث الرابع:- قياس مستوى التضخم النقدي في العراق:

لأجل الوقوف على تغيرات المستوى العام للأسعار في العراق أُعتمد الباحثان سلسلة زمنية تمتد لأكثر من عشر سنوات ابتداء من عام ١٩٩٦ ولغاية ٢٠٠٩.

وشهد العراق خلال هذه الفترة تطورات سياسية مهمة تركت آثارها على عموم الاقتصاد العراقي وبخاصة على حركة أسعار السلع والخدمات. لذلك أخذ الباحثان بنظر الاعتبار، عند تحليل متغيرات السنوات ١٩٩٦ - ٢٠٠٢، إنها فترة حصار اقتصادي فرض على العراق من الأمم المتحدة وإن سنة ١٩٩٦ كانت البداية لتطبيق مذكرة التفاهم المعقودة بين العراق والأمم المتحدة (النفط مقابل الغذاء والدواء) في حين كانت السنوات السبع الأخيرة من السلسلة الزمنية قيد البحث، شهدت ظروف سياسية واقتصادية مختلفة تماماً تزامنت مع الاحتلال الأمريكي للعراق في نيسان عام ٢٠٠٣^(٢٢).

وحتى يتم الوصول إلى دقة أعلى وشمولية أكثر حول مستوى التضخم النقدي في العراق خلال المدة المذكورة، لم يقتصر الباحثان على استخدام مؤشر واحد أو طريقة فريدة في الحساب، وإنما حاولوا الاستعانة بطرق متعددة وبما تتبحه البيانات المتوفرة.

ومن هذا المنطلق تم اعتماد مؤشر الرقم القياسي لأسعار المستهلك، بوصفه معياراً منتظماً يصدره الجهاز المركزي للإحصاء في وزارة التخطيط سنوياً، بهدف التعرف على تغيرات المستوى العام للأسعار في البلد. وبما أن هذا المؤشر يتضمن عيماً أساسياً يتمثل باقتضاره على عينة من السلع فقط (لاسيما الغذائية والنسيجية في العاصمة بغداد) دون غيرها، فتتم الاستعانة أيضاً بمؤشرات أخرى تتسم بشموليتها للسلع والخدمات مثل الرقم القياسي الضمني^(٢٣) والفجوة التضخمية^(٢٤) (وفق المفهوم الكينزي).

ولكي تتسع الصورة عن مديات التضخم النقدي وأن لا تقتصر على السلع الاستهلاكية بل تشمل كذلك السلع الرأسمالية، تم اعتماد الرقم القياسي لتكاليف الاستثمار^(٢٥).

من خلال الجدول رقم (١)، الذي يبين تطور الأرقام القياسية لأسعار المستهلك، يمكن تكوين صورة واضحة عن مستوى التضخم النقدي في العراق، وعلى النحو الآتي:-

١. يلاحظ إن أعلى مستوى للتضخم النقدي شهده العراق هو خلال السنوات ١٩٩٣ - ١٩٩٦، فكما هو واضح من الجدول أعلاه إن نسبة التضخم هي (٢٤٢.١٪) في عام ١٩٩٦ بالمقارنة مع سنة الأساس (١٩٩٣) التي اعتمدت في الجدول، أي أن متوسط نسبة التغير السنوي في مستوى الأسعار خلال السنوات الثلاث هو (٧١٤٪). والسبب الرئيس في ذلك هو اعتماد الحكومة العراقية لسياستين نقدية ومالية توسعيتين مع مطلع التسعينيات من القرن العشرين، فبعد صدور قرارات الأمم المتحدة في فرض الحصار الاقتصادي على العراق التي بدأت في آب ١٩٩٠ (على أثر غزوه للكويت)، وتوقف شبه كلي لتصدير النفط العراقي الذي يشكل عماد الاقتصاد العراقي، ولأجل توفير مصدر إيرادات تمول من خلاله نفقات الدولة، تم

٢٢ - حسب قرار مجلس الأمن الدولي رقم (١٤٨٣) في ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٣ اعتبر العراق محتلاً رسمياً من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

٢٣ - يقاس من خلال ما يأتي:-

الرقم القياسي الضمني = الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية + الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الثابتة ١٠٠

٢٤ - تقاس كما يأتي:-

الفجوة التضخمية = الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية - الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الثابتة

٢٥ - يقاس من خلال الصيغة الآتية:-

الرقم القياسي لتكاليف الاستثمار = إجمالي تكوين رأس المال الثابت بالأسعار الجارية + إجمالي تكوين رأس المال الثابت بالأسعار

الثابتة ١٠٠

اعتماد سياسة نقدية توسعية قائمة على التمويل بالعجز، إذ أصبح الإصدار النقدي الجديد والتزايد المتفاقم في المعروض النقدي (الذي يعكس ارتفاع الطلب) هو السمة الرئيسة لسياسة العراق الاقتصادية خلال النصف الأول من التسعينيات. ورافق ذلك سياسة مالية توسعية أيضا، إذ تعاظم الإنفاق الحكومي ليسهم بدرجة عالية في رفع مستويات الطلب الكلي في الاقتصاد، يقابل ذلك تدني في مستوى المعروض السلعي نتيجة للتقلص الهائل في مستوى الاستيراد سواء للسلع تامة الصنع أم الوسيطة والأولية التي تستخدم في القطاعات الإنتاجية، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع غير مسبوق في مستوى الأسعار.

٢. اتسمت المدة ١٩٩٦-٢٠٠٢، باستمرار التصاعد في الرقم القياسي لأسعار المستهلك مؤشرا للتضخم النقدي، وإن كان بوتيرة أقل من المدة السابقة، إذ أصبح الرقم القياسي المذكور في نهاية هذه المدة (٥١٩٦.٦٪) بالقياس لبدائها البالغ (٢٢٤٢.١٪)، وبمتوسط تغير سنوي مقداره حوالي (١٥٪). وكانت أعلى نسبة تضخم سنوي في عام ١٩٩٧ إذ بلغت (٢٣.١٪).

إن من الواضح خلال المدة المذكورة أن مؤشرات ظاهرة التضخم لا زالت قائمة، ولكن بنسب أقل نسبيا، وتكمن أسباب ذلك في العديد من العوامل والمتغيرات، لعل من أبرزها تطبيق مذكرة التفاهم بين العراق والأمم المتحدة التي بدأ العمل بها في عام ١٩٩٦، والتي أسهمت بتوفير بعض السلع، وبخاصة الأساسية، فضلا عن انتهاء الدولة لسياسة نقدية انكماشية إلى حد ما قائمة على أساس الحد من عرض النقد، وكذلك سياسة مالية انكماشية تمثلت بتقليص الإنفاق العام وزيادة الإيرادات من خلال تفعيل (النسبي) للجهاز الضريبي، وبيع بعض ممتلكات الدولة الفائضة، ورفع أسعار بعض الخدمات العامة. وأدى كل ذلك إلى الحد من مستوى الطلب في البلد، فضلا عن سحب كميات كبيرة من السيولة النقدية في التداول، الأمر الذي انعكس على المستوى العام للأسعار الذي استمر بالتصاعد ولكن بصورة أخف.

٣. على الرغم من التباين الشاسع في ظروف العراق على الأصعدة المختلفة، إلا أن مؤشرات التضخم استمرت خلال المدة ٢٠٠٣-٢٠٠٨، بل وبوتيرة أعلى بالمقارنة مع السنوات التي سبقتها، ويظهر ذلك جليا من خلال الجدول رقم (١)، ففي الوقت الذي لم تصل فيه نسبة الارتفاع السنوي في الرقم القياسي لأسعار المستهلك في أية سنة خلال المدة ١٩٩٦-٢٠٠٢ إلى (٢٥٪)، يلاحظ بعد عام ٢٠٠٣ تجاوز هذه النسبة ولمعظم السنوات، إذ بلغ متوسط الزيادة السنوية للمدة ٢٠٠٣-٢٠٠٧ حوالي (٣٧٪).

إن الأسباب التي تكمن وراء ذلك عديدة، لعل من أبرزها:-

أ- تعطل العديد من المرافق الاقتصادية.

ب - شحة مصادر الطاقة وارتفاع أسعارها، إذ شهد عاما ٢٠٠٥، ٢٠٠٦ ارتفاعا كبيرا في أسعار المشتقات النفطية، الأمر الذي أسهم بتصاعد جوهري في المستوى العام للأسعار وبخاصة في عام ٢٠٠٦، إذ وصلت نسبة الزيادة في الأسعار حوالي (٥٣٪) وهي الأعلى خلال سنوات البحث.

ج - ارتفاع مستويات المرتبات والأجور لمنتسبي الدولة، وكذلك المدفوعات النقدية (شبكة الحماية الاجتماعية)، وهذا ما أسهم في رفع مستوى الطلب الكلي في الاقتصاد.

د - المشاكل الأمنية التي عانى منها العراق في السنوات الأخيرة، وما رافقها من تصاعد في التكاليف، فبالإضافة إلى تكاليف حمايات الأمن الباهظة، أسهم ضعف الأمن، بالتضافر مع تصاعد أسعار المشتقات النفطية، في زيادة أسعار النقل وتنامي في تكاليف الإنتاج.

هـ - تزايد درجة الانفتاح الاقتصادي على العالم الخارجي، فبالإضافة إلى كون الاقتصاد العراقي هو اقتصاد ريعي يعتمد بالدرجة الرئيسة على صادرات النفط الخام، يلاحظ أيضا تنامي الاستيراد لمختلف أنواع السلع لتغطية متطلبات السوق، وهذا ما جعل العراق عرضة للتضخم النقدي المستورد.

و- وجود خلل في بنية الهيكل الاقتصادي والذي تجسده نسبة عالية من البطالة المقنعة، إذ تشير إحصاءات الناتج المحلي الإجمالي إلى وجود خلل في إنتاجية القوة العاملة، فيشكل القطاع النفطي (١٠٪) من قوة العمل ويسهم بإنتاج (٦٤٪) من الناتج المحلي، في حين تمثل القوة العاملة (٦٦٪) من قطاع الخدمات، تسهم فقط بنسبة (٢٩٪) من الناتج المحلي الإجمالي، وينطبق الأمر نفسه على قطاعي الزراعة والصناعة، إذ تنخفض الإنتاجية إلى مستويات متدنية، وهذا الخلل الهيكلي ينعكس جلياً في عدم التوازن بين سوق السلع والخدمات من ناحية والسوق النقدي من ناحية ثانية.

إن مؤشرات التضخم النقدي المشار إليها واضحة للعيان ليس من خلال الأرقام القياسية لأسعار المستهلك فحسب، إذ تبين العديد من المقاييس الأخرى (كما يعكسها الجدول رقم ٢) نمطاً مشابهاً في تغيرات الأسعار، بصورة عامة، وإن اختلفت بعض التفاصيل من طريقة إلى أخرى ومن مقياس إلى آخر. فواضح من خلال الفجوة التضخمية والرقم القياسي الضمني، تصاعد المستوى العام للأسعار خلال السنوات ١٩٩٧ - ٢٠٠٨ أجمعها، فالفجوة التضخمية التي كانت (١٥٠٦٦.٨) مليار دينار في عام ١٩٩٧، تضاعفت قرابة التسع مرات لتبلغ في عام ٢٠٠٨ (١٥٥٩٢٩.١) مليار دينار. كذلك يظهر الرقم القياسي الضمني تماثلاً إلى حد كبير، إذ يتضح الارتفاع السنوي لهذا المقياس وللمدة بأكملها. كما يتبين من خلال هذين المؤشرين أيضاً أن المدة، قيد البحث، التي أعقبت عام ٢٠٠٣ شهدت وتيرة متصاعدة في الأسعار ونسبة أعلى من تصاعدها في المدة التي سبقت العام المذكور.

وكل ما تم ذكره أعلاه من مسارات الحركة السعرية في العراق، يؤكد أيضاً الرقم القياسي لتكاليف الاستثمار، الذي يعبر عن ارتفاع أسعار السلع الإنتاجية خلال سنوات البحث، باستثناء عام ٢٠٠٤ الذي شهد تناقصاً في هذا المؤشر بالمقارنة بعام ٢٠٠٢، وهذا لا يمكن وصفه بأنه انخفاض في أسعار هذه السلع، بل هو تعبير عن تردّي التكوين الرأسمالي وتأثير الإنفاق الاستثماري، بسبب ظروف الاحتلال.

المبحث الخامس:- الانعكاسات الاقتصادية لظاهرة التضخم النقدي في العراق:

أظهر البحث فيما تقدم أن العراق يعاني من تضخم زاحف، يعكسه الارتفاع المستمر في المستوى العام للأسعار، وأسهم في ذلك عوامل متعددة منها اختلال التوازن بين عرض النقد ومستوى الناتج الحقيقي، وضعف مرونة الجهاز الإنتاجي العراقي واعتماده شبه الكامل على إنتاج النفط الخام سلعة رئيسة معدة للتصدير، بالإضافة إلى ارتفاع الميل الحدي للاستهلاك. ومن ثم يمكن القول أن عوامل التوسع في الطلب والتكاليف تضافرت معاً لتخلق هذه المستويات من التضخم.

وبالتأكيد هنالك انعكاسات وآثار عديدة لظاهرة التضخم، وعلى أكثر من صعيد، وسيحاول الباحثان الوقوف على أبرز تلك الانعكاسات والآثار ولاسيما في المجال الاقتصادي:-

أولاً:- إعادة توزيع الدخل:

إن التضخم بطبيعته يؤدي إلى إعادة توزيع الدخل الحقيقية للشرائح الاجتماعية المختلفة لأن الدخل النقدي والأسعار لا تزداد بالنسبة نفسها للقطاعات كافة، إذ أن التفاوت في درجة ارتفاع أسعار السلع والخدمات يؤدي إلى زيادة الدخل لشرائح اجتماعية على حساب شرائح اجتماعية أخرى والنتيجة تنعكس سلباً على المستوى المعاشي لهذه الشرائح فتدني المستوى المعاشي يكون من نصيب أصحاب الدخل الثابتة (التقاعدية) كالموظفين وجميع الذين يعيشون على المعاشات التقاعدية والإعانات والمدفوعات التحويلية (شبكة الرعاية الاجتماعية) وكذلك بعض الحرفيين الصغار والعمال الزراعيين. في حين ترتفع وبدرجات متفاوتة الدخل الحقيقية لفئة المنظمين وأصحاب المزارع والمقاولين والصناعيين والوسطاء وذوي المهن الحرة

وأصحاب الشركات التجارية، لأن دخول معظم هذه الفئات تتسم بالمرونة والاستجابة السريعة لتغيرات المستوى العام للأسعار.

واستناداً إلى ما جاء في أعلاه وبما أن معظم الموظفين والعمال يعملون أجراً في القطاع العام لدى الدولة ويشكلون نسبة مهمة من القوى العاملة المستخدمة، فإن التضخم يؤدي إلى خلق ظروف غير مناسبة لبلوغ إدارة كفاءة ولعملية التنمية بشكل عام، نظراً للتأثير النفسي السيئ الذي ينجم عنه لدى الموظفين وذلك بالمقارنة مع الشرائح الأخرى ذوي الدخل المتزايدة في النشاط الخاص الذين تزداد دخولهم النقدية نتيجة لزيادة الأرباح التي يجنونها من ارتفاع أسعار السلع والخدمات التي يبيعونها ويقومون بأدائها.

ويمكن الاستدلال على ما تقدم من خلال إلقاء نظرة على الجدول رقم (٣)، إذ يبدو أن الخط البياني لكل من مؤشري الرقم القياسي لأسعار المستهلك ومتوسط نصيب الفرد من الدخل القومي في تصاعد (على الرغم من انخفاض الأخير لبعض السنوات)، ولكن يلاحظ أن نسبة الارتفاع في المؤشر الأول أعلى من مثيلتها في المؤشر الثاني. وما ينتج عن ذلك، وكما يعكسه الجدول أعلاه، هو التدهور الواضح في متوسط دخل الفرد الحقيقي في السنوات الأخيرة من البحث مقارنة بالسنوات الأولى، الأمر الذي يدل على تدني المستوى المعاشي لأبناء المجتمع العراقي عموماً. ولكن هذا لا يدل بالتأكيد على تساوي العبء الواقع على أفراد المجتمع جميعاً، إنما السواد الأعظم منه هو الذي تخلف دخوله النقدية عن اللحاق بتصاعد الأسعار ليصل ببعض الفئات دون مستوى الفقر المحدد دولياً، في حين يستفيد البعض من أصحاب الدخل المتغيرة.

إن عبء التضخم يتفق مع عبء الضرائب غير المباشرة فيما يتعلق بآثره في ارتفاع الأسعار، وإن كان بتأثيرات أشد، فبينما يقع عبء الضرائب غير المباشرة على ذلك الجزء من الدخل الذي يخصص للاستهلاك، ومن ثم يتحمله أصحاب الدخل المحدودة من ذوي الميل الحدي المرتفع للاستهلاك، يلاحظ بالمقابل أن عبء التضخم يقع على الدخل بأكمله، بما في ذلك الجزء المخصص للاستهلاك. وقد يكون المشرع قادراً في بعض الأحيان على التحكم والانتقائية في فرض الضرائب غير المباشرة بحيث يجعلها تسهم، إلى جانب الضرائب المباشرة، في إعادة التوزيع لصالح الفئات الأقل دخلاً.

أما فيما يخص عبء التضخم فإنه يقع على القوة الشرائية للنقود، ومن ثم فإنه يسهم في إعادة توزيع الدخل بشكل معاكس، إذ يكون أشد وقعاً على الفئات محدودة الدخل، وذلك نظراً لارتفاع المنفعة الحدية للنقود بالنسبة لهذه الفئات بالقياس النسبي للفئات عالية الدخل. وهكذا نجد أن التضخم يعمل على إعادة التوزيع، إذ يحصل أصحاب المشاريع على نصيب أكبر في التوزيع، وتتعاظم أرباح المنظمين بصورة واضحة نتيجة الفرق بين تكاليف الإنتاج وبين أسعار المنتجات التي ترتفع بمعدلات أعلى، وبخاصة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار نمط سياسة تسويق المنتجات الذي يتبعه أصحاب المشاريع في ظل ظروف التضخم، من خلال تحكمهم بالمعروض السلعي وحجب المنتجات عن الأسواق توقعاً لزيادة الأسعار، الأمر الذي يزيد من حدة التضخم ويرفع من معدلات الأرباح، في الوقت الذي يصادر التضخم مدخرات ودخول حقيقية من فئات بقيت دخولها ثابتة أو ارتفعت بنسبة أقل من ارتفاع تكاليف المعيشة لمصلحة أولئك الذين ازدادت دخولهم بنسبة أكبر من نسبة ارتفاع تكاليف المعيشة.^(٢٦)

وربما هنالك من يقول أن رواتب منتسبي الدولة في العراق شهدت تحسناً كبيراً خلال السنوات الأخيرة، وبما يصل إلى أضعاف عدة، ونحن نتفق مع هذا القول، إذ شهد عام ٢٠٠٤ استحداث سلماً جديداً

٢٦ - عدنان حسين يونس، التضخم ودور الضرائب المباشرة وإعادة التوزيع في العراق للفترة ١٩٨٦ - ١٩٩٦، المؤتمر العلمي الضريبي الأول، بغداد، ٢٠٠١، ص ٣٧.

لرواتب الموظفين وبما يشكل نقلة نوعية فيها، ثم جرى تعديل آخر لهذا السلم في عام ٢٠٠٨. وكذلك الحال للمتقاعدين ومستحقي دفعات الرعاية الاجتماعية، إذ شهدت السنوات الأخيرة زيادة في رواتبهم التقاعدية ومدفوعاتهم التحويلية. ولكن هذه الزيادات أدت دوراً آنياً في تحسين المستوى المعاشي، إذ سرعان ما أسهمت الضغوط التضخمية والارتفاع المستمر في المستوى العام للأسعار في امتصاص هذه الزيادات من خلال التدهور السنوي في مستوى الدخل الحقيقية للفئات المذكورة.

ثانياً: إعادة توزيع الثروات:

إن استمرار التضخم لهذه الفترة الزمنية في الاقتصاد العراقي، أدى إلى التأثير على القيم الحقيقية للأصول المالية والمادية المملوكة من قبل الأشخاص الاقتصاديين. فمن المعروف أن ارتفاع المستوى العام للأسعار (انخفاض قيمة النقود)، يحقق نفعاً للمدينين على حساب الدائنين، بحيث يصبح بإمكان المقترضين بيع سلع وخدمات أقل لتسديد القيمة النقدية نفسها من المبالغ المقرضة في فترة سابقة. ولذلك يمكن القول أن تحولاً في القوة الشرائية قد حصل من الدائنين إلى المدينين الذين يتكونون من الأفراد الحاصلين على القروض العقارية لشراء أو بناء المساكن، وأصحاب المشاريع الإنتاجية الزراعية والصناعية ومالكي المزارع. ويستفيد هؤلاء من التضخم نتيجة حصولهم على قروض من المؤسسات المالية في وقت اتسمت فيه الوحدة النقدية بالارتفاع وتسديدهم لها في وقت شهدت فيه قيمة النقود تدهوراً ملحوظاً، وهذا ما يخفف من العبء الحقيقي للالتزامات المالية.

أما الأفراد ممن يحتفظون بثرواتهم في صورة موجودات مالية مختلفة كشكل من أشكال الاحتفاظ بالثروة فإنهم يتعرضون إلى خسارة كبيرة في أوقات التضخم. وهذا ما يشمل أصحاب الودائع الثابتة وودائع التوفير لدى المصارف التجارية وصناديق توفير البريد وحسابات الادخار الأخرى، والسبب في ذلك هو التدهور الذي يصيب القيمة الحقيقية لأصولهم المالية نتيجة ارتفاع الأسعار، الأمر الذي يحدث عندما لا تعوض أسعار الفائدة التي يحصلون عليها من امتلاكهم لهذه الأصول البهوت في قوتها الشرائية، أي حينما يكون التضخم بمعدل أعلى من سعر الفائدة الاسمي^(٢٧).

وفي هذا الإطار يمكن القول أن أسعار الفائدة الحقيقية (سعر الفائدة الاسمي ناقصاً معدل التضخم) على الودائع أصبحت سالبة في العراق، إذ أن متوسط أسعار الفائدة الاسمية للسنوات ١٩٩٧ - ٢٠٠٨ لم تتجاوز (١٠٪) لودائع التوفير و (١٢٪) للودائع الثابتة (لمدة سنة) كما تشير بيانات البنك المركزي العراقي، في حين أن متوسط معدل التضخم أو المتوسط السنوي لارتفاع الرقم القياسي لأسعار المستهلك كان أكثر من (٢٠٪) خلال الفترة نفسها، وهذا ما يؤيد فكرة التآكل في القيمة الحقيقية لتلك الودائع.

وإذا كان هذا الحال بالنسبة للدائنين وأصحاب الودائع في أوقات التضخم فإن الأمر مختلف بالنسبة لمالكي الثروات المادية، إذ ينظرون إلى التضخم نظرة إيجابية على أساس أن الارتفاع في المستوى العام للأسعار سوف يصب في زيادة القيم النقدية لموجوداتهم الحقيقية، ويشمل ذلك أصحاب الأراضي والعقارات الحديثة وينطبق أيضاً على أصحاب الأسهم ومالكي المصوغات الذهبية وهذا ما يفسر النزعة لدى أصحاب الأموال في المجتمع العراقي نحو اقتناء هذه الأصول، الأمر الذي يشكل بدوره عاملاً دافعاً لزيادة الطلب عليها ومن ثم ارتفاعات مستمرة في أسعارها. أما أصحاب العقارات القديمة المسكونة فحالهم كحال أصحاب الدخول الثابتة، فهم من المتضررين من التضخم لأنهم التزموا بعقد إيجار ثابت لمدة من الزمن، ويسهم في ذلك الضرر القوانين النافذة في العراق التي تخدم المستأجر عموماً على حساب المؤجر.

ثالثاً:- الأثر على الاستثمار:

من المعروف أن للتضخم بعض الآثار الإيجابية نتيجة لما يوفره من دفعة قوية للاقتصاد وتعزيز الأنشطة المتنوعة، على فرض أساسي هو أن زيادة المعروض النقدي يسهم في زيادة الطلب على عناصر الإنتاج المختلفة لاستخدامها في الأغراض الاستثمارية، وفي ظل وجود موارد إنتاجية معطلة قابلة للاستغلال، ووجود جهاز إنتاجي مرن قادر على الاستجابة للزيادة في الطلب، يمكن تحسين الطاقة الإنتاجية وطرح المزيد من السلع والخدمات، فضلاً عن الحد من البطالة. وهذا صحيح بالنسبة للدول المتقدمة ولكن المشكلة في العراق بوصفه دولة نامية هي أن الموارد والطاقات العاطلة ليست مهيأة للاستخدام المباشر والسريع، فمشكلة الموارد الطبيعية والبشرية العاطلة لا ترجع إلى نقص في الطلب الفعال بل إلى قصور في كفاءة الجهاز الإنتاجي وعدم تأهيل هذه الموارد للانتظام في عجلة الإنتاج.

إن عدم مرونة العرض الحقيقي من السلع والخدمات بالنسبة للطلب المحلي التي شهدتها الاقتصاد العراقي خلال سنوات البحث، قد ولدت هي الأخرى مزيداً من الارتفاع في المستوى العام للأسعار، فضلاً عن إحداث انحراف عن التخصيص الأمثل للموارد. إذ أسهم التضخم في توجيه الاستثمارات في المجتمع. وأول ما نتج عنه هو شيوع حالة عدم اليقين إزاء نتائج الاستثمار وصعوبة إجراء تقدير التكاليف لإنشاء مشاريع مستقبلية، الأمر الذي ترتب عليه توظيف رؤوس الأموال في الأنشطة الاقتصادية ذات المردود السريع أو ذات الدورات الإنتاجية القصيرة والتي تمتاز بالربح المضمون وإن كانت غير مجدية من وجهة نظر التنمية الاقتصادية. وهذه تتمحور، كما أشرنا، في شراء الذهب والأراضي والعقارات فضلاً عن شراء السلع الاستهلاكية تامة الصنع والوسيلة وقطع الغيار بقصد تخزينها لمدة من الزمن ثم بيعها بأسعار باهظة تفوق كثيراً أسعار الشراء، الأمر الذي يسهم بنمو نشاط المضاربة، وهذا ما يعني الزيادة في الدخول النقدية لفئات معينة دون أن يصب ذلك في خدمة الاقتصاد الوطني الحقيقي، بمعنى دون أية مشاركة في نمو القطاعات السلعية المنتجة مثل الزراعة والصناعة. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال متابعة نسبة مساهمة تلك القطاعات في الناتج المحلي الإجمالي في العراق. ففي عام ٢٠٠٠ ساهم قطاع الزراعة والصيد والغابات بمبلغ (٤٥٨٩) مليون دينار (بالأسعار الثابتة لعام ١٩٨٨)، أي بنسبة مقدارها (١٠,٨٪) من الناتج المحلي الإجمالي لذلك العام البالغ (٤٢٣٥٨,٦) مليون دينار. ثم انخفضت هذه النسبة إلى (٧,٦٪) في عام ٢٠٠٨، إذ أصبح الناتج في القطاع المذكور (٤٠٣٦,٢) مليون دينار في الوقت الذي بلغ فيه الناتج المحلي الإجمالي (٥٣٢٠٥,٢) مليون دينار (بالأسعار الثابتة لعام ١٩٨٨).

أما بالنسبة لقطاع الصناعة التحويلية فقد انخفضت مشاركته في الناتج المحلي الإجمالي من (٤,١٪) إلى (٢,٢٪) بين عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٨ على التوالي، إذ انخفض الناتج في هذا القطاع من (١٧٤٨,٣) مليون دينار إلى (١١٥٩,٤) مليون دينار (بالأسعار الثابتة لعام ١٩٨٨).

في الوقت ذاته يلاحظ أن نسبة مساهمة قطاع تجارة الجملة والمفرد والفنادق في الناتج المحلي الإجمالي، ازدادت من (٤,٢٪) عام ٢٠٠٠ لتصل في عام ٢٠٠٨ إلى (٦,٤٪) وكذلك الحال في قطاع المال والتأمين وخدمات العقارات، إذ ارتفعت نسبة مساهمته بين عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٨ من (٢,٦٪) إلى (١٣,٢٪) وهي بالتأكيد قفزة عالية.

ويمكن الخروج بالاستنتاج نفسه بحساب الأسعار الجارية للناتج المحلي الإجمالي، إذ انخفضت نسبة مساهمة كل من قطاعي الزراعة والصناعة التحويلية من (٥,٥٪) عام ٢٠٠٠ إلى (٥٪) عام ٢٠٠٨، في

حين قفزت النسبة المماثلة لكل من قطاع التجارة والفنادق وقطاع خدمات العقارات في الناتج المحلي الإجمالي من (٤,٢٪) إلى (١٤,٢٪) خلال العامين المذكورين على التوالي^(٢٨). وعلى الرغم من أن هذه التغيرات الهيكلية تشمل القطاع العام وتؤثر خلل في السياسة الاقتصادية للدولة، إلا أنها تعكس في الوقت ذاته استمرارية القطاع الخاص في نشاطه نحو المجالات التي لا تخدم عملية التنمية الاقتصادية.

من جانب آخر فإن للتضخم آثار سلبية على عملية التخطيط الاقتصادي عموماً، وعلى تخطيط الاستثمار بشكل خاص. فالنظرية الاقتصادية تشير إلى وجود أدوات لتخطيط الاستثمار يتم من خلالها التعرف على حجم الاستثمارات المطلوبة لإحداث معدلات نمو للناتج القومي حسب القطاعات. أي أن هذه الاستثمارات يجري التوقع اللازم لها خلال سنوات الخطة بالاعتماد في التقدير على مدى الحاجة للاستثمار المطلوب لإحداث نمو مستهدف في الاقتصاد العراقي، وذلك من خلال ما يعرف بنسبة رأس المال إلى الناتج القومي. وبعد ذلك يتم البحث عن مصادر لتمويل ما جرى تقديره من استثمار. وهذه النسبة (رأس المال للناتج) مهمة وهي تعكس القدرة الاستيعابية للاستثمار في أي بلد، أي كم هي النسبة المثوية التي يستطيع الاقتصاد القومي أن يقطعها لكل توجه للاستثمار؛ وهذه النسبة تتراوح بين ٢٠٪ - ٢٥٪ بوجه عام في الدول التي ترغب في الحصول على نسب للنمو الاقتصادي تفوق معدلات نمو السكان وبما يرفع من متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي.

كذلك فإن تخطيط الاستثمار في العراق يواجه صعوبة في ظل التضخم الزاحف، فالدولة قد ترغب في تحقيق معدل نمو معين للدخل القومي، ولكن المشكلة تكمن في الجوانب الفنية التي تتحكم في تحديد حجم الاستثمارات المطلوبة لإحداث هذا المعدل. فالكثير من الثوابت تصبح متغيرات ولا يمكن الركون إليها مهما بلغت الدقة في تقديرات معدلات التضخم، وذلك لأن تحويل الجانب المادي من الاستثمار (الأصول الثابتة) إلى قيم نقدية يصبح قريباً من المستحيل. وعلى هذا الأساس فإن خطط التنمية تتحول تحت ظل ارتفاع المستوى العام للأسعار إلى خطط سنوية (مناهج سنوية للاستثمار) لعدم وجود قدرة أساساً على التخطيط لأبعد من سنة. ثم تتضاءل الرؤيا المستقبلية للمخطط إذا استمر التضخم ومحددة، بحيث يكون وضع خطة استثمارية سنوية أيضاً موضع شك لعدم القدرة على التحكم بالخطة وفقاً لحركة المتغيرات الاقتصادية خلال السنة.

رابعا:- الأثر على الاستهلاك:

من المتغيرات الاقتصادية الهامة التي تتأثر بالتضخم هو الاستهلاك. وهنا يرى البعض أن الأفراد يمكنهم مواجهة التضخم بتقليل مستوى استهلاكهم مقابل زيادة مستوى ادخارهم وذلك بدافع الاحتياط ضد ما يحمله المستقبل من مجهول، ولا شك أن حصول هذا الانخفاض في دالة الاستهلاك الفردي سيعمل، بافتراض ثبات الأشياء الأخرى، على فرملة الموجة التضخمية في الاقتصاد.

ولكن هذا الرأي يمكن أن يكون مقبولا في دولة متقدمة يحصل فيها تضخم لفترة لا تتعدى بضع سنوات ويمتاز أفرادها بدرجة عالية من الوعي وتتسم سياستها الاقتصادية بالكفاءة والانسجام فيما بين أدواتها المختلفة. أما في ظل دولة نامية مثل العراق مرت بظروف استثنائية وشهدت تضخما بمستويات عالية ومستمرة فإن السيناريو المتحقق يختلف عن الرأي أعلاه. فارتفاع المستوى العام للأسعار في الاقتصاد العراقي خلال سنوات البحث، وما قبلها، مع الثبات النسبي للدخل النقدي لمعظم شرائح المجتمع، أسهم

٢٨ - وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي، الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات، المجموعة الإحصائية السنوية ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩.

في تدهور الدخول الحقيقية لتلك الشرائح، الأمر الذي أدى إلى تقليص الادخار النقدي للأفراد للمحافظة على مستوى استهلاكهم. ثم أن الانخفاض الذي حصل في القوة الشرائية للنقود (الوجه الآخر للتضخم) أسهم بدفع الأفراد نحو التخلص من السيولة النقدية باتجاه تحويلها إلى سلع وخدمات يمكن أن تزداد أقيامها بمرور الزمن، الأمر الذي أدى بدوره إلى تفاقم حدة الطلب وارتفاع في الأسعار، وهذا يعني أن التضخم لعب دوراً في تخفيض المدخرات النقدية لصالح تشجيع الأفراد على المدخرات العينية، فضلاً عن السعي إلى تحويل السيولة من العملة المحلية إلى عملات أجنبية تتمتع بقدر أكبر من الثبات في أقيامها (كما حصل بشكل واضح في أثناء فترة الحصار الاقتصادي) أو في شكل أصول مادية أخرى، ومن ثم فقدان النقود لإحدى وظائفها المتمثلة بخزن القيم.

من جانب آخر فإن الارتفاع الحاد في الأسعار الذي شهده العراق أدى إلى تشويه نمط الاستهلاك وزيادة التفاوت في المبالغ المخصصة لذلك من قبل الشرائح الاجتماعية المختلفة، إذ أن التباين في قدرتها الإنفاقية أسهم وبشكل ملموس في التأثير على حركة الأسعار وتضاعفها نتيجة ضغوط الطلب على عدد معين من السلع والخدمات مما انعكس سلباً على الاستقرار الاقتصادي.

إن ظاهرة التضخم في العراق بمعنى الارتفاع المستمر في المستوى العام للأسعار أخذ طابع التضخم الزاحف الذي يتصف بارتفاع كبير في أسعار بعض المنتجات وانخفاض في البعض الآخر، ونظراً لأن نسبة الارتفاع في هذه المنتجات أعلى من نسبة الانخفاض في أسعار المنتجات الأخرى لذلك تأخذ الأسعار طابع التصاعد التراكمي والمستمر وكل ذلك حصل بصورة جلية خلال سنوات البحث. وإن أكبر المجموعات السلعية تأثراً في ارتفاع المستوى العام للأسعار هي مجموعة المواد الغذائية الزراعية بعمامة والمنتجات الحيوانية بصفة خاصة، وهذا ما ولد ضعفاً في الإنتاج الزراعي من ناحية وقدرة قطاع التجارة الداخلية على استغلال هذه الظاهرة من ناحية أخرى، وذلك لتحقيق أرباح كبيرة يمكن الاستدلال عليها من الفرق المتزايد بين أسعار الجملة وأسعار المستهلك.

خامساً: - الأثر على ميزان المدفوعات :

إن ارتفاع معدل التضخم على الصعيد الوطني بصورة أكبر من معدلات التضخم على المستوى الدولي يؤدي إلى رفع أسعار الصادرات بالنسبة للأسعار السائدة في السوق الدولية، وبالنتيجة يؤدي ذلك إلى تدني قابلية الصناعات المحلية على التنافس في الخارج. بالمقابل فإن التوسع في الإنفاق الحكومي وزيادة الدخول النقدية للأفراد يترتب عليها زيادة في الطلب ليس فقط على السلع المنتجة محلياً، وإنما على السلع المستوردة أيضاً، الأمر الذي يؤدي إلى استنزاف جزء من موارد الدولة من النقد الأجنبي. وهذا ما ينطبق على الاقتصاد العراقي، فإذا استثنينا صادرات النفط الخام يلاحظ مدى الاختلال (العجز) الذي يعاني منه ميزان المدفوعات، ثم تأتي الضغوط التضخمية، فضلاً عن ارتباك السياسات الاقتصادية، لتعمق من مشكلة العجز تلك، وهذا لا يشمل الفترة التي سبقت عام ٢٠٠٣ وما رافقها من حصار اقتصادي فحسب، وإنما يمتد حتى للسنوات التي أعقبت العام المذكور، إذ اتجهت القوة الشرائية المتنامية التي شملت بعض فئات المجتمع ومنها منتسبي الدولة نحو البضائع المستوردة بخاصة في ظل غياب تام للقيود القانونية والكمركية لمدة تجاوزت السنة.

وعلى هذا يمكن استنتاج التأثير السلبي للتضخم على ميزان المدفوعات، من خلال القوة الشرائية المتزايدة التي لا تواجهها زيادة كافية في الإنتاج المحلي، ومن ثم يرتفع الميل الحدي للاستيراد وتقل مقدرة الاقتصاد الوطني على التصدير، وتهتز قيمة العملة قياساً بالعملات الأجنبية، وتختل بالتالي معدلات التبادل بين السلع الوطنية والأجنبية، ويقل بذلك مجدداً الميل الحدي للتصدير.

المبحث السادس :- الاستنتاجات والتوصيات :

يتضح من خلال العرض لنظريات التضخم في الفكر الاقتصادي أنها على اختلاف منطلقاتها ومرحلة نمو الاقتصاد الرأسمالي التي تعكسها والظروف التاريخية التي ظهرت في ظلّها والحلول والسياسات التي تعرضها لمعالجة ظاهرة التضخم تلتقي عند حقيقة جوهرية وهي :

إن التضخم هو في الأساس زيادة محسوسة في المستوى العام للأسعار وهذه الحقيقة تفسّر ظاهرة ارتفاع الأسعار في ظروف الرواج الاقتصادي كما تفسرها في ظل الكساد، إذ يتجه العرض إلى التناقص بمعدل أسرع من تناقص الطلب ومن ثم يظل الطلب أكبر من العرض عند المستوى الأقل من الناتج.

ومع أن هذه النظريات جميعها تلتقي عند تفسير التضخم بالاختلال بين العرض والطلب غير إنها لا تقدم الأسباب الحقيقية التي تؤدي إلى هذا الاختلال. وصحيح أن زيادة كمية النقود أو زيادة الإنفاق أو الاختلال بين الاستثمار والادخار أو ارتفاع التكاليف يسهم بمقدار أو بآخر في ارتفاع الأسعار ولكن هذه النظريات لم تفصح عن السبب الذي يؤدي إلى تجاوز كمية النقود أو الإنفاق أو الاختلال بين الاستثمار والادخار وارتفاع التكاليف بالقدر الذي يخل بالتوازن بين العرض والطلب وبالتالي ظهور الضغوط التضخمية والانتكاسات الانكماشية بمعنى مرور الاقتصاد بالدورات الاقتصادية، كما إن هذه النظريات تطرح حلولاً ناقصة لظاهرة التضخم والانكماش. فنظرية كمية النقود تطرح السياسة النقدية كحل، ونظرية الطلب تطرح السياسة المالية، ونظرية الاختلال بين الادخار والاستثمار تطرح قضية سعر الفائدة، أما نظرية تضخم الكلفة فتطرح إلى جانب السياسة النقدية والمالية التي تستهدف اقتصاد الزيادة في الأجور سياسة فرض قيود سياسية واقتصادية على مستلمي الأجور والرواتب.

إن التضخم وإن كان بطبيعته ظاهرة نقدية إلا أنه في الواقع انعكاس لاختلال التوازن الاقتصادي، فالتضخم هو انعكاس لاختلال بين الطلب الكلي والعرض الكلي بين نمط الطلب وتشكيلة العرض بين التدفقات العينية (السلع والخدمات) والتدفقات النقدية بين كل عامل من عوامل الإنتاج والطلب عليه بين طلب قطاعات الاقتصاد الوطني من أحد القطاعات وقدرة هذا القطاع على توفير المطلوب منه من السلع والخدمات وأخيراً بين طلب أي قطاع من قطاعات الاقتصاد الوطني وقدرة القطاعات الأخرى على الوفاء بهذا الطلب.

بين البحث أن الاقتصاد العراقي شهد التضخم طبقاً للتعريف الشائع وهو الارتفاع في المستوى العام للأسعار، إذ كان التغير السنوي في الأرقام القياسية العامة لأسعار المستهلك في العراق إيجابياً خلال المدة (١٩٩٧ - ٢٠٠٨)، وإن اختلفت النسبة في ذلك من سنة لأخرى، كما توضح في الجدول رقم (١)، والاستنتاج الرئيس هنا أن متوسط التغير السنوي كان محدود (١٥,٢٪) خلال السنوات ١٩٩٧ - ٢٠٠٢، في حين تجاوز هذا المتوسط ضعف ذلك في السنوات اللاحقة ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨، إذ بلغ حوالي (٣٠,٧٪).

أما الرقم القياسي الضمني والرقم القياسي لتكاليف الاستثمار فشهدت هي الأخرى تغيراً سنوياً مرتفعاً تجاوز نسبة الـ (٢٠٪) في معظم سنوات البحث، وكما هو واضح في الجدول رقم (٢).

إن مدلولات هذه الأرقام وغيرها من المؤشرات التي تم بحثها تؤيد فرضية البحث، إذ أن أثر الإصدار النقدي الجديد على الأسعار كان واضحاً، فشهد العراق تضخماً نقدياً من خلال زيادة المعروض النقدي بالقياس للطلب عليه، وهذا الاختلال في الاقتصاد العراقي والمتمثل بعدم التوازن بين هذين المتغيرين هو دلالة على أن السياسة النقدية قد سارت على غير هدى وبدون ارتباط وتكامل مع أهداف النشاط الاقتصادي كالإنتاج والاستهلاك والاستثمار. وهذا ما اقترن بسياسة مالية توسعية أبرز ملامحها هو الارتفاع في الموازنة التشغيلية للدولة مقابل تدني وضعف في الجهاز الضريبي.

وفيما يأتي نستعرض مجموعة من السياسات والخطوات (كتوصيات)، بغض النظر عن كون بعض منها معمول به بشكل أو بآخر وذلك بهدف التكامل في استعراض التوصيات الأساسية لمعالجة ظاهرة التضخم في الاقتصاد العراقي:

١. ضرورة تخفيض الإنفاق الجاري في ضوء مراجعة تفصيلية لمكوناته المختلفة لتحديد أهميتها ومدى ضرورتها على أن تتضمن هذه المراجعة موازنة الدولة وأنشطة القطاع العام.
٢. إقرار التخصيصات الاستثمارية في ضوء معرفة حدود الموارد الحقيقية المتاحة والإقراض الاقتصادي الذي يؤمن فعلاً عائداً يفوق أصل القرض وفوائده طبقاً لحسابات مالية واقتصادية دقيقة.
٣. إعداد دراسات الجدوى الفنية والاقتصادية الكاملة للمشاريع الإنتاجية التي تلبي المتطلبات الأساسية الداخلية وبشكل خاص المشاريع الاستثمارية التي تساعد على تعظيم موارد القطر.
٤. الاستمرار في تنظيم وتطوير الأسس الإدارية والتنظيمية لجهاز ضريبة الدخل بحيث يمكن إعادة المسح الضريبي بفترات مناسبة وتكثيف التحري الضريبي والحيلولة دون التهرب بمختلف الوسائل.
٥. ضرورة التمييز بين ضريبة الدخل على العمل الحر والعمل المأجور لتكون مرتفعة بالنسبة للعمل الحر ومنخفضة للعمل المأجور. فضلاً عن تقليل الإعفاءات الضريبية حتى تحقق الضريبة أهدافها الاقتصادية.
٦. العمل على زيادة الضرائب على الملكيات العقارية والأصول الأخرى والتي تدخل في عمليات المضاربة على أن لا يضر ذلك بالفئات من ذوي الدخل المحدود.
٧. إعادة النظر بالسياسة النقدية للبلد بما يؤدي إلى تقليص الإصدار النقدي الجديد الذي لا يقابله عرض مناسب من السلع والخدمات.
٨. العمل على وضع سلم ترتيبي وحسب الأهمية لاستخدام النقد الأجنبي المتوفر بما يضمن زيادة استيراد مستلزمات الإنتاج والسلع الإنتاجية للقطاع الخاص الصناعي والزراعي بأسعار صرف مناسبة، مع اشتراط تسعير المنتجات بما يتناسب مع كلفة الحصول عليها، بالإضافة إلى تشغيل الجهاز الإنتاجي القائم بطاقاته الكاملة.
٩. اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة للحفاظ على مستوى معاشي مناسب لأصحاب الدخل المحدودة والثابتة وحمايتهم من الارتفاعات السعرية الكبيرة، من خلال ربط هذه الدخل بمؤشر ارتفاع تكاليف المعيشة.
١٠. التحكم بالسياسة السعرية وجعلها عاملاً في امتصاص الفوائض النقدية وتقليص استهلاك السلع الكمالية وذلك عن طريق هوامش الأرباح والضرائب غير المباشرة.

جدول رقم (١)

الأرقام القياسية لأسعار المستهلك في العراق للسنوات ١٩٩٦ - ٢٠٠٩
١٩٩٣ = ١٠٠

السنة	الرقم القياسي العام %	التغير السنوي %
١٩٩٦	٢٢٤٢.١	—
١٩٩٧	٢٧٥٩.٢	٢٣.١
١٩٩٨	٣١٦٦.٧	١٤.٨
١٩٩٩	٣٥٦٥.٠	١٢.٦
٢٠٠٠	٣٧٤٢.٥	٥.٠
٢٠٠١	٤٣٥٥.٣	١٦.٤
٢٠٠٢	٥١٩٦.٦	١٩.٣
٢٠٠٣	٦٩٤٣.٥	٣٣.٦
٢٠٠٤	٨٨١٥.٦	٢٧.٠
٢٠٠٥	١٢٠٧٣.٨	٣٧.٠
٢٠٠٦	١٨٥٠٠.٨	٥٣.٢
٢٠٠٧	٢٤٢٠٥.٥	٣٠.٨
٢٠٠٨	٢٤٨٥١.٣	٢.٧
٢٠٠٩	٢٤١٥٥.١	٢.٨

المصدر: - وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي، الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات، المجموعة الإحصائية السنوية لعام للأعوام ٢٠٠٧ - ٢٠٠٩.
ملاحظة: -

١ / تم حساب التغير السنوي من قبل الباحثين بالاستناد إلى البيانات المتوافرة في الجدول.
٢ / يلاحظ انخفاض الرقم القياسي لعام ٢٠٠٩ مقارنة بعام ٢٠٠٨ وهذا لا يعني انخفاضاً في عموم الأسعار في سنة ٢٠٠٩، إنما هو يعود إلى فقرة واحدة حسب بيانات الجهاز المركزي للإحصاء وهي الوقود والإضاءة. وتعليل ذلك هو توقّر المشتقات النفطية واعتماد البطاقة الوقودية. ولذلك يتحفظ الباحثان على الرقم القياسي لعام ٢٠٠٩ لأنه لا يعكس حقيقة المستوى العام للأسعار.

جدول رقم (٢)

الفجوة التضخمية والرقم القياسي الضمني والرقم القياسي لتكاليف الاستثمار في العراق للسنوات ١٩٩٧

— ٢٠٠٧ (مليار دينار)

الأسعار الثابتة ١٩٨٨=١٠٠

السنة	الناتج المحلي الإجمالي GDP بالأسعار الجارية (١)	الناتج المحلي الإجمالي GDP بالأسعار الثابتة (٢)	الفجوة التضخمية (١) - (٢) = (٣)	الرقم القياسي الضمني (١) + (٢) = ١٠٠٠ (٤) %	التغير السنوي (٥) %	إجمالي تكوين رأس المال الثابت GFCF بالأسعار الجارية (٦)	إجمالي تكوين رأس المال الثابت GFCF بالأسعار الثابتة (٧)	الرقم القياسي لتكاليف الاستثمار (٦) + (٧) = ١٠٠٠ (٨) %	التغير السنوي (٩) %
١٩٩٧	١٥٠٩٣	٢٦١	١٥٠٦٦,٨	٥٧٣٨,٨٢	—	١٠٦	١٢٦	٧٦٠٣٣٣	—
١٩٩٨	٣٤٤٦٤	٧١٦	٣٤٤٢٢,٢	٨٢٤٤٩,٨	٢١,٨	٢٦٧,٢	٣٦٦,٠	٥٧٥٥٨	٧,٣١
٢٠٠٢	٤١٠٢٣	٤٠٣	٤٠٩٨٢,٦	١٠١٧٩٣,٨	٧,٨	٢١٩٩,٠	٣٣١,٨	٦٦٢٧٤,٩	٥,٥
٢٠٠٤	٤٧٩٥٩	٣٣,٢	٤٧٩٢٥,٣	١٤٤٤٥٣,٣	٢١,٠	٢٨٥٧,٨	٤,٣٢٨	٦٦٠٣٠,٥	٧,١٠ -
٢٠٠٦	٩٥٥٨٨	٤٧,٩	٩٥٥٤٠,١	١٩٩٥٥٧,٠	١٩,١	١٦٢٨٢,٩	١٦,٩٩٩	٩٥٧٨٧,٤	٢٢,٥
٢٠٠٨	١٥٥٩٨٢	٥٣,٢	١٥٥٩٢٩,١	٢٩٣٢٠,٠	٢٣,٥	١٣٨٥٨,٣	١٣,٤٥٨	١٠٢٩٧٤,٠	٣,٧٥

المصادر: -

١. وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي، الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات، المجموعة الإحصائية السنوية للأعوام ٢٠٠٤، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩.
 ٢. وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي، الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات، مديرية الحسابات القومية، الدخل القومي والنتائج المحلي الإجمالي للسنوات ١٩٩٧ - ٢٠٠٤، آب ٢٠٠٥، ص ١٢.
- الملاحظات :-
١. تم حساب الأعمدة (٣) (٤) (٥) (٨) (٩) من قبل الباحثين بالاستناد إلى البيانات الموجودة في الجدول.
 ٢. هناك طفرة كبيرة في الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية لسنة ٢٠٠٨ مقارنة بسنة ٢٠٠٧ في حين أن الناتج المحلي لسنة ٢٠٠٨ حسب صندوق النقد الدولي = ١٠٨٤٦٠ مليار دينار وهذا أقرب للصحة من الجهاز المركزي للإحصاء.

جدول رقم (٣)

الرقم القياسي لأسعار المستهلك ومتوسط دخل الفرد النقدي والحقيقي للمدة ١٩٩٧ - ٢٠٠٩

السنة	الرقم القياسي لأسعار المستهلك %	متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي (ألف دينار)	متوسط دخل الفرد الحقيقي (ألف دينار)
١٩٩٧	٢٧٥٩.٢	٦٠٠.٤	٢١.٨
١٩٩٨	٣١٦٦.٧	٦٦١.٣	٢٠.٩
١٩٩٩	٣٥٦٥.٠	١٣٤٢.١	٣٧.٦
٢٠٠٠	٣٧٤٢.٥	١٩٣٦.٢	٥١.٧
٢٠٠١	٤٣٥٥.٣	١٤٨٠.١	٣٤.٠
٢٠٠٢	٥١٩٦.٦	١٣٥٦.٥	٢٦.١
٢٠٠٣	٦٩٤٣.٥	٩٧٦.٨	١٤.١
٢٠٠٤	٨٨١٥.٦	١٥٤٠.٢	١٧.٥
٢٠٠٥	١٢٠٧٣.٨	٢٠٣٠.٥	١٦.٨
٢٠٠٦	١٨٥٠٠.٨	٢٩٢٦.٣	١٥.٨
٢٠٠٧	٢٤٢٠٥.٥	٣٣٧٢.٤	١٣.٩
٢٠٠٨	٢٤٨٥١.٣	٤١٢٥.٠	١٦.٦
٢٠٠٩	٢٤١٥٥.١	٣٦٤٧.٠	١٥.١

المصدر السابق ذكره في الجدول رقم (١)

ملاحظة :- حسب متوسط دخل الفرد الحقيقي من قبل الباحثين وفق الصيغة الآتية :-

$$\text{متوسط دخل الفرد الحقيقي} =$$

$$\text{متوسط دخل الفرد الحقيقي} = \frac{\text{الرقم القياسي العام لأسعار المستهلك}}{100}$$

دور الأم في نقل الجنسية الى الأولاد في التشريعات العربية والعراقية - دراسة مقارنة -

د. حسن الياسري^(١)

ملخص البحث :

إن عملية نقل الجنسية إلى الأولاد إنما تتم بالأساس عن طريق الأب. وأعني بذلك أن الأب يفيض بجنسيته المفروضة - الأصلية - على الأولاد، فولد العراقي عراقي، وهكذا. وهذا ما درجت عليه معظم التشريعات في العالم. أما الأم فإن القاعدة العامة، أنها غير قادرة على نقل الجنسية الأصلية إلى الأولاد بالسوية مع الأب، ولكن، وبالنظر للإعتبارات الإنسانية، فإن التشريعات العربية، قد قصت - بصورة عامة - بإمكانية الأم على نقل جنسيتها إلى الأولاد، ولكن بصورة إستثنائية، وبناء على توافر شروط معينة. ولقد بقي الحال على ما هو عليه، حتى جاء التغيير في عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥، وما تلاهما. وبمقتضاه غدا للأم - في بعض التشريعات - الحق في نقل الجنسية الأصلية إلى الأولاد بالسوية مع الأب، ودون قيد أو شرط مضاف. بيد أن ذلك التغيير ما زال محدودا وفي تشريعات محدودة.

المقدمة :-

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا وشفيعنا محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين. وبعد: فإن مقدمة البحث ستخصص لبحث المحاور الآتية:

أولاً:- إشكالية البحث:

إن الإشكالية التي يطرحها البحث، تتمثل في إثارة التساؤل المتعلق بقدرة الأم على نقل الجنسية إلى الأولاد، فهل الأم لها القدرة ذاتها التي يمتلكها الأب في نقل الجنسية، أو لا؟ للإجابة عن هذا التساؤل، ينبغي الإشارة إلى أن هنالك محورين في عملية نقل الجنسية. المحور الأول: ومفاده أن كلا من الأب والأم لهما القدرة على نقل الجنسية إلى الأولاد.

وبمقتضى هذا المفهوم يكون للأم الحق في نقل جنسيتها إلى أولادها، على حد سواء، مع الأب، إذ تنتقل الجنسية هنا، بناءً على ما يمكن تسميته "حق الدم المطلق". إن غالبية التشريعات، لحد الآن، ما زالت قاصرة عن الوصول إلى هذا المفهوم.

المحور الثاني: ومؤداه أن الأب وحده، هو القادر على نقل الجنسية إلى الأولاد، دون الأم، بناءً على "حق الدم المطلق". بيد أن ذلك لا يمنع الأم من نقل الجنسية إلى أولادها، بطريق آخر. بعبارة أوضح، إن عملية نقل الجنسية، من قبل الأب والأم، على وفق هذا التصور، قد تتفق من حيث المفهوم، لكنها تختلف من حيث المدى. وبيان ذلك، إن المحصلة النهائية، هي أن كلا من الأب والأم سينقل الجنسية إلى الأولاد. أما من حيث المدى، فإن الأب سينقل الجنسية بصورة مطلقة "حق الدم المطلق"، أما الأم، فإنها ستنقل الجنسية، بصورة استثنائية، لا أساسية. وهو ما يمكن أن يعرف بـ "حق الدم الثانوي". إن هذا المحور، يمثل، وبلا ريب، الاتجاه الغالب في التشريعات، بصورة عامة، والتشريعات العربية بصورة خاصة.

وبناءً على ما تقدم، يغدو من المحبذ، دراسة هذا الموضوع، وما يثيره من إشكاليات تتمثل بوقوع أولاد الأم الوطنية - المتزوجة برجل أجنبي - في حالة أو ظاهرة اللاجنسية، إذ ربما يغدو هؤلاء الأولاد - ثمرة هذا الزواج - دون جنسية، ولا سيما في تلك الحالة التي يحدث فيها الفراق والطلاق بين الأبوين، وتعود الأم إلى وطنها لتجد أن أولادها يعانون أحد الأمرين:

إما أن يكونوا بلا جنسية أساساً، لا جنسية الأم، ولا جنسية الأب. أو أن يكونوا قد حصلوا على جنسية أبيهم - الأجنبية - ويجدون أنفسهم، يعيشون في وطنهم - وطن الأم - بلا جنسية، ويعاملون معاملة الأجانب. وغني عن البيان، مدى الصعوبات والمشكلات التي سيعانون منها طيلة تلك المدة.

ثانياً- هدف البحث:

إن ما يروم البحث الوصول إليه، هي أن عدم قدرة الأم على نقل جنسيتها إلى أولادها، ليست ظاهرة عابرة، أو ظاهرة مرتبطة بتشريع دون آخر - فالحقيقة أن هذه الظاهرة، هي ظاهرة عالمية، وإن الذين يريدون تصحيحها، لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً، ما لم يكن ثمة إجماع دولي على ضرورة تبنيها. ينبني على ذلك، أن نقول، إن من المفترض ابتداءً أن تحصل قناعة لدى المجتمع الدولي، ولدى المشرع الوطني على إعطاء الأم هذا الدور الأساس، ثم يتم تبني ذلك في التشريعات الوطنية. وبعبكس ذلك، فإن التشريع لوحده، دون قناعة بمجدواه، قد لا يغني عن الأمر شيئاً.

ثالثاً- نطاق البحث:

١- النطاق الشخصي:

وأعني به الأفراد الذين يسري عليهم البحث، وهؤلاء الأفراد، هم كل من الأم الوطنية، التي تتزوج برجل أجنبي. ثم أولادهم الذين هم ثمرة هذا الزواج. وهؤلاء قد يحصلون على جنسية أمهم، أو لا يحصلون. بل ربما سيكونون عديمي الجنسية.

٢- النطاق الموضوعي:

وأعني به تحديد المركز القانوني للمرأة الوطنية المتزوجة بأجنبي، وما إذا كانت قادرة على نقل جنسيتها إلى أولادها بصورة مطلقة - حق الدم المطلق - ، أو أن دورها يقتصر على نقل الجنسية بصورة استثنائية - حق الدم الثانوي - .

٣- النطاق التشريعي:

إن التشريعات التي يعتمدها البحث، إنما تتمثل أساساً بتشريعات الجنسية، عربية وعراقية. وسنحاول إجراء المقارنة بين هذه التشريعات، لمعرفة موقفها من الموضوع الذي يطرحه البحث.

رابعاً:- خطة البحث:

بغية الإحاطة بموضوع البحث، فإننا سنقسم البحث، على فصلين إثنيين، تسبقهما بطبيعة الحال مقدمة. نتناول في الفصل الأول دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم المستمد منها - أي حق الدم الثانوي - ، وهذا الفصل سينقسم بدوره على مبحثين إثنيين، نخصص الأول منهما للحديث عن دور الأم هذا في ظل التشريعات العربية، وهذا المبحث بدوره يتوزع إلى مطلبين، نتناول في المطلب الأول منهما، دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم الثانوي غير المعزز بحق الإقليم، ونعرج في المطلب الثاني على دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم الثانوي، والمعزز بحق الإقليم. أما المبحث الثاني من هذا الفصل، فسنكرسه للحديث عن دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم الثانوي في القانون العراقي. أما الفصل الثاني، فسيكون مخصصاً للبحث في دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم المستمد منها بصورة مطلقة، ونعني به حق الدم المطلق. وحيث أن هذه القضية لما تزل مثاراً للجدل والاختلاف، ليس بين التشريعات فحسب، بل وبين الشراح والفقهاء، لذا يغدو صحيحاً التطرق إلى آراء كل من المؤيدين لدور الأم هذا، والمعارضين. وهو ما سيكون محلاً للدراسة في المبحث الأول. أما المبحث الثاني، فلسوف نبين فيه موقف التشريعات العربية والعراقية، من هذا الدور. وهو ما يستلزم بطبيعة الحال، توزيع هذا المبحث إلى مطلبين، نبين في الأول منهما، موقف التشريعات العربية، ونوضح في الثاني موقف التشريعات العراقية، وبالمخصوص قانون الجنسية العراقية النافذ -الجديد- رقم ٢٦ لسنة ٢٠٠٦. وبعد الانتهاء من هذا، وذاك، سوف نختم البحث بخاتمة، نبين فيها أهم النتائج المستخلصة من البحث، وأهم التوصيات والمقترحات. ولسوف نتناول ذلك كله تباعاً، إن شاء الله تعالى. ونسأله عز وجل أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وإن يوفقنا فيه. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، واليه أنيب-

ربي أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً.

تمهيد

تتفاوت تشريعات الجنسية في دول العالم المختلفة من حيث الأخذ بالأساس الذي بموجبه يتم فرض الجنسية الأصلية^(٢).

ويمكن إجمال موقف التشريعات في هذا الصدد بالاتجاهات الثلاثة الآتية:

١- إتجاه أول، يتبنى في فرض الجنسية الأصلية ما يعرف بأساس أو حق الدم الأصل المستمد من الأب وحده، ومؤدى هذا الأساس أن يتم فرض الجنسية على المولود بمجرد ولادته ما دام أبوه وطنياً، وبغض النظر عن كون الولادة في داخل الإقليم أو خارجه. كما لو ولد لعراقي الجنسية - مثلاً - فإن هذا الولد سيكون بالتبعية لأبيه عراقي الجنسية أيضاً، استناداً على أساس أو حق الدم المستمد من الأب، وسواء

٢ نعني بالجنسية الأصلية، تلك الجنسية التي تفرض على المولود فور ولادته، وبقوة القانون، ولا تحتاج إلى أي إجراء آخر، ولذلك تسمى أيضاً بالجنسية المفروضة أو "جنسية الميلاد".

أُكانت الولادة في داخل العراق أم خارجه. ولذا يعرف بـ "حق الدم الأصيل"^(٣) لأنه مستمد من الأصل العائلي.

٢. اتجاه ثان، يتبنى في فرض الجنسية الأصيلة ما يُعرف بأساس أو حق الإقليم. وبمقتضى هذا الأساس يتم فرض الجنسية على المولود الذي يولد في إقليم الدولة، بصرف النظر عن جنسية أبيه أو والديه.

٣. اتجاه ثالث، يقوم على أساس الأخذ بالحقين السابقين معا في فرض الجنسية، أي بحق الدم وحق الإقليم معا، ويتم الأخذ بذلك في حالة فرض الجنسية عن طريق الأم. بمعنى آخر أن التشريعات إنما تفرض الجنسية بناء على حق الدم لوحده - في الغالب - فيما لو كانت الولادة للأب، أي بناء على حق الدم المستمد من الأب وحده. أما لو كانت الولادة للأم ووطنية، وبإب مجهول - مثلا - أو لا جنسية له، ففي هذه الحالة يتم فرض الجنسية بناء على أساسين، أو حقين اثنين:

الأول: هو حق الدم، وهو هنا مستمد من الأم لا الأب.

الثاني: هو حق الإقليم، بمعنى أن تتم الولادة في الإقليم أيضا.

إن هذا البحث يأتي لدراسة حق الدم المستمد من الأم فقط، ودوره في نقل الجنسية. ومعلوم أن التشريعات العربية - وحتى الأجنبية - مختلفة في هذا الصدد، ذلك أن الغالب والشائع فيها، هو فرض الجنسية بناء على حق الدم - الأصيل - المستمد من الأب وحده، ولا يكون للأم دور في نقل الجنسية إلى أولادها إلا إذا تعزز حق الدم بالحق الآخر، وأعني به حق الإقليم. وبناء على ذلك يكون للام دور في نقل الجنسية بناء على حق الدم الثانوي - أي الدم المستمد من الأم - والمعزز بحق الإقليم.

وتأسيسا على ما قد سبق فإننا سنبحث ذلك كله في فصلين، نخصص الفصل الأول لبحث دور الأم في نقل الجنسية بناء على حق الدم المستمد منها، وهو ما سنطلق عليه تسمية "حق الدم الثانوي أو الوقائي". ونخصص الفصل الثاني لبحث دور الأم في نقل الجنسية بناء على حق الدم المستمد منها، وهو ما سنطلق عليه "حق الدم الأصيل". وهو ما سنتناوله تباعا إن شاء الله.

الفصل الأول: دور الأم في نقل الجنسية المبني على حق الدم المستمد منها (حق الدم الثانوي أو

الوقائي)

يعد - كما تقدم - حق الدم الأصيل المستمد من الأب هو القاعدة والأساس الغالب اعتماده في التشريعات - ولا سيما التشريعات العربية - بمعنى أن يحصل المولود على جنسية أبيه فور ولادته وبقوة القانون.

وحيث أن ثمة حالات استثنائية يولد فيها الطفل لأب مجهول أو عديم الجنسية، مما يعني أن هذا الطفل سيقع في حالة اللاجنسية، وسيكون عديم الجنسية، لأنه لا يستطيع أن يكتسب جنسية أبيه، ذلك أن هذا الأخير إما أن يكون مجهولا - أي أن الولادة غير شرعية - ، أو أن يكون معلوما، لكن الأب ينكر النسب، أو أن يكون معلوما لكنه عديم الجنسية.

وتلافيا لهذه الحالة الإستثنائية، ورعاية للطفل من حالة انعدام الجنسية، فقد دأبت التشريعات العربية على إعطاء الجنسية لهذا المولود استنادا على حق الدم المستمد من أمه، وهو ما يمكن أن نسميه "حق الدم الثانوي". وذلك لأنه مفروض على سبيل الاستثناء لا القاعدة، وإن شئت قلت انه مفروض بشكل ثانوي لا أصيل أو - أصلي - . ويمكن أن أسميه أيضا "حق الدم الأمي أو الأمومي"، ذلك أنه مفروض استنادا

٣ يرتأي البعض - ولا سيما في العراق - تسمية هذا الحق "حق الدم الأصلي" وهذه التسمية - الأخيرة - وإن كانت صحيحة، لكننا نعتقد أن التسمية الأولى التي ذكرناها هي الأدق من الناحية اللغوية، وقل مثل ذلك بالنسبة للجنسية الأصيلة التي تسمى في العراق "الجنسية الأصلية".

على حق الدم المستمد من الأم لا الأب. كما يمكن تسميته "حق الدم الوقائي أو الاحتياطي"، ذلك أنه مفروض على سبيل الوقاية والاحتياط، وأن الغاية منه هي وقاية المولود من الوقوع في حالة اللانجسية. وحيث أن هذا الحق يأتي استثناء من القاعدة، لذا يمكن حصره في حالات ضيقة جداً. وبغية الإحاطة بهذه الحالات، فإننا سنتناول ذلك عبر مبحثين إثنين، نخصص الأول منهما لبيان موقف التشريعات العربية، ونكرس الثاني لإيضاح موقف القانون العراقي.

المبحث الأول: دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم الثانوي في التشريعات العربية

إن من يستقصي موقف التشريعات العربية، يخرج بنتيجة مؤداها، أن ثمة اتجاهين إثنين في هذا الصدد. اتجاه أول، يمنح للأخذ بحق الدم المستمد من الأم بوصفه حقاً ثانوياً لا أصيلاً، ودون الحاجة لأن يعزز بحق آخر. بعبارة أوضح، إن هذا الاتجاه يأخذ في حالات استثنائية بحق الدم المستمد من الأم في فرض الجنسية على المولود، دون أن يشترط كون الولادة في إقليم الدولة. واتجاه آخر، يمنح للأخذ بحق الدم المستمد من الأم بوصفه حقاً ثانوياً، لا أصيلاً، أي على سبيل الإستثناء. ولكن بشرط، وهو أن يعزز بحق آخر، هو حق الإقليم، بمعنى أن تتم الولادة في إقليم الدولة. وهو ما سنبينه في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: نقل الجنسية بناءً على حق الدم الثانوي غير المعزز بحق الإقليم
تأخذ بعض التشريعات العربية بهذا الاتجاه، ومؤدى ذلك أن تفرض الجنسية على المولود بناءً على حق الدم المستمد من أمه، بصرف النظر عن مكان الولادة. وسنتعرض في أدناه موقف هذه التشريعات.

أولاً: القانون السعودي:

إن موقف التشريع السعودي يختلف عن غيره من التشريعات العربية، وذلك بإنفراده بحصر الإعتراف بحق الدم الثانوي في ثبوت الجنسية من جهة الأم لمولودها، في حالة واحدة فقط، وهي حالة الولد الشرعي. ولا شك في أن هذا الموقف يختلف تماماً عن موقف بقية التشريعات العربية، ذلك أننا قلنا أن الغاية من فرض هذه الجنسية هي حماية ورعاية الطفل المولود لأم وطنية وأب مجهول أو لا جنسية له. بمعنى آخر إن فرض الجنسية إنما يكون في حالة الولد غير الشرعي، أو في حالة كون الأب عديم الجنسية. أما التشريع السعودي فإنه لم يأخذ بحالة الولد غير الشرعي. أي أنه لم يعطه الحق في الجنسية، بل اقتصر الأمر على الولد الشرعي فقط، والمولود لأب مجهول الجنسية أو عديمها. وبهذا السياق جاءت المادة السابعة من نظام^(٤) الجنسية السعودية رقم ٤ لعام ١٣٧٤هـ النافذ لتتص على الآتي:

"يكون سعودياً من ولد داخل المملكة العربية السعودية أو خارجها لأب سعودي أو لأم سعودية وأب مجهول الجنسية أو لا جنسية له".

ومن هذا النص يمكن أن نستخلص الآتي:

١- قد تبين أن المشرع السعودي لا يأخذ بحالة الولد غير الشرعي، وأن النص واضح في دلالة على حالة المولود لأم سعودية وأب مجهول الجنسية أو عديمها، مما يعني أن الولادة ينبغي أن تكون شرعية. ويبدو أن هذا التوجه مبعثه الفلسفة التي يعتنقها التشريع السعودي القائم على أساس احترام ثوابت الشريعة الإسلامية، وحيث أن الولد غير الشرعي لا نسب له، فكذا لا جنسية له. وهذا بلا ريب خلط بين النسب والجنسية.

٤ - نظام هنا بمعنى قانون.

٢- إن هذا النصي - وكذا بقية النصوص في التشريعات العربية - يُفرق بين جهالة الجنسية، وانعدامها. وذلك أمر صحيح، وقد درجت عليه التشريعات العربية، ومنها القانون العراقي - كما سيتضح لاحقاً - ذلك أن جهالة الجنسية تختلف عن انعدامها. فجهالة الجنسية تعني أننا نجهل جنسية الأب مع أنه قد تكون له جنسية في الواقع. أما انعدام الجنسية، فإنها تعني أنه ثابت أن لا جنسية للأب^(٥). وحالة اللاجنسية أو انعدامها تتحقق في حالات كثيرة، منها أن الأب قد أسقطت عنه الجنسية على سبيل العقوبة، أو أنه قد فقدتها بأحد أسباب فقدان^(٦).

٣- ثمة فارق في الآثار المترتبة على جهالة الجنسية، والآثار المترتبة على اللاجنسية أو انعدامها، في حالة الكشف عن جنسية الأب فيما بعد، وحالة اكتساب الجنسية من قبل الأب عديم الجنسية بعد الولادة. ففي حالة اكتساب الأب عديم الجنسية، وقت ولادة ولده الجنسية لاحقاً، فإن هذا الكسب الجديد لا أثر له على جنسية ولده، إذ يظل الطفل متمتعاً بالجنسية التي منحت له على أساس حق الدم الثانوي، لأن العبرة بحالة الأب وقت ولادة الطفل، أما إذا كان الأب مجهول الجنسية وقت ولادة الطفل، ثم علم أن له جنسية أخرى، فهنا يجب الرجوع إلى أحكام الجنسية الأصلية، حيث تثبت جنسية الأب لولده بناءً على حق الدم الأصلي.

ويستنتج من هذا أن جنسية الأم الوطنية هنا تثبت لولدها بصفة دائمة إن كان الأب عديم الجنسية، بيد أنها تثبت بصفة مؤقتة، إن كان الأب مجهول الجنسية.

ثانياً: القانون الكويتي:

يعد القانون الكويتي من التشريعات التي أخذت بالاتجاه المتقدم في فرض الجنسية المبنية على حق الدم الثانوي غير المعزز بحق الإقليم، بيد أنه يختلف عن القانون السعودي، وذلك بتوسيعه النص ليشمل الولد غير الشرعي. وتجدر الإشارة إلى أن موقف القانون الكويتي من هذه القضية قد مر بمرحلتين:

أ- المرحلة الأولى:

هي مرحلة صدور قانون الجنسية الكويتي النافذ رقم ١٥ لعام ١٩٥٩ إذ نصت المادة الثالثة من هذا القانون على ما يأتي:

"يكون كويتياً ١- من ولد في الكويت أو في الخارج، من أم كويتية، وكان مجهول الأب أو لم تثبت نسبته لأبيه قانوناً، أو كان أبوه مجهول الجنسية أو لا جنسية له".

وبمقتضى هذا النص يمكن استنتاج الآتي:

١- إن القانون الكويتي يضيف الجنسية المفروضة - الأصلية - على الأولاد بناءً على حق الدم الثانوي المستمد من الأم، وذلك في حالتين:

- الحالة الأولى: - حالة كون الولادة لأُم كويتية وأب مجهول أو لم يثبت نسب الولد إليه. ومعنى ذلك كون هذا الولد ولداً غير شرعي، وذلك بأن يكون ثمة علاقة غير مشروعة، أو أن تكون ثمة علاقة لكن الأب لا يعترف بنسب ولده، فإن المحصلة من هذا وذاك هو كون الولد غير شرعي. وهنا يختلف القانون الكويتي - ومعه أكثر التشريعات العربية - عن موقف القانون السعودي الذي لا يأخذ بهذه الحالة - كما تقدم آنفاً - .

٥ - ينظر: د. سعيد يوسف البستاني، الجنسية والقومية في تشريعات الدول العربية، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٣، بيروت، ص ١٣٢-١٣٣.

٦ - للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: د. حسن الياسري، ظاهرة اللاجنسية، بين القانون العراقي والقانون المقارن، بحث منشور في مجلة بيت الحكمة، بغداد.

الحالة الثانية: حالة كون الولادة من أم كويتية وأب مجهول الجنسية أو عديمها، وفي هذه الحالة يكون الولد شرعياً وليس ثمة إنكار للنسب، لكن الأب مجهول الجنسية، فلا تعرف جنسيته، أو أن يكون بالأصل عديم الجنسية. ففي هذه الحالة تفرض الجنسية على المولود استناداً على حق الدم المستمد من الأم، وبصرف النظر عن مكان الولادة سواء أكانت في الكويت أم في خارجها.

٢- إن العبرة بجنسية الأم وقت ولادة الطفل لا قبلها ولا بعدها، وعلى هذا ينبغي أن تكون الأم كويتية الجنسية لحظة ولادة ولدها. وكذا الحال فإن العبرة بكون الأب مجهولاً أو لم تثبت نسبة الولد إليه أو بكونه عديم الجنسية أو مجهولها، هو لحظة ولادة الطفل.

ويترتب على ذلك أنه في حالة كون الأب مجهولاً وقت الولادة، ثم عرف، أو لم يثبت النسب إليه وقت الولادة، ثم ثبت بعد ذلك، وتبين بأن الأب كويتي الجنسية وقت الولادة، بقيت للولد الجنسية الكويتية التي فرضت عليه بناءً على حق الدم الثانوي، لكن أساسها القانوني سيتغير إذ ستكون استناداً على حق الدم من قبل الأب لا الأم. أما إذا ثبت أن الأب كان متمتعاً بجنسية أجنبية وقت الولادة، ففي هذه الحالة تزول الجنسية الكويتية عن الطفل وبأثر رجعي، لأن الولد القاصر يتبع أباه. وهكذا الحال فيما لو كان الأب مجهول الجنسية أو عديمها.

وكل ذلك مبني على كون فرض الجنسية بناءً على حق الدم الثانوي هو أساس أو ضابط احتياطي أو وقائي، وإن الأصل هو فرض الجنسية بناءً على حق الدم المستمد من الأب.

ب - المرحلة الثانية:

ونعني بها مرحلة تعديل النص القانوني السابق، إذ تم تعديله في عام ١٩٨٠ على النحو الآتي: "يكون كويتياً: ١- من ولد في الكويت أو في الخارج من أم كويتية، وكان مجهول الأب أو لم تثبت نسبته لأبيه قانوناً".

وواضح من هذا التعديل أنه قصر حالات إضفاء الجنسية الكويتية بناءً على حق الدم الثانوي على حالة كون الأم كويتية لحظة الولادة، وكون الأب مجهولاً أو لم يثبت نسب الولد إليه. بعبارة أخرى أنه قد حرم الأم الكويتية من حق نقل الجنسية إلى أولادها في حالة كون زوجها - أب هؤلاء الأولاد - مجهول الجنسية أو عديمها. وبهذا الشكل تزداد حالات انعدام الجنسية في الكويت، ذلك البلد الذي يعاني بالأساس من كثرة هذه الحالات، ولا سيما فيما يتعلق بما يسمى "البدون"^(٧).

ثالثاً: القانون الإماراتي:

لقد سار القانون الإماراتي على نهج سلفه القانون الكويتي، في إعتناقه للمبدأ القائل بفرض الجنسية الإماراتية - الأصيلة - بناءً على حق الدم المستمد من الأم، وبصرف النظر عن مكان ولادة الطفل، سواء أكانت في داخل الإمارات أم في خارجها، وبالحالات ذاتها. فلقد نصت الفقرة "ج" من المادة الثانية من قانون الجنسية الإماراتية رقم ١٧ لعام ١٩٧٢ النافذ على الآتي:

"يعتبر مواطناً بحكم القانون المولود في الدولة أو في الخارج من أم مواطنة بحكم القانون ولم يثبت نسبته لأبيه قانوناً". وجاء في الفقرة "د" من المادة ذاتها: "يعتبر مواطناً بحكم القانون المولود في الدولة أو في الخارج من أم مواطنة بحكم القانون ولأب مجهول أو لا جنسية له". إن هذين النصين قد تضمنتا حالتين لفرض الجنسية بناءً على حق الدم من ناحية الأم هما:

٧- لمعرفة المزيد عن مشكلة البدون من الناحية القانونية، ينظر: د. حسن الياسري، ظاهرة اللاجنسية، مصدر سابق.

١- الحالة الأولى: المولود لأم إماراتية بحكم القانون مع عدم ثبوت نسبه لأبيه :

إذ يشترط لإعمال هذه الحالة توافر شرطين :

- الشرط الأول : أن تكون الأم إماراتية بحكم القانون :

ومعنى ذلك أن تكون الأم مواطنة يحكم القانون، أي أن لا تكون متجنسة بالجنسية الإماراتية، فإذا كانت متجنسة فإنها لا تستطيع أن تنقل الجنسية إلى أولادها. ثم يجب أن تكون هذه الأم مواطنة بحكم القانون لحظة ولادة ولدها، لا قبل الولادة ثم تفقدها عند الولادة، ولا بعدها. ولا يهم جنس المولود ذكراً كان أو أنثى^(٨).

- الشرط الثاني : عدم ثبوت نسب المولود لأبٍ من الناحية الشرعية :

ومعنى ذلك أن يكون المولود غير شرعي لأنه لم يثبت نسبه لأبٍ ما، أو كان هناك ادعاء بانتسابه إلى أبٍ، لكن الأخير ينكر نسبه.

وما قد قيل سابقاً، بصدد ثبوت النسب لاحقاً، يجري هاهنا أيضاً. فإذا ثبت النسب فيما بعد وتبين أن الأب هو أجنبي الجنسية، فهنا تزول الجنسية الإماراتية عن المولود بأثر رجعي، أي منذ ولادته، وبصرف النظر عما إذا حصل المولود بعد ذلك على جنسية أبيه أو لا، وكذا بصرف النظر عما إذا كان الولد قاصراً أو بالغاً. أما إذا اتضح أن الأب هو إماراتي الجنسية، فهنا ينبغي التفرقة بين ما إذا كان الأب إماراتي الجنسية بحكم القانون، أو كونه متجنساً بالجنسية الإماراتية. فإذا كان إماراتي الجنسية، ففي هذا الفرض تبقى جنسية المولود التي اكتسبها عن طريق أمه، لكن أساسها سيتغير، فبعد أن كان أساسها حق الدم المستمد من الأم، سيكون أساسها حق الدم المستمد من الأب.

أما إذا كان الأب إماراتياً بحكم التجنس، فهنا سوف يتمتع المولود بهذه الجنسية. بمعنى أوضح أن جنسيته ستكون إماراتية بحكم التجنس، أي أنه سيكون متجنساً بالجنسية الإماراتية، لا إماراتياً بحكم القانون. وفي ذلك مفارقة غريبة، فإن الولد غير الشرعي تكون جنسيته إماراتية بحكم القانون إذا كانت أمه كذلك، ولكن إذا كان له أب شرعي متجنس بالجنسية الإماراتية فهنا ستكون جنسية المولود إماراتية بالتجنس. وينبغي على ذلك أن الوضع القانوني للولد غير الشرعي سيكون أفضل حالاً من الولد الشرعي.

الحالة الثانية: المولود لأم إماراتية بحكم القانون مع جهالة جنسية الأب أو انعدامها: وفي هذا الفرض

ينبغي أن تكون الأم إماراتية بحكم القانون، لا متجنسة وإن يكون الأب مجهول الجنسية أو عديمها. وقد تم شرح ذلك سابقاً.

رابعاً: القانون التونسي :

لقد أخذ القانون التونسي - قبل التعديل الجديد في أواخر عام ٢٠١٠ - في إحدى حالاته بفرض الجنسية الأصلية عن طريق الدم المنحدر من الأم، بصرف النظر عن مكان الولادة. اذ نصت الفقرة "٢" من الفصل السادس من مجلة الجنسية التونسية عدد ٦ لعام ١٩٦٣ على الآتي :

"يكون تونسياً : ٢- من ولد من أم تونسية وأب مجهول أو لا جنسية له أو مجهول الجنسية".

وبناء على هذا النص فإن المولود يكون تونسي الجنسية في فرضين :

٨ - ينظر: د. عصام القصبى، القانون الدولي الخاص لدولة الإمارات، نقلاً عن د. هشام خالد، أهم مشكلات قانون الجنسية العربي، منشأة المعارف، ٢٠٠٦، الاسكندرية، ص ١٥٣.

الفرض الأول: إذا كان المولود غير شرعي، ففي هذا الفرض يستحق الجنسية التونسية بتوافر الشروط الآتية:

أ- أن تكون الأم تونسية الجنسية، ولا يهم بعد ذلك أن تكون هذه الجنسية أصيلة أو مكتسبة.
ب- أن يكون الأب مجهولاً. ومعنى ذلك أن لا يعرف أب الولد. بعبارة أخرى أن الولد هنا يكون ولداً غير شرعي.

- الفرض الثاني: إذا كان المولود شرعياً: ففي هذا الفرض يستحق الجنسية بتوافر الشروط الآتية:
أ- أن تكون الأم تونسية الجنسية.

ب- أن يكون الأب مجهول الجنسية أو لا جنسية له، أي عديم الجنسية. وقد تقدم شرح ذلك سابقاً.
ثم جاء تعديل مهم في أواخر عام ٢٠١٠ وتم بمقتضاه منح الجنسية التونسية إلى المولود في خارج تونس من أم تونسية وأب أجنبي، فلقد نص الفصل (٤) من مجلة الجنسية التونسية على الآتي:
(يصبح تونسياً من ولد خارج تونس من أم تونسية وأب أجنبي والذي بلغ سن الرشد في تاريخ نفاذ القانون عدد ٣٩ لسنة ٢٠١٠ المؤرخ في ٢٦ جويلية ٢٠١٠، المتعلق بتوحيد سن الرشد المدني، على أن يطالب بالجنسية التونسية بمقتضى تصريح خلال السنة الموالية لنفاذ هذا القانون ويتم التصريح طبق أحكام الفصل ٣٩ من مجلة الجنسية التونسية، ويكتسب المعنى بالأمر الجنسية التونسية من تاريخ تسجيل التصريح مع مراعاة الأحكام المنصوص عليها بالفصلين ١٥ و ٤١ من المجلة المذكورة).
ويستنتج من هذا النص ما يأتي:

١- إن هذا النص جاء ليعالج مشكلة المولود في خارج الإقليم التونسي من الأم التونسية، إذ أن القانون قبل تعديله لم يكن يمنح هذا المولود الجنسية التونسية، بل كان يشترط أن تكون الولادة في داخل تونس - كما سيتضح -.

٢- يشترط لإعمال هذا النص توافر الشروط الآتية:

- أ- أن تكون الأم تونسية الجنسية لحظة الولادة.
- ب- أن تكون الولادة في خارج تونس.
- ج- أن يكون الأب أجنبياً.
- د- أن يكون المولود قد بلغ سن الرشد في عام ٢٠١٠، أي وقت صدور قانون التعديل. مما يعني أن من لم يكن بالغاً سن الرشد في هذا الوقت، فإنه لا يستفيد من هذا الإمتياز.
- هـ- أن يقدم المولود طلباً لإكتساب الجنسية التونسية بعد مرور عام على بلوغه سن الرشد. ويتم منحه الجنسية من تأريخ تسجيل الطلب.

خامساً: القانون الجزائري:

ينبغي أن نميز بصدد القانون الجزائري بين مرحلتين:
المرحلة الأولى: هي مرحلة قانون الجنسية الجزائرية رقم ٧٠ - ٨٦ لسنة ١٩٧٠ قبل تعديله في سنة ٢٠٠٥.

المرحلة الثانية: مرحلة التعديل الكبير والمهم في سنة ٢٠٠٥.
وحيث أن موضوع بحثنا في هذا الفصل له صلة بالمرحلة الأولى، لذا سنذكر موقف القانون الجزائري في هذا المقام. إذ أخذ القانون الجزائري، قبل تعديله، - كما القانون التونسي - في إحدى حالاته بفرض الجنسية الجزائرية على المولود من أم جزائرية وأب مجهول. حيث نص الفصل الخامس من القانون على الآتي:

يكون جزائرياً بالنسب: ١- : الولد المولود من أم جزائرية وأب مجهول.

٢- الولد المولود من أم جزائرية وأب عديم الجنسية^٩.

وطبقاً لهذا النص ينبغي توافر الشروط الآتية:

- أ- أن تكون الأم جزائرية الجنسية، وسواء أكانت هذه الجنسية أصيلة أم مكتسبة.
- ب- أن يكون الأب مجهولاً، أي غير معروف. بمعنى آخر، أن المولود ناشئ عن علاقة غير شرعية. أو أن يكون الأب عديم الجنسية. ولا يهم بعد ذلك أن تكون الولادة في داخل إقليم الجزائر أو خارجه، وسواء أكان الولد ذكراً أم أنثى. ولقد بات معلوماً أن التشريعات التي تأخذ بهذا الاتجاه - ومنها القانون الجزائري - إنما تهدف إلى تلافى حالة انعدام الجنسية.

سادساً:- القانون العماني:

نصت المادة الأولى من قانون الجنسية العمانية رقم ٣- ٨٣ النافذ على الآتي: "يعتبر عمانياً حكماً: ٢- من ولد في عمان أو خارجها من أم عمانية وكان مجهول الأب إذا لم تثبت بنوته لأبٍ شرعاً أو كان أبوه عمانياً وأصبح فاقد الجنسية".

ومن هذا النص يتضح أن القانون العماني يفرض الجنسية على المولود من أم عمانية، وبصرف النظر عن مكان الولادة، سواء أكانت في داخل عمان أم في خارجها. بشرط أن يكون الأب مجهولاً، أي لم يثبت النسب إليه، أو أن يكون الأب مجهول الجنسية أو عديمها. وما ذلك كله إلا لوقاية المولود من الوقوع في حالة اللاجنسية.

سابعاً:- القانون السوري:

إن القانون السوري يأخذ بحالة واحدة في فرض الجنسية بناءً على حق الدم المستمد من الأم. تلك هي حالة الولد غير الشرعي، ولم يأخذ بحالة المولود لأب مجهول الجنسية أو عديمها. إذ تنص المادة الثالثة من المرسوم التشريعي رقم ٢٧٦ لسنة ١٩٦٩ على الآتي:

"يعتبر عربياً سورياً حكماً:

- ب- من ولد في القطر من أم عربية سورية ولم تثبت نسبته إلى أبيه قانوناً".
- وبمقتضى هذا النص يكون للأم السورية دور في نقل جنسيتها إلى أولادها في حالة واحدة فقط، وهي حالة ما إذا كان الولد غير شرعي، وبالشروط التي شرحتها آنفاً.

ثامناً. القانون اللبناني:

تنص المادة الثانية من القرار رقم ١٥ لسنة ١٩٢٥ الذي نظم الجنسية اللبنانية على ما يأتي:

"الولد غير الشرعي الذي تثبت بنوته وهو قاصر، يتخذ التابعة^(٩) اللبنانية، إذا كان أحد والديه، الذي تثبت البنوة أولاً بالنظر إليه، لبنانياً، وإذا كان برهان ثبوت البنوة بالنظر إلى الأب والأم، ناتجاً عن عقد واحد أو حكم واحد، اتخذ الابن تابعة الأب إذا كان هذا الأب لبنانياً".

بداية ينبغي الإشارة إلى أن الفقه اللبناني يؤكد أن ثمة خطأ قد وقع عند تعريب هذا النص من الفرنسية، فالنص الأصلي الموضوع باللغة الفرنسية - بحسب هذا الفقه - كان يتكلم عن الولد الطبيعي لا عن الولد غير الشرعي. والولد الطبيعي، هو ذلك المولود من شخصين لا تجمعهما رابطة زوجية، ومن غير أن يقوم بحق أي منهما مانع من موانع الزواج. كالقربة المحرمة مثلاً. وقت الحمل^(١٠).

٩- التابعة هنا بمعنى الجنسية.

١٠- ينظر د. عكاشة محمد عبد العال، أحكام الجنسية، منشورات الحلبي، ٢٠٠٧، بيروت، ص ٣٣٦.

وعلى وفق النص المتقدم، يحق للمرأة اللبنانية، أن تقوم بنقل جنسيتها الى ولدها الطبيعي، وذلك في حالة واحدة، وهي التي تقوم فيها هذه المرأة بالاعتراف بالولد، قبل أن يعترف به الأب. وتأسيسا على ذلك يمكن لهذه المرأة أن تنقل جنسيتها إلى ولدها، بالشروط الآتية:

أ. أن يكون ثمة ولد طبيعي: إذ ينبغي أن يكون هذا الولد طبيعياً، بمعنى أن يكون ناتجاً عن علاقة غير مشروعة بين شخصين لا تربطهما ببعضهما علاقة زوجية، ودون أن تكون بينهما قرابة مانعة من الزواج.
ب. أن تكون المرأة - الأم - لبنانية الجنسية، فإذا كانت اجنبية، فإن الجنسية اللبنانية لا تثبت للولد آنذاك.

ج. أن تعترف المرأة - الأم - بالولد الطبيعي أولاً: ومعنى ذلك أن يصدر الاعتراف بنسب الولد من قبل الأم قبل الأب. وعلى هذا الأساس، فإن الاعتراف بالنسب لو صدر أولاً من الأب، وكان هذا الأب لبناني الجنسية فإن جنسيته تنتقل الى الولد، لا جنسية أمه، أما إذا كان الأب اجنبياً، ففي هذه الحالة لا تثبت للولد الجنسية اللبنانية، حتى لو اعترفت الأم اللبنانية به لاحقاً.

د. أن يكون الولد قاصراً: لا يؤدي الاعتراف بالولد الطبيعي ثماره، ما لم يكن هذا الولد قاصراً، أي لم يبلغ سن الرشد بعد على وفق احكام القانون اللبناني. ثم إن الاعتراف له أثر رجعي يترد إلى لحظة الولادة. ولا يهم بعد ذلك أن تكون الولادة في داخل لبنان أو خارجه^(١١).

تاسعا: القانون البحريني:

لم يخرج القانون البحريني عن موقف التشريعات العربية السابقة، فلقد نصت المادة (٤) من قانون الجنسية البحرينية رقم ٨ لعام ١٩٦٣ المعدل، على الآتي:

(يعتبر الشخص بحرينياً : ب - إذا ولد في البحرين أو خارجها وكانت أمه بحرينية عند ولادته، على أن يكون مجهول الأب أو لم تثبت نسبته لأبيه قانوناً). وبناء على هذا النص فإن المولود يكون بحريني الجنسية على وفق الشروط الآتية:

١. أن تكون الأم بحرينية الجنسية لحظة ولادة المولود.
 ٢. أن يكون الأب مجهولاً، أي غير معروف، لأن الولادة غير شرعية، أو أن يكون الأب معلوماً، ولكن لم يثبت نسب المولود اليه. ولقد فصلنا القول في هذين الشرطين آنفاً.
- إذا تحقق هذان الشرطان اكتسب المولود الجنسية البحرينية، بصرف النظر عن مكان الولادة وما إذا كانت في داخل البحرين أو خارجها.

عاشرا: القانون المغربي:

يعد القانون المغربي لعام ١٩٥٨ - قبل التعديل في عام ٢٠٠٧ - من القوانين التي أخذت بحق الدم الثانوي غير المعزز بحق الإقليم، وايضا بحق الدم المعزز بحق الإقليم. وفيما يتعلق بالأول، فإن الفصل (٦) من هذا القانون قد نص على الآتي:

(يعتبر مغربياً : ثانياً : الولد المزداد^(١٢) من أم مغربية وأب مجهول).
وبمقتضى هذا النص فإنه يشترط أن تكون الأم مغربية الجنسية، والأب مجهولاً، أي أن الولادة غير شرعية، أو أن الأب لا يعترف بنسب المولود. ففي هذه الحالة يمنح هذا المولود الجنسية المغربية، بصرف النظر عن مكان الولادة، سواء أكانت في داخل المغرب أم خارجه.

١١ - ينظر د. عكاشة عبد العال، مصدر سابق، ص ٣٥٠.

١٢ - هكذا ورد في النص، والظاهر من سياق نصوص هذا القانون أن المقصود بذلك هو " المولود ".

ومن كل ما تقدم في هذا المطلب ، يمكن أن نخلص إلى القول ، أن هذا الاتجاه من التشريعات العربية يعطي للأم دوراً في نقل الجنسية إلى أولادها ، بناء على حق الدم المستمد منها ، والذي أسميناه "حق الدم الثانوي أو الوقائي" بصرف النظر عن مكان الولادة ، سواء أكانت في الإقليم ، أم في خارجه .

المطلب الثاني: دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم المستمد منها والمعزز بحق الإقليم
لقد نحت بعض التشريعات العربية منحى آخر ، وذلك عندما قررت أن يكون للأم دور في نقل جنسيتها إلى أولادها ، بناء على حق الدم المستمد منها ، والمعزز بحق الإقليم . بعبارة أوضح ، أن هذه التشريعات لا تكفي بأن تكون الأم وطنية والأب مجهولاً أولاً جنسية له ، إنما تشترط أن تكون الولادة في إقليمها لا خارجه . ويبدو - بحسب فهمي - أن السبب وراء ذلك يكمن في الآتي :
١- إن الولادة في إقليم الدولة ، يعطي انطباعاً بأن هذه العائلة مندمجة في هذا المجتمع ، أكثر مما لو كانت الولادة في خارج الإقليم .

٢- إن بعض التشريعات تكافح ظاهرة ازدواج الجنسية ، أو في الأقل تروم التخفيف من غلواتها . وبناءً على ذلك فإنها تشترط أن تكون الولادة - فيما يتعلق بالصورة الماثلة أمامنا - في إقليم الدولة حتى لا يحصل ازدواج في الجنسية ، ذلك أن الولادة في خارج الإقليم ، قد يفضي إلى حصول المولود على جنسية أخرى ، تلك هي جنسية الدولة التي حصلت الولادة في إقليمها .
وسنستعرض فيما يأتي موقف التشريعات العربية التي تأخذ بهذا الاتجاه :

أولاً :- القانون المصري :

لقد كان القانون المصري لعام ١٩٧٥ ، قبل التعديل الكبير والمهم في عام ٢٠٠٤ ، يأخذ بالاتجاه القائل بحق الدم الثانوي أو الأمي في فرض الجنسية ، والمعزز بحق الإقليم . فلقد نصت المادة الثانية من قانون الجنسية المصري رقم ٢٦ لعام ١٩٧٥ على ما يأتي :
"يكون مصرياً : ٢- من ولد في مصر من أم مصرية ومن أب مجهول الجنسية أو لا جنسية له . ٣- من ولد في مصر من أم مصرية ولم تثبت نسبته إلى أبيه قانوناً".
ومن هذا النص يمكن الخلوص إلى أن ثمة حالات ثلاث لاكتساب الجنسية بناءً على حق الدم الثانوي - أي حق الدم المستمد من الأم - ، وهذه الحالات هي :

١ - الحالة الأولى : جهالة الأب :

ونعني بذلك أن يكون الأب مجهولاً ، أي غير معروف ، بمعنى أن نسب الولد لم يثبت إليه ، إما لكونه غير معروف بالأساس ، أو أنه معروف لكنه ينكر النسب . والنتيجة المترتبة على ذلك هي أن يكون المولود غير شرعي .

وبمقتضى النص يشترط ، لنقل الأم المصرية جنسيتها إلى أولادها ، توافر الشروط الآتية :
أ- أن تكون الأم مصرية الجنسية :

اذ يجب أن تكون الأم مصرية الجنسية لحظة ولادة المولود ، فإذا كانت الأم مصرية الجنسية قبل الولادة ، ثم فقدت هذه الجنسية ، فإن الجنسية لن تنتقل إلى أولادها . وكذا الحال لو كانت اجنبية ، ثم تجنس بالجنسية المصرية بعد الولادة . ولا يؤثر في ذلك كون الأم متمتعة بالجنسية المصرية الأصلية أو المختارة الطارئة ، كما لا يؤثر في ذلك كون الأم وحيدة الجنسية ، أو مزدوجة الجنسية .
ب- أن يكون الأب مجهولاً :

وجهالة الأب هنا تعني الجهالة القانونية، بمعنى أن لا ينسب المولود الى أبيه قانوناً، ويستوي في ذلك أن يكون المولود ثمرة علاقة زوجية، لكن الأب ينكر النسب، أو أن يكون ثمرة علاقة غير مشروعة.

جـ- أن يولد المولود في داخل الاقليم المصري:

لا يكفي في حصول المولود على جنسية أمه، أن تكون الأم مصرية الجنسية، وأن يكون الأب مجهولاً، فحسب، بل لابد أن تكون الولادة في داخل مصر.

ويبدو أن المشرع المصري قد أخذ بأساس حق الدم المستمد من الأم، بشرط الولادة في داخل مصر، وذلك ليستوثق من أن هذا المولود مرتبط ببلده. بيد أن المشرع لم يشترط الاستقرار والإقامة، بل اكتفى بالولادة المجردة، وهو الأمر الذي نقده بعض الفقه المصري^(١٣).

٢- الحالة الثانية: جهالة جنسية الأب:

وفي هذه الحالة لا يكون الأب مجهولاً، إنما جنسيته مجهولة. وعموماً فإنه يشترط لإعمال هذه الحالة - بحسب النص - توافر الشروط الآتية:

أ- أن تكون الأم مصرية الجنسية لحظة الولادة:

اذ يجب أن تكون الأم مصرية الجنسية لحظة ولادة المولود، كما تقدم سابقاً.

ب- أن يكون الأب مجهول الجنسية:

وهنا يشترط في الأب أن يكون مجهول الجنسية، لا أن يكون هو مجهولاً. ومعنى ذلك أن الأب قد يكون معلوماً ويثبت نسب الولد اليه، لكنه مجهول الجنسية، فهنا يمكن للمولود أن يكتسب جنسية أمه المصرية، شريطة أن تكون جهالة جنسية الأب لحظة ولادة المولود لا قبلها أو بعدها. فإذا كان الأب معلوم الجنسية وقت الحمل ثم أصبح مجهولاً وقت الولادة، فهنا ينطبق هذا النص. وهكذا لو كان مجهول الجنسية وقت الولادة، ثم أصبح معلوماً فيما بعد، فهنا ينطبق النص كذلك.

جـ- أن يولد المولود في داخل الاقليم المصري:

يجب أن تتم الولادة في داخل مصر - كما تقدم شرح ذلك سابقاً - ، ولا يهم بعد ذلك أن يقيم المولود في مصر أو لا. وكذا الحال، لا يهم أن تقيم الأم بعد الولادة في مصر أو لا. حيث أن المشرع لم يشترط سوى ضرورة كون الولادة في داخل الإقليم المصري.

ومن الجدير بالذكر، إن ما سبق قوله من أثر بالنسبة لاكتشاف جنسية الأب وكونها مصرية، وكذا بالنسبة لثبوت النسب، فإن ذلك كله ينطبق هاهنا أيضاً.

٣- الحالة الثالثة: إنعدام جنسية الأب:

في هذه الحالة لا يكون الأب مجهولاً، ولا تكون جنسيته مجهولة، إنما يكون منعدم الجنسية، ويشترط لإعمال هذه الحالة توافر الشروط الآتية:

أ- أن تكون الأم مصرية الجنسية.

ب- أن يكون الأب عديم الجنسية.

جـ- أن تكون الولادة في داخل مصر.

وقد تم شرح هذه الشروط سابقاً. لكننا هنا سنعلق على الشرط الثاني المتعلق بانعدام جنسية الأب، اذ يجب ان يكون الأب عديم الجنسية لحظة ولادة المولود. وكما هو معلوم فإن عديم الجنسية هو فرد لا جنسية له أساساً، ولذا فإن المولود يكتسب الجنسية عن طريق أمه المصرية، وذلك لتفادي حالة انعدام الجنسية التي قد يقع فيها هذا المولود.

١٣ - ينظر: د. هشام خالد، مصر سابق، ص ٣٥٧.

ثانياً:- القانون الأردني :

يُعد القانون الأردني من التشريعات التي تأخذ بحق الأم في نقل الجنسية إلى أولادها - حق الدم الثانوي - والمعزى بحق الإقليم. يترتب على ذلك القول، أن القانون الأردني - كسابقه - القانون المصري الذي يشترط في فرض الجنسية على المولود أن تكون الولادة في داخل الإقليم، هذا فضلاً عن توافر الشروط السابقة التي ذكرناها.

وعلى أية حال، فإن الفقرة (٤) من المادة (٣) من قانون الجنسية الأردنية رقم ٦ لسنة ١٩٥٤، تنص على الآتي :

"يعتبر أردني الجنسية من ولد في المملكة الأردنية الهاشمية من أم تحمل الجنسية الأردنية وأب مجهول الجنسية أو لا جنسية له أو لم يثبت نسبته إلى أبيه قانوناً".

وبمقتضى هذا النص، تثبت الجنسية الأردنية للمولود، استناداً على حق الدم المستمد من أمه الأردنية، ولكن بعد توافر الشروط الثلاثة الآتية - وهي كما ذكرنا قبل قليل تتشابه مع موقف القانون المصري -

:

أ- أن تكون الأم أردنية الجنسية :

يجب أن تكون الأم أردنية الجنسية لحظة الولادة، لا قبلها ولا بعدها. وكما ذكرنا سابقاً، لا يؤثر في ذلك كون جنسية الأم جنسية أصيلة، أو طارئة.

ب- أن يكون الأب مجهولاً، أو مجهول الجنسية، أو عديمها :

إذ يشترط أن يكون الأب واحداً من ثلاثة فروض: إما أن يكون مجهولاً، بمعنى أن الولد غير شرعي، أو أن يكون مجهول الجنسية، أو أن يكون عديمها. وقد تم شرح ذلك سابقاً.

ج- أن تكون الولادة في داخل الإقليم الأردني :

إن الشرطين السابقين لا يكفيان لوحدهما، ما لم يشفعا بشرط ثالث، وهو أن تكون ولادة المولود في داخل الأردن، لا خارجه. وكما قيل سابقاً، لا يؤثر ما إذا كانت الأم مقيمة في الأردن أو لا. كما لا يؤثر، ما إذا كان المولود يقيم بعد ولادته في الأردن أو لا. ذلك أن الغاية من فرض هذه الجنسية هو تلافي الوقوع في حالة انعدام الجنسية.

ثالثاً:- القانون اليمني :

لقد نصت المادة الثالثة من قانون الجنسية اليمنية رقم ٦ لسنة ١٩٩٠ والمعدل بالقانون رقم ١٧ لسنة ٢٠٠٩، وفي فقرتها ب و ج، على ما يأتي: "يتمتع بالجنسية اليمنية: ب - من ولد في اليمن من أم تحمل هذه الجنسية وأب مجهول الجنسية أو لا جنسية له. ج - من ولد في اليمن من أم تحمل هذه الجنسية ولم تثبت نسبته إلى أبيه قانوناً".

ويتضح من هذا النص، أن القانون اليمني، كما التشريعات الأخرى التي تأخذ بالاتجاه ذاته، قد فرض الجنسية اليمنية للمولود من أم يمنية بناء على حق الدم المستمد منها - حق الدم الثانوي أو الوقائي - ، وبالشروط ذاتها المذكورة سابقاً. مما يعني أن إعمال النص اليمني يستلزم توافر الشروط الآتية :

أ- أن تكون الأم يمنية الجنسية.

ب - أن يكون الأب إما مجهول الجنسية أو لا جنسية له، وإما مجهولاً، أي لم يثبت نسب المولود إليه.

ج - أن تكون الولادة في داخل الإقليم اليمني.

رابعاً:- القانون الجزائري :

قد ذكرنا سابقاً أن القانون الجزائري - قبل التعديل - ، قد أخذ في إحدى حالات فرض الجنسية بناءً على حق الدم المستمد من الأم، فيما لو كان الأب مجهولاً، أو عديم الجنسية، وبصرف النظر عن مكان الولادة.

ونلاحظ أن هذا القانون - بعد تعديله - قد أخذ في حالة خاصة ونادرة بفرض الجنسية بناءً على حق الدم الثانوي المستمد من الأم، على أن لا تكون الجنسية الجزائرية ثابتة لها من الناحية القانونية، واشترط كون الولادة في داخل الجزائر. بعبارة أخرى أنه قد أخذ بحق الدم الثانوي المعزز بحق الإقليم.

وعموماً فإن المادة السادسة من قانون الجنسية الجزائرية رقم ٧٠ - ٨٦ لعام ١٩٧٠ والمعدل في عام ٢٠٠٥ نصت على ما يأتي: "يعتبر من الجنسية الجزائرية بالولادة في الجزائر:

٢- الولد المولود في الجزائر من أب مجهول وأم مسماة في شهادة ميلاده دون بيانات أخرى تمكن من إثبات جنسيتها".

وعلى وفق هذا النص، يمكن أن نستخلص أن المولود لأم جزائرية، تثبت له الجنسية الجزائرية، بتوافر الشروط الآتية:

أ- أن يكون الأب مجهولاً.

ب- أن تكون الولادة في داخل الجزائر. ذلك أن فرض الجنسية هنا معززة بحق الإقليم، أي الولادة في إقليم الجزائر.

ج- أن تكون الأم مسماة في شهادة ميلاد المولود، دون أن تمتلك أية بيانات أخرى تثبت جنسيتها. مما يعني أن هذه المرأة ليست جزائرية الجنسية من الناحية القانونية، بسبب عدم قدرتها على إثبات هذه الجنسية. والملاحظ هنا أن المشرع الجزائري قد اقتصر على حالة كون الأب مجهولاً، ولم يتطرق إلى كونه عديم الجنسية. وقد يعد القانون الجزائري خارجاً عن المألوف من هذه الناحية، إذ أن العلة التي اقتضت فرض الجنسية الجزائرية فيما لو كان الأب مجهولاً، تقتضي أيضاً فرض الجنسية فيما لو كان الأب عديم الجنسية. ولعل السبب في ذلك يكمن في أن هذا القانون قد خطى خطوات كبيرة في مجال التسوية بين الأب والأم في فرض الجنسية الأصلية، كما سيتضح بعد ذلك.

خامساً:- القانون التونسي :

قد ذكرنا سابقاً أن القانون التونسي - قبل التعديل الأخير - قد أخذ بأساس فرض الجنسية الأصلية بناءً على حق الدم الثانوي - المستمد من الأم - وغير المعزز بحق الإقليم، فيما لو كان الأب مجهولاً، أو مجهول الجنسية، أو عديمها. وذلك بمقتضى الفقرة الثانية من الفصل السادس من مجلة الجنسية التونسية - أما الفقرة الثالثة من الفصل ذاته - أي الفصل السادس - فإنها جاءت لتعالج حالة فرض الجنسية للمولود من أم تونسية، بشرط أن تكون الولادة في داخل تونس. بمعنى آخر، أن الفقرة الثانية من الفصل السادس تعالج حالة فرض الجنسية الأصلية بناءً على حق الدم الثانوي غير المعزز بحق الإقليم، أما الفقرة الثالثة، فإنها تعالج فرض الجنسية الأصلية بناءً على حق الدم الثانوي المعزز بحق الإقليم. وعلى أية حال، فإن الفقرة الثالثة تنص على الآتي:

"يكون تونسياً: ٣- من ولد بتونس من أم تونسية وأب أجنبي". ولإعمال هذا النص، ينبغي توافر الشروط الآتية:

أ- أن تكون الأم تونسية الجنسية.

ب- أن يكون الأب أجنبي الجنسية - ومعنى كونه اجنبيا، أن يكون متمتعاً بجنسية دولة ما، أي أنه يحمل جنسية أخرى، غير الجنسية التونسية. ولا يؤثر ما إذا كانت جنسية الأب أصيلة أو طارئة، واحدة أو متعددة.

ج- أن تكون الولادة في داخل الإقليم التونسي :
إن فرض الجنسية هنا لا ينبني على كون الأم تونسية الجنسية، بل ينبغي أن يعزز بحق آخر، وهو حق الإقليم، أي الولادة في داخل الإقليم، فإذا ما كانت الولادة خارج تونس، فإن الجنسية لا تثبت لهذا المولود.

وقد راعى المشرع ذلك، بناءً على أن ابن الأم التونسية المولود في تونس، ومن أب أجنبي، يفترض به العيش في تونس مع أمه وأهلها، وأنه سيتربى ويتعرع في البيئة التونسية والوسط التونسي. الأمر الذي يولد له شعورا بالولاء نحو تونس، بحسب ما ذهب إليه البعض.^(١٤)

ومما تقدم، يتضح أن المشرع التونسي قد خطا خطوة أكبر باتجاه فرض الجنسية على المولود لأم تونسية، حتى لو كان الأب اجنبيا، فيما لو كانت الولادة في داخل الإقليم. في حين أننا وجدنا أن معظم التشريعات العربية لم تأخذ بهذا الاتجاه، بل اكتفت بفرض الجنسية في هذه الحالة فيما لو كان الأب مجهولا، أو مجهول الجنسية أو عديمها. ولم تثبت هذه التشريعات الجنسية للمولود من أم وطنية، فيما لو كان الأب اجنبيا - ولا سيما في مرحلة ما قبل التعديلات الأخيرة التي طالت بعض تلك التشريعات - .

سادسا : القانون المغربي :

قد ذكرنا سابقا أن القانون المغربي - قبل التعديل في عام ٢٠٠٧ - ، قد أخذ في إحدى حالاته بحق الدم المستمد من الأم وغير المعزز بحق الإقليم. ويلاحظ على هذا القانون أنه قد أخذ في حالة أخرى بحق الدم المستمد من الأم، والمعزز بحق الإقليم. فلقد نص الفصل (٧) من قانون الجنسية المغربية لعام ١٩٥٨ على الآتي :

(يعتبر مغربيا : ثانيا : الولد المزداد في المغرب من أم مغربية وأب لا جنسية له). وبمقتضى هذا النص يمنح المولود الجنسية المغربية بهذه الشروط الثلاثة - التي شرحناها سابقا :

١. أن تكون الأم مغربية الجنسية.
٢. أن يكون الأب عديم الجنسية. والملاحظ على القانون المغربي أنه قد فرق بين حالتين :
الأولى : هي كون الأب مجهولا. وفي هذه الحالة لم يشترط القانون أن تكون الولادة في داخل المغرب - كما تقدمت الإشارة إليه سابقا - .

الثانية : هي كون الأب عديم الجنسية - وهي هذه الحالة الماثلة - . وهنا أشرط القانون أن تكون الولادة في داخل المغرب. ويبدو أن هذا الاتجاه لا مبرر له، إذ أن الحكمة تكاد تكون واحدة، ما دام الأب مجهولا أو عديم الجنسية. ولذلك لم تأخذ التشريعات العربية بهذه التفرقة - كقاعدة عامة - .

ومما تقدم في هذا المطلب، يتضح أن ثمة اتجاه آخر قد سلكته التشريعات العربية، يتمثل بالنص على أن للأم دورا في نقل جنسيتها إلى أولادها بناءً على حق الدم المستمد منها - حق الدم الثاني - والمعزز بحق الإقليم. مما يعني أن حق الدم هنا لم يكن لوحده قادرا على فرض الجنسية، فعزز بحق الإقليم. ولا يفوتنا القول، أن دور الأم إنما يقتصر على نقل الجنسية فيما لو كان الأب مجهولا، أو مجهول الجنسية، أو عديمها، بحسب التفصيل الذي أشرنا إليه.

١٤ - ينظر بهذا الصدد: د. حسن الممي، الجنسية في القانون التونسي، نقلا عن د. هشام خالد، مصدر سابق، ص ١٨٠.

المبحث الثاني: دور الأم في نقل الجنسية المبتنية على حق الدم المستمد منها لله القانوني لله في التشريعات العراقية

سنستعرض هنا موقف تشريعات الجنسية العراقية في المدة ما بين تأسيس الدولة العراقية في عشرينات القرن الماضي، وإلى حين تغيير النظام السابق في عام ٢٠٠٣ وصدور دستور عام ٢٠٠٥. وتأسيساً على ذلك، فإننا سنبين موقف قانون الجنسية العراقية الأول رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٤ - الملغى - ثم نبين موقف قانون الجنسية العراقية الثاني رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٣ - الملغى - . وهذا ما يستدعي توزيع هذا المبحث إلى مطلبين اثنين.

المطلب الأول: موقف قانون الجنسية العراقية رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٤

لعل من نافلة القول، إن القانون الأول الذي صدر لتنظيم أمر الجنسية في العراق، هو قانون الجنسية رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٤. ومعلوم أن هذا القانون هو الذي أسس الجنسية العراقية، وقد صدر وفقاً لمعاهدة لوزان المبرمة في عام ١٩٢٣ بين بريطانيا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى من جهة، والدولة العثمانية من جهة أخرى. وبموجبها اعترفت الدولة العثمانية بانسلاخ العراق منها وتأسيسه الدولة العراقية. وحيث أن هذه المعاهدة - التي دخلت حيز النفاذ في ٦ آب عام ١٩٢٤ - قد أوجبت في المادة "٣٠" منها تنظيم جنسية أهالي الأقاليم المنسلخة عن الدولة العثمانية بموجب قانون محلي، لذا فقد أصدر العراق في ١٠/٤/١٩٢٤ أول قانون للجنسية العراقية، وهو القانون المشار إليه سابقاً. وقد نص فيه على أن نفاذه يكون من يوم نفاذ معاهدة لوزان في ٦ آب عام ١٩٢٤^(١٥). وفيما يتعلق بدور الأم في نقل جنسيتها إلى أولادها في هذا القانون، فإن الملاحظ أن الفقرة (أ) من المادة الثامنة من هذا القانون قد نصت على الآتي: "يعتبر عراقياً: كل من كان له حين ولادته بصرف النظر عن محلها والد عراقي...".

ومن هذا النص يمكن أن نستنتج أن الأم العراقية لم يكن بإمكانها أن تقوم بنقل جنسيتها إلى أولادها، لأن هذا الحق مقتصر على الأب دون الأم. ومن الجدير بالذكر أن تساؤلاً قد أثير في ظل القانون القديم الملغى لعام ١٩٢٤، يتعلق بمدى حق الأم العراقية في نقل جنسيتها إلى أولادها، فيما لو كان الأب مجهولاً. ولقد اختلفت الآراء آنذاك، والسبب في هذا الاختلاف يكمن في الاختلاف حول تفسير مصطلح "الوالد" وما إذا كان يقتصر على الأب وحده، أم أنه يشمل الأم كذلك.

فقد ذهب الرأي الأول إلى أن مصطلح "الوالد" الوارد في النص المتقدم، يشمل الأب لوحده، دون الأم. وحجة هذا الرأي مستقاة من كلمة "Father" الواردة في النص الانكليزي لقانون الجنسية. وتأسيساً على هذا الاجتهاد فإن الولد غير الشرعي، والذي لم يثبت نسبه إلى أبيه، لا يكتسب جنسية أمه العراقية بموجب الفقرة "أ" من المادة "٨" المذكورة آنفاً.

ويترتب على ذلك أن الأولاد غير الشرعيين المولودين في العراق من أم عراقية وأب مجهول سيقعون في حالة اللاجنسية. وعلى عكس هذا الرأي، ذهب رأي آخر إلى القول، بأن نص الفقرة "أ" من المادة (٨) تسمح للأم العراقية بنقل جنسيتها إلى أولادها غير الشرعيين - أي المولودين لأب مجهول - ، وحجة

١٥ - د. حسن الهداوي ود. غالب علي الداودي، القانون الدولي الخاص، ج ١، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بدون سنة طبع، ص ٤٠.

هذا الرأي تتمثل في أن كل تذكير في القانون يحمل على التأنيث، ما لم توجد قرينة صارفة، إعمالاً للمادة الثانية من قانون الجنسية^(١٦)، ونظراً لانتقاء هذه القرينة، فإن مصطلح "الوالد" الواردة في النص المتقدم تشمل الأم بالإضافة إلى الأب.

وهذا ما أيده ديوان التدوين القانوني في أحد قراراته^(١٧). عندما قرر أن الأولاد الصغار يتبعون الأم في اكتساب الجنسية العراقية في حالة وفاة الأب. وعلى أية حال يبدو أن وزارة الداخلية قد رجحت الرأي الثاني، وذلك عندما قررت منح الجنسية العراقية لأولاد الأم العراقية والأب المجهول. وبناءً على ما تقدم، فإن الأم العراقية في ظل القانون المتقدم، لم تكن قادرة على نقل جنسيتها إلى أولادها إذا كان زوجها مجهول الجنسية أو عديمها، فإذا ولد للأم العراقية ولد شرعي وكان زوجها عديم الجنسية، فإن هذا الولد سيكون عديم الجنسية أيضاً، حتى لو كان محل ولادته في العراق، وهكذا لو كان الزوج مجهول الجنسية^(١٨).

المطلب الثاني: موقف قانون الجنسية العراقية الملغي رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٣
يعد قانون الجنسية العراقية الملغي رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٣ من التشريعات التي لم تسمح للأم بنقل جنسيتها إلى أولادها إلا استثناءً. ونعني بذلك أن يعزز حق الدم المستمد من الأم بحق الإقليم. إذ يجب أن تكون الولادة في داخل العراق. وفي هذا السياق جاءت الفقرة ٢ من المادة ٤ من هذا القانون لتنص على الآتي:

"يعتبر عراقياً: .. ٢- من ولد في العراق من أم عراقية وأب مجهول أو لا جنسية له".
ومن هذا النص يمكن أن نستشف الشروط الواجب توافرها، لكي تستطيع الأم العراقية نقل الجنسية إلى أولادها، وهذه الشروط تتمثل بالآتي:

١- الشرط الأول أن تكون الأم عراقية الجنسية:

ينبغي أن تكون الأم عراقية الجنسية، بصرف النظر عن طبيعة هذه الجنسية، أصيلة كانت أو طارئة. كما يشترط أن تكون الأم متمتعة بالجنسية العراقية لحظة ولادة المولود، فإن لم تكن كذلك، لم يكن بوسعها نقل الجنسية. وبناءً على ذلك لو افترضنا أن الأم كانت عراقية وقت الحمل، ثم فقدت جنسيتها قبل الولادة، لم ينطبق النص عليها. وهكذا لو افترضنا أنها لم تكن عراقية الجنسية وقت الحمل والولادة، ثم اكتسبت الجنسية العراقية بعد ذلك، فإن النص لا ينطبق عليها أيضاً، الأمر الذي يعني عدم امكانية منح الجنسية العراقية لمولودها استناداً على حق الدم المستمد منها.

ولا يفوتنا القول هنا، أن تمتع هذه الأم بجنسية أخرى إلى جانب جنسيتها العراقية، لا يؤثر في قدرتها على نقل الجنسية العراقية إلى وليدها ما دامت لحظة الولادة متمتعة بهذه الجنسية، بمعنى أوضح، إن مسألة ازدواج الجنسية بالنسبة لهذه المرأة لا يؤثر في مدى انطباق النص، ذلك لأنه لا يعتد من الناحية القانونية إلا بالجنسية العراقية فقط إعمالاً للقواعد العامة. ويجب إثبات واقعة الولادة بالوثائق الرسمية الأصولية.

١٦- تنص المادة الثانية من قانون الجنسية القديم الملغي رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٤. على ما يأتي: "كل تذكير في هذا القانون يشمل التأنيث ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك".

١٧- المؤرخ في ١٤/٥/١٩٣٤.

١٨- د. حسن الهداوي، الوجيز في القانون الدولي الخاص، ج ١، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦١، ص ١٣٩. نقلاً عن د. هشام خالد، مرجع سابق، ص ٢٣٩-٢٤١.

٢- الشرط الثاني: أن تتم الولادة في داخل الإقليم العراقي:

يلاحظ في هذه الحالة، أن حق الدم المستمد من الأم، لم يكن - لوحده - كافياً في نقل الجنسية العراقية إلى المولود، بل إنه دعم بحق آخر، هو حق الإقليم. ونعني بذلك ضرورة حصول الولادة في داخل إقليم العراق، البري أو البحري أو الجوي. وبناءً على ذلك لو افترضنا أن هذا المولود قد ولد في خارج العراق، ثم أدخلته أمه العراقية إلى العراق، لم يكن بذلك قادراً على الحصول على الجنسية العراقية.

٣- الشرط الثالث: جهالة الأب أو انعدام جنسيته:

لا يكفي لتطبيق النص المذكور آنفاً، أن تكون الأم عراقية الجنسية، والولادة في داخل العراق، بل لابد من إضافة شرط ثالث يتعلق بالأب - إذ ينبغي أن يكون الأب واحداً من أمرين: إما مجهولاً، أو منعدم الجنسية. ونقصد بمجهولية الأب، أن نسب المولود لم يثبت إليه، إما لأنه ثمرة اتصال غير مشروع، بمعنى أن الولد غير شرعي، أو أنه ثمرة اتصال مشروع، لكن الأب ينكر نسبه. أما عديم الجنسية - كما ذكرنا سابقاً - فالمقصود به الشخص الذي لا يتمتع بجنسية أية دولة من الدول - لأي سبب كان - .

وبناءً على ذلك، إذا كان المولود في العراق لأم عراقية، وأب مجهول أو لا جنسية له - أي عدم الجنسية - ، فإنه سيمنح الجنسية العراقية، تطبيقاً للنص المذكور آنفاً - وهو الفقرة الثانية من المادة الرابعة - .

أما إذا لم يكن الأب كذلك، كأن يكون معلوماً غير مجهول، أو معلوم الجنسية، فهنا سيأخذ المولود جنسية أبيه لا جنسية أمه، ذلك أن المشرع إنما فرض هذه الحالة - الماثلة - استثناءً من القاعدة العامة وحتى لا يقع المولود للام العراقية في داخل العراق، في حالة اللاجنسية ويكون عديم الجنسية. وحيث أن الأب معلوم الجنسية، إذا تننفي الحاجة إلى اللجوء إلى الاستثناء، ويعاد العمل بالقاعدة العامة، المتمثلة بأن الأب ينقل جنسيته إلى أولاده.

آثار استعلام حال الأب أو اكتشاف جنسيته:

يمكن أن تثار عدة أسئلة، تتعلق باستعلام حال الأب، أو اكتشاف جنسيته. وبدايةً لابد من التنويه إلى أن هذه الجنسية، هي عبارة عن جنسية مؤقتة، ذلك أنها مهددة بالزوال، متى ما اكتشفت جنسية الأب، أو تم استعلام حاله. فإذا ما تبين أن الأب يتمتع بجنسية دولة ما فإننا نكون بإزاء أكثر من فرض:

- الفرض الأول: أن يتبين أن الأب عراقي الجنسية:

في هذا الفرض، نفترض أن الأب، تبين بأنه يتمتع بالجنسية العراقية وأنه كان عراقياً منذ لحظة ولادة المولود، بيد أن هذه الجنسية كانت مجهولة وغير معلومة. هنا سوف يظل المولود متمتعاً بالجنسية العراقية، كما كان، بيد أن الأساس القانوني لفرض الجنسية سيتغير. فبعد أن كان أساسها حق الدم المستمد من الأم - وبالشروط المذكورة آنفاً - سيصبح أساسها، حق الدم المستمد من الأب وحده. ولربما يكون الأب يحمل الجنسية العراقية لوحدها، أو أن يكون مزدوج الجنسية، فهذا لا يؤثر في الأمر شيئاً.

- الفرض الثاني: أن يتبين أن الأب أجنبي الجنسية:

في هذا الفرض، نفترض أن يتبين أن جنسية الأب أجنبية غير عراقية، يترتب على ذلك زوال الجنسية العراقية عن المولود وبأثر رجعي، وبعد أن لم يكن عراقياً من قبل. دونما فرق، بين ما إذا استطاع هذا المولود من الدخول في جنسية أبيه الجديدة، أو لم يستطع، بحسب ما ينص عليه قانون جنسية الأب.

وبناءً على ذلك فإن من المتصور، أن يقع هذا المولود في حالة اللاجنسية، ويغدو عديم الجنسية، بعد أن فقد جنسيته العراقية من جهة، ولم يستطع الدخول في جنسية أبيه الجديدة، من جهة أخرى، لأن قانون جنسية الأب لا يمنحه إياها. هذا كله من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن زوال الجنسية العراقية عن المولود، تقع سواء كان هذا المولود بالغاً سن الرشد، أو أنه لما يزل قاصراً، ذلك أن الزوال يحدث بأثر رجعي، كما ذكرنا.

- الفرض الثالث: أن يتبين أن الأب عديم الجنسية:

في هذا الفرض، يتضح أن الأب، لا يحمل الجنسية العراقية من جهة، كما أنه لا يتمتع بجنسية أية دولة، إنما هو عديم الجنسية. في هذا الفرض، يظل المولود محتفظاً بجنسيته العراقية التي اكتسبها عن طريق أمه. أما إذا قام هذا الأب باكتساب جنسية جديدة، بعد ولادة المولود، فإن هذا أيضاً لا يؤثر في جنسية المولود، الذي لا يفقد جنسيته العراقية بمجرد هذا الاكتساب، ذلك أن العبرة بجنسية الأب لحظة الولادة لا قبلها، ولا بعدها. وليس صحيحاً القول بإمكانية قياس ذلك، على الحكم الذي يقضي بأن العراقي الذي يفقد الجنسية العراقية، فإن أولاده الصغار يفقدون أيضاً بالتبعية الجنسية العراقية، والسبب في ذلك، أن هذا النص لا يسري إلا على العراقي الذي فقد جنسيته العراقية، في حين أن الحالة التي نتحدث عنها هنا، أن الأب هو أجنبي.^(١٩)

هذا فيما يتعلق باكتشاف جنسية الأب، أما فيما يتعلق بالنسب، فإن من الممكن أن يثبت نسب المولود لأم عراقية، إلى أبيه، بعد الولادة. فإذا ثبت النسب، وتبين أن الأب عديم الجنسية، فإن المولود يبقى محتفظاً بجنسيته العراقية، أما إذا تبين أن الأب أجنبي، أي يمتلك جنسية إحدى الدول، فإن المولود هنا يفقد جنسيته العراقية، ذلك لأن الجنسية المستمدة من جهة الأم ما قررت إلا لاستحالة تطبيق حق الدم المستمد من جهة الأب، بسبب عدم ثبوت النسب، وحيث أن النسب قد ثبت، فإن هذا يعني انتماء الولد لأبيه منذ الولادة، لا من تاريخ ثبوت النسب، مما يعني أن المولود وقت ولادته، كان ينتسب لأبٍ معلوم. وبذلك ينتفي أحد شروط اكتساب الجنسية العراقية، وهو مجهولية النسب^(٢٠). وأما إذا تبين أن الأب هو عراقي الجنسية، فهنا سيتغير الأساس القانوني لفرض الجنسية، فبعد أن كانت نفرض استناداً على حق الدم المستمد من الأم (م ٤ فقرة ٢)، فإنها ستفرض استناداً على حق الدم المستمد من الأب (م ٤ فقرة ١).

ويستخلص من ذلك كله، أن الجنسية العراقية التي اكتسبها المولود عن طريق أمه، تبقى له، ما دام الأب مجهولاً، أو لا جنسية له، وإن هذه الجنسية تزول وبأثر رجعي، إذا ظهر الأب المجهول وأقر بنسب المولود، أو إذا ظهر الأب الممتنع عن الاعتراف به، وثبت النسب إليه، واتضح أن جنسية الأب كانت وما تزال أجنبية، والجنسية هنا تزول بصرف النظر عما إذا كان المولود ما زال صغيراً أو أنه بلغ سن الرشد، وسواء أدخل في جنسية أبيه الأجنبية أم لم يدخل. إن هذه النتيجة تعني إمكانية زوال الجنسية عن المولود حتى بعد بلوغه سن الرشد، بمعنى أن لا أجل محدد لزوال الجنسية، هذا هو ما يفهم من نص القانون، والسبب وراء ذلك يكمن في أن استعلام حال الأب أو جنسيته الأجنبية، يؤدي إلى الكشف عن حقيقة ترد

١٩ - ينظر بصدد ذلك: د. حسن الهداوي، الجنسية ومركز الاجانب، مطبعة الارشاد، الطبعة الثالثة، بغداد، ١٩٧٢، ص ٧٩، د. هشام خالد، مصدر سابق، ص ٣٦٣ وص ٣٨٥.

٢٠ - ينظر بصدد ذلك: د. حسن الهداوي، المصدر السابق، ص ٧٩.

إلى يوم ولادة المولود، ويتخلف عنصر جوهري من عناصر فرض الجنسية العراقية المبنية على حق الدم المنحدر من جهة الأم، وحق الإقليم المستند على حصول الولادة في العراق من أب مجهول أو لا جنسية له. ونحن هنا نتفق مع من يذهب إلى أن المشرع كان عليه أن يحكم باستمرار الجنسية العراقية للمولود، بعد ظهور والده الأجنبي، وذلك فيما لو كان هذا المولود قد بلغ سن الرشد، مما يعني أن بلوغ سن الرشد يمثل أجلاً نهائياً لفقدان الجنسية العراقية، وأنذاك يعد الفرد قد حصل على حق اكتساب لا يجوز المساس به مطلقاً. إن هذا الإجراء هو خير من أن تبقى جنسية هذا الفرد مززلة، إذ يمكن أن يتزوج وينجب أولاداً يكتسبون الجنسية العراقية بالتبعية إليه، فكيف يمكن القول بإمكانية فقدان كل هذه الأجيال للجنسية العراقية بعد ذلك^(٢١).

الفصل الثاني: دور الأم في نقل الجنسية المبنية على حق الدم المستمد منها "حق الدم المطلق - الأنسيل"

لعل من نافلة القول، إن ما تم بيانه في الفصل السابق، إنما كان يتعلق بإمكانية الأم في نقل جنسيتها إلى أولادها، استناداً على حق الدم المستمد منها، والمعزز ببعض الشروط. وغني عن البيان، إن هذه الجنسية التي تنقلها الأم هي جنسية أصيلة، وليست طارئة أو مكتسبة. لكنها في الوقت ذاته، لا تفرض بسبب حق الدم من جهة الأم فحسب، بل لابد من تعزيزه ببعض الحالات أو الشروط، وهي جهالة الأب، أو جهالة جنسيته، أو انعدامها. مما يعني أن السبب الرئيس وراء فرض هذه الجنسية، هي تلافي وقوع المولود في حالة اللا جنسية - بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى المذكورة سابقاً - . في هذا الفصل، نريد أن نتحدث عن إمكانية الأم ودورها في نقل جنسيتها إلى أولادها، استناداً على حق الدم المستمد منها فقط، وغير المعزز بأي حق آخر، أو أي شرط آخر. بعبارة أخرى، إننا نريد أن نتحدث عن دور الأم في نقل جنسيتها إلى أولادها، تماماً كما ينقل الأب جنسيته إلى أولاده، أي بالمساواة بينهما في نقل الجنسية إذ تكون الجنسية هنا، جنسية مفروضة - أصيلة - وقائمة على أساس حق الدم المستمد من الأم لوحده.

وبغية الإحاطة بذلك كله، فإننا سنقوم بتقسيم هذا الفصل على مبحثين اثنين، نبحت في الأول منهما، في الحجج التي يعتمدها المناهضون لفكرة قدرة الأم في نقل الجنسية إلى الأولاد. بمعنى آخر، المناهضون لفكرة المساواة بين الرجل والمرأة في نقل الجنسية، وكذلك نعرض للحجج التي يعتمدها المؤيدون لفكرة المساواة. ونكرس المبحث الثاني لبيان موقف التشريعات العربية والعراقية من هذه الفكرة المهمة.

المبحث الأول: حجج المناهضين والمؤيدين لفكرة المساواة بين الرجل والمرأة في نقل الجنسية

من المعلوم أن قدرة المرأة - الأم - على نقل جنسيتها إلى أولادها بشكل أصيل، ومتساو مع الرجل - الأب - قد نشب الخلاف بشأنه. وغني عن البيان، أن الفكرة السائدة في تشريعات الجنسية - بصورة عامة - ، ولا سيما في التشريعات العربية، تتمثل بمعارضة فكرة المساواة هذه، إذ يقتصر الأمر على إعطاء دور للأم يتمثل بنقل الجنسية استناداً على حق الدم المستمد منها، والمعزز بالشروط، التي ذكرناها سابقاً. ولقد بقي الوضع هكذا إلى أن قامت بعض التشريعات العربية في السنوات الخمس الأخيرة بتغيير هذا الوضع - كما سيتضح لاحقاً - . لا ريب في أن الاتجاه المناهض يستند على حجج عديدة تدعم رأيه. كما

٢١. ينظر: د.مدوح عبد الكريم حافظ، القانون الدولي الخاص وفق القانونين العراقي والمقارن، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة، ١٩٧٣، بغداد، ص ٨٦.

أن ثمة اتجاهًا آخر، يعارض الاتجاه الأول، ويؤكد قدرة المرأة - الأم - على نقل جنسيتها إلى أولادها، بشكل متساو مع الرجل - الأب - وهذا الاتجاه يعتمد بالتأكيد على حجج عديدة، تدعم اتجاهه. وبغية الإحاطة بهذين الاتجاهين، فإننا سنوزع هذا المبحث، إلى مطلبين اثنين، نخصص الأول منهما، لعرض الاتجاه المناهض، وحججه، ونكرس الثاني منهما، لعرض الاتجاه المؤيد، وأدلته. وهذا ما سنتناوله تباعاً، إن شاء الله.

المطلب الأول: الاتجاه المناهض وحججه

يذهب فريق من الفقهاء - ومن قبلهم معظم تشريعات الجنسية العربية - ، إلى القول بضرورة التفرقة بين الأب والأم في نقل الجنسية إلى المولود، والقول بأن الأب وحده، هو الذي ينقل جنسيته - بشكلٍ أساسي ومباشر - إلى المولود، دون الأم. ولقد استند هذا الفريق، في توجهه هذا، على أدلة وحجج متعددة. ونحن هنا نقوم بالإشارة إلى هذه الحجج، التي يمكن حصرها بالآتي:

١. حجة إجتماعية.
 ٢. حجة إقتصادية.
 ٣. حجة أخلاقية.
 ٤. حجة أمنية.
 ٥. تلافي ازدواج الجنسية.
 ٦. انتساب المولود للأب وليس للأم.
 ٧. عدم مساواة المرأة والرجل.
 ٨. إمكان حصول المولود على الجنسية المكتسبة.
 ٩. عدم تشجيع زواج الوطنيات بالأجانب.
 ١٠. عدم الاندماج بالمجتمع.
 ١١. عدم مخالفة القانون الدولي.
 ١٢. عدم مخالفة الدستور.
- وسنستعرض هذه الحجج في فروع مستقلة^(٢٢).

الفرع الأول: الحجة الاجتماعية

إن قوام هذه الحجة، هي الاعتبارات الاجتماعية، ومؤداها، أن الأب هو الأقدر على تنشئة المولود تنشئة وطنية، وغرس الشعور لديه بالولاء. وهذا الولاء هو الذي يمثل العنصر الروحي في رابطة الجنسية. ثم إن الأب هو رب الأسرة مما يغلب دوره في تكوين عقلية الولد.

الفرع الثاني: الحجة الاقتصادية

وهي حجة قائمة على اعتبارات اقتصادية، تتعلق بمشكلة السكان. ومؤداها، إن الدول التي تعاني من كثافة سكانية، تكون بالحصول دولا طاردة للجنسية والتجنس، لا جاذبة لها. وبناء على هذا، فإن إعطاء

٢٢. ينظر بصدد هذا الاتجاه، وحججه، د. هشام علي صادق، مصدر سابق، ص ١٤ وما بعدها، د. عكاشة محمد عبد العال، أحكام الجنسية، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٣٥٢ - ٣٥٣. د. هشام خالد، مصدر سابق، ص ٤٠١ وما بعدها، د. حفيظة السيد الحداد، مدخل إلى الجنسية ومركز الاجانب دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٧، ص ١٠٦ وما بعدها، د. عبد المنعم زمزم، جنسية ابناء الأم المصرية، قرارات وزير الداخلية والتعديل التشريعي، دار النهضة العربية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٤١ - ١٩٢.

الأم الحق في نقل جنسيتها، سيفضي بالضرورة الى زيادة عدد السكان، وهو أمر يتنافى مع السياسة التشريعية لدول تعاني من المشكلة السكانية.

الفرع الثالث: الحجة الأخلاقية

وقوام هذه الحجة، الاعتبار الأخلاقية، التي تستلزم - بحسب أنصارها - ، ضرورة منع الأم الوطنية من نقل جنسيتها إلى أولادها المولودين في الخارج. إن هذا المنع سيفضي بالضرورة، إلى مكافحة ظاهرة الأولاد غير الشرعيين. بعبارة أوضح، إن السماح للأم الوطنية بنقل جنسيتها إلى أولادها المولودين في الداخل أو الخارج، على حد سواء، من شأنه أن يزيد من ظاهرة الأولاد غير الشرعيين، وهي ظاهرة غير أخلاقية، بكل تأكيد، وتؤدي إلى تفكك الأواصر الاجتماعية.

الفرع الرابع: الحجة الأمنية

ومفادها، إن الاعتبار الأمنية تدعو إلى ضرورة عدم إعطاء الأم الوطنية، الحق في نقل الجنسية إلى أولادها، ما دام الأب هو أجنبي الجنسية. إذ أن دخول هؤلاء الأولاد في جنسية الأم سيجعلهم من المواطنين. إن النتيجة المترتبة على ذلك هي ضعف الرقابة الداخلية على نشاط بعض الأجانب، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الداخلين في الجنسية لا يعلم حالهم، وما إذا كانوا مندمجين في المجتمع أو لا.

الفرع الخامس: تلافي ازدواج الجنسية

إن إعطاء الأم الحق في نقل الجنسية إلى الأولاد، والتسوية بينها والأب في هذا الحق، سيؤدي، بلا شك، إلى تعدد أو ازدواج الجنسية. كما لو تزوجت امرأة عراقية بـ رجل مصري أو كويتي مثلاً، ولو افترضنا أننا نسوي بين الأم والأب في نقل الجنسية، فإن مؤدى ذلك أن يحصل المولود على جنسيتين، أي سيكون مزدوج الجنسية منذ لحظة الولادة، إذ سيحصل على جنسية الأب - الأجنبي - استناداً على حق الدم، وسيحصل كذلك على جنسية الأم العراقية، استناداً على حق الدم المستمد منها.

لقد بات واضحاً، أن ظاهرة ازدواج الجنسية، هي من الظواهر غير المرغوب فيها في المجتمع الدولي، وأن هذا المجتمع يحاول القضاء عليها، أو في الأقل، التخفيف من غلوها، وذلك عبر إبرام المعاهدات الدولية المعنية بهذه المشكلة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فلقد غدا معلوماً، أن هذه الظاهرة - ازدواج الجنسية - تتعارض مع الأصول والمفاهيم المثالية في الجنسية، تلك الأصول التي ينشدها المجتمع الدولي.

وفضلاً عن هذا وذاك، فإن هذه الظاهرة، توقع الفرد الذي يعاني منها، في مشكلات عديدة لا تعد ولا تحصى^(٢٣).

الفرع السادس: انتساب المولود للأب وليس للأم

إن الأب هو الأصل الذي ينسب المولود إليه، وذلك وفقاً للأصول المتعارف عليها في الشريعة الإسلامية. تلك الشريعة التي تمثل المصدر الأساس للتشريع في معظم الدول العربية. وإن الأب هو الولي الشرعي للمولود، الأمر الذي يسوغ كون حق الدم المستمد من الأب، هو الأصل، وأن حق الدم المستمد من الأم يكون ثانوياً.

٢٣. لمزيد من الاطلاع، على المساوئ والمشكلات التي تثيرها هذه الظاهرة، ينظر: د. حسن الياسري، ازدواج الجنسية، في ضوء أحكام الدستور العراقي وقانون الجنسية الجديد والقانون المقارن، بغداد، ٢٠٠٨.

الفرع السابع: عدم مساواة الرجل والمرأة

إن ثمة فرقاً بين الرجل والمرأة في المركز القانوني، ومن ثم يمكن أن تختص بعض الحقوق بالرجل دون المرأة. ومن هذه الحقوق، الحق في نقل الجنسية إلى الأولاد. فلقد أقرت الشريعة الإسلامية بالترقية بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق، ومنها الحق في الميراث.

الفرع الثامن: إمكان حصول المولود على الجنسية المكتسبة

إن عدم إعطاء الأم الحق في نقل الجنسية إلى الأولاد بشكل متساو مع الأب، لا يعني إلغاء دور الأم في هذا المقام، ذلك أننا علمنا أن الأم يمكنها أن تنقل جنسيتها إلى الأولاد بناء على حق الدم الثاني - فيما لو كان الأب مجهولاً، أو مجهول الجنسية، أو عديمها - والجنسية هنا هي جنسية مفروضة بقوة القانون - أصيلة - كما أنه يمكن من ناحية أخرى، للمولود من أم وطنية "كأن تكون عراقية الجنسية مثلاً" والولادة في خارج الإقليم "العراق"، يمكن لهذا المولود أن يكتسب جنسية أمه (العراقية) بعد بلوغه سن الرشد. وإن الجنسية هنا هي جنسية مكتسبة - طارئة - . إن هذا النص معمول به في معظم تشريعات الجنسية العربية، ومنها القانون العراقي^(٢٤). ومن هنا يتضح أن للأم دوراً كبيراً في نقل الجنسية إلى الأولاد، وإن لم تكن بدرجة الأب.

الفرع التاسع: عدم تشجيع زواج الوطنيات بالأجانب

إن عدم التسوية بين الرجل والمرأة في نقل الجنسية الأصلية إلى الأولاد، يفرض بطبيعة الحال، إلى عدم تشجيع الوطنيات على الزواج بالرجال الأجانب. إذ لو علمت المرأة أنها لو أقدمت على الزواج برجل أجنبي، فإن أولادها لن يحصلوا على الجنسية الوطنية (العراقية مثلاً)، فإن هذا ربما سيمثل رادعاً لها، للإقدام على هذا الزواج.

الفرع العاشر: عدم الاندماج الحقيقي بالمجتمع

من المعلوم أن الجنسية تقوم في إحدى عناصرها - وفقاً للاتجاهات المثالية في الجنسية - على الرابطة الروحية والاندماج الحقيقي والفعلي في المجتمع. إن هذه الرابطة الروحية، وهذا الاندماج الحقيقي، هو أمر غير متحقق بالنسبة للمولود من أب أجنبي، وأم وطنية. إذ الغالب أن تكون الإقامة في دولة الأب الأجنبي، لا في دولة الأم الوطنية، أو لربما في دولة ثالثة. وبالحصول فقد يكون الاندماج متحققاً في دولة الأب الأجنبي، لا في دولة الأم.

الفرع الحادي عشر: عدم مخالفة القانون الدولي

إن التشريعات التي لا تسوي بين الرجل والمرأة في موضوع نقل الجنسية إلى الأولاد، لا تخالف القانون الدولي، وذلك استناداً على المبدأ المعروف في فقه القانون الدولي الخاص بـ (حرية الدولة في تنظيم جنسيتها). هذا المبدأ الذي يعني ببساطة، أن لكل دولة الحق في تنظيم أمر جنسيتها على وفق قوانينها الخاصة، وبما يحقق مصالحها. ومن مضامين هذا المبدأ، إختصاص الدولة وحدها في تنظيم جنسيتها، دون أن يسمح لأية دولة أخرى، أو لأي فرد، أو هيئة في التدخل في هذا الاختصاص. وبناء على ذلك، فإن

٢٤ - تنص المادة الخامسة من قانون الجنسية العراقية الملغي رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٣ على الآتي: "لوزير أن يعتبر من ولد خارج العراق من أم عراقية وأب مجهول أو لا جنسية له، عراقي الجنسية، إذا اختارها خلال سنة من تاريخ بلوغه سن الرشد، بشرط أن يكون مقيماً في العراق وغير مكتسب جنسية أجنبية"، ولقد جاء النص ذاته في المادة الرابعة من قانون الجنسية الجديد رقم ٢٦ لسنة ٢٠٠٦، مع إضافة العبارة الآتية: "... إلا إذا حالت الظروف الصعبة دون ذلك بشرط أن يكون مقيماً في العراق وقت تقديمه طلب الحصول على الجنسية العراقية".

الدول التي ترى أن مصالحها، تقتضي عدم المساواة بين الرجل والمرأة في قضية نقل الجنسية، لا يمكن الاحتجاج عليها بأنها خرقت القانون الدولي، بل هي مارست إختصاصاً ممنوحاً لها بموجب ذلك القانون. ولا يمكن القول أن ثمة دولا أخرى، تسوي بين الرجل والمرأة في نقل الجنسية. إذ الأمر - كما قلنا - مرتبط بمنظومة القوانين التي تعتنقها كل دولة من جهة، وبمصلحتها الخاصة التي تسعى إلى تحقيقها من خلال فرض الجنسية من جهة أخرى. وإن الدول التي أجرت تلك المساواة، ربما تكون مصالحها قد إقتضت ذلك.

الفرع الثاني عشر: عدم مخالفة الدستور

إن أنصار هذا الاتجاه، يذهبون إلى القول، بأن اتجاههم هذا، لا يتعارض مع الدستور البتة. ومعنى ذلك أن كون هنالك فرقا بين الرجل والمرأة في نقل الجنسية، لا يتعارض مع الدستور. إن السبب في ذلك يكمن في أن الدستور، وإن كان قد كفّل المساواة بين الجنسين - في معظم الدساتير -، إلا أن تلك المساواة، ترتبط بالمركز القانوني لكل من الرجل والمرأة في بعض الوظائف والحقوق. ومن هنا فإن القضية تتعلق بالمركز القانوني أكثر مما تتعلق بالحقوق. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن معظم الدساتير العربية تنص على ضرورة مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية في تشريعاتها. ومؤدى ذلك جواز اختلاف مركز الرجل عن المرأة في بعض القضايا - من هذه الناحية -، ما دام الأمر يتعلق بإجراء تنظيمي، ويرتبط بمصالح الدولة العليا.

هذه هي أهم الحجج التي يعتمد عليها أنصار هذا الاتجاه، في تدعيم رأيهم، الذي ينسجم بالضرورة، مع موقف أغلب التشريعات العربية التي اعتنقت هذا الاتجاه من قبل.

المطلب الثاني: الاتجاه المؤيد وحججه

هنالك اتجاه آخر على النقيض من الاتجاه الأول، يذهب إلى ضرورة التسوية بين الرجل والمرأة - الأب والأم - في نقل الجنسية إلى الأولاد. وقد أسميناه بالاتجاه المؤيد، لأنه يؤيد فكرة إعطاء الأم دوراً أصيلاً ومباشراً في نقل الجنسية، على حد سواء مع الأب. ومعنى ذلك أن يكون للأم دور أساسي في نقل الجنسية الأصيلة إلى الأولاد على حد سواء مع قدرة الأب، دون أن يكون ذلك الحق مقتصرًا على ما يعرف بـ "حق الدم الثانوي". وبالحصول فان هذا الاتجاه يتعارض مع أغلب التشريعات العربية التي تعطي للأم دوراً ثانوياً في نقل الجنسية إلى الأولاد، خلافاً لدور الأب الذي تعطيه دوراً أساسياً ومباشراً، بناءً على حق الدم المطلق، لا الثانوي. وبطبيعة الحال، فإن هذا الاتجاه الفقهي، يعتمد على حجج متعددة، يمكن تصنيفها إلى صنفين:

- صنف هو عبارة عن حجج يعتنقها هذا الاتجاه.

- صنف، هو عبارة عن ردٍ ودحضٍ للحجج التي قدمها الاتجاه المناهض.

وأياً كان الأمر، فإننا سنقوم بعرض أهم هذه الحجج بصورة موجزة في فروع ثمانية. (٢٥)

الفرع الأول: الرد على الحجة الاجتماعية

إن أنصار هذا الاتجاه، يردون على الاتجاه الأول، بصدد الحجة المتعلقة بالطابع الاجتماعي، ونعني بذلك كون الأب هو الأصل، وهو الذي يزرع في أبنائه الشعور بالانتماء إلى البلد، وينمي فيهم الروح الوطنية. وفحوى هذا الرد، يتمثل بالقول، بأن ليس الأب وحده، هو الذي يسهم في ذلك، بل الأم يمكن

٢٥. ينظر بصدد هذه الحجج: د. هشام علي صادق، مصدر سابق، ص ١٤ وما بعدها، د. عكاشة عبد العال، أحكام الجنسية، ص ٣٥٤.٣٥٥، د. حفيظة الحداد، مدخل إلى الجنسية ومركز الأجانب، ص ١١٤ وما بعدها، د. هشام خالد، مصدر سابق، ص ٤٧٦ وما بعدها، د. عبد المنعم زمزم، مصدر سابق، ص ١٩٢ وما بعدها.

أن تلعب الدور ذاته، بل ربما قد تفوقه في أحيان. ويمكن للأم أن تزرع في نفوس أولادها حب الوطن، وتربى لديهم القيم والمثل الوطنية. والمحصلة أن الأم تتساوى في هذا الدور مع الأب.

الفرع الثاني: الرد على الحجة الاقتصادية

إن أنصار هذا الاتجاه يردون على الحجة التي أبداها، الاتجاه الأول، ذات البعد الاقتصادي، والمتعلقة بكون الدول ذات الكثافة السكانية، تسعى لتقليل حالات التجنس واكتساب الجنسية. إذ يقولون بأن الكثافة السكانية في الدولة لا تعالج من خلال حرمان الأم من نقل الجنسية بالسواء مع الأب. وإنما يكون ذلك عبر برنامج تضعه الدولة لمعالجة هذه المشكلة، ومن خلال تنظيم النسل، كما يحدث في بعض الدول التي تعاني من هذه المشكلة.

الفرع الثالث: الرد على الحجة الأمنية

قد قدمنا سابقاً، أن الاتجاه المناهض، يعتمد في بعض حججه، على دواعي الأمن واعتبارات الأمن القومي. إن أنصار الاتجاه الآخر، يردون على هذه الحجة بالقول، إن الاعتبارات الأمنية لا دخل لها في هذه القضية، وإن من غير الصحيح الزج بالاعتبارات الأمنية في قضية نقل الأم لجنسيتها إلى أولادها. ذلك أن فكرة - دواعي الأمن - هي فكرة مرنة، وقابلة للاجتهااد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن دواعي الأمن تبقى قائمة حتى بالنسبة لدور الأب في نقل الجنسية إلى أولاده، ولا سيما فيما إذا تزوج الرجل الوطني بامرأة أجنبية.

الفرع الرابع: تلافي ازدواج الجنسية

من الحجج التي استند عليها الاتجاه الأول - المناهض - هو أن إعطاء الجنسية لأولاد الأم الوطنية بشكل متساو مع الأب، يؤدي إلى تزايد ظاهرة ازدواج الجنسية. وقد بات معلوماً مدى المشكلات التي تسببها هذه الظاهرة. وللرد على هذه الحجة، فإن أنصار الاتجاه الآخر يذهبون إلى القول بأن تشريعات الجنسية - بشكل عام - تعج بكثير من حالات الازدواج. مما يعني أن تشريعات الجنسية، تسمح لهذه الظاهرة بالنمو، ولو بصورة غير مباشرة. ومن ناحية ثانية، فإن مكافحة هذه الظاهرة - العالمية - لا تكون عبر تشريع الجنسية في دولة ما، إنما يكون ذلك، عبر التعاون ما بين الدول، بغية إيجاد الحلول الفعيلة لمكافحة هذه الظاهرة. وهذا هو الاتجاه الذي سارت عليه معاهدات دولية عديدة. ومن ناحية ثالثة، فإن ظاهرة الازدواج المترتبة على إعطاء الأم الدور الأساس في نقل الجنسية إلى أولادها، يمكن تلافيها، عبر إعطاء هؤلاء الأولاد الخيار بين جنسية الأم، أو جنسية الأب، عد بلوغهم سن الرشد.^(٢٦)

الفرع الخامس: مساواة المرأة بالرجل

إن أنصار هذا الاتجاه، يصرون على أن عدم إعطاء الأم الحق في نقل الجنسية الى الاولاد، على حد السواء مع الأب، هو من الأمور التي تخل بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة. تلك المساواة التي تنادي بها المعاهدات الدولية، ونصت عليها أغلب الدساتير. ومن ثم فإن عدم مساواة الأم بالأب في نقل الجنسية الأصلية يعد مخالفاً للدستور كذلك.

الفرع السادس: ضرورة مواكبة تشريعات الجنسية للتطورات الاجتماعية والاقتصادية

من المعلوم ان المجتمعات المعاصرة، تعيش حالة من الانفتاح الاقتصادي والاجتماعي، ذلك الانفتاح الذي أدى الى حدوث كثير من الزيجمات المختلطة. وبإزاء هذا الواقع ينبغي على التشريعات أن تعالج ما يسفر عن هذه الزيجمات، وأن تواكب التطور، وذلك عبر السماح لأولاد الام الوطنية باكتساب جنسية أمهم

٢٦ - للمزيد حول اجراءات تلافي ظاهرة ازدواج الجنسية، ينظر: د. حسن الياسري، ازدواج الجنسية، مصدر سابق .

المتزوجة بأجنبي، وبصرف النظر عن مكان الولادة. وإن المشكلة لتزداد، حينما يحصل طلاق، وتعود الأم الوطنية الى ديارها، دون أن يحصل أولادها على الجنسية.

الفرع السابع: لإحترام الأصول المثالية في الجنسية

هنالك أصول مثالية متعارف عليها تحكم موضوع الجنسية. ومن هذه الأصول ضرورة أن يكون لكل إنسان الحق في الجنسية. وكذلك الطفل، إذ ينبغي أن تكون له جنسية إحدى الدول. إن هذا الحق يقابله، بالتأكيد، التزام يقع على عاتق الدولة بمنح هذه الجنسية لكل من يرتبط معها برابطة الدم أو الإقليم، وفقاً لقوانين الدولة.

وهذا ما أكد عليه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان^(٢٧)، وكذلك العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية^(٢٨)، بالإضافة إلى الاتفاقية الدولية بشأن تقليل حالات انعدام الجنسية^(٢٩). وغير ذلك.^(٣٠)

المبحث الثاني: موقف التشريعات العربية والعراقية

نتحدث عن ذلك عبر مطلبين، نبحث في الأول منهما في موقف التشريعات العربية من إعطاء الأم دوراً أساسياً في نقل الجنسية إلى الأولاد، ونبين في الثاني منهما، موقف القانون العراقي.

المطلب الأول: موقف التشريعات العربية

لقد كانت التشريعات العربية، والى وقت قريب، تبني الاتجاه المناهض للتسوية بين الأب والأم في نقل الجنسية الاصلية إلى الأولاد. فلقد كانت هذه التشريعات - قاطبة -، تعطي للأم دوراً ثانوياً، يتمثل بالحق في نقل الجنسية بناءً على ما أسميناه "حق الدم الثانوي". وبمقتضاه يكون للأم الوطنية دور في نقل جنسيتها إلى أولادها، ولكن بشروط، وهي أن يكون زوجها إما مجهولاً غير معروف، أو مجهول الجنسية أو عديمها. ولقد تبين لنا في العرض السابق أن بعض التشريعات العربية تشترط أن تكون الولادة في الإقليم لا خارجه، بالإضافة إلى الشروط المذكورة آنفاً.

مما تقدم، ومن العرض السابق في الفصل الأول من هذا البحث، يتجلى لنا بوضوح، أن التشريعات العربية، لم تعطِ للأم دوراً في نقل الجنسية إلى أولادها، استناداً على ما أسميناه "حق الدم الأصيل"، إنما يقتصر دورها في نقل الجنسية، بناءً على "حق الدم الثانوي". ولقد أوفينا ذلك شرحاً فيما سبق.

ولقد بقي الحال هكذا، حتى عام ٢٠٠٤، عندما خطت مصر، ومن بعدها العراق، خطوات جريئة، قلبت الوضع رأساً على عقب. ومن خلال متابعتي الدقيقة لهذا الموضوع، فإنني أخلص إلى القول، أن ثمة إتحاهين إثنين في الوقت الراهن يحكمان هذا الموضوع - أي قدرة الأم على نقل جنسيتها إلى الأولاد بصورة أصيلة لا ثانوية -، الأول يتمثل بالاتجاه القديم، الذي يمكن أن أصفه بـ (الاتجاه التقليدي). والثاني

٢٧- تنص المادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ كانون الأول عام ١٩٤٨ على الآتي:

١- لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

٢- لا يجوز تعسفاً حرمان أي شخص من جنسيته ولا من حقه في تغيير جنسيته.

٢٨- تنص المادة الرابعة والعشرون (٢٤) من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية الصادر في ١٦ كانون الأول عام ١٩٦٦، على ما يأتي: "يكون لكل ولد، دون أي تمييز بسبب العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الأصل القومي أو الاجتماعي أو الثروة أو النسب، حق على أسرته وعلى المجتمع وعلى الدولة في اتخاذ تدابير الحماية التي يقتضيها كونه قاصراً.

٢- يتوجب تسجيل كل طفل فور ولادته ويعطى اسماً يعرف به.

٣- لكل طفل حق في اكتساب جنسية.

٢٩- تنص المادة الأولى (١) من هذه الاتفاقية التي اعتمدها مؤتمر المفوضين في عام ١٩٥٩، ثم في عام ١٩٦١، على الآتي: "١-

تمنح كل دولة متعاقدة جنسيتها للشخص الذي يولد في إقليمها ويكون لولا ذلك عديم الجنسية...."

٣٠- ومنها معاهدة لاهاي بشأن الجنسية لعام ١٩٣٠، والاتفاقية الخاصة بوضع اللاجئين لعام ١٩٥١.

يتمثل بالإتجاه الذي يمكن أن أصفه بـ (الإتجاه الحديث) ،الذي غيّر النظرية من أساسها ، وقام بإعتناق نظرية جديدة.

وحيث أننا قد ذكرنا موقف الإتجاه التقليدي ،وقلنا بأن التشريعات العربية كلها ، كانت تأخذ بهذا الإتجاه ، الذي مفاده أن الأم لا تستطيع أن تنقل جنسيتها الى أولادها بصورة أصيلة كالأب ، وإنما يبقى دورها مقتصر على ما ذكرناه سابقا ، من نقل الجنسية بصورة ثانوية . أما الإتجاه الحديث ، فالملاحظ أن بعض التشريعات العربية ، في السنوات الست الأخيرة ، قد أخذت بنظرية جديدة ، تلك هي المتعلقة بالتسوية بين الأب والأم في نقل الجنسية الى الأولاد . بعبارة أخرى ، أن الأم تنقل جنسيتها الى أولادها تماما كما ينقلها الأب ، وبصورة أصيلة ، بناء على ما أسميناه (حق الدم الأصيل أو المطلق) . وبالنظر لأهمية هذا الإتجاه ، وما أحدثه من نقلة نوعية ، ولكونه إتجاها جديدا لم تسلط الأضواء عليه ، ولا يعلمه الكثير من الباحثين ، فسأحاول تسليط الضوء عليه .

تعد مصر الدولة العربية الأولى التي أخذت بالإتجاه الحديث ، وقضت بأن الأم المصرية تنقل جنسيتها الى الأولاد ، مثلها كمثل الأب . ثم تلاها العراق في هذا الموقف ، فالجزائر ، فالمغرب ، فتونس . تلك دول خمس أخذت بهذا الإتجاه . وسنستعرض موقف تشريعات هذه الدول بحسب تسلسلها الزمني ، وأرجئ الحديث عن القانون العراقي الى المطلب الثاني .

أولا : القانون المصري وتعديله في عام ٢٠٠٤ :

لقد بينا فيما سبق موقف القانون المصري ، وأنه جاء متوافقا مع منظومة التشريعات العربية ، فيما يتعلق بموضوع البحث . بيد أن الفقه المصري لم يهدأ له بال ، وبدأ الشراح المصريون يعالجون هذه المشكلة - قدرة الأم على نقل الجنسية الى الأولاد بصفة أصيلة كالأب - بمزيد من البحث والتحليل . ولقد كان جلهم من انصار الاتجاه المؤيد لإعطاء الأم دورا مساويا لدور الأب في عملية نقل الجنسية . إن ما قام به الفقه القانوني المصري ، لم يحدث في أي بلد عربي آخر ، وهو أمر ليس بغريب ، إذ أن الفقه القانوني المصري له السبق في معظم القضايا القانونية . وعلى أية حال ، فإن هذه الآراء التي سطرها الشراح والفقهاء ، قد آتت أكلها ، وتركت تأثيرا في الرأي العام المصري من جهة ، وفي موقف المشرع من جهة أخرى . وفعلا فقد استجاب المشرع المصري لهؤلاء الشراح والفقهاء في عام ٢٠٠٤ ، فصدر في تموز منه قانون التعديل رقم ١٥٤ لعام ٢٠٠٤ ، ليحدث تغييرا شاملا وجذريا في الموضوع . إذ بمقتضى هذا القانون أصبحت الأم المصرية قادرة على نقل جنسيتها الى أولادها - من زوجها الاجنبي - ، تماما وعلى حد السواء مع قدرة الأب المصري ، بصورة مطلقة ، ودون قيد أو شرط مضاف . فما دام الأب المصري ينقل جنسيته الى أولاده ، كذلك الحال في الأم المصرية ، إذ لها القدرة على نقل جنسيتها الى أولادها . وهكذا عدل قانون الجنسية المصرية رقم ٢٦ لعام ١٩٧٥ ، بهذا القانون - أي قانون رقم ١٥٤ لعام ٢٠٠٤ .^(٣١)

لقد نصت المادة الاولى من قانون تعديل قانون الجنسية رقم ١٥٤ لعام ٢٠٠٤ على الآتي :
"يستبدل بنص المادة (٢) من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٧٥ بشأن الجنسية المصرية ، النص الآتي :
مادة (٢) : يكون مصريا :

- ١- من ولد لأب مصري ، أو لأم مصرية .
 - ٢- من ولد في مصر من أبوين مجهولين ، ويعتبر اللقيط مولودا فيها ما لم يثبت العكس ."
- ويتضح بجلاء ، أن هذا النص قد قرر حق الدم المطلق من ناحية الأب والأم معا . وبذلك أوضحت الأم قدرة على نقل جنسيتها المصرية الى أولادها ، على حد السواء مع قدرة الأب في ذلك .

٣١- لقد نشر قانون التعديل هذا ، في الجريدة الرسمية ، العدد ٢٨ ، بتاريخ ١٤ / ٧ / ٢٠٠٤ .

ثانيا : القانون الجزائري :

لقد جاء قانون التعديل رقم ٠٥ - ٠١ لعام ٢٠٠٥^(٣٢)، لتعديل قانون الجنسية الجزائرية رقم ٧٠ - ٨٦ لعام ١٩٧٦، وليحدث نقلة في التشريع الجزائري. إذ جاءت المادة (٦) من هذا التعديل لتسير على هدى القانون المصري، ولتنص على الآتي :

(يعتبر جزائريا الولد المولود من أب جزائري أو أم جزائرية). وبذلك يكون هذا التعديل قد سوى بين الأب والأم في نقل الجنسية. إذ بات كلا منهما ينقل الجنسية الأصيلية الى المولود، دون قيد أو شرط، وبصرف النظر عن مكان الولادة.

ثالثا : القانون المغربي :

وعلى المنوال ذاته سار القانون المغربي، فبعد أن كان هذا القانون - وكغيره من التشريعات العربية - ، لا يعطي الأم الحق في نقل الجنسية الى أولادها بصورة أصيلة ومطلقة. بات بعد التعديل المهم في عام ٢٠٠٧، يعطي ذلك الحق. فلقد جاء القانون رقم ٠٦ - ٦٢ لعام ٢٠٠٧^(٣٣)، قانون تعديل قانون الجنسية المغربية لعام ١٩٥٨، لينص في الفصل (٦) على الآتي :

(يعتبر مغربيا الولد المولود من أب مغربي أو أم مغربية). وبهذا النص يكون القانون المغربي قد خطا خطوات كبيرة في مقام التسوية بين الأب والأم في نقل الجنسية الأصيلية المبنية على حق الدم المطلق.

رابعا : القانون التونسي :

على الرغم من أن القانون التونسي كان سباقا في إعطاء الأم دورا أكبر في نقل جنسيتها، وذلك عبر تعديل القانون التونسي في تسعينات القرن الماضي، وتحديدا في عام ١٩٩٣، الذي أعطى الحق للأم التونسية بنقل جنسيتها الى ولدها المولود في تونس من أب أجنبي. لقد مثل هذا التعديل في وقته طفرة نوعية، إذ لم تكن التشريعات العربية تسمح بذلك - قاطبة - ، بل كانت تسمح للأم في ذلك فيما لو كان الأب مجهولا أو مجهول الجنسية أو عديمها - كما اتضح ذلك فيما سبق - .

أقول، على الرغم من موقف القانون التونسي هذا، إلا أنه من ناحية أخرى، قد تأخر في إعطاء الأم حقا متساويا مع الأب في نقل الجنسية عن القوانين في كل من : مصر والعراق والجزائر والمغرب. إذ أن القانون التونسي لم يعط الأم هذا الحق إلا في عام ٢٠١٠. وعلى أية حال، فقد جاء القانون عدد ٥٥ لسنة ٢٠١٠^(٣٤)، قانون تعديل مجلة الجنسية التونسية عدد ٦ لسنة ١٩٦٣ ليعطي الأم التونسية هذا الحق. فلقد نص الفصل (٦ المعدل) على ما يأتي :

(يكون تونسيا الطفل الذي ولد لأب تونسي أو لأم تونسية). وبهذا النص تكون الأم التونسية قد تساوت مع الأب التونسي في نقل الجنسية الى الأولاد بناء على حق الدم المطلق لا الثانوي. وحيث قد تساوت الأم مع الأب، لذلك قام القانون بحذف النصوص الأخرى التي كانت تعطي الأم دورا ثانويا في نقل الجنسية، فيما لو كان الأب مجهولا أو مجهول الجنسية أو عديمها.

المطلب الثاني: موقف التشريعات العراقية

قد ذكرنا سابقا موقف تشريعات الجنسية العراقية السابقة، وأعني بها قانون الجنسية العراقية الاول رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٤، وقانون الجنسية رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٣. وقد تبين أن هذين القانونين لم يسمحا للأم بنقل جنسيتها الى أولادها إلا استثناء، وهو ما أسميناه "حق الدم الثانوي".

٣٢ - صدر بموجب الأمر رقم ٠٥ - ٠١ في ٢٧ شباط ٢٠٠٥.

٣٣ - المؤرخ في ٢٣ آذار (مارس) ٢٠٠٧.

٣٤ - المؤرخ في ١ كانون الأول (ديسمبر) عام ٢٠١٠.

وقد بقي الحال هكذا لغاية سقوط النظام السابق ، وصدر الدستور العراقي الدائم الجديد لعام ٢٠٠٥ ، الذي أحدث تغييراً جذرياً شاملاً في موضوع الجنسية ، تمثل بعدة مسائل جوهرية عديدة. لكننا هنا نقتصر على موضوع بحثنا ، وفيما يتعلق بهذا الموضوع ، فإن النقلة التي أحدثها الدستور الجديد ، تمثلت بالتسوية الكاملة بين الأب والأم في نقل الجنسية. بعبارة أخرى ، ان الأم قد باتت قادرة على نقل جنسيتها بناءً على حق الدم الأصيل الى اولادها ، تماماً كقدرة الأب على ذلك. وهذا ما صرح به البند الثاني من المادة (١٨) من الدستور ، الذي نص على الآتي :

”يعد عراقياً كل من ولد لأبٍ عراقي أو لأمٍ عراقية ، وينظم ذلك بقانون”.

وبهذه المثابة يكون الدستور العراقي قد أرسى دعائم الجنسية العراقية ، بوضعه نصاً موجهاً الى المشرع يلزمه بسن قانون جديد للجنسية العراقية^(٣٥) ، يكفل هذه المساواة. ويستشف مما سبق ، ان الدستور العراقي لم يكتف بالنص على هذه الحالة ”حق الدم الأصيل أو المطلق” للأم في القانون فحسب ، بل نص عليها في متن الدستور. وفي ذلك إشارة إلى أنه أراد أن يرفع مستوى هذه الحالة إلى مصاف النص الدستوري لا القانوني فقط.

وتأسيساً على ما تقدم ، يعد هذا الموقف رائداً ، ليس على صعيد المنظومة التشريعية العربية فحسب ، بل وعلى صعيد المنظومة التشريعية العالمية أيضاً. وهذا ما أشار إليه بعض خبراء الأمم المتحدة^(٣٦).

هذا ما يتعلق بموقف الدستور العراقي ، أما فيما يتعلق بموقف القانون العراقي ، فإن الملاحظ أن المشرع العراقي قد قام بسن قانون جديد للجنسية - إعمالاً للنص الدستوري المتقدم - فصدر قانون الجنسية العراقية الجديد - الثالث - رقم ٢٦ لعام ٢٠٠٦. لقد كان هذا القانون ملزماً - كما أشرنا سابقاً - بالأخذ بالأسس التي وضعها الدستور من قبل ، ومن ضمنها عدم جواز إسقاط الجنسية العراقية عن العراقي بالولادة ، ورد الجنسية لكل من أسقطت عنه لأسباب سياسية أو دينية أو قومية. ومنها ما يتعلق بموضوعنا ، ألا وهو إعطاء الأم دوراً مساوياً لدور الأب في عملية نقل الجنسية. وهكذا جاء هذا القانون لينص في الفقرة ”أ” من المادة الثالثة ، على الآتي :

”يعتبر عراقياً : أ- من ولد لأبٍ عراقي أو لأمٍ عراقية”.

وبناءً على ذلك ، أضحت الأم العراقية قادرة على نقل جنسيتها الى أولادها بناءً على حق الدم الأصيل - لا الثانوي - تماماً كقدرة الأب على ذلك.

ومن هذا النص يمكن ان نستنتج الحقائق الآتية :

- ١- إن الأم العراقية أضحت قادرة على نقل جنسيتها إلى أولادها. سواء أكانت الولادة داخل العراق أم خارجه ، وسواء أكان زوجها عراقياً أم اجنبياً.
- ٢- إن الأم لها القدرة على نقل الجنسية إلى الأولاد ، بصرف النظر عما إذا كان الزوج عديم الجنسية أو اجنبياً.
- ٣- لا بد لإعمال النص من توافر شرطين :
- أ- أن تكون الأم عراقية الجنسية ، بصرف النظر عما إذا كانت جنسيتها أصيلة - مفروضة - ، أو مكتسبة - طارئة - .

٣٥. لقد نص البند ”سادساً” من المادة ”١٨” من الدستور المشار إليها ، على الآتي : ”تنظم أحكام الجنسية بقانون ، وينظر في الدعاوى الناشئة عنها من قبل المحاكم المختصة”.

٣٦. وهذا ما سمته شخصياً من قبل بعض هؤلاء الخبراء الذين كانوا في فريق الأمم المتحدة لدعم الدستور ابان وضع مشروع الدستور ، وكذا بعد اقراره.

ب- أن تكون ولادة الأم ناشئة عن علاقة شرعية، فإن لم تكن كذلك، إنتفى الحق.

وبناءً على ذلك، فقد وجد المشرع نفسه في غنى عن إيراد نص يتعلق بقدرة الأم على نقل الجنسية متى كان زوجها مجهول الجنسية أو عديمها، وهو ما أسميناه "حق الدم الثانوي". بعبارة أوضح، إن الأم ما دامت قادرة على نقل جنسيتها إلى أولادها المولودين وبصرف النظر عن كون الأب - أي زوجها - عراقياً أو اجنبياً، معلوم الجنسية أو عديمها، فإن ذلك بالطبع يغني عن وضع نص يعالج حالة الولادة من أم عراقية وأب مجهول الجنسية أو لا جنسية له، تلك الحالة التي اشرنا إليها سابقاً والتي اتضح أن المشرع كان بحاجة إليها، لأنه لم يكن يعطي الأم الحق في نقل الجنسية الأصلية إلى الأولاد.

لكنني اعتقد أن هذا النص - المذكور في الفقرة "أ" من المادة الثالثة - لا يشمل في حكمه حالة كون الأب مجهولاً، أي لم يثبت النسب إليه، إما لأن العلاقة غير مشروعة، أو أن العلاقة مشروعة وهناك عقد زواج، لكن الأب ينكر النسب، ففي هذه الحالة لا يسري النص. ودليلي على هذا الكلام، ما يأتي:

١- من المعلوم بداهة أن الجنسية، حتى تثبت، لا بد من توافر عدة شروط، منها أن يكون ثمة عقد زواج شرعي بين الزوج والزوجة. وبدون ذلك، فإن الجنسية لا تمنح للمولود، لأن النسب أساساً غير ثابت. ونحن نعلم أن الجنسية - في غالبيتها - تمنح استناداً على حق الدم المستمد من الأب. بمعنى آخر، أن يكون النسب ثابتاً بين الوالد والمولود، فإن انتفى النسب، انتفى المسوغ القانوني لمنح الجنسية. وهذا أمر معمول به في تشريعات الجنسية على نحو العموم. وهكذا لو كان القانون يمنح الجنسية استناداً على حق الدم المستمد من الأم، فإن المحصلة واحدة، وهي ضرورة ثبوت النسب. والنسب لا يثبت ما لم تكن ثمة علاقة مشروعة، وعقد زواج قد تم على وفق الشروط الشرعية والقانونية. وهكذا فإن العلاقة غير المشروعة لا تولد نعمة النسب، ومن ثم فإنها لا تولد نعمة أو حق الجنسية.

٢- إن قانون الجنسية العراقية رقم ٤٣ لعام ١٩٦٣ الملغي، وكذلك بقية التشريعات العربية ذات الصلة، قد صرحت بأن الولادة من أم وطنية (العراقية مثلاً) تعطي للمولود الحق في الجنسية متى ما تحققت بعض الشروط - المذكورة آنفاً - ومنها أن يكون الأب مجهولاً مثلاً، أي أن النسب غير ثابت، ومنها أن تكون الولادة في داخل الإقليم - في بعض التشريعات ومنها العراقي - أو حتى لو كانت في خارجه - في بعضها الآخر.

إن هذه التشريعات قد أعطت الحق للمولود في الجنسية على الرغم من أن العلاقة غير مشروعة. وذلك في حالة كون الأب مجهولاً. ولعل سائلاً يسأل، لماذا لا نقيس ما ورد في الدستور العراقي وقانون الجنسية الجديد، على هذه الحالة؟

إن جوابنا عن هذا الإشكال هو بحد ذاته يمثل دليلاً آخر على صحة ما ذهبنا إليه. وجوابنا هو ببساطة، إن مصدر هذا الحق، هو القانون ذاته، حيث أن قانون الجنسية العراقية الملغي، وكذا بقية التشريعات العربية ذات الصلة - قد نصت صراحة على هذه الحالة، واعطت للمولود هذا الحق بنص القانون. وهذا ما نصت عليه المادة الرابعة من قانون الجنسية الجديد، التي نصت على الآتي:

"للووزير أن يعتبر من ولد خارج العراق من أم عراقية وأب مجهول أو لا جنسية له عراقي الجنسية إذا اختارها خلال سنة من تأريخ بلوغه سن الرشد إلا إذا حالت الظروف الصعبة دون ذلك بشرط أن يكون مقيماً في العراق وقت تقديمه طلب الحصول على الجنسية العراقية". أما قانون الجنسية الملغي لعام ١٩٦٣ فقد جاء بنصين في هذا المقام:

الأول هو ما يشبه النص الذي جاء في القانون الجديد إذ نصت المادة الخامسة من هذا القانون على الآتي :

"لوزير أن يعتبر من ولد خارج العراق من أم عراقية وأب مجهول أو لا جنسية له عراقي الجنسية إذا اختارها خلال سنة من تأريخ بلوغه سن الرشد بشرط أن يكون مقيماً في العراق وغير مكتسب جنسية أجنبية". والنص الثاني هو ما ورد في الفقرة (٢) من المادة الرابعة ، التي نصت على الآتي :

"يعتبر عراقياً : من ولد في العراق من أم عراقية وأب مجهول أو لا جنسية له". ومن مجموع هذه النصوص يتضح أن المشرع قد أشار بصورة صريحة إلى منح الجنسية العراقية للمولود من أم عراقية وأب مجهول أو لا جنسية له - بالشروط المذكورة آنفاً - ، بمعنى آخر ، أن هذه النصوص قد أشارت صراحة إلى كون الأب مجهولاً.

وتأسيساً على ما تقدم فإن هذه الحالة - الماثلة - هي غير منصوص عليها في القانون العراقي . ويبدو لي أن عدم النص عليها ، لا يعني غفلة أو سهواً ، إنما هو يعني حكماً ، يتمثل بالقول الآتي :

إن الأم العراقية قد بات لها الآن الحق في نقل جنسيتها العراقية إلى أولادها ، وإن كان زوجها اجنبياً أو عديم الجنسية ، ولكن يشترط أن تكون هذه الأم قد ارتبطت بعقد زواج شرعي تم على وفق الشروط الشرعية والقانونية المنصوص عليها في قانون الأحوال الشخصية العراقي رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩ .

وينبغي على ذلك ، أن العلاقة غير المشروعة التي ترتبط بها المرأة العراقية برجل أجنبي ، لا تثمر نسباً ، ولا جنسية البتة . وإن القول بخلاف ذلك لا يتعارض مع القانون فحسب ، بل يتعارض مع النظام العام ايضاً . وإن كل ما يتعارض مع النظام العام ، فانه يكون محكوماً بالبطلان على وفق القواعد العامة المعمول بها في معظم القوانين ، بل أضحت هذه القاعدة واحدة من المبادئ المستقرة والشائعة في القانون الدولي الخاص .

الختام

مما تقدم في هذا البحث يمكن الخلوصل إلى النتائج الآتية :

١- لقد أخذت كل التشريعات العربية بحق الأم في نقل الجنسية إلى الأولاد بناءً على ما أسميناه "حق الدم الثانوي" ، ولكن بشروط معينة.

٢- لقد تفاوتت تلك التشريعات بصددها الحق المعطى للأم ، فإن منها لما يأخذ بحق الدم الثانوي المجرد ، وأعني بذلك حق الدم الثانوي غير المعزز بحق الإقليم ، وإن منها لما يأخذ بهذا الحق ولكن مع تعزيزه بحق آخر ، هو حق الإقليم.

٣- قد تبين مما سبق ، أن ثمة حالات ثلاث مرتبطة بزواج الأم ، الذي هو غير وطني بالأساس ، وهي إما أن يكون هذا الزوج مجهولاً ، أو أن يكون مجهول الجنسية ، أو أن يكون عديم الجنسية . ولقد تبنت معظم التشريعات العربية هذه الحالات الثلاث . بيد أن بعضاً منها قد أهمل كون الأب مجهولاً - كالقانون السعودي - ، وبعضاً منها قد أهمل كون الأب مجهول الجنسية - كالقانون الجزائري - . ولئن كان موقف القانون السعودي له ما يبرره فإن ليس ثمة تبرير للقانون الجزائري - في وقته وقبل التعديل - ، إذ كيف يمكن الأخذ بحالة كون الأب مجهولاً أو عديم الجنسية ، ولا يمكن الأخذ بحالة كون الأب مجهول الجنسية ، وهو الأمر الأهم بالنسبة لما قد سبقه.

٤- لقد جاء القانونان السوري واللبناني متشابهان - إلى حد ما - في الأخذ بحق الدم الثانوي ، وكون لإلام القدرة على نقل جنسيتها إلى الأولاد في حالة واحدة ، وهي كون المولود غير شرعي "أو الولد الطبيعي بحسب الفقه اللبناني".

وهذا الموقف من القانونين يعد، بلا ريب، موقفا غريبا، ذلك أن إعطاء الأم الحق في نقل الجنسية إلى الأولاد في حالة كون الأب مجهول الجنسية أو عديمها، هو أهون شرا من كون الأب مجهولا، ولئن كان العسير جائزا، فإن اليسير أولى. ولقد بات واضحا أن معظم التشريعات العربية تأخذ بهذه الحالات الثلاث، بل أن بعضا من تلك التشريعات (كالقانون السعودي) يأخذ بالحالتين (أي كون الأب مجهول الجنسية أو عديمها) ولا يأخذ بالحالة الثالثة، التي اقتصر عليها القانونان السوري واللبناني (وهي كون الأب مجهولا، بمعنى أن الأولاد غير شرعيين).

وتأسيسا على قد سبق، فإن من المحبذ دعوة المشرع السوري للأخذ بهذه الحالات الاستثنائية، ولا سيما (حالات كون الأب مجهول الجنسية أو عديمها).

وكذا يغدو صحيحا، دعوة المشرع اللبناني للأخذ بهاتين الحالتين، منعا لظاهرة اللانجسية، تلك الظاهرة التي تترك آثارا سيئة على الأسرة والمجتمع، وتلك الظاهرة التي ما فتئت المعاهدات الدولية والإقليمية، تكافحها، وتحاول التخفيف من غلوها.

٥- لا ريب في أن القانون التونسي كان يمثل - في وقته - تقدما بإزاء بقية التشريعات العربية، وذلك بنصه على حق الأم التونسية في نقل جنسيتها إلى الأولاد متى كانت الولادة في تونس، حتى لو كان الأب اجنبيا. بمعنى أن هذا القانون لم يكتف بالحالات الثلاث المتقدمة - على الرغم من أنه قد اخذ بها أيضا - بل تقدم خطوة نحو الأمام، وأعطى للأم التونسية الحق في نقل جنسيتها حتى لو كان زوجها معلوما ولديه جنسية أجنبية - فلو تزوجت امرأة تونسية برجل عراقي مثلاً وولدت هذه المرأة في تونس فإن المولود سيكتسب جنسية أمه التونسية - طبعاً بالإضافة إلى جنسية أبيه العراقية - .

وغني عن البيان، أن هذا التقدم في موقف القانون التونسي قد تقهقر وأصبح يقف في الوراء، بعد صدور تعديلات جديدة في بعض تشريعات الجنسية العربية، وهي التشريعات في كل من : مصر والعراق والجزائر والمغرب، ثم لحقتهم تونس بعد ذلك في هذا العام، أعني به عام ٢٠١٠. إن هذه التعديلات، قد قضت - كما تقدم - بالتسوية بين الأب والأم في نقل الجنسية إلى الأولاد، بناءً على حق الدم الأصيل، لا الثانوي.

٦- وإذا كان القانون العراقي - الجديد - قد أعطى الأم الحق في نقل الجنسية الأصلية إلى الأولاد. وإذا كان هذا القانون قد أهمل النص على فرض الجنسية العراقية بناءً على حق الدم الثانوي - فيما لو كان الأب مجهولاً أو مجهول الجنسية أو عديمها - ، فإن ما يترتب على ذلك، هو القول، أن المشرع إنما صنع ذلك لعدم الحاجة إلى هذا النص، بعد إعطاء الأم هذا الدور الكبير.

ولقد نعلم أن عدم النص هذا، يعد دليلاً على عدم قدرة الأم على نقل جنسيتها فيما لو كان الأب مجهولاً، بعبارة أوضح، فيما لو كانت العلاقة بين الزوج والزوجة غير مشروعة. وتأسيساً على ما تقدم، فإن ليس بوسع الأم العراقية أن تنقل جنسيتها إلى الأولاد الذين يكونون ثمرة علاقة غير مشروعة، بل لابد من أن تكون العلاقة مشروعة، وثمة عقد زواج موافق للشرع والقانون. وبناءً على ذلك، فإن المرأة العراقية المسلمة، لو تزوجت برجل مصري مسيحي، فإن العقد يكون باطلاً، ولا يمنح الأولاد الجنسية العراقية، على الرغم من كون العلاقة كانت نتيجة عقد زواج. والسبب في ذلك يكمن في أن العقد غير موافق للشرعية الإسلامية، ولما نص عليه قانون الأحوال الشخصية العراقي. لكن هذه الأم يمكن أن تنقل الجنسية العراقية إلى الأولاد في هذه الحالة - أي كون الأب مجهولاً - ، بيد أن هذه الجنسية ستكون جنسية مكتسبة - طارئة - ، لا جنسية أصلية - مفروضة - . ومعنى ذلك أن هذه الجنسية لا تفرض على المولود بقوة القانون، وإنما تترك للسلطة التقديرية للسلطات العراقية، إن شاءت منحت الجنسية للمولود، وإن شاءت إمتنعت. هذا بالإضافة إلى توافر شروط أخرى قد ذكرتها المادة الرابعة المذكورة آنفاً.

المصادر والمراجع

أولاً :- القانون الدولي الخاص:

- ١- د. البستاني، سعيد، الجنسية والقومية في تشريعات الدول العربية، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣.
- ٢- د. الحداد، حفيظة السيد، الموجز في الجنسية ومركز الاجانب، منشورات الحلبي الحقوقية، الطبعة الاولى، بيروت، لبنان ٢٠٠٥.
- ٣- د. الحداد، حفيظة السيد، مدخل الى الجنسية ومركز الاجانب، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٧.
- ٤- د. الداوودي، غالب علي، القانون الدولي الخاص "النظرية العامة وأحكام الجنسية"، مطبعة أسعد، الطبعة الاولى، بغداد، ١٩٥٧.
- ٥- د. الداوودي، غالب علي، ود. الهداوي، حسن، القانون الدولي الخاص، الجزء الأول، وزارة التعليم العالي، والبحث العلمي، بغداد، ١٩٨٨.
- ٦- العيون، قصبي محمد، شرح أحكام الجنسية الأردنية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، عمان، الاردن، ٢٠٠٩.
- ٧- د. الهداوي، حسن، الجنسية ومركز الاجانب، بدون سنة طبع، بغداد.
- ٨- د. حافظ، ممدوح عبد الكريم، القانون الدولي الخاص وفق القانونين العراقي والمقارن، دار الحرية للطباعة، مطبعة الحكومة، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٧٣.
- ٩- د. صادق، هشام علي، القانون الدولي الخاص، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية، مصر، ٢٠٠٥.
- ١٠- د. عبد العال، عكاشة محمد، أصول القانون الخاص اللبناني المقارن، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٨.
- ١١- د. عبد العال، عكاشة محمد، أحكام الجنسية، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.
- ١٢- د. عبد العال، عكاشة محمد، الاتجاهات الحديثة في مشكلة "تنازع" الجنسيات، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩١.
- ١٣- د. زمزم، عبد المنعم، جنسية أبناء الأم المصرية، قرارات وزير الداخلية والتعديل التشريعي، دار النهضة العربية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٩١ - ١٩٢.
- ١٤- د. فتحي، حسام الدين، مشكلات الجنسية، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧.
- ١٥- د. منصور، سامي بديع، ود. العجوز، أسامة، القانون الدولي الخاص، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥.

ثانياً :- الدساتير وقوانين الجنسية:

- ١٦- دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥.
- ١٧- قانون الجنسية العراقية رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٤ (الملغي).
- ١٨- قانون الجنسية العراقية رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٣ (الملغي).
- ١٩- قانون الجنسية العراقية النافذ رقم ٢٦ لسنة ٢٠٠٦.

- ٢٠- قانون الجنسية المصرية رقم ٢٦ لسنة ١٩٧٥ المعدل.
- ٢١- قانون الجنسية اللبنانية الصادر بالقرار رقم ١٥ لسنة ١٩٢٥.
- ٢٢- قانون الجنسية اللبنانية الصادر في ١١ كانون الثاني لسنة ١٩٦٠.
- ٢٣- قانون الجنسية السورية رقم ٢٧٦ لسنة ١٩٦٩.
- ٢٤- قانون الجنسية الأردنية رقم ٦ لسنة ١٩٥٤.
- ٢٥- قانون الجنسية الكويتية رقم ١٥ لسنة ١٩٥٩ المعدل.
- ٢٦- قانون الجنسية البحرينية عدد ١١ لسنة ١٩٦٣.
- ٢٧- قانون الجنسية القطرية رقم ٢ لسنة ١٩٦١.
- ٢٨- قانون جنسية دولة الإمارات العربية المتحدة رقم ١٧ لسنة ١٩٧٢.
- ٢٩- نظام الجنسية العربية السعودية رقم ٤ لسنة ١٣٧٤هـ.
- ٣٠- مجلة الجنسية التونسية رقم ٦ لسنة ١٩٦٣ المعدل.
- ٣١- قانون الجنسية المغربية رقم ٢٥٠ لسنة ١٩٥٨ المعدل.
- ٣٢- قانون الجنسية الجزائرية رقم ٧٦-٨٠ لسنة ١٩٧٠ المعدل.
- ٣٣- قانون الجنسية السودانية رقم ٢٢ لسنة ١٩٥٧.

ثالثاً : الإتفاقيات الدولية :

- ٣٣- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ كانون الأول عام ١٩٤٨.
- ٣٤- العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية الصادر في ١٦ كانون الأول عام ١٩٦٦.
- ٣٥- الاتفاقية الدولية بشأن تقليل حالات انعدام الجنسية لعام ١٩٦١.
- ٣٦- معاهدة لاهاي بشأن الجنسية لعام ١٩٣٠.
- ٣٧- الاتفاقية الدولية الخاصة بوضع اللاجئين لعام ١٩٥١.

أساليب الأمر والنهي والاستفهام في جزء من الصحيفة السجادية (الأيام المباركة أنموذجاً)

آ.م.د. باقر جواد الزجاجي^(١)
د. محمد حسن الأسدي^(٢)

ملخص البحث

مما لا شك فيه أنّ النحو والأدب بكل صنفه صنوان لا يفترقان، فالعالم مهما علا قدره وعظمت منزلته وارتفع شأنه لا يستغني عن علم النحو الذي به تعرف أواخر الكلم، من هذا المنطلق ولما لاحظناه من كثرة دوران أساليب الأمر والنهي والاستفهام في الصحيفة السجادية ارتأينا أن ندرس هذه الأساليب الثلاثة في أيام مخصوصة ورد ذكرها في ذلك السفر الخالد.

للإمام زين العابدين (عليه السلام)، والذي جعلنا أكثر ميلاً للموضوع ما وجدناه من رصانة، وبلاغة، وفصاحة، ودقة في اختيار الكلمات وذلك الخطاب الممزوج بالخشوع، والتضرع، والرهبة، وهذا ليس ببعيد عن إمام نهل من معين القرآن وتربى على معانيه، وارتشف من رحيقه حتى بات له ظلاً ومفزعاً. إن ما ذكرناه من مزايا جعلت تلك الكلمات الخالدة المضيئة ترنيمة يرددنها المؤمنون السالكون طريق النور، والحق ما دارت الأيام والسنون.

لقد انتظم البحث في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع. تحدثنا في المقدمة عن دواعي اختيار هذا الموضوع بعد أن وجدنا أن هذه الأساليب الثلاثة قد كثرت وتميزت في تلك الأيام المخصوصة كيوم الفطر، ويوم عرفة، ويوم الأضحى، وأيام الجمع، والذي جعلنا مشدودين أكثر للموضوع تلك الفصاحة والبلاغة، والعدوبة، والدقة في اختيار الكلمات، وذلك الخطاب الممزوج بالخشوع، والتضرع. فأثرنا تناول الموضوع من جانب نحوي لغوي بلاغي متخذين من تلك الأساليب أنموذجاً لعملنا الذي كانت له نتائجه سنذكرها في الخاتمة إن شاء الله.

١ - كلية الآداب، جامعة اهل البيت (عليه السلام)

٢ - كلية الآداب، جامعة اهل البيت (عليه السلام)

مما لا شك فيه أنَّ النحو والأدب بكل صنوفه صنوان لا يفترقان، فالعالم مهما علا قدره وعظمت منزلته وارتفع شأنه لا يستغني عن علم النحو الذي به تعرف أواخر الكلم، من هذا المنطلق ولما لاحظناه من كثرة دوران أساليب الأمر والنهي والاستفهام في الصحيفة السجادية ارتأينا أن ندرس هذه الأساليب الثلاثة في أيام مخصوصة ورد ذكرها في ذلك السفر الخالد.

للإمام زين العابدين (عليه السلام)، والذي جعلنا أكثر ميلاً للموضوع ما وجدناه من رصانة، وبلاغة، وفصاحة، ودقة في اختيار الكلمات وذلك الخطاب الممزوج بالخشوع، والتضرع، والرهبة، وهذا ليس ببعيد عن إمام نهل من معين القرآن وتربى على معانيه، وارتشف من رحيقه حتى بات له ظلاً ومفزعاً. إن ما ذكرناه من مزاي جعلت تلك الكلمات الخالدة المضيئة ترنمة يرددوها المؤمنون السالكون طريق النور، والحق ما دارت الأيام والسنون.

لقد انتظم البحث في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع. تحدثنا في المقدمة عن دواعي اختيار هذا الموضوع بعد أن وجدنا أن هذه الأساليب الثلاثة قد كثرت وتميزت في تلك الأيام المخصوصة كيوم الفطر، ويوم عرفة، ويوم الأضحى، وأيام الجمع، والذي جعلنا مشدودين أكثر للموضوع تلك الفصاحة والبلاغة، والعدوبة، والدقة في اختيار الكلمات، وذلك الخطاب الممزوج بالخشوع، والتضرع. فأثرنا تناول الموضوع من جانب نحوي لغوي بلاغي متخذين من تلك الأساليب أنموذجاً لعملاً الذي كانت له نتائجه سنذكرها في الخاتمة إن شاء الله.

في المبحث الأول جاء كلامنا عن الأمر الذي ورد ذكره في كتب القدماء، ولكننا لو عدنا إلى كتب المتأخرين لوجدناهم لم يفرّدوا له بحثاً خاصاً - يجمع صيغته، وتراكيبه، وطبيعته، وأصل معناه، والمعاني الإضافية التي يمكن أن يستعمل فيها، وإنما تناولوا مباحثه في أبواب متفرقة، ثم بينا أن النحويين يفرقون بين استعمال الصيغة في الأمر، وبين استعمالها في الدعاء، أو الالتماس ثم ذكرنا أن البلاغيين يشترطون في الأمر (الاستعلاء) وأن الدعاء يشترطون فيه (الخضوع والتضرع) وأن الالتماس يشترطون فيه (التساوي مع نفي التضرع والاستعلاء) وهذا ما ذهب إليه بعض النحاة المتأخرين، بعدها اخترنا نماذج لأدعية وردت بصيغة الأمر كانت آية في الصياغة والسبك، والدقة وقفنا عند بعضها متأملين، محللين مبينين مدلولها وغرضها فألفيناها تتمثل بالتسليم بعظمة الخالق ووحدانيته وسلطانه.

أما المبحث الثاني فقد خصصناه لأسلوب النهي ذاكرين صيغته الوحيدة التي أجمع عليها النحاة، وكيف فرقوا بين استعمال الصيغة في معنى النهي وبين استعمالها في معنى الدعاء والالتماس، ثم أشرنا إلى اشتراط البلاغيين (الاستعلاء) في صيغة (لا تفعل) وإذا لم تستعمل على سبيل الاستعلاء سموها دعاء أو التماساً، بعدها ذكرنا متابعة بعض النحاة المتأخرين للبلاغيين في اشتراطهم الاستعلاء في النهي وإنهينا بذكر بعض آراء النحاة في (لا الناهية) وختمنا المبحث بانتقاء نماذج لأدعية وردت بصيغة النهي، صيغت بأسلوب يدل على تمكن من اللغة، والبيان، وقد وقفنا عند بعضها مبهورين ذاكرين غرضها، ومدلولها.

أما المبحث الثالث فتناولنا فيه أسلوب الاستفهام مبتدئين بذكر معناه موضحين أنه يشارك الشرط في كونه كلاماً معقوداً على الشك، بعدها وقفنا عند آراء النحاة في الاستفهام. الذاهب إلى أن الاستفهام في القرآن يختلف عن الاستفهام في كلام البشر، لأن الله تبارك وتعالى لا يستفهم خلقه عن شيء لذا كان الاستفهام في القرآن غير حقيقي لأنه لا يحتاج إلى جواب، فهو صادر من عالم الغيب والشهادة، بعدها أشرنا إلى أن النحاة والمفسرين، والبلاغيين شغلوا أنفسهم في الوقوف على الأسباب والأغراض التي تدفع المتكلم إلى استعمال الاستفهام في غير معناه الحقيقي، وإذا خرج الاستفهام عن حقيقته واستعمل في معان أخرى هل نقول: إن معنى الاستفهام موجود فيه وأنضم إليه معنى آخر، أم نقول: أنه تجرد من الاستفهام

. وختمنا المبحث بالكلام عن أدوات الاستفهام أيهما أصل وأيها فرع ؟ ثم لماذا بنيت أسماء الاستفهام ؟ بعدها ذكرنا نصوصاً تضمنت استفهامات تدور مدلولاتها حول الإقرار والتسليم والتعجب، والنفي، والتضرع، والخشوع، والتعظيم، والاسترشاد، وغيرها من المعاني.

ختاماً نرجو أن نكون قد وفقنا في تسليط الضوء على جانب مهم من الصحيفة السجادية، ذلك هو الجانب النحوي، واللغوي، والبلاغي لما له من دور فاعل ومؤثر في جودة النص، واستقامته ومن الله الرضا والقبول والسلام.

المبحث الأول: الأمر

عندما تذكر أساليب الطلب ينصرف الذهن إلى أساليب: الأمر والنهي، والاستفهام، والنداء، والتمني، والترجي، والتحضيض، والعرض، ولورجعنا إلى كتب النحاة الأوائل كسيبويه (ت: ١٨٠هـ) نجد أنه قد أفرد باباً خاصاً للأمر، والنهي بعنوان: (باب الأمر والنهي) ^(٣). ولكننا لو عدنا إلى كتب النحو المتأخرة لم نجد بحثاً خاصاً بأسلوب الأمر يجمع صيغته وتراكيبه، ويبحث في طبيعته، وأصل معناه والمعاني الإضافية التي يمكن أن يستعمل فيها، وإنما نجد النحاة قد تناولوا مباحثه في أبواب متفرقة، فتناولوا صيغة أمر المخاطب (افعل) ضمن موضوع المعرب والمبني وتناولوا صيغة أمر غير المخاطب (ليفعل) ضمن موضوع عوامل الجزم، وتناولوا صيغة الأمر بالمصدر ضمن موضوع إعمال المصدر، وتناولوا الألفاظ الأخرى الدالة على الأمر، والتي أطلق النحاة عليها أسماء الأفعال ضمن موضوع خاص بها ^(٤).

لقد فرق النحاة بين استعمال الصيغة في الأمر وبين استعمالها في الدعاء وفي ذلك يقول سيبويه: (وأعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي، وإنما قيل (دعاء) لأنه أستهضم أن يقال أمر، أو نهى) ^(٥). ويقول المبرد (ت: ٢٨٥هـ): (والدعاء يجري مجرى الأمر والنهي، وإنما سمي هذا أمراً، أو نهياً، وقيل للآخر (طلب) للمعنى فأما اللفظ فواحد فلو قلت للخليفة (أنظر في أمري) لقلت: سألته ولم تقل (أمرته) ^(٦)، ولو أخذنا برأي البلاغيين لوجدنا أن الأمر عندهم يشترط فيه (الاستعلاء) ولو من الأدنى، وإن الدعاء يشترط فيه التضرع، والخضوع، ولو من الأعلى، والالتماس يشترط فيه التساوي مع نفي التضرع والاستعلاء ^(٧).

بينما نجد من النحاة ولاسيما المتأخرين من وافق البلاغيين في رأيهم فهذا ابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ) يشترط الاستعلاء لأجل أن يسمى الصيغة أمراً وهو لا يرتضي تسميتها أمراً مع عدم (الاستعلاء) وعلى هذا قسم صيغة (افعل) إلى أمر، وطلب، ودعاء فقال: (إعلم أن الأمر معناه طلب الفعل بصيغة مخصوصة وله ولصيغته أسماء بحسب إضافاته فإن كان من الأعلى إلى من دونه قيل له أمر، وإن كان من النظير إلى النظر قيل له طلب، وإن كان من الأدنى إلى الأعلى قيل له: (دعاء) ^(٨). والشيء نفسه قال به ابن هشام (ت: ٧٦١هـ) الذي قسم صيغة (ليفعل) إلى أمر، ودعاء، والتماس ^(٩)، وهذا ما ذهب إليه السيوطي (ت: ٩١١هـ) في الإتيان ^(١٠).

(٣) الكتاب: ١/١٣٧ - ١٤٧.

(٤) أساليب الطلب: ٨٣.

(٥) الكتاب: ١/١٤٢.

(٦) ينظر المقتضب: ٢/٤٤.

(٧) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣٢١.

(٨) شرح المفصل: ٧/٥٨.

(٩) ينظر: مغني اللبيب: ١/٢٢٣.

(١٠) ينظر: الإتيان في علوم القرآن: ١/١٧١.

وعند رجوعنا إلى الصحيفة السجادية وخصوصاً أدعية الإمام عليه السلام في الأيام المباركة كيوم الفطر، ويوم عرفة، ويوم الأضحى، ويوم الجمعة، والتي اتخذناها نموذجاً لبحثنا المتواضع هذا وجدنا أن صيغة (افعل) تكررت كثيراً لما تتضمنه من (تضرع، وخشوع، وخشية) وقد حاولنا إيراد بعضاً منها بغية تأملها والوقوف عندها فرأيناها تتمثل بما يأتي:

ت	نماذج من أدعية الإمام السجاد (عليه السلام)	الصفحة	نوع الدعاء
١.	وَاعْنِي اللَّهُمَّ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّكَ فِي سَبِيلِكَ مَعَ وَلِيِّكَ	٣١٢	خاص
٢.	اللَّهُمَّ فَأَرِنِي ذَلِكَ السَّبِيلَ حَتَّى أَقَاتِلَ فِيهِ بِنَفْسِي	٣١٢	خاص
٣.	إِلَهِي فَكُنْ بِي رَوْوفاً رَحِيماً وَاقْبَلْنِي وَتَقَبَّلْ مِنْي	٣١٢	خاص
٤.	فَاعْنِي بِالتَّوْفِيقِ عَلَى بُلُوغِ رِضَاكَ	٣١٣	خاص
٥.	وَأَشْرِكْنِي يَا إِلَهِي فِي دَعَاءٍ مِنْ أَحِبَّتِهِ	٣١٣	خاص
٦.	فَاسْتَجِبْ لِي وَلِهْمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ	٣١٣	دعاء عام
٧.	وَاسْمَعْ نَحْوَايَ وَاسْتَجِبْ دَعَائِي	٣١٣	خاص
٨.	رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ الْمُتَّجِبِ	٣٢٠	عام
٩.	وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَأَتِمِّ بَرَكَاتِكَ وَتَرَحَّمْ عَلَيْهِ أَمْتَعْ رَحِمَاتِكَ	٣٢٠	خاص
١٠.	رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلَاةَ زَاكِيَةٍ	٣٢١	عام
١١.	رَبِّ صَلِّ عَلَى أَطْيَابِ أَهْلِ بَيْتِهِ	٣٢٢	عام
١٢.	رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِمْ زُتَّةَ عَرْشِكَ وَمَا دُونَهُ	٣٢٢	عام
١٣.	اللَّهُمَّ فَأَوْزِعْ لَوْلِيكَ شُكْرَ مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْهِ	٣٢٣	خاص
١٤.	اللَّهُمَّ وَصِّلْ عَلَى أَوْلِيَائِهِمُ الْمُعْتَرِفِينَ بِمَقَامِهِمْ	٣٢٣	عام
١٥.	وَأَجْعَلْ لِي فِي هَذَا الْيَوْمِ نَصِيباً أَنَالُ بِهِ حَظاً مِنْ رِضْوَانِكَ	٣٢٥	خاص
١٦.	تَغْمِدْنِي فِي يَوْمِي هَذَا بِمَا تَتَغَمَّدُ بِهِ مَنْ جَارَ إِلَيْكَ مُتَّصِلاً	٣٢٦	خاص
١٧.	وَنَجِّنِي مِنْ غَمَرَاتِ الْفِتْنَةِ وَخَلِّصْنِي مِنْ لَهَوَاتِ الْبُلُوْى	٣٢٧	خاص
١٨.	وَهَبْ لِي التَّطَهُّيرَ مِنْ دَنَسِ الْعَصِيَانِ	٣٢٨	خاص
١٩.	وَطَوِّقْنِي طَوْقَ الْإِقْلَاعِ عَمَّا يَحْبِطُ الْحَسَنَاتِ	٣٢٨	خاص
٢٠.	وَادْهَبْ عَنِّي ذَرْنَ الْخَطَايَا وَسِرْبِنِي بِسِرْبَالِ ^(١١) عَافِيَتِكَ	٣٢٨	خاص
٢١.	وَأَجْعَلْ رَغْبَتِي إِلَيْكَ فَوْقَ رَغْبَةِ الرَّاغِبِينَ	٣٢٩	خاص
٢٢.	فَأَحْسِنِي حَيَاةَ طَيِّبَةٍ تَنْتَظِمُ بِمَا أُرِيدُ	٣٢٩	خاص
٢٣.	وَزِدْنِي إِلَيْكَ فَاقَةً وَفَقْراً وَأَعِزَّنِي مِنْ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ	٣٢٩	خاص
٢٤.	وَاعْمُرْ لِيْلِي بِإِقْظَاظِي فِيهِ لِعِبَادَتِكَ وَتَفَرِّدِي بِالتَّهَجُّرِ لَكَ	٣٣٠	خاص
٢٥.	وَأَجْعَلْ لِي عِنْدَكَ مَقِيلاً أَوْيَ إِلَيْهِ مَطْمَئِناً	٣٣١	خاص
٢٦.	وَانزِعْ الْغُلَّ مِنْ صَدْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَعْطِفْ بَقَلْبِي عَلَى الْخَاشِعِينَ	٣٣١	خاص

٢٧	ووفّر علي حظوظ الإحسان من أفضالك	٣٣١	خاص
٢٨	وتقم سبوغ نعمتك علي وظاهر كراماتها لدي	٣٣١	خاص
٢٩	واجمع لي الغنى والعفاف والدعة والمعافة والصحة والسعة	٣٣٢	خاص
٣٠	وصن وجهي عن الطلب إلى أحد من العالمين	٣٣٢	خاص
٣١	واجعل باقي عمري في الحج والعمرة ابتغاء وجهك يا رب العالمين	٣٣٢	خاص
٣٢	ففرج عني ما ضاق به صدري	٣٣٥	خاص
٣٣	فاحلم يا حليم عن جهلي وأقلني يا مقيل عثرتي	٣٣٦	خاص
٣٤	سيدي أرحم تضرعي إليك وانتصلي بين يديك	٣٣٦	خاص
٣٥	اللهم أذهب عني كل هم وفرج عني كل غم	٣٣٧	خاص
٣٦	اللهم تقبل مني ما كان صالحا وأصلح مني ما كان فاسدا	٣٣٧	خاص
٣٧	وأهدني في كل سبيل من سبيل الحق وخط عني كل خطيئة	٣٣٧	خاص
٣٨	اللهم وارحم صراخي واعترافي بذنبي وتضرعي	٣٤٤	خاص
٣٩	اللهم اغفر لي ذنبي العظيم فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا العظيم	٣٤٤	خاص
٤٠	يا تواب تيب علي واقبل توبتي	٣٤٥	خاص
٤١	اللهم بلغ روح محمد وآل محمد عليهم السلام عني تحية وسلاما	٣٤٥	عام
٤٢	اللهم وأوسع علي من رزقك الحلال الطيب	٣٤٦	خاص
٤٣	اللهم من علي بالمغفرة وحملني بالعافية وأجرني من النار	٣٤٦	خاص
٤٤	اللهم اغفر لي ولوالدي ولن ولدني من المسلمين	٣٤٧	عام
٤٥	اللهم فرج عن آل محمد وأجعلهم أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون	٣٤٧	عام
٤٦	اللهم افسح لي في عمري وابسط لي في رزقي	٣٤٨	خاص
٤٧	اللهم أمني به على فقراء المسلمين وأراملهم ومساكينهم	٣٤٨	عام
٤٨	وتول قضاء كل حاجة هي لي بقدرتك عليها	٣٥٠	خاص
٤٩	اللهم واجعلني من أهل التوحيد والإيمان بك والتصديق برسولك	٣٥٢	خاص
٥٠	وهب لنا يا الهي من لدنك فرجا بالقدره التي بها تحيي أموات العباد	٣٥٢	خاص

المبحث الثاني: النهي

إذا كان للأمر أربع صيغ، فللنهي صيغة واحدة هي: المضارع المسبوق بـ (لا الناهية) والنجاة كلهم يجمعون على أن لا الناهية تختص بالدخول على الفعل المضارع فتقتضي جزمه، كما أن النهي في اصطلاحهم يعني نفي الأمر، يقول سيبويه (ت: ١٨٠هـ): (إن لا تضرب نفي لقوله اضرب)^(١٢) ويقول ابن السراج (ت: ٣١٦هـ): (إذا قلت قم إنما تأمره بأن يكون منه قيام، فإذا نهيت فقلت: لا تقم فقد أردت منه نفي ذلك فكما أن الأمر يراد به الإيجاب، فكذلك النهي يراد به النفي)^(١٣).

(١٢) الكتاب: ١/١٣٦.

(١٣) الأصول في النحو: ٢/١٦٣.

لقد اشترط البلاغيون الاستعلاء في صيغة (لا تفعل) وإن لم تستعمل على سبيل الاستعلاء سموها (دعاء أو التماس) وهو يرون أن صيغة (لا تفعل) تستعمل في معنى الدعاء أو الالتماس استعمالها في معنى النهي حقيقة لا مجازاً^(١٤).

أما النحاة القدماء فقد فرقوا بين استعمال صيغة (لا تفعل) في معنى النهي وبين استعمالها في معنى الطلب أو الدعاء، يقول المبرد (ت: ٢٨٥هـ): (اعلم أن الطلب من النهي بمنزلة من الأمر يجري على لفظه كما جرى على لفظ الأمر)^(١٥).

وقد تابع بعض النحاة المتأخرين البلاغيين في اشتراط (الاستعلاء) في صيغة (لا تفعل) لأجل تسميتها نهياً، ولذلك هم يسمونها دعاء إن استعملت على سبيل التضرع والتماساً إن استعملت في حق المساوي في الرتبة.

يقول ابن هشام (ت: ٧٦١هـ): (ولا فرق في اقتضاء (لا) الطلبية بين كونها مفيدة للنهي، وكونها للدعاء، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ (البقرة/٢٨٦)، وكونها للالتماس كقولك لنظيرك غير مستعمل عليه (لا تفعل كذا)، وكذا الحكم إذا خرجت من الطلب إلى غيره (كالتهديد) في قولك لولدك أو عبدك (لا تطعن)^(١٦).

وللسيوطي (ت: ٩١١هـ) رأي مفاده بأن صيغة النهي موضوعة أصلاً للتحريم، فقال: (النهي وهو طلب الكف عن فعل، وصيغته (لا تفعل) وهي حقيقة في التحريم وترد مجازاً لمعان منها: الكراهة نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الإسراء/٣٧)^(١٧). والصحيح أن صيغة النهي موضوعة لطلب الكف عن الفعل ولا يتعين فيها التحريم أو الكراهة إلا مع وجود قرينة تدل على ذلك.^(١٨)

بعد أن استعرضنا آراء النحويين والبلاغيين في النهي وكيف فرقوا بين النهي والدعاء والالتماس تيقنا أن أداة النهي (لا) تستعمل مع المخاطب، والغائب على السواء. يقول المبرد: (فأما حرف النهي فهو (لا) وهو يقع على فعل الشاهد، والغائب وذلك قولك: (لا يقيم زيد) و (لا تقم يا رجل)^(١٩). وذهب بعضهم إلى أن الأكثر فيها كونها للمخاطب^(٢٠)، أما بخصوص أصل (لا) فقد زعم بعض النحاة أن أصلها لام الأمر زيد عليها ألف، ففتحت لأجلها، وانتقل بذلك معناها من الأمر إلى النهي، وزعم السهيلي (ت: ٥٨١هـ) أنها (لا) النافية، والجزم بعدها بـ (لام الأمر) المضمرة قبلها ولكنها حذفت كراهة اجتماع لامين في اللفظ^(٢١). وهذا الرأي ضعيف.

ولقد ورد في الصحيفة السجادية دعاء بصيغة (لا تفعل) حاولنا جردها، والوقوف عندها فألفيناها تنحصر بالآتي:

ت	نماذج من أدعية الإمام السجاد (عليه السلام)	الصفحة	نوع الدعاء
١.	ولا تحتّم يومي بخييتي ولا تجبهني بالرد في مسألتني	٣١٦	خاص
٢.	ولا تردني صفراً مما ينقلب به المتعبدون لك من عبادك	٣٢٥	خاص

(١٤) أساليب الطلب: ٤٦٦.

(١٥) المقتضب: ١٣٥/٢.

(١٦) مغني اللبيب: ٢٤٧/١ - ٢٤٨.

(١٧) الإقتان: ٨٢/٢.

(١٨) أساليب الطلب: ٤٦٩.

(١٩) المقتضب: ١٣٤/٢.

(٢٠) ينظر: معجم البوامع: ٥٦/٢.

(٢١) ينظر: الجنى الداني: ٣٠٠.

٣.	ولا تؤاخذني بتفريطي في جنبك وتعدي طوري في حدودك	٣٢٦	خاص
٤.	ولا تمحقني فيمن تمحق من المستخفين بما أوعدت	٣٢٧	خاص
٥.	ولا تعرض عني إعراض من لا ترضى عنه بعد غضبك	٣٢٧	خاص
٦.	ولا تؤيسني من الأمل فيك فيغلب علي القنوط من رحمتك	٣٢٧	خاص
٧.	ولا تمتحنني بما لا طاقة لي به فتبهظني ^(٢٢) مما تحملني من فضل محبتك	٣٢٧	خاص
٨.	ولا ترسلني من يدك إرسال من لا خير فيه ولا حاجة بك إليه	٣٢٧	خاص
٩.	ولا ترم بي رمي من سقط من عين رعايتك	٣٢٨	خاص
١٠.	ولا تشغني بما لا ادركه إلا بك عما لا يرضيك عني غيره	٣٢٨	خاص
١١.	ولا تكلني إلى حولي وقوتي دون حولك وقوتك	٣٢٨	خاص
١٢.	ولا تخزني يوم تبعثني للقائك	٣٢٩	خاص
١٣.	ولا تفضحنني بين يدي أوليائك	٣٢٩	خاص
١٤.	ولا تنسني ذكرك	٣٢٩	خاص
١٥.	ولا تذهب عني شكرك	٣٢٩	خاص
١٦.	ولا تحذلني عند فاقتي إليك	٣٢٩	خاص
١٧.	ولا تهلكني بما أسديته إليك	٣٢٩	خاص
١٨.	ولا تحببني ^(٢٣) بما جبهت به المعاندين لك	٣٢٩	خاص
١٩.	ولا تمدد لي مدا يقسو معه قلبي	٣٣٠	خاص
٢٠.	ولا تقر عني قارعة ^(٢٤) يذهب لها بهائي	٣٣٠	خاص
٢١.	ولا تسمني خسيصة بصغر لها قدري	٣٣٠	خاص
٢٢.	ولا ترعني روعة أبلس بها ولا خيفة أوجس دونها	٣٣٠	خاص
٢٣.	ولا تذرني في طغياني عامها ^(٢٥) ولا في غمرتي ساهيا	٣٣٠	خاص
٢٤.	ولا تجعلني عظة لمن اتعظ ولا نكالا لمن اعتبر	٣٣٠	خاص
٢٥.	ولا تمكر بي فيمن تمكر به	٣٣٠	خاص
٢٦.	ولا تبدل بي غيري	٣٣٠	خاص
٢٧.	ولا تغير لي اسما	٣٣٠	خاص
٢٨.	ولا تبدل لي جسما	٣٣٠	خاص
٢٩.	ولا تتخذني هزوا لخلقك	٣٣٠	خاص
٣٠.	ولا تقايسني بعظيمات الجرائر	٣٣١	خاص
٣١.	ولا تحيط حسناتي بما يشوبها من معصيتك	٣٣٢	خاص
٣٢.	ولا تجعلني للظالمين ظهيرا	٣٣٢	خاص

(٢٢) (فتقلني)

(٢٣) (لا تردني)

(٢٤) (الداهية)

(٢٥) (مترددا - حائرا)

٣٣	ولا تسلط علي من لا يرحمني ولا باغيا ولا حاسدا	٣٣٧	خاص
٣٤	ولا تردني خائبا	٣٤٥	خاص
٣٥	لا تقطع رجائي	٣٤٥	خاص
٣٦	ولا تكني إلي احد سواك	٣٤٧	خاص
٣٧	ولا تحيب اليوم ذلك من رجائي	٣٥٠	خاص
٣٨	ولا تهلكني يا إلهي غما حتى تستجيب لي	٣٥٢	خاص
٣٩	ولا تشمت بي عدوي	٣٥٢	خاص
٤٠	ولا تمكنه من عنقي ولا تسلطه علي	٣٥٢	خاص
٤١	ولا تبتليني ببلاء علي أثر بلاء	٣٥٣	خاص
٤٢	ولا تجعلني للبلاء غرضا	٣٥٢	خاص
٤٣	ولا تهلكني مع من تهلك من المعترضين لمقتك	٣٢٧	خاص
٤٤	ولا تتبرني ^(٢٦) فيمن تتبر من المنحرفين عن سبلك	٣٢٧	خاص
٤٥	ولا تستدرجني بإملائك لي استدراج من منعي خير ما عنده	٣٢٧	خاص

المبحث الثالث: الاستفهام

مفهوم الاستفهام في اللغة والاصطلاح واحد، ويراد به طلب الفهم^(٢٧)، يقول الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) فيهما: ((وبينهما من المناسبة ما لا يخفي، ألا ترى أنك إذا قلت: أضربت زيدا؟ كنت طالبا ما لم يستقر عندك، كما أنك إذا قلت: إن تضرب زيدا اضرب كان كلاما معقودا على الشك))^(٢٨).

ولكون الاستفهام طلب ما في الخارج أو تحصيله في الذهن لزم ألا يكون حقيقيا إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام ولذلك ذهب النحاة إلى أن الاستفهام في القرآن يختلف عن الاستفهام في كلام البشر، لأن المستفهم غير عالم إنما يتوقع الجواب فيعلم به، والله تبارك وتعالى لا يستفهم خلقه عن شيء لذا فالاستفهام في القرآن غير حقيقي لأنه واقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام، وإنما يخرج الاستفهام في القرآن مخرج التوبيخ والتقرير^(٢٩)، لذا فإن أكثر استفهامات القرآن لا تحتاج إلى جواب لأنها من عالم الغيب والشهادة^(٣٠)، وعلى هذا لا يكون الاستفهام حقيقيا إلا إذا كان لفظه الظاهر موافقا لمعناه الباطن عند سؤالك عما لا تعلمه فتقول: ما عندك؟ من رأيت؟^(٣١).

لقد ذهب النحاة أيضا إلى أن الاستفهام له الصدارة في الكلام وفي ذلك يقول صاحب المفصل الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ): ((وللاستفهام صدر الكلام، ولا يجوز تقديم شيء مما في حيزه عليه فلا تقول: ضربت أزيدا))^(٣٢)، وإنما يجب أن تكون لأدوات الاستفهام الصدارة في الكلام لأجل أن تفيد فيه معنى الاستفهام، شأنها في ذلك شأن أدوات المعاني الأخرى، لأنها إذا تقدم عليها شيء من الجملة فقدت الدلالة على معنى الاستفهام وهذا ما ذهب إليه ابن يعيش أيضا بقوله: ((إن الاستفهام له صدر الكلام من قبل

(٢٦) ولا تدمرني

(٢٧) ينظر: أساليب الطلب: ٣٠٧.

(٢٨) المقتصد في شرح الإيضاح: ١١٢٠/٢.

(٢٩) ينظر: البرهان: ٣٢٧/٢، والمقتضب: ٢٩٢/٣.

(٣٠) ينظر: البحر المحيط: ٤١٨/٢.

(٣١) ينظر: الصاحبي: ١٨١.

(٣٢) المفصل: ٣٢٠.

أنه حرف دخل على جملة تامة خبرية، فنقلها من الخبر إلى الاستخبار فوجب أن يكون متقدماً عليها ليفيد ذلك المعنى فيها»^(٣٣).

وأكد القولين السابقين الاسترأبادي (ت: ٦٨٦هـ) عندما قال: «كل ما يغير معنى الكلام ويؤثر في مضمونه وكان حرفاً فمرتبه الصدر»^(٣٤).

الاستفهام قد يخرج عن حقيقته بأن يقع ممن يعلم ويستغنى عن طلب الفهم، والنحاة والمفسرون، والبلاغيون كانوا حريصين على الوقوف على الأسباب أو الأغراض التي تدفع المتكلم إلى استعمال الاستفهام في غير معناه الحقيقي، فأبو عبيدة (ت: ٢١٠هـ) يرى أن الاستفهام قد لا يطلب به المتكلم الفهم لنفسه، وإنما يريد به تفهيم المخاطب أو السامع فيخرج الاستفهام إلى معنى النهي، أو التهديد، أو التحذير^(٣٥).

ونجد المبرد يذكر أن الاستفهام ولاسيما في القرآن الكريم قد يستعمل في غير معناه الحقيقي، فلا يراد به طلب الفهم للمتكلم، وإنما يراد به توبيخ السامع وتقريره وذلك تنبيهاً له على خطئه وزجراً له عن ركوب ما يؤدي به إلى التهلكة^(٣٦).

وإذا خرج الاستفهام عن حقيقته واستعمل في معان أخرى هل نقول إن معنى الاستفهام موجود فيه وانضم إليه معنى آخر؟ أو نقول أنه مجرد من الاستفهام بالكلية؟ لقد عالج المفسرون هذا الموضوع، فأبو عبيدة (ت: ٢١٠هـ) يذهب إلى أن (الهمزة) المستعملة في معنى التقرير تتجرد من معنى الاستفهام، بل هي أداة ثانية لا صلة لها بهمزة الاستفهام^(٣٧)، أما النحاة فلهم رأيهم فهذا ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) يرى أن استعمال الاستفهام في غير معناه يجوز لأجله أن تتجرد أداة الاستفهام في بعض الأحوال يصريح ذلك المعنى المستعملة فيه فتقع (هل) مثلاً في بعض الأحوال موضع حرف التحقيق^(٣٨) كقوله تعالى: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»^(٣٩)، أما السبكي (ت: ٧٥٦هـ) من البلاغيين فيرى أن معنى الاستفهام موجود وباق في أكثر المعاني التي يخرج إليها الاستفهام^(٤٠).

بخصوص أدوات الاستفهام أيهما أصل وأيها فرع؟ فالنحاة يرون أن الهمزة هي أم باب أدوات الاستفهام ويذهب أكثرهم أنها وحدها الأداة الأصلية في الاستفهام التي لا تستعمل في غيره، وأن بقية أدوات الاستفهام قد تضمنت معنى همزة الاستفهام فحملت عليها واستعملت استعمالها، وإن معنى الاستفهام عارض فيها مستفاد من همزة مقدرة معها^(٤١).

يقول سيبويه في همزة الاستفهام: «إنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره وليس للاستفهام في الأصل غيره»^(٤٢). أما لماذا بنيت أسماء الاستفهام؟ فالنحاة يرون إنما بنيت لأنها تضمنت معنى همزة الاستفهام، فصاحب المقتصد في شرح الإيضاح عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) يقول: «وأمّا سبب البناء فتضمن الحرفية في (كيف) و(أين) ولما تضمن كل واحد منها معنى حرف الاستفهام بني كما يكون

(٣٣) شرح المفصل: ١٥٥/٨.

(٣٤) شرح الكافية: ٩٧/٢.

(٣٥) ينظر: مجاز القرآن: ١٨٣/١ - ١٨٤.

(٣٦) ينظر: المقتضب: ٢٩٢/٣.

(٣٧) ينظر: مجاز القرآن: ٦٣/١.

(٣٨) ينظر: الخصائص: ٤٦٥/٢.

(٣٩) ينظر: عروس الأفراح (شروح التلخيص): ٣٠٦/٢ - ٣٠٧.

(٤٠) ينظر: أساليب الطلب: ٣١٩.

(٤١) الكتاب: ٩٩/١.

الحرف مبنياً)) (٤٢)، وهذا ما ذهب إليه ابن عصفور: (ت: ٦٦٩هـ) بقوله: ((والأسماء كلها معربة إلا ما أشبه الحرف، أو تضمن معناه كأسماء الشرط فإنها تضمنت معنى (إن) وأسماء الاستفهام فإنها تضمنت معنى (الهمزة) (٤٣).

بعد هذا العرض لآراء النحاة، والمفسرين، والبلاغيين في مضمون الاستفهام وحقيقته لتبين كيف وظف الإمام السجاد (عليه السلام) هذا الأسلوب في صحيفته ؟ وأي غرض أراد به، ومن خلال تتبعنا وجدناه ينحصر بالآتي:

ت	نماذج من أدعية الإمام السجاد (عليه السلام)	الصفحة	نوع الدعاء
١.	إلهي أين المفر عنك ؟	٣١٢	عام، للخشية
٢.	فكم لي يا رب من ذنب أنا فيه مغرور متحير ؟	٣٣٣	خاص، إقرار
٣.	عافية من أرجو إذا لم أرج رحمتك ؟	٣٣٥	تعظيم وإقرار
٤.	عفو من أرجو إذا لم أرج عفوك ؟	٣٣٥	تعظيم وإقرار
٥.	رحمة من أرجو إذا لم أرج رحمتك ؟	٣٣٥	تعظيم وإقرار
٦.	مغفرة من أرجو إذا لم أرج مغفرتك ؟	٣٣٥	تعظيم وإقرار
٧.	رزق من أرجو إذا لم أرج رزقك ؟	٣٣٥	تعظيم وإقرار
٨.	فضل من أرجو إذا لم أرج فضلك ؟	٣٣٥	تعظيم وإقرار
٩.	وكيف لا أشكرك يا إلهي ؟	٣٣٥	خاص، تعظيم وتعجب
١٠.	فمن لي بعدك يا مولاي ؟	٣٣٦	خاص، تعظيم وتضرع
١١.	وكيف يستغني العبد عن ربه ؟	٣٣٦	عام، تعظيم ونفي
١٢.	وكيف يستغني المذنب عمن يملك عقوبته ومغفرته ؟	٣٣٦	عام، للنفي
١٣.	ما أنت صانع بمقر لك بذنبه، خاشع لك بذله ؟	٣٤٣	خاص، استسلام
١٤.	إلهي إن رفعتني فمن ذا الذي يضعني ؟	٣٥٢	خاص وحدانية
١٥.	وإن وضعتني فمن ذا الذي يرفعني ؟	٣٥٢	خاص وحدانية
١٦.	وإن أكرمتني فمن ذا الذي يهينني ؟	٣٥٢	خاص وحدانية
١٧.	وإن أهنتني فمن ذا الذي يكرمني ؟	٣٥٢	خاص وحدانية
١٨.	وإن عذبتني فمن ذا الذي يرحمني ؟	٣٥٢	خاص وحدانية
١٩.	وإن أهلكني فمن ذا الذي يعرض لك في عبدك	٣٥٢	خاص وحدانية

إن المتأمل لأسلوب الاستفهام في هذا الجزء من الصحيفة يدرك حقيقة مغزاها: إن الاستفهام لم يكن حقيقياً كما بدا من الأمثلة السابقة، وكيف يكون حقيقياً والإمام يدعو ويناجي رب العزة العالم بالأشياء كلها الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، لأن الاستفهام الحقيقي معناه طلب العلم بشيء مجهول، وكيف يجهل -تنزهت أسماؤه- أشياء هي من صنعه وتكوينه، لذا فالمتبع للأمثلة الاستفهام يجدها قد

(٤٢) المقتصد في شرح الإيضاح: ١/١٣٤ - ١٣٥.

(٤٣) المقرب: ١/٢٨٩.

أساليب الأمر والنهي والاستفهام في جزء من الصحيفة السجادية (الأيام المباركة أمودجا)
خرجت لمعان منها: التعظيم والتفخيم، كقوله: (وكيف يستغني العبد عن ربه)، والتسليم، كقوله عليه السلام: (ما أنت صانع بمقر لك بذنبه، خاشع لك بذله)، والإقرار: (فكم لي يا رب من ذنب أنا فيه مغرور متحير)، والدعاء كقوله: (فمن لي بعدك يا مولاي)، ومعظم ما ورد في النصوص من (٣- ٨)، والتوجه كقوله: (عافية من أرجو إذا لم أرج رحمتك؟)، وكذلك ما ورد في النصوص من (١٥- ١٩)، وسواها من المعاني التي صيغت بعبارات يجللها الخشوع، والانقياد، والتوسل لبارئ هذا الكون جبار السموات والأرض، القائل في محكم كتابه العزيز: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾ (البقرة/ ٢٩).

الخاتمة

يقيناً أن لكل عمل ثمرة وحليلة، وقد كانت حصيلتنا بعد ملازمتنا لهذا المصنف جملة من النتائج نوجز أبرزها بما يأتي:

١. إن الأدعية بالأساليب المذكورة آنفا كانت أغلب معانيها مستوحاة من كلامه تبارك وتعالى.
٢. إن الصحيفة السجادية مثلت أدب الدعاء خير تمثيل لأنها غاية في السبك والانتقاء والموضوعية.
٣. إن استشهاده عليه الصلاة والسلام بآيات من القرآن الكريم وكلام نبيه العظيم دليلان على أن هذين الموردين من موارد الاحتجاج كانا حاضرين لديه يعزز بهما كلامه ويدعمه.
٤. إن مناجاته لله جل ثناؤه كانت بعبارات يجللها الخشوع والرهبة والإيمان المطلق بوحديته.
٥. إن الاستفهام أينما ورد في القرآن لم يكن حقيقياً بل كان مجازياً خرج لأغراض مختلفة.

المصادر والمراجع

ت	اسم المصدر والمراجع
١.	الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين السيوطي، الطبعة الثالثة. مصر ١٩٥١ م.
٢.	أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: الدكتور قيس إسماعيل الأوسي، دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٨٩ م.
٣.	الأصول في النحو: لأبي بكر بن السراج، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي، النجف ١٩٧٣ م.
٤.	البحر المحيط: لأبي حيان النحوي، الطبعة الأولى - مصر ١٣٢٨ هـ.
٥.	البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى - مصر ١٩٥٧ م.
٦.	الجنى الداني في حروف المعاني: للحسن بن عبد الله المرادي، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل - الطبعة الأولى حلب ١٩٧٣ م.
٧.	الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الهدى - بيروت.
٨.	شرح الكافية في النحو: لابن الحاجب لرضي الدين الاستربادي، دار الكتب العلمية - بيروت.
٩.	شرح المفصل: للزمخشري لموفق الدين بن يعيش، عالم الكتب - بيروت.
١٠.	شروح التلخيص: طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.
١١.	أصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: لأحمد ابن فارس، ألقاه ١٩١٠ م، وطبعة بيروت

١٢	١٩٦٤ م ، تحقيق : مصطفى الشويبي . الصحيفة السجادية : الإمام زين العابدين (عليه السلام) مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت - الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ هـ .
١٣	الكتاب : لسيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مصر ١٩٦٦ - ١٩٧٦ م .
١٤	مجاز القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، تحقيق : محمد فؤاد سزكين ، الطبعة الثانية - بيروت ١٩٨١ م .
١٥	مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : لابن هشام الأنصاري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني - القاهرة .
١٦	المفصل في علم العربية : لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار الجيل - بيروت .
١٧	المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : الدكتور كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية ١٩٨٢ م .
١٨	المقتضب : لأبي العباس المبرد ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ١٣٨٦ هـ .
١٩	المقرب : لأبي عصفور ، تحقيق : احمد عبد الستار الجوارى ، وعبد الله الجبوري ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٩٧١ - ١٩٧٢ م .
٢٠	همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية : لجلال الدين السيوطي ، دار المعرفة - بيروت .

مدينة الكاظمين، معلم ديني سياحي (دراسة تاريخية)

م.م. علي جاسم طلال الموسوي^(١)

المقدمة:

إن من الطبيعي أن تكون لكل مدينة من المدن الدينية المعروفة في جميع أنحاء العالم مجموعة من العوامل التي ساعدت على نشوئها وبقائها واستمرارها على وجه الأرض. وبالنسبة إلى مدينة الكاظمية فهناك عدة عوامل منها التاريخية حيث اشتهرت هذه المدينة على مر العصور وكانت لها جذور تاريخية طويلة تمتد إلى أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد وهذا ما جعل من العامل التاريخي أحد العوامل الرئيسية في نشوء مدينة الكاظمية، بالإضافة إلى العامل الطبيعي من سطح ومناخ وتربة وموارد مائية مما سهل على عدد كبير من الناس أن يسكنوا هذه المنطقة نظراً لوفرة الموارد فيها، بالإضافة إلى العامل الديني الذي يعمل على جذب أعداد كبيرة من الزوار سواء أكانوا من داخل القطر أم خارجه.

وهذه العوامل المذكورة سلفاً لم تساعد على نشوء مدينة الكاظمية وإنما ساعدت على جعل المشهد الكاظمي منطقة جذب سياحية دينية مهمة في العراق.

الفصل الأول

المبحث الأول: تاريخية مدينة الكاظمية والمشهد الشريف

إن تاريخ مدينة الكاظمية يعود إلى زمن قديم جداً حيث ساعد هذا الامتداد التاريخي على نشوء هذه المدينة فتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن هذه الأرض كانت مسكونة من قبل الكيشيين في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد ومن المؤكد أن مثل هذا التاريخ جعل هذه المدينة إحدى المدن التاريخية المعروفة في العالم، بالإضافة إلى اكتسابها أهمية دينية إلى جانب الأهمية التاريخية المعروفة وبخاصة بعد دفن الإمامين الكاظمين موسى بن جعفر و محمد بن علي الجواد (عليه السلام) مما جعل هذه المدينة من المدن التاريخية والدينية المعروفة في العالم الإسلامي فشكّلت على مر العصور بؤرة استقطاب سكاني وبخاصة حول المشهد الشريف.

١ - كلية الشريعة الإسلامية، جامعة أهل البيت (عليه السلام)

لقد اختلف الباحثون في تاريخية مدينة الكاظمية و ذلك بسبب عدم وجود المصادر التاريخية التي تنص على هذا التاريخ بشكل واضح.

فبعض المصادر التاريخية تؤكد إن ارض الكاظمية القديمة كانت مسكونة من قبل الكيشيين الذين جاءوا في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد من الجبال الشمالية الشرقية لمنطقة لورستان في إيران يقودهم زعيم اسمه كندش، فاحتلوا مدينة بابل الأولى المعروفة باسم الامورية و كان من ابرز ملوكهم الملك (كاريكالزو) الذي شيد عاصمة جديدة للدولة أطلق عليها اسمه و تعرف إطلالها و تلها العظيم اليوم باسم عرقوف، و هذا التل هو بقية زقورة المدينة و ارض الكاظمية جزء من تلك العاصمة.^(٢)

وهناك مصادر أخرى تؤكد أن الذي بنى عرقوف هو الملك كيكاووس الذي أطلق عليه اسم النمروود ونسبت إليه قصة محاربته لنبي الله إبراهيم عليه السلام كما جاء ذكرها في القرآن الكريم^(٣). وتؤكد مصادر تاريخية أخرى أن أقدم ذكر للكاظمية كان في العهد الساساني حيث كانت المنطقة عبارة عن بستان لأحد ملوك الفرس و كانت تعرف بطسوج قطربل^(٤) وهذا الاسم كان معروفا في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد و هو القرن الذي أنشأت فيه دولة السلوقيين اليونانيين بعد وفاة الاسكندر المقدوني، و كانت تروى هذه المنطقة من احد فروع نهر دجلة الذي صار يعرف في العصر العربي بنهر الدجيل، و تؤكد مصادر أخرى أن ارض الكاظمية قبل الإسلام كانت مناطق زراعية واسعة تنتشر فيها البساتين والحقول العامرة بأشجارها و محاصيلها، حيث يروى إن كسرى انوشروان الملك الساساني كان يمتلك بستانا في مدينة بغداد من ناحية الشمال سماه بستان العدل^(٥).

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى إن القرى و المدن الواقعة جنوب الكاظمية و شرقها وجنوبها الغربي كانت قبل الإسلام كثيرة و متعددة تتسلسل و تتلاحق حتى تصل جنوبا إلى مدينة سلوقية عاصمة بابل القديمة، و اقرب تلك القرى غالى الكاظمية قرية سونايا الواقعة في جنوبها الشرقي و هي قرية مشهورة بالعب الأسود حيث أصبحت هذه القرية فيما بعد محلة تدعى بالعتيقة و فيها مسجد الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام و يعرف بمشهد المنطقة و ما زالت لحد الآن تسمى بالمنطقة بين الكاظمية و الكرخ^(٦). و كانت الكاظمية تعرف باسم مقبرة الشوينيزي الصغير و هي تسمية عربية يحتمل إطلاقها عند مجيء الإسلام، و الشوينيز في اللغة الحبة السوداء^(٧).

إما بالنسبة إلى مقبرة الشوينيزي الكبير فتعرف اليوم بمقبرة الشيخ جنيد البغدادي الصوفي غربي قبر معروف الكرخي في الكرخ.

وتشير المصادر التاريخية كذلك إلى إن هذه البقعة قبل إن يدفن فيها الإمام موسى بن جعفر و حفيده الإمام الجواد عليه السلام و قبل إن تكون مقابر قريش كانت تعرف بمقبرة الشهداء أو قبور الشهداء لأنها كانت مدفنا لعدد من الذين استشهدوا في حرب الخوارج و دفنوا هناك في غرب الكاظمية الجنوبي و ذلك في سنة

(٢) جواد، مصطفى، الكاظمية قديما، بحث منشور في موسوعة العتبات المقدسة، مطبعة دار التعارف، ط ١، ١٩٦٧، ص ٩-

١٠.

(٣) الموسوي، قيس من الكاظميين، ص ٤٣.

(٤) جواد، المصدر السابق، ص ٢٠ - ٢١.

(٥) الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة المدن العربية الإسلامية، ص ١٧١.

(٦) آل ياسين، شعراء كاظميون، ص ٩.

(٧) آل ياسين، مقابر قريش، ص ١٤٣.

٣٧ هـ و هم أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام و كانوا قد استشهدوا معه في قتال الخوارج بالنهر وان، و لما رجعوا من الحرب أدركهم الموت في ذلك المكان بعد أن تأثروا بالجراح فدفنوا هناك ^(٨).

وعندما أنهى المنصور بناء مدينة بغداد المدورة في عام ١٤٩ هـ في الجانب الغربي لبغداد جعل تلك المنطقة المجاورة لبغداد من الشمال مقبرة تحتضن أسرته و أقاربه و اسمها مقابر قريش ^(٩)، من أجل أن تضم موتى قريش خاصة مثل العباسيين والعلويين بعد أن كانت هذه المنطقة تسمى بمقبرة الشونيزي الصغير.

وأول من دفن في هذه المقبرة هو جعفر الأكبر ابن المنصور العباسي سنة ١٥٠ هـ و دفنت كذلك أم جعفر و زبيدة أم الأمين ثم دفن فيها أبو يوسف القاضي سنة ١٨٢ هـ و في سنة ١٨٣ هـ دفن فيها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث يروى أن الإمام الكاظم عليه السلام ابتاع لنفسه قطعة من الأرض في مقابر قريش بمدينة السلام، و في سنة ٢٢٠ هـ دفن الإمام الجواد في جنب جده الكاظم عليه السلام ^(١٠).

و ابتدأت بعد دفن الإمامين الكاظمين في هذه البقعة الشريفة مرحلة جديدة حيث اتسع السكن ازداد حول مقابر قريش بعد دفن الإمامين و قد دفعت العقيدة الدينية بعض الناس إلى السكن حول المشهد الشريف لحمايته و إدارته و إيوائ زائريه، وربما يكون هذا التجمع هو النواة الأولى لهذه المنطقة ^(١١).

وسميت بعد ذلك باسم قبر موسى عليه السلام نسبة إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام ثم المشهد الكاظمي نسبة إلى الإمامين الكاظم و الجواد عليهما السلام ^(١٢)، و كذلك سمي المشهد الشريف بمشهد الجوادين من باب التغليب نسبة إلى الإمام الجواد و جده الكاظم عليهما السلام.

وقد سمي المشهد الكاظمي بهذا الاسم تبعاً لصفة الكظم التي اتصف بها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي اشتهر بحلمه و كظمه الغيظ و العفو عند الإساءة.

وهناك بعض الباحثين يسمون المشهد الكاظمي بمشهد باب التبن نسبة إلى مقبرة باب التبن الواقعة في شرقي مقابر قريش و هي محلة كانت ببغداد على الخندق بإزاء قطيعة أم جعفر وفيها قبر عبد الله بن أحمد بن حنبل ^(١٣).

والواقع أن مثل هذه التسمية يجب أن تطلق على قبر عبد الله بن أحمد بن حنبل لأن مرقده الشريف واقع في نفس المقبرة و ان هذه المقبرة واقعة شرقي مقابر قريش ^(١٤) فلا يجوز أن تعمم هذه التسمية على مقبرة باب التبن و مقابر قريش التي احتضنت الإمامين الكاظمين و قد أصبح قبر الإمامين نواة لتوسع المنطقة التي تشغلها الكاظمية الحالية و بسبب مكانة الإمامين في نفوس المسلمين فقد كانا يعرفان بأئمة إمامين كبيرين القدر، عظيمي الشأن، كثيري التهجد، جادان في الاجتهاد، مشهوران في العبادة، مواظبان على الطاعة، مشهوران في الكرامات.

وعلى هذا الأساس أصبح الناس يسكنون بالقرب من الإمامين للتبرك بهما ^(١٥) و عدد آخر من الناس يوصي بأن يدفن بجوارهما و عدد آخر اهتم بتأمين راحة الزوار و لهذا أصبحت هذه المنطقة جزءاً متصلاً من مدينة بغداد.

(٨) الموسوي، المصدر السابق، ص ١٧١

(٩) الخطيب البغدادي، ص ٥٥

(١٠) الورد، حوادث بغداد في ١٢ قرن، ص ٢٨.

(١١) الكنان، استعمالات الأرض في مدينة الكاظمية، ص ٨.

(١٢) بشير، بغداد آثارها وتاريخها، ص ١٦.

(١٣) حدة، المعالم الأثرية والسياحية للوطن العربي ص ٥٩٨.

(١٤) جواد، المصدر السابق، ص ٢٤

(١٥) الكمري. نوفل عبد الرضا، ص ٦١

وعلى هذا الأساس توسعت مدينة الكاظمية في العصر العباسي الأول توسعا كبيرا حتى أصبحت في نهاية هذه الفترة تشتمل عدة محلات مثل محلة باب التين^(١٦) و القطيعة الزبيدية و الحربية و ربض أبي حنيفة و جهاز سور و باب الشعير و العتابين و دار العمارة و محلة الشارع و الرملة والنصرية^(١٧) وغيرها.

إما الكاظمية في العهد البويهي فقد تميزت هذه الفترة بتردي الأوضاع الاقتصادية و عدم الاستقرار السياسي و بالرغم من ذلك نال المشهد الكاظمي اهتماما كبيرا من البويهيين بسبب إتباع البويهيين المذهب الجعفري فقد شيد المشهد الكاظمي تشييدا رائعا و تم إعداد المستلزمات الخاصة بالزوار للمحافظة على الأمن و الاستقرار في تلك المنطقة بالإضافة إلى توفير الطعام و الشراب لزوار المشهد الشريف^(١٨).

وقد اشتهر في هذه الفترة بعض السلاطين البويهيين أمثال معز الدولة الذي قام بتشيد المشهد الكاظمي من جديد و وضع على القبرين ضريحين خشبيين و في عام ٣٦٧ هـ غرقت جهات كثيرة من الجانب الشرقي لبغداد فقام عضد الدولة ببناء سور حول المشهد ليقية من الغرق^(١٩). وقد حدثت في تلك الفترة الفتنة مما أدى إلى إحراق المشهد الكاظمي و كذلك نهب ما فيه من هدايا و غيرها^(٢٠). ثم قام البساسيري بتشيد المشهد الشريف. إما في العهد السلجوقي فقد تميزت هذه الفترة باستمرار الفتن و الاضطرابات و لم يحظ المشهد الكاظمي بأي اهتمام بل تقلصت مساحته بسبب التدهور في الأوضاع السياسية و الاقتصادية. كما نهب المشهد الكاظمي في سنة ٤٤٨ هـ و تعرض لفيضانات دجلة عدة مرات مما أدى إلى حدوث الكثير من الخراب في الكاظمية بالإضافة إلى ذلك فقد تم في هذه الفترة بناء عدة منشآت للمشهد الشريف مثل دار لاستقبال الضيوف في سنة ٥٦٩ هـ^(٢١) و أصبحت الكاظمية بعد انتهاء العصر العباسي مدينة مستقلة تضم عددا كبيرا من الناس و المنشآت التابعة لها^(٢٢).

وأمّا في العهد المغولي فقد عرف هذا العهد بكثرة الاضطرابات و الفتن و سوء الأوضاع الاقتصادية و السياسية التي استمرت طيلة فترة حكم المغول^(٢٣) على الرغم من ذلك فقد تم في هذه الفترة الاهتمام بالمشهد الكاظمي من قبل المغول مثل عمارة المشهد من قبل شهاب الدين علي و غيره، و في هذا العهد أيضا عرف المشهد الكاظمي الكثير من العمارة و التنظيم كما تبين لنا أقوال المؤرخين المعاصرين أمثال ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ٧٢٧ هـ و أبو الفداء.

ومن العلامات البارزة لهذه الفترة هي فيضانات دجلة المتكررة، ولعل ابرز حدث في العهد المغولي هو قيام السلطان اوس الجلائري بتعمير المشهد الكاظمي بشكل كامل و بناء قبتين و منارتين وهي العمارة الأولى بعد انقضاء العصر العباسي^(٢٤).

إما المشهد الكاظمي في العهد الصفوي الأول فقد عرف في هذا العهد اعتناء الصفويين بالمشهد الكاظمي بدرجة كبيرة وأولوه اهتماما كبيرا في هذا المشهد، فقد أمر الشاه إسماعيل الصفوي بقلع عمارة المشهد من أساسها وتجديدها تجديدا شاملا وتوسيع الروضة وتزيين الحرم وغيرها من الأعمال^(٢٥) وفي هذا العهد تم

(١٦) الحموي، معجم البلدان، ص ٤٤٣.

(١٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٨٧.

(١٨) السماوي، صدى الفؤاد إلى حمى الكاظم والجواد، ص ١١.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٢٠) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ص ١٨٣.

(٢١) نسرین محمود، الجغرافية الاجتماعية لمدينة الكاظمية الكبرى، ص ٣٣.

(٢٢) آل ياسين، مقابر قریش، ص ١٤٣.

(٢٣) القزاز، الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية ص ١١٢.

(٢٤) السماوي، المصدر السابق، ص ١٥.

(٢٥) آل ياسين، تاريخ المشهد الكاظمي، ص ٥٥.

تشيد هيكلاً الحرم وروضته وأروقته وهو الهيكل القائم الآن ولا يزال جزءاً من هذه الأعمال قائماً لحد الآن مثل الطابوق الكاشاني في جدار الروضة،^(٢٦) والصندوقين الخشبيين الموضوعين حتى يومنا هذا على الضريحين الشريفين، وعلى هذا الأساس فإن المشهد الكاظمي في هذا العهد تميز باهتمام الصفويين به اهتماماً كبيراً.

إما العهد التركي الأول الذي يبدأ سنة ٩٤١ هـ فقد تميز ببعض الاهتمام بالمشهد الكاظمي من قبل بعض السلاطين من أمثال سليمان القانوني الذي قام ببعض أعمال الصيانة للمشهد الشريف و تنظيم شؤونه وكذلك قام بإكمال بعض أعمال البناء التي لم يكملها الصفويون^(٢٧).

إما المشهد الكاظمي في العهد الصفوي الثاني الذي يبدأ سنة ١٠٣٢ هـ والذي شهدته الكثير من الحروب والفتن وبالرغم من ذلك وبعد استقرار الأوضاع قام الشاه عباس الكبير بتشيد المشهد الشريف بعد هذه الحروب وأمر بصنع ضريح من الفولاذ من أجل وضعه على الضريحين ليقبهما من حوادث النهب والسلب أثناء المعارك والفتن^(٢٨)، إلا أنه لم يصل إلى الكاظمية حتى سنة ١١١٥ هـ بسبب تأزم العلاقات السياسية بين إيران وتركيا.

إما في العهد التركي الثاني الذي يبدأ سنة ١٠٤٨ هـ فقد تميزت هذه الفترة بإثارة الفتن مما أدى إلى نهب المشهد الشريف ولم تصلنا من تلك الفترة معلومات كافية وقد قام نادر شاه بإرسال هدايا ثمينة للعبثات المقدسة في العراق سنة ١١٥٣ هـ وكذلك قام محمد شاه القاجاري بإكمال ما بدأه الصفويون في هذا المشهد الشريف^(٢٩).

وفي فترة لاحقة من هذا العهد اهتم الأتراك بالروضة الشريفة فقد قاموا بأعمال بناء وتشيد و تنظيم شؤون الروضة بالإضافة إلى الاهتمام بزوار الروضة المطهرة. واستمرت الأعمال في الروضة الكاظمية حتى وقتنا الحاضر.

المبحث الثاني: العرض السياحي الديني في الكاظمية.

المطلب الأول: مرقد الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام

الإمام هو موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ويكنى بأبي إبراهيم وأبي إسماعيل وأبي الحسن وأبي الحسن الأول وأبي علي. أما أَسْمَاؤه وألقابه فهي باب الحوائج، الكاظم، العبد الصالح، الحليم، الفقيه، الوصي، الأستاذ، الأمين، الزاهر، زين المجتهدين، الشيخ، صاحب الصرر، النفس الزكية، الوصي الموسوي، راهب آل محمد^(٣٠).

ولد الإمام الكاظم عليه السلام في الأبواء وهي منطقة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة في سنة ١٢٨ هـ^(٣١)، حيث أن الإمام فتح عينيه ليجد نفسه في أروع معاهد العبادة والطاعة والتقوى، فأهل البيت عليه السلام هم أساس الدين والتقوى لذا لا نجد غرابة في أن يكون الإمام الكاظم عليه السلام أعبد أهل زمانه وأخلصهم في طاعة الله فهو ربيب الرسالة المحمدية^(٣٢).

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢٧) آل ياسين، تاريخ المشهد، ص ٨٥.

(٢٨) السماوي، صدى الفؤاد إلى حمى الكاظم والجواد، ص ١٦.

(٢٩) آل ياسين، تاريخ المشهد، ص ٩١.

(٣٠) المقاتي، الكنى والألقاب، ص ١٦٦.

(٣١) السامر، الإمام موسى بن جعفر باب الحوائج، ص ١٢.

(٣٢) المسعودي، العبد الصالح موسى بن جعفر، ص ٩٩ - ١٠٠.

لقد بقي الإمام موسى الكاظم مع أبيه الصادق عليه السلام مدة عشرين عاما منها خمس سنوات تقريبا في عهد الأمويين وأربع سنوات ونصف في عهد عبد الله الملقب بالسفاح وتسع سنوات وأشهر في حكم المنصور الدوانيقي، حيث كانت وفاة الإمام الصادق عليه السلام، وعاش بعد أبيه خمسة وثلاثين عاما قضى منها مع المنصور بعد أبيه حوالي عشر سنوات ومع ولده الملقب بالمهدي عشر سنوات ومع ولده موسى الهادي سنة واحدة ومع أخيه هارون نحو خمسة عشر عاما ^(٣٣).

أما حياة الإمام موسى الكاظم فكانت منارا للمسلمين في جميع جوانب شخصيته الكريمة فلو أخذنا عبادته إذ كان يعرف بأنه أعبد أهل زمانه وأعلمهم ^(٣٤)، حيث يروى أنه كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجده ودعاه إلى أن يزول الليل ^(٣٥) وكان هذا دأبه إلى أن مات.

أما عن حلمه فبسبب فرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دعي بالكاظم فكان يجازي المسيء بالاحسان، ويقابل الجافي بالعفو عنه ^(٣٦). وكذلك الحال في كرمه فإن جميع المصادر التاريخية تحدثنا بأنه ما رد قاصدا خائبا قط، حيث كان سخيا كريما وكان يصبر الصرر ويعطيها إلى المحتاج حتى سمي بصاحب الصرر ^(٣٧).

ألا أن جزء كبيرا من حياة الإمام الكاظم قضاءه في سجون العباسيين إذ لم يتوانوا من نقله من سجن لآخر، ففي حكم المهدي سجن الإمام فترة من الزمن ثم أخلي سبيله، أما في حكم الرشيد فقد عاش الإمام منتقلا من سجن لآخر وقضى فترة كبيرة في طوامير السجون، ففي عهد الرشيد سجن الإمام الكاظم ونقل من المدينة إلى البصرة وحبس عند عيسى بن جعفر ومن ثم نقل إلى سجن بغداد فحبس عند الفضل بن الربيع ^(٣٨). ومازال ينتقل من حبس إلى آخر حتى مضت عليه ثمان سنوات ثم أُنقل إلى حبس السندي بن شاهك حتى استشهد الإمام مسموما بعدما أعطي رطبا مسموما من قبل السندي وهو في حبس الرشيد وكان استشهاده في ٢٥ رجب عام ١٨٣ هـ ^(٣٩).

المطلب الثاني: مرقد الإمام محمد بن علي الجواد

والإمام هو محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام. ويكنى بابن الرضا وأبي جعفر وأبو جعفر الثاني وأبي علي ^(٤٠).

أما ألقابه فهي الجواد، النقي، الرضي، الزكي، العالم، القانع، العالم الرباني، المتقي، المختار، المتوكل، المتوشح بالرضا، المرتضى، المنتخب ^(٤١).

ولد الإمام الجواد في المدينة المنورة في شهر رمضان سنة ١٩٥ هـ ^(٤٢) حيث نشأ الإمام الجواد عليه السلام في بيت النبوة والإمامة ذلك البيت الذي أعزه الله، وقد ترعرع الإمام في ظلاله وهو يتلقى المثل العليا من أبيه الرضا عليه السلام، وقد تولى الإمام الرضا بنفسه تربيته فكان بصحبته في حله وسفره ^(٤٣).

(٣٣) الحسيني، سيرة الأئمة لأئمة عشر ص ٣١١.

(٣٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٢٧.

(٣٥) الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، ج ١، قسم الكاظمين، ص ٥٦.

(٣٦) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ ج ١٠ ص ١٨٣.

(٣٧) المسعودي، العبد الصالح موسى ابن جعفر، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣٨) الطالقاني، نور الأبصار في مواليد الأئمة الأطهار، ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

(٣٩) يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ص ٢٩٠.

(٤٠) الماقاني، محمد رضا، الكنى والألقاب، ص ١٦٨.

(٤١) المفيد، الإرشاد، ص ٣٠٧.

عاش الإمام في ظل أبيه الرضا فترة قصيرة حوالي سبع سنين وبقي بعد أبيه أكثر من سبع عشرة سنة في عهد الخليفة المأمون العباسي وجزء من خلافة المعتصم^(٤٤). وبعد استشهاد الإمام الرضا قام الخليفة المأمون باستدعاء الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد سنة ٢٠٤ هـ من أجل إن يزوجه ابنته أم الفضل^(٤٥). لم تكن حياة الإمام الجواد عليه السلام طويلة فقد وافاه الأجل بعد إن بلغ الخمس والعشرين سنة و يعد أقصر الأئمة عليه السلام عمرا.

عاش الإمام الجواد عليه السلام ولم يتعرض إلى ضغوط سياسية واقتصادية كالتي تعرض لها جده الكاظم عليه السلام، وعلى الرغم من قصر حياته إلا أنه اتجه صوب العلم فرفع منارة وأسس أصوله وقواعده واستغل مدة بقائه في بغداد بالتدريس وإشاعة العلم وبلورة الفكر بالمعارف والآداب الإسلامية وقد التف حوله جمهور كبير من العلماء والرواة من أجل الاستزادة من علمه^(٤٦).

إما عن شخصية الامام الجواد فهي غنية عن التعريف وفوق كل مديح لا ترضى إلا بالسمو والرفعة، فلو اطلعنا على بعض جوانبها كالعلم لوجدنا أنه كان معروفاً بالعلم لا يدانيه أحد في سعة علومه ومعارفه وأنه لا بد أن يكون أعلم أهل زمانه وأدراهم بشؤون الشريعة وأحكام الدين.

إما عن زهد الامام الجواد فكان معروفاً به، على الرغم من أنه كان شاباً في مقتبل العمر وبحوزته الكثير من الأموال الوفيرة التي كان يمتلكها ومع ذلك فإنه لم ينفق شيئاً منها في أموره الخاصة وإنما كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين^(٤٧).

إما عن كرمه فإنه كان أكثر الناس كرماً وسخاءً وقد لقب بالجواد لكثرة كرمه وأحسنه إلى الناس. استشهاد الامام الجواد مسموماً بعدما أعطى عبداً مسموماً من قبل أم الفضل في حكم المعتصم العباسي^(٤٨).

مخطط المشهد الكاظمي عليه السلام

تبلغ المساحة الكلية للمشهد الكاظمي بما فيه الصحن والجامع والأسوار ما يساوي ١٩٥٧٥ م^٢ وقد بني على الطراز العربي الإسلامي على شكل مستطيل^(٤٩). إما مساحة بناء المشهد الكاظمي بما فيه الحرم والأروقة والطرقات فهي ٢٣٦٠٠ م^٢ يحيط بالصحن الكاظمي سور كبير من جهاته الأربع وهو مرتفع بعلو ١٠ م تقريباً وينقسم من الداخل طابقين الأول بنيت فيه الغرف والاواوين وأما الثاني فهو عبارة عن اتصال السور حتى الأعلى. حيث قسمت الاواوين في الصحن الشريف على طول الأسوار الأربعة بمساحة محددة وأشكال بديعة لا تختلف عن بعضها البعض سوى في الرسوم والألوان وهي في غاية الروعة والإبداع، ويبلغ عدد الاواوين في الصحن ثلاثة وستين زيواناً^(٥٠).

حيث يوجد في كل زيوان قبران لدفن الموتى فضلاً عن وجود الاواوين توجد في الصحن الشريف مداخل صغيرة بعدد ١٤ مدخلا توصل إلى غرف واسعة ذات أبعاد مختلفة، وهناك أيضاً غرف كبيرة متصلة

(٤٢) المسعودي، إثبات الوصية، ص ٢٠٩.

(٤٣) القرشي، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٤٤) الكليني، الكافي، ج ١ ص ٤٩٢.

(٤٥) الحسن، سيرة الأئمة لاثني عشر، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٤٦) القرشي، المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٤٧) دخيل، الامام محمد الجواد، ج ٩ ص ٦.

(٤٨) العطاردي، مسند الامام الجواد، ص ٦٦.

(٤٩) عبد الله، الحضرة الكاظمية، ص ٧٤.

(٥٠) الموسوي، قبس من الكاظميين، ص ٧٠.

بالأواوين بواسطة أبواب خشبية عددها ٧٦ غرفة على طول مساحة السور، وإحدى هذه الغرف هي المكتبة^(٥١) وللمشهد الشريف عشرة أبواب لدخول الزائرين إلى الإمامين منها الكبيرة ومنها المتوسطة ومنها الصغيرة، علماً إن الأبواب في الأصل كانت سبعة ثم أُضيفت إليها ثلاثة.

و الأبواب هي باب المراد، وباب القبلة، و باب صاحب الزمان، و باب قريش، و باب الرجاء، و باب المغفرة، و باب الرحمة، و باب قاضي الحاجات، و باب الفرهادية، و باب الجواهرية.

وهذه الأبواب مختلفة الأحجام حيث إن باب المراد و القبلة و صاحب الزمان كبيرة الحجم وأما باب قريش و الرجاء و المغفرة و الرحمة و قاضي الحاجات فهي متوسطة الحجم، وأما باب الفرهادية و الجواهرية فهي صغيرة الحجم^(٥٢)،

ومن ثم يأتي الصحن الذي يحيط بالحرم الشريف من أطرافه الشرقية و الجنوبية و الغربية و هو فضاء كبير واسع تقام فيه الصلاة، و يأوي إليه الزائرون^(٥٣)

وهناك ثلاثة أقسام من الصحن و هي القسم الأول وهو صحن قريش والقسم الغربي من المشهد، و القسم الثاني هو صحن باب المراد و هو القسم الشرقي من الروضة والقسم الثالث هو صحن باب القبلة و هو القسم الجنوبي من الروضة المقدسة.

أما الطارمات، فتوجد في الصحن الشريف ثلاث طارمات كبيرة الحجم، رفيعة البناء، دقيقة المنظر، جميلة الطراز و النقوش و هي تحيط بالروضة من جهاتها الشرقية و الجنوبية و الغربية و هي كالآتي:

الطارمة الشرقية: حيث توجد في هذه الطارمة ستة مداخل تسمى الكشوانيات و يفصل بين الصحن المطهر و الطارمة شبك حديدي وتستند كل طارمة على أعمدة مختلفة في الطول و العدد و الحجم و قد قسمت هذه الطارمة إلى الباب الرئيس و هو باب ذهبي عظيم الصنع و بابين فضيين من جهتي الطارمة الشمالية و الجنوبية وهناك إيوانان مقرنصان بالمرایا و الزجاج البديع.

الطارمة الجنوبية: تمتاز هذه الطارمة بعلوها الشاهق و فنها البديع الرائع و تحتوي هذه الطارمة مدخلين و يوجد فيها خمسة أواوين كبيرة و صغيرة.^(٥٤)

الطارمة الغربية: تمتاز هذه الطارمة عن غيرها بأنها تحمل طابع الماضي المجيد و تحتوي هذه الطارمة باباً واحداً في وسطها بالإضافة إلى ستة أواوين مزججة بقطع المرایا و لها مداخل إما الأروقة فهي تحيط بالحرم المقدس من جهاتها الأربع مكونة أربعة أروقة متصلة مع بعضها البعض مكونة مساحة كبيرة تحيط بالحرم، حيث توجد فوق أركان الأروقة الأربعة أربع مآذن كبيرة مغلقة من القسم العلوي بالأجر الذهبي^(٥٥).

و قد قسمت هذه الأروقة بشكل معماري بديع و هي مزينة بالمرایا الخلابة التي تزين أروقة المشهد من أواسط جدرانها، و من الجدير بالذكر إن لكل رواق مدخلا من الطارمة المحيطة به الذي يشكل الحد الفاصل بينه و بين طارمة الصحن، كما يشكل حداً فاصلاً بينه و بين الحرم الشريف ما عدا الجهة الشمالية فهي متصلة بالجامع و الأروقة هي.^(٥٦)

الرواق الشرقي: يعد هذا الرواق ذا شكل هندسي بديع وله بابان فضيان أحدهما في الشمال الشرقي والآخر في الجنوب الشرقي مع باب كبير من الذهب في الوسط.

(٥١) زيارة ميدانية في ١٠/٩/٢٠٠٦.

(٥٢) زيارة ميدانية في ١٧/٦/٢٠٠٨.

(٥٣) آل ياسين، تاريخ المشهد الكاظمي، ص ٩٠.

(٥٤) زيارة ميدانية في ١٤/٨/٢٠٠٧.

(٥٥) سلمان، العمارات العربية الإسلامية في العراق، قصور ومشاهد، ص ١٨٩.

(٥٦) عبد الله، الحضرة الكاظمية، ص ٧٤.

حيث يوجد في هذا الرواق أربعة أواوين كما توجد في هذه الأروقة قبور تاريخية كثيرة ومنها قبر الشيخ المفيد وقبر الفقيه ابن قولوية وقبور آل الصدر وغيرهم من السادة الأشراف والأعيان^(٥٧).

- الرواق الغربي: حيث يوجد فيه مدخل واحد من جهة طارمة باب صاحب الزمان وبابان فضيان متصلان بالحرم الشريف، ويتخذ نفس الشكل والمواصفات بالنسبة إلى الرواق الشرقي، ويوجد فيه قبر العلامة الطوسي، وله ستة أواوين متقابلة.

الرواق الجنوبي: وله ثلاثة أبواب من جهة طارمة باب القبلة مصنوعة من الذهب الخالص مع باب واحد فضي يتصل بالحرم، كما توجد فيه أربعة أواوين متقابلة^(٥٨).

الرواق الشمالي: ليس له أبواب للدخول إليه سوى باب واحد يتصل بالحرم الشريف، وتوجد فيه أربعة أواوين متقابلة مع وجود شبابيك مطلة على جامع الجواوين^(٥٩). إما الحرم الشريف فإننا ذكرنا سابقا إن هناك ستة مداخل للحرم المطهر مكونة من أربعة أبواب فضية وبابين ذهبيين كبيرين.

وينقسم الحرم المطهر قسمين حرم جنوبي ويدعى حرم الامام الكاظم (عليه السلام) وحرم شمالي ويدعى حرم الامام الجواد (عليه السلام) ويصل بينهما من الشرق والغرب طريقان والضريح المطهر يقع في الوسط، إن طول الضريح الفضي ٦.٧٤م وعرضه ٥.١٧م وترتفع أعلى نقطة فيه قرابة ثلاثة أمتار ونصف المتر عن الأرض وهو مشبك ومنقوش على نحو جميل جدا وكتبت عليه الآيات القرآنية الكريمة وقسم الحرم الشريف قسمين قسم جنوبي يدعى حرم الامام الكاظم.

والقسم الشمالي يدعى حرم الامام الجواد وهما متصلان من الشرق والغرب بممرات والضريح المطهر يقع في الوسط، وفي بداخل الضريح صندوقان يقعان فوق قبري الإمامين الكاظمين (عليه السلام) وهما صندوقان كبيران متساويان في البيئة والحجم مصنوعان من الخشب ومزخرفان ومغلفان بالزجاج ومنقوش على كل منهما الآيات القرآنية. وجدار الحرم الشريف من الداخل مغلف بالمرمر وأعلاه مزين بقطع الزجاج الجميلة، وتوجد فوق أركان الروضة الشريفة أربع مآذن صغيرة الحجم مغلفة بالذهب، إما القبتان حيث تعلوان فوق الضريح المقدس واحدة فوق قبر الإمام الكاظم (عليه السلام) والأخرى فوق قبر الامام الجواد (عليه السلام)، حيث تتكون كل واحدة منهما من طبقتين شكل الداخلية مفلطح لا ترتفع كثيرا عن مستوى ارتفاع الجدران الخارجية لهذا الجزء من البناء.

إما الخارجية فهي اصغر حجما من القبة الداخلية والقبتان متناظرتان، وتتميز كل منهما برقبة طويلة خالية من النوافذ وشكلهما نصف كروي مدبب قليلا وقد طليت هاتان القبتان بالذهب^(٦٠).

وكذلك يحوي المشهد الكاظمي ساعة تاريخية توجد في الطرف الجنوبي الشرقي من باب القبلة مرتفعة بحوالي ٢٠م ارسى أساسها في إحدى غرف الصحن وهي تظهر للناظر من جوانب مختلفة، حيث يكون القسم الأول من الساعة على شكل قوس في البناء، إما القسم الثاني من الساعة فقد رسمت فيه مناظر طبيعية خلابة تتوسط عقارب الساعة من الجهات الأربع، إما قمة الساعة فقد صفت من الكاشان الأزرق وطلبت بماء الذهب^(٦١)، وفي الوقت الحالي قسم الحرم الشريف قسم خاص بالرجال وهو القسم الشرقي والقسم الغربي خاص بالنساء.

(٥٧) مقابلة مع السيد زهير الموسوي احد سدة المشهد الكاظمي في ٨/٤/٢٠٠٥.

(٥٨) زيارة ميدانية في ٢٣ / ١١ / ٢٠٠٨.

(٥٩) آل ياسين، مقابر قریش ص ٩٠.

(٦٠) الجنابي، العمارات الدينية، ج ١٠، ص ٢٩.

(٦١) جمال، توظيف الموروثات الحضارية والثقافية والدينية العباسية في مركز مدينة بغداد ودورها في التنمية السياحية، ص ٥٤.

المبحث الأول: أعمال الصيانة والترميم:

إن العمارة الأولى كانت بعد وفاة الامام الكاظم عليه السلام مباشرة حيث كانت عمارة بدائية صغيرة لا تتجاوز غرفة واسعة خاصة بالقبر الشريف عليها قبة ولها عدة أبواب للدخول والخروج.^(٦٢)

وفي سنة ٣٣٦هـ قام معز الدولة احمد بن بويه بتشيد المرقد ووضع على القبرين ضريحين من الخشب وبنى قبتين من الساج وكذلك بنى صحنا واسعا وزينه.

وفي سنة ٣٦٩هـ قام عضد الدولة ابو شجاع ببناء سور حول المشهد الشريف وعمر المشهد من الداخل والخارج، وفي سنة ٣٧٦هـ و٣٧٧هـ شيدت ابواب المشهد وبنى سور حول المشهد.^(٦٣)

وفي سنة ٤٤٥هـ قام الحارث بن ارسلان المعروف بالبساسيري بتشيد المشهد وتجديد البناء، وفي سنة ٤٩٠هـ قام ابو الفضل الاسعد بن موسى بتعمير المشهد حيث قام ببناء الروضة المقدسة بناء محكم الأساس^(٦٤) ووضع صندوقين من الساج على القبرين وبنى كذلك مآذنتين فوق الروضة.

وفي سنة ٥٧٥هـ قام الخليفة الناصر لدين الله بتجديد الصندوقين وبناء رواق جديد وبهو ومآذن متعددة ووسع الصحن الشريف، وقام الناصر لدين الله كذلك في سنة ٦٠٤هـ ببناء دار ضيافة تقوم بتقديم الطعام للفقراء والزوار، بالإضافة الى تحصين المشهد بسور في عام ٦٠٨هـ واتخذت الغرف الموجودة في الصحن الشريف مدارس للعلوم الدينية في سنة ٦١٤هـ.^(٦٥) وفي سنة ٦٢٢هـ قام الخليفة الظاهر بامر الله بتعمير المشهد الشريف بعد وقوع الحريق فيه.

وفي سنة ٦٢٤هـ قام الخليفة المنتصر العباسي باكمال تعمير المشهد الشريف وتجديد القبة والصندوق الساج.^(٦٦) وفي سنة ٦٤٧هـ قام الخليفة المستعصم بعمارة المشهد الشريف وبناء سور حوله، وفي سنة ٦٥٧هـ قام علاء الدين ملك الجويني بعد دخول هولاكو الى بغداد واحترق المشهد الشريف بترميم المشهد الشريف وتزيين الجدران من داخل الروضة وخارجها والرواق والصحن بالحجر الكاشاني.^(٦٧)

وفي سنة ٧٦٩هـ قام السلطان اويس الجلائري بتعمير المشهد حيث رسم الرواق والصحن ووضع صندوقين على القبرين الشريفين وزين الروضة بالكاشان وبنى قبتين ومنارتين.^(٦٨)

وفي سنة ٩١٤هـ بعد دخول الشاه اسماعيل الصفوي الى بغداد أمر بقلع عمارة المشهد من اساسها وتجديدها وتوسيعها وتبليط الاروقة بالرخام ووضع صندوقين خشبيين وتزيين الحرم بالكاشان وأمر كذلك ببناء أربع مآذن بالإضافة الى تشيد جامع كبير في الجهة الشمالية سمي بالجامع الصفوي.^(٦٩)

واستمرت هذه الاعمال فترة طويلة من الزمن كما هو ملاحظ في تاريخ وضع الصندوقين الخشبيين على الضريحين في سنة ٩٢٦هـ وكذلك التاريخ الموجود على الطابوق الكاشاني الموضوع على جدار الروضة المطهرة في سنة ٩٣٦هـ، وفي سنة ٩٤١هـ دخل السلطان سليمان القانوني الى بغداد وأمر باكمال النواقص

(٦٢) ال ياسين، تاريخ المشهد الكاظمي، ص ٤٢.

(٦٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ص ٣٥٩.

(٦٤) الموسوي، المصدر السابق، ص ٣.

(٦٥) السماوي، المصدر السابق، ص ١٤.

(٦٦) الزنجاني، جولة في الأماكن المقدسة، ص ١١٠.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ١١٠ - ١١١.

(٦٨) مشروع تطوير السياحة الدينية في العراق، ص ٤٥.

(٦٩) الجلال، مزارات أهل البيت وتاريخها، ص ١١٧.

الموجودة في المشهد الكاظمي. وفي سنة ٩٧٨ هـ قام السلطان سليم الثاني ببناء المنارة الواقعة شمال شرقي الحرم.^(٧٠)

وفي سنة ١٠٣٢ هـ دخل الشاه عباس الصفوي الى بغداد وامر بوضع ضريح من الفولاذ لحفظ القبرين الشريفين وزين الرواق والروضة المطهرة.^(٧١) وفي سنة ١٠٤٢ هـ أمر الشاه حقي بترميم المشهد الكاظمي بعدما حدث غرق في بغداد، كذلك سنة ١٠٤٥ هـ وحيث تم تشييد أربع مآذن صغيرة الحجم فوق أركان الروضة.

وفي سنة ١٠٤٧ هـ دخل السلطان مراد الرابع وتم نهب المشهد الكاظمي وسرقة قناديل الذهب والفضة. وفي سنة ١١١٢ هـ جدد سقف الروضة الشريفة وأجريت عليها بعض الترميمات والاصلاح وفي سنة ١١١٥ هـ وضع شباك فوق الضريح.^(٧٢)

وفي سنة ١١٣٥ هـ جدد سقف الحرم الشريف من قبل الوالي حسن باشا، وفي سنة ١١٥٣ هـ أرسل نادر شاه هدايا ثمينة الى الروضة الكاظمية.

وفي سنة ١٢٠٧ هـ أمر السلطان محمد شاه القاجاري بإكمال ما بداه الصفويون في هذا المشهد وقد شملت هذه الاعمال انشاء ثلاث مآذن كبرى وتأسيس صحن واسع حول الحرم المطهر وقام سنة ١٢١١ هـ بتذهيب القبتين ورؤوس المنائر وتذهيب الابواب وإكساء ارضية الرواق بالمرمر الابيض وتزيين سقف الروضة بماء الذهب والمينا وقطع الزجاج الملون.^(٧٣) وفي سنة ١٢٣١ هـ أمر السلطان فتح علي القاجاري بترميم داخل الروضة ونقش باطن القبتين بالماء المذهب وفي سنة ١٢٥٥ هـ قام الوزير معتمد الدولة بتجديد أبواب الروضة.^(٧٤)

وفي سنة ١٢٦٥ هـ أنشأت طارمة باب المراد وطارمة باب القبلة من الخشب وجذوع النخيل.

وفي سنة ١٢٨٢ هـ تم نقش الإيوان الشرقي وزينت الجدران بالكاشاني.

وفي سنة ١٢٨٣ هـ تم وضع ضريح فضي على الضريح الفولاذي.

وفي سنة ١٢٨٧ هـ أجريت بعض الاصلاحات على الروضة الشريفة.

وفي سنة ١٢٩٣ هـ قام فرهاد ميرزا ببناء الصحن وتجديد عمارته بعدما اشترى عددا من البيوت المجاورة^(٧٥)، بالإضافة الى بناء سراديب لدفن الموتى وتذهيب المنائر وتشيد سور الصحن كما هو شاخص الان.

وفي سنة ١٣٠١ هـ اهديت ساعة كبيرة وموجودة في باب القبلة. وفي سنة ١٣١٤ هـ تم نصب احد أبواب الفضة.

وفي سنة ١٣٢٠ هـ زين الامير تومان الرواق الجنوبي بالزجاج، وفي سنة ١٣٢١ هـ زين الرواق الشرقي، وفي سنة ١٣٢٤ هـ وضع الضريح الفضي، وفي سنة ١٣٥٩ هـ تم ترميم هذا الضريح، وفي سنة ١٣٦٣ هـ تم اصلاح الصندوقين الخشبيين، وفي سنة ١٣٧٠ هـ تم تبليط الروضة بالرخام الجميل، وفي سنة ١٣٨٣ هـ وضع الباب الجنوبي للروضة، وفي سنة ١٣٨٤ هـ تم وضع الباب الشرقي.^(٧٦)

(٧٠) آل ياسين، تاريخ المشهد، ص ٨٥.

(٧١) الزنجاني، إبراهيم، جولة في الأماكن المقدسة، ص ١١٢.

(٧٢) مجلة شناسيل، الروضة الكاظمية، لسنة ٢٠٠٤ ص ١٣٨.

(٧٣) الموسوي، المصدر السابق، ص ٥٧.

(٧٤) الزنجاني، جولة في الاماكن المقدسة، ص ١١٣.

(٧٥) الجلال، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٧٦) الحائري، حياة أولي النهي، ص ٢٤٢.

وفي سنة ١٣٨٨ هـ تم اكساء الصحن الشرقي بالمرمر وتنظيم شبكة الكهرباء^(٧٧)، وفي سنة ١٤١٩ هـ تم القيام بعدة أعمال صيانة من قبل وزارة الاوقاف حيث قامت بصيانة الطارمة الخلفية وإكساء السور الخارجي بالكاشان الكربلائي وإكساء العتبات والمآذن بالذهب الخالص واقامة دار ضيافة داخل الصحن الشريف ودار استراحة للنساء. وفي سنة ١٤٢١ هـ قسم الحرم الشريف قسمين وهما القسم الشرقي الخاص بالرجال والقسم الغربي الخاص بالنساء وفي سنة ١٤٢٢ هـ تم اكمال أعمال الصيانة في جميع انحاء المشهد الشريف وبشكل خاص تذهيب القبتين^(٧٨)،

وفي عام ١٤٢٥ هـ تم صيانة الحرم الشريف وترميمه وتزيينه وتوسيعه من الجهة الشرقية^(٧٩).

شهرة المشهد وأهميته.

ترجع شهرة المشهد وأهميته الى الامامين موسى بن جعفر ومحمد بن علي عليه السلام اللذين ينتهي نسبهما الى الامام علي عليه السلام. ونظرا لما يمتلكه الإمامان من صفات جعلتهما يحتلان مكانة متميزة في نفوس المسلمين فانهما امامان كبيران القدر عظيم الشان كثيرا التهجد جادان في الاجتهاد مشهوران في العبادة مواظبان على الطاعة مشهوران بالكرامات يبيتان الليل ساجدين وقائمين ويقطعان النهار صائمين. وعلى هذا الاساس أصبح المشهد الكاظمي واحدا من أفضل مناطق الجذب السياحي الديني في مدينة بغداد بالإضافة إلى أن المشهد يعد المحور الثالث من الاماكن المقدسة في العراق بعد النجف وكربلاء. فما زال الزوار يترددون على هذا المشهد من اجل الدعاء والبركة وقضاء الحوائج ولازال الواحد منهم يردد الكلمة القدسية باقاضي الحوائج. بالإضافة الى الأهمية الاثرية للمشهد الكاظمي فهو يضم في جنباته العديد من الاثار التي تعد متميزة وفريدة من نوعها مثل الساعة الاثرية التاريخية الموجودة في المشهد. اضافة الى ان المشهد يعد واحدا من افضل الابنية عمرانيا وافضل ما في العمارة الهندسية ان الضلع الشرقي للصحن مؤقت توقيتا محسوبا مع صلاة الظهر فلا تختلف فيه استقامة الشمس وسط النهار ابدا في الفصول والمواسم جميعها.

وكذلك تأتي أهمية هذا المشهد كونه مزارا وملقى للزوار وطلبة العلم فضلا عن العديد من العلماء والصالحين الذي عقدوا فيه حلقات الوعظ والعلم، حيث كانت توجد فيه مدرسة دينية تلقى فيها المحاضرات وتدرس فيها العلوم الدينية المختلفة بالإضافة الى احتوائه مكتبة تراثية معروفة وهي مكتبة الجوادين التي تضم في كنفاتها العديد من المخطوطات والكتب والمراجع والتراجم المختلفة. ونظرا لتلك الامور المذكورة سلفا فقد اصبح المشهد الكاظمي مركز جذب سياحي ديني مهم في بغداد وهذا مانراه جليا في عدد الزوار كل يوم وعلى وجه الخصوص في المناسبات الدينية حيث يتوافد الالوف المألفة من الناس الى هذا المشهد الشريف.

المبحث الثاني:

١- مشهد الشريف الرضي. مقام محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي.

يقع هذا المقام في مدينة الكاظمية قرب جده الكاظم عليه السلام جنب الصحن الكاظمي خلف مرقد الشريف المرتضى في شارع الشريف الرضي^(٨٠).

(٧٧) المصدر نفسه ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ..

(٧٨) حامد ، توظيف الموروثات الحضارية والثقافية والدينية العباسية في مركز مدينة بغداد ودورها في التنمية السياحية ، ص ٥٨

(٧٩) مقابلة مع السيد زهير جعفر خادام الإمامين في ٧ / ٨ / ٢٠٠٤

(٨٠) مقابلة مع الدكتور إحسان محمد الشهرستاني القائم بأعمال التوسيع في المرقد في ٦ / ٩ / ٢٠٠٤.

والسيد هو محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم الأصغر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام. ويكنى بابي الحسن، ويلقب بالشريف الرضي وذي الحسين ونقيب النقباء و الشريف الاجل و ذي المنقبتين واشعر قریش. ^(٨١)

ولد الشريف الرضي في دار أبيه بمحلة باب المحول في الجانب الغربي من بغداد في الكرخ في سنة ٣٥٩ هـ، عاش الشريف الرضي في ظل عائلة علمية معروفة فقد كان أبوه ابو احمد الحسين بن موسى جليل القدر عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بني بويه فقد كان متولياً لنقابة النقباء وامارة الحاج وديوان المظالم، واخوه الشريف المرتضى اوجد اهل زمانه فضلاً وعلماً وكلاماً وشعراً وخطابة. ^(٨٢)

نشا الشريف الرضي نشأة علمية جيدة كان لها دور كبير في اظهار امكانياته وتطوير مواهبه، حيث درس على يد افضل أساتذة عصره أمثال الشيخ المفيد، وابن نباتة وغيرهم من الافاضل لقد كان الشريف الرضي معروفاً بفضائل متعددة لم تقتصر على جانب من جوانب المعرفة، فقد كان معروفاً بأنه احد افضل علماء عصره، ونقيب الطالبين نيابة عن ابيه وكذلك في اماره الحاج وديوان المظالم ^(٨٣).

بالإضافة إلى كونه أديباً ومفسراً وشاعراً خلف مؤلفات ضخمة في التفسير والشعر والأدب توفي الشريف الرضي في شهر محرم سنة ٤٠٦ هـ ودفن في داره ثم نقل إلى مشهد الحسين عليه السلام ودفن عند أبيه وجده بجانب قبر إبراهيم المجاب. ^(٨٤)

إما مخطط المقام فيبدأ بباب خشب صغير الحجم جميل الشكل يتصل بممر صغير يتصل بقاعة الصلاة، حيث تكون القاعة سداسية الشكل، وتكون غرفة المرقد على يمين الداخل من الباب الرئيس في غرفة دائرية الشكل مضلعة الأركان والقبر يتوسط الغرفة وفوقه صندوق خشبي وتعلو الغرفة قبة جميلة الشكل مصنوعة من الكاشاني الأزرق، وبجانب غرفة المرقد توجد غرفة صغيرة الحجم خاصة بالضيوف تليها من جهة اليمين أماكن خاصة بالوضوء وعلى يسار المقام يوجد محراب الصلاة. ^(٨٥)

إما أعمال الصيانة والترميم، فان مقام الشريف الرضي لم يكن معروفاً الا في فترة زمنية غير بعيدة ولهذا فان اعمال الصيانة والترميم ابتدأت في عام ١٩٤٤ م حيث كان المقام في منتصف الشارع المسمى الان بشارع الشريف الرضي وجدد البناء من قبل السيد فاضل عبد الحميد. وفي سنة ١٩٨١ م تم ترميم السور الخارجي للمقام وتم وضع ابواب من الخشب الصاج من قبل الحاج حسين الكاظمي وحسين السامرائي. وفي سنة ١٩٨٢ م تم وضع الممر على الجدران الداخلية وكذلك تم تجديد الصندوق فوق القبر الشريف. وفي سنة ١٩٨٥ م تم تجديد السطح الخاص بالمرقد ^(٨٦).

وفي سنة ١٩٩٢ م تم القيام ببعض اعمال الصيانة والترميم في المقام الشريف، وفي سنة ١٩٩٧ م تم القيام ببعض اعمال الصيانة مثل صبغ المقام الشريف ^(٨٧)، وفي سنة ٢٠٠٢ م تم ترميم سطح المقام الشريف.

إما شهرة المقام وأهميته فهي مستوحاة من صاحب المقام الشريف الذي يرجع نسبه الى الامام الكاظم، بالإضافة الى انه واحداً من أفضل علماء عصره واعبدهم واتقاهم حيث كان معروفاً بانه لم

(٨١) عبده، نهج البلاغة، ج ١، ص ٧

(٨٢) ابن عتبة، عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب، ص ١٨٨.

(٨٣) الحكيم، تاريخ العلماء عبر العصور المختلفة، ص ٣٧٩.

(٨٤) الكاظمي، نهج البلاغة بحث منشور في مجلة الزهراء الثقافية العدد ٨، السنة الأولى، في تاريخ ٢٢ شباط ٢٠٠٤، ص ٣٠

(٨٥) الخورنساوي، روضات الجنات، ص ٣٤.

زيارة ميدانية في ٢٣ / ٩ / ٢٠٠٤.

(٨٦) زيارة ميدانية في ٢٣ / ٩ / ٢٠٠٤.

(٨٧) مقابلة مع السيد مهدي خضير عباس إمام وخطيب مقام الشريف الرضي في ٢٣ / ٩ / ٢٠٠٤

ياخذ براحتى من أبيه وأقاربه ، بالإضافة إلى كونه درس على يد أفضل العلماء وهم شيخ الطائفة والشيخ المفيد وابن نباتة ، وعرف عن الشريف الرضي بانه اديب ومفسر ولغوي وكاتب بارع خلف لمؤلفات كثيرة النفع واسعة الافاق في التفسير والشعر والادب ، وأشهر كتب الشريف الرضي هو نهج البلاغة الذي إلفه الإمام علي عليه السلام وجمعه الشريف الرضي والذي قرن اسمه باسم الإمام علي عليه السلام^(٨٧) .
إما في مجال الشعر فقد كان يعرف بأشعر قریش لانه كان يجمع بين الاكثار والاجادة وخلف ديوان شعر كبير^(٨٨) ، ومن هنا أصبح مقام الشريف الرضي احد المقامات المعروفة والمشهورة في مدينة بغداد التي تعج بالعديد من الزائرين يوميا وعلى وجه الخصوص في المناسبات الدينية ، ومن المعروف أن تكون زيارته بعد زيارة الامامين الكاظمين وعلى هذا الاساس اصبح مقام الشريف الرضي مركز جذب سياحي ديني يأمله العديد من الزوار طلبا للدعاء والبركة .

٢- مشهد الشريف المرتضى . مقام علي بن الحسين المعروف بالشريف المرتضى .

يقع مقام الشريف في مدينة الكاظمية قرب مشهد جده الامام الكاظم جنب الصحن الكاظمي في الجنوب الشرقي ، والسيد هو علي بن الحسين بن موسى بن ابراهيم بن محمد بن موسى بن الاصغر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام^(٨٩) . يكنى بابي القاسم ، ويلقب بالشريف المرتضى وعلم الهدى وذو المجدين ونقيب النقباء .
ولد الشريف المرتضى في دار أبيه بمحلة باب الحول في الجانب الغربي من بغداد في الكرخ في شهر رجب سنة ٣٥٥ هـ^(٩٠) عاش في ظل عائلة علمية معروفة ، حيث كان أبوه الشريف الحسين بن موسى نقيب الطالبين وعالمهم ويحتل مكانة متميزة في الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه .
نشأ الشريف المرتضى نشأة علمية ممتازة كان لها الأثر البالغ في توجيهه وتربيته وصقل مواهبه وإنماء إمكانياته^(٩١) حيث درس على يد أفضل أساتذة زمانه وهم ابن نباتة السعدي والشيخ المفيد والحسين بن علي بن بابويه .

وكان الشريف المرتضى غير مقتصر على جانب من جوانب العلم فقد كان معروفا بأنه من أكابر فقهاء عصره وكذلك كان أديبا خلف ثروة أدبية كبيرة بالإضافة إلى كونه شاعرا خلف ديوانا ضخما يزيد على عشرين ألف بيت من الشعر بالإضافة الى كونه رجل حرب وسياسة فضلا عن كونه رجل علم وزعيم قوم^(٩٢) ، كذلك تولى ديوان المظالم ونقابة الطالبين وامارة الحج^(٩٣) .

توفي الشريف المرتضى في شهر ربيع الاول بعد ان بلغ الثمانين سنة ٤٣٦ هـ فتولى تغسيله تلميذه احمد النجاشي ودفن في مرقده المعروف حاليا ومن ثم نقل الى كربلاء بجانب جده الاكبر ابراهيم المجاب^(٩٤) .
إما مخطط المقام فهو مستطيل الشكل يبدأ بباب صغير للدخول يتصل هذا الباب مباشرة بالقاعة المخصصة للصلاة ، ويقابل الداخل من الباب الرئيس للقاعة غرفة المقام الذي يكون على شكل غرفة مربعة يتوسطها المرقد الشريف الذي يعلوه شبك نحاسي جميل وتعلو غرفة المرقد قبة جميلة الشكل مرصعة

(٨٧) . مقابلة مع السيد ابراهيم العوادي متولي مقام الشريف الرضي في ٢٣ / ٩ / ٢٠٠٤ .

(٨٩) الحسيني ، مصادر نهج البلاغة واسانيده ، ص ٢٣٨

(٩٠) مبارك ، عبقرية الشريف الرضي ، ص ٢٢

(٩١) ابن عتبة ، عمدة الطالب في انساب ابي طالب ، ص ١٨٩ .

(٩٢) الصفار ، ديوان الشريف المرتضى ، ص ٤٤ .

(٩٣) حرز الدين محمد ، مرآة المعارف ، ج ٢ ص ٣٠٤ . الحسيني ، حياة الشريف المرتضى ، ص ١٨ .

(٩٤) الحسيني ، حياة الشريف المرتضى ، ص ١٨ .

بالكاشان الأزرق، وعلى يسار غرفة المرقد توجد غرفة أخرى وهي مكتبة تضم المئات من الكتب النفيسة^(٩٥) والاثنية إلا أن يد الظلم طالت هذه المكتبة في ظل النظام السابق حيث كانت معروفة بأنها تضم الآلاف من الكتب الثمينة إلا أنه لم يبق من هذه الأعداد إلا المئات، بالإضافة إلى وجود أماكن خاصة بالوضوء على يمين الداخل. أما أعمال الصيانة والترميم، ففي سنة ١٩٥٥م تم ترميم المقام الشريف بعد أن كان مؤلفاً من غرفة صغيرة المساحة من قبل السيد هاشم البياع وعبد الوهاب المشاط،^(٩٦) وفي عام ١٩٦٦م تم توسيع المقام من قبل بعض المؤمنين وفي سنة ١٩٦٨م تم تعمير قبة المقام الشريف، وفي سنة ١٩٧٦م جرت بعض أعمال صيانة، وفي سنة ١٩٨٦م تم توسيع المقام من قبل وزارة الأوقاف، وفي سنة ١٩٩٥م جرت بعض أعمال الترميم التي شملت سقف المرقد وأرضيته وكذلك السرداب الموجود بداخله،^(٩٧) وفي سنة ١٩٩٩م تم القيام ببعض أعمال الترميم، وفي سنة ٢٠٠٤م تم توسيع المقام بشكل عام حيث شمل التوسيع غرفة المرقد وحرم الصلاة وبنيت مكتبة جديدة في الطابق الثاني وشيد سور خارجي حول المرقد الشريف بالإضافة إلى قاعة صلاة خاصة بالنساء وهذه الأعمال مستمرة لحد الآن.^(٩٨)

أما شهرة المقام وأهميته فإن تلك الشهرة مستمدة من صاحب المقام الشريف الذي يرجع نسبه إلى الإمام الكاظم عليه السلام الذي يعد واحداً من أفضل علماء عصره وأعبدهم حيث كانت الزعامة تحت لوائه، بالإضافة إلى أنه تتلمذ على يد أفاضل العلماء وهم شيخ الطائفة الشيخ المفيد، وابن نباتة السعدي وغيرهم وكذلك عرف الشريف المرتضى بأنه أديب عظيم حيث ترك خلفه ثروة أدبية كبيرة وكانت مكتبته عامرة تحتوي ما يقارب الثمانين ألف كتاب من مختلف العلوم والمعارف وله مؤلفات تصل إلى ثمانين كتاباً، بالإضافة إلى كونه شاعراً معروفاً خلف ديواناً ضخماً يزيد على عشرين ألف بيت من الشعر.^(٩٩) وعلى هذا الأساس أصبح مقام الشريف المرتضى واحداً من المقامات المعروفة في بغداد والتي تجتذب الكثير من الزوار بعد زيارة الإمامين الكاظمين عليه السلام لذلك فهو مركز من مراكز الجذب السياحي الديني في مدينة بغداد التي تستقطب الآلاف من الزوار يومياً وخصوصاً في المناسبات الدينية.^(١٠٠)

٣- مشهد أبي يوسف الأنصاري: جامع الشيخ أبو يوسف الأنصاري ومرقد.

يقع جامع أبو يوسف الأنصاري ومرقد في الكاظمية بجوار الإمامين الكاظمين عليه السلام. على يسار الداخل من باب المراد.

وأبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الله بن عوف.^(١٠١) ويلقب بالأنصاري وقاضي القضاة ويكنى بابي يوسف. ولد أبو يوسف في الكوفة سنة ١١٣هـ وعاش في ظل عائلة فقيرة إلا أنه اتجه نحو العلم وتتلذذ على يد أكابر الفقهاء من أمثال ابن أبي ليلى وأبي إسحاق الشيباني وأبي حنيفة النعمان، وأخذ يتدرج في العلم حتى أصبح واحداً من أفضل طلبة العلم،^(١٠٢) ومن ثم انتقل إلى بغداد

(٩٥) الصفار، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٩٦) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ص ٢٢٦.

(٩٧) جواد، ديوان الشريف المرتضى، ص ٢٨.

(٩٨) زيارة ميدانية في ٩/٧/٢٠٠٤.

ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ص ٢٢٦.

(٩٩) الحسيني، المصدر السابق، ص ٤.

حرز الدين، مرآة المعارف، ص ٣٠٧.

(١٠٠) مقابلة مع السيد صاحب محمد حسن خادم مقام الشريف المرتضى في تاريخ ٤/١٠/٢٠٠٤.

مقابلة مع الشيخ مالك المالكي أمام وخطيب مقام لشريف المرتضى في ٨/٩/٢٠٠٤.

(١٠١) زيارة ميدانية في ٥/١٠/٢٠٠٤.

(١٠٢) حرز الدين، مرآة المعارف، ص ٣٠٧.

الشكعة، الأئمة الأربعة، ص ٢٠٥. الدولابي، الكنى والأسماء، ص ١٦٠.

واصبح فيها قاضي القضاة لثلاثة خلفاء من بني العباس وهم المهدي والهادي والرشيد وكان ابو يوسف احد المقربين الى الرشيد، والشيخ الأنصاري هو اول من غير لباس العلماء وجعله بهذه الهيئة. وكان الأنصاري شديد الاقبال على العلم وافر الذكاء عظيم العظة.

توفي الأنصاري في ربيع الاول سنة ١٨٢ هـ ودفن بمرقدته المعروف حالياً بجوار الإمامين الكاظمين وصلى عليه ابنه يوسف ودفنه.

اما مخطط الجامع فانه يتبدأ بباب خشب كبير الحجم جميل الشكل يتصل هذا الباب بممر صغير يؤدي الى القاعة المخصصة للصلاة وهي مربعة الشكل، وعلى يمين الداخل من

الباب الرئيس توجد دار ضيافة للزوار واخرى للإدارة، بالإضافة الى وجود مصلى خاص بالنساء وعلى يسار الداخل بجانب المحراب يوجد مرقد الشيخ ابي يوسف الأنصاري والمرقد عبارة عن غرفة مربعة الشكل كبيرة في منتصفها المرقد الشريف وفوق المرقد صندوق خشبي جميل الشكل مطرز بالآيات القرآنية وتعلو المرقد قبة جميلة الشكل ولغرفة المرقد بابان احدهما يطل على المحراب والاخر يطل على الداخل من الباب الرئيس، وتعلو الجامع قبة كبيرة الحجم جميلة مرتكزة على دعائم كبيرة على طول الجامع، وسقف الجامع مزخرف على الطريقة المغربية. (١٠٣)

اما اعمال الصيانة والترميم، ففي سنة ١٩٣٩ م أهدى الملك غازي باباً من الخشب الى مرقد الشيخ الأنصاري ووضع في الجهة الشرقية للصحن الكاظمي. وفي سنة ١٩٦٨ م شيدت الطارمة والملحق معها من قبل وزارة الاوقاف في زمن السيد احمد ابراهيم إمام وخطيب الجامع. وفي سنة ١٩٩٦ م قامت الدائرة الهندسية بمحكمة كبيرة لصيانة وترميم جامع ومرقد الشيخ الأنصاري حيث شملت وتجديد الارضية ووضع الممر على الجدران الداخلية ونقش الزخارف الجميلة على الجدران الداخلية والسقوف وكذلك اضافة بعض (الثريات) الجميلة اليه واستمرت هذه الحملة مدة سنتين وكذلك تعمير الدار الواقعة بجانب المرقد وهي خاصة بمتولي مرقد الشيخ الأنصاري. وفي سنة ٢٠٠٣ م تم اغلاق الباب المؤدي الى الصحن الكاظمي. (١٠٤) اما شهرة الجامع واهميته فهي ترجع الى شهرة الشيخ ابي يوسف الأنصاري الذي كان يعد احد علماء عصره وتلمذ على يد افضل العلماء وهم ابو اسحاق الشيباني وسليمان التميمي وابو حنيفة النعمان وغيرهم من العلماء، بالإضافة الى كون المرقد ملاصقاً للمشهد الكاظمي مما جعل ذا اهمية خاصة في نفوس المسلمين تكون زيارة هذا المرقد بعد زيارة الامامين الكاظمين (عليه السلام) وكذلك تأتي اهميته من حيث كونه احد المراكز التاريخية والأثرية حيث يرجع وجوده لأكثر من ١٢٠٠ عام. (١٠٥)

٤- جامع الجوادين.

يقع جامع الجوادين في الجهة الشمالية من حرم الإمامين الكاظمين (عليه السلام) داخل الصحن الشريف، وتاريخ هذا الجامع يعود إلى سنة ٩١٤ هـ حينما فتح الشاه إسماعيل الصفوي بغداد وزار مرقد الإمامين موسى والجواد وأمر بقلع عمارة المشهد من الأساس وتجديده وتجديداً واسعاً وتشيد مسجد كبير في الجهة الشمالية للمرقد. (١٠٦) وسمي هذا الجامع بداية بالصفوي نسبة إلى الصفويين وبعد ذلك غير اسمه إلى جامع الجوادين لكونه مجاوراً لمرقد الجوادين (عليه السلام).

(١٠٣) مقابلة مع الشيخ مالك المالكي أمام وخطيب مقام لشريف المرتضى في ٨/٩/٢٠٠٤.

(١٠٤) الدولابي، الكنى والأسماء، ص ١٦٠.

(١٠٥) الشكعة، الأئمة الأربعة، ص ٢٠٥.

(١٠٦) زيارة ميدانية ٢٠٠٧/٧/٢.

إما مخطط الجامع، فهو على شكل مستطيل كبير الحجم له أربعة ابواب اثنان منهما يؤديان الى الصحن الشرقي وهما باب الجمعة وباب النساء والثالث وهو باب الجماعة يؤدي الى الصحن الغربي، والباب الرابع يؤدي الى رواق الحرم الشرقي، وتبلغ مساحة الجامع حوالي ١٨٠٠م^٢ يظللها جميعا سقف قائم على ٦٦ عمودا ضخما من الآجر وتوجد في منتصفه قبة خضراء دائرية الشكل كبيرة تكون بمحاذاة القبتين الذهبيتين بالإضافة إلى وجود قباب صغيرة الحجم على طول سقف الجامع تبلغ ٤٢ قبة ويكون المحراب في منتصف الجامع على يسار الداخل وكذلك توجد الاواوين على طول الجدار الذي يفصل الجامع عن المرقد وواحد من هذه الاواوين جعل مكتبة تضم العديد من الكتب.^(١٠٧)

إما أعمال الصيانة والترميم، فلكون هذا الجامع مجاورا لمرقد الكاظمين عليه السلام فإنه نال من أعمال الصيانة والترميم ما ناله المرقدان فقد قامت فيه أعمال صيانة وترميم في سنة ٩١٤ هـ عندما دخل الشاه اسماعيل الصفوي الى بغداد وامر بتشيد جامع في الجهة الشمالية للمرقد. وفي سنة ٩٤١ هـ عندما دخل السلطان سليمان القانوني الى بغداد قام ببعض أعمال الترميم فيه^(١٠٨). وفي سنة ٩٧٨ هـ تم بناء اول منارة من المنائر الاربع وهي منارة الجامع الواقعة في قبلته الى الشرق بامر من السلطان العثماني سليم الثاني.

وفي سنة ١٢٠٧ هـ تمت بعض أعمال الصيانة فيه في عهد محمد القاجاري وفي سنة ١٢٢٩ هـ قام الشاه فتح علي بتذهيب المنائر الاربع.^(١٠٩) وفي سنة ١٢٩٨ تمت بعض أعمال الترميم فيه من قبل فرهاد الميرزا وفي سنة ١٣٦٩ هـ جرت فيه بعض أعمال الصيانة والترميم بعد ان أهمل فترة من الزمن. وفي اوائل السبعينيات من القرن الماضي تمت فيه أعمال ترميم وصيانة شملت الجامع بشكل كلي.^(١١٠)

أما أهمية الجامع وشهرته فهو يعد واحدا من أوسع الجوامع في الكاظمية وأشهرها على الإطلاق وكذلك اجملاها فنا وهندسة وعمرانا وله أهمية كبيرة في نفوس المسلمين نظرا لسعته ورحابته من جهة وكونه بني مع الروضة المقدسة من جهة أخرى بالإضافة الى انه يعد واحدا من اروع الجوامع التاريخية والاثرية في مدينة بغداد حيث يعود تاريخ بنائه الى اكثر من خمسمائة عام ومما ادى الى اعطاء هذا الجامع مكانة منفردة جواره للروضة المقدسة لهذا فإن الزوار يتهافون عليه، بالإضافة الى دوره البارز في نشر الوعي الديني من خلال اعطاء الدروس الدينية والحلقات الدراسية والوعظ. وعلى هذا الاساس يعد جامع الجوادين ذا اثر كبير في حركة السياحة الدينية مما جعل الزوار يأتون اليه بعد زيارتهم الامامين الكاظمين عليه السلام.

٥- مكتبة الجوادين:

تقع هذه المكتبة في الجانب الجنوبي الشرقي من الصحن الكاظمي الشريف، تأسست هذه المكتبة سنة ١٩٤١م من قبل العلامة السيد محمد هبة الدين بعد ان كانت سابقا مكانا خاصا بالعبادة من قبل الطائفة البكتاشية الذي بناه فرهاد خان أيام العهد العثماني عام ١٨٨٠م.^(١١١) والسيد هو محمد علي هبة الدين السيد حسين العابد الذي يرجع نسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام. ويلقب بالحسيني نسبة إليه وكذلك يلقب بالشهرستاني نسبة إلى الأسرة الشهرستانية المعروفة في كربلاء.

(١٠٧) مقابلة مع السيد مثنى شوكت الاعرجي خادم جامع ومرقد الامام ابي يوسف في ٢٧/١٠/٢٠٠٦.

(١٠٨) مقابلة مع الشيخ عبد العزيز اسماعيل امام وخطيب جامع ابي يوسف الانتصاري في ٩/٨/٢٠٠٩.

(١٠٩) منشورات جمعية التوحيد، الجماعة والجامع، ص ٥٥.

(١١٠) زيارة ميدانية في ١٢/١٢/٢٠٠٤.

(١١١) الموسوي، قيس من الكاظمين، ص ١٢١.

ولد السيد محمد في مدينة سامراء سنة ١٣٠١ هـ من أسرة عريقة معروفة بالفضل والتقوى والصلاح، ولقد نشأ وترعرع في ظل هذه الأسرة واخذ يتدرج في العلم حتى وصل الى مرحلة الاجتهاد، وله مؤلفات كثيرة يبلغ عددها حوالي ٨١ مؤلفا وشغل عدة مناصب منها وزير المعارف سنة ١٩٢١ م^(١١٢) وكذلك قاضي القضاة. إما مخطط المكتبة فهي تشغل مساحة ٤٩ م وتكون مستطيلة الشكل مكونة من طابقين، حيث توجد في الطابق الأول على طول الجدران رفوف طويلة مملوءة بالكتب ومقسمة على شكل مجاميع الأولى خاصة بالقرآن الكريم وتفسيره وعلومه، والثانية تشتمل على كتب الفقه والأصول والعقائد والحكمة والمنطق والثالثة كذلك والرابعة خاصة بحياة الأئمة والتاريخ والخامسة خاصة بعلم الرجال وما يتعلق به، والسادسة خاصة بالأدب والشعر والسابعة خاصة بكتب القانون والسياسة.

وتقع في وسطها قاعة خاصة بالمطالعة تعلوها قبة دائرية كبيرة الحجم جميلة الشكل نقشت عليها نقوش إسلامية بديدة وكتبت عليها سورة الدهر والطابق الثاني مشابه للطابق الأول من حيث الرفوف الخشبية. وفي وسط المكتبة قبر العلامة محمد علي هبة الدين الذي وافاه الأجل في عام ١٩٦٧ م ودفن فيها.^(١١٣) أهمية المكتبة وشهرتها، مستوحاة من شهرة مؤسسها العلامة محمد علي هبة الدين صاحب المؤلفات الكثيرة، ولكونها واحدة من أقدم المكتبات الموجودة في بغداد وأكبرها حيث تضم أكثر من عشرين ألف كتاب في مختلف العلوم بالإضافة إلى وجود هذه المكتبة في الجانب الشرقي من الصحن الشريف مما جعل لها مكانة متميزة في نفوس المسلمين وطلبة العلم بالإضافة إلى أن هذه المكتبة كانت ولا تزال تقوم بنشر الوعي الديني من خلال إلقاء المحاضرات والدروس الدينية وكذلك كونها محطة التقاء العلماء والمفكرين والشعراء وغيرهم.^(١١٤)

الخلاصة:

تعد السياحة الدينية من أقدم أنماط السياحة في العالم حيث كان زوار العتبات المقدسة منذ أمد بعيد يزورون أماكن العبادة كزيارة بيت الله الحرام ومرقد الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى الرغم من عدم وجود وسائل نقل مريحة من تلك الأماكن واليهما. وتمتاز السياحة الدينية عن غيرها من أنماط السياحة بأنها سياحة مستديمة أي مستمرة على طول أيام السنة بالرغم من أن الذروة السياحية تبلغ أمدتها في أيام المناسبات الدينية إلا أن السياحة الدينية تعد مستمرة بالمقارنة مع غيرها من أنماط السياحة من خلال الأعداد الكبيرة للزوار الذين يصلون إلى المشهد الكاظمي يوميا. وتعد إيرادات السياحة الدينية مردودات اقتصادية مهمة لأي بلد من البلدان ويمكن الاستفادة منها من خلال آثار السياحة الدينية المباشرة وغير المباشرة. وتعد مدينة الكاظمية إحدى المدن المعروفة والمشهورة على نطاق محلي وإقليمي وعالمي وهي تمثل المدينة الدينية الثالثة من حيث الأهمية بعد النجف وكربلاء. وتمتاز مدينة الكاظمية بميزات عديدة منها التاريخية حيث تشير بعض المصادر بأنها كانت مسكونة من قبل الكيشيين في أواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ومنها الطبيعية من سطح ومناخ وتربة وموارد مائية مما جعل الكاظمية في مقدمة المدن الزراعية التي تنتشر فيها البساتين، ومنها أيضا التجارية حيث تعد هذه المدينة مركزا من مراكز التجارية المعروفة في العاصمة بغداد وتنتشر فيها مختلف الأسواق لتلبية احتياجات الزوار، وكل تلك الميزات جعل من مدينة الكاظمية من المدن المميزة. يعد المشهد الكاظمي من أشهر مراكز الجذب السياحية الدينية في مدينة بغداد بالرغم من أن هذه المدينة يوجد فيها عدد كبير من المراقد والمقامات إلا أنه يعد أشهرها لأنه يحوي قبرين

(١١٢) منشورات جمعية التوحيد، الجماعة والجامع، ص ٥٥.

(١١٣) مقابلة مع الشيخ جواد الخالصي امام وخطيب جامع الجوادين في ٧/٧/٢٠٠٥.

(١١٤) الكاظمي، مكتبة الجوادين العامة، ص ٩.

لأئمة المسلمين هما موسى بن جعفر ومحمد بن علي عليه السلام. وكذلك تتميز مدينة الكاظمية بوجود مراكز جذب سياحية دينية بالإضافة إلى المشهد الكاظمي كمرقد القاضي أبي يوسف الأنصاري ومقامي الشريف الرضي والشريف المرتضى وعادة ما تتم زيارتها بعد زيارة المشهد الكاظمي.

تصل إلى المشهد الكاظمي نسبة كبيرة جدا من الزوار قد تصل هذه النسبة إلى الآلاف المؤلفة يوميا فضلا عن أيام المناسبات الدينية وهو بذلك يعد من أكثر المراكز التي يصلها زوار بهذا العدد في مدينة بغداد سواء أكانوا من داخل العراق أم من خارجه.

المصادر والمراجع:

القران الكريم

- ١- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، ج ١٠، ١٩٣٢
- ٢- ابن الجوزي، أبو المظفر بن يوسف، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دار التعارف، حيدر آباد، ١٩٥١
- ٣- ابن عنبه، جمال الدين احمد بن علي، عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦١
- ٤- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الله، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة المعارف العثمانية، ط ١، ج ٧، ١٩٥٩
- ٥- آل ياسين، محمد حسن، تاريخ المشهد الكاظمي، مطبعة المعارف، ط ١، بغداد، ١٩٦٧
- ٦- آل ياسين، محمد حسن، شعراء كاظميون، مطبعة المعارف، ج ١، بغداد ١٩٨٠
- ٧- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء بني الزمان، حققه إحسان عباس، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧
- ٨- الاعظمي، هاشم، تاريخ جامع الإمام الأعظم ومساجد الاعظمية، مطبعة العاني، ج ١، بغداد، ١٩٦٤
- ٩- الاعظمي، هاشم، دليل جامع الإمام أبي حنيفة ومدرسته العلمية، مطبعة خضير الاعظمي، بغداد، ١٩٧٠
- ١٠- الاعظمي، هاشم تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدرسته العلمية مطبعة الأزهر، ١٩٧١
- ١١- أبو عياش، عبد الإله أزمة المدينة العربية، منشورات وكالة المطبوعات، الكويت، ط ٢، ١٩٨٥
- ١٢- الاصطباناني، محمد حسن، نور العين في زيارة الحسين مؤسسة مولود الكعبة، ط ١، ٢٠٠٤
- ١٣- اشرف، سيد علي، الإمام موسى بن جعفر، منشورات المكتبة الحيدرية، ط ١، ٢٠٠٤
- ١٤- احمد، غريب سيد، المعطي، عبد الباسط، حلبي، عبد الرزاق، المدخل الى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، ط ١، ١٩٩٦
- ١٥- الأمين، عبد الوهاب، الباشا، زكريا عبد الحميد، مبادئ الاقتصاد، مطبعة، جامعة الكويت، ط ٢، ١٩٨٧
- ١٦- أبو رمان، اسعد حماد، الديوه جي، أبو سعيد، التسويق السياحي والفندقي، مطبعة الحامد، ط ١، ٢٠٠٠
- ١٧- أبو رحمة، مروان بلبل، انس، الحناوي، ريم، الحسن، هديل، إدارة المنشآت السياحية، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠٠١

- ١٨- احمد، محمد شهاب، علاء الدين، مؤمل، المتطلبات الفضائية لتخطيط المدينة مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٩٠
- ١٩- أبوزيد، احمد، حسين، علي، حسن، التنمية نظرياً وتطبيقاً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧
- ٢٠- بشير، فرانسيس، بغداد أثارها وتاريخها، مطبعة الرابطة، ط ١، بغداد، ١٩٥٩
- ٢١- البنا، علي، صادق، دولت، امبابي، نبيل سيد، أسس الجغرافية العامة، مطبعة الانجلو المصرية، ط ٢، ١٩٧٨
- ٢٢- البكري، علاء الدين، السياحة في العراق، التخطيط العلمي الجديد، مطبعة ثنيان، بغداد، ١٩٧٢
- ٢٣- البياتي، مظفر فاضل وآخرون الإحصاء السياحي، عدد مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٠٠
- ٢٤- الجنابي، طارق جواد، العمارات الدينية، موسوعة حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، ج ١٠، ١٩٨٥
- ٢٥- الجلال، محمد حسين، مزارات أهل البيت وتاريخها، مؤسسة الاعلمى لمنشورات، ط ١، بيروت، ١٩٨٥
- ٢٦- جواد، مصطفى، ديوان الشريف المرتضى مطبعة الدار، ط ١، ١٩٩٨
- ٢٧- الجوزي، عبد الرحمن بن علي، مناقب معروف الكرخي وأخباره، وتحقيق عبد الله الجبوري، دار الكتاب العربي، ط ١، بيروت، ١٩٨٥
- ٢٨- جواد، مصطفى، سوسة، احمد، دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥
- ٢٩- الجلال، احمد، التنمية السياحية المتواصلة، مطبعة عالم الكتب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٠
- ٣٠- الحسن، إحسان محمد، دراسات تحليلية في المجتمع المعاصر، مطبعة دار السلام، ط ١، ١٩٧٥
- ٣١- الحسن، إحسان محمد، طرق الإحصاء الاجتماعي، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، ١٩٨٢
- ٣٢- الحسن، إحسان محمد، الأسس العلمية لمناهج البحث الاجتماعي، بيروت، ١٩٨٢
- ٣٣- الحسن، إحسان محمد، المدخل إلى عالم الاجتماع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨
- ٣٤- حمدي، عبد العظيم، اقتصاديات السياحة، مدخل نظري وعلمي متكامل، مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٢
- ٣٥- حديد، احمد سعيد، جغرافية الطقس، مطبعة دار الكتب، بغداد، ١٩٧٩
- ٣٦- حديد، احمد سعيد الحسن، وآخرون، المناخ المحلي، مطبعة دار الكتب، الموصل، ١٩٨٢
- ٣٧- حلي، علي عبد الرزاق، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، مطبعة دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٩
- ٣٨- حافظ، نبيل عبد الفتاح، سليمان وعبد الرحمن سيد، علم النفس الاجتماعي، مطبعة زهراء الشرق، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٠
- ٣٩- الحسني، هاشم معروف، سيرة الأئمة الاثني عشر دار العلم، بيروت، ط ١، ج ٢، ١٩٧٨
- ٤٠- الحسني، عباس، مفاتيح الجنان، بغداد، ط ١، ١٩٦٠
- ٤١- الحائري، محمد رضا، حياة أولي النهى، مؤسسة الاعلمى للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٩٩٢

- ٤٢- الحكيمي، محمد رضا، تاريخ العلماء عبر العصور المختلفة، مؤسسة الاعلمى للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٩٨٣
- ٤٣- الحسيني، عبد الزهراء، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، مطبعة القضاء النجف الأشرف، ط١، ١٩٦٦
- ٤٤- الحسيني، احمد، حياة الشريف المرتضى، منشورات مكتبة الشريف المرتضى الكاظمية، بدون سنة
- ٤٥- الحسيني، عميد الدين، بحر الأنساب، تحقيق محمد الرفاعي، مطبعة مصر ١٩٣٦
- ٤٦- الحسيني، عبد الرزاق كمونه، مشاهد العترة الطاهرة واعيان الصحابة والتابعين، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٨
- ٤٧- الحسيني، علي، في رحاب الزيارة الجامعة، مطبعة دار الغدير، ط١، ٢٠٠٣
- ٤٨- حدة، حسن، المعالم الأثرية والسياحة للوطن العربي، دار دمشق للنشر والتوزيع، ج٣، دمشق، ١٩٧٥
- ٤٩- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان المجلد الأول، منشورات مكتب الأسد، طهران، ١٩٦٥.
- ٥٠- حرز الدين، محمد، مراقد المعارف، علق عليه وحقق محمد حسين حرز الدين، مطبعة الآداب، ج٢، النجف الأشرف، ١٩٧١
- ٥١- حمود، محمد جميل، الفوائد البهية في شرح عقائد الأمامية، دار الفقه للطباعة والنشر، ط١، ج٢، ٢٠٠٤
- ٥٢- الحوري، مثنى طه، الدباغ، إسماعيل محمد، اقتصاديات السياحة، ط١، بغداد، ١٩٨٩
- ٥٣- الحوري، مثنى طه الدباغ، إسماعيل محمد، مبادئ السفر والسياحة، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٠
- ٥٤- حسن، زهير عبد الله، القطاع السياحي في المغرب الواقع والآفاق، مطبعة العارف الجديدة المغرب، ١٩٩١
- ٥٥- الحميدي، أبو بكر، السياحة والفنادق، مطبعة نخال، ١٩٦٨
- ٥٦- حداد، مهنا، الأردن والسياحة ومشكلات وهموم على الساحة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٧
- ٥٧- الحناوي، ريم، مبادئ السياحة، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠١
- ٥٨- الخليلي، جعفر، موسوعة العتبات المقدسة، قسم الكاظمين، ج١ دار التعارف، ط١، بغداد ١٩٦٧
- ٥٩- الخورنساري، محمد باقر، روضات الجنات، ج٤ قم المقدسة، ١٩٣٢
- ٦٠- الخوارزمي، محمد بن محمود، جامع الإمام الأعظم، مطبعة دائرة المعارف الهندية، ج١، ١٩١٢
- ٦١- الخطيب البغدادي، أبو بكر احمد بن علي تاريخ، بغداد، مطبعة السعادة، ط١ ج١٣ بدون سنة.
- ٦٢- الخولي، سناء، مدخل إلى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعة، ط١ الإسكندرية، ١٩٧٨
- ٦٣- الخضير، محسن، التسويق السياحي، مدخل اقتصادي متكامل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩
- ٦٤- الخوري، الياس، السياحة في لبنان والعالم، بيروت، ط١، ١٩٨٥

- ٦٥- دخیل، علی محمد، الإمام الجواد، سلسلة كتب أئمتنا، ج ٩، ط ١، بدون سنة
- ٦٦- الدولابي، أبو بشير محمد بن احمد، الكنى والأسماء، مطبعة دائرة المعارف، ط ١
الهند، ج ٢، ١٩٠٢
- ٦٧- الدروبي، إبراهيم، الباز الأشهب في حياة الشيخ عبد القادر الكيلاني، مطبعة الرابطة، بغداد،
١٩٥٥
- ٦٨- دسوقي، كمال، دينامية الجماعة في الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي المطبعة الفنية
الحديثة، ط ١، ج ١، ١٩٦٩
- ٦٩- الدباس، نزيه، إدارة القرى السياحية، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٢

دراسة نقدية في تطور فكرة التجديد في النحو العربي عند شوقي ضيف

محمد باقر حسيني^(١)
احمد حنفي زاده^(٢)

المخلص

ان الدكتور شوقي ضيف من اكبر الناشطين الذين عالجوا قضية التجديد في النحو العربي اذ كثرت الدعوات من الادباء الكبار كطه حسين بضرورة تجديد النحو العربي و تسهيله لما هو عليه من القدم و العسرة. و قد خطا شوقي ضيف في هذا المجال خطوات واسعة تستحق التبريل و التبريل لكنه لم يستطيع ان يكون المجدد الناجح اذ بقيت محاولاته حبرا علي ورق و لم يكتب لها النجاح . و السبب الرئيسي في هذا الاخفاق ان صح التعبير يرجع لصراع القديم و الجديد في ثقافة شوقي ضيف و تفكيره فقد يبدو جليا من كتبه تخطيطه و حيرته في مدي قبول او رفض كلا من القديم و الجديد لتأسيس نحو عربي سهل و بسيط و تكريسه كنظام نحوي يلبي حاجة الانسان العربي المعاصر مع المحافظة علي صحة اللغة العربية و فصاحتها. الكلمات الدليلية: التجديد في النحو، شوقي ضيف، المدرسة الكوفية، ابن القرطبي

المقدمة

هكذا جرت العادة ان يتحمل اصحاب الفكر الجديد - خاصة في مجال الثقافة و الادب - المصاعب و المتاعب من اجل تفهيم افكارهم الرائدة او او تكريسها في ذلك المجال. فقد روي لنا تاريخ الثقافة البشرية او آدابها و حتي في بعض الاحيان تاريخ علومها نماذج كثيرة من هذه الصراعات بين المجددين و انصار الفكر القديم. و قد يجر هذا الصراع من بين الاشخاص الي كيان الشخص - مجددا كان او من انصار القديم - اذ يشعر بالحاجة الماسة للتغيير لكن لا يستطيع ان يقدر مدي رفضه او قبوله للجديد لتعارضه مع فكره القديم و ثقافته، او لانه يشعر بالخطر إزاء القديم و تقاليده. يمكن ان نشير الي محاولات شوقي ضيف التي كانت ترمي الي تجديد النحو كانت من هذا النوع اذ نري اشتباكه مع نفسه قبل ان يشتبك مع غيره في سبيل تفهيم آرائه و تطبيقه علي النحو العربي. هذا المقال يتطرق الي صراع شوقي مع نفسه في هذا السبيل و تصادم ميوله التجديدية مع ثقافته القديمة.

١ - قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة الفردوسي - مشهد - ايران
٢ - طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة الفردوسي مشهد - ايران

ان الدكتور شوقي ضيف كان من ابرز الكتاب المعاصرين علي الساحة الأدبية و اكثرهم نشاطا. و قد عالج في كتاباته الكثير من مواضيع اللغة و الأدب ، قد اشتهر اكثر ما اشتهر كناقد ادبي كان له دور بارز و فعال في النقد الأدبي المعاصر. لكن ذلك لم يمنع الدكتور شوقي ضيف من أن يخوض في دراسة النحو العربي لما كان عليه العرب آنذاك من انهماك في امر النهضة العلمية التي تتطلب الكثير من الاصلاحات و خاصة نحو اللغة العربية التي كان يعتمد عليها كأساس للنهضة .

و علي هذا الصعيد حاول الكثير من الأدبا و العلماء أن يساهموا مساهمة فعالة في هذا المجال فالفوا الكثير من الكتب الجديدة في النحو العربي مثل «النحو الواضح» لعللي الجارم و مصطفى امين اللذان حاولا أن يبسطا قواعد النحو العربي تبسيطا يتلائم مع روح الناشئة و الشباب و النظم التعليمية في العصر المعاصر. كما وضع مصطفى الغلاييني كتاب «جامع الدروس العربية» و كتب رفاعة الطهطاوي قبل ذلك كتاب «التحفة المكنية لتقريب اللغة العربية» و ألف حنفي ناصف كتاب «قواعد اللغة العربية» و كتب ابراهيم مصطفى كتاب «احياء النحو» الذي يعد ثورة عارمة ضد النحو العربي و استمرارا مكملًا لنظريات ابن مضاء القرطبي في كتاب «الرد علي النجاة» الذي حققه شوقي ضيف و دعا اليه و اعتمد في الكثير من آرائه عليه. كما انه ظهر هناك فريق يدعو الي ترك الاعراب و اتخاذ اللغة العامية لغة رسمية. (حسن ، بلاتا ، ص ٢٦٧)

نشأة فكرة التجديد في النحو عند شوقي ضيف

ذكرنا ان الجو كان مهيبًا لظهور نشاطات تحاول أن تسهل النحو بل يستدعي أن يقرأ النحو قراءة جديدة و تنسق ابوابه بصورة جديدة تتلاءم مع الروح العصرية. وكان مجمع اللغة العربية في القاهرة علي اتم الاستعداد لمناقشة آخر الآراء و التطورات في مجال النحو الذي كان شغله الشاغل.

في هذه الأثناء عثر الدكتور شوقي ضيف علي نسخة مخطوطة من كتاب «الرد علي النجاة» لابن مضاء القرطبي في قائمة المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية. يثور ابن مضاء القرطبي في كتابه هذا علي نظرية العامل في النحو وما تستدعيه من مقدرات في الكلام ، ثورة عنيفة تحاول الي الغاء و هدم تلك النظرية هدمًا كاملاً (ضيف ، تحقيق كتاب الرد علي النجاة ، ص ٢٤) كما يلغي ابن مضاء العلل الثواني و الثالث و يلغي القياس في النحو اذ مثلاً يعلل النجاة رفع الفعل المضارع لشبهه بالأسم (المصدر السابق ، ص ٣٨-٣٧) او يعللون امرا نحويا لشباهته مع بعض الشواهد القديمة لديهم كما ان للنجاة احيانا ظواهر غير مطردة و ذلك حين جعل بعضهم من تلك الظواهر قانونا او معيارا صالحا للقياس عليه (الجاسم ، ٢٠٠٧م ، ص ٢٧) و يدعوا ايضا الي الغاء التمارين غير العلمية التي وضعها النجاة للتدريب او مقارعة خصومهم في مجال النحو. (ضيف ، تحقيق كتاب الرد علي النجاة ، ص ٤٣)

فأعجب الدكتور شوقي ضيف بما في هذا الكتاب من آراء خاصة الغاء نظرية العامل ، و حقق الكتاب و طبعه فلقني ترحيبا واسعا و اقرت لجنة مجمع اللغة العربية بعضي جوانبه.

اذن ان فكرة التجديد في النحو العربي عند شوقي ضيف كان مصدرها كتاب «الرد علي النجاة» لابن مضاء القرطبي الذي كان علي المذهب الظاهري في عهد الموحدين و اراد أن يهدم النحو لالذاته وانما كان يهدف الي هدمه باعتباره وسيلة لفهم الفقه المشرقي الذي اشترك هو في الثورة عليه. (الراجحي ، ١٩٧٥م ، ص ١٧١) لكن الدكتور شوقي ضيف بقي في هذه المرحلة داعيا الي افكار ابن القرطبي و ليس اكثر. انه لم يستطع أن يضيف اليها شيئا جديدا لانه لم يركز جهوده علي هذه المسألة بصورة تامة. رغم كل هذا كانت هذه المرحلة ذا اثر كبير علي نشاط المجددين في النحو و الداعين اليه اذ كانوا يرون اولا الدكتور شوقي ضيف و الدكتور طه حسين الذي كان يمجّد هذا الكتاب كثيرا و يطري عليه بالثناء (نفس المؤلف ، ١٩٧٥م ، ص

١٧٢) وغيرهم من كبار الأدباء الي جنبهم و ثانيا ربحوا كتاب ابن القرطبي الذي يشتمل علي أسس و أصول موضوعية تجعلهم قادرين علي خوض هذه المعركة. نقد لهذه المرحلة

إنها مرحلة مهمة جدا بالنسبة للمؤلف و مجددي النحو وتعتبر خطوة جديدة في تجديد النحو وإن كان ابن القرطبي من القدماء ، لكن احياء هذه الاراء بعد ان كانت قد اهلكت و غيبت لعدة قرون كانت تحتاج الي شجاعة لا تقل عن شجاعة ابن القرطبي في فتح طريق جديدة لدراسة النحو العربي اذ طالما يعاني المحددون من عسف و جهود المتعصبين للقديم و المنتصرين له في كل المجالات. و قد يذل المؤلف كثيرا من الجهد في خلال بحثه لاهياء في هذه الطرفة النفسية من طرف الفكر الأندلسي لكنه لم يستطع أن يوسع نطاق هذه الآراء و لم يحاول أن يطبقها تطبيقا جديدا في النحو ، فاكتمني بالدعوة لآراء ابن القرطبي الذي هو بدوره كان ناجحا في هذا الأمر اذ ان اساس نظريته في الغاء العامل يتعلق ببعض ملاحظات ابن جني في كتابه «الخصائص» حيث يقول : «اما في الحقيقة و محصول الحديث ، فالعمل من الرفع و النصب و الجر و الجزم ، إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيئ غيره» (ضيف ، تحقيق كتاب الرد علي النحاة ص ٧٧) و استطاع أن يصنع ابن القرطبي من مثل هذه الجملة ، نظريات و آراء شكلت أساس كتابه. لكن الدكتور شوقي ضيف توسع في فروع آراء ابن القرطبي بدل التوسع في أصلها اذ اخذ مثلا بتنسيق ابواب النحو و حذف بعض ابوابه بردها الي غيرها و الغاء الاعراب التقديري و غير ذلك من الأفكار التي سنشير اليها في محلها.

دراسة تاريخ النحو و مدارسه

رأينا ان شوقي ضيف حاول أن يضع أصلا هاما للدراسات التي كانت تحاول أن تجدد في النحو العربي و كانت جادة في عملها لهذا الغرض. انه رأي برأي العين أن تاريخ النحو العربي و مدارسه بحاجة ماسة الي دراسة جديدة. لانه كما يقول بعض العلماء لا يجوز أن نبدأ بوضع نحو جديد قبل أن نعرف النحو القديم و الأسس التي قام عليها و العوامل التي تأثر بها و يجب علينا أن ندرس الأسس و المحاور التي قام عليها (المبارك ، ١٩٨١ م ، ص ٤) فان النحو العربي اتخذ في صياغته نزعة منطقية متأثرة بمنطق ارسطاليس الذي قد غزي الفكر الاسلامي . (نفس المؤلف ، ١٩٨١ ، ص ٧٣) و قد صب النحاة جهودهم علي البحث وراء العامل دون أن يهتموا بتركيب الجمل و ترابط المعاني فيها (الوردي ، ص ١٤٤) حتي اصبح النحو العربي يشبه الفلسفة في أن لكل معلول علة. و ان النحويين تجاوزوا كل هذا في تدوينهم للنحو حتي وصل بهم الأمر أن تشبثوا بأبيات و أقوال مجهولة النسبة او موضوعة (مجاهد ، ٢٠٠٦ ، ص ٨٧) .

إن تأثر العرب بالأجانب لا يتخصص بالنحو فقط اذ نرى هذا التأثير ايضا في وضعهم لقواعد البلاغة و تدوين اصولها و توسعها خاصة الفكر اليوناني و الايراني (ضيف ، البلاغة ، تطور و تاريخ ، ص ٣٩ - ٣٨) . و لهذا يجب علي المجددين في النحو أن يعرفوا تاريخه و كيفية تدوينه و تطورها.

الا اننا في هذه المرحلة نجد شوقي ضيف منحازا للقديم و منتصرا له و ينظر الي النحو العربي بتقديس و خاصة نظرية العامل التي حاربها عند تحقيقه لكتاب «الرد علي النحاة» لابن مضاء القرطبي عام ١٩٤٧ م. الذي اعدده المؤلف بداية جديدة لتفكيره في تجديد النحو مرارا في مقدمات كتبه النحوية.

و نري شوقي ضيف ينقض اصول كتاب «الرد علي النحاة» و يناقض نفسه التي اخذت تفكر في تجديد النحو منذ تحقيق هذا الكتاب (ضيف ، تجديد النحو ، ص ٥) حيث يكتب كتابه «المدارس النحوية» الذي يقول في مقدمته «و قد ذهبت الي أن الخليل بن احمد الفراهيدي هو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة او لعلم النحو بمعناه الدقيق ، و صورت في تضاعيف ذلك إقامته لصرح النحو بكل ما يتصل به من نظرية

العوامل والمعمولات وكل ما يسنده من سماع وتعليل وقياس سديد، مع بيان ما امتاز به من علم بأسرار العربية وتذوق لخصائصها التركيبية».

وخلفه علي تراثه تلميذه سيبويه الذي تمثل آراءه النحوية تمثلاً غريباً رائعاً، نافذاً منها الي ما لا يكاد يحصي من الآراء فإذا هو يسوي من ذلك «الكتاب» آيته الكبرى (ضيف، المدارس النحوية، ص ١٦) ونراه هنا يمدح فطنة الخليل و سيبويه في وضع قواعد اللغة العربية حسب نظرية العامل والقياس وغيرها من الأصول التي كان يحاول أن يطردها من النحو العربي. ويصور من نفسه شخصاً متعصباً علي القديم بكل ما فيه من عيوب. كما انه يمدح العقل البصري ودقته وعمقه لاتصاله بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليوناني وما وضعه ارسطاليس من المنطق وحدوده و اقيسته، (ضيف، المدارس النحوية، ص ٢١) وبذلك قد مدح مرة أخرى نظرية العامل وما تسببه من بناء صعب للنحو العربي.

الا إنه أن نقول الحق، و الحق يقال ان شوقي ضيف في مقدمته لهذا الكتاب يقول: «و لم اتابع الجهود الخصبية التي بذلت في عصرنا لتجديد النحو وتيسيره، لانه انما قصد بها الي غايات تربوية في تعليم الناشئة وهي حرية بكتاب مستقل» (ضيف، نفس المصدر، ص ٨) وليست هذه كل الحقيقة فإنه قد ينس من التجديد في النحو لانه في بداية الأمر حاول أن يزيح نظرية العامل من الطريق وأن يبنى النحو بناء جديدا لكنه هنا يذكر ان جهود التجديد في النحو قصد بها الي غايات تربوية في تعليم الناشئة. وهذا انسحاب لشوقي ضيف من موقفه الأول، يجب أن نسجله عليه، لان تسهيل النحو لأغراض تربوية يتناقض مع محاربته و محاولة القضاء عليه و هدمه هدماً كاملاً بالغاء نظرية العامل كما يعترف بذلك هو في تحقيقه لكتاب «الرد علي النحاة».

هو ناقش في هذا الكتاب موضوعات جزئية جداً لاتستحق المناقشة لوضع نحو جديد. وتوصل الي آراء لانظمئن بها في بعض الأحيان لانه لم يدعمها بحج قوية و انما بناها علي تصورات افترضها من قبل.

من الأمور التي ناقشها شوقي ضيف هي مسألة البحث عن الواضع الأول للنحو العربي، والمعروف انه ابو الأسود الدؤلي الذي وضع المبادي العربية الأولى بارشادات من امير المؤمنين علي بن ابي طالب (زاهد، ١٩٨٦م، ص ٤٨) وقدردت روايات كثيرة من علماء كبار - علي اختلاف في كيفية الأمر - تشهد بهذه الحقيقة بأن ابا الأسود استعان بالامام علي (ع) في وضع النحو كما يقول الاستاذ سعيد الافغاني «و من يقرأ بامعان ترجمة ابن الأسود في تاريخ دمشق لابن عساكر مثلاً ثم يفكر في توارد اكثر المصادر علي جعله واضع الأساس في بناء النحو لا يستبعد ذلك» «المبارك، ١٩٨١م، ص ٣١»

لكن الدكتور شوقي ضيف ينفي في كتابه «المدارس النحوية» هذا الأمر بحجة ان الامام علي (ع) كان مشغولاً في تلك الفترة بالتخطيط لحرب معاوية و حرب الخوارج (ضيف، المدارس النحوية، ص ١٤) و كأن طاقات كل البشر سواء و كأنها محدودة جداً. و كأنه لم يعرف ثقافة علي (ع) و المامه بالعلوم و فهمه الواسع و غوره الذي لايسر في العلم و الأدب (العقاد، ٢٠٠٧م. ص ١٢١).

نقد لهذه المرحلة

ان شوقي ضيف هنا يتراجع ضمناً عن آرائه السابقة الداعية للثورة علي القديم و الدعوة للتحرر من ثقل النحو العربي القديم اذ نراه يتعصب للقديم و ينتصر له بل يمدحه بما يفوق التصديق لانه يناقض مواقفه السابقة و يسحق ما حقق من مكاسب لتجديد النحو في كتابه السابق. لكن هذا لا يبدو غريباً لمن يعرف شوقي ضيف فانه تثقف ثقافة قديمة لا يستطيع ان يفارقها و بقي عليها حتي وفاته عام ٢٠٠٥ للميلاد. انه لم يستطع ان يفعل فعل استاذة الدكتور طه حسين الذي ثار علي القديم ليس لتدميره بل لدارسته دراسة واعية تساعد علي اصلاحه.

الاتجاه نحو النحو الكوفي وعلم التجويد

حاول الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تجديد النحو» أن يضع قواعد اللغة العربية بصيغة نهائية ترضي المجددين و المحافظين معا لأنه كان الكثير من محاولات التجديد توابه ردا عنيفا من علماء الأزهر الذين كانوا يرون فيها افسادا للغة العربية بل كانوا يعدونها خروجا عن الدين (الصعيدى، بلاتا، ص ٩٦) كما واجهوا محاولات ابراهيم مصطفى و اعضاء لجنة مجمع اللغة العربية بشيء من هذا القبيل.

أراد شوقي ضيف أن يمسك العصا من الوسط لمعرفة بهذا الأمر من جانب و لادراكه أن تدوين النحو من جديد ليس بالأمر البين، ولاتجاهاته القديمة كما ذكرنا قبل ذلك لهذا نراه للنحو الكوفي بدل ابن القرطبي ليحييه مرة أخرى و يمزجه بالنحو البصري المعروف و المتداول حاليا في التعليم. انه و إن أراد أن تكون له كلمة الفصل حيث يقول في مقدمة كتابه : «ولعلي بهذا اكون قد حققت املا طال انتظاره بتجديد النحو علي منهاج و طيد يذللّه و يبسطه و يعين علي تمثيل قواعده و استكمال نواقصه». (ضيف، تجديد النحو، ص ٨) لكنه ما استطاع أن يحقق هذا الأمل إذ أن اولا ان الكتاب لا يحتوي علي شيء كثير من الجديد في النحو و انما اعاد فيه المؤلف الكثير من القواعد الصرفية و النحوية كما سجلها و اتفق عليها النحاة القدامي و ثانيا ان ما احتوي عليه الكتاب من جديد سقيم في منطقته و إن دافع عنه المؤلف بحجج أوردها في الكتاب نفسه الا انها حجج ليست قوية و دامغة بل تفتقر الي الدلائل و البراهين المنطقية في هيكلها العام إن صح القول. كما حاول المؤلف أن يدمج علم التجويد مع كل صعوباته في علم النحو (ضيف، تجديد النحو، ص ٤٩)

ان المؤلف في هذا الكتاب حاول أن يصل الي نظرية جديدة و هي أن يجمع بين النحو البصري و النحو الكوفي و أن يكون الأساس هو النحو البصري الذي مدحه المؤلف في كتابه «المدارس النحوية» لما هو عليه من المنطق و الدقة و العقلانية، و أن يكون النحو الكوفي تكملة له تساعده عند ما يتعقد الأمر و يطلب قليلا من التسهيل او عندما يري المؤلف ذلك لازما.

مناقشة بعض آراء شوقي ضيف في كتابه (تجديد النحو)

حاول المؤلف في أن يعيد تنسيق ابواب النحو من جديد و لهذا مثلا قد حذف المؤلف باب كان و اخواتها، و بابها و لاوالات العاملات عمل ليس، و باب كادو اخواتها و باب ظن و اخواتها و باب اعلم و اخواتها دون أن يحذف امثلتها لأنه يردها الي ابواب أخرى. فمثلا انه يرد باب كان و اخواتها الي الجملة الفعلية و يعربها فعلا و يعرب مرفوعها فاعلا و منصوبها حالا فان «زيد» في جملة «كان زيد مسافرا»، فاعل و ان «مسافرا» حال منه. (ضيف، نفس المصدر، ص ١٢) و يجب شوقي ضيف في كتابه علي اعتراضات و همية قد تعرض عليه بعد نشر الكتاب. و يحاول أن يظهر مظهرها منطقيا في اجوبته و لهذا يرد عليها ردا بصريا اذ المدرسة البصرية تمثل عنده الوجهة العقلية.

من تلك الاعتراضات هي اننا لو اعربنا خبر كان حالا لكان في بعض الأحيان ثابتا و يرد علي هذا الاعتراض بان هناك في اللغة العربية احوالا ثابتة. و الاعتراض الثاني هو أنه يجب أن تكون الحال نكرة و لكننا نجد مثلا في جملة «كان المسافر محمدا» أن «محمدا» علم وقع حالا. و يجب شوقي ضيف علي هذا بأن هناك بعض الأحيان تأتي الحال معرفة في النحو البصري مثل «جاء زيد وحده» و «ارسل عمرو الابل العراك

«و «صنع ذلك جهده» (ضعيف، نفس المصدر، ص ١٣) والاعتراض الثالث هو أن الحال يجب أن تكون مشتقة ويرد عليه شوقي ضعيف بان في بعض الأحيان تأتي الحال جامدة مثل «جاء زيد اسدا» وينسي اويتناسي الدكتور شوقي ضعيف في رده علي هذه الاعتراضات بان هناك شروطا خاصة عند البصريين مثلا للإتيان بالأحوال الثابتة وهي أن تكون جامد غير مؤولة بالمشتق أو أن تكون مؤكدة أو أن تكون دالة علي تجديد صاحبها. (الاندلسي، ...، ج ٢، ص ١١٣) وهذا لا يصدق علي خبركان في معظم الأحيان وهناك فرق جوهرى لم يلاحظه شوقي ضعيف وهو أن الحال لبيان البيئة وكان وأخواتها توضع في أكثر الأحيان للاخبار عن امر ويلحق بها كل فعل لا يستغني عن الخبر مثل أضى، ورجع واستحال (الشرتوني، ١٣٧٣ هـ. ش، ج ٤، ص ٢٠٨) كما انه في الاعتراض الثاني ينسي شوقي ضعيف أن الاحوال المعرفة يجب أن تكون قابلة للتأويل بالنكرة «وحده» في الجملة المذكورة تأول «وحيدا» و«العراك» تأول «معتركة» (ابن عقيل، ج ٢، ص ٢٥٤) في حين ان هذه لاتصدق علي خبركان وأخواتها خاصة اذا كان اسما علما كما رأينا في المثال المذكور عند الاستاذ شوقي ضعيف «كان المسافر محمدا». وفي رده علي الاعتراض الثالث لا يذكر ان الجامد يكون حالا اذا دل علي معنى المشتق.

نموذج آخر من آرائه

تعرب المدرسة البصرية كاد وأخواتها بأنها أفعال ترفع المبتدأ ويسمى اسمها وتنصب الخبر ويسمى خبرها ويلزم أن يكون خبرها جملة فعلية. اما الدكتور شوقي ضعيف يقترح أن تعرب الجملة علي أنها فعلية ويعرب اسمها فاعلا لفعلها ويعرب خبرها مفعولا به (ضعيف، نفس المصدر، ص ١٦٥) فنقول مثلا في «كاد زيد يقوم» ان «كاد» فعل ماضي مبني علي الفتح، و«زيد» فاعل و«مرفوع» و«يقوم» فعل مضارع مرفوع بالضممة وهو مفعول به لفعل «كاد»

ويصر شوقي ان تفسر أفعال القلوب علي أنها جمل فعلية دون أن ينتبه الي أن في بعض الأحيان خبر هذه الأفعال الذي يسميه شوقي ضعيف مفعولا به، لا يتأول بمصدر. وأن في كثير من الأحيان تختلط مع أفعال أخرى تشبهها في الصياغة، وليس في المعاني ولا النظام، منها «أخذ»، و«شرع» و«كاد» وجعل» اذ تكون للمقاربة مرة و«غيرها مرة أخرى، لكن تفسير شوقي ضعيف يخلط نظام هذه الأفعال وجملة بصورة كبيرة. فهناك فرق بين «أخذ علي يدرس» وجملة «أخذ علي الكتاب» ولكن الدكتور شوقي ضعيف يفسرهما تفسيراً واحداً مع بونهما الشاسع في المعنى والتركيب. كما أن تنسيقه لآبواب النحو من جديد يحدث خلطاً بين موضوع الدرس النحوي والدرس الصرفي (الحمزاوي، بلاتا، ص ٢٦)

نقد لكتاب «تجديد النحو»

إن هذه المرحلة تبين لنا تحبّط شوقي في تجديده للنحو اذ نراه مرة يقف الي جانب ابن مضاء القرطبي و يمدح كتابه ونظرياته التي تخالف اساس النحو البصري و مرة أخرى يمدح العقل البصري لدقته في وضع قواعد النحو العربي و نراه هنا يحارب تلك الدقة و يريد أن يبدلها بقواعد المدرسة الكوفية التي لاتتسم بتلك الدقة.

إن مشكلة شوقي ضعيف هي أنه يريد يأتي التجديد في النحو من حيث لا يمكن و يريد أن يهدم بالنحو الكوفي، و بأسس بصرية اهم نظريات المدرسة البصرية التي قابلت بها المدرسة الكوفية، وهذا شيء لا يمكن اذ شارك العقل البصري باكبر عظمانه في وضع هذه القواعد لسنوات عديدة و هي من حيث

انطباقها بنظرية العامل علي درجة عالية من الدقة التي يمدحها شوقي ضيف في العقل البصري. اذن انه يريد أن يحارب ما يؤمن به ويفكر علي أساسه. انه لم يستطع أن يقابل الأصول التي قام عليها النحو البصري كما فعل غيره من المجددين.

ثم انه حاول أن يجعل علم التجويد في كتب الصرف والنحو و لابد من ذلك برأيه. وهذا ما يثقل عبء الصرف والنحو علي الناشئة والمتعلمين الذين يدافع باسمهم عن نظرياته وخاصة في مرحلته القادمة كما سنري إن شاء الله.

لقد فشل محاولة الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تجديد النحو» فشلاً ذريعاً لأنه لم يعرض علينا إلا ما قال به القدماء من قبل وقد اتخذ كتابه صبغة تعليمية تحاول أن تعرض النحو بلغة سهلة. ولذلك لا يمكن أن نسميه تجديداً لأنه لا يتعلق بأسس النحو وإنما يعالج التعليم وتسهيل تدريس النحو للناشئة والشباب. علي اننا لانكر ما فيه من آراء جديدة خولت المؤلف أن يطلق عنوان التجديد علي كتابه لكن تلك المقترحات والتعديلات التي اقترحها المؤلف ضعيفة جداً في أساسها ولا تستطيع أن تصمد أمام النقاش شيئاً قليلاً مادام التفكير يبقّي بصرياً.

وقد انتبه شوقي ضيف الي عظم فشل محاولته وحاول أن يعيد الأمور الي مجاريها، والدليل علي ذلك ان الفاصل الزمني لاعمال شوقي ضيف النحوية قبل هذا الكتاب كان يفوق العقد، اوالعقدين في بعض الأحيان، لكل كتاب اذ حقق «الرد علي النحاة» عام ١٩٤٧ م. و كتب بعد واحد وعشرين عاماً اي في عام ١٩٦٨ للميلاد كتاب «المدارس النحوية». و كتب «تجديد النحو» بعد اربعة عشر عاماً اي عام ١٩٨٢ للميلاد. لكنه بعد هذا الكتاب اخذ يقلص الفارق الزمني الي اقل من نصف العقد. فنراه يكتب في عام ١٩٨٦ م. و بعد اربع سنوات من نشر كتاب «تجديد النحو» يكتب كتابه «تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده» عام ١٩٨٦ م. و بعد اربع سنوات من هذا الأخير يكتب كتابه «تيسيرات لغوية» عام ١٩٩٠ للميلاد.

انا اذا نظرنا بدقة الي هذه الفواصل والفوارق الزمنية رأينا أن شوقي ضيف يحاول تغطية فشله في كتابه «تجديد النحو» اذ اخذ يسرع في تأليف كتبه النحوية. كما أن هناك دليلاً آخر يدلنا علي هذا الأمر وهي ان محاولات شوقي ضيف للتجديد في النحو قبل هذا كانت مبعثرة فمن تحقيق كتاب «الرد علي النحاة» و الثورة علي العامل النحوي، نراه يرجع اليه و للمدرسة البصرية الدقيقة في وضع القواعد حسب نظرية العامل و بعد ذلك يميل الي الكوفة و سهولة فكرها في وضع القواعد النحوية. لكن بعد هذا الكتاب يحاول شوقي ضيف أن يركز علي غاية واحدة و قد حمل كتابه الاخير ان في بداية عنوانهما كلمة مشتركة وهي كلمة «تيسير» .

ان مشكله ضيف التي تتمثل بتصادم ثقافته القديمة مع محاولاته التجديدية تظهر باجلي صورها في هذا الكتاب اذ نراه متخبطاً لاحداث التجديد في هيكله النحو العربي، يتجه مناحي شتي بغية ان يجد منيته بتسجيل اسمه في قائمة نوابغ و عباقرة الفكر العربي بتجديده النحو العربي، لكن هيهات ان يجتمع التعصب للقديم و التطلع للحدثاء و ان يتسنى لشوقي ضيف الهروب من هذا الصراع المرير.

الكشف عن ورائق جديدة و الاتجاه نحو لغة عتابية

يدافع الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده» عن جل آرائه في كتابه السابق «تجديد النحو» و لهذا قد فتح فصلاً خاصاً فيه للدفاع عن آرائه السابقة في كتاب «تجديد النحو» .

و يكشف عن وثائق جديدة في هذا الفصل بالتحديد اذ يقول مثلاً عن رأيه في جعل اسم كان و اخواتها فاعلا و جعل خبرها حالا و يقول ان هذا الرأي لسيئويه و غيره من كالمبرد الذي اتخذ خبرها في براية الأمر مفعولا مجازا، لكنه تراجع عن رأيه في كتابه «المقتضب» و يسمى مرفوع كان اسما لها و يسمى منصوبها خبرا لها (ضيف، تيسير النحو التعليمي قديما و حديثا مع نهج تجديده، ص ٩٢) و غير ذلك من هذه الأمور التي يحاول شوقي ضيف أن يكشف عن تاريخها و بذلك يجد مخرجا لنفسه مما وقوع فيه في كتابه «تجديد النحو».

ان كتاب «تيسير النحو التعليمي قديما و حديثا مع نهج تجديده» هو في الحقيقة اهم ما خلف شوقي ضيف في مجال نقد النحو و قد حاول أن يقص فيه قصة تجديد النحو باكملها من الزمن القديم حتي الزمن الحاضر. فكتب عن «الرد علي النحاة» لابن مضاء القرطبي و كتب عن «احياء النحو» للاستاذ مصطفى ابراهيم و كتب عن كافة المقترحات و الردود عليها في مجمع اللغة العربية فيما يختص بهذه القضية. إن هذا الكتاب هو ملخص جهود شوقي ضيف في هذا المجال و يجمع ايضا في طياته الكثير من قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة و العراق. كما ان المؤلف يظهر فيه كمعلم حنون اذ يكثر فيه من همه علي تعليم الناشئة و تخفيف الكثير من الوطء عليهم.

ان اهم ميزه هذا الكتاب هي اشتماله علي مناقشة اصعب الأبواب النحوية و تاريخ تدوينها و مشكلاتها بصورة دقيقة و علمية. و قد تمثل في ذاتها التجاء المؤلف مرة اخري الي آراء ابن القرطبي ما عدا نظرية العامل الذي بقي ملتزما بها وهي التي سببت له هذه المشاكل.

و هناك محاولة جديدة تظهر عند شوقي ضيف في هذا الكتاب و هي أنه يحاول أن يضع تعريفات و ضوابط دقيقة للكثير من ابواب النحو اذ انه يري ان الكثير من الضوابط و التعريفات في النحو ليست دقيقة تماما و تحتاج الي تعديل. لكننا نراه لا يتجاوز في هذا الأمر التعريفات و الضوابط التي جاءت في كتب ابن هشام الأندلسي اذ يورد بعض الاشكاليات عليها. (نفس المصدر، ص ٦٠)

و يكشف ايضا في هذا الكتاب عن سر تراجعه عن الغاء نظرية العامل عندما يتكلم عن ابراهيم مصطفى و يقول بأن أسلوبه لم يعد فيه مفعول به و مفعول له و مفعول مطلق و استثناء و حال و غيرها من ابواب النحو، و هذا الالغاء يضيع علي الناشئة معرفة وظائف هذه الكلمات في الصياغة العربية مما قد يحدث بلبلة في تصورها لأساليبها (نفس المصدر، ص ٢٩) و هذا يفسر لنا ضمينا مراجعة شوقي ضيف لأفكاره و تنازله عن الغاء نظرية العامل.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة و لعل هذا يعد نقدا غير سليم لكتاب «احياء النحو» لابراهيم مصطفى لأن اولا صدور هذا الكتاب واجه ترحيبا عظيما من الداعين الي التجديد في النحو و منها تمجيد الدكتور طه حسين الذي كتب مقدمة له و ثانيا تفسيره الممتع من النحو العربي بصورة جديدة و سهلة جدا. فقد واصل المؤلف فيه ميسرة ابن مضاء القرطبي في الغاء نظرية العامل و تطويرها و عرضها فكر جديد. فقد اكد أن النحو العربي يشبه في نظامه، المنطق الارسطاليسي في حين أن العرب قبل الاسلام لم يكونوا يفكرون في تكلمهم علي هذه الأصول المنطقية و يعرض فهمه الجديد من النحو العربي و يلقي نظريته الشهيرة التي تفسر النحو العربي بأجمعه في اربعة اصول و عدة فروع و هي سهلة جدا و منطقية في بنائها الفكري و ستتكلم عنها باختصار في هذه المقالة.

نقد لهذه المرحلة

ان هذا علي رغم ما فيه من ملامح التجديد في بعض فصوله الا انه ايعالا في القديم فقد نري فيه المؤلف يعتمد علي آراء القدماء بل يتحقق من اصولها و بداياتها و يحاول ان ينتقص من بعض محاولات بعض المجددين مثل ابراهيم مصطفى الذي يشهد له الكثير بالنجاح الباهر و لقد كتب صديقه الحميم طه حسين مقدمة لكتابه «احياء النحو» الذي يتضمن آراؤه التجديدية تتميز بالاطراء و الثناء تدل علي مدي اعجابه بهذا الكتاب. لكن شوقي ضيف التلميذ بدل ان يحاول ان يتم انجازات ابراهيم مصطفى المجدد ، ينتقصها و يطردها رغم اعجابه بها الذي نفهمه من خلال كلماته في نقد هذا الكتاب اذ لم يورد شوقي ضيف علي آرائه إلا اشكالية واحدة و هي احتمال اضاءة وظائف الكلمات في الجملة علي الطالب. لكن صراع القديم و الجديد يظهر مرة اخري هنا و لم يستطع ضيف ان يخلص نفسه منه فيبدو فيه متخطبا لا يجيد التعامل معهما اذ يخشي التجديد و يتجنبه لما فيه من احتمال اضاءة وظائف الكلمات علي الطالب في الجملة و و يظهر مآلًا من اصر قواعد القديم و ثقلها لكنه يريد ان يتصدي لها من حيث تنتصر هي أبد الدهر و هي الالتزام بما تفرضه هي يعني نظرية العامل.

و المدقق في لغة كتابه الدكتور شوقي ضيف يجدها لغة عتب و لغة من يحاول أن يدافع عن رأيه و ذلك حين يقص ما جري له من حوار من مجمع اللغة العربية اذ يصبر هو علي بعض الجوانب و يفرض الجمع تلك الآراء بحججه. (نفس المصدر، ص ٥١) و نعود هنا مرة اخري لنقول ان مشكلة شوقي ضيف هي انه يريد ان يحارب النحو البصري، إن صح القول، لتجديده، بالفكر و العقل البصري وهذا لا يمكن ابدا لانهم فرضوا تفكيرهم علي نحو بحيث اصبح صرحا كما عبر عنه شوقي ضيف نفسه. (ضيف، المدارس النحوية، ص ١٦)

البصرة في قفص الاتهام

في هذه المرحلة يكتب شوقي آخر كتابه في هذا المجال. يحمل الكتاب عنوان «تيسيرات لغوية» إلا أنه يحمل في طياته الكثير من الأبحاث و الملاحظات النحوية. فقد ظهر الدكتور شوقي ضيف في هذا الكتاب كعالم نحوي و لغوي كبير يناقش مسائل كثيرة و يحاول أن يصححها. في الحقيقة ان كثيرا من هذه المسائل التي يناقشها شوقي ضيف هي من المدرسة البصرية التي حاول المؤلف أن يدل علي اخطاء علمائها. كما حاول ان يتطرق الي بعض الظواهر المستحدثة في اللغة و يعالجها معالجة نحوية تثبت صحتها.

ان الكتاب فيه ثلاثة اقسام، ففي القسم الأول يصحح شوقي ضيف الكثير من القواعد الموجودة في مدرسة البصرة. و منها ان تعدية الفعل اللازم تكون بأربعة طرق، بهمزة افعال او بتضعيف وسطه او بالف المفاعلة او باخذه علي باب استفعال للطلب و الصيرورة. و يطالب شوقي ضيف أن تزداد الي هذه الطرق تسوية بين الأفعال المتعدية بواسطة حرف الجر و المتعدية مباشرة فقد تكلم عنها ابن جني في كتابه «الخصائص» و ساق منها سبعة و عشرين فعلا، و هي افعال لازمة تتعدي بنفس صيغتها مثل (غاض الماء و غَضَتْه، و عمر المنزل و عمرته، و سارت الدابة و سَرَتْها، هلك و هَلَكْتُهُ، و هِيطَ و هِيطْتُهُ) ثم يزيد شوقي ضيف امثلة اخري علي امثلة ابن جني مثل اكر البئر و اكرها، و بت الجبل و بته، و برد الماء و برده، و برع زيد و برعه، بلغ الأمر و بلغه، و حر الماء و حره، و حسر الكم و حسره، و خاس زيد و خاسه، و رعت الماشية و رعاها، و فطر الشيء و فطره، و نشف الشيء و نشفه، و هجت النار و هجها). و يطالب أن تكون هذه قاعدة تكثرة امثلتها (ضيف، تيسيرات لغوية، ص ١٣-١٢)

كما انه يطالب ان تكون نيابة حروف الجر عن بعضها البعض قاعدة عامة لكثرة امثلتها و يري رأي الكوفيين الذين يجعلون هذه النيابة قياسا مطردا اكثر سدادا من رأي البصريين (ضيف، نفس المصدر، ص

٨٦) ويقول الدكتور شوقي ضيف عن هذا الأمر في المدرسة البصرية: «وكان حرياً بأن جنبي وقد اكد أن نيابة الحروف بعضها عن بعض كثير في اللغة كثرة مفرطة، أن يجعل ذلك قانوناً لغوياً عاماً لا يحتاج الي تفسير مجازي أو غير مجازي، ولا يحتاج عباراته الي تخرج ولا تأويل» (ضيف، نفس المصدر، ص ٨٥) ويدافع في القسم الثاني من كتابه هذا عن صيغ وتعبيرات صحيحة شائعة في العصر الحديث ولكن يظنها الكثير خطأ لأنها تبدو في ظاهرها غير منطقية علي اصول الصرف والنحو. ويحاول الدكتور شوقي ضيف أن يطرد هذه الظنون المخطئة و لهذا نراه يفتش في كتب الصرف والنحو ليجد تبريراً لهذه الصيغ يتلائم مع تركيبها. منها أنه يكثر أن تأتي «حتي» العاطفة بدوّن معطوف عليه مثل «الهزيمة اليوم تهدد اسرائيل، يعترف بذلك حتي المتعاطفون معها» و «هو لم يقرأ حتي الصحف» ويقول عن ذلك المعروف أن حذف المفعول به و الجار والمجرور كثير مادام يدل عليهما السياق، و نستطيع أن نعمم ذلك في بقية الأمثلة اذ جاء في القرآن حذف الفاعل مع دلالة السياق عليه في مثل «حتي» توارت بالحجاب» اي الشمس و مثل ذلك كثير في نائب الفاعل و الخبر (ضيف، نفس المصدر، ص ١٣٨) و كذلك يدافع ايضاً عن وقوع فعل الشرط و جوابه ماضين في «مهما» لكن البصريون يقولون ان فعل شرط «مهما» و جوابه لا يكونان الامضارعين. انه يناقش اصلها عند النحاة اذ يقرنونها «بما» ويقول بعضهم: انها مكررة، و وصلها بما يجعلها أدني الي أن تأخذ حكمها في باب الشرط و خاصة انها مثلها قد تكون زمانية و يحاول أن يبدلها شواهد نحوية من قول الشاعر الهذلي القديم المتنخل الذي يرثي اياه ويقول:

إذا سدت سدت مطواعة و مهما وكلت اليه كفاه

و كذلك في بيت آخر للأسود بن يعفر

ألاهل لهذا الدهر من متعلل

وبهذا يري الدكتور شوقي ضيف أن وقوع فعل الشرط و الجواب جائز و صحيح في اللغة العربية الفصحى (ضيف، نفس المصدر، ص ١٣١)

ويدافع مثلاً عن قرار مجمع اللغة العربية في تسكين اواخر الاعلام الثلاثية التي تشكل بحذف كلمة «ابن» بينها اذ مثلاً يقال في «علي بن محمد بن سعيد» «علي محمد سعيد» و يسكنون هذه الاسماء في درج الكلام. يبحث شوقي ضيف في كتب النحو ليجد تبريراً لهذا الأمر و يقول انه جاء في كتاب سيويه ان العرب يسكنون الحرف المرفوع و المجرور في الشعر كما يسكنون الحرف الثاني المكسور و المضموم في الاسم الثلاثي مثل «فخذ و عضد» او في قول امري القيس الذي يسكن آخر الفعل

فاليوم اشرب غير مستحقب اثماً من الله و لا واغل

و يذكر ايضاً قول بعض العرب «اتقي الله امرو فعل خيراً يشب عليه» (ضيف، نفس المصدر، ص ١١٣) و بذلك يكون التسكين من غير داعي عند الحاجة قاعدة مطردة.

و في القسم الثالث يظهر شوقي ضيف لغوياً عظيماً و يحاول أن يجد جذور الكثير من كلمات اللغة الدارجة التي تتكلم بها عامة الناس و قد يظن الكثير من علماء اللغة انها ليست فصيحة و ليس لها جذور في الفصحى. لكن الدكتور شوقي ضيف يثبت جذورها في الفصحى، مثل كلمة «شوية» التي تعني القليل من كل شيء و هي في الواقع كلمة «شيء» اذ تصغر «شيء» و اورد «شوي» صيغة تصغير ثانية و فيها قلب الياء الأولى واوا و هي كثيراً ما تقلب واوا في النسب و ايضاً سهلت الهمزة و أصبحت ياء و هو تصغير مقبول في العربية كما يقول الزبيدي في تاج العروس كما يروي عن شاعر نجد من ربيعة يسمي قيساً.

معاهد لم يبق صرف الزما ن منها و مني إلا شوي (ضيف، نفس المصدر ص ١٨٠)

او كلمة غموس التي تستخدم بمعني الادام و هي مشتقة من غمس الحبز في الخل اذا غمره به اذن ان لها جذور في الفصحى (ضيف، نفس المصدر ص ١٨٦) و كذلك يناقش الكثير من الكلمات.

نقد لهذه المرحلة

إن الدكتور شوقي ضيف يظهر في هذا الكتاب مظهر العلماء الكبار في تدقيقه النقدي إذ نراه ينقد مسائل هامة في كتابه و يحاول أن ييسرها و يشرحها شرحا يقنع الكثير من منقدي هذه المسائل و قد حاول أن يورد أخطاء المدرسة البصرية و يحاول أن يعدل بعض قواعدها كما رأينا.

هنا نستطيع ان نشاهد بوضوح صراع الجديد و القديم في تفكير شوقي ضيف اداعي الي التجديد في النحو العربي اذ يحاول ان يهاجم المدرسة البصرية التي طالما اشاد بها و بعلمائها و بدقتهم في تشييد صرح النح العربي. كما يري شوقي ضيف ضمنا ان يدافع عن آرائه السالفة ، لكن هذا الدفاع عما في آرائه من الجدة يدعوه لنسف بعض اقواله السابقة عن النحو البصري ، الامر الذي يكشف عن مناقضات الدكتور شوقي ضيف لنفسه في هذا المجال.

و تكمن اهمية الكتاب في غوص الشوقي ضيف و تدقيقه في مسائل هامة و جديدة في ذاتها احيانا لكنه بذلك لا يمثل استمرار الكاتب بآرائه السابقة بصورة واضحة الا أن نقول انه اراد أن يظهر عجز النحو البصري في بعض المسائل و قوة النحو الكوفي علي معالجتها. و الكتاب أيضا يحتوي علي مسائل أخرى لغوية و لا تختص بالنحو و تجديده. و قد تستطيع أن نورد اشكالية علي عنوان الكتاب اذ يحمل عنوان «تيسيرات لغويه» و يعالج مسائل صرفية في نحوية في اكثر صفحاته.

مقارنة نقد النظام النحو عند شوقي ضيف و ابراهيم مصطفى

ان كلا من شوقي ضيف و ابراهيم مصطفى اخذ بذرة افكارهم في تجديد النحو من نظريات ابن مضاء القرطبي ، و لكن هناك فرق كبير بين طريقة شوقي ضيف و بين طريقة ابراهيم مصطفى في كيفية استمرارهم في معاملتهم لنظريات ابن مضاء القرطبي. فقد رأي شوقي ضيف أنه ليس بوسع العرب أن يحاربوا ماضيهم و نحوهم القديم من الأساس لانها تجربة سكون لها عواقب مأساوية علي الأدب العربي إن فشلت. كما انها تواجه دائما بالرد من قبل العلماء والناس في أغلب الأحيان و هذا ما يجعل الخوض فيها صعبا. و قد يس الغاء نظرية العامل وظائف الكثير من ابواب النحو و يجعل بذلك الكثيرين لا يميزون بين الاساليب الدقيقة للغة العربية.

اما الاستاذ ابراهيم مصطفى فكان اكثر جرأة من الدكتور شوقي ضيف اذ اتخذ نظرية ابن القرطبي في الغاء نظرية العامل اساسا لعمله و آمن بطلان نظرية العامل النحوي و حاول أن يصيغ نظرية اشمل و اكمل لتوضيح اساس النحو العربي قبل تدوينه علي أسس منطقية فيما نري شوقي ضيف يتراجع عن الغاء نظرية العامل و يحاول أن يجد غايته في كتب الكوفيين النحوية و بعض البصريين القدامي. إن نظرية الاستاذ ابراهيم مصطفى في النحو العربي قبل تدوينه تتلخص في اصلها علي ثلاثة اسس و عدة فروع و الأسس هي :

١. ان الضمة عند عرب الجاهلية كانت علامة الاستاد فكانوا يضعونها علي آخر كل كلمة يتحدثون عنها او يسندون اليها خبرا. (مصطفى ، احياء النحو ، ص ٥٣)

٢. وكانوا يجعلون الكسرة علما للاضافة او للجر بحروف الجر. و انما صارت الكسرة في نظرهم علامة الاضافة لما فيها من شبه بياء النسبة.

٣. والفتحة ليست حركة اعراب و كانوا يضعونها علي آخر كل كلمة غير مجرورة او مرفوعة لانها الحركة الخفيفة المستحبة عندهم و هي في الواقع اخف من السكون الذي يستخدمونه العرب اليوم في اواخر

الكلمات في لغتهم الدارجة (مصطفي، نفس المصدر، ص ٨١ - ٧٩) ويشهد الوقف بالنقل والروم والاقواء والاصراف بأن الفتحة ليست حركة اعراب عندهم (مصطفي، نفس المصدر، ص ٨٩ - ٨٧) وهذا تفسير جديد لنظام النحو العربي المستعصي والعويص. يحب علي المجديين ان يستمروا في اصلاح وتطوير هذه النظرية و إزالة عيوبها بدل أن يرفضوها بأكملها كما فعل شوقي ضيف.

النتيجة

كان الدكتو شوقي ضيف متخطبا في مدي قبول او رفض كلامن القديم والجديد بغية تجديد النحو العربي اذ نراه يحاول بآية الي الغاء نظرية العامل بتحقيقه لكتاب الرد علي النحاة لابن مضاء القرطبي و هجومه علي المدرسة البصرية في النحو ثم دفاعه عنها في كتابه مدارس النحو و اطرائه و ثنائها عليها. ثم حاول مرة اخري ان ينسفا لكن ليس باكملها بل بنقض بعض ابوابها و احلال النحو الكوفي محل تلك الابواب . وهذا ايضا لم ينجح لان لم تقبل المدرسة البصرية منذ القديم بهذا و اقامت حججا دامغة لوهن النحو الكوفي و ضعه، فقد نري مرة اخري بوضوح انه يناقض اراءه السابقة مره اخري. و تستمر هذا الصراع حتي آخر محاولات شوقي ضيف في هذا المجال كما اوضحنا في هذا المقال. انه يمثل صراع الشخص مع نفسه لتخطيه بكيفية معاملة القديم او الجديد ائو كيفية التوفيق بينهما. يعد شوقي ضيف في هذا المجال نموذجا من المجتمع العربي الذي عاني هو ايضا من صراع القديم والجديد في ادبه و ثقافته و ادارة شؤونه ايضا.

المصادر والمراجع

- ١- ابن عقيل، شرح الألفية، بيروت، احياء التراث العربي، دون تاريخ.
- ٢- الجاسم، محمود حسن، القاعدة النحوية تحليل و نقد، دمشق، دارالفكر، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- ٣- حسن، عباس، اللغة و النحو بين القديم والحديث، القاهرة، دارالمعارف، ط ٢، دون تاريخ
- ٤- الحمزاوي، علاء اسماعيل، موقف شوقي من الدرس النحوي دراسة في المنهج و التطبيق،
- ٥- الراجحي، عبده، دروس في كتب النحو، بيروت، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٧٥ م.
- ٦- زاهد، زهير غازي، في التفكير النحوي عند العرب، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٦ م.
- ٧- الشرتوني، رشيد، مبادي العربية، تهران، اساطير، ط ٢، ١٣٧٣ هـ . ش.
- ٨- الصعدي، عبد المتعال، النحو الجديد، دارالفكر العربي، ط ١، دون تاريخ.
- ٩- ضيف، شوقي، البلاغة تطور و تاريخ، القاهرة، دارالمعارف، ط ٨، ١٩٩٢ م.
- ١٠- ضيف، شوقي، تجديد النحو، القاهرة، دارالمعارف، ط ٤، دون تاريخ.
- ١١- ضيف، شوقي، تحقيق كتاب الرد علي النحاة، القاهرة، دارالمعارف، ط ٣، دون تاريخ
- ١٢- ضيف، شوقي، تيسيرات لغوية، القاهرة، دارالمعارف، ط ١، دون تاريخ.
- ١٣- ضيف، شوقي، تيسير النحو التعليمي قديما و حديثا مع نهج تجديده، دون تاريخ.
- ١٤- ضيف، شوقي، المدارس النحوية، القاهرة، دارالمعارف، ط ٢، دون تاريخ.
- ١٥- العقاد، عباس محمود، عبقرية الامام علي، بيروت، المكتبة العصرية، ط ٢، ٢٠٠٧ م.
- ١٦- المبارك، مازن، النحو العربي العلة النحوية: نشأتها و تطورها، بيروت دارالفكر، ط ٣، ١٩٨١ م.
- ١٧- مجاهد، عبد الكريم، دراسات في اللغة و النحو، عمان، دارالمشرق الثقافي، ط ٢، ٢٠٠٦ م.

- ١٨- مصطفى، ابراهيم، احياء النحو، القاهرة، ، ط ٢ ، ١٩٩٢م.
- ١٩- الاندلسي، ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، بيروت، دار احياء التراث العربي، ط ٢ ، ٢٠٠٨م.
- ٢٠- الوردي، علي، اسطورة الأدب الرفيع، قم، منشورات سعيد بن جبير، ط ١ ، ٢٠٠٥م.

استعمال حروف المعاني وأثرها في البنية الإيقاعية عند الجواهري

م.م. جواد عودة سبهان^(١)

ملخص البحث

من الظواهر النحوية البارزة في أسلوب الجواهري الشعري كثرة استعماله لحروف الجر واعتمادها في كثير من بنائه الشعري وتوظيفها من الناحية الجمالية. إن حرف الجر حاجة معنوية ولكنه في الشعر ليس كذلك وإنما هو حاجة لفظية قبل كل شيء، وهذا ما يؤكد عليه هذا البحث. الجواهري شاعر مولع باستعمال حروف الجر إلى حد غريب فهو يستعمل الحرف مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً في البيت الواحد. إن هذا البحث يدرس هذه الظاهرة مع كل ما يترتب عليها من آثار في البيئة الإيقاعية، وبالتالي علنا نستطيع أن نتوصل إلى سر روعة الجملة العربية عند هذا الشاعر المبدع.

المقدمة

لا ينكر أن حروف الجر كثيرة في لغتنا العربية كما لا ينكر تشعب معاني هذه الحروف وكثرة تداخل هذه المعاني بعضها في بعض وهذه المعاني تمد ظلالها الشعرية من خلال البيت الواحد أو المقطع أو القصيدة بأفئاف شعرية وارفقة. وهي بلا شك تتعلق بمتعلقاتها فترتبط بها في الجملة ارتباطاً وثيقاً فضلاً عن أنها تستعمل هي ومجروراتها في أحد ركني الجملة، فترد شبه جملة مع المبتدأ في الجملة الاسمية، كما ترد شبه جملة هذه حالاً أو نعتاً أو صلة للموصول إلى غير ذلك من المسائل النحوية الأخرى. فالجار والمجرور يشكلان في الجملة العربية ركناً أساسياً حيناً وفضله ربما لا يستغني عنها الكاتب أو الشاعر في تعبيرهما حيناً آخر. ولعل بالشاعر حاجة إلى توظيفها معاً في الجملة الشعرية أكثر مما بغيره إليهما وذلك لما يؤديان من معانٍ كثيرة وما يقدمان من فنون بلاغية وما يسدان من ثغرات كبيرة أو صغيرة في البناء الشعري. غير أن الجواهري يستعمل حروف الجر استعمالاً واسعاً يلفت إليه قارئ شعره إذا ما أمعن النظر فيه، وهذا الاستعمال يؤكد أن الشاعر كان يعطي الناحية اللفظية في شعره أهمية تكاد تكون أكثر مما يعطيها للناحية المعنوية ولذلك فهو أحياناً يضحى باستقامة المعنى ووضوحه من أجل تركيبة معينة تتفق ومزاجه الموسيقي فيصيب أحياناً وربما لا يصيب. ومن هنا كان واحداً من هذه الاهتمامات إكثاره من استعمال حروف الجر في البيت الواحد يسد بها كثيراً من الفجوات والفراغات لتقوية بنائه الشعري.

ولقد تتبعت كل بيت في ديوانه ووقفت على كل حرف جر استعمله الشاعر فوجدت أن ولعه يصل أحياناً إلى استعمال خمسة أحرف في البيت الواحد^(٢). لقد أدرك الجواهري أدراكاً واعياً خطورة الإيقاع المتحرك وقدرته على السمو بفن الشعر إلى ارتفاع الذرى، فأهتم به اهتماماً بالغاً، (وقد أعلن ذلك صراحة وسجله ببيان واضح، فمما يدل على ولعه الكبير بالإيقاع وحرصه المتزايد على أن يكون شعره ذا فضائل إيقاعية أكثر من أي شيء آخر، قوله)^(٣)

أعيذ القوافي زاهيات المطالع مزامير عزاف اغاريد ساجع^(٤)
لطافا بأفواه الرواة نوافذا إلى القلب يجري سحرها في المسامع

وهو في نص آخر يتباهى بامتلاكه زمام ادوات الإيقاع حتى أنها تقاد له مطيعة كيفما شاء.

إننا لي من طبيعتي قيثار بالذي شئت تنطق الاوتار^(٥)

وفي نص آخر يشير إلى احكام صنعته الإيقاعية وتمكنه منها، يقول:

وهل لك والدنيا تغني بولد لـ تموز الا ان تغني فتطربا
وهل لك عذر والقوافي نجبلها متى شئت قيثارا ونايا مشببا^(٦)

وإذا أراد الجواهري أن يقدم رؤيته وفهمه للشعر، ركز على الجانب الإيقاعي فيه، فهو هدهدة للسمع، وفي ذلك يقول:

يا دجلة الخير: إن الشعر هدهدة للسمع ما بين ترخيم وتنوين^(٧)

كل هذا يظهر أهمية الإيقاع عند الجواهري، بيد أن شعر الجواهري لم ينل قسطه الوافي من الدراسة الإيقاعية، إذ لا يقع الباحث إلا على حديث غير منفصل عن إيقاع الشعر في سياق عمل الاستاذ مقداد محمد شكر الموسوم بـ (البنية الإيقاعية في شعر الجواهري) حيث ركز الباحث على دراسة حروف المباني دون حروف المعاني وعمل د. علي عباس علوان الموسوم بـ (تطور الشعر العربي الحديث في العراق) وحديث آخر مختصر عند د. سليمان جبران في كتابه (مجمع الاضداد) دراسة في سيرة الجواهري وشعره، والبحث الموسوم بـ (الحكمة في شعر الجواهري) دراسة أدبية للدكتور علي محمد حسين الخالدي، وكتاب (لغة الشعر عند الجواهري) للباحث علي ناصر غالب ومقالة كتبها الأديب غزاي درع الطائي ونشرت في جريدة الزمان تحت عنوان (اطلالة على مطولة الجواهري) والدكتورة خيال الجواهري في كتابها الموسوم (مسيرة قرن) حيث جمعت العشرات من مقالات النقد والكتاب ولا يفوتنا أن نذكر الاستاذ عبد الكريم الدجيلي والاستاذ جبراً والاستاذ حسن العلوي والدكتور عبد الحسين شعبان والدكتور زهدي والدكتور وسام الخالدي. إذ أن معظم هذه الدراسات، لم تفرد لها دراسة مستقلة لذاتها، بل كانت تعالجها بشكل متصل مع شعر الشاعر. في هذه المعاني يكمن الدافع الذي وجهني لاختيار الموضوع ودراسته وقد يضاف إلى ذلك مما يعد دافع آخر وأن الدراسة الإيقاعية ذات أهمية كبيرة وضمن مستويات الدراسة النقدية، (وذلك لأن الإيقاع أهم ادوات التذوق الأدبي التي يسعى الباحث إلى الإمساك بها)^(٨).

(٢) - ديوان تنظر الابيات، ج ٥، ص ٧٥٨، ج ٥، ص ٨٧١، ج ٣، ص ٤٨٤، ج ٥ ص ٧٨.

(٣) - البنية الإيقاعية في شعر الجواهري، مقداد محمد شكر، ص ٣٣.

(٤) - الديوان، ج ٣ ص ٢٢.

(٥) - م. ن، ج ٥، ص ١٣٧.

(٦) - م. ن، ج ٧، ص ١٢٣.

(٧) - م. ن، ج ٥، ص ٨٩.

(٨) - الاسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د. ابتسام احمد حمدان، ص ٧.

وقد حاولت هذه الدراسة ان تحيل النظر في جوانب استعمال حروف المعاني واثراها في البنية الإيقاعية، واستقام لها ذلك من خلال ثلاثة مباحث، كان الاول منها مخصص لمتابعة الموازنات الصوتية في حين اختار المبحث الثاني إيقاع التكرار عبر تأسيسات التكرار العمودي والافقي، اما المبحث الثالث فكان ضروب اخرى من توظيف حروف المعاني. ثم ختمت الدراسة بمخلاصة لأهم النتائج مع قائمة المصادر مفهرسة.

المبحث الاول: الموزونات الصوتية

إن أول ما يطالعنا في ديوانه، قصيدته (الثورة العراقية) التي تقع في أربعة وسبعين بيتاً، أستعمل فيها الجواهري حرف الجر واحداً وثمانين مرة لثمانية حروف أبرزها: (من) (١٣ مرة)، و(في) (١٠ مرات) و(الياء) (٩ مرات)، و(على) (٦ مرات). ونستمر على سبيل المثال في قصيدته (الشاعر السليب) التي تقع في تسعة عشر بيتاً، أستعمل فيها الجواهري حرف الجر خمسا وعشرين مرة لستة حروف أبرزها: (من) (٨ مرات)، و(اللام) (٥ مرات)، و(الياء) (٣ مرات).

وقصيدته (شكوى وآمال) التي تقع في ثمانية عشر بيتاً استعمل فيها حرف الجر ثلاثة وعشرين مرة لستة حروف أبرزها: (في) (٨ مرات)، و(من) (٤ مرات)، و(الياء) (٤ مرات)، و(اللام) (مرتان)، وقصيدته (ذكرى اللوثة) التي تقع في ثلاثة وعشرين بيتاً استعمل فيها حرف الجر ثمانية وثلاثين مرة لسبعة حروف أبرزها: (في) (٨ مرات)، و(عن) (٤ مرات)، و(من) (٤ مرات) و(الياء) (٤ مرات)، و(على) (٣ مرات)، و(إلى) (مرتان)، و(اللام) (مرة واحدة).

وإذا أردنا أن نتبع القصائد التي أستعمل فيها حرف الجر وما إلى ذلك تطاول البحث علينا، وحسبنا ما ذكرناه شهادة وبرهاناً^(٩).

لذا أفاد الجواهري كثيراً من الجار والمجرور في موازنة البيت، ولهذه الموازنة مزية جليلة في تكوين الإيقاع المتحرك، ولذلك أولاهما دارسو الإيقاع عنايتهم، فهي عند بعضهم تشكل أعمدة الإيقاع المتحرك^(١٠)، في حين اتسعت رقعتها لدى بعضهم الآخر لتشمل جميع المقومات الصوتية الإيقاعية التي تشكل مع الإيقاع العروضي البنية الإيقاعية للشعر العربي^(١١)، فضلاً عن مردودها الصوتي وفعاليتها في إغناء الإيقاع، فهي لون من ألوان الإيقاع المعجب في الشعر^(١٢)، وفضلاً عن كونها ظاهرة شعرية عامة في الشعر العربي فإنها تبدو لنا ظاهرة ذات طابع خاص في شعر الجواهري وذلك لكثرة استعمالها وأثر الاستعمال في الإسهام في معمارية البيت وقوته في تشكيل الإيقاع المتحرك.

وللموزونات الصوتية حضور كبير وواضح في تشكيل الإيقاع المتحرك لشعر الجواهري، وأبسط صورها الموازنة المعقودة بين تركييين متوزنين على شاكلة قوله.

قامت على جسرٍ من الحسراتِ يرسى على موجٍ من العبرات^(١٣)

(٩) - أنظر قصائده (الروضة الغناء)، ج ١ ص ٩٨، (النشيد الخالد) ج ١ ص ١٠٢، (سلام على أرض الرصافة) ج ١ ص ١٠٣، (صوت من النجف) ج ١ ص ١٠٥، (تذكر العهد) ج ١ ص ١١٠، (يا فراتني) ج ١ ص ١١١، (النجوى) ج ١ ص ١١٢، (سبيل الجماهير) ج ٢ ص ٢٣٩، (إلى البعثة المصرية) ج ٢ ص ٢٤٩، (وردة بين أشواك) ج ٢ ص ٢٧٤، (قتل العواطف) ج ٢ ص ٣١٧، (ثورة النفس) ج ٢ ص ٣٢٦، (أجب أيها القلب) ج ٣ ص ٣٩٦، (اللاجئة في العيد) ج ٤ ص ٦٢٨، (أزج ركابك) ج ٥ ص ٨٨.

(١٠) - قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي، دكتور احمد جاسم، ص ١٢٧.

(١١) - تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية للشعر، د. محمد العمري، ص ١١.

(١٢) - تمهيد في النقد الحديث، روز غريب، ص ١٠٥.

(١٣) - الديوان، ج ٤، ص ٧٢٨.

فقد وازن بشكل رائع ومبدع بين شطري البيت مستعملاً نوعين من حروف الجر مع مجروريهما (على جسر - على موج)، (من الحسرات - من العبرات) وذلك ما يجعل إيقاع الموازنة اشد كثافة وواضح حضوراً. ومثله قوله : -

وعلى العيون من المغاضة جمرةً وعلى القلوب من الهوان غشاءً^(١٤)

ومثله قوله

في الكوخ طفل غريب حوله بقر وفي المقاصر طفل حوله سرر^(١٥)

أكررا نوع الحرف نفسه وبالموقع نفسه على خريطة البيت (على العيون - على القلوب)، (من المغاضة - من الهوان). ومن ذلك قوله :

وعلى العيون من الاسى رهج وعلى الوجوه من الجوى وهج^(١٦)

غير أن الجواهري لا يكتفي بالموازنة بين شطري البيت ، بل أحياناً يجعل التوازن في موقعين عروضيين متميزين (العروض والضرب).

فإذا ما وقع التوازن في هذين الموقعين ازدادت قابليته على استقطاب النغمة الإيقاعية ، وإثارة انتباه المتلقي ، ومثال ذلك قوله : -

تلوذ الدهور فمن سجدٍ على جانبيه ومن رُكعٍ^(١٧)

وقوله : -

تعاليت من مَفزعٍ للحتوفِ وبورك قبرك من مَفزعٍ^(١٨)

ولا تقتصر الموازنات الصوتية في صورة تقفيات داخلية واقعة في موقع محدد من بنية الوزن على الابيات المفردة ، فقد يتسع مداها لتشمل بيتين كما في قوله

سلام على طيات النذور سلام على الواهب الناذر

سلام على غمرات النضال سلام على سابح ماهر^(١٩)

وقوله :

ومن الزاحفين كالودود هوناً تحت رجلي مستعمر غلاب

ومن الصائلين في الحكم زوراً كخيول مسومات عراب^(٢٠)

وقد يوازي الجواهري بين تركيبين متوازيين مع الفصل بينهما بالاداءة (او) التي بدت كالمركز الإيقاعي يكتنفه من جانبيه التركيبان المتوازيان كما في قوله^(٢١) : -

والعمر كالليل نحيه مغالطة يشكى من الطول أو يشكى من الكسل

(١٤) - م. ن. ج. ٤، ص ٥٨.

(١٥) - م. ن. ج. ٤، ص ٧٢٣.

(١٦) - م. ن. ج. ٣، ص ٥٨.

(١٧) - الديوان، ج. ٣، ص ٤٩١.

(١٨) - م. ن. ج. ٣، ص ٤٩١.

(١٩) - م. ن. ج. ٤، ص ٦١٨.

(٢٠) - م. ن. ج. ٢، ص ٣٨٢.

(٢١) - م. ن. ج. ٥، ص ٣١٤.

فقد وزن بين تركيبين متوازنين (يشكى من الطول) و (يشكى من القصر) في عجز البيت مع الفصل بينهما بالاداة او. كما قد يوازن بين تركيبين من دون فصل بينهما بعنصر لغوي كما في قوله : -

وطارح به سجع الحمام فإنه لهات على الجرحى نواح على الصرعى^(٢٢)

فقد جاء التوازن في هذا البيت بين تركيبين (لهات على الجرحى) و (نواح على الصرعى)، ومما زاد من اثر ايقاع هذه الموازنة التركيبية انها اقتسمت ايقاع البحر العروضي (الطويل) بالتساوي، فاستقل كل تركيب بنصف تفعيلات العجز، أي أن كلا منهما كان على وزن (فعولن مفاعيلن)، وذلك ما من شأنه أن يبرز إيقاع البحر ويعززه لتلتقطه الأذن بسهولة.

كما يلاحظ ان الموازنة في المثالين السابقين تحيرت الشطر الثاني موقعا لها وذلك راجع (الى ان العجز في بيت الشعر يتوج التركيب ويحتضن القافية، فمن الطبيعي ان يظهر فيه اثر الفن اكثر من الصدر)^(٢٣) كما تظهر الموازنات الصوتية على المستوى العمودي، بعد ان كانت متجلية في المستوى الافقي في الامثلة السابقة مثل قوله^(٢٤) :

ان هذا العمر يخترق كاختراق الثوب بالإبر
وهو بالاوهام يسترق كاستراق الغيم للمطر
والحال نفسها تكررت في قوله^(٢٥) :
مواطر الغيث حي جانب الوادي وهدديه بإبراق وارعاد
مدى به بسط الاعشاب زاهرة وطرزيتها بأزهار واوراد
وقوله^(٢٦) :

وصليب عود حين بعض مرونة في ضعفها خطر من الاخطار
وطري نفس حين بعض صلابة في عقمها حجر من الاحجار
لا يخفى ان الالفاظ المتوازنة في الشطرين تتوازي على المستوى العمودي (بإبراق - بأزهار - كاختراق - كاستراق)، (في ضعفها خطر من الاخطار - في عقمها حجر من الاحجار). فالقمة الايقاعية السمعية للتوازن معززة بالشكل البصري الناجم عن كتابة الشطرين بطريقة متعامدة، مما يجعله اقدر على تحريك المتلقي الذي تشد المماثلة الايقاعية انتباهه.

وفي ابيات اخرى يأتي ايقاع الموازنة ناشئا من التشابه في النسق التركيبي من ذلك قوله^(٢٧) :
الشعر في تأثيره والغيث في آثاره والشمس في الاشراق
(الشعر في تأثيره - والغيث في آثاره)
وقوله^(٢٨) :

دمتم ودام المجد في تشريفه جودا، ودام الفضل في تأليفه
(المجد في تشريفه - الفضل في تأليفه)
وقوله^(٢٩) :

- (٢٢) - الديوان، ج ٥، ص ١١٧
(٢٣) - خصائص الاسلوب في الشوقيات، ص ٧٧
(٢٤) - الديوان، ج ٥، ص ١١٧.
(٢٥) - م. ن، ج ٥، ص ١١٧.
(٢٦) - م. ن، ج ٣، ص ١٤٠.
(٢٧) - الديوان، ج ١، ص ٣٤.
(٢٨) - م. ن، ج ١، ص ١٣٥.

كالسيف في تحذيره والسيف في تطبيقه والرمح في تثقيفه
(السيف في تحذيره - والسيف في تطبيقه - والرمح في تثقيفه)
وقوله^(٣٠):

كالعود في اهزاجه، والسهم في اصماته، والطرف في ايمائه
(العود في اهزاجه - والسهم في اصماته - والطرف في ايمائه)
وقوله^(٣١):

أفي الغنم أشجع من قسورة وفي الغرم أجبن من صافر
(في الغنم - في الغرم - أشجع من قسورة - أجبن من صافر)
يلاحظ في الايات أنها تتكون من وحدات دلالية يشكل كل منها وحدة ايقاعية بارزة الحدود واضحة المعاني وهذا التطابق يعمل على بروز النغم.

ومن الضروري ان نقف قليلا مع روعة امثال التقاسيم الموسيقية في شعره والتي وظف فيها الجار والمجرور في كثير منها بشكل رائع من ذلك قوله^(٣٢):

ونمزج من ماء الفراتين جرعة بذكراه مما عب من صفوه جرعا
وقوله^(٣٣):

ودر بالفكر في خلد الليالي وجل في الكون رأيا مستفادا
وقوله^(٣٤):

عصفت بأنفاس الطغاة رياح وتنفست بالفرحة الأرواح
وكم من خمول لاح وجه مترف وكم من نبوغ شع في عين عادم^(٣٥)
تبيت على وعد قريب بفتنة وتضحى على قرن من الشر ناجم
في اليسر نار لمسعووين أججها نبل وفي العسر نار شهبها الحنق^(٣٦)
في دمي تمشي الحروف دما وسدى تهف على قلبي^(٣٧)
وبكل بيت من قصيدي منشد وبكل حفل من شذات مجمر^(٣٨)
وشواهد ذلك في شعر الجواهري كثيرة^(٣٩).

ويبقى رصد القافية أساسيا ومصبا لتوالي هذا التقسيم وضرورة استعمال ما يدفع القافية إلى رويها من رفع، أو نصب، أو جر، إلا أنه من الملاحظ تماما أنه مولع بأن تأتي القافية المجرورة مجرورة بحرف الجر ضمن مجيئها مجرورة بسبب آخر كالإضافة والتبعية وغيرهما، فلو أخذنا قصيدته (أخي إلياس) مثالا لذلك

(٢٩) - م. ن، ج ١، ص ١٣٤.

(٣٠) - م. ن، ج ١، ص ١٢٤.

(٣١) - م. ن، ج ٤، ص ٧١٢.

(٣٢) - الديوان، ج ٤، ص ٤٢٨.

(٣٣) - م. ن، ج ٤، ص ٤٢٩.

(٣٤) - م. ن، ج ٤، ص ٧١٢.

(٣٥) - م. ن، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٣٦) - م. ن، ج ٦، ص ١٠١٠.

(٣٧) - م. ن، ج ٦، ص ٩٦٩.

(٣٨) - م. ن، ج ٦، ص ٥٩٠.

(٣٩) - أنظر: أمثلة على ذلك في ديوانه، ج ٤ - ص ٧٠٧، ج ٣ - ص ٤٣٣، ج ٥ - ص ٧٧٦، ج ٢ - ص ٣٧٢، ج ٢ - ص ٣١٦،

ج ٥ - ص ٧٥٦، ج ٣ - ص ٥٨٠، ج ٤ - ص ٦٨٨، ج ٢ - ص ٤٥٤، ج ٤ - ص ٦٨٨، ج ٥ - ص ٨

۱۳۶

وقوله : -

نأت بي قرونَ عن زَهير وردني على الرِّغم مَنِي عِلْمَه بالطبائع^(٤٦)

وقوله : -

وجدتكَ في صورةٍ لم أرَ بأعظم منها ولا أروع^(٤٧)وقوله^(٤٨) : -

نذيرك من خلقٍ أطيل امتهانهُ وإن بات في شكل الضعيف المُسالم
ويا أبا الطير في وردٍ وفي صدرٍ في كل يوم له عَش على شجر^(٤٩)
لهفي على أمة غاض الضمير بها من مدعي العلم والآداب والدين^(٥٠)
في كل يوم بلا وعي ولا سبب ينزلن ناسا على حكم ويعلينا^(٥١)

وتكمن القيمة الجمالية لهذا الاختلاف في الحروف، في أنه يمثل حلقة مغلقة يرتبط فيها أول البيت بآخره، فيخرج بها عن حدود الحرف المفرد ويمثل تراكيب كاملة لتبدي كالمركز الإيقاعي. ان هذه الموازنات الصوتية ذات فاعلية إيقاعية، إذ تقوم بوظيفة الربط والتوكيل الإيقاعي، وقد يكون هذا الربط داخل إطار شطر واحد أو بيت واحد، أو بين البيت الشعري والذي يليه^(٥٢)، فضلا عن وظيفتها الجمالية المؤثرة في إيقاع القصيدة، فهي تعمل على أن يكون الإيقاع أكثر وضوحا، وأعمق أثرا، لذلك شبهها صاحب خصائص الأسلوب في الشوقيات بموسيقى الغناء التي تصاحب موسيقى الشعر، فتكسبه إيقاعا إضافيا، وطاقة جديدة في الأداء^(٥٣)، ومن هنا تكون دالا من دوال الإيقاع مما تزيد انسجاما وجمالا بالقدر الذي يسهم في البناء الشعري مما يجعله أقدر على تحريك المتلقي الذي تشد الموازنة الصوتية انتباهه، وتجعله أكثر استيعابا للإيقاع الذي تحمله ونصوص الجواهري السابقة حققت هذا المبدئ بمستوى عال.

المبحث الثاني: تكرار حروف المعاني

التكرار هو ملامح البناء في شتى الفنون^(٥٤)، وشكل من أشكال التنظيم في بناء القصيدة وعلامة بارزة في التشكيل الصوتي لها^(٥٥) من هنا تبدو أهميته في دراسة النص الشعري، وعلى وجه الخصوص الجانب الإيقاعي منه، والذي يهمننا في هذا البحث هو ما يصاحب تكرار من انبعاث للإيقاع، إذ إن جميع أنماط التكرار ترتبط ارتباطا وثيقا ومطلقا بقيمة سمعية ترفد الإيقاع^(٥٦)، فالأذن تنجذب إلى التكرارات الصوتية قبل أن يتدبر الإدراك أمر معانيها^(٥٧)، لذا يعد تكرار الحروف المنطلق الأول في الإيقاع المترك الذي يتركب

(٤٦) - م. ن، ج ٣، ص ٣٩٨.

(٤٧) - م. ن، ج ٣، ص ٤٩٣.

(٤٨) - الديوان، ج ٥، ص ١٩٢.

(٤٩) - م. ن، ج ٥، ص ٨٨٨.

(٥٠) - م. ن، ج ٥، ص ٧٨١.

(٥١) - م. ن، ج ٤، ص ١٩٩.

(٥٢) - المكونات الصوتية للإيقاع وأنماطه في الشعر والنثر، حامد مزعل حميد، ص ١٧٦.

(٥٣) - خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي، ص ٧٧.

(٥٤) - حروف القرآن، دراسة دلالية في علمي الأصوات والنغمات، د. نعيم اليافي، ص ١٠٦.

(٥٥) - نحو علم للعروض المقارن، د. سيد البحراوي، ص ١١٧.

(٥٦) - جرس الألفاظ ودلالاتها، د. ماهر مهدي، ص ١٣٩.

(٥٧) - البنيات الدالة في شعر أمل دنقل، د. عبد السلام المساوي، ص ٦٩.

منه النص الشعري ، فالشاعر حينما يكرر حرفاً بغية أو حروفاً مجتمعة ، انما يريد ان يؤكد حالة ايقاعية او يبرز منطقة من مناطق النص بنسيج ايقاعي يوفر امتاعاً لاذان المتلقين ، ومن الايقاع المبني على التكرار ، تكرار الحرف نفسه ، نحو :-

في السفح ، في قمم الثرى في البحر ، في خضر السهوب^(٥٨)
ويشكل تكرار الحرف (في) هنا لازمة تتكرر اربع مرات تكراراً قائماً على التساوي في عدد التكرارات لكل شطر مما ولد ايقاعاً جميلاً ومثل ذلك تكراره لحرف الجر (الى) بطريقة توزيع منتظمة اثنين لكل شطر :-

الى "ين" الى "حلب" تسمى الى "مصر" الى درب الزقاق^(٥٩)
وكما كرر الجواهري حرف الجر (الى) مرتين لكل شطر ، كرر حرف (على) مرة لكل شطر كما في قوله^(٦٠) :-

سلام على طيبات النذور سلام على الواهب النادر
وقوله^(٦١) ككرر حرف الجر (من) :
فإني من دمع عليكم أذيله شروبٌ ومن سوداء قلبي أكالُ
وقوله في تكرار حرف الجر (في) مرة لكل شطر :-
واليوم تشرق في النفوس وضاحة ويشيع في حلقاتها مصباح^(٦٢)
وقوله في تكرار (من)^(٦٣) :-
من ليل أيار نسيم عواطفي ومن النهار وقدحة جمراتي
وقد يكرر الجواهري الحرف نفسه في الشطر الثاني من البيت ، ومن ذلك تكراره لحرف الجر (الى) :-
يا سامر الحي بي شوق يرمضني الى اللذات الى النجوى الى السمر^(٦٤)
وفي بيت آخر يكرر حرف الجر (في) مرتين في الشطر الثاني ، على شاكلة قوله^(٦٥) :-
مدي لي يدا تمدد إليك يد لا بد في العيش او في الموت نتخذ
يبدو بجلاء ان تكرار الحرف في الشطر الثاني من البيت قد ولد ايقاعاً جميلاً ، مما يدل على ان الشاعر يتجه الى اختيار الحرف وكيفية تكراره وذلك من خلال اختصاصه بضيعة ايقاعية ميزته عن غيره .
ولا يكفني الجواهري بذلك ، بل يكرر الحرف نفسه في شطري البيت كما فعل ذلك في الابيات التالية :-

من مراقي تُعمي وهوات بُؤس من أشم ومن أخس أخس
نحن صرعى الهموم في كل وادٍ وضحايا الجلاّد في كل حين^(٦٦)
نامي على حمة القنا نامي على حسد الحسام^(٦٧)

- (٥٨) - الديوان ، ج ٥ ، ص ٧٥٨ .
(٥٩) - م . ن ، ج ٥ ، ص ٨٧١ .
(٦٠) - م . ن ، ج ٤ ، ص ٦١٨ .
(٦١) - الديوان ، ج ١ ، ص ١٣٠ .
(٦٢) - م . ن ، ج ٤ ، ص ٧١٢ .
(٦٣) - م . ن ، ج ٤ ، ص ٧٢٧ .
(٦٤) - م . ن ، ج ٥ ، ص ٣١٤ .
(٦٥) - م . ن ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .
(٦٦) - م . ن ، ج ٥ ، ص ١٩١ .
(٦٧) - م . ن ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

هو اصفى من اللجين واوفى في المعالي من الهضاب وأرسى^(٦٨)
يدفن شهد ابتسام في مراشفنا عذبا بعلقم دمع في مآقينا^(٦٩)
وقد يكرر الشاعر حرف الجر ضمن البيت تكرارا متنوعا، أي أنه يورد الحرف في الصدر او في العجز من ذلك، قوله في الابيات التالية :-

إذا تخلصت من هم أطحت به شبت هموم على انقاضه جدد
لي ثقة بالنفس أنعشتها كقاب قوسين من الانحلال^(٧٠)
على نخب الندامى من هفوف^(٧١) يحلو الذكريات ومن مجيب
وألواح كوجه الصبح بيض^(٧٢) يحلل بالسواد لها فضول^(٧٣)
ولم ار في الضرائب مثل ضد^(٧٣) الى ضد نقيص من ضريب

ويبدو ان هذه الابيات كلها قد توفرت على درجة عالية من التناغم الإيقاعي بفعل تكرار حرف الجر بشكل متنوع مرات عديدة، فاذا ما تكرر صوت الحرف كان كأنه ثغرة تتبع أخرى على وتر واحد فيتميز الرنين، ويقوى باعث الإيقاظ والتأثير^(٧٤)، وذلك ادعى الى اشارة الاشياء من لدن المتلقي، لأن التكرار الحرفي صيغة خطابية رامية الى تلوين النص الشعري بمميزات صوتية مثيرة، هدفها اشتراك الآخر (المتلقي) في عملية التواصل النغمي، ولذلك يعد التلازم الحرفي من اهم خصائص الخطاب الشعري في البنيات التشاكلية^(٧٥).

ولا يكتفي الجواهري بتكرار الحرف افقياً على مستوى البيت، بل قد يكرره ايضاً تكراراً عمودياً على مستوى أبيات متعددة. فمما تكرر فيه الحرف تكراراً عمودياً قوله :-

ومن ضحكاتك العذبات صبحا ام الناعيك ليلا يستزاد ؟
ومن إنسان عيني ام سواه يجلل بيتك الألق السواد ؟
ومن ذكرى ترقى ام افتقاد مشق تؤودني الكرب الشداد ؟^(٧٦)
وقوله :-

على النخيل ذي السعفات الطوال على سيد الشجر المقتنى
على الرطب الفض إذ يجتلى كوشي العروس وذ يجتنى^(٧٧)
وقوله كذلك :-

ومن الصدور الحابسات زئيرها ومن النفوس ومن اللهب إذا أدنى^(٧٨)
ومن السجون الداجيات فإنها كانت وما زالت لباغ مدفنا
ومن السياط فإن حر نشيدها بناهية الجلالاد كان ملحنا

(٦٨) - الديوان، ج ١، ص ٢٣٧.

(٦٩) - م. ن، ج ٤، ص ١٩٩.

(٧٠) - م. ن، ج ٧، ص ١٠٦٥.

(٧١) - م. ن، ج ٧، ص ١٠٥٣.

(٧٢) - م. ن، ج ٧، ص ١٠٥٣.

(٧٣) - م. ن، ج ٧، ص ١٠٦٤.

(٧٤) - البناء الصوتي في البيان القرآني، د. محمد حسن شرشر، ص ٩١.

(٧٥) - من جماليات إيقاع الشعر العربي، د. عبد الرحيم كنون، ص ٢٩٠.

(٧٦) - الديوان، ج ٤، ص ٧٠٩.

(٧٧) - م. ن، ج ٣، ص ٤٨٤.

(٧٨) - م. ن، ج ٤، ص ٧٠٩.

سلام على يومها المجتلى من التضحيات به الباهر
سلام على غدها المرتجى على باطن منه او ظاهر
سلام على المهج الطاهرات تسيل على الوطن الطاهر
تعاليت من محقق لا يطيق بيانا سوى النظر الخازر^(٧٩)
تعاليت من عاجز قادر وبوركت من دارع حاسر
تعاليت من قدوة تقدي ومن مثل منجح سائر
بك والضحايا الغريز هو شامخا علم الحساب ، وتفخر الارقام^(٨٠)
بك والذي ضم الثرى من طيبهم تتعطر الارضون والأيام
بك يبعث الجليل المحتم بعثه وبك القيامة للطغاة تقام
وبك العتاة يحشرون وجوههم سود ، وحشو أنوفهم إرغام
هذا التكرار لحرف الجر أسهم في إيجاد الترابط المتين بين الابيات ، فقد اصبح الحرف بؤرة ينبثق عنه المعنى كل مرة ، ثم تتضافر المعاني لإنتاج الصورة الكلية أي اراد الشاعر رسمها ، فالتكرار العمودي لحرف الجر في تلك الابيات قام بوظيفة ايقاعية متمثلة في اعادة الصورة السمعية للحرف من جهة ، وبوظيفة بنائية تجلت في تهيئة جسر رابط بين هذه الابيات وذلك عن طريق تصدير الابيات كلها بحرف واحد يتكرر ، فيعمل هذا الحرف المكرر على شد الابيات الى بعضها من خلال الايقاع.

المبحث الثالث: ضروب أخرى من توظيف حروف المعاني

وثمة في شعر الجواهري ضرب آخر من توظيف حروف المعاني الذي افاد منها في تغذية الجانب الايقاعي المتحرك لنصوصه الشعرية ، وهو توظيفه للحرف واستخدامه له حين يوصله لغيره فيستفيد مما يصيبه من تشديد يشد الفاظ البيت الواحد من ذلك : (عما ، مني ، لي ، إلي ، مما) ومن استعماله (عما) قوله^(٨١) : -

سائلي عما يورقني لا تكن خصمي ولا حكمي
لي نفس كيف بتصعيده والشوق مني أخذ بالحناق
فحاسب القوم عن كل الذي اجترحوا عما اراقوا وما اعتلوا وما احتكروا^(٨٢)
ومن استعماله (إلي) قوله^(٨٣) : -
فشكت إلي لغى تضيق حروفها عن ان تُسِغ السجع والاوزانا
ومن استعماله (لي) قوله^(٨٤) : -
ارجعي ما استطعت لي من شبابي يا سهولا لا تدثرت بالهضاب
ومن استعماله (مما) قوله^(٨٥) : -
يا صاحب المتعذبين وعنده مما يعانون العذاب الاكبر

(٧٩) - م. ن. ، ج ٤ ، ص ٦١٩ .

(٨٠) - م. ن. ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ .

(٨١) - م. ن. ، ج ٦ ، ص ١٢٦ .

(٨٢) - م. ن. ، ج ٢ ، ص ٣٦٢ .

(٨٣) - م. ن. ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ .

(٨٤) - م. ن. ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ .

(٨٥) - م. ن. ، ج ٤ ، ص ٥٩٠ .

ولعلَّ أروع من كل ذلك استعمال حرف الكاف الذي له ما يُميزه عن باقي الحروف لكونه يستعمل أكثر ما يستعمل في التشبيه. والتشبيه أسلوب بلاغي يعتمد الشاعر كثيراً في رسم كثير من صوره الشعرية ولا تتعدى وظيفته أن يأتي لهذا الغرض فحسب وإنما هو يشد الأبيات بعضها ببعض بما يرسم من صور متلاحقة ولذلك فتكراره أمر ضروري أحياناً في شد القصيدة وتقوية بنائها. لننظر معاً إلى الأبيات المتتالية - :

فأنا كالموج منصراً
وأنا كالبرق منطلقاً
وأنا كالعود يقضمه
وقوله^(٨٧) - :

فإنَّ البحر في مَدٍّ، وجزر
بنت الطبيعة كالندى
كالزهر يحمل شوكة

وقوله^(٨٨) - :

غُضِرَ الفتوة كالصبا خش الشبا
كشبا الحمام، وكالمروء لينا

وقوله^(٨٩) - :

وأقام الشعب جمهورية
كسنا الشمس متى ما تعلُّ تدنُّ

وقوله^(٩٠) - :

حسم الوداع فنحن في يده
كالطفل حين يُهزه مهدٌ

وقوله^(٩١) - :

وما شمس الظهيرة وهي تغلي
كمثل الشمس قاربت الزوالا

ومن المناسب أن يُذكر الحرف (رَبُّ) الشبيه بالزائد واحداً من الحروف المتميزة في الشعر وهو يرد كثيراً عند غيره من الشعراء، وربما كان فيه من عوامل الحاجة إليه في الشعر، بالنظر إلى التشديد على أنه صوتان مدغمان عن طريق تضعيف الحرف الذي غدا موضع ارتكاز نغمي، وقد يرد وحده من ذلك قوله - :

ويتخلف البناء، ورب بان
بنى من فكرة صرحاً وشاداً^(٩٢)

وقوله - :

ربَّ ليل سهرته أرقب النج
م بعين المدلِّه المعمود^(٩٣)

(٨٦) - الديوان، ج ٦، ص ٩٦٨.

(٨٧) - م. ن، ج ٧، ص ١٠٣٢.

(٨٨) - م. ن، ج ٧، ص ٧٠٧.

(٨٩) - م. ن، ج ٤، ص ٧٢١.

(٩٠) - م. ن، ج ٤، ص ٧٠٤.

(٩١) - م. ن، ج ٣، ص ٤١٠.

(٩٢) - الديوان، ج ٣، ص ٤٣٠.

وقوله :-

رَبِّ مَلِيُونِ جَسَّةٍ فِي نَعُوشٍ مِنْ بَطُونِ الْوَحُوشِ عِبْرَ الْبَيْدِ^(٩٤)
أَوْ تَأْتِي (رُبَّ) مَحْذُوفَةٌ بَعْدَ الْوَائِ مَعَ بَقَاءِ عَمَلِهَا الْجَرِّ وَهَذَا غَلْبًا مَا يَقَعُ فِي أَوَّلِ الْأَيَّاتِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :-
وَلَيْلٍ بِهِ تَمَّ السَّنَا عَنْ سَدُوفِهِ فَنَمَتْ بِمَا تَطْوِي عَلَيْهِ الْأَضَالَعُ^(٩٥)

وقوله :-

وَمُؤْتَمِرٍ تَعَجَّلَ عَاقِدَهُ وَهْ وَمُؤْتَمِرٍ سَيُؤْذِنُ بَانِعِقَادٍ^(٩٦)
وَمِنْ رَوَائِعِ تَوْظِيْفِهِ اسْتِعْمَالَهُ حَرْفِ الْجَرِّ مَعَ الضَّمَائِرِ وَبِذَلِكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَخْدِمَ أَكْبَرَ عَدَدٍ مِنْ حُرُوفِ
الْجَرِّ فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ :-

وَسَقْنَا النَّاسَ مَكْرَهَةً عَلَيْهِ عَلَى يَدِ نَاعِمِينَ بِهِ وَقَاحٍ^(٩٧)
وقوله كذلك^(٩٨) :-

أَعْيَذُكَ مِنْ مَصِيرِ نَحْنٍ فِيهِ لَقَدْ عَوَّذْتُ مِنْ أَجَلٍ مَتَاحٍ
وقوله^(٩٩) :-

أَقْلَتْنِي مِنَ الزُّورَاءِ رِيحَ إِلَى "يَافَا" وَحَلَقَ بِي عَقَابُ
وقوله^(١٠٠) :-

مَنْعَ إِلَيْكَ سَلَامٌ لَا يَقُومُ لَهُ سُنُّ الْيَرَاعِ وَلَا يَقْوَى بِهِ الْوَرَقُ
وقوله^(١٠١) :-

أَنَا لِي دِينَانٌ : دِينَ جَامِعُ عِرَاقِي وَغِرَامِي فِيهِ دِينَ
وقوله^(١٠٢) :-

أَنَا الْعِرَاقُ لِسَانِي قَلْبُهُ وَدَمِي فِرَاتُهُ وَكِيَانِي مِنْهُ أَشْطَارُ
وَالْجَوَاهِرِي حِينَ يُولَعُ بِاسْتِعْمَالِ حُرُوفِ الْجَرِّ بِهَذَا الْقَدْرِ الَّذِي مِثْلُنَا لَهُ إِنَّمَا يَصِلُ أَحْيَانًا إِلَى اسْتِعْمَالِ
خَمْسَةِ مَوَاقِعَ لِحُرُوفِ الْجَرِّ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ^(١٠٣) :-

وَيَا أَخَا الطَّيْرِ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدْرٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ عَلَى شَجَرٍ
فَقَدْ اسْتَعْمَلَ (فِي) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَضْلًا عَنْ حَرْفَيْنِ آخَرَيْنِ هَمَا (لَهُ - عَلَى) وَقَوْلُهُ كَذَلِكَ^(١٠٤) :-
فَمِنْ عَنَاءٍ بَلِيَّاتٍ نَهَكَتْ بِهَا إِلَى عَنَاءٍ وَمِنْ دَاءٍ إِلَى دَاءٍ

(٩٣) - م. ن. ج. ٥، ص ٧٦٨.

(٩٤) - م. ن. ج. ٥، ص ٧٦٨.

(٩٥) - م. ن. ج. ٥، ص ٧٦٨.

(٩٦) - م. ن. ج. ٤، ص ٥٣١.

(٩٧) - الديوان، ج ٣، ص ٤٤٥.

(٩٨) - م. ن. ج. ٣، ص ٤٥٥.

(٩٩) - م. ن. ج. ٣، ص ٤٥٠.

(١٠٠) - م. ن. ج. ٦، ص ١٠١٠.

(١٠١) - م. ن. ج. ١، ص ١٣٢.

(١٠٢) - م. ن. ج. ٤، ص ٦٩٧.

(١٠٣) - م. ن. ج. ٥، ص ٨٨٨.

(١٠٤) - م. ن. ج. ٢، ص ٩١.

فقد استعمل (الي) مرتين و (من) مرتين فضلاً عن حرف آخر هو (بها).
ومن استعمله أربعة مواقع لحروف الجر قوله^(١٠٥) :-
عن نخب الندامى من هتوفٍ بحلو الذكريات ومن مجيب
فقد استعمل (من) مرتين فضلاً عن حرفين آخرين هما (على) و (الياء) وقوله كذلك^(١٠٦) :-
لن أتوب وفي دمشق هوى أصلي عليه ويصطلي بي
وقوله وقد استعمل ثلاثة مواقع لحروف الجر كقوله^(١٠٧) :-
وقد حمدت شفيعا لي على رشدي أما وجدت على الاسلام وأبا
وهي كما يلاحظ كثيرة^(١٠٨) فكأنما تعهد الشاعر الإكثار منها سدا لرغبته الملحة في تطريز أبياته في هذه
الحروف فيكسو البيت بذلك جمالا إيقاعيا مرده الى انس المتلقي.
ولعل أوضح دلالة لولع الجواهري بحروف الجر انه اهتم بمطالع قصائده اهتماماً كبيراً لذا بدأ بعضها
بحروف الجر ومجرورة لا على سبيل ما يدل عليه الحرف من المعنى ولا من أجل معلقة أو مجرور وإنما وجد
الشاعر في هذا الحرف نفسه أساساً متيناً يقيم عليه البيت ثم القصيد، ومثال ذلك قوله :-
على رغم أنف الموت ذكرك خالد ترن بسمع الدهر منك القصائد^(١٠٩)
ومثل هذه البداية قصيدته :-
في ذمة الله ما ألقى وما أجد أهذه صخرة أم هذه كبد^(١١٠)
وكذلك مطلع قصيدته :-
من جديد شممت عطرك يندي وتمنيت من لقاءك وعدا^(١١١)
ومن ذلك مطلع قصيدته :-
بقلبي أم بنعشك حين مادوا ودمعي أم رثاؤك يستعاد^(١١٢)
وقوله^(١١٣) :-
برغم الالباء ورغم العلى ورغم أنوف كرام الملا
قد لا يكتفي الشاعر في مطلع قصيدته وإنما يأتي بجارين أحدهما في الصدر والآخر في العجز من ذلك
قوله^(١١٤) :-
على مجلسي مادمت حيا أخطها وفي مرقدني أن مت خطوا نصائحي

(١٠٥) - الديوان، ج٧، ص ١٠٦٥.

(١٠٦) - م. ن، ج٧، ص ١٠٦٥.

(١٠٧) - م. ن، ج١، ص ١١٧.

(١٠٨) - ينظر الديوان، ج٤، ص ٦٩٠ - ٦٨٩، ج٢، ص ٣٧٤.

(١٠٩) - الديوان، ج٢، ص ٣٥٣.

(١١٠) - م. ن، ج٢، ص ٣٧٥.

(١١١) - الديوان، ج٤، ص ٦٣٦.

(١١٢) - م. ن، ج٤، ص ٦٣٦.

(١١٣) - م. ن، ج٣، ص ٤٧٦. وينظر: م. ن، ج٥، ص ٨٣٢ و ج١، ص ١٢٣ و ج٢، ص ٢٨٢ و ج٣، ص ٤٧٦.

(١١٤) - م. ن، ج١، ص ١٢٠.

ومن الفطاعة أن يمد رعية في ظل دستور لها وشعار

ومثل ما يوظف الجواهري حرف الجر لمطلع قصيدته يوظفه لقافيته من ذلك قوله (١١٦) :-

ومشت عرسي لتسعيني وكما تهوى لتشمّت بي

وقوله (١١٧) :-

إيه لبنان والحديث شجون هل يطيق البيان دفعا لما بي ؟

ولما كان تحسين المطالع مما يهتم به الشعراء كثيرا، لذا نرى الجواهري لا يغفل ذلك من القيمة الايقاعية لمطالع قصائده

إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها المنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها (١١٨).

اما من حيث استعمال الجواهري حروف المعاني فيما يخص الكثرة والقلة فمن المعلوم ان عدد حروف الجر كما وردت في كتب النحو عشرون حرفا (١١٩)، وليست جميع هذه الحروف متساوية في الاستعمال كما إنها ليست جميعها صالحة للبناء الشعري ولذلك فإن الحروف التي استخدمها الجواهري في أغلبها هي الحروف الأصلية الكثيرة الاستعمال والمتداولة بين الكتاب والشعراء، وليس بين النحاة، ولعل أبرز هذه الحروف (من، في، الباء، على، اللام، عن، إلى)، تضاف إليها (رب والواو) إلا أن هذه الحروف يختلف استعمالها باختلاف الحاجة إليها أو إلى ميل الشاعر إلى استعمالها. ومن الملاحظ أن الجواهري شديد الولع في استعمال الحرف (من) أكثر من غيره وذلك للتناغم الموجود في حرف الميم وحرف النون كل على حده وللتجانس بين الحرفين في هذا التناغم.

ففي قصيدته (أرح ركابك) التي بلغ عدد أبياتها (١٢٧) استعمل الشاعر حرف (من) (٤٤ مرة)، وفي قصيدته (يا بن الفراتين) بأبياتها (١٦٤) استعمل (من) (٤٤ مرة) كذلك، وفي قصيدته (يا دجلة الخير) بأبياتها (١٧٣) استعمل (من) (٤٥ مرة)، وفي قصيدته (ذكريات من أثينا) بأبياتها (٦٦) استعمل الشاعر (من) (٢٠ مرة).

وبعد (من) يأتي الحرف (في) (١٢٠)، ولا نجد تعليلا لكثرة استعماله إلا كونها حاجة لغوية لا بد منها في التعبير عن معانيها المتعددة، ثم تأتي بعد ذلك الحروف الأخرى بقلّة وكثرة من دون تمييز.

الختام

١. من كل ذلك نتوصل إلى أن الحروف التي استعمالها الجواهري في أغلبها هي الحروف الأصلية الكثيرة الاستعمال المتداولة بين الكتاب والشعراء، وليس بين النحاة، إلا أن هذه الحروف يختلف استعمالها باختلاف الحاجة إليها أو إلى ميل الشاعر إلى استعمالها.

(١١٥) - م. ن. ج. ٣، ص ٤٥١.

(١١٦) - م. ن. ج. ٤، ص ٦٨٩.

(١١٧) - م. ن. ج. ٢، ص ٣٨٢.

(١١٨) - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٣٠٩.

(١١٩) - النحو الوافي، عباس حسن، ج ٢، ص ٣٣٨.

١٢٠ - ينظر الديوان، ج ١، ص ٦٣، ص ٧١، ص ٨٠، ص ٨٧، ص ١١٢، ج ٢، ص ٢٥٣، ص ٢٥٩، ص ٢٦٦، ص ٢٧٢، ص ٣٦٩، ج ٣، ص ٣٩٦، ص ٤٠٢، ص ٤٧٦، ص ٤٩٨، ص ٥٦٢، ج ٤، ص ٥٨٤، ص ٦١٠، ص ٦٣٤، ص ٧٠٢، ص ٧١٩، ج ٥، ص ٧٥٤، ص ٧٧٢، ص ٨٣٥، ج ٦، ص ٩٧٦، ص ٩٨٤، ص ١٠٠٩، ج ٧، ص ١٠٢٨، ص ١١٠٥، ص ١١٠٤.

٢. إنَّ هذا الاستخدام يؤكد أنَّ الشاعر كان يُعطي الناحية اللفظية في شعره أهمية تكاد تكون أكثر مما يُعطيه للناحية المعنوية، وذلك فهو أحيانا يضحي استقامة المعنى ووضوحه من أجل تركيبة معينة ومزاجه الموسيقي فيصيب أحيانا وربما لا يصيب.
٣. أفاد الجواهري كثيرا من دور الجار والمجور في موازنة البيت الشعري، وهذه الموازنة فضلا عن كونها صفة شعرية عامة في الشعر العربي، فإنها تبدو لنا صفة ذات طابع خاص في شعر الجواهري، وذلك لكثرة استعمالها وأكثر من هذا الاستعمال في الاسهام في البنية الإيقاعية وقوتها.
٤. اعتمد الشاعر على تكرار حرف الجر في توليد صور مختلفة يرتبط كل منها باللفظ المكرر، وفي هذا دليل على قدرة الشاعر وتمكنه من اشتقاق المعاني التفصيلية، التي يوطد بها المعنى العام.
٥. والجواهري حين يولع باستعمال حروف الجر بالقدر الذي مثلنا له إنما يصل أحيانا إلى استعمال خمسة مواقع بحروف الجر في البيت الواحد ليسد بها كثيرا من الفجوات والفراغات لتقوية بناءه الشعري. وقد جرت الإشارة إليها في هذا البحث.
٦. ظهر من خلال البحث أن تكرار الحرف المنطلق الأول للإيقاع المتحرك الذي يتركب منه النص الشعري، فالجواهري حينما يكرر حرفا بعينه أو حروفا مجتمعة، إنما يريد أن يؤكد حالة إيقاعية أو يبرز منطقة من مناطق النص بنسيج إيقاعي يوفر من خلاله امتاعا لآذان المتلقين.

المصادر والمراجع

- الاسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د. ابتسام أحمد حمدان، دار القلم العربي، حلب - سوريا / ط ١ / ١٩٩٧.
- اطلالة على مطولة الجواهري، غزاي درع الطائي، جريدة الزمان، بتاريخ ٢٤/٦/٢٠٠٩.
- البنان الصوتي في البيان القرآني، د. محمد حسن شرشر، دار الطباعة المحمدية، القاهرة / ط ١ / ١٩٨٨.
- البنيات الدالة في شعر امل دنقل، د. عبد السلام المساوي، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٤.
- البنية الإيقاعية في شعر الجواهري، مقداد محمد شكر قاسم، عمان، دار دجلة، ٢٠٠٨.
- تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر، د. محمد العمري، دار العالمية للكتاب، الدار البيضاء / ط ١ / ١٩٩٠.
- التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة اسلوبية، د. موسى ربابعة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، العدد ١، ١٩٩٠.
- تمهيد في النقد الحديث، روز غريب، دار المكشوف، بيروت - لبنان / ط ١ / ١٩٧١.
- جرس الافاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقد عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.
- حروف القرآن، دراسة دلالية في علمي الاصوات والنغمات، د. نعيم اليافي، مجلة الفيصل، العدد ١٠٢، السنة التاسعة، ذو الحجة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- خصائص الاسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية - تونس، ١٩٨١.

- ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، جمعه وحققه واشرف على طبعة د. ابراهيم السامرائي. د. مهدي المخزومي ود. علي جواد الطائي ورشيد بكتاش، مطبعة الاديب البغدادية - العراق، ١٩٧٣.
- الشعرية، قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي، د. احمد جاسم الحسيني، دار بنشر للنشر والتوزيع - دمشق / ط١ / ٢٠٠٠.
- المكونات الصوتية للايقاع وانماطه في الشعر والنثر، حامد مزعل حميد الراوي، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب لجامعة بغداد، ١٩٩٦.
- من جماليات ييقاع الشعر العربي، د. عبد الرحيم كنوان، دار ابي رقرق للطباعة والنشر، - الرباط / ط١ / ٢٠٠٢.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ابو الحسن حاز القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب، دار الكتب الشرقية - تونس، ١٩٦٦.
- نحو علم العروض المقارن، د. سيد البحراوي، مجلة المعرفة، العدد ٢٩٥، ١٩٨٦.
- النحو الوافي، عباس حسن، القاهرة، ١٩٦٣.

The Impact of the Meanings of prepositions in the rhythmic Foundation of Al-Jawheri's poetry

One of the Obvious syntactic phenomenon in Al- Jwahiri poetic style is his excessive use of preposition and his reliance on it in much of his poets.

The preposition is a moral need but in poetry is not. It is an articulatory need before anything and this what this research confirms.

Al- Jwahiri is attached to use prepositions to a large extent , therefore , he use the preposition once , twice or three times or even four times in a single verse of poetry.

This research studies this phenomenon with all its consequences in poetry , perhaps it may be possible for us to assimilate the secret of the beauty of the Arabic sentence in the writings of that poet.

القيود الدستورية على عمل السلطة التنفيذية

والتشريعية في العراق

م.م. خالد عبد الأمير الجاروش^(١)

م.م. رشا شاكر حامد^(٢)

المحتويات

المبحث الأول: الرقابة البرلمانية على السلطة التنفيذية

المطلب الأول: ماهية الرقابة البرلمانية وأطرافها

المطلب الثاني: أهداف الرقابة البرلمانية وأدواتها

الفرع الأول: أهداف الرقابة البرلمانية

الفرع الثاني: أدوات الرقابة البرلمانية

المبحث الثاني: الرقابة على دستورية القوانين

المطلب الأول: معنى الرقابة القضائية على دستورية القوانين

الفرع الأول: الرقابة القضائية بطريق الدعوى المباشرة

الفرع الثاني: الرقابة القضائية بطريق الدفع بعدم الدستورية

المطلب الثاني: تطبيق الرقابة على دستورية القوانين في ظل دستور العراقي لعام ٢٠٠٥

الفرع الأول: تكوين المحكمة الاتحادية العليا

الفرع الثاني: اختصاصات المحكمة الاتحادية العليا

الخاتمة

المقدمة

يفرض الدستور قيوداً على النظام السياسي في الدول حيث لا تتجاوز سلطاته التي حددها الدستور، وان لا تتدخل سلطة في اعمال سلطة اخرى أو تطغى احداها على الأخرى، وإنما تعمل جميع السلطات بشكل متعاون ومتوازن من أجل تحقيق وظيفة الدولة وكفالة الحقوق والحريات العامة للأفراد.

١ - كلية القانون، جامعة أهل البيت (عليه السلام)

٢ - كلية القانون، جامعة أهل البيت (عليه السلام)

لذلك فقد يفرض الدستور نفسه عقوبة على سلطة ما في داخل النظام السياسي، اذا متجاوزت حدودها الدستورية وخرجت على القيود التي فرضها الدستور.

وعليه فقد درجت النظم السياسية على اختلاف تنظيماتها وأنماطها التقليدية (رئاسية - برلمانية - جمعية نيابية او مختلطة) على تحديد اوجه التعاون مع التوازن، او الفصل بين سلطاتها.

وضمنت الوثيقة الدستورية وسائل لتحقيق ماتقدم، من خلال أدوات دستورية محددة بدقة وتتمثل فيها تقدم بما اسماء الفقه الدستوري، بأوجه الرقابة المتبادلة أساسا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، والتي تختلف في النظام البرلماني عنها في النظام الرئاسي، وتعني نظم الحكومات بهذه الدراسة اثباتا من مبدأ الفصل بين السلطات، وطبقا لطبيعة وظروف كل تنظيم سياسي سواء تمثلت في أدوات اتصال مع التوازن، أم أدوات انفصال بين السلطتين التشريعية والتنفيذية.

وعليه تبرز أهمية موضوع البحث بعنوان (القيود الدستورية على عمل السلطة التنفيذية والتشريعية في العراق)، هو من أجل بيان أهم الضمانات الدستورية التي كفلها دستور العراق لعام ٢٠٠٥ النافذ حاليا من أجل حماية نصوصه الدستورية من التجاوزات التي قد تحصل من قبل السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، ومن أجل ضمان عدم تدخل سلطة في عمل سلطة استنادا الى مبدأ الفصل بين السلطات، وكذلك من أجل ضمان التوازن في عمل كل سلطة من هذه السلطات ذلك لأن التزام السلطات في نصوص الدستور يعني ضمان الحقوق الأفراد وحرياتهم.

وكذلك نحاول من خلال هذا البحث طرح مشكلة وهي مدى فاعلية الضمانات والقيود الدستورية التي كفلها دستور العراق لعام ٢٠٠٥ في حكومات الوحدة الوطنية (الحكومة الائتلافية) حيث تنعدم المعارضة البرلمانية وتكون جميع الأحزاب المنتصرة في الانتخابات مشاركة في الحكومة.

وعليه ومن خلال كل مما تقدم أرتئينا تقسيم هذا البحث الى مبحثين المبحث الأول هو الرقابة البرلمانية على عمل السلطة التنفيذية والمبحث الثاني الرقابة على دستورية القوانين.

المبحث الاول: الرقابة البرلمانية على السلطة التنفيذية

تمارس البرلمانات عددا من الوظائف، تتراوح في مجالها ونطاقها من دولة الى أخرى، وذلك حسب الاطار الدستوري السائد واسلوب توزيعه الإختصاصات الحكومة كذلك تبعا لمدى تطوره الديمقراطي وقوة البرلمان وقدرة أعضائه.

وأحتراما للإرادة الشعبية ونزولا على مقتضيات المبادئ الديمقراطية المختلفة أقرت الدساتير في الأنظمة السياسية المعاصرة مبدأ إخضاع اعمال ادارة العامة للرقابة البرلمانية.^(٣)

ويعتبر هذا المبدأ صورة من الصور المختلفة للرقابة على اعمال الإدارة، والتي تختلف باختلاف الهيئة التي تمارسها وبأختلاف طبيعة هذه الرقابة، فقد تكون الرقابة ادارية، تباشرها الإدارة العامة بنفسها على أعمالها، لذلك يطلق عليها البعض الرقابة الذاتية، وقد تكون قضائية تباشرها المحاكم وتختلف باختلاف الهيئات القضائية داخل كل دولة، وقد تكون الرقابة سياسية وهي ما يطلق عليها بعض الكتاب اسم الرقابة الشعبية.

ان القصود بالرقابة السياسية أو البرلمانية، هي الرقابة التي يمارسها المجتمع عن طريق الهيئات النيابية أو عن طريق التنظيمات الشعبية سواء كانت ممثلة على مستوى الأمة أو على مستوى الوحدات الإقليمية.

(٣). وسيم حسام الدين الأحمد: الرقابة القضائية على أعمال الإدارة في النظام البرلماني والرئاسي، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، ٢٠٠٨، ص ٥.

ومن المسلم به بأن الرقابة البرلمانية هي جوهر الرقابة السياسية على أعمال الإدارة في ظل النظام النيابي عن طريق البرلمان التي تتمتع بحق محاسبة السلطة التنفيذية، بناء على المبادئ الدستورية التي تخول لها سلطة في الرقابة على نشاط الحكومة.

حيث يعتبر البرلمان هو جمعية مراقبين، ومهمته الأولى وربما الأكثر أهمية من التصويت على القوانين هي مراقبة الحكومة واجبارها على الالتزام بنصوص الدستور والقوانين العادية، عن طريق المناقشة، والأسئلة، والاستجواب، وسحب الثقة، ولجان التحقيق، وغيرها من طرق المراقبة.

كما تتحقق الرقابة البرلمانية، عن طريق مباشر في النظام البرلماني بممارسة الرقابة المالية، وذلك بمناسبة فحص وأ اعتماد مشروع الميزانية العامة، والتصديق على الحساب الختامي للإدارة المالية للدولة وبمناسبة طلب موافقته على مصروفات غير واردة في الميزانية أو زائدة على التقديرات الواردة فيها أو نقل أي مبلغ من باب إلى آخر من ابواب الميزانية.. الخ.

ولقد عالج الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ هذه المسائل بصورة صريحة حيث نصت المادة (٦٢) منه (أولاً: يقدم مجلس الوزراء مشروع قانون الموازنة العامة والحساب الختامي الى مجلس النواب لإقراره. ثانياً: لمجلس النواب، اجراء المناقشة بين ابواب وفصول الموازنة العامة، وتخفيض مجمل مبالغها، وله عند الضرورة ان يترح على مجلس الوزراء زيادة اجمالي مبالغ النفقات). ولكن حتى يتمكن البرلمان من ممارسة دورة الرقابة بشكل المطلوب لابد من توافر شرطين رئيسيين وهما:

الأول: ويتعلق بالمجالس النيابية نفسها، اذ يفترض أن تتحقق فيها السلطة والمقدرة والرغبة في مراقبة السلطة التنفيذية، ويتحدد ذلك من خلال الاطار القانوني اي الدستوري التي تنظم عمله، اما القدرة على ممارسة الرقابة، فلا تحددها القوانين المجردة، بل الامكانيات المادية والبشرية الملموسة التي توضع تحت تصرف اعضاء مجلس النواب للقيام بالمراقبة، فالغرض الرئيس من تأمين هذه الإمكانيات هو السماح للمجلس الحصول على أكبر قدر من المعلومات حول أداء السلطة التنفيذية اذ انه بدون هذه المعلومات يستحيل على النائب المراقب القيام بمهمته. وقد لاحظنا من خلال مراجعة نصوص دستور العراق لعام ٢٠٠٥ والنظام الداخلي لمجلس النواب العراقي، انهما قد هيئا لاعضاء مجلس النواب كافة الادوات القانونية التي تتيح له ممارسة دوره الرقابي وسوف نبحث فيه بشكل مفصل من خلال البحث.

ثانياً: تتعلق بالظروف العامة التي تعمل بها المجالس النيابية ذلك ان استعدادية المجلس النيابي للقيام بدوره الرقابي تتأثر بعوامل موجودة داخل المجلس وخارجه.^(٤)

حيث أن عمل المجلس الرقابي يتحدد بمادة علاقته بالسلطة التنفيذية، لذلك نلاحظ ان مجلس النواب العراقي على الرغم من وجود القوانين التي تتيح له مباشرة الرقابة الا الواقع السياسي لتشكيل الحكومة وهي حكومة ائتلافية تشارك فيها كافة الأحزاب المنتصرة في الإنتخابات، لذلك مما يجعل السلطة التنفيذية هي نسخة مصغرة من مجلس النواب وبالتالي الطعن بعمل السلطة التنفيذية يعني الطعن بالأحزاب المشاركة فيها مما يضعف من ممارسة الرقابة بالشكل المطلوب.

عليه ومن كل مما تقدم سوف نقسم هذا البحث الى مطلبين نتناول في المطلب الأول: ماهية الرقابة البرلمانية واطرافها.

(٤). المحامي وسيم حسام الدين الأحمد، مصدر سابق، ص ٩.

المطلب الأول: مامية الرقابة البرلمانية

أولاً: يقصد بالرقابة البرلمانية في النظام السياسي مجموعة السلطات التي تستعملها السلطة التشريعية في مواجهة السلطات الأخرى داخل الدولة لضمان احترام القانون.^(٥)

ولم يتفق الفقه الدستوري ولم يهتم كثيراً بوضع تعريف للرقابة البرلمانية على الرغم من أنها تعد وظيفة من أقدم وظائف البرلمانات في العالم، الأمر الذي انعكس على قلة التعاريف التي وضعها باحثي الفقه الدستوري، وعرف الدكتور حامد ربيع الرقابة البرلمانية، بأنها صورة من صور الضبط ولعل ما يؤخذ على هذا التعريف أنه لا يقر بوجود أي نوع من أنواع الرقابة البرلمانية في النظم السياسية الرئاسية، رغم أن بعض تلك النظم درجات، بما تفوق بكثير عما هو قائم في النظم البرلمانية.^(٦)

وقد عرفها الدكتور فارس عمران بأنها تقصي الحقائق من جانب السلطة التشريعية لأعمال الحكومة للكشف عن عدم التنفيذ السليم للقواعد العامة في الدولة وتحديد المسؤول عن ذلك ومساءلته.^(٧)

ونرى أن الرقابة البرلمانية هي شكل من أشكال الرقابة السياسية الذي تمارسه السلطة التشريعية على عمل السلطة التنفيذية ومدى مطابقة للدستور والقوانين النافذة أيًا كان شكل النظام السياسي.

ومن كل التعاريف السالفة الذكر نلاحظ أن الرقابة البرلمانية هي شكل من أشكال الرقابة السياسية لكنها ليست الوحيدة، أن الرقابة البرلمانية تظهر وبشكل واضح في النظام البرلماني حيث يوفر هذا النظام أدوات تساعد على القيام بعملها كالسؤال ولجان التحقيق والإستجواب والمسؤولية السياسية الفردية والتضامنية للوزراء على عكس النظام الرئاسي الذي لا يعرف سوى وسيلة تقصي الحقائق التي تلعب دوراً كبيراً في تعميق الرقابة البرلمانية في هذا النظام.

وكذلك تسعى الرقابة البرلمانية بشكل عام إلى الكشف عن عدم التنفيذ السليم للقواعد العامة في الدولة ومساءلة المسؤول سياسياً أو جنائياً هذا بالإضافة إلى كشف الأخطاء.

ثانياً: أطراف الرقابة البرلمانية

من المسلم به أن عضو البرلمان هو من يمارس الرقابة البرلمانية على عمل السلطة التنفيذية، لكن دور عضو البرلمان يختلف حسب النظام السياسي، برلماني أو رئاسي حيث يكون دور العضو في النظام البرلماني مقيد، لا يستطيع استخدام الكثير من أدوات الرقابة البرلمانية كالسؤال والإستجواب بسبب وجود درجة كبيرة من التماسك الحزبي داخل البرلمان، وترى ذلك بشكل واضح في النظام البرلماني العراقي حيث أنه بسبب الانتماء الشديد إلى الحزب وإن الحكومة تشكل من جميع الأحزاب الفائزة فإنه لا يمكن العضو البرلمان أن يمارس دوره من خلال الرقابة البرلمانية لأن العضو لا ينتقد عمل حزبه وبالتالي لا يصوت ضد حزبه.

أما النظام الرئاسي فإن العضو لا يعرف سوى استعمال تقصي الحقائق والرقابة على الميزانية بشكل أساسي دون غيرها من الوسائل.^(٨)

وتمارس الرقابة البرلمانية على ما يصدر من الوزير في نطاق صلاحياته الدستورية والوظيفية وأعمال الخاضعين له، وتشمل حياته الشخصية أيضاً، كما لا تقتصر الرقابة البرلمانية على أعمال السلطة التنفيذية، وإنما تمتد شاملة لما تصدره طبيعتها الإدارية، وهذا مفاده أن أعمال الحكومة وأعمال السيادة تخضع لها تماماً

(٥). المحامي وسيم حسام الدين الأحمد، مصدر سابق، ص ١٠.

(٦). د. حامد ربيع، مذكرات في النظرية السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٨٧، ص ٣٢٠.

٢. د. فارس عمران، التحقيق البرلماني في مصر والولايات المتحدة ولحقه عنه في بعض الدول العربية، مجموعة النيل العربية، ١٩٩٩، ص ٣٣٢.

(٧). د. أمين عاطف صليبا، دور القضاء الدستوري في إرساء دولة القانون (دراسة مقارنة)، مؤسسة الحديث للكتاب، لبنان، ٢٠٠٢، ص ٧٠.

خضوع الأعمال الإدارية ويختلف الطرف الخاضع للرقابة باختلاف النظام السياسي ففي النظام البرلماني يقصد رئيس الحكومة والوزراء هم الطرف الذي يخضع للرقابة من خلال مسؤوليتهم السياسية والجنائية أما بالنسبة للنظام الرئاسي يعتبر رئيس الجمهورية هو الطرف الذي يخضع للرقابة من خلال مسؤولية الجنائية.^(٨)

المطلب الثاني: أهداف الرقابة البرلمانية وأدواتها

سنقسم هذا المطلب الى فرعين نتناول في الفرع الأول اهداف الرقابة البرلمانية وفي الفرع الثاني أدوات الرقابة البرلمانية

الفرع الأول: أهداف الرقابة البرلمانية

يسعى أعضاء البرلمان من خلال ممارستهم للرقابة الى التأكيد على تطبيق الدستور والقوانين في الدولة من أجل تحقيق الصالح العام وكذلك مراقبة عمل الإدارة الخاضعة للسلطة التنفيذية منع انتهاكها للسياسات المقررة الوقوف تجاه الظلم الذي يتعرض له المواطنون على يد الإدارة. وكذلك تتولى مراقبة الموازنة العامة للدولة التي تتضمن الإيرادات والنفقات لمدة، كذلك الرقابة على ضغط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

كذلك تعمل الرقابة البرلمانية متابعة كل ماتم انجازه من خطط التنمية الاقتصادية. أي أن يعمل البرلمان بالإضافة الى التشريع القوانين هو مراقبة ومتابعة تنفيذ هذه القوانين من خلال الرقابة المستمرة عليها.^(٩) كذلك تهدف الرقابة البرلمانية كل مايتعلق بالأمن القومي للدولة مما يتعلق بالسياسات الخارجية والدفاعية للدولة.

فبالنسبة للسياسات الخارجية حيث يتم مرافقة كافة الإستثمارات العاملة في الداخل او الموجهة الى الخارج، وفيما يتعلق بالعمالة الأجنبية في الداخل والعمالة الوطنية في الخارج.^(١٠) ويتضح دور الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية للدول النامية من خلال الحفاظ على سيادة الدولة بما يتضمن محاولة تعبئة الرأي العام في مواجهة ماقد تتخذه السلطة التنفيذية من قرارات تهدف الى الإنغماس في الإقتصادات العالمية وفق شروط محكمة التي تقع كافة الدولة النامية في هذا الإطار. بالنسبة للسياسات الدفاعية فهي تهدف الى الرقابة على الجيش وذلك ليس فقط من خلال التحكم في قرارات الحرب وأيضاً في الموازنة العسكرية للدولة، التي من خلالها يتم التحكم المباشرة في كافة الشؤون الدفاعية الخاصة بالتصنيع والتدريب العسكري.^(١١) بالإضافة الى الأهداف الحزبية التي يسعها لها القائمون بالرقابة في كثير من الأحيان التي تحقق مصالح حزبية، ويحدث ذلك في ظل النظم السياسية التي تعتبر الأحزاب السياسية ذات مكانة وتأثير في المجتمع.

الفرع الثاني: أدوات الرقابة البرلمانية

تتعدد وسائل الرقابة البرلمانية على أعمال السلطة في النظم السياسية المختلفة، ولايمكن عملياً احصاء تلك الوسائل، نظراً لكثرتها وتباينها من نظام سياسي لآخر، ويمكن أن نورد أبرز تلك الوسائل في النظام البرلماني وفقاً لما اخذ به الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ على النحو التالي:

(٨). د. عمرو هاشم ربيع، الرقابة البرلمانية في النظم السياسية دراسته في تجربة مجلس الشعب المصري، مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٥.

(٩). د. محمد باهي ابو يونس، الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة في النظامين المصري والكويتي، دار الجامعة الجديدة للنشر، ٢٠٠٢، ص ٧٨.

(١٠). د. حامد ربيع، مصدر سابق، ص ٣٣٥.

(١١). د. حامد ربيع، نفس المصدر أعلاه، ص ٣٣٦.

أولاً: السؤال

هو استيضاح عن قضية معينة يوجهه أحد أعضاء البرلمان الى الحكومة او الى أحد الوزارات. ان طريقة الأسئلة مستمدة من التقليد البرلماني الإنكليزي، حيث كان الأعضاء الإنكليز لا يلجؤون الى الإستجواب إلا نادراً بسبب التماسك بين العضو وبين الحزب الذي ينتمي اليه لذلك كان يلجؤون الى توجيه الأسئلة، حيث خصص مجلس العموم الإنكليزي الثلاثة أرباع الساعة الأولى من كل جهة لتوجيه الأسئلة الى الوزراء التي يجب عليهم الإجابة عليها بإيجاز.^(١٢) وإذا كان السؤال يعني مجرد الإستفسار عن أمر معين والوقوف على حقيقة فهو لا يضمن معنى الإتهام او النقد للمسؤول كالأستجواب.

والسؤال يمكن أن يكون شفهياً ويمكن أن يكون كتابياً والأصل في السؤال أن لا يوجه إلا من عضو واحد ويجب أن يكون السؤال في أمر من الأمور العامة التي تختص فيها الحكومة، وقد أشار الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ على حق العضو في توجيه السؤال في المادة (٦١ / سابعاً) حيث نصت (لعضو مجلس النواب أن يوجه الى رئيس مجلس الوزراء والوزراء، أسئلة في أي موضوع يدخل في اختصاصهم ولكل منهم الإجابة عن أسئلة الأعضاء، وللأسئلة وحده حق التعقيب على الإجابة).

وكذلك نظم النظام الداخلي لمجلس النواب حق العضو في توجيه السؤال في المادة (٥٠) منه حيث نص (لكل عضو ان يوجه الى أعضاء مجلس الرئاسة أو رئيس مجلس الوزراء أو غيرهم من أعضاء الحكومة اسئلة خطية مع اعلام هيئة الرئاسة في شأن من الشؤون التي تدخل في اختصاصهم، وذلك للإستفهام عن أمر لا يعلمه العضو أو للتحقق من حصول واقعة وصل علمة اليها، أو الوقوف على ماتعزته الحكومة في أمر من الأمور)، فإذا كان الإجابة على السؤال شفها فيتم ادراجه في اقرب جلسته مناسبة وذلك بعد اسبوع على الأقل من تاريخ ابلاغه بالسؤال ولا يجوز يتأخر الرد على السؤال اكثر من اسبوعين. م/ ٥١. اما اذا كانت الأسئلة مرتبطة بموضوعات محالة الى لجان المجلس فلا يجوز توجيه السؤال إلا بعد تقديم للجان تقريرها للمجلس.

ويحق للعضو الواحد توجيه سؤال واحد فقط في الجلسة الواحدة م/ ٥٢، ويكون صاحب السؤال فقط حق التعقيب على الإجابة ولرئيس المجلس السماح حسب أهمية الموضوع أن يأذن لرئيس اللجنة المختصة بموضوع السؤال أو لعضو آخر بأبداء تعليق موجز أو ملاحظات موجزة م/ ٥٣ ويجوز للعضو سحب سؤاله في أي وقت كما ويسقط السؤال بزوال حقه مقدمة أو من وجه اليه. م/ ٥٤.

اذن من خلال النصوص اعلاه من الدستور العراقي ومن النظام الداخلي لمجلس النواب العراقي، نجد انهما قد وضعا كافة الاطر القانونية التي تتيح للعضو توجيه اسئلة في اي موضوع، لذلك نرى ان الدستور العراقي قد وفر للعضو الاطر الدستورية التي تمكنه من الحصول على كافة المعلومات حول اي موضوع او اجراء اتخذته الحكومة من اجل تمكينه من الاطلاع عليه من ثم مطابقته مع احكام الدستور والقانون فاذا رأى انه غير دستوري، فيحق للعضو ان يمارس الطرق الرقابية الاخرى التي يكون فيها اتهام للحكومة كالأستجواب.

ثانياً // طرح موضوع عام للمناقشة

يعتبر هذا الأسلوب في الفقه الدستوري من الأساليب الرقابية الهادئة التي تهدف الى اجراء حوار بين الحكومة والبرلمان حول موضوع له أهمية معينة بقصد الوصول الى حل يتفق عليه الطرفان.^(١٣)

(١٢). د. أنور الخطيب، الأصول البرلمانية في لبنان وسائر البلدان العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١، ص ٣٨٣.
(١٣). د. ايهاب زكي سلام، الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية في النظام البرلماني، عالم الكتب، ١٩٨٣، ص ٨٨.

ولعل هذا ما افضى ببعض الفقهاء الى اعتباره من قبيل تبادل الرأي والتعاون بين البرلمان والحكومة في تحقيق المصلحة العامة ومن هنا فإن له أهميته البالغة بين وسائل الرقابة الأخرى اذ انه من ناحية يتحقق للبرلمان بغيته في معرفة سياسة الحكومة في مواجهة مشكلة آنية أو حالة معاصرة، ومن ناحية أخرى يكشف للحكومة عن اتجاهات البرلمان في شأن المسألة المطروحة للمناقشة، ومدى دعمه لها في الإجراءات التي تتخذها لمواجهتها، بشكل تتوقى من خلاله المساءلة أمامه سياسياً بشأنها.^(١٤)

وفي الواقع تجد هذه الوسيلة اساسها الدستوري في مصر في المادة ١٢٩ من الدستور المصري نصت على أنه (يجوز لعشرين عضواً على الأقل من أعضاء مجلس الشعب طرح موضوع عام للمناقشة لأستيضاح سياسة الوزارة بشأنه).

كما تنص المادة (١١٢) من الدستور الكويتي على أنه بناء على طلب موقع من خمسة ٥ / ١ أعضاء طرح موضوع عام على مجلس الأمة للمناقشة لأستيضاح سياسة الحكومة في شأنه وتبادل الرأي بصدده ولسائر الأعضاء حق الإشتراك في المناقشة.^(١٥)

أما الدستور العراقي لعام (٢٠٠٥) فقد نصت المادة ٦١ / سابعاً (ب: يجوز خمسة وعشرين عضواً في الأقل من أعضاء مجلس النواب، طرح موضوع عام للمناقشة، لأستيضاح سياسة وأداء مجلس الوزراء، أو إحدى الوزارات، ويقدم الى رئيس مجلس النواب، ويحدد رئيس مجلس الوزراء أو الوزراء موعداً للحضور أمام مجلس النواب لمناقشته).

عليه فإن الدستور العراقي أشرط موافقة (٢٥) عضو من أعضاء مجلس النواب وبعد ذلك يقدم الطلب الى رئيس مجلس النواب يبين فيه الموضوع المطلوب مناقشة رئيس الوزراء وتوقيع الأعضاء مقدمي الطلب وهو بدوره يقوم بتوجيهه الى صاحب الشأن، ثم بعد ذلك يقوم رئيس الوزراء او الوزير المطلوب مناقشته بتحديد موعد يأتي به الى مجلس النواب ويدرج في جدول أعمال المجلس.

ونلاحظ ان أعضاء مجلس النواب في الغالب يلجأون الى هذه الطريقة في مراقبتهم لعمل الحكومة، والسبب في ذلك يرجع الى أمور عدة أهمها، أن الوضع السياسي الذي يمر به العراق لا يسمح لأعضاء البرلمان توجيه اتهام مباشر للحكومة محاسبتهم بشدة من خلال الإستجواب او التحقيق معهم وذلك بسبب تشكيلات الحكومة الإئتلافية التي تجمع كافة الأحزاب بالتالي تنعدم المعارضة او الرقابة الحقيقية لعضو البرلمان.

مما يدفعهم لممارسة دورهم الرقابي عن طريق طرح موضوع عام للمناقشة لأن هذه الوسيلة لا تعتبر محاسبة للمسؤول أو أثبات تقصيره وإنما هي مجرد وسيلة من أجل أن يبين رئيس الوزراء أو الوزير وجهة نظره في موضوع معين، وكذلك لكي يتعرف على وجهة نظر البرلمان وبالتالي التوصل الى حلول ترضي الطرفين ويتحقق المصلحة العامة.

لذلك فإن من النادر في العراق ان يقوم مجلس النواب بأستجواب رئيس الوزراء أو الوزير لصعوبة تحقيق النتيجة المرجوة منه فعليه نجد ان هذه الطريقة هي الأكثر تلائماً مع الوضع السياسي العراقي.

كذلك اشارة المادة (٥٥) من النظام الداخلي لمجلس النواب على حق مجلس النواب طرح موضوع عام للمناقشة حيث نصت (يجوز خمسة وعشرين عضواً من أعضاء مجلس النواب طرح موضوع عام للمناقشة لأستيضاح سياسة وأداء مجلس الوزراء أو إحدى الوزارات ويقدم الى رئيس مجلس النواب ويحدد رئيس مجلس الوزراء موعداً للحضور مع تحديد سقف زمني أمام مجلس النواب لمناقشته).

(١٤). أ. د. يحيى الجمل، النظام الدستوري في جمهورية مصر العربية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٤، ص ٢٢٦.

(١٥). د. محمد باهي ابو يونس، مصدر سابق، ص ٩٢ - ٩٣.

ثالثاً // الإستجواب

هو انذار موجه من أحد النواب للحكومة أو لأحد الوزراء لشرح عمل من أعمال وزارة من الوزارات أو السياسة العامة للحكومة.^(١٦)

والإستجواب يتضمن معنى النقد والإتهام للحكومة أو لأحد الوزراء، لذلك فإنه يعد ابعداً أثراً من السؤال لكونه يتضمن معنى محاسبة الحكومة أو الوزراء عن كيفية تصرفها عما عهد إليها من سلطة فالنائب يقدم الإستجواب عن أساس وقوع خطأ من الحكومة أو الوزير المستجوب.^(١٧)

والإستجواب يختلف عن السؤال في أن الإستجواب لا يجعل المناقشة محصورة بين مقدم الإستجواب فيه، فالإستجواب بل يكون لجميع أعضاء البرلمان حق الإشتراك فيه، فالإستجواب يفتح الباب لمناقشة عامة بشأن الموضوع المستجوب عليه ويترتب على الإستجواب غالباً طرح الثقة بالحكومة كلاً أو بالوزير المستجوب.^(١٨)

ولقد اجاز الدستور العراقي لعام (٢٠٠٥) في المادة (٦١ / سابعاً) أستجواب رئيس مجلس الوزراء أو الوزراء بناء على موافقة (٢٥) عضو من أعضاء مجلس النواب على أن يكون الغرض من الإستجواب هو لمحاسبته في التي تدخل في اختصاصهم حيث نصت على (لعضو مجلس النواب، وبموافقة خمسة وعشرين عضواً، توجه أستجواب الى رئيس مجلس الوزراء أو الوزراء لمحاسبته في الشؤون التي تدخل في اختصاصهم، ولا تجري المناقشة في الإستجواب إلا بعد سبعة ايام في الأقل من تقديمه) وكذلك نصت نفس المادة (٦١ / ثانياً هـ) (لمجلس النواب، حق أستجواب مسؤولي الهيئات المستقلة وفقاً للأجراءات المتعلقة بالوزراء، وله اعفاءهم بالأغلبية المطلقة).

اذن الإستجواب هو محاسبة رئيس الوزراء أو الوزير عن تقصير أو خطأ أو فساد مالي أو إداري، يدخل في اختصاصهم وقد يترتب على الإستجواب طرح الثقة اذا تبين ان رئيس الوزراء أو الوزير أو رئيس الهيئة المستقلة قد قصر في اداء واجبه أو ثبت عدم كفاءته، لذلك فان عضو البرلمان لا يلجأون الى الإستجواب إلا في الحالات النادرة، وقد حدث أنه تم إستجواب وزير التجارة السابق فلاح السوداني وبعد أن ثبت مسؤوليته وتقصيره في اداء واجبه تم سحب الثقة منه، و ثم بعد ذلك استجواب وزير الكهرباء السابق وثبت تقصيره.

ان الواقع السياسي العراقي يحد من استعمال الإستجابات بسبب ان الحكومة تأتي عن طريق التوافقات وان هذه التوافقات تمنع من طرح الإستجابات لأنه قد يؤدي الى ارباك العلاقة بين الأحزاب المتوافقة وبالتالي يؤثر سلباً على عمل الحكومة والبرلمان مما يعود سلباً على المصلحة العامة لكن هذا لا يمنع أستجواب الوزير اذا ثبت امام الشعب انه غير جدير بالوزارة هذا ما حصل مع وزير التجارة والكهرباء العراقي.

وقد نظم النظام الداخلي لمجلس النواب عملية الإستجواب في المواد من (٥٦ - ٦١) وقد حدد الإجراءات الخاصة بالإستجواب حيث أشرط أن يتم المناقشة في الإستجواب بعد سبعة ايام في الأقل من تقديمه ويتم تقديم الطلب كتابة الى رئيس المجلس موقع من طالب الإستجواب وبموافقة (٢٥) عضو على الأقل، على أن يبين في الطلب موضوع الإستجواب والأمور المستجوب عنها والأسباب التي يستند إليها في

(١٦). د. انور الخطيب، مصدر سابق، ص ٣٩٠.

(١٧). المحامي وسيم حسام الدين، مصدر سابق، ص ٢٣.

(١٨). نفس المصدر أعلاه، ص ٢٣.

استجوابه والدلائل والأسانيد والأمور المخالفة التي قام بها المستجوب، ولا يجوز تقديم طلب الإستجواب في موضوع سبق للمجلس أن فصل فيه مالم تطرأ وقائع جديدة تسوغ ذلك. م/٥٨. ويقدم طلب الإستجواب في أي وقت ويسقط الإستجواب بزوال حقه من تقدم به أو وجه اليه. وإذا كان مقدم الإستجواب هو أحد أعضاء هيئة رئاسة مجلس النواب، عليه أن يترك منصة الرئاسة ويجلس في المكان المخصص له في قاعة اجتماع المجلس. أما نتيجة المناقشة فهي اما ان تنتهي بأقتناع مجلس النواب بوجهة نظر المستجوب ويغلق الإستجواب، أو يثبت تقصيره وبالتالي يؤدي ذلك الى سحب الثقة بالمستجوب. وهذا ما أشار له المادة (٦١) من النظام الداخلي لمجلس النواب (إذا أنتهت المناقشة بأقتناع المجلس بوجهة نظر المستجوب تعد المسألة منتهية، وبخلافه يجوز أن يؤدي الإستجواب الى سحب الثقة بالمستجوب على المجلس وفقاً للأجراءات الواردة في النظام الداخلي).

رابعا// لجان التحقيق البرلماني

عندما يرغب المجلس بالإطلاع على معلومات تتيح له ممارسة صلاحياته، فإنه يكلف لجنة من أعضاء لجمع هذه المعلومات وتقديم تقرير يتخذ على ضوءه القرار المناسب.^(١٩) وتأخذ معظم الدول بأسلوب التحقيق البرلماني وان يحل ممارسة البرلمان لدوره الرقابي عندما تحدث اخطاء أو أزمة معينة فيشكل المجلس لجنة من أجل جمع المعلومات اللازمة بهذا الشأن على أن تختلف الأنظمة فيما بينها في طبيعة عمل اللجان في النظام الرئاسي (الولايات المتحدة الأمريكية) تم منح هذه اللجان العديد من السلطات التي تمكنها من محاسبة كبار أعضاء السلطة التنفيذية، ويمكن أن يكون السبب في ذلك أن النظام الرئاسي لا يعترف لا بهذا الوسيلة الرقابية دون غيرها من الوسائل الأخرى، وذلك على عكس النظام البرلماني الذي اعطاها حجماً أقل من حجمها الحقيقي في النظام الرئاسي^(٢٠)، لذلك هو يعتبر أحد الأدوات التي يوفرها الدستور لأعضاء البرلمان لكي يتمكن من الإطلاع على ما يجري داخل مؤسسات الدولة وأجراءات التحقيقات من أجل الوصول الى الحقيقة.

أما مدى صلاحيات اللجان فقد اختلفت الأنظمة السياسية في ذلك وتسلب الضوء على صلاحيات اللجان المؤقتة في العراق فقد اشار النظام الداخلي لمجلس النواب على حق مجلس النواب تشكيل لجان فرعية ولجان مؤقتة ولجان تحقيق بحسب مقتضيات العمل والموضوعات المعروضة عليه. م/٨٢ على أن يتم تشكيل اللجان المؤقتة بموافقة أغلبية عدد الحاضرين في المجلس بناء على اقتراح من هيئات الرئاسة أو من خمسين عضو من الأعضاء. م/٨٣.

وتتمتع هذه اللجان بصلاحيات تقصي الحقائق فيما هو معروض عليها من قضايا ويحق للجنة دعوة أي شخص لسماع أقواله وفق الطرق الأصولية ولها حق الإطلاع على كل ماله علاقة بالقضية المعروضة عليها من دون المساس بالقضايا المعروضة على القضاة ولها الإستعانة بالخبراء ويتم تحديد أجور الخبراء بالاتفاق مع هيئة الرئاسة. المادة/٨٤.

بعد أن يتم اللجنة عملها ترفع تقريرها مع توصياتها الى هيئة الرئاسة لحضها لأخذ مايراه مناسباً، المادة ٨٥ ومن حق اللجنة اقالة رئيس اللجنة أو نائبه أو المقرر عند ثبوت عدم كفاءته أو عجزه.

وتلاحظ أن عمل اللجنة هو فقط جمع المعلومات وتقصي الحقائق على أن يكون في كثير الأمور المعروضة على القضاة ولها حق رفع توصياتها الى هيئة الرئاسة من أجل اتخاذ مايلزم

(١٩). المحامي وسيم حسام الدين، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٢٠). د. أنور الخطيب، مصدر سابق، ص ٣٨٥.

المبحث الثاني: الرقابة على دستورية القوانين

ان الرقابة على دستورية القوانين تمثل احد أهم الضمانات الأساسية والهامة لتطبيق الدستور، حيث تمثل الرقابة على دستورية القوانين تحقيق المشروعية أو الشرعية بتكامل يتفق ومبدأ سمو الدستور وتدرج القوانين، وهذا يعني ان القوانين الإعتيادية لا يمكنها أن تغير أو تعدل القواعد دستورية. لذلك كان لا بد من وضع جزاء على المشرع اذا خالف هذا المبدأ، وهذا الجزاء يتمثل بالغاء أو عدم تطبيق القواعد القانونية التي تخالف نصوص الدستور، وذلك عن طريق الرقابة على دستورية القوانين، لذلك تمثل الرقابة على دستورية القوانين أخطر الموضوعات الدستورية على الإطلاق خاصة في وقتنا المعاصر ومنذ أكثر من قرنين، كما أنها تمثل أيضاً أهم موضوعات القانون الدستوري حيث يتأكد من خلالها تحقيق مبدأ الشرعية.

وان ممارسة عملية الرقابة، تعني تفسير نصوص القانون، وتفسير نصوص الدستور، لمعرفة مدى مطابقة القانون للدستور، وهل هو مخالف للدستور أم لا، وان تفسير النصوص القانونية يعود للمختصين بهذا المجال أي المشتغلون بالقانون، لأن ممارسة الرقابة يعني اصدار حكم عليه بأبقاء أو القاء أو عدم تطبيقه لذلك فإن القضاء هو المؤهل بالدرجة الأولى للقيام بهذا العمل. وسواء أكانت الرقابة على دستورية القوانين رقابة قضائية أم رقابة لاقضائية، فإن الغاية منها هي ضمان علوية الدستور ومنع تشريع قوانين مخالفة للدستور، وهي بهذا تعمل على تأكيد علوية وسمو الدستور على غيره من القواعد القانونية النافذة في الدولة.

ولقد أخذ الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ بالرقابة القضائية على دستورية القوانين بموجب المادة (٩٣) منه حيث أناط مهمة الرقابة الى المحكمة الاتحادية العليا وأعتبرها هيئة قضائية مستقلة مالياً وإدارياً، لذلك يعتبر الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ اخذ بالرقابة القضائية على دستورية القوانين. وعليه سوف نقسم هذا المبحث الى مطلبين، نبحث في المطلب الأول معنى الرقابة القضائية على دستورية القوانين، ويتناول في المطلب الثاني تطبيق الرقابة القضائية على دستورية القوانين في العراق.

المطلب الأول: معنى الرقابة القضائية على دستورية القوانين

ان الرقابة القضائية على دستورية القوانين تعني ان البت في مصير قانون ما (من حيث كونه يخالف أو لا يخالف الدستور) يعود الى هيئة قضائية أي الى المحكمة^(٢١)، ضماناً لسيادة حكم القانون لكي تكتمل عناصر الدولة القانونية، فالمحكمة التي يعهد اليها امر هذه الرقابة تقوم بالحفاظ على علوية الدستور، وذلك بالغاء أو شل جميع القوانين المخالفة للدستور، إلا أنه لا بد من تحريك هذه الرقابة أي التوصل الى المحكمة من أجل ممارسة الرقابة لا بد أن يحرك أحد يطعن أحد بعدم دستورية القانون فلا يمكن للمحكمة أن تمارس الرقابة من تلقاء نفسها.^(٢٢)

وقبل التطرق الى النظم الرقابة القضائية المعتمدة في الأنظمة السياسية الحديثة، لا بد من التنويه بأن هذه الرقابة أنطلقت بفعل قرار المحكمة العليا في أمريكا في عام ١٨٠٣، إلا أن جذورها من اصل انكليزي لعدم اعتمادها دستوراً مدوناً حيث رأى بعض الفقهاء ان بواد هذه الرقابة يمكن استنتاجها من خلال قرار أصدره أحد القضاة وهو (COKE) في معرض حكم أصدره في قضية (Bonham) حيث تضمن (ان مراجعة ملفاتها تثبت أنه في كثير من القضايا يتقدم القانون الغير مكتوب المبني على العرف والعادة والذي يمكن

(٢١). د. منذر الشاوي، القانون الدستوري، نظرية الدستور، منشورات مركز البحوث القانونية، وزارة العدل، بغداد، ١٩٨١،

ص ٥٨.

(٢٢). د. منذر الشاوي، معنى الرقابة على دستورية القوانين، بلا سنة طبع، بلا مكان طبع، ص ٨.

القول انه لحد ما يشبه القاعدة الدستورية على القوانين الصادرة من البرلمان وفي بعض الحالات يعتبرها باطلة كأنها لم تكن ، وهكذا كانت المسيرة من بريطانيا الى امريكا ، من خلال اجتهادات بعض المحاكم وكبار القضاة ، تطور مفهوم الرقابة على دستورية القوانين ليشع نوره على كافة الأنظمة الديمقراطية في القانون المقارن.^(٢٣)

وقد طبقت هذه الرقابة بطريقتين وهي الرقابة القضائية بطريق الدعوى المباشرة (رقابة الغاء) أو الرقابة المركزية والثانية الرقابة القضائية بطريق الدفع بعدم الدستورية (رقابة الإمتناع) الرقابة اللامركزية.

الفرع الأول: الرقابة القضائية بطريق الدعوى المباشرة

بموجب هذا النوع من الرقابة القضائية يكون للأفراد او لبعض هيئات الدولة دون الأفراد الحق في مهاجمة قانون معين ، أو الطعن في دستورية القانون ، وذلك عن طريق اقامة دعوى مباشرة أمام القضاء.^(٢٤)

اذن فهناك دعوى لاتقام من قبل فرد أو هيئة على فرد آخر وإنما من قبل فرد (أو هيئة) على قانون معين بسبب مخالفته للدستور ، فالمدعي هو فرد أو هيئة والمدعى عليه ، أن صح التعبير هو القانون المشكوك في دستوريته.^(٢٥)

لذلك توصف الدعوى المباشرة بأنها دعوى موضوعية وليست دعوى شخصية ، لأنها تقام على قانون معين أي ان المدعي في القضية هو فرد أو هيئة والمدعى عليه القانون.^(٢٦)

ويمكن أن تباشر هذا النوع من الرقابة ، على مشروع القانون وكذلك بالنسبة للقانون النفاذ ، لذلك فرقابة الالغاء يمكن أن تكون سابقة على صدور القانون أو تكون لاحقة له ، مثال الدساتير التي أخذت برقابة الغاء السابقة أمام هيئه قضائية ، دستور ايرلنده لعام ١٩٧٣ ، الذي نص على أن القوانين التي يقرها البرلمان تقدم الى رئيس الدولة لأصدارها وان لهذا الأخير قبل اصدار القانون حالته الى المحكمة العليا للنظر في دستوريته ، فاذا قضت المحكمة بعدم دستوريته لا يمكن اصداره^(٢٧) ، وان الدول التي تأخذ بالرقابة القضائية (الغاء) السابقة لاتمنح حق الطعن بالقانون للأفراد ، وإنما فقط لهيئات الدولة.

هذا ولا يشترط في اقامة دعوى الألغاء أنتظار تطبيق القانون ، أو وجود نزاع معين مرفوع أمام القضاء ، ولهذا السبب توصف هذه الدعوى بأنها أصيله أو مباشرة ، وقد تكون الدعوى فرعية عندما ميسمح الدستور للمحاكم العادية بقبول الطعن بعدم دستورية قانون معين إلا أنها لاتنتظرها هي بل تنظرها المحكمة الدستورية المختصة فعندما تقتنع المحاكم العادية بوجهة نظر الأفراد تتقدم هي بدعوى الإلغاء الى المحكمة الدستورية.^(٢٨)

اذن فعندما يتم الطعن بعدم دستورية قانون معين امام المحكمة المختصة وتقتنع المحكمة بعدم دستورية القانون ، تصدر قرار اما بالغاء القانون ، أو ايقاف العمل به و ، يكون قرار المحكمة في هذه الحالة قرار يتمتع بحجية مطلقة على كافة اي يكون ملزم لكافة هيئات الدولة.

(٢٣). د. أمين عاطف صلبيا ، مصدر سابق ، ص ١١٦ .

(٢٤). د. احسان حميد المرفجي ، د. كطران زغير نعمة ، د. رعد ناجي الجدة ، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص ١٨٦ .

(٢٥). د. منذر الشاوي ، نظرية الدستور ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .

(٢٦). د. احسان المرفجي وآخرون ، مصدر سابق ، ص ١٧٧ .

(٢٧). د. أمين عاطف صلبيا ، مصدر سابق ، ص ١٢٣ .

(٢٨). د. ابراهيم درويش ، القانون الدستوري النظرية العامة ، الرقابة الدستورية ، دار النهضة العربية ، ط ٤ ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ،

ويخلف الأثر الناجم عن قرار المحكمة بعدم دستورية القانون، فبعضها يعتبر القانون ملغياً من تاريخ صدور قرار المحكمة بعد الدستورية، وأخذ بها الحل الدستور العراقي لعام ١٩٢٥ (القانون الأساسي)، وبعضهم يعتبرها ملغياً من تاريخ صدوره أي بأثر رجعي، مثاله الدستور الياباني لعام ١٩٤٦، وبعضها يقضي فقط بعدم جواز تطبيق القانون الغير دستوري وتكون السلطة التشريعية ملزمة بالغاء القانون، أو النص الذي قضت المحكمة بعدم دستوريته مثاله الدستور المصري لعام ١٩٧١. (٢٩)

ونظراً لآثار هذا النمط من الرقابة الدستورية، ولما تتضمنه من تحويل القضاء سلطة الحكم بأعدام القوانين التي يسنها البرلمان وإفناء هذه التشريعات، فإنها لم تلق تطبيقاً إلا في عدد محدود من النظم السياسية، وكثيراً ما تردد الدول في الأخذ برقابة الإلغاء اللاحقة بسبب الإحساس بخطورة ما يترتب عليها من آثار، لذلك عملت الدول التي أخذت بها تشددت في الشروط والإجراءات التي تبشر من خلالها. (٣٠) لذلك فإن أمر الرقابة القضائية بدعوى الإلغاء لا يعهد إلى أية محكمة من المحاكم الإعتيادية، إنما إلى أعلى محكمة إعتيادية في الدولة بالإضافة إلى اختصاصها بالنظر في مختلف الدعاوى المدنية والجزائية، تنظر كذلك في الدعاوى المقامة على القوانين التي يدعي أنها تخالف الدستور، فأمر الرقابة على دستورية القوانين قد عهد إلى أعلى درجة من درجات المحاكم الإعتيادية وذلك لأهمية موضوع الدعوى والنتائج المترتبة على إصدار المحكم في هذه الدعوى، وهو الغاء القانون إذا ثبت مخالفته للدستور (٣١)، من أمثلة هذه النظم المحكمة الفيدرالية في سويسرا حيث لا يوجد محكمة إنشاءً خصيصاً للنظر في دستورية القوانين وإنما عهد بهذه المهمة من قبل الدستور الفيدرالي، م ١١٣، ف ٣) إلى المحكمة الفيدرالية التي تمثل أعلى درجات المحاكم الإعتيادية، وكذلك دستور كولومبيا لعام ١٨٨٦ (م ١٥١) ودستور هايتي لعام ١٩٢٨ م (٩٩) وكذلك دستور فنزويلا لعام ١٩٣١. (٣٢)

لكن أعطاء المحكمة مكنة الغاء القوانين التي يضعها المشرع الإعتيادي، قد يجرها إلى الدخول في صراع مع هذا المشرع وهو القابض الحقيقي على السلطة في الدولة، لذلك نجد أن الإتجاه العام للدساتير هو إعطاء مكنة الرقابة على دستورية القوانين لمحكمة شكلت خصيصاً لهذا الغرض، كما أن تشكيل هذه المحكمة يراعى فيه، الناحية السياسية بحيث يكون لأعضائها (أو لبعضهم) تأثيراً سياسياً لأنهم يتمتعون بقوة سياسية أو يمثلون قوى سياسية، فالأمر الذي يمنح هذه المحكمة الهيبة ويجعل أحكامها أكثر قبولاً من قبل القابضين على السلطة. (٣٣)

ومن أمثلة الدولة التي أخذت بهذا النوع هو دستور النمسا لعام ١٩٢٠ والمحكمة الدستورية الاتحادية في ظل دستور المانيا الاتحادية لعام ١٩٤٩ المادة (٩٣ ف ٢) التي صدر قانونها عام ١٩٥١، وكذلك في العراق في ظل دستور العراق لعام ٢٠٠٥ حيث اناط مهمة الرقابة على دستورية القوانين إلى المحكمة الاتحادية العليا بموجب المادة (٩٣ / أولاً).

الفرع الثاني: الرقابة القضائية بطريق الدفع بعدم الدستورية

تعني أن القاضي يهمل القانون الغير دستوري بمعنى أنه يمتنع عن تطبيقه في القضية المطروحة أمامه، وهنا القضاء لا ينهي حياة القانون الغير دستوري، وإنما يستمر هذا القانون المعيب دستورياً. (٣٤)

(٢٩). د. احسان المرفجيوآخرون، مصدر سابق، ص ١٧٧.

(٣٠). د. ابراهيم درويش، مصدر سابق، ص ٢٢٢.

(٣١). د. منذر الشاوي، معنى الرقابة على دستورية القوانين، مصدر سابق، ص ١٣.

(٣٢). د. احسان المرفجي وآخرون، مصدر سابق، ص ١٧٧.

(٣٣). د. منذر الشاوي، نظرية الدستور، مصدر سابق، ص ٦٣.

(٣٤). د. ابراهيم درويش، مصدر سابق، ص ١٩٢.

وتعتبر الرقابة القضائية بطريق الدفع وسيلة دفاعية هدفها التخلص من تطبيق قانون دون المساس به ، في حين الرقابة بطريق الدعوى المباشرة تعتبر هجومية هدفها إلغاء القانون الغير دستوري.^(٣٥) لذلك فإن هذه الطريقة لا تتضمن إقامة الدعوى على القانون المشكوك بدستوريته وإنما تتضمن التخلص من تطبيقه على شخص معين في دعوى مدنية (كالمطالبة بدين) أو جزائية (كإبقاء عقوبة الحبس) أقيمت أمام محكمة أعتيادية (مدنية أو جزائية) فالمدعي عليه الذي تراء أدانته وفقاً لقانون معين يدفع بأن القانون المذكور يخالف أو يناقض الدستور ، بالتالي لطلب عدم تطبيقه في القضية التي قدم من أجلها للمحاكمة ، اذن الدعوى بين شخصين وليس بين شخص وقانون ما).^(٣٦)

وقرار المحكمة بالإمتناع عن تطبيق القانون يتمتع بحجية نسبية لأن أثره يقتصر على اطراف الدعوى فقط ، ذلك لأن المحكمة لا تلغي القانون الذي أقرت عدم دستوريته ، بل تكتفي بعدم تطبيقه في القضية المعروضة أمامه ، وقرار المحكمة هذا غير ملزم بالنسبة للمحاكم الأخرى ، وليس هنالك ما يمنع من الناحية النظرية نفس المحكمة من تطبيق نفس القانون في قضية أخرى مشابهة ، اذا لم يدفع أحد الخصوم بعدم الدستورية ، إلا أن المبدأ الذي يقضي بأن تحترم المحاكم الدنيا المحاكم التي تتمتع قراراتها بقوة السوابق يجعل من الناحية العملية الكلمة الأخيرة في دستورية القوانين للمحكمة العليا ، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية بحيث يساوي إعلانها عدم دستورية قانون معين الغاءه.^(٣٧)

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية اسبق الدول التي تبنت هذا النوع من الرقابة القضائية ، وقد ساعدت عدة عوامل في اقامة هذا النوع من الرقابة في امريكا ، من هذه العوامل هي ١ - صفة الجمود التي تميز بها الدستور الأمريكي والتي تعود الى عوامل تاريخية وشكل الدولة الاتحادي ، وأخيراً الجهود التي بذلتها المحكمة العليا.^(٣٨)

لذلك فالمحاكم الأمريكية لاتلغي القانون الذي ثبت عدم دستوريته ، بل تكتفي بعدم تطبيقه في القضية المعروضة امامها.^(٣٩)

ولكن القضاء الأمريكي لم يتوقف عند هذا الحد في ممارسته للرقابة على دستورية القوانين بل خلق وسائل أخرى من شأنها التوسع في هذه الرقابة وبرزت مظاهر هذا التوسع عن طريق النفس الواسع للنصوص الدستورية من ناحية ، وابتداع صور أخرى للرقابة من ناحية أخرى وتتضمن هذه الوسائل ، (عدم انتهاك شرط الإجراءات القانونية الصحيحة ، مراعاة قاعدة المعقولة ، الرقابة بطريق الأمر القضائي ، وحماية واحترام الشروط الخاصة بحماية الحريات والفردية والرقابة القضائية بطريق الإعلان القضائي ، الحكم التقريري).^(٤٠)

المطلب الثاني : تطبيق الرقابة على دستورية القوانين في ظل دستور العراقي لعام ٢٠٠٥

بعد أن كان دستور العراق لعام ١٩٧٠ قد تجاهل تنظيم الرقابة على دستورية ولم يتطرق لها ، ولكن بعد أن تبدل النظام السياسي في العراق عام ٢٠٠٣ ، وضع قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية

(٣٥). د. احسان المفرجي وآخرون ، مصدر سابق ، ص ١٨٢ .

(٣٦). د. منذر الشاوي ، نظرية الدستور ، مصدر سابق ، ص ٦٤ .

(٣٧). د. احسان المفرجي وآخرون ، مصدر سابق ، ص ١٨٢ .

(٣٨). د. ابراهيم درويش ، مصدر سابق ، ص ١٩٣ .

(٣٩). د. منذر الشاوي ، معنى الرقابة على دستورية القوانين ، مصدر سابق ، ص ١٥ .

(٤٠). د. احسان المفرجي وآخرون ، مصدر سابق ، ص ١٨٨ .

فقد نظم موضوع الرقابة على دستورية القوانين في المادة (٤٤) منه (أ-) يجري تشكيل محكمة في العراق بقانون وتسمى المحكمة الاتحادية العليا.

ب- تختص المحكمة الاتحادية العليا بما يأتي : ٢. الإختصاص الحصري والأصل ، وبناء على دعوى من مدع او بناء على احوالة من محكمة أخرى ، في دعاوى بأن قانونا أو نظاما أو تعليمات صادرة عن الحكومة الاتحادية أو الحكومات الإقليمية أو إدارات المحافظات والبلديات والإدارات المحلية لا تتفق مع هذا القانون).

وكذلك نصت نفس المادة في الفقرة ٣/ج حيث نصت (إذا قررت المحكمة العليا الاتحادية أن قانونا أو نظاما أو تعليمات جرى الطعن بها أنه غير متفق مع هذا القانون يعد ملغيا).

وبالفعل صدر القانون الخاص بالمحكمة رقم (٣٠) لسنة (٢٠٠٥) الذي ظل نافذ لحد الآن ، ويناقش في مجلس النواب الآن مشروع قانون المحكمة الاتحادية الجديد ، حيث نظم الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ النافذ حاليا موضوع الرقابة على دستورية القوانين بموجب المادة ٩٣ منه التي نصت على (تختص المحكمة الاتحادية العليا بما يأتي ١. أولا الرقابة على دستورية القوانين والأنظمة النافذة. ثانيا تفسير نصوص الدستور....).

وعليه نلاحظ من كل ماتقدم أن قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية ودستور العراق لعام ٢٠٠٥ قد أناط مهمة الرقابة على دستورية القوانين الى هيئة قضائية وهي المحكمة الاتحادية العليا وعلى أن يتم تنظيم عمل المحكمة بموجب قانون يصدر من قبل مجلس النواب يحدد فيه أختصاصات المحكمة وعدد القضاة وشروط الخاصة فيهم وطريقة العمل داخل المحكمة.

وقد صدر فعلا القانون الخاص بالمحكمة الاتحادية العليا رقم (١) لسنة ٢٠٠٥ (النظام الداخلي لسير العمل داخل المحكمة) في ظل قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية واستمر العمل حتى في ظل دستور العراق لعام ٢٠٠٥ ، وقد عمل مجلس الوزراء على صياغة مشروع قانون المحكمة الاتحادية الجديد ليصدر وفقا لأحكام الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ ، وهو الآن في مجلس النواب يجري مناقشته لأقراره. عليه سوف نقوم بتسليط الضوء على تشكيل هذه المحكمة وأختصاصات المحكمة وفقا لقانون المحكمة رقم (١) لسنة (٢٠٠٥) ولنظام المحكمة الداخلي رقم (٣٠) لسنة (٢٠٠٥) مع الإشارة لما جاء به مشروع قانون المحكمة الاتحادية الجديد.

الفرع الأول : تكوين المحكمة الاتحادية العليا

(تتألف المحكمة الاتحادية العليا من رئيس وثمانية أعضاء يجري تعيينهم من مجلس الرئاسة بناء على ترشيح من مجلس القضاء الأعلى بالتشاور مع المجالس القضائية للأقاليم وفق ما هو منصوص عليه في الفقرة هـ من مادة رقم الرابعة والأربعين من قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية) م/٣ من قانون المحكمة الاتحادية العليا رقم (٣٠) لسنة ٢٠٠٥ ، اذن فإن تشكيل المحكمة الاتحادية يتم من تسع قضاة رئيس وثمانية أعضاء ويتم تعيينهم من قبل مجلس رئاسة الجمهورية العراقية بناء على ترشيح من قبل مجلس القضاء الأعلى والمجالس القضائية للأقاليم.

أما بالنسبة لمشروع قانون المحكمة الاتحادية الجديد فإن تشكيل المحكمة مختلف تماما حيث اشارة المادة (٢) منه تتكون المحكمة من (١٣) شخص رئيس ونائب للرئيس وأحد عشر عضوا وعلى النحو الآتي :

أولا : هيئة قضائية تتكون من رئيس المحكمة ونائب للرئيس وسبعة أعضاء.

ثانيا : الهيئة الإستشارية تتكون من أربعة مستشارين أثنان من خبراء الفقه الإسلامي واثنان من فقهاء القانون ، على أن يكون للمحكمة عضوان أحتياط من قضاة محكمة التمييز يختارهما رئيس المحكمة ليحل

أحدهما عند غياب أحد أعضاء المحكمة الأصليين وكذلك عضوان احتياط من خبراء الفقه الإسلامي وخبراء القانون في حال غياب أو تعذر حضور أحد المستشارين الأصليين.

أما بالنسبة الى طريقة تعيين أعضاء الهيئة القضائية بالمحكمة فقد أشارت المادة (٤) من مشروع قانون المحكمة الاتحادية، يتم ترشيح أعضاء الهيئة القضائية من مجلس القضاء الأعلى على أن يكون لهم خدمة قضائية لا تقل عن (٢٠) سنة ويتم اقتراح لكل منصب ثلاث مرشحين يتم اختيار أحدهم من قبل رئيس الجمهورية ويعينون بمرسوم جمهوري.

أما هيئة المستشارين فتقوم وزارة التعليم العالي بترشيح أربعة مرشحين من بين فقهاء القانون على أن يتم اختيار اثنين من قبل مجلس الوزراء بعد موافقة مجلس النواب بالأغلبية المطلقة ويعينان بمرسوم جمهوري.

وكذلك يرشح ديوانا الوقف الإسلاميان أربعة مرشحين من بين خبراء الفقه الإسلامي، يتم اختيار اثنين من قبل مجلس الوزراء بعد موافقة مجلس النواب بالأغلبية المطلقة ويعينان بمرسوم جمهوري.

على أن يكون جميع أعضاء المحكمة سواء هيئة قضائية أو مستشارين أن تكون خدمتهم لا تقل عن (٢٠) سنة في مجال اختصاصهم، كما أشارت المادة (١٣) من نفس المشروع على أن يكون دور المستشارين هو فقد الإسهام في مداوالات المحكمة دون الإشتراك في اصدار القرار.

ولدينا بعض الملاحظات على تشكيل المحكمة الاتحادية وفق مشروع قانون المحكمة الاتحادية وهي الآتي:

١. لقد قسم المشروع أعضاء المحكمة الى فئتين هيئة قضائية تكون صاحبة القرار وهيئة استشارية تعمل على تقديم المشورة فقط، ونرى ان لامبر لهذا التقسيم وذلك أن عمل المحكمة هو ليس فقط قضائي وإنما تختص كذلك في تفسير نصوص الدستور، كذلك فإن مآدرج عليه العمل في أغلب دول العالم هو عدم التمييز بين أعضاء المحكمة.

٢. لقد أجاز القانون أن يتم اختيار الهيئة القضائية بترشيح من مجلس القضاء الأعلى وموافقة رئيس الجمهورية فقط، وهذا أمر غريب، حيث أشار نفس المشروع الى اعتبار رئيس المحكمة بدرجة رئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب وأعضاء المحكمة بدرجة الوزير لذلك كان لابد من المساواة في اختيارهم وجعل تعيينهم بموافقة أغلبية المطلقة من مجلس النواب، بالإضافة لذلك ان مشروع القانون قد جعل الهيئة القضائية هي التي تصدر القرارات لذلك كان الأخرى أن يشدد في اختيارهم.

في حين نرى أنه تشدد في اختيار المستشارين حيث تتطلب موافقة مجلس النواب بالأغلبية المطلقة وجعل اختصاصهم هو فقط المشاركة في مداوالات المحكمة.

٣. ان الدور الذي تضطلع به المحكمة كبير وخطير جدا، وينبع ذلك الخطر من اختصاصات المحكمة، التي تشكل مساسا بمبدأ الفصل مابين السلطات حيث لها الحق بالغاء قوانين مشرعة من قبل مجلس النواب سواء قوانين اتحادية أو مشرعة من قبل الأقاليم وكذلك اختصاصاتها في حل النزاعات بين الحكومة الاتحادية والأقاليم لذلك لابد من مراعاة ذلك في تشكيل المحكمة من حيث ضمان تمثيل مناسب في أعضاء المحكمة من قبل السلطات القضائية في الأقاليم ويكون ذلك على الأقل في حق السلطات القضائية في الأقاليم في المشاركة في ترشيح أعضاء المحكمة.

الفرع الثاني: اختصاصات المحكمة الاتحادية العليا

لقد حدد قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية ودستور العراق لعام ٢٠٠٥ اختصاصات متعددة للمحكمة الاتحادية، وما يهمنا هو اختصاصها في الرقابة على دستورية القوانين. تتولى المحكمة الاتحادية العليا الرقابة على دستورية القوانين على الوجه التالي:

تتمسك المحكمة بمهمة الرقابة على دستورية القوانين من خلال اربع حالات وفقاً لما حدده النظام الداخلي رقم (١) لسنة (٢٠٠٥) وطبقاً للمادة (٤٤) من قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية وهي :

أ. اذا طلبت إحدى المحاكم من تلقاء نفسها ، اثناء نظرها دعوى ، البت في شرعية نص في قانون او قرار تشريعي أو نظام أو تعليمات يتعلق بتلك الدعوى فترسل الطلب معللاً الى المحكمة الاتحادية العليا للبت فيه. (م/٣) من النظام الداخلي للمحكمة.

ب. اذا طلبت إحدى المحاكم الفصل في شرعية نص في قانون او قرار تشريعي او نظام او تعليمات او امر بناء على دفع من أحد الخصوم بعدم الشرعية فيكلف الخصم بتقديم هذا الدفع بدعوى وبعد استفتاء الرسم عنها ثبت في قبول الدعوى فاذا قبلتها ترسلها مع المستندات الى المحكمة الاتحادية للبت في الدفع بعدم الشرعية وتتخذ قراراً باستئثار الدعوى الأصلية للنتيجة ، اما اذا رفضت الدفع فيكون قرارها قابلاً للطعن امام المحكمة الاتحادية العليا. م/٤ من النظام الداخلي للمحكمة.

ج. اذا طلبت إحدى الجهات الرسمية ، بمناسبة منازعة قائمة بينها وبين جهة أخرى الفصل في شرعية نص في قانون أو قرار تشريعي أو نظام أو تعليمات أو أمر ، فترسل الطلب بدعوى الى المحكمة الاتحادية العليا ، معللاً مع اسانيده ، وذلك بكتاب بتوقيع الوزير المختص أو رئيس الجهة غير المرتبطة بوزارة. م/٥.

د. اذا طلب مدع ، الفصل في شرعية نص في قانون أو قرار تشريعي أو نظام او تعليمات أو أمر فيقدم الطلب بدعوى مستوفية للشروط المنصوص عليها في قانون المرافعات على أن تقدم الدعوى بواسطة محام ذي صلاحية مطلقة على أن تتوافر في الدعوى الشروط التالية :

١. أن تكون للمدعي في موضوع الدعوى مصلحة حالة مباشرة ومؤثرة في مركزه القانوني أو المالي أو الاجتماعي.

٢. أن يقدم المدعي الدليل على أن ضرراً واقعياً قد لحق به من جراء التشريع المطلوب لقاؤه.

٣. أن يكون الضرر مباشراً ومستقلاً بعناصره ويمكن ازالته اذا ما صدر حكم بعدم شرعية التشريع المطلوب الغاؤه.

٤. أن لا يكون الضرر نظرياً أو مستقبلياً أو مجهولاً.

٥. أن لا يكون المدعي قد أستفاد بجانب من النص المطلوب الغاؤه.

٦. أن يكون النص المطلوب الغاؤه قد طبق على المدعي فعلاً أو يراد تطبيقه عليه. (م/٦)

وعليه نلاحظ من كل مما تقدم أنه اختصاص المحكمة في الرقابة على دستورية القوانين واسع حيث حدد النظام الداخلي للمحكمة وفقاً للدستور الإنتقالي لعام ٢٠٠٤ جهات متعددة لها الحق في الطعن بعدم الدستور سواء ان كان ذلك بمناسبة نزاع أو بدون نزاع.

حيث أعطى الحق للمحاكم العادية اذا رأت اثناء نظر نزاع معين ن قانوناً غير دستوري فلها أن تطعن به من تلقاء نفسها ، كذلك فقد أعطى الحق لهيئات الدعوى أن تطعن بقانون أو قرار أو لائحة أو امر غير دستوري أمام المحكمة الاتحادية العليا بصورة مباشرة.

كذلك أعطى الحق للأفراد الطعن بقانون من خلال طريقتين الأولى في حالة وجود نزاع أمام المحكمة وطعن أحد الخصوم بعدم دستورية قانون المراد تطبيقه عليه فيقدم للمحكمة العادية الطعن مع الأسانيد القانونية فلها قبول الطعن ونرى لطعن يعد استيفاء الرسم الى المحكمة الاتحادية العليا ولها رفض الطعن اذا رأت ان الادلة غير كافية ويكون قرارها برفض الطعن قابلاً للطعن به أمام المحكمة الاتحادية العليا ، أما الطريق الثاني وهو الطعن بصورة مباشرة من قبل الفرد أمام المحكمة الاتحادية العليا وبدون مناسبة أو نزاع ولكن حدد شروط سابقاً ، ونرى أنه قد تشدد بصورة كبيرة جداً على الفرد من حيث تطلب أن يكون هنالك ضرر وأن يكون واقعاً وان المدعي لم سبقاً ومن تطبيق القانون حيث نرى أنه لا مبرر لمثل هذه

الشروط حيث ان الغاية هو الوصول الى قانون مطابق لدستور سواء ضرراً أو لا سواء استفاد منه المدعي او لا.

الغاية

لقد تبين لنا مما تقدم ان الرقابة البرلمانية التي يمارسها البرلمان على عمل السلطة التنفيذية تمارس من أجل ضمان عدم خروج السلطة التنفيذية عن اختصاصاتها المحددة في الدستور وتجاوزها على اختصاصات السلطات الأخرى كما أنها تمارس من أجل حماية حقوق الأفراد وحرياتهم، كذلك تبين لنا مما تقدم ان الرقابة على دستورية القوانين لا يمكن أن تؤدي الى ضمان علوية الدستور إلا من خلال ضمان حياد الهيئة التي تمارس الرقابة على دستورية القوانين.

وعليه توصلنا الى عدة نتائج من خلال بحثنا (القيود الدستورية على عمل السلطة التنفيذية والتشريعية في العراق)، وكذلك لدينا بعض المقترحات التي نود أن نطرحها على المشرع عسى أن تأخذ طريقها الى التطبيق.

أولاً // النتائج

١. أن دور الرقابة البرلمانية على عمل السلطة التنفيذية يختلف باختلاف النظام السياسي ففي النظام الرئاسي يكون دورها ضعيف بسبب قلت الأدوات المتوفرة لها بينما نجد أن دور الرقابة البرلمانية بين النظام البرلماني دور فعال بسبب توافر الأدوات اللازمة لقيامه.

٢. إن نجاح الرقابة البرلمانية يعتمد على توافر عدة عوامل منها توفير الأدوات والمعلومات التي تمكن العضو من ممارسة دوره من خلال إعطاء الحق في الإطلاع على كافة الإجراءات التي يقوم بها السلطة التنفيذية في أي أمر معين، كذلك على قدرة العضو والرغبة لديه في ممارسة دوره الرقابي كما ويعتمد على الأوضاع السياسية في البلاد فقد رئينا ان النظام البريطاني على الرغم من وجود الأدوات اللازمة لقيام العضو بدوره الرقابي.

إلا أنه بسبب تمسك العضو بحزبه يمنع من استخدام الرقابة من ممارسة عمله، وهذا فعلاً ما يحدث في العراق حالياً حيث أن الدستور العراقي والنظام العراقي وفر كافة المستلزمات والأدوات التي تتيح للعضو من ممارسة عمله ولكن، هنالك عدة أسباب أدت الى عدم قيام النائب بدوره الحقيقي وأهمها هي:

أ. الإنتماء الشديد من قبل العضو للحزب الذي ينتمي له بالتالي يمنعه من استخدام دوره الرقابي عندما يكون موجه الى الوزير المسؤول الذي ينتمي لنفس الحزب.

ب. الحكومة الإئتلافية التي تضم كافة الأحزاب الفائزة في الإنتخابات مما يؤدي الى إنعدام المعارضة البرلمانية مما يؤثر وبصوره كبيره جداً على أداء البرلمان الرقابي.

ج. حداثة التجربة السياسية الديمقراطية في العراق، حيث أن التجربة الديمقراطية حديثة التكوين في العراق مما يؤدي الى تقليل الخبرة والتجارب السابقة التي تؤدي الى عدم توافر الثقة لدى النائب أنه ممكن أن يمارس دوره بشكل مؤثر.

د. الظروف الإستثنائية التي مرت بها البلاد وما شهدته من حرب طائفية مما أدى سكوت الكثير من الأعضاء من ممارسات خاطئة في عمل السلطة التنفيذية لأنه كان يتخوف أن يحسب الظعن بعمل السلطة التنفيذية ليس على اساس موضوعي وإنما على أساس طائفي أو عرقي أو مذهبي مما أضر من الكثير من أعضاء مجلس النواب من عدم ممارسة دورهم الرقابي من أجل ضمان إستقرار الأوضاع في البلاد.

نص المادة (٩٣) من دستور العراق لعام (٢٠٠٥)

٣. ان الرقابة على دستورية القوانين تمارس من أجل حماية نصوص الدستور من خروج السلطة التشريعية على نصوصه.

٤. ان الرقابة على دستورية القوانين في العراق هي رقابة قضائية حيث أنط الدستور العراقي مهمة الرقابة الى هيئة قضائية وهي (المحكمة الاتحادية العليا) بموجب نص المادة (٩٣) من دستور العراق لعام ٢٠٠٥.

٥. إن الرقابة القضائية على دستورية القوانين في العراق هي رقابة (الغاء) حيث نص قانون المحكمة الاتحادية العليا رقم (١) لسنة (٢٠٠٥) يكون قرار المحكمة ملزم لجميع هيئات الدولة وغير قابل للطعن به (بات) ويؤدي الى الغاء القانون من تاريخ صدور قرار المحكمة مالم ينص القرار على خلاف ذلك.

ثانياً // المقترحات

١. لقد أصبح واضحاً لنا الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ والنظام الداخلي لمجلس النواب قد أعطى حرية كبيرة لعضو البرلمان في ممارسة دوره الرقابي لكن الذي يحصل في إمتناع الكثير من أعضاء مجلس النواب من ممارسة دورهم الرقابي هو أنهم لم يأتوا عبر صادق الاقتراح بل عن طريق قوائمهم التي أوصلتهم الى مقاعد مجلس النواب وبالتالي يكونون اصوات مدافعة عن أحزابهم التي أوصلتهم الى مجلس النواب لا أصوات معبرة عن إرادة الشعب بالتالي تقترح بإعادة سن قانون إنتخابات جديد بضمن وصول الأشخاص الى البرلمان بعدد كافٍ من الأصوات الذي يؤهله لذلك.

٢. لا بد من تفعيل الدور الرقابي للبرلمان يعد ضمن الدستور العراقي للعضو كافة مستلزمات دوره الرقابي من خلال تفعيل نصوص الدستور. وهذا يقع على عاتق مجلس النواب العراقي.

٣. لقد أطلعنا من خلال البحث على مشروع قانون المحكمة الاتحادية ولدينا بعض الملاحظات عليه أرتأينا أن نوردها عسى أن يؤخذ بنظر الإعتبار من قبل المشرع العراقي.

أ. يتعلق بتشكيل المحكمة اقتراح أن تشكل من (١٣) عشر عضواً بدلاً من (١١) عضواً ويكون تسع أعضاء من القضاة الذين لا تقل ممارستهم عن عشرين سنة في مجال عملهم، هذا ماسارت عليه أغلب الدول التي أخذت بهذا النوع من المحكمة.

ب. نرى بضرورة أخذ موافقة مجلس النواب على جميع أعضاء المحكمة وليس فقط على هيئة المستشارين وبأغلبية الثلثين وذلك للدور الخطير الذي تقوم به المحكمة.

ج. أن تشارك هيئة المستشارين في اتخاذ القرار وليس فقط المشاركة في مشاورات المحكمة، وعليه تطالب بالغاء التقسيم في أعضاء المحكمة من هيئة قضاة وهيئة مستشارين بل أن يكون جميع الأعضاء هم أعضاء محكمة يشاركون في مداورات المحكمة وفي إتخاذ القرارات على حد سواء وذلك ان دور المحكمة لا يقتصر على إصدار القرار بل كذلك تختص في تفسير نصوص الدستور ايضاً.

المصادر

أولاً // الكتب

١. د. إبراهيم درويش، القانون الدستوري النظرية العامة، والرقابة الدستورية، دار النهضة العربية، الطبعة ٤، القاهرة، ٢٠٠٤.
٢. د. احسان حميد المرفجي، د. كطران زغير نعمة، د. رعد ناجي الجدة، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، بغداد، ١٩٨٩.
٣. د. أمين عاطف صليبا، دور القضاء الدستوري في ارساء دولة القانون (دراسة مقارنة)، مؤسسة الحديث للكتاب، لبنان، ٢٠٠٢.

٤. د. أنور الخطيب، الأصول البرلمانية في لبنان وسائر البلدان العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١.
٥. د. أيهاب زكي سلام، الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية في النظام البرلماني، عالم الكتب، ١٩٨٣.
٦. د. حامد ربيع، مذكرات في النظرية السياسية، كلية الإقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٨٧.
٧. د. عمرو هاشم ربيع، الرقابة البرلمانية في النظم السياسية دراسة في تجربة مجلس الشعب المصري، مركز الإهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة، ٢٠٠٢.
٨. د. فارس عمران، التحقيق البرلماني في مصر والولايات المتحدة ولمحة عنه في بعض البلدان العربية، مجموعة النيل العربية، ١٩٩٩.
٩. د. محمد باهي أبو يونس، الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة في النظامين المصري والكويتي، دار الجامعة الجديدة للنشر، ٢٠٠٢.
١٠. د. منذر الشاوي، القانون الدستوري، نظرية الدستور، منشورات البحوث القانونية، وزارة العدل، بغداد، ١٩٨١.
١١. د. منذر الشاوي، معنى الرقابة على دستورية القوانين، بلا سنة طبع، بلا مكان طبع.
١٢. المحامي وسيم حسام الدين الأحمد، الرقابة البرلمانية على أعمال الإدارة في النظام البرلماني والرئاسي، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، ٢٠٠٨.
١٣. د. يحيى الجمل، النظام الدستوري في جمهورية مصر العربية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٤.

ثانياً // القوانين

١. دستور العراق لعام، ٢٠٠٥.
٢. قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية لعام ٢٠٠٤.
٣. قانون المحكمة الاتحادية رقم (١) لسنة ٢٠٠٥.
٤. مشروع قانون المحكمة الاتحادية العليا.
٥. النظام الداخلي للمحكمة الاتحادية العليا رقم (٣٠) لسنة ٢٠٠٥.
٦. النظام الداخلي لمجلس النواب العراقي.

تحليلات الانبعاث والموت في الطليعة والتموزية طلعية لبيد بن ربيعة وتموزية السيّاب انموذجاً (دراسة مقارنة)

د. ليلي نعيم عطية الخفاجي^(١)

المقدمة

في هذا البحث لسنا بصدد العزف على قيثاره الزمن وقضية التأثر والتأثير ، بل بصدد ابراز المشتركات الأساسية التي تجمع بين طल्लीة العصر الجاهلي والقصيدة التموزية التي لمسنا صداها واضحا في قصائد الشعراء الرواد ، ومن هذه المشتركات قضية الانبعاث والموت التي تبدو تجلياتها واضحة في تلك القصائد. فالشاعر الجاهلي يقع تحت تأثير البيئة الصحراوية التي تمارس عليه نوعا من أنواع القهر تجسد في وقوفه على الطلل وما يمثله من دمار وخراب ، وللطلل برهة نفسية يفرغ فيها الشاعر انفعالاته وأحاسيسه المكبوتة لتكون تعويضا عما يعاينه من قهر وحرمان. "ومادام الابداع الفني إنما ينبع من الرغبة في التخلص من ثقل يرهق البنية النفسية ، أي أنه تعويض يتم من خلال تفريغ الانفعالات"^(٢).

حظيت مطالع القصائد باهتمام النقاد القدامى والمحدثين ومنهم ابن قتيبة الذي قال "سمعت بعض أهل الادب يذكر ان مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربيع واستوقف الرفيق ليجعل لذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به اصغاء الاسماع إليه ؛ لأن التشبيب قريب من القلوب ، لا ئط بالقلوب"^(٣).

أما ابن رشيق القيرواني فقدم تفسيراً يقترب في جوهره من تفسير ابن قتيبة من حيث الصورة الظاهرة لدلالات المطالع في القصيدة فهو يرى ان الوقوف على الاطلال وافتتاح القصائد بالنسيب وربطه بالمكان يرجع إلى "ما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل ، والميل إلى اللهو والنساء ، وان ذلك استدراج إلى ما بعده"^(٤).

(١) المديرية العامة لتربية الصرافة ، بغداد

(٢) مقالات في الشعر الجاهلي (يوسف اليوسف) : ٢٨ .

(٣) الشعر والشعراء : (ابن قتيبة) : ٢٠ .

(٤) العمدة ، (ابن رشيق) ، ج ١ : ٢٥٥ .

أما الباحثون المحدثون فقد آثروا الجانب النفسي في تفسيرهم والابتعاد عن الجانب التقليدي في مفهوم الطللية^(٥).

ويرى الدكتور محمود الجادر ان الطلل هو محاولة استرجاع الماضي المفقود^(٦)، اما الدكتور عناد غزوان اسماعيل فيرى فيه أنه رمز لتجربة الألم^(٧).

ومهما تعددت الآراء يبقى للجانب النفسي أثر كبير في تحديد مفهوم الطلل؛ لأن الوقوف على الطلل لم يكن تقليداً يتخذه الشاعر الجاهلي لافتتاح قصائده بل كان فضاءً نفسياً يشكّل رؤاه النفسية في النظرة إلى الماضي ومواجهة الواقع المؤلم الذي فرضته عليه الطبيعة واستشراف المستقبل وما يحمله من تصورات في نمط ابداعي متكامل البناء وواقع الحال أن الطللية أكثر من تعبير عن الواقع الجاهلي كقائم راهن، لأنها تجسد برهة التحول من الماضي إلى المستقبل، إذ هي تختزن الماضي كنقيض مباشر للحاضر، وكمطابق صميمي للمستقبل المأمول^(٨).

فالشاعر الجاهلي قد جمع في طلله صورتين متناقضتين هما الموت والحياة، وليس اجتماع هذين النقيضين في لحظة زمنية واحدة إلا تأكيداً لإحساسه بالتناقض الموجود في عالمه الذي يحيا فيه "فالشعور بالموت لا يمكن ان يكون شعوراً واعياً كالشعور بالحياة، بل هو شعور غاية في الخفاء، يظهر أحياناً في ظروف خاصة، متخذاً من الأقنعة أو الرموز مرة أخرى ما يضمن اختفائه وان نم عليه"^(٩).

هذا ماذا نظرت إلى الطلل على انه شكل من أشكال التعبير الأدبي ونمط من الأنماط الفنية، أما من الناحية النفسية فهو انعكاس لذلك الصراع الأيدي في نفس الإنسان وفي الحياة من حوله بين "أيروس" و"ثاناتوس" أي بين حب الحياة وغريزة الموت أو التخریب التي تعمل في صمت كما يقول فرويد^(١٠).

وعلى الرغم من التشابه الكبير بين الطللية والتموزية^(١١)، هذا التشابه الذي يتجلى في كون كل منهما ينطوي على عنصر البكاء احتجاجاً على الجذب والقحل، كما تحتوي التموزية على العنصر الجنسي مندجاً اندماجاً عضوياً مع العنصر السابق المتمثل بممارسة نساء بابل للعملية الجنسية مع الأغراب في طقس معين هدفه الاختصاب وإعادة الحياة إلى تموز إله الخصب. فنحن لا يسعنا إلا أن نقول ان الطللية استمرار للموروث التموزي السامي الذي ربما انتقل إلى ثقافات العرب البائدة في القرون السابقة على الجاهلية، غير اننا لا نملك الوثائق التاريخية التي تساعدنا في تقديم الحقائق المؤكدة^(١٢). إلا أننا ننظر إلى الطللية بأنها نمط من أنماط طقوس الخصب والانفعال أمام الشح الذي تمارسه الطبيعة على الإنسان مدغوماً بعنصري

(٥) ينظر الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي (عبدالقادر فيدوخ): ٢٤٧ حيث يذكر لنا ثلاثة أنواع من التقسيمات من حيث كونها تعتمد النظرة النفسية ميداناً لبحثها على وفق المناحي الآتية: (١) المنحى الوجودي النفسي. (٢) المنحى النفسي. (٣) المنحى الاجتماعي النفسي.

(٦) قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية (الدكتور محمود الجادر) بحث: ٦.

(٧) المرأة الغزلية في الشعر العربي (الدكتور عناد غزوان): ٢.

(٨) مقالات في الشعر الجاهلي (يوسف اليوسف): ١٢٠.

(٩) روح العصر (الدكتور عز الدين اسماعيل): ٢١.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢.

(١١) الطللية القصيدة الجاهلية التي تبدأ بالوقوف على الاطلال والديار الدارسة للحبيبة بعد ارتحالها عنها، اما التموزية القصيدة الحديثة التي تتضمن اسطورة تموز إله الخصب والحياة.

(١٢) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي (يوسف اليوسف): ١٣٨.

الانهدام الحضاري الذي يتمثل في الأطلال الدارسة والديار الخربة والانسلاب الجنسي الذي يتمثل بالحرمان من الحبيبة الراحلة^(١٣).

ان وقوف الشاعر الجاهلي على الطلل ليس من قبيل المصادفة أو المزاجية وإنما هي لحظة ذهنية نفسية شكّلت رؤية الشاعر ونظرتة إلى الكون وتناقضات الحياة والوقوع تحت طائلة القهر والاستلاب الذي تمارسه الطبيعة بحق الإنسان بصورة عامة والشاعر بصورة خاصة، فالصراع بين البقاء والفناء والحياة والموت صراع أزلي منذ بدء الخليقة ولحد الآن، والشاعر يسبح في فضاء هذا الصراع ويؤطره بفلسفته الخاصة. ان الطبيعة بكل عناصرها تمارس ضغطاً تسلطياً على الشاعر وتتحول إلى حشد من أسقطات الذات عنده وقد مارست الطبيعة هذه الضغوط التسلطية على كل البشر وفي كل بقاع الأرض وهذا هو عيب بن الأبرص يؤكد هذه الحقيقة المؤلمة بقوله:

أَرْضِي تَوَارِثَهَا شَعُوبَ
فَكُلِّ مِنْ جَلْهَبِ مُحْرَبٍ
لِمَا قَلِيلاً وَلِمَا هَالِكاً
وَالشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ^(١٤)

فالقصيدة الطللية تعج بالألفاظ الدالة على القفر والجذب والقحل مثل "أقفر، قفر، محت، الدار قفر، عفت" وهذه الألفاظ تعكس رؤية الشاعر بتوقف غريزة الحياة وانتصار قوة الموت وجبروته، فهو القوة القادرة على القضاء على كل فعل انساني والأداة المحطمة لقدراته، مما يستدعي من الشاعر الوقوف بوجه التدمير والموت واستدعاء رموز الطبيعة الأخرى التي يث من خلالها الحياة في طلله كالطر، الماء، عوذ الحيوانات وهذه الرموز تشكّل حيزاً لا يستهان به في تغليب ارادة الانبعث والحياة على عناصر الخراب والموت والدمار وهذه الثنائية الضدية تؤطر حركية الابداع في قصيدته، ولو استعرضنا طللية الشاعر لبين بن ربيعة العامري لوجدنا انها تتحرك في أبعاد هذه الثنائية (الانبعاث والموت) بقوله:

عفت الديار محلها فمقامها
فمدافع الريان عري رسمها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها
رزقت مرايع النجوم وصابها
من كل سارية وغاد مدجن
فعلاً فروع الأيهقان وأطفلت
والعين ساكنة على أطلالها
أو رجع واشمة أسف نؤورها
فوقفت أسألها وكيف سؤلنا
عريت وكان بها الجميع فابكروا
بمنى تأبد غولها في جامها
خلقاً كما ضمن الوحي سلامها
حجج خلون حلالها وحرامها
ودق الرواعد جودها فرهامها
وعشية متجاوب ارزامها
بالجهلتين ظباؤها ونعامها
عوذا تأجل بالفضاء بهامها
كفياً تعرض فوقهن وشامها
صماً خوالد ما بين كلامها
منها وغودر نؤيها وثمامها^(١٥)

ان بنية النص تقوم على أبعاد الثنائية الأساسية (الانبعاث / الموت)، فالديار الدارسة وما حل بها من بلاء ودمار بفعل الطبيعة (التمثلة بأحد طرفي الثنائية - الموت) قد أُنعت فيها رموز الطبيعة الأخرى من مطر دافق، وارتفاع فروع الأيهقان، وتوالد الحيوانات، والسيول التي أظهرت معالم هذه الديار، الوشم (الطرف الآخر للثنائية - الانبعاث).

(١٣) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي (يوسف اليوسف): ١٣٩.

(١٤) الديوان: ٢٠.

(١٥) شرح الديوان: ٢٩٧-٣٠٠.

ان النص يكشف بوضوح عن قوة العامل الزمني في أحداث صور التخريب والدمار لهذه الديار وهذا استكناه للواقع الذي رآه الشاعر في وقفة تأملية أشعرته بهوة الموت السحيقة التي عززها قوله "صما خوالد" ويأسه القائل وعجزه عن لقاء الحبيبة. فاردفها بمفردات الخصب والانبعاث والنماء ورموز المواجهة وعناصر الحياة، فكان ودق الرواعد "المطر" الذي ساعد على نمو وارتفاع فروع الايهقان "النبت البري" دليلاً على البعث والنماء. والشاعر المحدث ينظر إلى المطر على انه البعث مثلما ينظر إليه الشاعر الجاهلي وإذا كانت نظرتة هذه شعورية واعية مقصودة، فربما كان الشاعر الجاهلي ينظر إليه بوصفه كذلك ولكن بدوافع لا شعورية بعيدة عن الصنعة والتقنية الأدبيتين^(١٦). كما ان احساس الشاعر الجاهلي بالمطر أكثر عمقا وتأثيراً انطلاقاً من بيئته الصحراوية التي يعيش فيها.

ان المطر يحمل معان ودلالات متنوعة عند الشاعر، كما ان للمطر شحنات إيجابية يحشدها الشاعر في طلله لطرحة كبديل للجذب والافقرار الذي أحال الطلل من حالة إلى أخرى مناقضة لها. ان الشاعر هنا يعطي الطلل قدرة كبيرة على مواجهة عوامل الاندثار والخراب فكأنما يسّج نفسه بعناصر المقاومة والتحمل والتصبر للانفلات من واقع مؤلم إلى واقع يتمناه، واقع يحلم فيه بالحياة بكل أبعادها، حيث ان التوجه إلى الطلل هو في النهاية توجه إلى الذات، كأن الشاعر يجد في هذه الدار الخربة الدائرة صورة عن نفسه المنهدمة الرثة، كأن المجال المكاني مرآة تعكس له أوضاعه الداخلية المتضعضعة^(١٧). فالشاعر يسعى جاهدا للانفلات من قبضة الواقع الأليم المتمثل بالديار الخربة التي عفا عليها الزمن، كما ان "الطلل رمز الزمن الذي يتسم رغم ما يشوبه من قسوة، المضي والانفلات بالايجابية الواضحة"^(١٨). والمطر رمز الخصوبة والنماء والحياة يطرحه الشاعر بديلاً عن الجذب والقحط. وحضوره في الطللية إنما هو رمز واع في الدلالة يحدد دورة الحياة فتبث الحياة في الأرض والنبات، وينتقل الطلل من الموت إلى الميلاد، من الجمود إلى الحركة والحياة، من العفاء إلى الخصب والنماء.

كما ان عملية التوالد والانجاب بين الحيوانات اشارة إلى عمق الدفق الحياتي الذي أضفاه الشاعر على طلله مما يعزز طرف الثنائية الآخر (الانبعاث) ويعزز الشاعر طلله بمفردات التجدد والانبعاث المتمثلة بالوشم. والوشم أهم اشكال التبرج والزينة لدى المرأة الجاهلية وذلك الرجل على السواء فهو التبرج المقحم على الجسد ليغدو جزءاً منه فهو اعظم من العطور والمساحيق والحلي. واعادته اعادة لترميم الحياة في هذا الطلل واصلاح ما تهدم منها.

وهنا يتوارد إلى الذهن التشابه الكبير بين عملية التوالد بين هذه الحيوانات والطقوس الجنسية التي تمارس في القصيدة التموزية.

ان الصمت المطبق على هذا الطلل يعلم الشاعر لبيد بن ربيعة كنهه، كما انه يدرك عبثية السؤال واستحالة الجواب من تلك الحجارة الصماء الصلدة التي لا تفقه شيئاً، فيبدو الشاعر حاضراً ومستعداً للمواجهة بطرح البديل، ويكون البديل بث الحياة والرغبة في انبعائه من جديد، وبذلك تتحقق عملية التواصل والمشاركة الوجدانية التي يسعى اليها. فالمقدمة الطللية جمعت بين عنصرين أحدهما يذكّر بالفناء، وهو الأطلال، والآخر يذكّر بالحياة وهو الحب. وليس اجتماع هذين النقيضين: الحياة والفناء في الموقف الواحد، وارتباط أحدهما بالآخر، إلا تأكيداً لاسساس الشاعر بالتناقض العام الماثل سواء في العالم الخارجي أو عالمه الباطني، ولكن هذا التناقض هو الذي يكون سر حياة الإنسان في حد ذاته، بل سر

(١٦) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي (يوسف اليوسف): ١٤٣.

(١٧) في النص الشعري العربي - مقاربات منهجية (الدكتور محمد بلوحي): ٢٩٢.

(١٨) قراءة ثانية لشعرنا القديم (الدكتور مصطفى ناصف): ١١.

الوجود في كليته والمبنى وثنائية الحياة والفناء^(١٩). ويتخذ الطلل شكلا انسانيا حين يحاول الشاعر أنسنته أي بث الروح فيه من خلال السؤال عن أهله وكأنه كائن حي تسري فيه طاقة وحيوية فيعكس من خلالهما عمق المشاركة الوجدانية والاحساس بالألفة والانسجام، فاذا بالشاعر يخترق نظام الكون بأسره ليحاكي الجماد ويجعل منه صديقا وأنيسا يحاوره ويوجه إليه الأسئلة التي يبتغيها، ومثلما كان هذا الطلل حلم الشاعر وحنينه وموطن ذكرياته فجيکور في تموزية السياب هي الولادة الأولى وهي الأم الأبدية، كما انها تتخذ شكلا انسانيا يؤطره الشاعر بطاقة الروح والفعل.

وتتجلى الصورة أمام لبید واضحة لا تقبل اللبس، فالجميع قد غادر المكان، موطن الذكريات، ومبعث اللذات إلى مكان آخر يجدون فيه الخصب والنماء ويحاولون الانفلات من قبضة الطبيعة وقحلها، وهذا يجذب انتباهنا إلى هجرة أبناء القرية في تموزية السياب إلى المدينة فتبدو جيکور حزينه هي الاخرى بعدما أصابها الجفاف وهجرها أهلها، إلى المدينة القاحلة، مدينة بلا حب، بلا ربيع تعيش في جفاف، روعي قاتل على العكس من جيکور الخصب والنماء.

ومما يعزز مأساوية الشاعر في طلله ملاحقة هودج النساء ومتابعتها وذكر تفاصيل رحيلها مدققا في دخولهن الهودج وصرير خيامهن وابتعادها عنه. ان دقة متابعته لحركة الهودج يعكس عمقا وجدانيا وانكسارا نفسيا لديه وتؤكد له حتمية الانفصال والفراق، ولهذا فان "الطلل هو بيت الذكرى، ولأنه بين الذكرى "بيت الحلم" ويرتبط الحلم والذكرى بالحبيبة اذن غابة أسرار سعيدة^(٢٠).

اما ارتباط الطللية بذكر فراق المرأة وجمالها ومحاسنها؛ فلأن المرأة هي التي تكمل الحضور الانساني للشاعر، وان نضوب ملاحظها يعني تضعض الحياة الاجتماعية وانهارها^(٢١).

فيقول الشاعر لبید بن ربيعة في لوحة الظعن:

شأقتك ظعن الحي حين تحملوا	فتكنسوا قطناً تصير خيامها
من كل مخفوف يظل عصيه	زوج عليه كلفة وقرامها
زجلا كأن نعاج توضح فوقها	وظباء وجرة عطفأ أرامها
حفزت وزايلها السراب كأنها	أجزاع ييشة أثلها ورضامها
بلي ما تذكّر من نوار وقد نأت	وتقطعت أسبابها ورامها
مرية حلت بفيد وجاورت	أهل الحجاز فاين منك مرامها
بمشارق الجبلين أو بمحجر	فتضممتها فردة فرخامها ^(٢٢)

ان متابعة الشاعر لرحيل النساء وحركة الهودج تبدو وكأنها "سعي للتواصل واصرار على التمسك بهؤلاء النساء يتعارض مع حركة الانفصال والابتعاد التي تقطع صلة النساء بالمكان وبالشاعر"^(٢٣).

ويبدو حديث الظعن عند وهب رومية ينبوعا دافقا عذبا من ينباع الشعر يجتمع عليه العشاق والقبائل ومن طردتهم الحياة من مراع اللهو والشباب الى منازل الشيخوخة، والذين فرت من ايديهم ساعات

(١٩) آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقارنة الشعر الجاهلي (الدكتور محمد بلوحي): ١٠٨.

(٢٠) تجليات الحداثة - قراءة في الابداع العربي المعاصر (ماجد السامرائي): ٣٩.

(٢١) ينظر: في النقد الجمالي - رؤية في الشعر الجاهلي (الدكتور احمد محمود خليل): ١٤٧.

(٢٢) شرح الديوان: ٣٠٠ - ٣٠٢.

(٢٣) في النص الشعري العربي - مقاربات منهجية (الدكتور سامي سويدان): ٢٢١.

الصفو والعيش الرغيد فصاروا إلى ضيق الحال ، او هو القيثارة الجميلة التي يوقع عليها الشعراء انغام حياتهم في فرحها وحزنهما فينوعون في النغم ويتفننون في التنويع^(٢٤). وهنا يمكن القول ان المرأة في حياة الشاعر الجاهلي رمز كرامته وكبريائه واحساسه بالرجولة وعنوان لذته الحسية ، فهو يبحث عنها في كل مكان.

وتتلاحق صور الحيوية التي يبتها الشاعر لبيد في طلله فيطرح صورة الناقة العظيمة امتداداً لقوته الذاتية وتجسيدا على القدرة والتحمل فيقول :

ولشرّ اصل خَلَّة صرّامها	فقاطع لبانة من تعرض وصله
باق اذا ظلعت وزاع قوامها	واحب المجامل بالجزيل وصرمه
منها فاحنق صلّ لها وسنامها	بطليح أسفار تركن يقيه
وتقطعت بعد الكلال خدامها	واذا تغالى لحمها وتحسرت
صهباء حف مع الجنوب جهامها	فلها هيباب في الزمام كأنها
طرد الفحول وضربها وكدامها ^(٢٥)	أو ملمع وسقت لأحقب لاحه

ان ناقة الشاعر ناقة قوية أنهكتها الأسفار ، رشيقة ضامرة تقطع الفيافي والقفار بكل نشاط وحيوية ، فهي تمتلك قيمة رمزية لمواجهة مخاطر الصحراء ففي وسط الجفاف والعقم تبدو الناقة بأوج قوتها وحيوتها ، كما ان الناقة والأتان الوحشية العظيمة النشاط التي يشبه بها ناقته هما صورتان من صور النشاط والقوة ، كما انها حافلة بالتقاطعات الحادة بين القوة والضعف والفناء والحياة أما البقرة الوحشية شبيهة الناقة تمثل صورة الحياة بكل أبعادها بما تحمله من صراعات وتناقضات ، فالبقرة التي افترس الوحش ولدها والتي تصارع كلاب الصيد تمثل صراع الحياة بكل تناقضاتها والمواجهة بينها وبين الصيد وكلاهما هي مواجهة بين الحياة والموت وانتصار البقرة هو انتصار لإرادة الحياة والاستمرارية وتخطي العقبات الصلدة التي يواجهها الشاعر :

خذلت وهادية الصّوار قوامها	أفتلك أم وحشية مسبوغة
عريض الشقائق طوفها وبغامها	خنساء ضيعت الفريز فلم يرم
غيس كواسب لا يمن طعامها	لمعقر قهد تنازع شلوه
إن المنايا لا تطيش سهامها	صادفن منها غرة فأصبنها
يروى الخمائل دائما تسجامها	باتت وأسبل واكف من ديمة
في ليلة كفر النجوم غمامها	يلو طريقة متنها متواتر
بعجوب أنقاء يميل هيامها	تجتاف أصلا قالصا متنبذا
كجمانة البحري سل نظامها	وتضيء في وجه الظلام منيرة
بكرت تزل عن الثري أزلماها	حتى اذا انحسر الظلام وأسفرت
سبعاً توأماً كاملاً أيامها	عليه تردد في نهاء صعائد
لم تبله ارضاعها وفطامها	حتى اذا يئست وأسحق خالق
عن ظهر غيب والأنيس سقامها	فتوجست رز الأنيس فراعها
مولى المخافة خلفها وأمامها	فعدت كلا الفرجين تحسب أنه

(٢٤) ينظر : الرحلة في القصيدة الجاهلية (وهب رومية) : ٢٢٦ .

(٢٥) شرح الديوان : ٣٠٣ - ٣٠٤ .

فلحقن واعتكرت لها مديرة
لنذودهن وأيقنت إن لم تد
فتقصدت منها كساب فضرجت
فتلك إذ رقص اللوامع بالضحي

كالسهمرية حدها وتماها
أن قد أحمر من الختوف حمامها
بدم وغودر في المكر سخامها
واجتاب أردية السراب لإكامها^(٢٦)

ان البقرة لا تعرف موت ابنها وهي ماضية في البحث عنه في عبثية يائسة لا طائل منها ، فالموت يترصد الأحياء اينما كانوا والمواجهة مع الموت مازالت مستمرة وهذا المشهد الفجائي الذي مرت به البقرة هو فجائية الموت تجاه الحياة . ويبدو ان النص يستسلم لحكم الموت وحتميته لكن الحياة تنتفض من جديد وتعلن اصرارها على المواجهة في هذه اللحظة الحاسمة ويأتي المطر رمز الخصب والنماء لينفجر في سياق الموت :

باتت وأسبل واكف من ديمة
يعلو طريقة متواتر

يروي الخمائل دائما تسجامها
في ليلة كفر النجوم غمامها^(٢٧)

ان هطول المطر هنا يأتي مسبلا من ديمة يروي الخمائل بحركة هادئة ويمنح البقرة ملاذا للاحتماء في ترنيمة وحدانية تمتلئ بالمشاعر العاطفية ، فالمطر لم يكن قوة تدميرية بل قوة مانحة للدفع والحياة والاحتفاء . وينبثق الفجر من قلب الليل "وتضيء في وجه الظلام منيرة" فتندفع البقرة إلى خضم الحياة معلنة انتصارها في مواجهة الموت لعالم الخصب والنماء ، لكنه انتصار يحمل بين طياته اليأس القاتل من فقدان ولدها ، فهي تعيش أزمة حادة ، أزمة الفقدان والحزن ويأتي الموت مرة أخرى يترصد حياة البقرة فهي تسمع "رز الأنيس" الصياد وتتهيا للمعركة . ان الصراع الدائر بين البقرة وكلاب الصياد يمثل ثورة الشاعر على مواجهة معترك الحياة وخضم التناقضات التي يتحرك في فضائها ورفض الاستسلام للموت والرغبة في الحياة ، فالموت قد انقض بمخالبه ليفترس ولدها وهاهو الآن يحاول افتراسها . هذا الصراع الجدلي بين الحياة والموت صراع أزلي يبعث القلق في نفس الشاعر ، وتتأكد صورة الانتصار عند البقرة والنجاة من الموت وهو انتصار الحياة ضد الموت واثبات النقيض من قلب النقيض^(٢٨) .

وتتجدد رؤيا الانبعاث في وعي الشاعر والهامه من خلال العودة إلى الحبيبة "نوار" فيقول :

أو لم تكن تدري نوار بأنني
تراك أمكنة اذا لم أرضها
بل أنت لو تدريين كم من ليلة
قد بت سامرها وغاية تاجر
أغلي السباء بكل أدكن عاتق
بصبح صافية وجذب كرينة
بادرت حاجتها الدجاج بسحرة

وصال عقد حبال جذامها
أو يعتلق بعض النفوس حمامها
طلق لذيذ ليوها وندامها
وافيت إذ رفعت وعز مدامها
أوجونة قدحيت وفص ختامها
بموت تأناله ابهامها
لأغل منها حين هب نيامها^(٢٩)

ان الصراع الوحشي بين البقرة وكلابها له صلة بالصراع الداخلي في ذات الشاعر وربما كان له صلة بفراق الحبيبة نوار ، فهو يتحدث عن جهل نوار بقدرته على الوصال والفراق من خلال تساؤله المطروح

(٢٦) شرح الديوان : ٣٠٧ - ٣١٢ .

(٢٧) شرح الديوان : ٣٠٩ .

(٢٨) الرؤى المقنعة (كمال ابو ديب) : ٨١ .

(٢٩) شرح الديوان : ٣١٢ - ٣١٥ .

الذي يشكل أزمة نفسية تعكس صراعه المستبطن كنوع من الاستدعاء الوجداني لهذه المرأة ، كما ان حضور الخمرة في الايات السابقة نوع من أنواع استجلاب اللذة تعويضاً عن لذة الاستمتاع بهذه الحبيبة الغائبة ، فهو يندمج في الخمرة كاندماجه في المجتمع وحماية قبيلته في الحرب واعالتها عن طريق الصيد وقيامه بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه ، وهذا الاندماج يشير إلى حقيقة لا تقبل الشك إلى قدرته على بلوغ السلوك المثالي واستعداده للتواصل الاجتماعي لابرازه كقيمة عليا فهو يقول :

ومقسّم يعطي العشيرة حقها ومغذّم لحقوقيها هضامها
فضلاً وذو كرم يعين على الندى سمع كسوب وغائب غنامها
من معشر سنت لهم آبائهم ولكل قوم سنة وإمامها^(٢٠)

فالطلل كان مكاناً مسكوناً ممتلئاً بالحضور الإنساني والمشاركة الوجدانية غير ان الجذب والموت والصراع القبلي أحدث انقلاباً مخيفاً فأحال الطلل إلى فراغ موحش وصمت وطبق يتجسد فيه الغاء الملامح الإنسانية ، تفوح منه رائحة الموت. كما أنه "تجسيد للهزيمة التي تحيق بإرادة الإنسان ، وتدمير لرغبة الجماعة البشرية في التوطن والاستقرار ، وإشارة إلى الكآبة العميقة إزاء الوطن الذي يستلب قهراً ، ويصير ياباً"^(٢١). وهذا ينطبق تماماً على تموزية الشعراء الرواد في العصر الحديث ، فالسياب "يجد معالم الماضي هذا خرائب ما ان ينزع الأبواب عنها حتى تغدو أطلالاً"^(٢٢).

ان طللية لبيد تكشف عن عمق القحل الذي تمارسه الطبيعة على الإنسان وعمق الصراع النفسي والواقع المأسلوي الذي يعيشه في هذه الطبيعة ، إذ تعد الطللية إحدى النماذج الابداعية العليا التي اصطفتها فلسفة الخطاب الشعري الجاهلي ، لتحمل رسالة الهم الاجتماعي ، وان كان هذا الهم ممزوجاً بالذاتي إلا أن فيه صدق التعرف إلى الواقع وتناقضاته وادراك الفوارق الموجودة فيه وقد كانت محنة الشاعر الجاهلي تمثيلاً لدعومة الحياة النابضة بالحركة والمجاهدة من أجل صياغة التركيب الكلي للوعي السليم ، وان الشعور المغلق بالزمان هو الصورة الجوهرية لهذا التركيب الكلي للطللية الذي يجعل جميع التركيبات الشعرية الأخرى في حيز الامكان"^(٢٣).

وهذا الأمر ينطبق على محنة الشاعر السياب الذاتية التي تبرز بمحنة المجتمع وتناقضاته التي بدت جليلة من خلال قصائده التموزية التي صورت الواقع المحيط أعظم تصوير وجهاد الشاعر في البحث عن منافذ حيوية للانبعاث والتجديد في سياق النكوص والتراجع أمام القهر المسلط على الإنسان لكن ليس بالطريقة المباشرة التي عرض بها الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة العامري من خلال طليلته التي عرضناها ، فالسياب استخدم الرمز - الأسطورة - لينفذ من خلالها إلى تجسيد رؤاه النفسية والذهنية والفكرية لاستجلاء الواقع المر بكل تناقضاته.

يلجأ كثير من شعراء القصيدة الحرة الى استخدام الرمز في قصائدهم لضرورة فنية تهدف إلى تكثيف الصور الشعرية أو ضرورة سياسية تقتضي الایماء والرمز لعدم توفر الحرية الكافية للتعبير عن تطلعاتهم وعرض آرائهم في جو ديمقراطي يتيح حرية التعبير أو ضرورة نفسية تتعلق بالذات المعبرة التي لا تستطيع الافصاح عما يخالجها إلا عن طريق الرمز. فالرمز "بضعة من العالم الإنساني الخاص بالمعنى"^(٢٤) والتصور

(٢) شرح الديوان : ٣١٩ - ٣٢٠

(٣١) في النقد الجمالي - رؤية في الشعر الجاهلي (الدكتور احمد محمود خليل) : ١٤٤ .

(٣٢) تجليات الحداثة - قراءة في الابداع العربي المعاصر (ماجد السامرائي) : ٣٨ .

(٣٣) آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقارنة الشعر الجاهلي (الدكتور محمد بلوحي) : ١٠٦ .

(٣٤) الرمز الشعري عند الصوفية (عاطف جودت نصر) : ٢١ .

الرمزي "هو الذي يفسر الرمز بوصفه أفضل صياغة ممكنة لشيء مجهول نسبياً فهو لا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً أو أن يقدم على نحو مميز"^(٣٥)، وقد أكثر شعراء القصيدة العربية المعاصرة من استخدام الرمز الأسطوري في تضاعيف قصائدهم لضرورة أملتها عليهم الآنية؛ لأن "الرمز ينتمي إلى الآنية وإلى عالم المعنى"^(٣٦). وللرمز الأسطوري خصائص وسمات أصيلة جعلته يؤثر التجربة الشعرية بإطار يقوم "على التكثيف والادماج، وصهر الأفكار المتماثلة، ومزج المعاني المتشابهة حيث تندمج الحدود والفوارق"^(٣٧). وتعني الأساطير في اللغة: الأباطيل، وأحاديث لا نظام لها كما ورد في لسان العرب لابن منظور^(٣٨). وقد عدّها بعض الباحثين "أنها تجربة حدسية، أو رؤية حاول الإنسان بوساطتها فهم معاني الوجود المتناقضة، واكتشاف طبيعة العلاقات والأشياء من حوله"^(٣٩). وعدّها آخرون "عنصراً وظيفياً راسخاً في الأدب، وليس مجرد زخرفة"^(٤٠). فالأسطورة شبيهة بالرمز لكنها أكثر دلالة منه، لأنها تحمل وقائع متعددة وشبكة متداخلة من الصيغ المعرفية التراثية في حين أن الرمز هو واقعة فقط. أمّا أهم ما يميز البنية الأسطورية هو أسلوب السرد الحكائي والحوار، وتفتت وحدثي الزمان والمكان، والتجسيد بالصور الحسية والتكرار الذي تعتمده لتأكيد قضية مركزية، والتعبير بالرؤيا بلغة بسيطة تحمل رؤية وموقفاً واضحاً من الوجود يقود هذه العملية زاوية تنتظم من خلاله الأحداث^(٤١). وتبرز وظيفة الأسطورة على مستويين: الأول: بنائي فني، والثاني: موضوعي يربط بين عالم الأساطير والواقع المعاصر^(٤٢).

يعدّ توظيف الأسطورة من الدلالات الإبداعية والفنية في قصائد الشعر الحر التي تعبّر عن رؤية الشعراء وفهمهم العميق للكون والمجتمع والطبيعة والزمان، فالأسطورة أخذت بعداً كبيراً وحيزاً واضحاً في تلك القصائد إلى الحد الذي قال فيه الشاعر عبد الوهاب البياتي (إن الرمز والأسطورة والقناع أهم اقانيم القصيدة الحديثة، وبدونهم تجوع وتعري وتحول إلى مشروع، أو هيكل عظمي إلى جثة ميتة)^(٤٣). فالأسطورة حقل معرفي يستقي منه الشعراء اكتساب المعرفة وتساعدتهم على فهم الحياة بكل إبعادها ومعانيها: "لأن نشأة الأساطير ترتبط بفجر الإنسانية وقد كان الوعي الأسطوري يؤمن لأصحابه مقدارا من التناغم والتجانس والمواءمة بينهم وبين الكون وعناصره ولكن هذا الوعي بدأ ينحسر شيئاً فشيئاً منذ بزغت النظرة العلمية إلى الكون. وكلما زادت سيطرة الإنسان على العالم بالعلم تقلصت النظرة الأسطورية وتعدت الكائنات من قداستها"^(٤٤).

واختلف الباحثون والدارسون في تحديد دواعي استخدام الأسطورة في الشعر الحر واندفاع عدد كبير من الشعراء إلى توظيفها في تضاعيف قصائدهم، فمنهم من يرى أنها تخضع لمزاج شخصي أو تكويني نفسي اجتماعي كما فسر الصائغ استخدام السياب للرمز الأسطوري بسبب "مزاجه الشخصي المنفعل وميله إلى

(٣٥) المصدر نفسه: ٢.

(٣٦) المصدر نفسه: ٢١.

(٣٧) الرمز الشعري عند الصوفية (الدكتور عاطف جوت نصر): ٢٧.

(٣٨) ينظر: لسان العرب (ابن منظور): مادة (س ط ر).

(٣٩) تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث (نعيم الباتي): ٣٠٨.

(٤٠) مقالة في النقد (اغراهام هو): ١٧٧.

(٤١) الغابة والفصول (طراد الكبيسي): ٧٦.

(٤٢) دير الملاك (الدكتور محسن اطمش): ١٢٩.

(٤٣) مجلة الجامعة العدد الرابع لسنة ١٩٤٧ مقابلة مع الشاعر عبد الوهاب البياتي: ٢١.

(٤٤) توظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي - بحث - (الدكتور وهب رومية): ٣٩.

الأجواء الغريبة الشاذة وحسّه الديني^(٤٥). وقد يكون المزاج الشخصي المنفعل أساساً مهماً في استخدام السيّاب للرمز الأسطوري نتيجة للتقلبات المتناقضة في حياة السيّاب لكن تأثير العامل الديني لم يظهر واضحاً في شعره ولذلك لا نجد فيه سبباً في اندفاعه لاستخدام الأسطورة، ومن الدارسين من يرى أن السيّاب اتخذ من الرمز الأسطوري وسيلة للتخفي والتستر تحت قناع هذا الرمز وإذا كان هذا السبب قد ينطبق على السيّاب في بعض الأحيان وفي بعض قصائده نتيجة للظروف والتقلبات السياسية التي مرت به لكنها لا تنطبق على بقية الشعراء وفقاً لما صرح به السيّاب في قوله:

"لعلني أول شاعر عربي معاصر بدأ باستعمال الأساطير يتخذ منها رموزاً، كان الدافع السياسي أول ما دفعني إلى ذلك فحين أردت مقاومة الحكم الملكي السعدي بالشعر اتخذت من الأساطير التي ما كان زبانية نوري السعيد ليفهموها ستاراً لأغراضي، كما أنني استعملتها للغرض ذاته في عهد عبدالكريم قاسم. ففي قصيدتي "سربروس في بابل" هجوت قاسماً ونظامه أبشع هجاء دون أن يظن زبانيته لذلك، كما هجوت النظام أبشع هجاء في قصيدتي الأخرى "مدينة السندباد"، وحين أردت أن أصور فشل أهداف ثورة تموز استعصت عن اسم تموز البابلي باسم أدونيس اليوناني الذي هو صورة منه"^(٤٦). وإذا كان سبب التخفي وراء الرمز الأسطوري عند السيّاب في مرحلة معينة قد لاقي بعض القبول لكنه أصبح لا جدوى منه في مراحل حياته الأخرى.

ويرى البعض أن ثمة أسباب دعت إلى استخدام الأسطورة هي التوق الشديد إلى الماضي، والشعور بجفاف الموضوعات المعاصرة، والشعور بالقلق والتفكك والوحدة، فضلاً عن اقتقاد حرية التعبير^(٤٧)، لقد حاول الشعراء العبور بالأسطورة من معناها الضيق إلى مرحلة أكثر تطوراً تعج بعوامل النضج الفكري والفني والوصول بها إلى أعلى مرحلة من مراحل التكثيف في البنية الدلالية للقصيدة واستلهاً المعنى الشامل لها خدمة للبناء الشعري وانسجاماً مع متطلبات الواقع وتعبيراً عن القضايا العامة بمستوى عالٍ من التكنيك التقني والدرامي.

ولعل ما يؤكد هذا القول أن السيّاب حين استخدم الأسطورة وسيلة للتخفي لأسباب خاصة كان وليد مرحلة معينة من مراحل حياته سرعان ما انتهت لكنها عادت عنده باطلالة جديدة أسهمت اسهاماً فاعلاً في بناء قصيدته بناءً فنياً عالياً المستوى أظهر مهارته وقدرته في توظيف الأسطورة توظيفاً يخدم الواقع ويعبر عن محنة الإنسان المعاصر لتحويل الأسطورة إلى "نسيج شعري متدفق شديد الارتباط بالحاضر وبالحياة المعاصرة"^(٤٨).

وبهذا استطاع السيّاب أن يجسّد فكرة الموت والانبعاث والاهتمام بالجانب الأسطوري الذي بدأه في قصيدته "أنشودة المطر" التي كتبها عام ١٩٥٢م فقد وظّف السيّاب الأسطورة في شعره ليعبر عن قضية انبعاث الحضارة العربية بعد موتها في عصور الانحطاط ليتخذ منها رموزاً تعبر عن الحياة العامة والقضايا المصرية ولهذا أكثر الشاعر من استخدام الشخصيات الأسطورية في شعره ولعل كلمة المطر المحور الأساس في قصيدته "أنشودة المطر" لأنها رمز الحياة وانبعاثها ففي إشارة ضمنية إلى أسطورة الإله تموز أو أدونيس الذي تعبد له الشعوب السامية التي سكنت العراق وسوريا وكانت هذه الشعوب تحتفل كل عام بموت الإله ثم قيامته وانبعاثه من جديد تأكيداً لانتصار الحياة في صورة إخصاب الأرض بالمطر.

(٤٥) الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى ١٩٥٨ (يوسف الصائغ): ١٩٧.

(٤٦) من مقابلة صحفية مع كاظم الخليفة، جريدة صوت الجماهير، بغداد، ٦، تشرين الأول عام ١٩٦٣م.

(٤٧) الغابة والفصول (طراد الكبيسي): ١١٣.

(٤٨) دير الملاك (الدكتور محسن اطميش): ١٣٨.

ومنذ أن كنا صغارا كانت السماء

تغيم في الشتاء

ويهطل المطر

وكل عام - حين يعشب الثرى - نجوع^(٤٩)

وعاد السيّاب فوظّف أسطورة تموز في قصيدته "النهر والموت" توظيفاً ضمناً حيث يمثل بويب نهر جيکور رمز السعادة والخصب والحياة والأمل :

وأنت يا بويب

أود لو غرقت فيك ألقط المحار

أشيد منه دار

يضئ فيها خضرة المياه والشجر

ما تنضح النجوم والقمر^(٥٠)

يتضح في القصيدة حدة الصراع وعمق التناقضات بين الحياة والموت ، فالنهر الذي يمثل الخصب والعطاء يحمل بين طياته باباً نحو الموت :

فالموت عالم غريب يفتن الصغار

وبابه الخفي كان فيك ، يا بويب.....^(٥١)

ويتحرك الشاعر في مناخ أسطوري يكشف عن طبيعة التواصل بين الإنسان والنهر. وتكشف كلمة "الندور" التي تقدم إلى النهر هي بحد ذاتها دائرة يتحرك فيها هذا المناخ الأسطوري وهو اله الخصب الذي يمثل رمز الانبعاث والعطاء والحلم بالفردوس المفقود ، فالتقرب والتعبد إلى هذا النهر يعكس عمق الصورة الأسطورية التي تتمحور حولها القصيدة فهو اله الخصب تقدم له الندور يجلب الخير والعطاء :

أود لو عدوت في الظلام

أشد قبضتي تحملان شوق عام

في كل لصبع كأني أحمل الندور

إليك من قمح ومن زهور^(٥٢)

ويوظف السيّاب أسطورة تموز في قصيدة "جيکور والمدينة" بمهارة شعرية عالية ، فهي تحمل نبرة اليأس وعمق عبثية الصراع وحدته في نفس الشاعر فلا أمل لهذه القرية التي نزح أبناؤها عنها إلى المدينة التي لا تعرف الحب . وهنا نجد تأثير مدينة الوهم في قصيدة "الأرض الياب" للشاعر اليوت في قصيدة السيّاب حيث يلتقي الشاعران في نقطة أساسية هي كراهية المدينة التي تمثل الحياة المعاصرة وتستقطب أبناء القرية ليقعوا في شراكها :

ويمناي : لا مخلص للصراع فأسعى بها في دروب المدينة

ولا قبضة لانبعاث الحياة من الطين... لكنها محض طينة

(٤٩) الديوان : ٤٩٧ .

(٥٠) الديوان : ٤٥٥ .

(٥١) الديوان : ٤٥٥ .

(٥٢) الديوان : ٤٥٤ .

وجيكور من دونها قام سور ، وبوابة واحتوتها سكينه^(٥٢)

تمثل جيكور أنموذجاً أمثل في البراءة والعطاء والحكم ، جيكور الحضارة المتهالكة أمام ضربات المدينة التجارية التي يهجرها أبناؤها وقد التهمت المدينة القاحلة :

قتلت ، إذ قتلتها ، الربيع والمطر^(٥٣)

ويموت تموز في قصيدة الشاعر "أغنية في شهر آب" ويعم الجذب والافقار ويسيطر البرد على مرجانة ويموت الخصب بموت تموز ولا يرجى عودته مما يكشف لنا حالة اليأس والقلق اللتين يعيشهما الشاعر في حياته ، فقلقه من الموت قلق فريد من نوعه "وهذا ناتج عن عملية الكبت في اللاشعور التي تتحول إلى حالة من القلق الدائم"^(٥٥)

تموز يموت على الأفق

وتغور دماء مع الشفق

في الكهف المعتم والظلماء

نقالة إسعاف سوداء^(٥٤)

ويظل الموت ماردا جبارا يقتل الأمل ويهدد الإنسان في أسطورة السيّاب "تموز" (أدونيس) في قصيدته "مدينة السند باد" :

أدونيس ! يالاندحار البطولة

لقد حطّم الموت فيك الرجاء^(٥٥)

إن استخدام الشاعر السيّاب للرمز قد عزز رؤيته الفلسفية النابعة من صميم الواقع المعيش والتجربة الحية وقد حرص الشاعر في إطار رؤيته على تقديم الرمز الأسطوري الذي تبلور في وعيه للكشف عن المحتوى التضادي لحقيقة الحياة وعمق الصراع فيها.

ويتجدد الأمل في إحياء "تموز" من جديد في قصيدة السيّاب "مدينة بلا مطر" بعد أن كان مدفوناً في مدينة بابل تلك المدينة التي تشكل صورة أسطورية بمنآثرها وأبراجها ، إن هذه المدينة المدمرة التي تخيم فيها الوحشة والسكون ؛ لأن تموز اله الخصب والحب ميت حيث يرسم لها صورة تحمل بين طياتها معالم الخواء والجفاف :

مدينتنا تؤرق ليلها نار بلا لهب

تحم دروبها والدور ، ثم يزول حمّاها

ويصبغها الغروب بكل ما حملته من سحب

فتوشك ان تطير شرارة ويهب موتاها :^(٥٦)

يصور السيّاب حالة العقم التي تسيطر على هذه المدينة وقد هيأ لها كل مستلزمات الإثارة والإحساس بالرعب من صور السواد والظلام والسحاب العقيم الذي لا يطر غير أن تموز أو شك أن يحيا ليعود إلى تلك

(٥٣) الديوان : ٤١٩ .

(٥٤) الديوان : ٤١٧ .

(٥٥) أصول علم النفس (الدكتور احمد عزت راجح) : ١٢٦ .

(٥٦) الديوان : ٣٢٨ .

(٥٧) الديوان : ٤٦٦ .

(٥٨) الديوان : ٤٨٦ .

المدينة الخضراء لتخصب من جديد لكن الأمل يتضاءل وتعود نبرة اليأس إلى نفس الشاعر فبدلاً من أن تدق طبول بابل لتعلن هطول المطر وإنماء الأرض تصفر الريح ويثن المرض ولا يهطل المطر :

صحاً من نومه الطيني تحت عرائش العنب
صحاً تموز ، عاد لبابل الخضراء يرهاها
وتوشك أن تدق طبول بابل ، ثم يغشاها
صغير الريح في أبراجها وأنين مرضاها^(٥٩)

وتعكس هذه الصورة القائمة حالة الشاعر النفسية وكأن الأسطورة قد أخذت مداها واكتملت عناصر نجاحها فحققت كل ما يريده الشاعر من شحن لطاقاته الإبداعية لكل ما يوحي بالأجواء الأسطورية التي تخيم على كل مفاصل القصيدة وتسبغ إضاءة على واقع الشاعر والتناقضات التي تشكّل عالمه الخاص وترتفع الدعوات ومظاهر الطقوس الخاصة بالاستسقاء. ونزول المطر والخلاص من الجذب :

ويرتفع الدعاء ، كأن كل حناجر القصب
من المستنقعات تصيح : لاهثة من التعب
تؤوب آلهة الدم ، خبز بابل ، شمس آذار
ونحن نهيم كالغرباء من دار إلى دار
لنسأل عن هداياها
جياع نحن...واسفاه !فارغتان كفأها ،
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب

سحائب مرعدات مبرقات دون إِمطار
قضيّنا العام ، بعد العام ، بعد العام ، نرهاها ،
وريح تشبه الإعصار ، لامرّت كإعصار^(٦٠)

إنّ عشتار آلهة الخصب أصبحت آلهة للدم والمجاعة ؛ لأنها الآن فارغة الكفين ، ذات عينيّن باردتين ، وهذا الأمر يدعو إلى العجب والاستغراب ؛ لأنّ عشتار دائمة الخير والعطاء وهذا يعكس مدى الخيبة واليأس الذي تصوّره القصيدة مما جعل عذارى بابل يندبن هذه الآلهة الأمر الذي يوسع دائرة الأسى والحزن لما آلت إليه الأمور :

عذارنا حزاني ذاهلات حول عشتار
يفيض الماء شيئاً بعد شيء من محياها
وغصنا بعد غصن تذبل الكرمة^(٦١)

إن ممارسة الطقوس وتقديم القرابين للآلهة موجودة منذ أقدم الأزمنة وخاصة في عصر ما قبل الإسلام وكان العرب يعتمدون على الشعر في ممارسة طقوسهم الدينية كما يروي ابن الكلبي إنّ قبيلة عك إذا خرجوا حجاً قدموا أمامهم غلامين أسودين يصيحان "نحن غرابا عك" فتقول عك بعدها مليية :
"عك إليك عانية...عبادك اليمانية.. كيما نحجّ ثانية"^(٦٢)

(٥٩) الديوان : ٤٨٦

(٦٠) الديوان : ٤٨٧

(٦١) الديوان : ٤٨٨

وتشكل الطقوس وتقديم النذور للآلهة في هذه القصيدة وإشعال البخور "أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار". مرتكزات أساسية مهمة لتجسيد ثنائية الانبعاث والموت في النص وتؤطرها بأطر ذهنية وفكرية على حد سواء.

ويخرج الأطفال في مواكب يتضرعون إلى عشتار طلباً للاستسقاء وهطول المطر لكن الأرض لم توفر لهم غلالاً لكي يقدموها قرايين للآلهة مما اضطرهم إلى حمل الصبار والفخار ويرتلون تراتيل حزينة لاستدراار رحمة الآلهة عشتار لكي تمن عليهم بالخصب والعطاء :

وسار صغار بابل يحملون سلال صبار
وفاكهة من الفخار ، قربانا لعشتار
ويشعل خاطف البرق
بظل من ظلال الماء والخضراء والنار
وجوهم المدورة الصغيرة وهي تستسقي .
فيوشك أن يفتح - وهي تومض - حقول نوار
ورف - كأن ألف فراشة نثرت على الأفق
نشيدهم الصغير

قبور إخوتنا تنادينا
وتبحث عنك أيدينا^(٦٢)

وتتوالى صرخات الأطفال الأبرياء لاستدراار عطف الآلهة عشتار معلنة عن أسي وحزن عميقين فالجوع يفتك بهم بلا هوادة وهم يرون إخوتهم يموتون جوعاً :

جوع نحن مرتجفون في الظلمة
ونبحث عن يد في الليل تطعمنا ، تغطي^(٦٣)

ويقدم هؤلاء الأطفال لوحة من قرارات الاتهام بعدم الرحمة لهذه الآلهة ويتهمونها بالقسوة وتأتي هذه الاتهامات لتشكل مرتكزا أساسيا في استفزاز الآلهة المعطاء لتكون عنصر خير تنعم بالرحمة والعطاء على هؤلاء الأطفال الجوع :

سمعت نشيجا ورأيت كيف نموت فاسقينا !
نموت ، وأنت - وأسفاه - قاسية بلا رحمة^(٦٤)

وتأتي الاستجابة من الآلهة تؤكد إن عنصر الخير موجود متمثلة ببريق السماء كأنه زنبقة من نار تنشر ضوءها فوق بابل معلنة انتهاء الجذب والعقم فيهطل المطر ويكُلّل تضرع الأطفال الأبرياء بالفرح وعودة الأمل إلى ربوع نفوسهم الجدبى وتغتسل الأرض من ذنوبها ويعم الخير والسلام على ربوع هذه المدينة ليحيا فيها الإنسان بحياة حرة كريمة :

وأبرقت السماء كأن زنبقة من النار
نفتح فوق بابل نفسها ، واحناء وادينا ،
وغلغل في قراره أرضنا وهج فعراها

(٦٢) الأصنام (ابن الكلبي): ٧

(٦٣) الديوان: ٤٨٩

(٦٤) الديوان: ٤٩٠

(٦٥) الديوان: ٤٩٠

بكل بذورها وجذورها وبكل موتها^(٦٦)

وتظل الأسطورة فكر الإنسان وخلاصة تجاربه في الحياة تهيمن على وعيه وذهنه في كل مراحل تكوينه تمده بروافد النجاة إلى بر الأمان وتخرجه من دائرة اليأس إلى دائرة الأمل لأن "الجو الذي تخلق فيه الأسطورة هو جو مشحون بالحوادث والأمل معا وفيما يجد الإنسان إن الخوف بات يكبر حتى يكاد يلتهم أحلامه يستبد به القلق فلا يجد حلا إلا بالأسطورة"^(٦٧)

في قصيدة "مرحى غيلان" تصبح الأرض قفصاً من الدم والأظافر والحديد، ويبدو المسيح متأرجحاً بين الحياة والموت فلا يحيا ولا يموت حتى يبعث ثانية فهو هيكل منهار وجليد بارد، أما الأرض فتموت ويسيطر عليها الخراب فعشتار آلهة الخصب ورمز الأرض ورحل عنها الإله بعل وبدلاً من أن تعلن الحياة مولد الشمس والدفء يركض الموت في الشوارع وضريح تموز يرش بالدم ويسدل الظلام أستاره وينتصر الشر، وتبدو الغلبة لصالح رمز الموت ويدعي الموت أنه هو المسيح الذي يهب الحياة في أرض العراق وتدعي النار انها ماء نهر الفرات الذي يبعث الخصب فتفتتح الورود ويولد الربيع :

"بابا ... "كأن يد المسيح"
فيها ، كأن جماجم الموتى تبرعم في الضريح
تموز عاد بكل سنبله تعابت كل ريح
"بابا ... بابا"
جيكور من شفتيك تولد من دمائك ، في دمائي
فتحيل أعمدة المدينة
أشجار توت في الربيع ، ومن شوارعها الخزينة
إلى أن يقول :
حيث المسيح يظل ليس يموت أو يحيا .. كظل
كيد بلا عصب ، كهيكل ميت ، تضحي الجليد
النور والظلماء فيه متاهتان بلا حدود
عشتار فيها دون بقل
والموت يركض في شوارعها ويهتف : يانيام
هبوا فقد ولد الظلام
وانا المسيح ، أنا السلام
والنار تصرخ : ياورود تفتحي ، ولد الربيع^(٦٨)

وتحمل القصيدة بين طياتها خطرات فلسفية حول ثنائية الخير والشر والحياة والموت فكل شيء في صراع وتنتصر ارادة الحياة ويولد الربيع من جديد ويعود الانبعاث بعد الموت إلى هذه الأرض ، فالشاعر يبحث عن الخلود والحياة بعد الموت فهو في حالة نفسية من شأنها أن تعمق لديه عنصر الأمل في حياة طيبة بعد

(٦٦) الديوان : ٤٩١ .

(٦٧) الزمن في الشعر الجاهلي (الدكتور عبدالعزيز شحادة) : ٤٧

(٦٨) الديوان : ٣٢٧

الموت " وهكذا يقلب الزمن صورة العالم ، بمنح الأشياء دلالات متناقضة لها ويجعلها تتجسد في رموز مناقضة لها " (٦٩)

غير ان الشاعر كان على يقين تام وایمان مطلق بالانبعاث بعد الموت فهو يشعر ان بإمكانه أن تحدى الموت ويحقق الخلود لنفسه باستمرار وجوده في نسله وبتحاده بالأرض. فتمتد صور الانبعاث اليها فيدخل الدفء إلى السجن الحديدي ويدب الشباب في دم الشاعر ويعود الأخضر إلى الطبيعة ويتحدث الشاعر عن عبثية الحياة وتناقضاتها فيوظف لها "أسطورة سيزيف" الذي حكمت عليه الآلهة بالاستمرار في دحرجته صخرة إلى قمة الجبل ، حيث تعود الصخرة إلى النزول متدحرجة بفعل ثقلها ، فقد ارتأت الآلهة بشيء من الحق ان ليس من عقوبة أشد فظاعة من جهد بلا جدوى ولا أمل ، لكن سيزيف يرى أنه متفوق على مصيره فهو أقوى من صخرته :

" بابا ... بابا "

يا سلم الأنعام - أية رغبة هي في قرارك ؟

" سيزيف " يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارك (٧٠)

تبدو القصيدة محكمة البناء متلاحمة الأجزاء يشكّل فيها الموت والانبعاث عصباً يشد أجزاءها فتؤلف كيانا متماسكا لا انفراط فيه .

فالشاعر لبس كيانا منفصلا عما حوله فهو متجذر في الأرض والأرض هي أرض الوطن الذي يهبها الشاعر من عرقه ودمه فتعطيه الخير والخصب والدفء :

" بابا ... بابا "

من أي شمس جاء دفؤك أي نجم في السماء ؟

ينسل للقفص الحديد فيورق الغد في دمائي (٧١)

ان الشاعر يعلن عدم استسلامه للموت ، فموت تموز إله الحياة والنماء يعدّ استسلاماً واندحاراً وهذا شيء لا يرضاه. ومثلما أعلن الشاعر السياب عدم استلامه للموت كذلك الشاعر ليبد ابن ربيعة العامري في لوحة الرحلة اراد ان ينتصر للحياة بركوب الناقة ؛ كذلك في لوحة الطلل ، فالطلل يمثل ماضي الشاعر او في بعض صورته يمثل الموت.

ويبدو أتييس صورة أخرى لتموز الاله البابلي عند السياب في قصيدة " رؤيا في عام ١٩٥٦ م " :

تموز هذا أتييس

هذا وهذا الربيع

يا خبزنا يا أتييس

أنبت لنا الحب وأحيي اليبس

التأم الحفل وجاء الجميع

يقدمون النذور

يحيون كل الطقوس

(٦٩) الرؤى المقنعة (كما ابو ديب) : ٦٥٢

(٧٠) الديوان : ٣٢٥.

(٧١) الديوان : ٣٢٧.

ويبذرون البذور
سيقان كل الشجر
ضارعة والنفوس
عطشى تريد المطر (٧٢)

ان الشاعر لا يكتفي من الاسطورة بذكر رموزها ، بل ينظر اليها على أنها أشخاص من خلال رؤيا مخيفة يعبر عنها باحساسي مرهف يبين مدى تأثير هذه الرؤيا على الناس والمدينة بسبب الجذب الذي أصاب مدينته في الربيع ، كما انه ينجح في توظيف الشعائر والطقوس الأسطورية التي كانت تمارس لعودة الخصب والنماء وسقوط المطر ، ولعل إشارة الشاعر إلى مظاهر الطقوس التي كانت تقام لإله الخصب "أتيس" عند سكان آسيا الصغرى القدماء الذي يحتفلون بعيدة في الربيع حيث يربط تمثاله على ساق الشجرة تهدينا إلى معرفة نوعية الطقوس التي كانت تقام لذلك الإله (٧٣) وهذا يتضح في إشارة الشاعر إلى نوعية تلك الطقوس في قوله :

شدوا على كل ساق
يارب تمثالك (٧٤)

أن النص يعكس قدرة الشاعر على المواءمة وبين الماضي وابتهالاته للخلاص من الجذب والجفاف وبين الواقع المعاصر المجذب .
من خلال التصوير الدقيق لعمق المأساة التي تقدمها هذه الرؤيا على الناس والمدينة .
ويطوع الرمز عشتار آلهة الخصب والحب عند البابليين وهي حبيبة تموز لتكون حاضرة في المشاركة بهذه المأساة وقد صلبت على ساق الشجرة وهذا احساس مخيف يعكس نبرة اليأس وقتل الأمل في التخلص من الواقع المؤلم :

عشتار على ساق الشجرة
صلبوها ، دقوا مسمارا
في بيت الميلاد - الرحم
عشتار بمحفصة مستتر
تدعى لتسوق الأمطارا (٧٥)

وبصور مأساة عشتار وهي مصلوبة والعداوى يندبها باكيات ويبيكين تموز القتل فأى يأس يسيطر على احساس الشاعر وشعوره بعد أن قتل تموز وصلبت عشتار ، لكن الشاعر يضيء لنا بارقة من الأمل في الانبعاث والعودة الى الحياة والخصب في قوله :

العازر قام من النعش -
شخوب العازر قد بعثا
حيا يتقافز أو يمشي
أترى عاما أو عامين ؟

(٧٢) الديوان : ٤٣٤

(٧٣) دير الملاك (الدكتور محسن اطيماش) : ٢٩٣

(٧٤) الديوان : ٤٣٦ .

(٧٥) الديوان : ٤٣٧ .

أم دامت ميتته ساعة ؟ (٧٦)

وهذا يدل على رؤيا الشاعر بالعودة إلى الحياة والانبعاث من جديد فالأمل يحيا ولا موت يدوم ولا بُدَّ أن تأتي الحياة بعد الموت وهذا هو سر الخلود فالموت بعده الحياة كما بعد الدماء المطر. ومن الضروري أن نبين في هذا البحث إن توظيف الأسطورة في الشعر يتطلب قدرا من الوعي والثقافة والاطلاع على الآداب الغربية، كما إن التوظيف الأسطوري في شعر السياب جاء متناغما مع واقعه النفسي. وانفتاحه على الثقافة العالمية يحكم إجادته للغة الانكليزية التي مهدت له الطريق للاطلاع على أدب الأمم الأخرى والاطلاع على تجارب الشعراء الآخرين، كما إن أسطورتني تموز وعشتار كانتا الأقرب إلى واقعه وحياته المليئة بالصراعات فكان صراع الحياة والموت قد جسد عمق التناقضات النفسية والحياة الواقعية للشاعر بكل إبعادها وعلى قارئ الأدب أن يفهم دلالات الرموز والأساطير في قصائد الشعراء بسبب تغير دلالات الرمز من قصيدة لأخرى.

فالشاعر يعيش حالات نفسية كثيرة ومتناقضة في بعض الأحيان وهذا يؤثر على إبداعه الفني لأن موضوع القصيدة لم يأت ارتجالا وإنما عاش قبل التأليف حياة متطورة منفصلة بمختلف المؤثرات النفسية والتي تتصل به من قريب أو بعيد (٧٧)

إن الأسطورة في شعر السياب لم تأت اعتباطا أو ارتجالا بل دعت إليها ضرورة نفسية أولا ووعي وثقافة واطلاع على تجارب الآخرين في آدابهم.

١. بعد تحليل طللية الشاعر لبيد بن ربيعة العامري وتموزية السياب نخلص الى ان حالة العقم والجذب كانت اقوى وأشد في تموزية السياب منها في الطللية نتيجة للتناقضات الاجتماعية والسياسية والحضرية التي تبلور الواقع الذي يعيش فيه الشاعر على الرغم من اشتراكهما في القمع الذي تمارسه الطبيعة على الشعارين وفي عصرين مختلفين تماما.

٢. يبدو الطلل عند الشاعر الجاهلي مثيرا للأسى والبكاء حين يصاب بالعقم والجفاف والخراب ورحيل صاحبه عنه مثلما نرى جيکور عند الشاعر السياب تبدو حزينة اذا أصابها الجفاف وهجرها أهلها إلى المدينة.

٣. ان المقدمة الطللية المعاصرة المستمدة من الطللية الجاهلية كما تقول المصادر تؤكد استمرار التقاليد الفنية عبر القرون كما تؤكد ان المقدمة الجاهلية نفسها مستمدة من التراث البابلي العربي القديم.

٤. تعلق الشاعر الجاهلي بطللية أشبه بتعلق الشاعر بمدينته (جيکور) التي يتردد صداها في معظم قصائده التموزية.

٥. ان الشاعر الجاهلي في وقوفه على الطلل أشبه بعشتار التي تنوح على تموز إله الخصب والنماء.

٦. يستحضر الشاعر الجاهلي في معظم طليلاته أسماء الأماكن التي ترتبط ارتباطا مباشرا ببيئته ويحاول التركيز عليها مثلما يفعل السياب في استحضار أسماء الأماكن البيئية التي يعشقها ويحن إليها "جيکور"، "نهر بوب"، وهذا الحنين الدائم للبيئة قد شكّل عنصرا أساسيا في معظم قصائده التموزية.

٧. هطول المطر سمة تلقائية في طللية الشاعر لبيد بن ربيعة العامري ؛ لأن المطر عند الشاعر الجاهلي هو الخير والخصب والحياة. وربما إحساسه بالمطر أكثر عمقا منه عند الشاعر الحضري، أما المطر عند

(٧٦) الديوان : ٤٤٠.

(٧٧) سيكولوجية الابداع في الفن والأدب (يوسف ميخائيل اسعد): ١٠٧.

- السياب من خلال الاسطورة فإنه يرتبط بالندور وتقديم القرابين للإلهة لغرض استدراجه ليعم الخير والنماء على مدينته.
٨. كان الشعر في العصر الجاهلي تسجيلاً لواقع العصر وتناقضاته وأحداثه ينقلها الشاعر بتفصيلاتها مثله كمثل السياب الذي تألق شعره وسط الركود الذي أعقب الحرب العالمية الثانية فأخذ ينقل الأحداث التي عاصرها في زمانه ويصفها بأدق لتفاصيل ؛ لذلك يعد شعره وثيقة تاريخية تسجيلية للأحداث التي عاصرها في زمانه مع الوعي العميق للحظة التاريخية واستكناه جذورها.
٩. يمثل المكان الاغتراب النفسي منذ التجربة الطللية وحتى المنحى الرومانسي في الشعر العربي ، فإنه مع السياب لم يعد صيغة اغترابية بل أصبح اقرب إلى الإحساس الغريزي والفطري صلة وتمثلاً فلم تكن هنالك مسافة بين الذات والمكان بل هنالك تواصل وجداني وانفعال كبير يتخلل معظم قصائده التمزوية.
١٠. حين نستقرئ النصوص الجاهلية الطللية وتموزيات السياب نجد فيها رفضاً للواقع المفروض على الشاعرين نتيجة العقم والجذب التي تمارسه الطبيعة على الشاعرين.

قائمة المصادر والمراجع

- ١- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي - دراسة - الدكتور عبدالقادر فيدوح - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩٢.
- ٢- أصول علم النفس - الدكتور احمد عزت راجح - مطبعة اشبيلية - بغداد - د. ت .
- ٣- آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقارنة الشعر الجاهلي - بحث في تجليات القراءات السياقية دراسة. الدكتور محمد بلوحي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٤ م .
- ٤- تجليات الحداثة - قراءة في الابداع العربي المعاصر - ماجد السامرائي - الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٩٥ م.
- ٥- التفسير النفسي للأدب - عز الدين إسماعيل - دار العودة - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٨١ م
- ٦- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث - نعيم اليافي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٣ م.
- ٧- توظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي (بحث) للدكتور وهب رومية مجلة التراث العربي - (دمشق - العدد (٩٣ - ٩٤) لسنة ٢٠٠٤ م .
- ٨- دير الملاك - دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر - د. محسن اطميش - بغداد - ١٩٨١ م.
- ٩- ديوان بدر شاكر السيّاب - المجموعة الكاملة - دار العودة - بيروت - ١٩٧١ م.
- ١٠- ديوان عبيد بن الأبرص - شرح أشرف أحمد عدرة - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٤.
- ١١- الرؤى المقنعة - نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي - (١) البنية والرؤية - كمال أبو ديب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦ م.
- ١٢- الرحلة في القصيدة الجاهلية - وهب رومية - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٧٩ م.

- ١٣- الرمز الشعري عند الصوفية - د. عاطف جودت نصر - دار الكندي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م.
- ١٤- روح العصر - دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة - الدكتور عزالدين إسماعيل - دار الرائد العربي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٧٢ م.
- ١٥- الزمن في الشعر الجاهلي - الدكتور عبد العزيز شحادة - دار الكندي للنشر والتوزيع الأردن - ١٩٩٥ م
- ١٦- سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب - يوسف ميخائيل أسعد دار الشؤون العامة - بغداد - د. ت.
- ١٧- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري - حققه وقدم له الدكتور احسان عباس - الكويت - ١٩٦٢ م.
- ١٨- الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى ١٩٥٨ - يوسف الصائغ - مطبعة الأديب البغدادية - ١٩٧٨ .
- ١٩- الشعر والشعراء - تأليف ابن قتيبة (ابي محمد عبدالله بن مسلم ت ٢٦٧هـ) - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٩ م.
- ٢٠- العمدة - ابن رشيق القيرواني (ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني الازدي ت ٤٥٦هـ) - حققه وتفصله وعلق على حواشيه محمد محيي الدين محمد الدارجي - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٧٢ م.
- ٢١- الغاية والفصول - طراد الكيسي - دار الرشيد للنشر - بغداد - ١٩٧٩ م.
- ٢٢- في النص الشعري العربي - مقاربات منهجية - الدكتور سامي سويدان - دار الآداب - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٩٩ م.
- ٢٣- في النقد الجمالي - رؤية في الشعر الجاهلي - الدكتور أحمد محمود خليل - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٩٦ م.
- ٢٤- قراءة ثانية لشعرنا القديم - الدكتور مصطفى ناصف - دار الاندلس للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية - ١٩٨١ .
- ٢٥- قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية (بحث) - الدكتور محمود عبدالله الجادر - مجلة الاقلام - اصدرتها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - العدد الثاني عشر - السنة الرابعة عشرة - بغداد - ١٩٧٩ م.
- ٢٦- كتاب الأصنام عن ابي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي - تحقيق أحمد زكي باشا - دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤ م.
- ٢٦- لسان العرب (ابن منظور) (جمال الدين بن مكرم ت ٧١١هـ) - دار صادر - بيروت - د. ت.
- ٢٧- المراثة الغزلية في الشعر العربي - الدكتور عناد غزوان اسماعيل - مطبعة الزهراء - بغداد - ١٩٧٤ م.
- ٢٨- مقالة في النقد - غراهام هو - ترجمة محيي الدين صبحي - مطبعة جامعة دمشق - ١٩٧٣ م.
- ٢٩- مقالات في الشعر الجاهلي - يوسف اليوسف - دار الحقائق - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٨٥ م.

المسؤولية السياسية للقائمين بأعباء السلطة التنفيذية

(دراسة مقارنة)

م. ميثم حسين الشافعي^(١)

المقدمة

ان موضوعات السياسة ونظم الحكم من اهم مايشغل بال المفكرين وقد زاد الاهتمام بها بعد الحرب العالمية الاولى وما تبعها من اضطرابات وصراعات دولية ادت الى الحرب العالمية الثانية وما زال الباحثون يحاولون العثور على علاج لازمات عالم اليوم والغد وعلم الدستور والنظم السياسية يمتاز عن غيره من العلوم الاخرى من حيث دقة التفنن وغزارة الابتكار ولا يمكن أن يقوم الحكم في دولة ما على فكر ثابت مستقر ، فسياسة الحكم دائمة الحركة والتعديل تبعاً لركب الحضارة ، والمسلم به أن النظام السياسي لدولة ما يسير وفق دستور ، ويشارك الواقع الفعلي للحوادث السياسية ، في رسم ملامح ذلك النظام وتحديد طبيعته . واذا كانت الحياة متطورة بطبيعتها ، والنصوص جادة ، فان الفكر هو الذي يتولى الموأمة في التطبيق الفعلي ، وهو الذي يحدث الانسجام والاتساق في عجلة النظام القائم ، كي ينمو بانتظام واضطراد ، فضلاً عن إيجاد الحلول اللازمة للازمات والمشاكل السياسية ، وهو ما يؤدي الى تطور مبادئ عمل اخرى . وقد استجابت الدول الغربية لقيادة الفكر ، والتفاعل مع الحوادث ما جعل تلك الدول منطقية في تنظيماتها السياسية وهو ما ادى الاستقرار السياسي فيها ، وتولدت فلسفات وعقائد وافكار ونظريات وأيديولوجيات ، بغية مواجهة الازمات ومواكبة التطور الملازم للانسانية ذاتها . وحتى أواخر القرن التاسع عشر لم تكن الدولة مسؤولة عن اعمالها ، اذ كان ينظر الى سيادة الدولة نظرة مطلقة ولكن بتطور مفهوم السيادة وتحول الفكرة الخاطئة عنها من سيادة مطلقة لاتقبل حداً او قيداً الى اعتبار ان الدولة عبارة عن مجموعة مصالح الناس ولم يعد الحكام سوى أشخاص مكلفون بادارة هذه المصالح ، حلت المسؤولية ، وقد ساعد ذلك ذبوع المبدأ الديمقراطي ، ومبدأ التدخل الذي اتسع لأقصى حد ، وقد تنوعت الاساليب الدستورية من حيث تقرير القواعد والأسس التي تنظم سلطات الدولة ، وفي النهاية يتوقف كيان الدولة على توازن القوى السياسية في ميزان النظام العام وقد شاعت فكرة التوازن بين السلطات في النظم الديمقراطية والنظم التي لم تنجح في إيجاد توازن بين السلطات فيها ، وتركت السلطة دون مساءلة عند الخروج عن حدودها ،

١ - كلية القانون ، جامعة أهل البيت (ع)

وما زالت دول متخلفة عن ركب الحضارة وتئن بالثورات والانقلابات وما يجر اليه من تخلف اقتصادي وتقني والبادئ أن التطور في مسؤولية الدولة ، من اللامسؤولية المطلقة الى المسؤولية ، قد ظهر في تقرير مسؤولية الدولة عن أعمال السلطة التنفيذية بحيث لم يبق من هذه الاعمال في دائرة اللامسؤولية الا النذر القليل كأعمال السيادة كما أن المذاهب الحديثة تتجه نحو تقرير مسؤولية الدولة عن اعمال السلطة التشريعية على اختلاف بينها ويتجه الفقه بحماس شديد الى تقرير مبدأ مسؤولية الدولة عن اعمال السلطة القضائية وغدت القاعدة المسلم بها في الدول المعاصرة تقوم على مبدأ عزل الحكام باعتبارهم سلطات مفوضة تعمل باسم الدولة وحسبها . ولم يرضخ الحكام لتقييد سلطانهم الا بعد كفاح مرير من الشعوب وقيام الثورات العديدة وهكذا رضى الحكام لمبدأ المسؤولية حتى أصبحت القاعدة الجوهرية (ان من لا يسال ليس له أن يعمل) ويجمع الفقه على أن مبدأ المسؤولية السياسية قد بزغ في إنجلترا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم تطور في مطلع القرن التاسع عشر بانتقال السلطة الفعلية من الملك الى الوزارة فاصبح يعتلي العرش ولا يحكم وحلت الوزارة محله في تولي زمام السلطة باعتبارها المسؤلة امام البرلمان وتغنى الانجليز بقاعدة ((حيث توجد المسؤولية توجد السلطة))

اهمية الدراسة :

ادى التطور الصناعي ووسائل التقنية الحديثة الى تطورات اقتصادية هائلة وظهور ايدولوجيات جديدة وهو ما استتبع تغييرا كبيرا في النظم السياسية اذ اتسعت مجالات السلطة العامة وتضائلت الناحية السياسية للديمقراطية والاهم من ذلك التحول الخطير في مبدأ فصل السلطات اذ اتجه وجهة اخرى ناحية تركيز السلطة تجاه السلطة التنفيذية وخاصة رئيس الدولة حيث غدا رئيس الدولة هو منبع السياسة في الدولة ومحيط امانى الامة ونقطة الارتكاز الحيوية في النظام ولكن لا بد من إيجاد وسيلة فعالة لاعادة التوازن بين السلطات في ظل هذه المتغيرات ووضع ضوابط لدرء مفاصد السلطة المطلقة خاصة وان اطلاقها الان غدا شرعا وضروريا ويعد مبدأ المسؤولية السياسية للسلطة التنفيذية هو الوسيلة الناجحة لذلك فهو الضمانة الكبرى لاعادة التوازن في عجلة النظام العام وضبط سير المؤسسات الدستورية وانتظام العمل السياسي لذلك فأن هذا المبدء يعتبر اخطر المبادئ الديمقراطية ويظهر ذلك في اثاره ونتائجه ومناطه ومحله ومن ثم فان اعماله يحتم دقة التنظيم واحكام القواعد ووضع الضوابط كي لا يترك الأمر للاهواء السياسية والامزجة الحزبية والخلافات الشخصية لكي تعصف بالنظام السياسي في قمة بنيانه واهم اركانه وهو مايؤدي اليه ذلك من كوارث سياسية ونكبات تجر الدولة عن ركب الحضارة وسنعرض في هذا البحث المسؤولية السياسية للقائمين بأعباء السلطة التنفيذية على النحو الاتي

تمهيد واربعة مباحث . بالنسبة للتمهيد تناول فيه اولا : تنظيم رئاسه الدولة

ثانيا : الوضع الدستوري لرئيس الدولة في النظم المختلفة ونبين في المبحث الاول طبيعة مسؤولية رئيس الجمهورية وتطور تنصيبها الدستوري وفي المبحث الثاني حالات مساءلة رئيس الجمهورية امام المحكمة الاتحادية العليا ونعرض في المبحث الثالث اجراءات مساءلة رئيس الجمهورية ونعرض في المبحث الرابع المسؤولية الوزارية في الدساتير العرقية

تمهيد

أولا، تنظيم رئاسة الدولة

من المستقر على في الفقه التقليدي أن بناء النظام الدستوري يستلزم ضرورة أن تكون الحكومة خاضعة لقواعد قانونية عليا خارجة عن ارادتها وملزمة لها ، والخضوع لهذه القواعد هو الحد الفاضل بين الحكومة الدستورية والحكومة الاستبدادية كما يتعين أن تكون وظائف الدولة موزعة بن الهيئات والمؤسسات وفوق

ما تقدم ان تكون الحكومة القائمة فعلا قد وصلت للحكم طبقا لاحكام الدستور المعمول به في الدولة ، وان تستمر في ممارسة اختصاصاتها على مقتضى الدستور وفي حدوده اذ أن رئيس الدولة هو الذي يمثلها كشخص معنوي ، وهو رمز السلطات العامة فيها وعلى عاتقه أعباء جسام ومهام خطيرة كما وصفها الرئيس ترومان مجموعة ضخمة هائلة من السلطات تجعل قيصر وجانكيز خان ونابليون يقصمون أظافرهم حسرة وغيره^(١)

والذي يبين من الدراسة المقارنة للنظم الدستورية المختلفة ، أن الحلول الممكنة في شان تنظيم رئاسة الدولة الجمهورية ، تأخذ صور الاتية :

١. رئاسة فردية : وصورتها ان يكون على راس الدولة شخص واحد يمثلها في الخارج ، ويتولى السلطة التنفيذية في الداخل على الوجه الذي حدده الدستور ، والرئاسة الفردية هي الصورة الوحيدة للنظم الملكية والديكتاتورية ، كما انها الصورة الغالبة في الجمهوريات الحديثة ، سواء كانت جمهوريات رئاسية كالولايات المتحدة الامريكية ، او جمهوريات برلمانية ، وجمهوريات ديمقراطية شعبية ، وسواء كانت ملكية او جمهورية

٢. رئاسة جماعية : وصورتها ان يكون على راس الدولة لجنة او مجلس من عدد من الاشخاص ، بحيث تكون امور تمثيل الدولة في الخارج ، وممارسة السلطة في الداخل من حق هذه اللجنة مجتمعة ، وبالمساواة المطلقة بين اعضائها ، فليس من بين اعضاء مجلس الرئاسة ، رئيس ومرؤسين ، وان كان لا يمنع ذلك من ان تتعقد لاحدهم سلطة ادارية بحته في امور دعوة المجلس للانعقاد واعداد جدول الاعمال ومتابعة قرارات المجلس وغالبا ما ينفرد اصغر اعضاء المجلس باللقب رئيس الجمهورية في امور تمثيل الدولة في الخارج فضلا عن تخصيصه ببعض السلطات في الداخل وهذه الصورة هي الغالبة لنظام الرئاسة الجماعية في التطبيقات الدستورية المعاصرة ومن الامثلة العربية لنظام الرئاسة الجماعية اتحاد الجمهوريات العربية والامارات العربية المتحدة وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وما ورد في دستور العراق وليبيا كان نتيجة لتباعد اسلوب "مجلس قيادة الثورة" وهو اسلوب مرحلي^(٢)

ثانياً: الوضع الدستوري لرئيس الدولة في النظم المختلفة

تقوم الدولة المعاصرة على مبدأ عزل الحكام عن حق السيادة والنظر اليهم بوصفهم سلطات مفوضة تعمل باسم الدولة ولحسابها طبقاً لقواعد الاختصاص المحددة لها فوضت فيه من موضوعات وعلى مقتضى ما اتخذ لها من اجراءات واشكال واغراض ومبدأ المشروعية^(٣) يتبلور في النهاية حول وجوب احترام القواعد المحددة لسلطات الهيئات العامة والمنظمة لاختصاصاتها وتحديد الدساتير دور كل سلطة من السلطات العامة في الدولة ومدى العلاقة بين تلك السلطات وبالنسبة لوضع ودور رئيس الدولة باعتباره رئيس السلطة التنفيذية فان الامر يتوقف على نوع النظام الذي يأخذ به دستور الدولة ففي النظام البرلماني ليس لرئيس الدولة "وهو رئيس السلطة التنفيذية" الا سلطة اسمية وتنتقل اختصاصاته الى الوزارة كما ان رئيس الدولة لا يستطيع العمل بمفرده ولكن له حق تعيين الوزراء وغيرهم وحق حل البرلمان حلا رئاسيا واما في النظام الرئاسي فان رئيس الدولة له سلطة فعلية واسعة النطاق فاختصاصات السلطة التنفيذية كلها مركزة في يده وفي نظام حكومة الجمعية نجد رئيس السلطة التنفيذية واعضاؤها مختارين بواسطة البرلمان ويمارسون الاختصاصات المقررة لهم تحت رقابة واشراف البرلمان والملاحظ ان جوهر الاختصاصات واحد في جميع الحالات والخلاف يمكن فيمن يمارس تلك السلطة فاحياناً يكون رئيس الدولة واحياناً الوزارة واحياناً الهيئة المنتخبة من البرلمان وترتيبها على ذلك فاننا نعرض في هذا الفرع الى وضع ودور رئيس الدولة في تلك النظم .

١- وضع رئيس الدولة في النظام البرلماني

تتحصل خصائص النظام البرلماني في انه النظام الذي يوجد فيه رئيس اعلى للدولة يمارس اختصاصاته بواسطة وزارة مسؤولة امام البرلمان ، والبرلمان يملك ان يثق فيها فيبقىها أو لا يثق فيها فيسقطها وتملك هي ان تطلب الى رئيس الدولة حله للاحتكام للشعب ، ويعتبر رئيس الدولة Chef de l'Etat هو الرئيس الاعلى للسلطة التنفيذية وبجانبه رئيس الحكومة Chef de gouvernement وهو رئيس مجلس الوزراء ويكون مرؤوسا لرئيس الدولة وخاضعا لارشاداته وتوجيهاته ورئيس الدولة هو الملك في النظم الملكية ورئيس الجمهورية في الحكومات الجمهورية وفي الحالة الاولى يوشك الملك ان يكون مجردا من كل سلطة حقيقية مؤثرة واما في الحالة الثانية فان رئيس الجمهورية يمارس بعض الاختصاصات ولكنها محكومة في اطار النظام البرلماني سلطات محدودة ولا يجوز التوسع في تفسيرها والعلاقة بين رئيس الدولة ورئيس الحكومة قد تحددها الدساتير كما قد تتحدد بالعرف الدستوري كما في بريطانية وهذه العلاقة بدت في مضهرها وثيقة ولكن في الواقع هشة وفي هذا النظام لا يقوم رئيس الدولة بوضع السياسة العامة للدولة بنفسه ولا يضع مشروعات القوانين حسب رأيه الشخصي ولا يبت في الامور وفق سياسته الخاصة وانما كل هذه الامور تترك للوزارة التي هي حجر الزاوية في هذا النظام فهي تمثل رئيس الدولة لدى البرلمان وتمثل البرلمان لدى رئيس الدولة ولما كانت سلطات رئيس الدولة في هذا النظام ليست فعلية وانما مجرد اختصاصات اسمية يمارسها بواسطت البرلمان فان رئيس الدولة لا يستطيع العمل منفردا والنتيجة التي تترتب على ذلك ان رئيس الدولة في الانظمة البرلمانية غير مسؤول ومبدأ عدم المسؤولية نشأ في إنجلترا كما سنرى تفصيلا لذلك فيما بعد ويعتمد المبدأ على فكرة ان الملك لا يخطئ the king can do no Wrong وهو المبدأ المعروف في فرنسا "ذات الملك مصونة لا تمس" وعلى الرغم من ان سلطة رئيس الدولة اسمية كما سبق البيان فان المسلم به ان رئيس الدولة في النظام البرلماني على جانب كبير من الاهمية وبموجبها يتم حفظ التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية في الدولة وهما حق تعيين الوزراء وعزلهم وحق حل البرلمان وفضلا عن ذلك فان الدور الحقيقي لرئيس الدولة في النظام البرلماني يتمثل في انه يعمل بفضل نفوذه وشخصيته على التوازن السلطات في الدولة ويكون همزة الوصل بينهما دور الحكم بين الاحزاب المختلفة وعلى الرغم من تجريد رئيس الدولة من السلطات الفعلية فان الدور الادبي الذي يقوم به حدى بعض الفقهاء الى القول بان يعتبر اليد والقوة المحركة للنظام البرلماني^(٤)

النظام الانجليزي

والنموذج الامثل لهذا هو النظام البريطاني اذ الوزارة في بريطانيا كوزارة ، هي الوارثة لسلطات الملك وهذا الحدث كان نتيجة مجموعة من الظروف والوزارات هي الجهاز الحكومي بالمعنى الواسع وهي تتضمن كل الاشخاص الذي تجمعهم روابط التنظيم الحزبي والمسؤولين جميعا امام البرلمان عن السياسة المتبعة^(٥) والملكية هي العنصر الاقدام في السياسة الانجليزية فالتاج هو عنصر هام للاستمرارية وللاستقرار في الحياة الوطنية ومازال الا ان الملكية عرفت كيف تتطور والملك في بريطانيا الملكة الان كالحكم في ملعب الكرة فهو محاط بالاحترام العام وهو يسهر على ان يطبق كل فرد القانون وعلى ان يستمر العمل الحكومي وفقا لما تقتضيه مصلحة الوطن وكقاعدة عامة للملك الحق في رفض او المصادقة على القوانين التي اقرها البرلمان بيد انه منذ قرنين ونصف قرن لم يرفض الملك هذه المصادقة والملك ايضا من الناحية النظرية حق الحل ولكنه عزف عنه منذ امد طويل والواقع ان رئيس الوزراء هو الذي يمارس حق الحل ونفس القول يمكن ان يرد بالنسبة الى باقى الصلاحيات التي تستند الى شخص الملك كالتعيينات ومنح الرتب ان الملك في إنجلترا يتلقى من رئيس الوزراء تقريرا شفويا وهو لذلك اعلم بشؤون المملكة من اي وزير عادي ومن هنا يستطيع الملك ان يمارس في السياسة العامة تأثيره شخصيا وان هذا التأثير لا يظهر في السياسة الداخلية لان

ضغط الاحزاب السياسية في هذا المجال قوي جدا بحيث لا يمكن لمنصب معنوى ان يحدث اثرا والمجال الرحب لتأثير الملك يكون في السياسة الخارجية فالمملكة فكتوريا استطاعت بذكاء شديد تفادي الحرب مع بروسيا سنة ١٨٥٦ ثم مع فرنسا سنة ١٨٥٩ وان كان الملاحظ عملا في الاونة الحالية ان دور الملك في إنجلترا لم يعد منظورا حتى في السياسة الخارجية^(٦)

ويرى بعض الكتاب الانجليز ان اساس السلطة السياسية في إنجلترا يمكن في مجلس العموم ويذهب اخرون الى ان السلطة تتبع من الكابنت^(٧) ويرى لورانس الاول في كتابه حكومة بريطانيا ان الكانت هي واسطة لنقد البناء البريطاني وهذا هو رأي عامة الانجليز للتذمر من الديكتاتورية الوزارية ويذهب "هوريو" الى ان سلطة الاكثرية في إنجلترا لا تتحول الى ديكتاتورية ذلك لانها محاطة بمؤسسات عرف المزاج الانجليزي الموروث كيف يؤمن استمرارها مثل التاج ، مجلس اللوردات ، فضلا عن هيبة السلطة القضائية ثم الادارة العليا^(٨)

٢- وضع رئيس الدولة في النظام الرئاسي

ان النظام الرئاسي لا يوجد في الا في الجمهوريات ورئيس الجمهورية هو في الوقت نفسه رئيس الحكومة هو الذي يحدد ويرسم سياسة الحكومة ، ويده القدر الاكبر من السلطة ولهذا سمي بالنظام الرئاسي^(٩) (اي الى الرئيس) اذ يعرف النظام الرئاسي بانه النظام الذي ترجح فيه كفة رئيس الدولة في ميدان السلطات ، وقد يضطر رئيس الدولة في بعض الحالات الى تغيير سياسته تحت ضغط البرلمان ، وقد يضطر الى اتخاذ سياسة لا يقرها هو شخصيا . وعلى اي حال فان رئيس الدولة في النظام الرئاسي يتمتع بسلطات كبيرة واسعة ، ويتجلى دور رئيس الدولة من خلال خصائص هذا النظام ذاته ، اذ ان اهم ما يميز النظام الرئاسي كما سبق البيان ان رئيس الدولة منتخب من الشعب مع شدة الفصل بين السلطات ورئيس الدولة في النظام الرئاسي يسود ويحكم في ان واحد - وانتخابه من الشعب مباشرة يجعل له صفة تمثيله عن الشعب ليتكلم باسمه ويعبر عن ارادته ، كما انه يجمع كافة الوظائف التنفيذية وجميع اجهزة الدولة التنفيذية تعمل تحت اشرافه وتاتمر بامره وتسال امامه ، وهو المسئول عنها امام الراي العام ، وله كذلك سلطة عزلهم وتعيين غيرهم ولما كانت سلطة رئيس الدولة في النظام الرئاسي مستمدة من الشعب ولما كانت السلطة التشريعية تستمد هي الاخرى وجودها من الشعب مباشرة فان النتيجة المترتبة على ذلك انه لا سلطان لاي من السلطتين على الاخرى فرئيس الدولة في هذا النظام لا يملك حل البرلمان او احد مجلسيه ولا يملك تاجيله او تعطيل انعقاده ولا يملك التدخل في اعماله كما لا يملك بحسب الاصل حق اقتراح القوانين وعلى ضوء ذلك يظهر لنا قوة رئيس الدولة في هذا النظام والتي ترجع اساساً الى طريقة انتخابه فالشعب ينتخب الرئيس مدة اربع سنوات من اجل برنامج سياسي محدد بيد اننا لا يمكن ان نغفل شخصية الرئيس في الازمات الخطيرة فلهذه وتلك تأثير كذلك في قوة وسلطان الرئيس ولما كان المستقر عليه ان فصل السلطات في النظام الرئاسي ليس فصلاً مطلقاً وان الفصل المطلق للسلطات هو ضرب من الخيال السياسي فان رئيس الدولة في هذا النظام يقوم بدور تشريعي وهو ما يسمى بحق الاعتراض التوقيفي ويقابل ذلك وجود بعض امتيازات لمجلس الشيوخ يمارسها اتجاه السلطة التنفيذية وهذا التعاون بين السلطتين والذي حدى بالبعض الى القول بان هناك استثنائات على مبدء فصل السلطات هو تعاون املته الظروف وكان وليد اتصال الحكومة باللجان ذات الاثر الفعال في توجيه البرلمان ونخلص من ذلك الى ان رئيس الدولة في النظام الرئاسي هو رئيس السلطة التنفيذية وهو ايضاً رمز للشعب كما انه المنوط به تصريف شؤون السياسة الخارجية للدولة فضلاً عن انه القائد العام للقوات المسلحة في وقت السلم والحرب على السواء ويستمد الرئيس قوته من الشعب وهو على قدم متوازية مع البرلمان وان كان مستقلاً عنه فأن التطبيق العملي اوجد نوع من التعاون ولكنه تعاون متواز^(١٠) وكما تعرضنا للنظام النجليزي كنموذج لتوضيح دور رئيس الدولة في النظام البرلماني

فيحسن تحصيل رئيس الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية كنموذج امثل للنظام الرئاسي مع التزامنا بما نهجنا عليه في هذا المدخل من الاكتفاء بالمبادئ الاساسية العامة بالقدر الذي يخدم موضوع البحث ليس الا.

رئيس الدولة في الولايات المتحدة المريكية :

اهم مثل للنظام الرئاسي هو دستور الولايات المتحدة الأمريكية وهو اطول الدساتير المكتوبة عمراً (١٧ سبتمبر ١٧٨٧) وعنه اخذت معظم الدساتير الرئاسية وقد اراد المؤسسون لهذا الدستور المحافظة على صلابته ، فوضعوا اجراء صعب ومعقد من اجل تعديله وجعلوه على مرحلتين : مرحلة وضع نص التعديل ، ومرحلة التصديق على هذا التعديل ، وحتى الوقت الحاضر صدر لهذا الدستور خمسة وعشرون تعديل على الوثيقة الاصلية ، وهو شي قليل بالنسبة لطول عمر هذا الدستور وبالمقارنة مع الدساتير الاخرى ، واغلب التعديلات التي طرأت على الدستور الأمريكي متعلقة باعلان الحقوق والحريات الفردية والغاء الرق ، واتساع الضمانات القضائية التي يمكن ان تفيد المواطن ، ثم تعديلات بخصوص التوسع التدريجي لحق التصويت ومن هذه التعديلات ما يتعلق بتنظيم السلطات العامة مثل ديمقراطية انتخاب الرئيس ونائبة وانتخاب الشيوخ عن طريق الاقتراع العام واستلام الرئيس المنتخب مهامه وانتقال السلطة واهم هذه التعديلات هو التعديل الذي يمنع رئيس الدولة من الترشيح للرئاسة اكثر من مرتين مع تنظيم كيفية خلافة الرئيس من قبل نائبه عند حدوث مانع يحول بين الرئيس وممارسة عمله وثمة تعديلات اخرى مثل تعديل منع التحول سنة ١٩١٩ وتعديل سنة ١٩٣٠ بالغاء هذا المنهج^(١١) نادى الامريكيون طويلاً بان افضل حكم هو الحكم الذي لا يحكم الا قليلاً والواقع ان الامريكيين كانوا حذرين من كل السلطات فقد تظلموا ، من برلمان لندن والذي تسبب بجهالاته في حرب الاستقلال ، وهم ايضاً كانوا حذرين من السلطة التنفيذية ولذلك كان من الطبيعي ان يسعوا واضعوا الدستور الأمريكي الى اقامة توازن قام بين مختلف السلطات بحيث يحد بعضها بعضاً وهذه هي النظرية الشهيرة المسماة "الكبح والتوازن" ولذلك فقد وضعت ضوابط في هذا الدستور في تنظيم السلطات مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، تنفيذية وتشريعية ، مجلس الشيوخ ورئيس جمهورية ، سلطات قضائية وسلطات اخرى بحيث يمكن القول بان الامريكيين بفكرهم الواقعي قد بسطوا التعابير التي توصل اليها "منتسكيو" من قبل وان كان المفهوم البدائي لفصل السلطات قد تغير بفعل الاحداث وبشكل جلي^(١٢) وقد نص دستور الولايات المتحدة على حصر السلطة التنفيذية في شخص رئيس الدولة المعين بالانتخاب وهو منتخب على درجتين فخابوا الدرجة الاولى "voters" ينتخبون ناخبي الرئيس "Electors" ولكن الواقع ان انتخاب الدرجة الثانية سوريا^(١٣) وانتخاب الرئيس بواسطة الشعب وعدم خضوعه للبرلمان يكسبانه قوة وسلطة ونفوذا لا يتمتع بها الملوك المتوجون ولارؤساء الوزراء البرلمانيون ونظراً لوجود حزبين كبيرين في الولايات المتحدة الجمهوري والديمقراطي فان رئيس الدولة تارة يكون من الحزب الجمهوري واخرى من الحزب الديمقراطي تبعاً لنتيجة انتخابات الرئاسة ويخضع الوزراء في الولايات المتحدة ويطلق عليهم سكرتيريون^(١٤) خضوعاً تاماً لرئيس الدولة فليس لهم سياسة خاصة بل ينفذون سياسته وله ان يجبرهم على ذلك وحينما كان الرئيس "ويلسن" مريض حاول المستر "لاتسنج" جمع الوزراء للاتفاق معهم على خطة عمل فلم يكده الرئيس ليسترد صحته حتى كتب له "اني اعزلك لانك حاولت ان تطبق سياسة غير سياستي" وبحسب الدستور فان سياستي هي التي يجب ان تسود فالوزراء في النظام الرئاسي يلعبون دوراً ثانوياً محضاً لتنفيذ سياسة الرئيس الذي هو العامل الاول والمحرك للسلطة التنفيذية على عكس الحال في النظام البرلماني ويترتب على ذلك ان رئيس الدولة هو الذي يعين الوزراء وهو الذي له حق عزلهم ولا يسأل الوزراء الا امامه وحده وهم غير مسؤولين امام البرلمان الذي لا يملك نفوذ على الوزراء وبالتالي فان الوزراء في امريكا لا يكونوا هيئة او مجلس فليس هناك مجلس الوزراء ولا رئيس مجلس الوزراء ولا وجود لبدء التظامن الوزاري عن السياسة العامة وهو

المبدأ الراسخ في النظام البرلماني كما ان رئيس الولايات المتحدة لا يدعو البرلمان للانعقاد بل ينعقد المجلسان من تلقاء نفسها بأستثناء المناسبات الهامة وليس للرئيس حل المجلسين او ايهما كما لا يستطيع الرئيس اقترح القوانين بل فقط يمكنه ان يوصي او يلفت نظر الكونجرس الى مسألة من المسائل الهامة في رسالة ولكن لا يستطيع الرئيس ان يقدم للبرلمان مشروع قانون بالمعنى المعروف^(١٥) ومن ناحية اخرى فليس للبرلمان اي سلطة او رقابة على السلطة التنفيذية الا عن طريق الاتهام كما لا يمكن ان يكون الوزير عضو في اي من المجلسين كما هو متبع في النظام البرلماني واذا اراد احد الوزراء الحضور الى جلسات البرلمان فمجلسهم مع الجمهور والزائرين ومن اخص خصائص النظام الأمريكي ما يعرف "بفيتو" رئيس الجمهورية وهي سلطة واسعة تمكن رئيس الدولة من التأثير في التشريع فضلا عن سلطته التنفيذية الواسعة ومضمون حق الفيتو المقرر للرئيس انه يستطيع الاعتراض على قانون اقره البرلمان وهو ما يسمى بالاعتراض التوقيفي veto suspensif لان اعتراض الرئيس من شأنه اعادة القانون مرة اخرى للبرلمان ولا يمكن مرور القانون الا اذا اقره كل من المجلسين ثانية باغلبية الثلثين والواقع العملي ان الحصول على تلك الاغلبية امر صعب وهو ما يبرز معه دور الرئيس الخطير في مجال التشريع اذ يكفي ان يضمن الرئيس تأييد مجرد الثلث زائداً واحداً في كل من المجلسين لكي يستطيع الحيلولة دون صدور التشريع. والفيتو المعطى للرئيس في الولايات المتحدة ككل فيتو توقيفي اخر فهو لا يخالف مبدأ فصل السلطات لان البرلمان اذا اقر القانون بالاغلبية المقررة دستورياً فإنه يزيل اعتراض الرئيس^(١٦) هذا ويقابل هذا الحق اشتراك مجلس الشيوخ في اعمال هي في حقيقتها اختصاصات تنفيذية خاصة في ادارة السياسة الخارجية مثل الاشتراك في تعيين الموظفين في الوظائف الهامة والسفراء والوزراء المفوضين للخارج وبذلك يتسنى للمجلس مراقبة الرئيس في سياسته الخارجية والمقرر دستورياً ان مجلس النواب له حق اتهام رئيس الجمهورية ونائب الرئيس وجميع الموظفين بما في ذلك الوزراء امام مجلس الشيوخ وقد حدد الدستور الحالات التي تبرر هذا الاتهام وهي (الخيانة والرشوة وغير ذلك من الجنايات والجناح الكبرى) والعبارة الاخيرة غامضة وفسرها بعض الشراح في بدء عهد الجمهورية تفسيراً واسعاً^(١٧) ان ادخلوا فيها الاخطاء السياسية وهذه السلطات المختلفة والهامة جداً التي يتولاها الرئيس في الولايات المتحدة تستند الى دعم الراي العام اذ يذهب هذا الدعم الى رئيس الدولة اكثر من ذهابه الى البرلمانين لانهم نظراً لمدة ولايتهم القليلة ولعدم احتمال التجديد لهم يظلون مجهولين من الشعب او على الاقل اقل شهرة من الرئيس وفي زمن الحرب تصبح سلطات الرئيس شبه دكتاتورية بحيث يستطيع من اجل الدفاع الوطني مصادرة الاشخاص والاموال وبمساندة المحكمة الفعلية غدت بعض هذه السلطات التي كانت بطبيعتها مؤقتة حقاً مكتسباً للرئيس وفضلاً عن ذلك كله فإن للرئيس حق اخر غايه في الاهمية وهو حق العفو.

المبحث الاول: طبيعة مسؤولية رئيس الجمهورية وتطور تنظيمها الدستوري

يثار التساؤل عن طبيعة مسؤولية رئيس الجمهورية وفق دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥ من حيث معرفة مدى كونها مسؤولية جنائية أو سياسية كون الدستور أعلاه لم يحدد نوع تلك المسؤولية بصورة صريحة بالإضافة إن نظام الحكم السائد في بلدنا يكون له الأثر الكبير في تحديد مثل تلك المسؤولية وبذلك فإننا سنتناول في هذا المبحث وضمن مطلبين طبيعة المسؤولية التي تترتب على رئيس الجمهورية عند ارتكابه فعلاً مخالفاً لنص الدستور أو القانون ومن ثم بيان التطور التاريخي لتنظيم هذه المسؤولية من الناحية الدستورية في فرنسا ومصر والعراق.

المطلب الأول: طبيعة مسؤولية رئيس الجمهورية

القاعدة العامة إن كل سلطة تكون ممثلة بأشخاص (حكام) مسئولون عن إدارة أمور الدولة وتسيير شؤونها من خلال ما يتمتعون به من صلاحيات ومؤسسات تميزهم عن غيرهم من الأفراد والموظفين ، ولكن هل يعني ذلك إن أولئك الحكام يقومون بتلك الأعمال دون قيد أو شرط ؟ إن الأمر ليس على إطلاقه بهذه الصورة لأن ذلك سيؤدي إلى الاستبداد بالسلطة ونشوء الدكتاتورية وبالتالي فلا بد من إخضاعهم لمبدأ مهم ألا وهو مبدأ (تلازم السلطة والمسؤولية - للمسؤولية)^(١٨).

ومقتضى هذا المبدأ القانوني وجوب إقامة توازن قانوني بين السلطة والقائمين عليها من جهة ، والشعب من جهة أخرى . وهذا يقودنا بدوره إلى تأكيد القول بأن جميع الأفراد والسلطات يجب أن يخضعوا للقانون ولا يوجد احد فوق القانون مهما بلغت سلطته أو أرتفع مستوى مسؤوليته.

وهناك من يتساءل^(١٩) بالقول إذا خضع القائمون بالسلطة للقانون فما الذي يضمن عدم تعرضهم للكيد من قبل الأفراد بسبب ممارستهم لإعمال تلك السلطة ؟ وبالمقابل ما ضمان الشعب أو الأفراد من إن القائمين على السلطة يؤدونها بصورة صحيحة غير منحرفة ؟ من هذه التساؤلات جاءت فكرة إنشاء قضاء سياسي مختص بمحاكمة القائمين بأعباء السلطة^(٢٠) ، وهذا القضاء يتميز من الناحية الوظيفية بطبيعة الجرائم التي يختص بنظرها ، وهي بوجه خاص الجرائم التي تمس نظام الدولة... السياسي سواء تعلق بالحكومة أو تنظيم السلطات ، وهذه الجرائم تتميز بأنها ذات طابع خاص وتتطلب تقديرا معيناً لا يتوافر لدى القضاء العادي ، مما يعني إسناد النظر في مثل هذه الجرائم إلى محاكم خاصة وهذه الأخيرة تكون مختصة بالنظر في نوعين من الجرائم^(٢١) :-

الأولى :- التي تقع من رجال السلطة وتمثل اعتداء على نظام الدولة .

الثانية :- التي تقع من الأفراد وتمثل اعتداء على نظام الدولة السياسي .

وما يهيمنا في هذا الأمر الطائفة الأولى من هذه الجرائم ، إذ يعد إنشاء مثل هذه المحاكم الخاصة ضماناً أكيدة للأفراد في مواجهة الانحراف بالسلطة اذا توافر التطبيق العملي لذلك ، وبذلك يكون المتهمين أمام هذه المحاكم هم الحكام أنفسهم وبضمنهم (رئيس الجمهورية) وبالنظر لشخصية هؤلاء المتهمين والطبيعة الخاصة لمسؤولياتهم الجنائية عن الجرائم المسندة إليهم نجد ان اغلب الدساتير تنجّه إلى تنظيم تلك المسؤولية ومحاكمتهم أمام محكمة خاصة ضمن نصوص الدستور بل الأكثر من ذلك تنجّه بعض الدساتير إلى عدم تقرير أية مسؤولية جنائية لهؤلاء الأشخاص وفي ذلك محاباة للمستولين على حساب الأفراد. وهنا فإن التساؤل الذي يثار عن طبيعة المسؤولية التي تترتب جراء ارتكاب تلك الجرائم ، هل هي مسؤولية جنائية بحتة أم إنها مسؤولية سياسية (برلمانية) ؟ أم تجمع بين الاثنين ؟ بدءاً إن المسؤولية السياسية تعني مساءلة رئيس الوزراء و الوزراء أمام البرلمان عن كافة أعمالهم وتصرفاتهم الإيجابية والسلبية المشروعة وغير المشروعة العمدية وغير العمدية^(٢٢) ، ووفقاً لما مقرر في نصوص الدستور و مدى خضوع رئيس الجمهورية لهذا النوع من المسؤولية كما يذكر البعض^(٢٣) كانت محل بحث و اجتهاد من قبل واضعي الدساتير إذ تبرز الصعوبة في النواحي الآتية :-

١. إن النظام الخاص بمسؤولية رئيس الجمهورية يتداخل مع النظام الخاص بمسؤولية الوزراء و حسب طبيعة نظام الحكم في كل دولة.

٢. إن الإجراءات و الخطوات الخاصة بإثارة مسؤولية رئيس الجمهورية و على اختلاف نوع النظام

السياسي

(برلماني أو رئاسي) تكاد تكون خالية من النص على مثل هذه المسؤولية لرئيس الجمهورية

وهناك من يرى - بأن مسؤولية رئيس الجمهورية في مثل هذه الحالات التي تنص عليها الدساتير تكاد تكون مسؤولية سياسية بحتة في جانب معين بسبب عدم تحديد نوع تلك المسؤولية ضمن نصوص الدستور كأن يذكر الدستور عبارة ((يسأل رئيس الجمهورية في الحالات التالية)) وقد تكون جنائية في جانب آخر^(٢٤). و تفسير الحالتين أعلاه مفاده الرجوع إلى القاعدة العامة التي تقضي باختصاص قانون العقوبات الصادر وفق أحكام الدستور بتنظيم الأفعال التي يعد ارتكابها أو الامتناع عن أدائها جرائم معينة مسبقاً مع تحديد عقوبة كل جريمة ، وفق ما مقرر في المادة (١) من قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ المعدل ، و حيث أن النص (في بعض الدساتير) على مسؤولية رئيس الجمهورية عن بعض الأفعال فلا يعني ذلك تحقق مسؤوليته الجنائية المباشرة عنها ، ذلك لعدم اختصاص الدستور في تحديد الجرائم و وضع العقوبة الملائمة لها ضمن نصوصه ، أما الحالة الثانية التي تكون فيها مسؤولية رئيس الجمهورية جنائية بموجب نص الدستور فهي حالة النص الصريح لتلك المسؤولية كما فعل مشروع الدستور المصري لعام ١٩٧١ النافذ حالياً^(٢٥) و بالاستناد إلى دستور جمهورية العراق لسنة ٢٠٠٥^(٢٦) . لا بد من القول بأنه لا يمكن عد مسؤولية رئيس الجمهورية فيما يسند إليه من اتهامات بموجب نصوص الدستور هي مسؤولية سياسية بحتة و ذلك للأسباب الآتية :-

١. لو كانت المسؤولية سياسية بحتة لأضطلع البرلمان فقط بحق مساءلة رئيس الجمهورية دون إحالته إلى المحكمة المختصة.
٢. أيضاً لو كانت تلك المسؤولية سياسية بحتة لكان المشرع قد نص عليها ضمن نصوص الدستور - كما هو الحال في مسألة الوزارة^(٢٧).
٣. إن وجود محكمة محددة سلفاً للنظر في مثل هذه الحالات يدل على أن تلك الأفعال قد تكون جرائم جنائية و خصوصاً أن البرلمان يعتمد على قرار ((الإدانة)) لرئيس الجمهورية من قبل تلك المحكمة لتحديد مصير الرئيس بعد ذلك.
٤. في دستور العراق لعام ٢٠٠٥ ورد في المادة (١٣٨) منه النص على حالات إعفاء أي عضو من أعضاء مجلس الرئاسة من منصبه بما فيهم رئيس الجمهورية بسبب (عدم الكفاءة و عدم النزاهة) مما يشير إلى وجود حالات غير تلك التي نصت عليها المادة (٦١)^(٢٨) من الدستور مما يستتبع القول بأن مسؤولية رئيس الجمهورية في المادة (٦١) أعلاه هي مسؤولية جنائية ، لأن إعفائه وفق المادة (١٣٨)^(٢٩) من الدستور يتم بطريقة مباشرة من قبل البرلمان دون إحالة الموضوع لمحكمة مختصة.
٥. إن طبيعة نظام الحكم السائد في الدولة له الأثر الكبير في تحديد طبيعة و نوع مسؤولية رئيس الجمهورية ، فإذا كان ذلك النظام ((برلمانياً)) كانت الوزارة المسؤولة الأولى سياسياً بحسب الصلاحيات الممنوحة لها و ضالة دور رئيس الجمهورية مما يجعله عرضة للمسؤولية الجنائية أكثر من المسؤولية البرلمانية .
٦. غالباً ما تتجه المحاكم الخاصة بمحاكمة رئيس الجمهورية إلى العمل بموجب قانون خاص ينظم نوع المسؤولية المترتبة على أفعال رئيس الجمهورية لذا فقد تكون تلك المسؤولية جنائية بحتة بموجب تلك القوانين الخاصة من خلال الإحالة الواردة في نصوصها إلى قوانين العقوبات في موضوع تحديد الأفعال الجرمية و العقوبات المقررة لها كما هو الحال في مصر. ونحن بانتظار صدور القانون الخاص بالمحكمة الاتحادية العليا الجديد ونأمل أن يتضمن الإشارة إلى نوع المسؤولية المترتبة على رئيس الجمهورية بموجب الحالات الواردة بالدستور ، بالإضافة إلى أن القانون الخاص بمساءلة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء لم يصدر لحد الآن ، علماً أن قانون المحكمة الاتحادية العليا رقم (٣٠) لسنة ٢٠٠٥ لم يشر إلى مثل هذا الموضوع ضمن نصوصه القانونية .

٧. خلو قانون العقوبات من أي نص يحدد مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية بل تعتمد هذه القوانين إلى تحصين رئيس الجمهورية من أي مسؤولية جنائية .
و أخيراً فإننا نؤيد الرأي الذي يذهب إلى القول^(٣٠) بأن مسؤولية رئيس الجمهورية هي مسؤولية تبدأ سياسية و تنتهي جنائية عن بعض الأفعال المحددة بموجب نصوص الدستور ، و لأن الإجراءات المتبعة في إثارة مسؤولية رئيس الجمهورية تكاد تكون إجراءات مختلطة بين البرلمان و المحكمة فتبدأ بجانب سياسي برلماني بإثارة تلك المسؤولية من قبل أعضاء البرلمان و تنتهي بإحالة الموضوع إلى المحكمة المختصة ثم تعود تلك المحكمة إلى البرلمان بقرارها ليتم تحديد مصير رئيس الجمهورية (من حيث المنصب) من قبل البرلمان في ضوء قرار المحكمة ، فتكون هذه المسؤولية جنائية دستورية أي مسؤولية مختلطة ان لم تكن في الغالب مسؤولية جنائية وهذا ما سيكشفه القانون الخاص بالمحكمة الاتحادية العليا الخاصة بمحاكمة الرئيس أو أي قانون خاص يصدر لتنظيم هذه المسؤولية .

المطلب الثاني: التنظيم الدستوري لمسؤولية رئيس الجمهورية

غالباً ما تتحدد مسؤولية رئيس الدولة الجنائية أو السياسية بحسب طبيعة نظام الحكم الذي يسود في فترة معينة إذ يحدث ان تعتمد أغلب الدول التي تأخذ بالنظام الملكي إلى جعل الملك مصون وغير مسؤول بالإضافة إلى ان أغلب الدول التي تحكم بنظام دكتاتوري تذهب في دساتيرها إلى تحصين رئيس الدولة كي يتمكن من القبض على السلطة والاستمرار فيها دون منازع ، إذ أن أهم سمات ذلك النظام هو التمسك بكرسي الحكم أكثر وقت ممكن ، و سنتناول بالبحث التطور التاريخي لتنظيم مسؤولية رئيس الجمهورية في الدساتير بوصفها المنظم الرئيس لهذه المسؤولية بسبب المركز الحساس لمنصب رئيس الجمهورية من جهة ، و لعدم وجود نصوص عقابية صريحة في قوانين العقوبات تحدد مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية و ذلك في فرنسا و مصر و العراق .

أولاً: في فرنسا - اتسمت الدساتير الفرنسية المتعاقبة بالنص الصريح على عدم مسؤولية رئيس الجمهورية بصورة مطلقة إلا في حالة الخيانة العظمى^(٣١) ابتداء من دستور الجمهورية الثالثة (١٨٧٥ - ١٩٤٠) إذ ورد في المادة (٢/٦) من القانون رقم (٢٥) لسنة ١٨٧٥ و هو أحد قوانين تشكيل الدستور على أن (رئيس الدولة غير مسؤول إلا في حالة الخيانة العظمى) بعد ان حدد مسؤولية الوزراء الجنائية في الفقرة (الأولى) منه إذ وردت النصوص الخاصة بمسؤولية رئيس الجمهورية على غرار ما ورد في دستور الجمهورية الثالثة ، أما دستور (١٩٥٨) فقد نص صراحة على مسؤولية رئيس الجمهورية عن حالة الخيانة العظمى في المادة (١/٦٨) منه بالقول ((لا يكون رئيس الجمهورية مسؤولاً عن الأعمال التي يقوم بها في مباشرة مهامه الا في حالة الخيانة العظمى و يكون اتهمه بواسطة المجلس بقرار موحد يصدر بتصويت علني و بالأغلبية المطلقة للأعضاء الذين يتكون منهم المجلسان و تجري محاكمته أمام المحكمة القضائية العليا))^(٣٢) و استناداً إلى ما تقدم يذهب غالبية الفقه الدستوري إلى عد مسؤولية رئيس الجمهورية عن تهمة الخيانة العظمى مسؤولية سياسية (برلمانية) و ليس مسؤولية جنائية .

ثانياً: - في مصر - بدأت مصر بنظام الحكم الملكي ابتداء من دستور ١٩٢٣ و بموجب المادة (٢٣) منه نص على عدم مسؤولية الملك إذ ورد فيها بأن ((الملك هو رئيس الدولة و ذاته مصونة لا تمس)) و بما ان الملك غير مسؤول بموجب نص الدستور فانه يكون بمنأى عن مباشرة أعمال السلطة التنفيذية و أوكل الأمر إلى الوزارة التي حدد الدستور مسؤوليتها الجنائية بموجب المادة (٦٨) منه^(٣٣) .
إما دستور عام (١٩٣٠) الانقلابي المؤقت فلم يتضمن أي شيء عن مسؤولية الملك الجنائية و بسبب الثورة و تحول نظام الحكم من الملكي إلى الجمهوري بموجب دستور عام (١٩٥٦) فإن رئيس الدولة يكون

مسؤولاً سياسياً و جنائياً أمام مجلس الأمة و يتولى المجلس توجيه الاتهام الجنائي لرئيس الجمهورية بموجب المادة (١٣٠) في حالات معينة نصت عليها تلك المادة^(٣٤)

و في دستور (١٩٥٨) المؤقت فقد أبقى على المسؤولية الجنائية نفسها الواردة في دستور (١٩٥٦) إلى أن تم تشريع دستور عام (١٩٦٤) المؤقت الذي أسس مسؤولية رئيس الجمهورية كما هو عليه الحال في دستور عام (١٩٧١) النافذ و الذي نص في المادة (٨٥) منه على مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية عن جريمة الخيانة العظمى أو أية جريمة جنائية أخرى و التي ستناولها في المبحث الثالث من هذا البحث المخصص لحالات مساءلة رئيس الجمهورية أمام المحكمة الاتحادية العليا.

ثالثاً :- في العراق - نص القانون الأساسي العراقي (الدستور الأول في العراق) في المادة (٢١) منه على عدم مسؤولية الملك بصورة مطلقة فجاء في المادة أعلاه ان ((الملك مصون و غير مسئول)) و بالتالي لا يمكن إثارة مسؤولية الملك سواء من الناحية الجنائية أو السياسية.

و في عام ١٩٥٨ صدر دستور ٢٧ تموز و لم يتضمن أي نص يتناول مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية أو حتى النصوص الخاصة بالحصانة و السبب كما نرى انه جاء في أوضاع انتقالية بالإضافة إلى أن المواد التي نصها هذا الدستور كانت قليلة و مقتضبة و مختصرة نوعاً ما^(٣٥) و في عام ١٩٦٣ صدر دستور ٤ نيسان الذي لم يتضمن هو الآخر أي نص يتناول أو ينظم مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية أو السياسية أو حتى النصوص الخاصة بحصانة رئيس الجمهورية^(٣٦).

اما دستور ٢٩ نيسان ١٩٦٤ فقد نظمت المادة (٦٠) مسؤولية رئيس الجمهورية و نصت على ((لا تبعة على رئيس الجمهورية بسبب أعمال وظيفته إلا في أحوال خرق الدستور أو الخيانة العظمى ، أما تبعته فيما يختص بالجرائم العامة فهي خاضعة للقوانين الصادرة و لا يجوز اتهامه بسبب هذه الجرائم أو بسبب خرق الدستور أو الخيانة العظمى إلا من قبل مجلس الوزراء بقرار من أكتريه ثلثي المجموع الكلي لأعضائه و لا تجوز محاكمته إلا من قبل محكمة خاصة و على الوجه المبين في القانون)) و نرى بأن واضعي هذا الدستور قد جاءوا في بيان و تنظيم مسؤولية رئيس الجمهورية بالنص صراحة عليها فقسّموا هذه المسؤولية إلى نوعين **الأولى** : تتعلق بأعمال و وظيفة رئيس الجمهورية فتتبعها مسؤولية عن خرق الدستور و الخيانة العظمى اما **الثانية** : فهي مسؤوليته الجنائية عن الجرائم العادية و أخضعت للقوانين العامة السائدة آنذاك مثل قانون العقوبات البغدادي^(٣٧) و في الحالتين جعل أمر تحريك الاتهام خاص بمجلس الوزراء بقرار يصدر بأكتريه ثلثي المجموع الكلي لعدد أعضائه و إحالة الموضوع لمحكمة خاصة للمحاكمة عن تلك الجرائم مما يدل على خصوصية هذا الامر و خروجه عن القواعد العامة في المحاكمات العادية.

أما دستور ٢١ أيلول ١٩٦٨ فلم يرد فيه أي نص يتعلق بمسؤولية رئيس الجمهورية و حصاناته أثناء أدائه لمهام عمله إلا فيما يتعلق بحصانة رئيس و أعضاء مجلس قيادة الثورة فنصت المادة (٤٦) منه على أن ((لا تتخذ أي إجراءات قانونية ضد عضو مجلس قيادة الثورة بسبب أعمال وظيفته إلا بقرار صادر من ثلثي أعضائه على ان يحاكم أمام محكمة خاصة على الوجه المبين في القانون)) و بما أن رئيس مجلس قيادة الثورة يعد حكماً في ذلك الوقت رئيساً للجمهورية^(٣٨) و بالتالي يكون مشمولاً بهذا النص.

و في دستور ١٩٧٠ و بالتزامن مع تشريع قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ المعدل و النافذ حالياً فقد أصبحت مسؤولية رئيس الجمهورية منظمة بين الدستور و قانون العقوبات و بالرجوع إلى قانون العقوبات نجد أن الأصل العام فيه يقتضي تطبيق أحكامه على كل شخص يقيم في إقليم الجمهورية العراقية عند ارتكابه جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات^(٣٩) إلا أن المشرع العراقي و لاعتبارات معينة قد نص على استثناء بعض الأشخاص من المساءلة الجنائية عما يقومون به من أعمال بسبب طبيعة تلك الأعمال فالمادة (١١) من قانون العقوبات تنص على أن ((لا يسري هذا القانون على الأشخاص المتمتعين

بحصانة مقررة بمقتضى الاتفاقيات الدولية أو القانون الدولي أو القانون الداخلي)) وكون الدستور أعلى وثيقة قانونية في الدولة فقد نصت المادة (٤٠) منه على أن ((يتمتع رئيس مجلس قيادة الثورة ونائبه و الأعضاء بحصانة تامة و لا يجوز اتخاذ أي إجراء مسبق بحقهم إلا بإذن مسبق من المجلس)) وبما أن رئيس مجلس قيادة الثورة يرشح من قبل المجلس لتولي منصب رئيس الجمهورية بموجب نص المادة (٥٧/١) من الدستور فإنه يتمتع بحصانة دستورية وفق المادة (٤٠) أعلاه و حصانة قانونية جنائية بموجب المادة (١١) من قانون العقوبات النافذ^(٤١) يجب الإشارة إلى أن المادة (٤٥) من الدستور قد حددت مسؤولية رئيس و نائب رئيس و أعضاء مجلس قيادة الثورة أمام المجلس نفسه عن جرائم الحث باليمين الدستورية أو خرق الدستور أو أي تصرف يراه المجلس مخلا بشرف المسؤولية التي يمارسها وفق قواعد يضعها المجلس حول تشكيل المحكمة و الإجراءات الواجب إتباعها. أما بخصوص إجراءات الاتهام و تحريك الدعوى ضد رئيس الجمهورية فقد بينت المادة (٣٨/هـ) من الدستور ذلك^(٤٢). أما مشروع دستور جمهورية العراق لسنة ١٩٩٠ : فلم يتضمن أي نص يشير إلى مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية أو السياسية^(٤٣) وفيما يتعلق بدستور العراق لعام ٢٠٠٥ فقد نصت المادة (٦١ / سادسا) على مسؤولية رئيس الجمهورية و كما سنبين ذلك لاحقا..

المبحث الثاني: حالات مساءلة رئيس الجمهورية أمام المحكمة الاتحادية العليا

تختص المحكمة الاتحادية العليا في العراق دون غيرها بحق مساءلة رئيس الجمهورية في حالات ثلاث وردت في صلب الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ وهي -الخيانة العظمى و الحث باليمين و انتهاك الدستور ، و لتعلق موضوع البحث بتحديد مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية في كل من فرنسا و مصر و العراق ، نجد أن دساتير هذه الدول قد اتفقت على مساءلة رئيس الجمهورية عن حالة الخيانة العظمى و اختلفت في بعض الموجبات الأخرى ، و أن التساؤل الذي يثار بهذا الصدد هل تشمل حالات المساءلة رئيس الجمهورية فقط أم إنها تمتد لتشمل أعضاء هيئة الرئاسة ؟ إن الجواب على ذلك يظهر لنا من خلال تفحص نصوص الدستور فالمادة (٦١) في فقرتها (السادسة ٤) نصت على مساءلة رئيس الجمهورية حصرا إلا أن المادة (١٣٨) في الفقرة (أولا) نصت على ما يلي محل تعبير (مجلس الرئاسة) محل تعبير (رئيس الجمهورية) أينما ورد في هذا الدستور..... وبالتالي وفقا لنص المادة (١٣٨) أعلاه فإن المسؤولية تشمل رئيس الجمهورية و نوابه. ففي مصر يعاقب رئيس الجمهورية بموجب المادة (٨٥) من الدستور النافذ عن جريمة الخيانة العظمى و أية جريمة جنائية أخرى^(٤٤) ، أما في العراق فقد نصت المادة (٦١) من دستور عام ٢٠٠٥ النافذ حاليا على مسائلة رئيس الجمهورية عن الخيانة العظمى بالإضافة إلى انتهاك الدستور و الحث باليمين الدستورية. و سنتناول مفهوم كل حالة من الحالات أعلاه في ثلاث مطالب نخصص الأول لبيان مفهوم الخيانة العظمى و الثاني لتحديد مدلول الحث باليمين الدستورية أما الثالث فسنفرده لمفهوم انتهاك الدستور .

المطلب الأول: الخيانة العظمى

الخيانة في اللغة تعني :- الخون :- أي ان يؤمن الإنسان فلا ينصح ، خانه يخونه خونا و خيانه ، و خانة و مخانة^(٤٥). و الخيانة العظمى عبارة ذات مفهوم واسع و غير محدد حتى من قبل المشرع الدستوري أو القانوني ، و غالبا ما يتم الأخذ بالمفهوم العام للخيانة عند تفسير الشراح لهذا المفهوم^(٤٦) و سنتناول موقف التشريع و الفقه حول مدلول الخيانة العظمى في كل من فرنسا و مصر و العراق وفق الفروع الثلاثة الآتية :-

الفرع الأول : في فرنسا :- نصت أغلب الدساتير الفرنسية على مبدأ هام هو عدم مساءلة رئيس الجمهورية بصورة مطلقة إلا عن حالة (الخيانة العظمى) ابتداء من دستور الجمهورية الثالثة سنة ١٨٨٧ و

لغاية دستور الجمهورية الخامسة في ١٩٥٨ ، أما الفقه الفرنسي فإنه يكاد يجمع على أن مسؤولية رئيس الجمهورية عن فعل الخيانة العظمى المنصوص عليه في المادة (٦٨) من الدستور ١٩٥٨^(٤٧) النافذة هي مسؤولية سياسية (برلمانية) بالدرجة الأساس ، حيث يرى الفقيه (هوريو) بأنه من خلال استعراض نص المادة (٦٨) أعلاه يتأكد خلو الدستور من مبادئ التجريم والعقاب ، وبالتالي لا يمكن أن تكون المسؤولية المترتبة على الخيانة العظمى مسؤولية جنائية و من ثم فإن تعبير الخيانة العظمى تعبير غامض يقصد به بصفة عامة الجرائم السياسية التي تهدد المؤسسات أو المصالح العليا للبلاد^(٤٨) . أما الأستاذ (فيدل) فيرى بأن الخيانة العظمى لا يمكن أن تكون جريمة جنائية لأن القانون الجنائي أقتصر على تعريف الخيانة و لم يعرف الخيانة العظمى و بالتالي فيمكن اعتبار الإهمال الشديد من قبل رئيس الجمهورية للواجبات الملقاة على عاتقه خيانة عظمى وأن هذا الأمر متروك للجمعية الوطنية و المحكمة العليا المختصة بمحاكمة رئيس الجمهورية باعتبار ذلك الإهمال خيانة من عدمه وتحديد العقوبة الملائمة له. و بذلك و حسب رأي الأستاذ (فيدل) فإن الخيانة العظمى تختلف كثيراً عن الخيانة المنصوص عليها في قانون العقوبات و بذلك فإن الخيانة العظمى لا تعني مجرد التخابر مع الأعداء أو تسليمهم مواقع أو معلومات هامة عن البلد بل يمكن أن تكون الخيانة العظمى في فرنسا بالنسبة لرئيس الجمهورية وفق التقاليد الفرنسية مجرد (الإهمال الخطير) من قبل الرئيس في أداء واجباته كخرق الدستور مثلاً يمكن تعريفه من الناحية القانونية بأنه خيانة عظمى و إن لم يكن له أي صلة بالعلاقات الدولية^(٤٩) ، يضاف إلى ذلك نوعية العقوبات التي توجه إلى رئيس الجمهورية فهي لا تعدى أن تكون ((عزل)) رئيس الجمهورية من منصبه دون اتخاذ أية إجراءات جنائية أخرى تجاهه^(٥٠) و لقد جرت محاولتان في فرنسا لتحديد العناصر المنشأة للمسؤولية الجنائية لرئيس الجمهورية.

الأولى :- في مشروع الدستور المؤقت المقدم في عام ١٨٧٤ حيث ورد النص فيه على عدم إثارة مسؤولية الرئيس الجنائية إلا في إحدى الحالات الآتية :-

أ- الخيانة العظمى ب- الاختلاس ج- الاغتصاب

ولقد حاول المشروع المقدم بقانون سنة ١٨٧٨ تحديد حالات مفهوم الخيانة العظمى بالنسبة لرئيس الجمهورية في محاولة ثانية و هي :-

أ- إذا حاول رئيس الجمهورية بوسيلة غير قانونية أن يضع العراقيل أمام السلطة التشريعية أثناء ممارستها لوظيفتها ، كحل البرلمان حلاً غير دستورياً.

ب- إذا أعلن الرئيس الحرب على دولة أخرى دون موافقة المجلسين.

ج- إذا أدين رئيس الجمهورية بجرائم ضد أمن الدولة منصوص عليها في قوانين العقوبات .

د- إذا استقدم رئيس الجمهورية قوات أجنبية إلى أرض الوطن أو ساعد على ذلك خلافاً للدستور.

هـ- إذا أدين رئيس الجمهورية بسبب قيامه بأعمال من شأنها وقف العمل بالدستور أو إلغائه^(٥١).

وبذلك يمكن أن يدخل ضمن مفهوم الخيانة العظمى أي فعل يشكل إخلالاً بواجبات رئيس الجمهورية الأساسية لكون أن مدلول و مفهوم فعل الخيانة العظمى غير محدد و غير منظم قانوناً في فرنسا أي أنه يتسم بالمرونة و السعة.

الفرع الثاني :- في مصر - نص دستور سنة ١٩٧١ النافذ في المادة (٨٥) منه على المسؤولية الجنائية لرئيس الجمهورية في حالة اتهامه بالخيانة العظمى أو أية جريمة جنائية أخرى ، إذ نصت على أن ((يكون اتهام رئيس الجمهورية بالخيانة العظمى أو بارتكاب جريمة جنائية بناءً على اقتراح مقدم من ثلث أعضاء مجلس الشعب على الأقل ، و لا يصدر قرار الاتهام إلا بأغلبية ثلثي أعضاء المجلس ، و تكون محاكمة رئيس الجمهورية أمام محكمة خاصة ينظم القانون تشكيلها و إجراءات المحاكمة أمامها و يحدد العقاب ، و إذا حكم بادانته اعفي من منصبه مع عدم الإخلال بالعقوبات الأخرى)) وقبل الدستور

اعلاه شرع في عام ١٩٥٦ القانون المرقم ٢٤٧ الخاص بمحاكمة رئيس الجمهورية والوزراء^(٥٢) وحدد الافعال التي يعاقب عليها رئيس الجمهورية في حالتين هي الخيانة العظمى وعدم الولاء للنظام الجمهوري ، ويلاحظ ان القانون اعلاه لم يصف أيًا من هذين الفعلين بأنه جريمة الا انه نص على عقوبة جنائية محددة لكل منهما^(٥٣) . كما بين الحالات التي تدخل ضمن مفهوم عدم الولاء للنظام الجمهوري بانها **أولاً :-** العمل على تغيير نظام الحكم من جمهوري إلى ملكي **ثانياً :-** وقف الدستور كله أو بعضه أو تعديل احكامه دون اتباع القواعد والاجراءات التي حددها الدستور^(٥٤) . وترك مفهوم الخيانة العظمى دون تحديد مما أدى إلى الاجتهاد من قبل البعض في اقتباس مفهوم فعل الخيانة العظمى المنسوب إلى رئيس الجمهورية من المفهوم الوارد في قانون محاكمة الوزراء رقم (٧٤) لسنة ١٩٥٨ وقبل ذلك فان المتبع للقانون رقم (٢٤٧) يجد ان المذكرة الايضاحية التي صدر بموجبها القانون اعلاه ، بينت بأن المشرع ترك تحديد اعمال الخيانة العظمى لاحكام قانون العقوبات^(٥٥) ويقتبس البعض^(٥٦) مفهوم جريمة الخيانة العظمى من التعريف الوارد لها في قانون محاكمة الوزراء رقم (٧٤) لسنة ١٩٥٨ ويرى جواز ذلك الاقتباس بدليل ان قانون محاكمة رئيس الجمهورية نفسه قد احوال إلى قانون العقوبات في تحديد مفهوم الخيانة العظمى .

فتعرف الخيانة العظمى في قانون محاكمة الوزراء بأنها ((كل جريمة تمس سلامة الدولة أو امنها الخارجي أو الداخلي أو نظام الحكم الجمهوري ويكون منصوص عليها في القوانين المصرية ومحددا لها عقوبة الاعدام أو الاشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة أو الاعتقال المؤبد أو المؤقت)) .

خلاصة القول ان الفقه والتشريع المصري يرى بان الخيانة العظمى التي ترتكب من قبل رئيس الجمهورية هي جريمة جنائية تنشأ بقيامها المسؤولية الجنائية لرئيس الجمهورية تستوجب العقوبات المنصوص عليها في قانون العقوبات والقوانين الخاصة بالإضافة إلى إعفائه من منصبه بعد إدانته من قبل المحكمة المختصة بمحاكمته^(٥٧) .

الفرع الثالث :- في العراق - وبسبب التطورات السياسية التي حصلت بعد سقوط النظام السابق في ٢٠٠٣/٤/٩ وانعكاس تلك التطورات على الواقع الدستوري والقانوني في العراق ، فقد نص دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥ على حالة الخيانة العظمى في المادة (٦١/سادسا) كما سبقت الإشارة لذلك بالإضافة إلى حالتي انتهاك الدستور والحنث باليمين . ولكون العراق حديث العهد في النص على حالة الخيانة العظمى وتحديد مسؤولية رئيس الجمهورية بموجبها ولعدم معرفتها سابقا فان ما يكتب بصدد بيان مفهومها يكاد يكون قليلا لحد الآن للأسباب اعلاه ، يضاف إلى ذلك عدم وجود تطبيق قضائي خاص بهذه الحالة وعدم صدور قانون المحكمة الاتحادية العليا الخاصة بمحاكمة رئيس الجمهورية عن الحالات اعلاه بموجب نص الدستور . ومع ذلك نرى بأن مفهوم الخيانة العظمى المنسوب لرئيس الجمهورية يمكن ان ينصرف إلى كل تصرف أو اجراء يقوم به رئيس الجمهورية يشكل جريمة منصوص عليها في قانون العقوبات أو أي قانون عقابي اخر . والسبب في تحديد هذا المفهوم بالصيغة اعلاه يكمن فيما يأتي :-

١. لقد نص الدستور بصورة صريحة على مساءلة رئيس الجمهورية عن انتهاك الدستور والحنث باليمين ، وبالتالي فإنه لا يمكن عد أي فعل مخالف للقانون انتهاكا للدستور لكون الحالة الاخيرة تكون محددة في مخالفة نص الدستور الصريح بالإضافة إلى ذلك فان المساءلة عن الحنث باليمين تنصرف إلى الاخلال بكل مفردة من المفردات الواردة في صيغة اليمين الدستورية المبينة في المادة (٥٠) من الدستور لذلك نرى بان ارتكاب أي فعل يشكل جريمة خارجة عن مفهوم الحاليتين اعلاه يعد خيانة عظمى من قبل رئيس الجمهورية .

٢. عدم وجود نص قانوني عقابي يحدد مسؤولية رئيس الجمهورية عن الافعال التي تقع منه اثناء تأديته وظيفته وتشكل هذه الافعال بدورها جرائم معاقب عليها جنائيا .

٣. عدم وجود نص دستوري أو قانوني يمنح رئيس الجمهورية حصانة قانونية عن الأفعال التي ترتكب منه وتشكل جرائم جنائية وبالتالي يمكن للبرلمان وفق نص الدستور إثارة مسؤولية رئيس الجمهورية عن حالة الخيانة العظمى إذا ارتأى بأن تلك الأفعال تشكل جرائم جنائية
٤. ان عدم تحديد مفهوم الخيانة العظمى في الدستور بصورة صريحة يمثل نوعاً من الرقابة الذاتية لرئيس الجمهورية على أفعاله وتصرفاته بحيث يكون على قدر من الحيطة والحذر في اتخاذ أي قرار أو إجراء خوفاً من الوقوع في ما يمثل جريمة الخيانة العظمى.
٥. عدم صدور القانون الخاص بالمحكمة الاتحادية العليا وقانون محاكمة رئيس الجمهورية لحد الآن وفق نص الدستور ، إذ ان تشريع تلك القوانين قد يبين ماهية الأفعال التي تندرج تحت مفهوم الخيانة العظمى^(٥٨) ، وهو ما ندعو المشرع العراقي إلى الأخذ به من خلال تحديد معين لكل فعل يدخل ضمن مفهوم الخيانة العظمى منعاً للاجتهاد والتأويل.

المطلب الثاني: الحث باليمين الدستورية

الحث باللغة يعني : الخلف في اليمين ، حث في يمينه حثاً وحثاً ، لم يبر بها ، وفي الحديث (اليمين حث أو منعمة) . والحث في اليمين نقضها والنكث فيها^(٥٩). ويعرف الحث باليمين بأنه (العمل خلاف ما ورد في اليمين من مقتضيات أو ترك العمل بها)^(٦٠). ولقد أوجبت المادة (٧٠) من الدستور العراقي النافذ على رئيس الجمهورية أداء اليمين الدستورية المنصوص عليها في المادة (٥٠) من الدستور وبالنظر إلى نص المادة أعلاه^(٦١) نجد ان مخالفة محتويات أو موجبات هذه اليمين من قبل رئيس الجمهورية يمكن أن ينشأ جرائم منصوص عليها في قانون العقوبات النافذ كجريمة المساس باستقلال العراق وسيادته المنصوص عليها في المادة (١٥٦) عقوبات إذ نظمت هذه الحالة كجريمة جنائية في قانون العقوبات العراقي النافذ ضمن مجموعة الجرائم المضرة بالمصلحة العامة في الكتاب الثاني حيث وردت في المادة (١٥٦) في الباب الأول (الجرائم الماسة بأمن الدولة الخارجي) . وتنص المادة أعلاه على ما يأتي : - ((يعاقب بالإعدام من ارتكب عمداً فعلاً بقصد المساس باستقلال البلاد أو وحدتها أو سلامة أراضيها أو كان الفعل من شأنه أن يؤدي إلى ذلك)) . إما قانون العقوبات الفرنسي فقد عاقب مرتكب هذه الجريمة بعقوبة السجن من سنة إلى عشر سنوات مع غرامة من (٣٠٠٠ - ٧٠٠٠) فرنك مع الحرمان من الحقوق المدنية ، أما إذا استعملت الأسلحة في ارتكابها فإن العقوبة تصل إلى الإعدام^(٦٢) وفي مصر فإن هذه الجريمة تعد من قبيل الأفعال المكونة للخيانة العظمى المنصوص عليها في المادة (٨٥) من الدستور النافذ ويعاقب عليها بعقوبة الإعدام أو الأشغال الشاقة وفق المادة (٧٧) من قانون العقوبات. يضاف إلى ذلك ما ينتج من هذه المخالفة من مساس بمبدأ هام ألا وهو ((استقلال القضاء)) ، وكذلك فيما يتعلق بعدم صيانة الحريات العامة المنصوص عليها في الدستور والمنظم بعضها في قانون أصول المحاكمات الجزائية ، كالأجراءات المتعلقة بالقبض وتقييد حرية الفرد و صيانة الحريات العامة و الخاصة يتطلب أيضاً المحافظة على استقلال القضاء كما سبق القول إذ أن الرقابة القضائية على أعمال السلطة التنفيذية تعد ضمانة أساسية لحريات الأفراد و حقوقهم إذا ما تعرضت للانتهاك و التقييد على وجه غير مشروع^(٦٣) ، إلا أن أهم ضمانة لصيانة الحريات العامة و الخاصة هي الضمانات الدستورية و هذه تتأتى و تستمد قوتها من خلال النص على تلك الحريات في صلب الدستور أي أنها تصبح قواعد دستورية ملزمة لكل السلطات و تقييد السلطة التشريعية بضرورة إصدار القوانين وفقاً لتلك النصوص مراعية في ذلك عدم التعارض معها إذ لا يجوز لأي سلطة أن تتخطاها إلا في الحدود و الأوضاع و الطرق التي يرسنها الدستور^(٦٤) ، و بذلك فقد نصت المادة (٤٦) من دستور جمهورية العراق النافذ على ذلك بالقول بأنه ((لا يكون تقييد ممارسة أي من الحقوق و الحريات

الواردة في هذا الدستور أو تحديدها إلا بقانون أو بناءً عليه ، على أن لا يمس ذلك التحديد جوهر الحق و الحرية)). ولقد ذهب الدستور المصري إلى أبعد من ذلك عندما أورد نصاً هاماً يمثل حصانة و ضمانة متميزة لحماية الحريات المنصوص عليها فيه هو نص المادة (٥٧) حيث جاء فيها بأن «كل اعتداء على الحريات أو حرمة الحياة الخاصة للمواطنين و غيرها من الحقوق و الحريات العامة التي يكفلها الدستور و القانون جريمة لا تسقط الدعوى الجنائية و لا المدنية الناشئة عنها بالتقادم ، و تكفل الدولة تعويضاً عادلاً لمن وقع عليه الاعتداء)). و الجريمة المنصوص عليها في المادة أعلاه و حسب رأي البعض من الفقه تعد جريمة متميزة عن الجرائم الأخرى المعروفة في قانون العقوبات إذ بموجبها يجوز مقاضاة الفاعل مهما طال العهد بعد عدوانه على الحريات لأنها لا تسقط بالتقادم»^(٦٥).

، بالإضافة إلى ما اشتملت عليه صيغة اليمين من حالات أخرى علماً إن تقدير كل حالة من الحالات أعلاه ومدى عدها جريمة منسوبة لرئيس الجمهورية متروك لمجلس النواب والمحكمة الاتحادية العليا.

المطلب الثالث: انتهاك الدستور

الانتهاك في اللغة يعني: خرق الستر عما وراءه و كذلك يعني ما لا يحل ولا يحل (٦٦) و الهيئة تعني الفضيحة - تهتك افتضح ، يقال رجل منتهك و مهتك و مستهتك أي لا يبالي أن يهتك ستره عن عورته و التهتك يعني وسط الليل^(٦٧) و ما دنا بصدد بيان مفهوم حالة انتهاك الدستور التي يسأل بموجبها رئيس الجمهورية استناداً إلى الفقرة (سادساً) من المادة (٦١) من الدستور العراقي النافذ فإن الانتهاك المقصود في الفقرة أعلاه يتحقق من خلال إثبات أي فعل من رئيس الجمهورية يشكل مخالفة صريحة أو ضمنية لأي نص من نصوص الدستور و العمل على خلاف ما ورد فيها من خلال استعمال الصلاحيات الممنوحة له بموجب تلك النصوص استعمالاً يؤدي إلى تلك المخالفة^(٦٨). و لقد حرصت المادة (٦٧) من الدستور عندما عرفت أو بينت شخص رئيس الجمهورية على تأكيد مبدأ هام ألا هو ضرورة احترام و ضمان رئيس الجمهورية الالتزام بالدستور و العمل وفقاً لأحكامه^(٦٩)، و يمكن القول بأن الانتهاك الذي يمكن أن يحصل من قبل رئيس الجمهورية للدستور يتمثل في الحالات الآتية :-

الحالة الأولى :- عند مخالفة أي نص من نصوص الدستور بصورة عامة و خصوصاً النصوص الإلزامية الواردة فيه ، و التي تمنع القيام بعمل معين فيقدم رئيس الجمهورية عليه أو تلك التي تفرض عليه واجباً معيناً فيمنع عن القيام به^(٧٠). و هنالك من يرى بأن الانتهاك يتحقق إذا خالف رئيس الجمهورية نصوص الدستور السياسي الذي ينظم العلاقة ما بينه وبين السلطات العامة الأخرى أو إذا خالف نصوص الدستور الاجتماعي الذي ينظم علاقته مع السلطات العامة الأخرى بالإفراد^(٧١).

الحالة الثانية: مخالفة النصوص الدستورية المحددة لصلاحيات رئيس الجمهورية الواردة في المادة (٧٣) من الدستور. و من الأمثلة على الحالة الأولى و الثانية معاً مخالفة رئيس الجمهورية لما ورد في نص المادة (١٣) من الدستور التي تمنع سن أي قانون أو نص دستوري في دساتير الأقاليم يتعارض مع الدستور النافذ ، فإذا صادق رئيس الجمهورية على مثل هذه القوانين مستنداً لنص الفقرة الثالثة من المادة (٧٣) من الدستور فيعد انتهاكاً للدستور.

الحالة الثالثة :- يضاف إلى ما سبق إمكانية حدوث حالة انتهاك الدستور من قبل رئيس الجمهورية إذا تعمد تعطيل نص دستوري معين و يمكن أن يتحقق تعليق أو تعطيل الدستور في حالات عدة منها :-

١- عندما يصدر الرئيس قراراً رسمياً يقضي فيه بتعليق العمل ببعض نصوص الدستور و خصوصاً تلك التي تتعلق بحقوق الإنسان

٢- عندما يتخذ الرئيس اتجاهها يقضي بتطبيق نصوص الدستور لكن بشكل يتعارض مع محتواها بصورة متعمدة.

٣- عند امتناع الرئيس عن اتخاذ القرار المطلوب بموجب نصوص ذلك الدستور^(٧٢)، ونرى بأن إمتناع رئيس الجمهورية عن المصادقة على احكام الإعدام الصادرة من المحاكم المختصة يعد تعطيلاً لنص من نصوص الدستور المحددة لصلاحيات رئيس الجمهورية كما هو وارد في المادة (٧٣) الفقرة ثامناً من الدستور. و في مصر فإن تعطيل الدستور بصورة كلية أو جزئية يعد فعلاً يعاقب عليه رئيس الجمهورية بموجب القانون ٢٤٧ لسنة ١٩٥٦، و يدخل ضمن جريمة عدم الولاء للنظام الجمهوري^(٧٣)، و قد يحصل التعطيل المقصود في حالة تجاوز رئيس الجمهورية للصلاحيات الاستثنائية الممنوحة له بموجب نصوص الدستور، و التي تخوله تعطيل العمل بأي نص من نصوص الدستور، و هذا التعطيل قد يحدث عند استخدام هذه الصلاحيات دون توافر الشروط المطلوبة لأي حالة من الحالات، إذ أجازت المادة (٧٤) من الدستور النافذ لرئيس الجمهورية اتخاذ إجراءات سريعة لمواجهة أي خطر يهدد الوحدة الوطنية للبلاد أو سلامة الوطن أو يعوق مؤسسات الدولة عن أداء دورها الدستوري أو غالباً ما تكون هذه الإجراءات مخالفة لنص الدستور، إلا أنه يشترط فيها ألا تؤدي بأي حال من الأحوال إلى تعديل أو إلغاء نص دستوري قائم^(٧٤)، لأن مثل هذا التعديل أو الإلغاء يتطلب إجراءات يجب أن تتسم بالتأني والدقة، و هذه لا تتوافر في مثل هذه الظروف الاستثنائية و التي غالباً ما تتصف بالسرعة و الاستعجال و في كل الأحوال فإن جميع الإجراءات أعلاه يجب أن تخضع لرقابة القضاء^(٧٥)

المبحث الثالث: إجراءات مساواة رئيس الجمهورية

سنتناول في هذا المبحث إجراءات محاكمة رئيس الجمهورية أمام المحكمة الاتحادية العليا، و بدأ لابد من الإشارة إلى أننا سنعتمد على قانون محاكمة رئيس الجمهورية في مصر رقم ٢٤٧ لسنة ١٩٥٦، و ما ورد من نصوص في صلب الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥. و سنفرد المطلب الأول لبيان الجهة المختصة بتحريك مسؤولية رئيس الجمهورية أما المطلب الثاني فنخصصه لإجراءات المحاكمة و نظر الدعوى.

المطلب الأول: الجهة المختصة بتحريك مسؤولية رئيس الجمهورية

من القواعد المسلم بها على الصعيد الجنائي أن كل دعوى تبدأ من مرحلة إخبار أو اتهام و تمر بجمع الأدلة و التحقيق الابتدائي والقضائي ثم الحكم و تنفيذ العقوبة و بموجب الدستور المصري فإن اتهام رئيس الجمهورية و استناداً للمادة (٨٥) سالفه الذكر يكون من قبل مجلس الشعب وحده و يتم ذلك من خلال اقتراح مقدم من ثلث أعضاء المجلس على الأقل و لا يصدر قرار الاتهام إلا بأغلبية خاصة من ثلثي أعضاء المجلس كله و ليس عدد الحاضرين^(٧٦) والسؤال الذي يثار بهذا الجانب هل إن حصر وظيفة الاتهام بمجلس الشعب يمثل حصانة ممنوحة لرئيس الجمهورية ضد مباشرة إجراءات الاتهام. فيجيب البعض على ذلك^(٧٧) بأن هذا القيد في ممارسة وظيفة الاتهام و حصره بمجلس الشعب فقط يمثل أهم الحصانات الممنوحة لرئيس الجمهورية إلا أنه يوضح ماهية هذه الحصانة على النحو الآتي :-

إن الدستور المصري يقرر حصانة معينة لرئيس الجمهورية في المجال الجنائي و إذا كان الأخير يحتوي على النصوص المتعلقة بمحاكمة الأشخاص من الناحية الجزائية فإن القانون الدستوري يشمل عادة على أهم قواعد العدالة الجنائية كما أن تطبيق النص الجنائي سيستلزم بالأصل الرجوع أحياناً إلى النصوص الدستورية التي تضع حدوداً أو قيوداً على تطبيق النصوص الجنائية بصورتها الاعتيادية، و من ثم فإن التطبيق القانوني الصحيح للحصانات المقررة في الدستور المصري لرئيس الجمهورية هو في أنها تمثل ((قيوداً إجرائية)) فقط على الحق في مباشرة إجراءات الدعوى الجزائية ضد رئيس الجمهورية و من ثم فهذه

الضمانات لا تمثل سببا للإعفاء من العقاب أو إلى التخفيف من العقوبة في حالة ارتكاب الجرائم المنصوص عليها قانونا.

وهناك من يسمي تلك الحصانة الممنوحة لرئيس الجمهورية وحسب ما تقدم بانها حصانة إجرائية (ضد مباشرة إجراء الاتهام) وليس ضد موضوع الجريمة^(٧٨).

و بعد تقديم اقتراح من ثلث أعضاء مجلس الشعب باتهام رئيس الجمهورية لجريمة الخيانة العظمى أو أية جريمة جنائية أخرى أو بجريمة عدم الولاء للنظام الجمهوري فإن على المجلس القيام بتشكيل لجنة من خمسة أعضاء بطريق الاقتراع السري في جلسة علنية تتولى التحقيق في موضوع الاقتراح^(٧٩) و بموجب المادة (١١) من القانون الخاص بمحاكمة رئيس الجمهورية فإن على اللجنة أعلاه أن تعد تقريرا ترفعه إلى رئيس مجلس الشعب خلال شهر واحد فقط من تاريخ تكليفها بدراسة الموضوع و التحقيق فيه و يجوز أن تقلص مدة الشهر بقرار من مجلس الشعب ثم يقوم رئيس المجلس بتحديد جلسة علنية لمناقشة تقرير اللجنة خلال خمسة عشر يوما فقط من تاريخ رفع التقرير إليه و يصدر المجلس قراره بأغلبية ثلثي أعضاءه.

و إذا اقتنع باتهام رئيس الجمهورية فيما نسب إليه^(٨٠) و بعد موافقة مجلس الشعب على توجيه الاتهام لرئيس الجمهورية على وفق الآلية المبينة أعلاه فقد منح قانون محاكمة رئيس الجمهورية لرئيس مجلس الشعب حق إحالة رئيس الجمهورية إلى المحكمة المختصة ، و بعد الموافقة على قرار الاتهام يقوم رئيس المجلس بإرسال ذلك القرار في اليوم التالي لصدوره إلى رئيس مجلس القضاء الأعلى و ذلك لإجراء القرعة لاختيار المستشارين لعضوية المحكمة العليا الخاصة بمحاكمة رئيس الجمهورية و تعيين رئيسا لها من بينهم و بعد مرور ثلاثة أيام على الأكثر من تعيين رئيس المحكمة يرسل رئيس مجلس الشعب إليه قرار الإحالة مع صورة من محضر الجلسة التي حدد فيها و المداولات التي جرت بشأنه و تقرير لجنة التحقيق المشكلة بموجب المادة (١٠) سالفه الذكر و جميع الأوراق و المستندات المؤيدة للاتهام و كذلك أسماء أعضاء مجلس الشعب الذي انتخبهم المجلس ممثلين للاتهام أمام المحكمة^(٨١) أما في العراق فإن المادة (٦١) من الدستور التي بينت اختصاصات مجلس النواب فإن الفقرة (سادسا) من هذه المادة خولت المجلس مسائلة رئيس الجمهورية بناء على طلب مسبب بالأغلبية المطلقة لعدد أعضاءه و من ثم فإن جهة الاتهام بموجب الفقرة أعلاه هي مجلس النواب بأغلبية عدد أعضاءه المطلقة ، و حين صدور القانون الخاص بالمحكمة الاتحادية العليا و القوانين الخاصة بمحاكمة رئيس الجمهورية و رئيس الوزراء يبقى مجلس النواب صاحب الاختصاص الأصلي في توجيه الاتهام لرئيس الجمهورية وفق ما بيناه أعلاه^(٨٢) و بعد توجيه الاتهام من قبل المجلس أعلاه يحال الأمر إلى المحكمة الاتحادية العليا للنظر فيه وفق قانونها الخاص بها و قانون محاكمة رئيس الجمهورية المفترض صدوره وفق نص المادة (٩٣) (سادسا) من الدستور فإذا تمت إدانة الرئيس بإحدى الحالات التالية :- الخيانة العظمى - الحنث باليمين - انتهاك الدستور فيقرر مجلس النواب إعفاء الرئيس من منصبه بالأغلبية المطلقة لعدد أعضاءه يضاف إليه ما قد تقرر من عقوبات بموجب القوانين الخاصة أعلاه.

المطلب الثاني: إجراءات المحاكمة و نظر الدعوى

بعد الانتهاء من توجيه الاتهام لرئيس الجمهورية على وفق الطريقة المبينة آنفا، تتولى المحكمة المختصة مهمة القيام بإجراءات المحاكمة عن الجرائم المنسوبة للرئيس ، و تكون هي صاحبة الاختصاص في ذلك إذ لا يجوز لأي محكمة أخرى محاكمة رئيس الجمهورية^(٨٣) . و تبقى هذه المحكمة تتمتع بهذا الاختصاص حتى بعد ترك رئيس الجمهورية لمنصب الرئاسة^(٨٤) . و يمثل أمام هذه المحكمة أيضا الأفراد العاديين إذا كانوا فاعلين أصليين أو شركاء لرئيس الجمهورية في جرائمه أو كانوا متهمين بجرائم مرتبطة بجرائم رئيس الجمهورية^(٨٥) . أما فيما يتعلق بإجراءات النظر في الدعوى المعروضة أمام المحكمة فإن قانون

محكمة رئيس الجمهورية المصري سالف الذكر كان قد حدد هذه الإجراءات ضمن نصوص قانونية مشيراً إلى إمكانية الاستعانة بقانون الإجراءات الجنائية المصري المقرر لمحاكم الجنايات والجنح بشرط عدم وجود تعارض بين القانونين وبالرجوع إلى قانون الإجراءات الجنائية ذي الرقم (١٥٠) لسنة ١٩٥٠ المعدل نجده قد أحاط المتهم بمجملته من الضمانات تبدأ من مرحلة التحقيق وتنتهي إلى إصدار الحكم وتنفيذ العقوبة فمثلاً أوجب القانون للمتهم الحق في الاطلاع على أوراق التحقيق من خلال الحصول على صور من كافة أوراق الدعوى^(٨٦) وحقه في مناقشة جميع الأدلة المطروحة في أوراق التحقيق أو المحاكمة من خلال سماع الشهود أو مناقشتهم^(٨٧) إلى غير ذلك من الضمانات ، و بعد أن يتقرر إحالة رئيس الجمهورية إلى المحكمة المختصة تتولى النيابة العامة أعلام المتهم بصورة من قرار الإحالة وكافة شهود الإثبات بناء على طلب ممثلي الاتهام في المحكمة و بعد أن يحدد رئيس المحكمة موعداً لأول جلسة لانعقاد المحكمة تتولى النيابة العامة إعلام المتهم بميعاد تلك الجلسة و مكان انعقادها قبل الموعد المحدد بثمانية أيام على الأقل^(٨٨) وعند نظر الدعوى من قبل هذه المحكمة أوجب قانون محاكمة رئيس الجمهورية على المحكمة بموجب المادة (١٧) منه التقيد بالوصف القانوني للتهمة المسندة لرئيس الجمهورية ، و بالتالي فإنها لا تملك الحق في تغيير ذلك الوصف على عكس القضاء العادي حيث أجازت المادة (٣٠٨) من قانون الإجراءات الجنائية المصري للقاضي تعديل التهمة المسندة للمتهم بالقول ((للمحكمة أن تغير في حكمها من الوصف القانوني للفعل المسند للمتهم و لها تعديل التهمة بإضافة الظروف المشددة التي تثبت من التحقيق أو من المرافعة في الجلسة و لو كانت لم تذكر بأمر الإحالة أو التكاليف بالحضور ، و لها أيضاً إصلاح كل خطأ مادي و تدارك كل سهو في عبارة الاتهام مما يكون في أمر الإحالة أو في طلب التكاليف بالحضور و على المحكمة أن تنبه المتهم إلى التغيير^(٨٩) و أن تمنحه أجلاً لتحضير دفاعه بناء على الوصف أو التعديل الجديد إذا طلب ذلك) و.... مفاد ذلك حسب رأي البعض^(٩٠) أن صلاحية المحكمة في إضافة الظرف المشدد يتضمن في الغالب إضافة لواقعة لا يشملها أمر الإحالة أو التكاليف بالحضور ، و لكنها لصيقة بالواقعة موضوع التهمة و تدخل في تكوين الصورة الحقيقية لكيفية ارتكاب الجريمة أو تحديد نتيجة الفعل موضوع الاتهام إذ يؤدي ذلك إلى تغيير الوصف ، مثلاً تغيير الإصابة الخطأ إلى قتل ، و لا يشترط في إثبات توافر الظرف المشدد التقيد فيما تجرّبه المحكمة بنفسها من تحقيق بل لها الاعتماد على التحقيق السابق على رفع الدعوى إليها بسبب عمومية نص المادة (٣٠٨).

و يرى الدكتور عبد الله ناصف بأن المحكمة الخاصة بمحاكمة رئيس الجمهورية لها الصلاحية في تعديل الوصف القانوني للتهمة المسندة لرئيس الجمهورية و ذلك بإنقاص بعض العناصر مما يترتب عليه تخفيف العقوبة ، كإسقاط ظرف التشديد (سبق الإصرار) أو تحويل الوصف من قتل إلى ضرب مفضي إلى موت و لها أيضاً الإبقاء على التهمة كما وردت في قرار الإحالة^(٩١)

و بعد أن تنتهي المحكمة من القيام بجميع إجراءات المحاكمة من سماع لشهادات الشهود و دفاع المتهم و بعد أن تتكون لديها القناعة الكافية عن نوع التهمة المسندة للرئيس يبدأ أعضاء المحكمة في إبداء آرائهم حسب ما ورد في المادة (٢) من قانون محاكمة رئيس الجمهورية ، حيث يبدأ أصغر الأعضاء سناً بإبداء رأيه وصولاً إلى رأي رئيس المحكمة ، علماً أن القانون المذكور كان قد جعل من إفشاء المداولات الخاصة بالمحكمة من قبل أعضاءها جريمة يعاقب عليها بالحبس^(٩٢).

و بعد التوصل من قبل المحكمة إلى قرار بإدانة رئيس الجمهورية في الجريمة المسندة إليه فإن المادة (٢) من القانون قد اشترطت صدور ذلك القرار بأغلبية الثلثين من أعضاء المحكمة ، و هنالك من يرى بأن هذه الأغلبية ليس شرطاً في حالة الحكم بالبراءة^(٩٣) . و يلاحظ بأن قرار الحكم بالعقوبة على رئيس الجمهورية عن جريمة الخيانة العظمى أو أية جريمة جنائية أخرى يستلزم فرض عقوبة تبعية عليه و هي إعفاء الرئيس من

منصب الرئاسة بموجب نص المادة (٨٥) من الدستور المصري^(٩٤) مع عدم الإخلال بأية عقوبات أخرى ، و لقد بينت المادة (٦) من القانون العقوبات التي تطبق بحق رئيس الجمهورية عند إدانته من المحكمة المختصة وهي : - الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة علما أن الحكم بإحدى هاتين العقوبتين هو اختياري وليس وجوبي و تكون القرارات الصادرة من المحكمة نهائية و غير قابلة للطعن فيها بأي طريق من طرق الطعن المعهودة في القوانين الإجرائية العادية إلا ما نص عليه قانون محاكمة رئيس الجمهورية في المادة (١٨) منه على منح الحق لكل من المحكوم عليه أو من يمثله قانونا أو النائب العام بطلب إعادة النظر في الحكم الصادر بحق رئيس الجمهورية بناء على طلب يقدم إلى الدائرة الجنائية في محكمة النقض يبين فيه الأسباب التي استجدت بعد صدور قرار الحكم و التي يمكن اعتمادها أساسا لطلب إعادة نظر القضية^(٩٥) ، فإذا قبلت الدائرة المذكورة ذلك الطلب ، تعاد المحاكمة أمام المحكمة العليا المختصة بعد أن يعاد تشكيلها وفق الطريقة المسبق بيانها استنادا لنصوص القانون إذا كانت الأحكام الصادرة بحق رئيس الجمهورية وجاهية^(٩٦) ، أما إذا كان الحكم غاييا ، أعيدت المحاكمة عند حضور المحكوم عليه أو ضبطه و يتم إخبار رئيس مجلس الشعب بذلك من قبل النائب العام و يتوجب إجراء المحاكمة خلال مدة شهر واحد من تاريخ ذلك الإخبار و يملك النائب العام صلاحية إصدار الأمر بإلقاء القبض على رئيس الجمهورية الهارب حتى يعاد تشكيل المحكمة العليا لتقرر ما تراه مناسبا بهذا الشأن ، و إذا لم يحضر المحكوم عليه أو هرب مرة أخرى فأن المحكمة تقرر نظر الدعوى و يعد حكمها بمنزلة الحكم الوجاهي ، و يلاحظ أن رئيس الجمهورية لا يملك الصلاحية الممنوحة له بموجب الدستور بخصوص حق العفو حيث سلب منه ذلك الحق بموجب المادة (٢٤) من قانون محاكمته و أوكل ذلك الأمر إلى مجلس الشعب^(٩٧) أخيرا ندعو المشرع العراقي إلى إيراد نصوص قانونية تفصيلية تحدد إجراءات نظر الدعوى المنسوبة لرئيس الجمهورية عند تشريع القوانين الخاصة بذلك .

علما إن تقرير مسؤولية رئيس الجمهورية في العراق من قبل المحكمة الاتحادية العليا عن إحدى الحالات الثلاث يستتبع إعفاءه من منصبه بموجب نص المادة (٦١) من الدستور إذ نصت الفقرة (سادسا / ب) يختص مجلس النواب بإعفاء رئيس الجمهورية بالأغلبية المطلقة لعدد أعضاء مجلس النواب بعد إدانته من المحكمة الاتحادية العليا في إحدى الحالات الآتية :

١. الخنث باليمين

٢. انتهاك الدستور

٣. الخيانة العظمى

المبحث الرابع: المسؤولية الوزارية في الدساتير العراقية

لقد عرف العراق المسؤولية الوزارية لأول مرة في ظل أول دستور صدر في العراق في عهد الاستقلال الوطني فقد نص عليها القانون الأساسي وجعل الوزارة مسؤولة أمام مجلس الأمة . أما دساتير العهد الجمهوري فلم يعرف أي منها المسؤولية الوزارية باستثناء عام ١٩٧٠ وربما يعود السبب في ذلك إلى أن دساتير تلك الفترة هي دساتير مؤقتة . ومن المؤلف أن الدساتير المؤقتة توضع لفترة انتقالية مؤقتة في أعقاب ثورة وتعالج المسائل الدستورية معالجة مؤقتة وغالبا ما تنص على مؤسسات دستورية استثنائية ولا توضح الملامح الحقيقية للنظام السياسي والدستوري في الدولة . أما قانون إدارة الدولة الصادر ٢٠٠٤ فقد أشار إلى المسؤولية الوزارية في المادتين الأربعين والحادية والأربعين .

أما دستور العراق لعام ٢٠٠٥ فقد تناول بالتنظيم المسؤولية الوزارية في المادة (٦١) / الفقرة ثامناً / أ و ب).

المطلب الأول: المسؤولية الوزارية في ظل القانون الأساسي العراقي لعام ١٩٢٥

أخذ القانون الأساسي العراقي لعام ١٩٢٥ بالنظام البرلماني. وفي هذا النظام يكون الوزراء مسؤولين امام البرلمان وعلى الوزراء الاستقالة إذا فقدت ثقة البرلمان ولكي لا يكون البرلمان هو المهيمن وإعادة التوازن بين السلطات منحت الحكومة الحق في طلب حل البرلمان^(٩٨).

وعلى ذلك أقر القانون الأساسي لكل عضو من أعضاء مجلس الأمة الحق في توجيه السؤال والاستيضاح للوزراء^(٩٩) وبالمقابل منح الوزارة الحق في طلب حل مجلس النواب^(١٠٠).

وسائل تحريك المسؤولية الوزارية في القانون الاساسي

أشار القانون الأساسي العراقي إلى وسيلتين من وسائل تحريك المسؤولية الوزارية هما :-

١. السؤال : ويعني الاستفسار عن أمر مجهول^(١٠١). وعلى ذلك نرى أن السؤال لا يحمل في طياته الاتهام بالتقصير فقد يتعلق بمسألة غامضة تسودها العتمة وتكون بحاجة للإيضاح فيتقدم عضو البرلمان إلى الوزير بطلب ايضاحها. ومنح القانون الأساسي للوزير فرصة الاجابة على السؤال حيث اوجب منح الوزير ثمانية أيام في الأقل لإعداد إجابته فقد يكون الوزير بحاجة إلى مراجعة مسائل معينة لكي يستطيع الاجابة على السؤال^(١٠٢). ولكن القانون الأساسي فسح المجال أمام التحايل على المدة الممنوحة للوزير حينما استثنى حالة الاستعجال أو موافقة الوزير على الاجابة قبل مرور الثمانية أيام فقد منح مجلس الأمة بحالة الاستعجال في كل مرة لا يريد فيها أن يمنح الوزير الفرصة لإعداد اجابته على السؤال.
٢. الاستيضاح :- وهو المرحلة التالية للسؤال فإذا لم يقتنع مجلس الأمة بجواب الوزير أو رئيس الوزراء له الحق في طلب الاستيضاح ، و وفقاً للاصطلاح الذي استعمله القانون الأساسي العراقي فإن الاستيضاح يحمل في طياته الاتهام بالاهمال والتقصير وربما يترتب عليه إقالة الوزير أو الوزارة بأجمعها إذا ما ثبت تقصيره او تقصيرها. و وقع القانون الأساسي في الخلط حينما استعمل الاستيضاح بدلا عن الاستجواب في حين أن كلا من هذين المصطلحين له معناه ودلالته الخاصة. فالاستيضاح مرحلة لاحقة للسؤال حينما يطلب النائب من الوزير المسؤول زيادة في الايضاح دون أن يحمل ذلك في طياته الاتهام بالتقصير والاستيضاح مرحلة وسط بين السؤال والاستجواب في الأنظمة الدستورية التي اخذت به^(١٠٣).

أما الاستجواب فهو إنذار موجه من أحد أعضاء البرلمان للحكومة أو لأحد الوزراء لبيان مسألة متعلقة بالوزارة بأكملها أو بوزارة من الوزارات. ويحمل الاستجواب في طياته الاتهام بالتقصير والاهمال وقد يترتب عليه سحب الثقة من الحكومة او من وزارة من الوزارات.

وساوى القانون الأساسي العراقي في المدة الممنوحة للوزير للإجابة على السؤال والاستيضاح على الرغم من ضرورة الاختلاف في المدة الممنوحة لكل منهما لاختلاف الآثار المترتبة على كل منهما فمثلا قد يترتب على الاستيضاح سحب الثقة من الحكومة أو من الوزير المستوضح منه في حين لا يترتب هذا الأثر على السؤال.

واكتفى الدستور بسحب الثقة من الحكمة بالأكثرية النسبية للحاضرين^(١٠٤) وهي نسبة ضئيلة إذا ما علمنا أن الدستور اكتفى لانعقاد مجلس النواب حضور أكثر من نصف أعضائه^(١٠٥) وهذا يعني أن ربع المجلس قادر على سحب الثقة من الوزارة. وهذه النسبة لا تتلائم مع خطورة الآثار المترتبة على سحب الثقة من الوزارة.

وعلى الرغم من منح مجلس النواب صلاحية سحب الثقة من الحكومة إلا أن هذا المجلس لم يمارس هذه الصلاحية ولو لمرة واحدة طيلة مدة نفاذ القانون الأساسي ومن غير المعقول القول أن المجلس لم يواجه ظروفًا يستوجب سحب الثقة من الحكومة أو أن الحكومة أو وزير منها لم تقم أو يقيم بعمل من شأنه إثارة المسؤولية السياسية. وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على ضعف مجلس النواب ودوره في الحياة السياسية وألا يمارس هذه الصلاحية ولو لمرة واحدة.

المطلب الثاني: المسؤولية الوزارية في دساتير العراق لعام ١٩٧٠، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥

١- المسؤولية الوزارية في دستور العراق لعام ١٩٧٠

من الملاحظ أن الدستور العراقي المؤقت لعام ١٩٧٠ أول دساتير العهد الجمهوري الذي نص على المسؤولية الوزارية فقد سبق هذا الدستور خمسة دساتير لم ينص أي منها على المسؤولية الوزارية.

وسائل تحريك المسؤولية الوزارية في دستور عام ١٩٧٠

أشار الدستور العراقي لعام ١٩٧٠ إلى وسيلتين من وسائل تحريك المسؤولية الوزارية وهما الاستيضاح والاستجواب^(١٠٦) وذهب بهذا الاتجاه قانون المجلس الوطني^(١٠٧) في حين أشار النظام الداخلي للمجلس الوطني إلى حق السؤال والاستجواب دون الاستيضاح. والملاحظ أن الدستور وقانون المجلس الوطني قد استعملتا عبارة الاستيضاح بدلا عن السؤال عن الرغم من الاختلاف بين اللفظين في المعنى بدليل أن م/٤٧ سادسا من قانون المجلس الوطني قالت ((دعوة أي عضو من أعضاء مجلس الوزراء للاستيضاح أو الاستفسار منه)) فهذه المادة قالت للاستيضاح أو للاستفسار فجعلت كل من الكلمتين بديلة للأخرى أو مرادفة لها في حين أن الاستيضاح هو مرحلة لاحقة للاستفسار الذي يعني السؤال عن شيء أو أمر.

١) الاستيضاح (السؤال) : لكل عضو من أعضاء المجلس الوطني أن يوجه عن طريق رئيس المجلس سؤالا شفويا وتحريريا إلى أي عضو من أعضاء مجلس الوزراء^(١٠٨).

ونرى أن توجيه السؤال عن طريق رئيس المجلس هو لأغراض تنظيمية وليس لإعاقة حق النائب في السؤال بدليل أن النظام الداخلي لم يترك لرئيس المجلس صلاحية تقديرية في توجيه السؤال أو عدم توجيهه.

وميز النظام الداخلي بين السؤال الشفوي والتحريري في عدة جوانب فأوجب أن يوجه السؤال في البداية بصورة شفوية وإذا لم يكتف النائب بإجابة الوزير له سؤالا تحريريا^(١٠٩). ولا تجري مناقشة السؤال الشفوي إلا إذا طلب النائب السائل ذلك وأقر المجلس هذا الطلب^(١١٠). في حين أجاز النظام الداخلي مناقشة السؤال التحريري من قبل النائب السائل وباقي أعضاء المجلس ولا يجوز توجيه أكثر من خمسة أسئلة شفوية في الجلسة الواحدة^(١١١) ولم يحدد النظام الداخلي عدد الأسئلة التحريرية التي يجوز توجيهها في الجلسة الواحدة وهذا يعني أن عدد هذه الأسئلة مفتوح وغير محدد بحد معين. وتجري الإجابة على السؤال الشفوي حال توجيهه^(١١٢). في حين يكون الوزير مخيرا في السؤال التحريري بين الإجابة فور توجيه السؤال وبين الاستمهال إلى الجلسة التالية أو خلال مدة لا تتجاوز الأسبوع من تاريخ إبلاغه بالسؤال^(١١٣). واشترط النظام الداخلي توجيه السؤال التحريري قبل طلب الاستجواب وحرم طلب الاستجواب مباشرة بعد السؤال الشفوي^(١١٤).

ويبدو لنا من هذه المقارنة السريعة الموجزة بين السؤال الشفوي والتحريري أن السؤال التحريري أكثر خطورة من السؤال الشفوي بدليل أن المشرع أحاطه بضمانات عدة كما رتب على عدم الاكتفاء بالسؤال التحريري حق النائب في طلب الاستجواب.

٢) الاستجواب : لكل عضو من أعضاء المجلس الوطني أن يوجه استجواباً تحريراً إلى أي عضو من أعضاء مجلس الوزراء عن طريق رئيس المجلس^(١١٥) ولا يحال الاستجواب للوزير المعني إلا بعد اقترانه بموافقة عشرة أعضاء^(١١٦) ويتم تحديد موعد مناقشة الاستجواب من قبل هيئة رئاسة المجلس الوطني بالاتفاق مع الوزير المختص خلال مدة أقصاها خمسة عشر يوماً من تاريخ إبلاغ الوزير بالاستجواب^(١١٧). ولم يشترط النظام الداخلي حضور أغلبية خاصة في الجلسة التي يجري فيها مناقشة الاستجواب لكنه اشترط حضور الأغلبية المؤيدة للاستجواب.

ويعرض أحد أعضاء المجلس الوطني من مؤيدي الاستجواب مضمون الاستجواب ثم يعطي رئيس المجلس الفرصة للوزير للإجابة عليه^(١١٨).

وبعد إجابة الوزير تجري المناقشة والتصويت فإذا أسفر التصويت على رفض الاستجواب تعتبر المسألة منتهية^(١١٩) ولكن إذا أيد ثلثا أعضاء المجلس الاستجواب عد ذلك اقتراحاً بإعفاء الوزير من منصبه. ويكون لرئيس الجمهورية القرار النهائي في إعفاء الوزير أو رفض الاقتراح ولرئيس الجمهورية أن يطلب إلى المجلس الوطني استدعاء رئيس الوزراء أو أي من الوزراء للتحقيق معه عن القضية التي أُحيل من أجلها على المجلس والتحري عن الحقيقة^(١٢٠). أي أن القانون لم يحجز استدعاء رئيس الوزراء أو الوزير أمام المجلس للتحقيق معه أو استجوابه إلا بناء على اقتراح رئيس الجمهورية.

٢- المسؤولية الوزارية في دستور العراق لعام ٢٠٠٤

أما قانون إدارة الدولة العراقية لعام ٢٠٠٤ ودخول أحكامه حيز النفاذ في ٣٠ حزيران ٢٠٠٤ على أن تبقى أحكامه سارية المفعول ولم يعد أقصاه ٣١ كانون الأول ٢٠٠٥. وما يسجل لهذا القانون أنه حدد الموعد الأقصى للمرحلة الانتقالية. وهي السابقة الأولى في الدساتير العراقية المؤقتة ، حيث لم يحدد أي من الدساتير السابقة المُلغاة أجل أقصى لنفاذها وكان التبرير الظاهر لذلك الظروف الاستثنائية والاضطرابات الداخلية والتهديدات الخارجية.

أما تحديد السقف الزمني لنفاذ الدستور المؤقت (قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية). إن دل على شيء فإنما يدل على إنصراف إرادة القابضين على السلطة إلى التنحي عن السلطة بعد أجل محدد وتسليم مقاليدها لمن تفرزه الشرعية الدستورية.

وعلى حد سواء مع نصوص أي دستور مؤقت ، جاءت نصوص قانون إدارة الدولة مبشرة لا تشير لمعالم نظام دستوري محدد. بل أنها كثير ما خلطت بين المصطلحات ، من ذلك مثلاً استخدمت مصطلح الحكومة للدلالة على سلطات الدولة الثلاث في آن واحد (م ٢٤ / أ) تتألف الحكومة العراقية الانتقالية المشار إليها أيضاً في هذا القانون بالحكومة الاتحادية ، من الجمعية الوطنية ، ومجلس الرئاسة ومجلس الوزراء وبضمنه رئيس الوزراء والسلطة القضائية (في حين أن مصطلح الحكومة يستخدم مرادفاً للسلطة التنفيذية أو الوزارة ، ولا يوجد ترادف بين هذا المصطلح وسلطات الدولة الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية). الأمر الذي كان يعني أن نصوص هذا الدستور لم توضع من قبل ساسة مهنيين أو على الأقل لم يتم مراجعتها من قبل قانونيين متخصصين. ومن المؤكد أن هذا الخلط انعكس على باقي نصوص القانون ، من ذلك مثلاً نص المادة (٢٥) الذي حدد صلاحيات الحكومة ، حيث لم يحدد أي فرع منها (تختص الحكومة العراقية الانتقالية بالشؤون التالية حصراً) وكذلك ما ورد في المادة (٢٩) (حال تولي الحكومة العراقية المؤقتة السلطة الكاملة).

وما يلاحظ على نصوص هذا القانون أيضاً أنها أبرزت دور رئيس الوزراء وأفرده بمركز خاص وكأنه ليس جزء من السلطة التنفيذية ، من ذلك مثلاً أن المادة (٢٤ / أ) تنص على أنه (تتألف الحكومة العراقية الانتقالية والمشار إليها أيضاً في هذا القانون بالحكومة الاتحادية من الجمعية الوطنية ومجلس الرئاسة

ومجلس الوزراء وبضمنه رئيس الوزراء والسلطة القضائية). والمادة (٢٨/أ) (أن أعضاء الجمعية الوطنية ومجلس الرئاسة ومجلس الوزراء بضمنه رئيس الوزراء). والمادة (٣٣ز) (يتضمن عمل الرقابة الذي تقوم به الجمعية الوطنية ولجانها حق استجواب المسؤولين التنفيذيين بمن فيهم أعضاء مجلس الرئاسة ومجلس الوزراء وبضمنهم رئيس الوزراء.....).

وخلافا لما جرى عليه العمل في الدساتير المؤقتة والتي غالبا ما تركز الصلاحيات الاستثنائية بيد المؤسسة الاستثنائية أو السلطة التنفيذية وبصفة مطلقة بعيدا عن الرقابة مراعاة للظروف الاستثنائية أو المرحلة الانتقالية ، سعى واضعوا نصوص قانون إدارة الدولة إلى إخضاع قرارات وتصرفات أعضاء السلطة التنفيذية للرقابة ، من خلال منح الجمعية الوطنية ولجانها حق استجواب أعضاء السلطة المذكورة ابتداءً من أعضاء مجلس الرئاسة مروراً برئيس وأعضاء مجلس الوزراء وانتهاءً بأي مسؤول ينتمي لهذه السلطة. واستكمالا لهذه الصلاحيات الرقابية ، خول القانون ، الجمعية الوطنية صلاحية سحب الثقة من الوزارة مجمعة أو الوزراء منفردين ورتب على سحب الثقة من رئيسها (رئيس الوزراء) حل الوزارة بأسرها^(١٢١).

إن هذا التوجه الدستوري إنما هو انعكاس لتجربة مريرة غابت خلالها الشرعية الدستورية لمدة قاربت من النصف قرن وحلت محلها المؤسسات الاستثنائية تحت مسوغ الظروف الاستثنائية والتهديدات الخارجية ، هذا إضافة إلى أن هذه التجربة الدستورية ربما سعت إلى رسم المعالم العامة للدستور الدائم المرتقب آنذاك ، حيث تبنى هذا الدستور (قانون إدارة الدولة) بعض معالم النظام البرلماني ، كإشرطه نيل الوزارة لثقة البرلمان قبل ممارسة مهامها الدستورية^(١٢٢). وتمتع الأخير (البرلمان) بحق سحب الثقة من الحكومة^(١٢٣) واعتبار الوزارة مستقبلة إذا ما أقيّل رئيسها أو استقال^(١٢٤).

وإن المسؤولية الوزارية في دستور العراق لعام ٢٠٠٤ أما أن تكون تضامنية وأما ان تكون فردية.

أولا : المسؤولية التضامنية :

فقد نص في المادة (٤٠) منه على ان :

أ) يكون رئيس الوزراء والوزراء مسؤولين أمام الجمعية الوطنية ، ولهذه الجمعية الحق بسحب الثقة سواء من رئيس الوزراء أو الوزراء مجتمعين ومنفردين ، وفي حالة سحب الثقة من رئيس الوزراء تنحل الوزارة بأسرها وتصبح المادة (ب) أدناه نافذة.

ب) في حالة التصويت بعدم الثقة لمجلس الوزراء بأسره يضل رئيس الوزراء والوزراء في مناصبهم لمزاولة أعمالهم مدة لا تزيد عن ثلاثين يوما ، إلى حين تشكيل مجلس الوزراء الجديد.

ثانيا : المسؤولية الفردية :

أشار إلى المسؤولية الوزارية في المادتين الأربعين والحادية والأربعين. فقد نصت المادة (٤٠ - أ) يكون رئيس الوزراء والوزراء مسؤولين أمام الجمعية الوطنية ، ولهذه الجمعية الحق في سحب الثقة سواء من رئيس الوزراء أو الوزراء مجتمعين أو منفردين. وفي حالة سحب الثقة من رئيس الوزراء تنحل الوزارة بأسرها. أما المادة (٤١) فقد نصت (يزاول رئيس الوزراء مسؤولياته اليومية لإدارة الحكومة ، ويجوز له إقالة الوزراء بموافقة أغلبية مطلقة من الجمعية الوطنية ، ويمكن لمجلس الرئاسة بتوصية من هيئة النزاهة العامة بعد مراعاة الاجراءات القانونية أن تقبل عضو من مجلس الوزراء بما في رئيس الوزراء).

٣- المسؤولية الوزارية في دستور العراق لعام ٢٠٠٥

أخذ الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ بالنظام البرلماني نص في المادة الأولى جمهورية العراق دولة مستقلة ذات سيادة ، نظام الحكم فيها جمهوري نيابي (برلماني) وفي هذا النظام الوزراء مسؤولين أمام مجلس النواب.

وسائل تحريك المسؤولية الوزارية في دستور العراق لعام ٢٠٠٥

أشار الدستور العراقي النافذ إلى ثلاث وسائل من وسائل تحريك المسؤولية الوزارية وهما السؤال والاستيضاح والاستجواب ولم يتناول بالتنظيم موضوع التحقيق وهذا مأخذ عليه لكن النظام الداخلي لمجلس النواب أشار إليه في المادة ٣٢.

١- حق السؤال :- يقصد بهذا الحق أن يكون لأي من أعضاء مجلس النواب سؤال رئيس مجلس الوزراء أو الوزير عن مسألة معينة يجملها أو يرغب في لفت النظر إليها ، وغالبا ما يكون السؤال موجزا منصبا على المسألة المطلوب الاستفسار عنها ، ويكون خاليا من التعليقات التي تثير الجدل أو تنطوي على الآراء الخاصة بعيدا عن الإضرار بالمصلحة العامة أو مخالفة الدستور والتشريعات النافذة.

وبموجب المادة (٦١/سابعاً/أ) من الدستور العراقي يتحدد حق السؤال بين النائب السائل والوزير المسئول ، ما يعني أن ليس للغير الاشتراك في مناقشة السؤال وهو ما يسمح بتوضيح الكثير من المسائل الغامضة ويوجه نظر الحكومة إلى بعض المخالفات لتداركها أو تدارك آثارها قبل تفاقمها.

٢- الاستيضاح:- وهو حق تالي في المرتبة لحق السؤال ، وعلى حد سواء مع حق السؤال لا يحمل هذا الحق في طياته الاتهام لرئيس مجلس الوزراء أو الوزراء ، لكنه يسعى لمزيد من الاستيضاح بشأن السياسة العامة للوزارة أو إحدى فروعها ومستوى أدائها.

ومن المؤكد أن حق الاستيضاح أكثر أهمية وخطورة من حق السؤال كونه يأتي في مرحلة لاحقة لحق السؤال إذ لا يتم اللجوء لهذا الحق إلا إذا لم يكتف النائب بسؤاله أو إذا أراد المزيد من الاستيضاحات بشأن المسألة التي طرح السؤال عنها أو إذا راود المجلس أو بعض أعضائه الشك بإجابة الوزير.

من هنا اشترطت المادة (٦١/سابعاً/ب) من الدستور تقديم الاستيضاح من قبل ما لا يقل عن خمسة وعشرين عضواً ، وإذا كان السؤال يوجه مباشرة لرئيس مجلس الوزراء أو الوزير المسئول ، فإن الاستيضاح يقدم لرئيس مجلس النواب أولاً الذي يحيله بدوره لرئيس مجلس الوزراء أو الوزير المعني حيث يتولى أي منهما بدوره تحديد موعد الحضور أمام مجلس النواب لطرح إجابته والمناقشة ما يعني أن الأمر الذي يجري الاستيضاح عنه غالباً ما يستلزم إعداد الإجابة من خلال الرجوع لبعض الوثائق والولايات.

و الملاحظ أن الدستور العراقي النافذ وحد في اجراءات الاستيضاح الموجهة لرئيس مجلس الوزراء والوزير وفي رأينا كان الأولى به التمييز في هذه الاجراءات وحسب أهمية وخطورة المنصب الذي يتولاه المعني ، كأن يشترط تقديم الاستيضاح لرئيس مجلس الوزراء من قبل عدد من الأعضاء يزيد على ذلك العدد الواجب توافره لتقديم الاستيضاح للوزير. ويشترط أيضاً لتقديم الاستيضاح للأول موافقة هيئة الرئاسة في المجلس إضافة للعدد المطلوب من النواب مراعاة للمركز الخاص لرئيس مجلس الوزراء وثقل المهام الملقاة على عاتقه. فقد لا تجد هيئة رئاسة المجلس أن الأمر يستوجب الاستيضاح فتؤده قبل عرضه على رئيس مجلس الوزراء.

٣- الاستجواب:- يقصد بحق الاستجواب مساءلة الحكومة أو أحد فروعها في بعض تصرفاتها أو قراراتها ، ويحمل الاستجواب في ثناياه الاتهام للوزارة ، من هنا يعد هذا الحق الوسيلة الأكثر فاعلية وخطورة في مواجهة رئيس مجلس الوزراء والوزراء ، كونه قد ينتهي إلى إقالة الحكومة بأسرها أو أحد فروعها.

ونظرا لخطورة هذا الحق فقد احاطته الدساتير المقارنة بالعديد من الضمانات ، وبذات الاتجاه سار الدستور العراقي النافذ ، لكن الملفت للنظر أن الدستور العراقي لم يتشدد في إجراءات طلب الاستجواب ، بل أنه رسم طريق أيسر من ذلك الذي اتبعه في الاستيضاح ، فقد أوجب تقديمه من قبل ما لا يقل عن خمسة وعشرين عضوا مباشرة للمعني دون المرور برئيس المجلس (لعضو مجلس النواب وبموافقة خمسة وعشرين عضوا توجيه استجواب إلى رئيس مجلس الوزراء أو الوزراء لمحاسبتهم.....). على أن تجري المناقشة بعد سبعة أيام في الأقل من تاريخ تقديمه ، وفي رأينا أن ما ذهب إليه الدستور العراقي في هذا الموضوع أمر محل نظر ، إذ كان عليه النص على إجراءات أكثر تعقيدا من تلك التي استوجبه لتقديم الاستيضاح ، والتميز في الاجراءات الواجب إتباعها في مساءلة رئيس مجلس الوزراء وتلك الواجب إتباعها في استجواب الوزير. إذ قد ينتهي الامر في الحالة الأولى إلى إقالة الوزارة بأسرها في حين تقتصر الآثار في الحالة الثانية على إقالة الوزير المستجوب إلا إذا قررت الوزارة الاستقالة بأسرها تضامنا مع الوزير المقال.

ومن المؤكد أن المشرع الدستوري العراقي أدرك خطورة الآثار المترتبة على الاستجواب ، لكنه قصر الضمانات التي تتلائم وخطورة هذا الحق في المرحلة لاحقة للاستجواب فقط ، حينما ينتهي الاستجواب في نتائجه إلى إدانة رئيس مجلس الوزراء أو الوزير ، حيث أوجب في هذه المرحلة طرح موضوع الثقة برئيس مجلس الوزراء أو الوزير بناء على طلب خمسين عضوا في الأقل على أن يصدر المجلس قراره بعد سبعة أيام في الأقل من تاريخ تقديم الطلب. وبالمقارنة بين وسائل الرقابة التي أمتلكها رئيس مجلس الوزراء في مواجهة مجلس النواب ، وتلك التي أمتلكها الثاني في مواجهة الأول ، يبدو جليا رجحان كفة المجلس في هذا الجانب . من هنا نرى ضرورة إعادة التوازن بين السلطتين في هذا الاختصاص للاقتراب من النظام البرلماني بشكله التقليدي^(١٢٥).

٤- التحقيق :- لم يتناول بالتنظيم دستور العراق لعام ٢٠٠٥ موضوع التحقيق ولكن النظام الداخلي لمجلس النواب تلافى هذا النقص حيث نص في المادة (٣٢ - ثانيا) التي نصت (على إجراء التحقيق مع أي من أي المسؤولين بشأن أي واقعة يرى المجلس أن لها علاقة بالمصلحة العامة أو حق المواطنين). وأن المسؤولية الوزارية أما أن تكون تضامنية وأما أن تكون فردية.

أولاً: المسؤولية التضامنية

وتتناول الدستور بالتنظيم المسؤولية التضامنية فقد نص في المادة (٦١ / الفقرة ثامناً / ب) على الآتي :-

- (١) لرئيس الجمهورية تقديم طلب إلى مجلس النواب بسحب الثقة من رئيس الوزراء.
 - (٢) لمجلس النواب بناء على طلب خمس (٥/١) أعضائه سحب الثقة من رئيس مجلس الوزراء ، ولا يجوز أن يقدم هذا الطلب إلا بعد استجواب موجه إلى رئيس مجلس الوزراء ، وبعد سبعة أيام في الأقل من تقديم الطلب.
 - (٣) يقرر مجلس النواب سحب الثقة من رئيس مجلس الوزراء بالأغلبية المطلقة لعدد أعضائه.
- الفقرة ج - تعد الوزارة مستقلة في حالة سحب الثقة من رئيس مجلس الوزراء.
- الفقرة د - في حالة التصويت بسحب الثقة من مجلس الوزراء بأكمله يستمر رئيس مجلس الوزراء والوزراء في مناصبهم لتصرف الأمور اليومية ، لمدة لا تزيد عن ثلاثين يوما ، إلى حين تأليف مجلس الوزراء الجديد وفقا لأحكام المادة (٧٦) من هذا الدستور.

ثانياً: المسؤولية الفردية

وأكد دستور العراق في المادة (٦١ / الفقرة ثامناً / أ) أنه لمجلس النواب سحب الثقة من أحد الوزراء بالأغلبية المطلقة ويعد مستقila من تاريخ قرار سحب الثقة ، ولا يجوز طرح موضوع الثقة بالوزير الا بناء

على رغبته ، أو طلب موقع من خمسين عضواً ، أثير مناقشة استجواب موجه إليه ، ولا يصدر المجلس قراره في الطلب الا بعد سبعة أيام في الأقل من تاريخ تقديمه.

الخاتمة

- ١- تبين لنا بأن المحكمة الاتحادية العليا في العراق هي الجهة الوحيدة فقط المختصة بمحاكمة رئيس الجمهورية دون غيرها إلا أن قانونها الحالي لم يتضمن النص على تلك المسألة. ونوصي المشرع العراقي إلى إقرارها في القانون الجديد المزمع إصداره من خلال إيراد نص يتضمن الاتي: تختص المحكمة الاتحادية بمسألة رئيس الجمهورية حصراً دون غيرها من المحاكم.
- ٢- لم يبين الدستور العراقي طبيعة مسؤولية رئيس الجمهورية بصورة صريحة ، ضمن نصوص الدستور من حيث عدها مسؤولية سياسية (برلمانية) أو جنائية وبذلك نصي المشرع العراقي إلى تحديد نوع وطبيعة هذه المسؤولية عند تشريع القانون الخاص بالمحكمة الاتحادية العليا المختصة بمحاكمة الرئيس أو أي قانون خاص بمحاكمة رئيس الجمهورية في العراق.
- ٣- ان مسؤولية رئيس الجمهورية في العراق وجدنا أن هذه المسؤولية الواردة في المادة (٦١) من الدستور النافذ هي مسؤولية مختلطة بين السياسية والجنائية إن لم تكن في الغالب جنائية بحتة وهو ما نميل إليه. كون البرلمان لا يملك صلاحية مساءلة رئيس الجمهورية سياسياً كما هو الحال للمسؤولية الوزارية إذ يبدأ البرلمان بتحريك الإتهام ويرفع الأمر للمحكمة الاتحادية.
- ٤- عدم وجود أي نص في قوانين العقوبات تحدد مسؤولية رئيس الجمهورية الجنائية بل وجدنا أن أغلب هذه القوانين تذهب إلى تحصيل رئيس الجمهورية وبذلك نصي إلى تحديد الموقف القانوني تجاه رئيس الجمهورية عند ارتكابه جريمة غير تلك الواردة في الدستور.
- ٥- وجدنا أن رئيس الجمهورية في العراق لم يعد يتمتع بأية حصانة موضوعية من حيث إثارة المسؤولية الجنائية سوى الحصانة الإجرائية المتعلقة بتحريك الاتهام من قبل البرلمان واشترط المادة (٦١) من الدستور الأغلبية المطلقة لتلك المسألة .
- ٦- حدد الدستور العراقي موجبات هذه المسؤولية بثلاث حالات هي الخيانة العظمى وانتهاك الدستور والحث باليمين إلا أنه أغفل تحديد مدلول كل واحدة منها ، وبذلك نصي إلى بيان مفهوم كل واحدة في الحالات أعلاه منعاً للاجتهاد والتأويل من خلال القوانين الخاصة بالمحكمة الاتحادية العليا في العراق أو القانون الخاص بمسألة رئيس الجمهورية.
- ٧- اما فيما يتعلق بالجهة المختصة بتوجيه الإتهام لرئيس الجمهورية نجد أن نص الدستور قد قصر ذلك على مجلس النواب من التصويت بأغلبية الثلثين ونوصي أن يمنح ذلك الحق لجهة أخرى كالإدعاء العام.
- ٨- اما فيما يتعلق بالمسؤولية الوزارية فقد عرف العراق المسؤولية الوزارية للمرة الاولى في ظل دستور العراق عام ١٩٢٥ وهو الدستور الاول الصادر في عهد الاستقلال .
- ٩- ان المسؤولية الوزارية في دستور العراق لعام ٢٠٠٥ اما ان تكون تضامنية واما ان تكون فردية ، نرى ضرورة الموازنة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية في دستور العراق لعام ٢٠٠٥. حيث نصت المادة (٨٣) من الدستور على مسؤولية رئيس مجلس الوزراء والوزراء أمام مجلس النواب مسؤولية تضامنية أو شخصية. كما أن المادة (٧٦- رابعاً) اشترطت عرض رئيس مجلس الوزراء المكلف ، أسماء أعضاء وزارته والمنهاج الوزاري على مجلس النواب للحصول على ثقته بالأغلبية المطلقة. كما إن المادة (٨٠- خامساً) إضافة إلى تعيين مجلس النواب لوكلاء الوزارات والسفراء وأصحاب الدرجات الخاصة ورئيس

أركان الجيش ومعاونيه ومن هو بمنصب قائد فرقة فما فوق ورئيس جهاز المخابرات الوطني ورؤساء الأجهزة الأمنية بناء على توصية من مجلس الوزراء. و واضح من هذه الأمثلة مدى تعاظم سلطة مجلس النواب اتجاه الحكومة رغم إعلان الدستور في المادة (١) بأن نظام الحكم نيابي برلماني، والأنظمة البرلمانية توازن سلطة البرلمان بتقرير حق رئيس الحكومة في حل مجلس النواب (بريطانيا) أو رئيس الدولة يطلب من رئيس الوزراء (ألمانيا وهي دولة ذات نظام برلماني اتحادي). ونوصي أن اقتراح حق رئيس الوزراء حل البرلمان (أو طلب ذلك من رئيس الجمهورية في حالة فشل البرلمان انتخاب رئيس وزراء جديد خلال مدة معينة من سحب الثقة من مجلس الوزراء). من شأنه إيجاد موازنة بين السلطين ويؤدي إلى مزيد من الاستقرار وحتى لا تترك السلطة التنفيذية بدون ممارسة مدة طويلة في هذه الحالة. وكذلك ندعوا المشرع العراقي إلى إضافة وسيلة التحقيق البرلماني التي لم يتناولها بالتنظيم إلى الوسائل الأخرى التي نص عليها دستور العراق لعام ٢٠٠٥.

الهوامش

١. د. ابراهيم عبد العزيز شيحا و د. محمد رفعت عبد الوهاب ، النظم السياسية و القانون الدستوري ، الفتح للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ٢٠٠١ ، ص ٧٧ .
٢. د . سليمان الطماوي ، السلطات السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة وفي الفكر السياسي الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠٨ .
٣. مبدأ المشروعية من المبادئ القانونية العامة واجبة التطبيق في كل الدول العصر بغض النظر تماما عن الاتجاهات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي تبنتها الدولة .
٤. د . كامل ليلة ، النظم السياسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٨١٦ .
٥. الوزارة في بريطانيا تشكيلة كثيرة العدد، نظم حوالي ١٠٠ شخص بين وزير وامين عام دولة ومساعد امين عام وامين عام برلمان.
٦. اندريه هوريو ، القانون الدستوري والمؤسسات الدستورية ، منشورات الاهلية للنشر و التوزيع ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٦٩ .
٧. الكابنت لجنة منبقة من البرلمان تستمد كل سلطاتها من المجلس الادنى .
٨. اندرية هوريو ، المرجع السابقة ص ٣٧٤ .
٩. د . عبد الحميد متولي ، الوسيط في القانون الدستوري ، دار الفكر العربي القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣١ .
١٠. د . محمد انس قاسم جعفر ، النظم السياسية و القانون الدستوري ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ١٣٧ - ١٤٠ .
١١. د . محمد انس قاسم جعفر ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
١٢. اندرية هوريو ، المرجع السابق ، ص ٤٠٠ .
١٣. د . محمد انس قاسم جعفر ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .
١٤. د . ابراهيم عبد العزيز شيحا و الدكتور محمد رفعت عبد الوهاب ، المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .
١٥. اي مشروع مقسم الى مواد يلتزم البرلمان بمناقشته.
١٦. د . سليمان الطماوي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .
١٧. د . سليمان الطماوي المرجع نفسه ، ص ٣٤٦ .

١٨. د. مصطفى ابوزيد فهمي ، الدستور المصري ومبادئ الانظمة السياسية ، المطبوعات الجامعية ، الاسكندرية ، ٢٠٠٤ ، ص ٤٣٨.
١٩. د. احمد فتحي سرور ، القانون الجنائي الدستوري ، ط ٣ ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص ٤١٢ ، ٤١٣.
٢٠. لا يقصد بالقضاء السياسي ان أعضاءه والقائمين بإدارته من السياسيين ، وإنما يقصد به القضاء الذي يحاكم جرائم تمس النظام السياسي للدولة ، ويحاكم نوعاً من المسؤولين السياسيين عن الجرائم التي يرتكبونها أثناء ممارستهم وظائفهم ، المرجع نفسه - ص ٤١٣.
٢١. د. احمد فتحي سرور ، الشرعية والإجراءات الجنائية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٢١٠.
٢٢. د. عمرو فؤاد احمد بركات ، المسؤولية السياسية لرئيس الدولة في الانظمة الدستورية المقارنة ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٢١.
٢٣. د. عمرو فؤاد احمد بركات ، مرجع سابق ، ص ٨.
٢٤. د. محمد علي سالم وإسماعيل نعمه عبود ، المسؤولية الجنائية لرئيس الجمهورية - بحث منشور في مجلة كلية التربية / بابل ، المجلد الأول ، العدد ٤ ، ٢٠٠٨ ، ص ١٥٨.
٢٥. سنتناول بالبحث مسؤولية رئيس الجمهورية المصري في الصفحات القادمة.
٢٦. نشر هذا الدستور في الجريدة الرسمية (الوقائع العراقية) العدد ٤٠١٢ في ٢٨/١٢/٢٠٠٥.
٢٧. ينص الدستور على مثل هذه المسؤولية انظر المواد (٦١ و ٨٣) من دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥.
٢٨. تنص المادة (٦١) على أن يختص مجلس النواب بما يأتي سادساً : مسائلة رئيس الجمهورية بناء على طلب مسبب بالأغلبية المطلقة لعدد أعضاء مجلس النواب - ب - أعضاء رئيس الجمهورية بالأغلبية المطلقة لعدد أعضاء مجلس النواب بعد إدائته من المحكمة الاتحادية العليا في إحدى الحالات الآتية ١ ، الحث في اليمين الدستورية ٢ ، انتهاك الدستور ٣ - الخيانة العظمى .
٢٩. تنص المادة (١٣٨ / ثانياً / ج) أعلاه على أن لمجلس النواب إقالة أي عضو من أعضاء مجلس الرئاسة بأغلبية ثلاثة أرباع عدد أعضائه بسبب عدم الكفاءة أو النزاهة
٣٠. د. محمد علي سالم وإسماعيل نعمه عبود ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .
٣١. سيتم بيان مفهوم الخيانة العظمى في المبحث الثاني عند بيان موجبات مسؤولية الخيانة .
٣٢. (نصت الفقرة (الثانية) من المادة أعلاه على مسؤولية الوزراء الجنائية صراحة بالقول ((أعضاء الحكومة مسئولون جنائياً عن أعمالهم التي يقومون بها في مباشرة مهامهم التي تشكل جنائيات أو جنح في الوقت الذي ارتكبت فيه و تطبق عليهم الإجراءات المذكورة في الفقرة الأولى و كذلك على شركائهم في حالات التآمر ضد سلامة الدولة)) للمزيد مما سبق ينظر د. عبد الله إبراهيم ناصف ، مدى توازن السلطة السياسية مع المسؤولية في الدولة الحديثة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١١٧ .
٣٣. نصت المادة (٦٨) أعلاه ((يطبق مجلس الحكام نصوص قانون العقوبات في الجرائم المنصوص عليها فيه و تبين في قانون خاص أحوال مسؤولية الوزراء التي لم يتناولها قانون العقوبات)) . للمزيد ينظر د. إبراهيم عبد العزيز شبيحا ، د. محمد رفعت عبد الوهاب ، مرجع سابق ، ص ٦٢٩ - ٦٣١
٣٤. المرجع نفسه ، ص ٦٧٦.

٣٥. انظر مقدمة ذلك الدستور.
٣٦. د. رعد ناجي الجدة ، التطورات الدستورية في العراق ، بيت الحكمة ، بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص ٩.
٣٧. صدر هذا القانون في نهاية عام ١٩١٨ و بقي نافذاً حين صدور و نفاذ قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ المعدل و النافذ حالياً ، و لم ينظم القانون المذكور مسؤولية رئيس الدولة آنذاك.
٣٨. من الدستور أعلاه على أن (رئيس مجلس قيادة الثورة و رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة و القائد العام للقوات المسلحة و رئيس السلطة التنفيذية.....).
٣٩. تنص المادة (٦) من قانون العقوبات العراقي على ان ((تسري أحكام هذا القانون على جميع الجرائم التي ترتكب في العراق)).
٤٠. تنص الفقرة (أ) من المادة أعلاه على ما يأتي (يرشح مجلس قيادة الثورة رئيسه لتولي منصب رئيس الجمهورية و يحيل الترشيح على المجلس الوطني للنظر فيه).
٤١. د. علي حسين الخلف و سلطان الشاوي ، المبادئ العامة في قانون العقوبات ، مطابع الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥.
٤٢. تنص المادة أعلاه على أن : يمارس مجلس قيادة الثورة بأغلبية ثلثي أعضائه الصلاحيات الآتية هـ / اتهام و محاكمة أعضاء مجلس قيادة الثورة و نواب رئيس الجمهورية و رئيس مجلس الوزراء و نوابه و الوزراء).
٤٣. د. رعد ناجي الجدة ، دراسات في الشؤون الدستورية العراقية ، المكتبة الوطنية ، مطبعة الخيرات ، بغداد ، ٢٠٠١ ، ص ١٧٣.
٤٤. مع الإشارة إلى أن قانون محاكمة رئيس الجمهورية المصري رقم (٢٤٧) لسنة ١٩٥٦ قد نص على حالة أخرى بالإضافة للحالات أعلاه لمساءلة رئيس الجمهورية جنائياً و هي (عدم الولاء للنظام الجمهوري).
٤٥. جمال الدين محمد بن منظور ، لسان العرب ، ج ١٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ١٤٤ .
٤٦. للمزيد عن مفهوم الخيانة في الفقه و التشريعات المقارنة ينظر د. سعد إبراهيم الأعظمي ، جرائم التجسس في التشريع العراقي ، ١٩٨١ ، بغداد ص ٢٨ - ٤٢ .
٤٧. تنص المادة أعلاه على ما يأتي : ((لا يكون رئيس الجمهورية مسؤولاً عن الأعمال التي يقوم بها في مباشرة مهامه إلا في حالة الخيانة العظمى . و يكون اتهامه بواسطة البرلمان و بقرار موحد و بعد تصويت عليه بالأغلبية المطلقة للأعضاء الذين يتكون منهم البرلمان ، و تجري محاكمته أمام المحكمة القضائية العليا)).
٤٨. Andre Hauriou : droit constitutionnel et institutions politiques, Paris ,1970 , P 926 .
- أشار إليه د. عبد الله ناصف ، مرجع سابق ص ١٢٤
٤٩. د. عبد الله ناصف ، المرجع نفسه ، ص ١٣٥ .
٥٠. د. عمرو فؤاد أحمد بركات ، مرجع سابق ، ص ٥٨ - ٦٤ .
٥١. د. عمرو فؤاد ، المرجع نفسه ، ص ٨٨ ، ٩٩ .
٥٢. أصبح هذا القانون خاص بمحاكمة رئيس الجمهورية فقط بعد صدور قانون ٧٩ لسنة ١٩٥٨ الخاص بمحاكمة الوزراء.

٥٣. وبذلك تكون حالات المسؤولية الجنائية لرئيس الجمهورية في مصر ثلاث حالات من خلال الجمع بين نص الدستور والقانون رقم ٢٤٧ لسنة ١٩٥٦ وهي (١) الخيانة العظمى (٢) عدم الولاء للنظام الجمهوري (٣) أية جريمة جنائية أخرى .
٥٤. د. عمرو فؤاد، مرجع سابق، ص ٣٤.
٥٥. د. عبد الله ناصف، مرجع سابق، ص ٤٣٩.
٥٦. المرجع نفسه، ص ٤٤٠.
٥٧. د. مصطفى ابو زيد فهمي، مرجع سابق، ص ٥٨٤.
٥٨. لم يعرف قانون العقوبات العراقي النافذ ولم يضم ضمن نصوصه القانونية حالة الخيانة العظمى كما فعل في قانون العقوبات البغدادي بعد تعديله بالقانون رقم (٨) لسنة ١٩٥٩ حيث ميز بين جرائم الخيانة العظمى وجرائم التجسس الا انه لم يذكر عبارة (الخيانة العظمى) بل اقتصر على عبارة الخيانة فقط للمزيد انظر د. سعد ابراهيم الاعظمي، مرجع سابق، ص ٣٨ - ٤٢.
٥٩. جمال الدين محمد بن منظور (لسان العرب)، مرجع سابق، ص ١٣٨.
٦٠. د. محمد علي سالم وإسماعيل نعمه عبود، مرجع سابق، ص ١٨٥.
٦١. تنص المادة (٥٠) على ما يلي ((اقسم بالله العلي العظيم ان تؤدي مهماتي ومسؤولياتي القانونية بتفان وإخلاص، وان أحافظ على استقلال العراق وسيادته، وأرعى مصالح شعبه، واسهر على سلامة أرضه وسمائه ومياهه وثرواته ونظامه الديمقراطي الاتحادي، وان اعمل على صيانة الحريات العامة والخاصة واستقلال القضاء، والتزم بتطبيق التشريعات بأمانة وحياد والله على ما أقول شهيد)). وينظر نص المادة (٧٩) من دستور جمهورية مصر النافذ حاليا التي بينت صيغة اليمين الدستورية .
٦٢. أشار إلى موقف قانون العقوبات الفرنسي د. سعد الاعظمي، مرجع سابق، ص ١٢٨.
٦٣. د. هشام عبد المنعم عكاشه، الحقوق السياسية لمتعدد الجنسية، دار النهضة العربية ٢٠٠٤ ص ٣٨.
٦٤. د. هشام عبد المنعم عكاشه، المرجع نفسه، ص ٤١.
٦٥. د. إبراهيم عبد العزيز شيحا و د. محمد رفعت، مرجع سابق، ص ٧١٨. و د. ماجد راغب الحلو، النظم السياسية والقانون الدستوري، دار المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٨٢ و د. هشام عبد المنعم عكاشه، مرجع سابق، ص ٤٢.
٦٦. لسان العرب لأبن منظور، مرجع سابق، ص ٥١٩.
٦٧. صالح العلي الصالح وأمينه الشيخ، (المعجم الصافي في اللغة)، ط ١، مطابع الشرق الأوسط، ١٩٨٩، ص ٧٠٤.
٦٨. د. محمد علي سالم وإسماعيل نعمه عبود، مرجع سابق، ص ١٥٩، ١٨٥.
٦٩. تنص المادة أعلاه على أن ((رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ورمز وحدة الوطن، يمثل سيادة البلد، ويسهر على ضمان الالتزام بالدستور، والمحافظة على استقلال العراق وسيادته و وحدته، و سلامة أراضيه وفقا لأحكام الدستور.
٧٠. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء بنص الفقرة الثامنة من المادة (٧٣) التي تخول رئيس الجمهورية المصادقة على أحكام الإعدام الصادرة من المحاكم المختصة، فإذا امتنع عن المصادقة على أي حكم صادر من المحاكم المختصة ومكتسب الدرجة القطعية فإنه يعد منتهكا للدستور.

٧١. د. رافع خضر صالح ، مضمون انتهاك الدستور المنسوب لرئيس الدولة ، بحث منشور في مجلة كلية التربية / بابل ، المجلد الأول ، العلوم الإنسانية ، السنة السادسة - العدد الثاني ، ٢٠٠٨ ، ص ١٢٧ .
٧٢. د. رافع خضر صالح ، المرجع نفسه ، ص ١٣٢ .
٧٣. د. عمرو فؤاد ، مرجع سابق ، ص (٣٤) .
٧٤. د. ماجد راغب الحلو ، مرجع سابق ، ص ٦٧٨ .
٧٥. المرجع نفسه ، ص ٦٧٨ .
٧٦. د. عبد الله ناصف ، مرجع سابق ، ص ٤٣٦ .
٧٧. عادل ماجد ، المحكمة الجنائية الدولية والسيادة الوطنية ، مطبوعات مركز الدراسات للسياسة و الإستراتيجية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ٣٧ - ٤٢ .
٧٨. د. محمد علي سالم وإسماعيل نعمه عبود ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ - ١٨٥ .
٧٩. نص المادة (١٠) من القانون ٢٤٧ لسنة ١٩٥٦ الخاصة بمحاكمة رئيس الجمهورية .
٨٠. د. عبد الله ناصف ، مرجع سابق ، ص ٤٣٧ .
٨١. المرجع نفسه ، ص ٤٣٧ .
٨٢. و يلاحظ أن المادة (٣٢) النظام الداخلي لمجلس النواب العراقي النافذ قد نصت على أن يمارس مجلس النواب أعمال الرقابة على السلطة التنفيذية المتضمنة ما يلي : ،
أولاً : ، مساءلة أعضاء مجلس الرئاسة و مساءلة و استجواب أعضاء مجلس الوزراء من بينهم رئيس الوزراء و أي مسئول في السلطة التنفيذية .
- ثانياً : - إجراء التحقيق مع أي مسئول من المسؤولين المشار إليهم في أعلاه بشأن أي واقعة يرى المجلس أن لها علاقة بالمصلحة العامة أو حقوق المواطنين . و نرى أن الأعمال التي يمارسها مجلس النواب بموجب نص المادة (٣٢) ما هي إلا تطبيق لنص الفقرة السادسة من المادة (٦١) من الدستور فيما يتعلق بتحريك الاتهام بحق رئيس الجمهورية و كذلك الصلاحيات الممنوحة لمجلس النواب في المادة (١٣٨) في الدستور الذي يمنح المجلس صلاحية إقالة رئيس الجمهورية باعتباره أحد أعضاء مجلس الرئاسة بسبب عدم الكفاءة و النزاهة .
٨٣. إلا في حالات مثول رئيس الجمهورية أمام القضاء الجنائي الدولي اذ تحكم هذا الجانب بعض الاتفاقيات الدولية ، للمزيد انظر ، إسماعيل نعمه عبود وزياد ناظم جاسم ، مساءلة رئيس الدولة أمام المحكمة الجنائية الدولية ، بحث منشور في مجلة كلية التربية / بابل ، العدد ، الثاني ، نيسان ، المجلد الأول ، ٢٠٠٨ ، ص ١٤٥ - ١٩٥ .
- أو في حالة إنشاء محكمة خاصة لمحاكمة بعض الرؤساء ، كما حدث بعد سقوط نظام الرئيس السابق صدام حسين في ٩/٤/٢٠٠٣ على أثر احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة و الدول المتحالفة معها ، و إلقاء القبض عليه من قبل القوات الأمريكية ، تم تشكيل محكمة خاصة لمحاكمته عما اسند إليه من جرائم بموجب القانون رقم (١٠) لسنة ٢٠٠٥ و تم تسميتها بـ (المحكمة الجنائية العراقية العليا) ، للمزيد عن هذه المحكمة انظر أولياء كاظم ، النظام القانوني للمحكمة الجنائية العراقية العليا ، دراسة مقارنة ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية القانون / جامعة بابل ، ٢٠٠٨ .
٨٤. د. عبد الله ناصف ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .
٨٥. مضمون المادة (٢٥) من قانون محاكمة رئيس الجمهورية المصري مشار إليه في المرجع أعلاه ص ٩٨ .
٨٦. انظر المادة (٧٧) من قانون الاجراءات الجنائية المصري رقم (١٥٠) لسنة ١٩٥٠ .

٨٧. د. أحمد فتحي سرور ، القانون الجنائي الدستوري ، مرجع سابق ، ص ٤٩٤ .
٨٨. مضمون المادة (١٥) من قانون محاكمة رئيس الجمهورية .
٨٩. ويقابل هذا النص في قانون أصول المحاكمات الجزائية العراقي النافذ نص الفقرة (ب) من المادة ١٨٧ حيث تنص على ((لا تتقيد المحكمة في تحديد الوصف القانوني للجريمة بالوصف الوارد في أمر القبض أو ورقة التكليف بالحضور أو قرار الإحالة)).
٩٠. د. حسن علام ، قانون الإجراءات الجنائية و الجزائية ج ١ ، المجلد الثاني ، ١٩٨٣ ، ص ٥٧ .
٩١. مؤلفه الذي سبقت الإشارة إليه ، مرجع سابق ، ص ٤٤٣ .
٩٢. مضمون المادة (٢٢) مشار إليه في المرجع أعلاه ، ص ٤٤٣ .
٩٣. المرجع نفسه ، ص ٤٤٥ .
٩٤. وكذلك الأمر بالنسبة للدستور العراقي حيث قررت المادة (٦١) إعفاء رئيس الجمهورية من قبل البرلمان بالأغلبية المطلقة عند إدانته بإحدى الحالات الثلاثة السالفة الذكر .
٩٥. وفي العراق تنص المادة (٩٤) من الدستور العراقي النافذ على ما يأتي : ((قرارات المحكمة الاتحادية العليا باتة و ملزمة للسلطات كافة)) أي ما معناه إن قرارات المحكمة لا يمكن الطعن فيها مطلقا .
٩٦. د. عبد الله ناصف ، مرجع سابق ، ص ٤٤٥ .
٩٧. المرجع نفسه ، ص ٤٤٥ .
٩٨. د. صالح جواد الكاظم و د. علي غالب العاني ، الانظمة السياسية ، دار الحكمة ، بغداد ، ١٩٩١ ، ص ٦٧ .
٩٩. م (٥٤) من القانون الأساسي العراقي لعام ١٩٢٥ .
١٠٠. م (٢/٢٦) و م (٢٧) من الدستور أعلاه .
١٠١. رافع انور الخطيب ، الأصول البرلمانية في لبنان وسائر البلاد العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢٩٠ .
١٠٢. م (٥٤) من القانون الأساسي العراقي لعام ١٩٢٥ .
١٠٣. د. السيد صبري ، حكومة الوزارة ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٥٤٨ .
١٠٤. م (٦٦) من القانون الأساسي العراقي لعام ١٩٢٥ .
١٠٥. م (٢/ ٥٢) من الدستور نفسه .
١٠٦. م (٥٥/ب) من الدستور العراقي لعام ١٩٧٠ .
١٠٧. م (٥٧ / أولا) من قانون المجلس الوطني رقم ٢٦ لسنة ١٩٩٥ .
١٠٨. م (٤٤ / أولا) من النظام الداخلي للمجلس الوطني رقم ٢٦ لسنة ١٩٩٥ .
١٠٩. م (٩٦) من النظام الداخلي .
١١٠. م (٤٥ / ثالثا) من النظام الداخلي .
١١١. م (٤٥ / أولا) من النظام الداخلي .
١١٢. م (٥ / ثانيا - ثالثا) من النظام الداخلي .
١١٣. م (٤٦ / ثانيا) من النظام الداخلي .
١١٤. م (٤٦ / أولا) من النظام الداخلي .
١١٥. م (٤٧ / أولا) من النظام الداخلي .

١١٦. م (٤٧ / ثالثاً) من النظام الداخلي.
١١٧. م (٤٧ / رابعاً) من النظام الداخلي.
١١٨. م (٤٧ / سادساً) من النظام الداخلي.
١١٩. م (٤٧ / سابعاً) من النظام الداخلي.
١٢٠. م (٤٥ / أولاً / ب) من قانون المجلس الوطني رقم ٢٦ لسنة ١٩٩٥.
١٢١. م (٣٣ / ز) من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية.
١٢٢. م (٤٠ / أ) من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية.
١٢٣. م (٣٨ / أ) من قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية.
١٢٤. د. علي يوسف الشكري وآخرون ، دراسات حول الدستور العراقي ، مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية ، بغداد ، ٢٠٠٨. ص ٣٢٦ - ٣٢٩
١٢٥. د. علي يوسف الشكري وآخرون ، المرجع نفسه ، ص ٣٥٧ - ٣٥٩.

المراجع

أولاً: الكتب:

١. د. ابراهيم عبد العزيز شيمارد و د. محمد رفعت عبد الوهاب ، النظم السياسية و القانون الدستوري ، الفتح للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ٢٠٠١ .
٢. د. احمد فتحي سرور ، الشرعية والإجراءات الجنائية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
٣. د. احمد فتحي سرور ، القانون الجنائي الدستوري ، ط ٣ ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٤ .
٤. د. السيد صبري ، حكومة الوزارة ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٥. اندريه هوريو ، القانون الدستوري والمؤسسات الدستورية ، منشورات الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٩ .
٦. جمال الدين محمد بن منظور ، لسان العرب ، ج ١٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٦ .
٧. د. حسن علام ، قانون الإجراءات الجنائية والجزائية ج ١ ، المجلد الثاني ، ١٩٨٣ .
٨. د. رافع انور الخطيب ، الأصول البرلمانية في لبنان وسائر البلاد العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦١ .
٩. د. رعد ناجي الجدة ، التطورات الدستورية في العراق ، بيت الحكمة ، بغداد ، ٢٠٠٤ .
١٠. د. رعد ناجي الجدة ، دراسات في الشؤون الدستورية العراقية ، المكتبة الوطنية ، مطبعة الخيرات ، بغداد ، ٢٠٠١ .
١١. د. سعد إبراهيم الأعظمي ، جرائم التجسس في التشريع العراقي ، ١٩٨١ ، بغداد .
١٢. د. سليمان الطماوي ، السلطات السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة وفي الفكر السياسي الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
١٣. صالح العلي الصالح وأمينه الشيخ ، (المعجم الصافي في اللغة) ، ط ١ ، مطابع الشرق الأوسط ، ١٩٨٩ .
١٤. د. صالح جواد الكاظم و د. علي غالب العاني ، الانظمة السياسية ، دار الحكمة ، بغداد ، ١٩٩١ .
١٥. د. عبد الله إبراهيم ناصف ، مدى توازن السلطة السياسية مع المسؤولية في الدولة الحديثة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨١ .

١٦. د. عبد الحميد متولي ، الوسيط في القانون الدستوري ، دار الفكر العربي القاهرة ، ١٩٦٦ .
١٧. عادل ماجد ، المحكمة الجنائية الدولية والسيادة الوطنية ، مطبوعات مركز الدراسات للسياسة و الإستراتيجية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
١٨. د. علي حسين الخلف و سلطان الشاوي ، المبادئ العامة في قانون العقوبات ، مطابع الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٢ .
١٩. د. علي يوسف الشكري وآخرون ، دراسات حول الدستور العراقي ، مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية ، بغداد ، ٢٠٠٨ .
٢٠. د. عمرو فؤاد احمد بركات ، المسؤولية السياسية لرئيس الدولة في الانظمة الدستورية المقارنة ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
٢١. د. كامل ليلة ، النظم السياسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
٢٢. د. محمد انس قاسم جعفر ، النظم السياسية والقانون الدستوري ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٢٣. د. ماجد راغب الحلو ، النظم السياسية والقانون الدستوري ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ٢٠٠٠ .
٢٤. د. مصطفى ابو زيد فهمي ، الدستور المصري ومبادئ الانظمة السياسية ، المطبوعات الجامعية ، الاسكندرية ، ٢٠٠٤ .
٢٥. د. هشام عبد المنعم عكاشه ، الحقوق السياسية لمتعدد الجنسية ، دار النهضة العربية ٢٠٠٤ .

ثانياً البحوث :

١. إسماعيل نعمه عبود وزيد ناظم جاسم ، مساءلة رئيس الدولة أمام المحكمة الجنائية الدولية ، بحث منشور في مجلة كلية التربية / بابل ، العدد ، الثاني ، نيسان ، المجلد الأول ، ٢٠٠٨
٢. د. رافع خضر صالح ، مضمون انتهاك الدستور المنسوب لرئيس الدولة ، بحث منشور في مجلة كلية التربية / بابل ، المجلد الأول ، العلوم الإنسانية ، السنة السادسة - العدد الثاني ، ٢٠٠٨ .
٣. د. محمد علي سالم وإسماعيل نعمه عبود ، المسؤولية الجنائية لرئيس الجمهورية - بحث منشور في مجلة كلية التربية / بابل ، المجلد الأول ، العدد ٤ ، ٢٠٠٨

ثالثاً الرسائل الجامعية :

- ١- أولياء كاظم ، النظام القانوني للمحكمة الجنائية العراقية العليا ، دراسة مقارنة ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية القانون / جامعة بابل ، ٢٠٠٨ .

رابعاً: الدساتير

١. القانون الاساسي العراقي لسنة ١٩٢٥ .
٢. دستور ٢٩ ، نيسان ، ١٩٦٤ .
٣. دستور ٢١ ايلول لسنة ١٩٦٨ العراقي .
٤. مشروع دستور العراق لسنة ١٩٩٠ .
٥. قانون إدارة الدولة العراقية لسنة ٢٠٠٤ .
٦. دستور جمهورية العراق لسنة ٢٠٠٥ .
٧. الدستور الفرنسي لعام ١٩٥٨ .

٨. الدستور المصري لسنة ١٩٢٣.

٩. الدستور المصري لسنة ١٩٧١.

خامساً: القوانين

١. قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩ المعدل.

٢. قانون رقم (١٥٩) لسنة ١٩٦٨ العراقي.

٣. قانون المحكمة الاتحادية رقم (٣٠) لعام ٢٠٠٥.

٤. قانون محاكمة رئيس الجمهورية المصري رقم (٢٤٧) لسنة ١٩٥٦.

٥. قانون المحكمة الدستورية العليا في مصر رقم (٤٨) لسنة ١٩٧٩.

٦. قانون الإجراءات الجنائية المصري رقم (١٥٠) لسنة ١٩٥٠.

شعر الاستنهاض بالإمام الحجة (عجل الله فرجه)

عند أبي الحب الكبير

دراسة في المضمون الموضوعي

أ.د. عبود جودي عبود الحلبي^(١)
م.م. راوية محمد هادي حسون الكلش^(٢)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين أبي القاسم محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر المتحبين .
أما بعد

فان مدينة كربلاء تعد واحدة من المدن العربية الخالدة التي نبغت فيها طائفة كبيرة من رجال العلم والفكر والأدب ... ومن بين أولئك الرجال العظام الشاعر الشيخ محسن أبو الحب الكبير المتوفى سنة (١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م) ، والذي سخر جل موضوعاته الشعرية في خدمة قضية أهل بيت الرسالة ﷺ ، ومن بين تلك الموضوعات التي وظفها أبو الحب في ديوانه موضوع (شعر الاستنهاض بالإمام الحجة (عجل الله فرجه)) ؛ إذ أن رسوخ عقيدة الشاعر بالإمام المهدي ﷺ وما حل بأهل البيت النبوي ﷺ من ظلم وقمع وجور كانت من أهم الأسباب التي دفعته إلى الاستنهاض بالإمام الحجة ﷺ ، فضلا عن حالة الاضطهاد التي ألمت به وبمجتمعه من جراء سياسة الدولة العثمانية إبان القرن التاسع عشر ، إذ كانت هي الأخرى أيضا من الأسباب التي جعلته يتوجه بأنظاره صوب الإمام المهدي ﷺ .

وقد جاء البحث ليسلط الضوء على أبرز مضامين شعر الاستنهاض عند أبي الحب الكبير ، فقد قسم البحث على تمهيد ومحاور عدة ضم التمهيد في ثناياه مفهوم شعر الاستنهاض لغة واصطلاحا فيما ضمت محاور البحث مضامين شعر الاستنهاض بالإمام الحجة ﷺ عند أبي الحب الكبير والتي تمثلت في الآتي :

- الثأر للإمام الحسين ﷺ وأهل بيته الأطهار
- الشفاعة
- عرض مظلومية أهل البيت ﷺ للإمام المهدي (عج)

١- رئيس جامعة أهل البيت ﷺ

٢- كلية التربية ، جامعة كربلاء

وقد أعقبت تلك المحاور خاتمة ضمت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث .
وقد اعتمد البحث وبعد القرآن الكريم على مصادر عدة منها ديوان الشاعر وعدد من كتب الأدب والتاريخ والحديث والعقيدة فنأمل أن نكون قد اغترفنا منها ما يزيد البحث جلاءً وبشرية فكرياً .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين ...

التمهيد :

الاستنهاض من النهوض وهو لغة : البراح من الموضع والقيام عنه... واستنهاضه لأمر كذا إذا أمرته بالنهوض له.^(٣)

وفي الاصطلاح : هو من الموضوعات الشعرية التي ارتبطت بعقيدة الشعراء المسلمين في المهدي الموعود عليه السلام ، إذ يمثل في دعوتهم للإمام الحجة بن الحسن المهدي (عج) بالتعجيل في الظهور وإعلان الثورة على الظالمين الذين ظلموا النبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسبطه الحسين عليه السلام وأهل بيته الأطهار عليهم السلام والتنديد بهم والانتقام منهم وأن يحل القصاص العادل بهم ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.^(٤)
وشعر الاستنهاض من الموضوعات القديمة في الشعر العربي ، إذ تناوله الشعراء من العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث ، فكان الشعراء في الجاهلية يستنهضون زعيم القبيلة أو رئيسها لأخذ ثأر المقتولين ولمجابهة الخصم والرد عليه^(٥) ، وعندما انبثق الإسلام شعلة مضيئة في تأريخ العرب استمر هذا اللون من النظم غرضاً شعرياً ولجه شعراء العصر آنذاك وإلى يومنا ، ولكنه ارتبط بإيمانهم المتمثل بالدين الإسلامي وبالرسول محمد صلى الله عليه وآله وعقيدتهم بظهور المهدي المنتظر . على الرغم من أن الاعتقاد بظهور المهدي المنتظر يختلف عند المسلمين من طائفة لأخرى في تعيين شخصه وبعض صفاته ، فمثلاً كان اعتقاد المسلمين من أتباع أهل البيت عليهم السلام بـ (المهدي المنتظر) متمثلاً بـ (الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام) الإمام الثاني عشر من أئمتهم . وهذا الاعتقاد كان باعثاً لقول الشعر عند بعض الشعراء الذين عبروا عن اعتقادهم ودافعوا عنه في شعرهم^(٦) وقد كان لهذا الاعتقاد حضور سابق على ولادة الإمام المنتظر (عج) إذ إن المسلمين قد اعتمدوا في اعتقادهم هذا على القرآن الكريم أولاً إذ قال تعالى في ذلك : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)^(٧) . وقال تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)^(٨) . وقال تعالى أيضاً : (وَتَزِيدُ أَنْ كُنْ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ

(٣) ينظر : لسان العرب : مادة (نَهَضَ) .

(٤) ينظر : فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام : ٣٣٥/٢ ، بحار الأنوار : ٤٥/٥١ ، تطور الشعر العربي الحديث في العراق : ٢٦ ، ديوان الشيخ (محسن أبو الحب الكبير) دراسة في الموضوع الشعري ، د.علي كاظم المصلاوي ، وم. كريمة نوماس المدني ، مجلة جامعة أهل البيت (عليهم السلام) ، العدد السابع ، آذار ، ٢٠٠٩ : ٥٦ ، أثر البيئية في أدب المدن العراقية في القرن التاسع عشر : ٩١ وما بعدها .

(٥) ينظر : تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام : ٢٠٩ وما بعدها .

(٦) ينظر : المهدي المنتظر في الشعر العربي إلى نهاية العصر العباسي ، أحمد كاظم جواد ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠٠٧ : ١ وما بعدها .

(٧) سورة الأنبياء : الآية : ١٠٥ .

(٨) سورة النور : الآية : ٥٥ .

(٩) إذ يرى كثير من المسلمين أن هذه الآيات المباركة نزلت في حق المهدي المنتظر عليه السلام، وكما اعتمد المسلمون على أحاديث الرسول محمد صلى الله عليه وآله ثانياً إذا لا شك في أن من يبحث في كتب السنة النبوية يرى الكثير من الأحاديث النبوية قد جاءت في ذكر المهدي الذي بشر به الرسول صلى الله عليه وآله هذه الأمة إذ قال الرسول: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»^(١٠) وقال عليه السلام: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا، حتى يأتي قوم من المشرق معهم رايات سود، فيسألون الخير فلا يعطونه، فيقاتلون، فينصرون، فيعطون ما سألوا، فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملأوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم، فليأتهم ولو حبوا على الثلج»^(١١)، وغير ذلك الكثير من الأحاديث التي رويت عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله في حق الإمام المهدي المنتظر (عج).

وعلى الرغم من وجود هذه الأدلة القاطعة التي تؤكد فكرة المهدوية أي (ظهور المصلح في آخر الزمان) إلا أن في المسلمين من ينكر هذه المسألة، وقد أكد الرسول صلى الله عليه وآله على النهي عن إنكار ذلك بقوله: «من أنكر القائم من ولدي فقد أنكرني»^(١٢) وقوله أيضاً عليه السلام: «من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أنزل على محمد، ومن أنكر نزول عيسى فقد كفر، ومن أنكر خروج الدجال فقد كفر...»^(١٣)، حيث هناك بعض الأقوام أنكرت فكرة وجود المهدي (عج) ومنهم من زعم أنه قد مات وأن غيبته شيء غير طبيعي... لكن المسلمين من أتباع أهل البيت عليهم السلام الذين آمنوا بـ (الحجة بن الحسن المهدي) (عج) قد اعتقدوا أن غيبة الإمام المهدي (عج) أمر طبيعي؛ أسوة بكثير من الأنبياء والمرسلين الذين غابوا واستتروا عن أقوامهم، فهذا نبي الله موسى عليه السلام قد غاب عن قومه في مناجاة الله سبحانه وتعالى وعند ذلك رجع قومه عن طاعة الله سبحانه وتعالى وعبدوا العجل، وكذلك نبي الله يوسف عليه السلام وإدريس عليه السلام وصالح عليه السلام وكذا سليمان عليه السلام وكذلك نبينا محمد صلى الله عليه وآله حين غاب عن قومه وهو في الغار ثم ظهر بعد ذلك الاستتار...^(١٤)، وهذا يدل على أن للإمام المهدي (عج) شبه بالأنبياء، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «في القائم سنة من موسى، وسنة من يوسف، وسنة من عيسى وسنة من محمد صلى الله عليه وآله...»^(١٥).

وأما عن أسباب غيبة الإمام المهدي (عج) فإنها تتمثل في نجاته من الظلم أي «إخافة الظالمين له ومنعهم يده من التصرف فيما جعل إليه التصرف فيه...»^(١٦) إذ أن هذا الاختفاء تم عن طريق الإعجاز الإلهي من أجل حفظ الإمام المهدي (عج) من الموت والخطر لكي يقوم بالمسؤولية الكبرى في اليوم الموعود^(١٧) وفي هذا الشأن يقول أبو الحب رادا على من أنكر وجود الإمام المهدي (عج):^(١٨) (من الطويل)

لقد زعم الأقوام أنك لم تكن أو أنك ميت ضم جثتك القبر

(٩) سورة القصص: الآية: ٥.

(١٠) المستدرک علی الصحیحین: ٤/ ٤٨٩، وينظر الجامع الصحيح (سنن الترمذي): ٦١١.

(١١) سنن ابن ماجه: ٥٩٥.

(١٢) بحار الأنوار: ٤٥/٥١.

(١٣) فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام: ٣٣٤/٢.

(١٤) ينظر: منتخب الأنوار المضيئة: ٦٧ وما بعدها، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين: ٢٧٢، ٢٨١، ٣٨٧.

(١٥) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٨/١، وينظر المصدر نفسه: ٢٥/١ وما بعدها.

(١٦) موسوعة الإمام المهدي (عج) من المهد إلى يوم القيامة: ٧١/٦.

(١٧) ينظر: تاريخ الغيبة الكبرى: ٣٢/٢.

(١٨) الديوان: ٨٢.

وأنت الذي أحللت موسى محله ونال ولم يحدد حياة بك الخضر
وقد غاب نوح قبل ما غبت برهة من الدهر حتى آب والعذر الغدر
وغيبة عيسى لم تكن خوف قتله ولكنها سر وغيتك السر
فأبي عجيب في احتجابك في مدى على كل حال طال أو قصر الدهر
بلى عميت أبصار قوم فأنكروا وجودك حتى شاع بينهم النكر

وبذلك كانت عقيدة المسلمين من أتباع أهل البيت (عليه السلام) بالمهدي المنتظر (عج) عقيدة راسخة قوية، إذ كان رسوخ عقيدتهم من الأسباب التي جعلت شعراءهم يستنهضون الإمام الحجة (عج) ويطلبون تعجيل الفرج في ظهوره فضلاً عن مصارع أهل البيت (عليه السلام) وما حل بهم من ظلم وقمع وجور عدم الالتزام بشريعة الإسلام ومبادئه وسيطرة أعداء الإسلام على مقاليد السلطة، كانت أهم الأسباب التي جعلت الشعراء من أتباع أهل البيت (عليه السلام) يتوجهون إلى النظم في هذا الموضوع الشعري، إذ التجأ إليه الشعراء أملاً منهم في الخلاص من الظلم والقهر والجور... لا سيما أنهم كانوا على دراية مؤكدة بأن غيبة الإمام المهدي (عج) هي موضع فتنة ومحل اختبار.^(١٩)

ومن هؤلاء الشعراء الذين كتبوا في استنهاض الإمام المهدي (عج) الكميّ بن زيد الأسدي (ت ١٢٦ هـ) ^(٢٠)، وكذلك السيد الحميري (ت ١٧٣ هـ) ^(٢١)، والقاسم بن يوسف الكاتب (ت ٢١٣ هـ) ^(٢٢)، ودعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ) ^(٢٣) وغيرهم من الشعراء... ولكن أغلب ما قاله هؤلاء الشعراء كان مندرجا في مدح الأئمة (عليهم السلام) ورثائهم، أي أنهم لم يفرّدوا قصائد كاملة في استنهاض المهدي المنتظر (عليه السلام).^(٢٤) وعندما حل القرن التاسع عشر نرى أن أكثر الشعراء قد كتبوا في استنهاض الحجة (عج) وأفرّدوا قصائد بذاتها في المهدي المنتظر (عليه السلام) حتى أصبحت قصيدة الاستنهاض بـ (المهدي المنتظر (عج)) بمفاصلها البنائية غرضاً قائماً في ذلك العصر ^(٢٥) ولعل أهم الأسباب التي دفعت شاعر القرن التاسع عشر في العراق إلى الاستنهاض بالإمام المهدي (عليه السلام) وطلب تعجيل ظهوره هي عقيدة الشاعر بالإمام المهدي (عج) أولاً، فضلاً عن حالة الاضطهاد التي ألمت به خاصة وبمجتمعه عامة من جراء سياسة الدولة العثمانية ^(٢٦) إذ عبر هذا

(١٩) ينظر: منتخب الأنوار المضيئة : ٨٢.

(٢٠) هو الكميّ بن زيد بن الأخنس، شاعر أموي مقدم، عالم بلغات العرب، خبير بأيامها، من شعراء مضر وألستها، والمتعصبين على القحطانية، العلماء بالمثالب عاش أيام بني أمية ولم يدرك الدولة العباسية ومات قبلها. ينظر: الأغاني : ٣/١٧، الشعر والشعراء : ٤٢٠، ديوان الكميّ بن زيد الأسدي : ٧، شعر الكميّ بن زيد الأسدي : ٤٥/٣.

(٢١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، لقبه السيد وكنيته أبو هاشم ولد سنة ١٠٥ هـ بالبصرة وهو من أشهر أدباء وشعراء العرب ومن أجل شعراء أهل البيت (عليهم السلام)... الأغاني : ٢٤٨/٧، مشاهير شعراء الشيعة : ١٩٠/١، ديوان السيد الحميري : ١٤٨.

(٢٢) القاسم بن يوسف بن صبح مولى بن عجل من قرية من قرى الكوفة، شاعر عباسي أخوه يوسف الكاتب وزير المأمون، كان موالياً لآل البيت (عليهم السلام) وأحد متكلميهم وشعرائهم توفي سنة (٢١٣ هـ). ينظر: مختصر أخبار شعراء الشيعة : ١٠٩.

(٢٣) هو دعبل بن علي بن رزين بن سليمان ويكنى أبا علي، أحد الشعراء المجيدين في العصر العباسي إلا أنه كان هجاء لم يسلم منه أحد من الخلفاء والوزراء ولا أولادهم، ينظر: الأغاني : ١٣١/٢٠، ديوان دعبل بن علي الخزاعي : ١٤٣.

(٢٤) ينظر: المهدي المنتظر في الشعر العربي إلى نهاية العصر العباسي، (رسالة ماجستير) : ٦١.

(٢٥) ينظر: ديوان (الشيخ محسن أبو الحب الكبير)، دراسة في الموضوع الشعري، د.علي كاظم المصلاوي، وم. كريمة نوماش المدني، مجلة جامعة أهل البيت (عليهم السلام)، العدد السابع، آذار، ٢٠٠٩ : ٥٧.

(٢٦) ينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث : ٢٠/١.

الاستنهاض عن رغبة مكبوتة في داخله تمثلت في رفضه التام للواقع السياسي الذي عانى منه وكذلك مثل هذا الاستنهاض تنفساً عن معاناته النفسية وتعبيراً عن رفضه للسلطة آنذاك.^(٢٧) وعليه فإن الدافع لهذا الفن عند شاعر القرن التاسع عشر هي «حالة إحساسه الحاد بالواقع، واقعه النفسي الذي يوجع بالوان الصراع... وعندئذ يكون الدافع إلى الإبداع هي الرغبة الحقيقة في التخلص من هذا الواقع».^(٢٨)

وقد كان الشاعر محسن أبو الحب بارعاً في هذا المجال عندما تناول هذا الموضوع شأنه شأن شعراء عصره أمثال السيد حيدر الحلبي^(٢٩) وغيره من الشعراء، إذ أفرد قصائد كاملة في استنهاض المهدي (عج) فضلاً عن القصائد التي نظمت في مواضيع أخرى ولكنه ختمها باستنهاض المهدي (عج)، ولعل الأسباب التي دفعت الشاعر إلى النظم في هذا الغرض هي الأسباب نفسها التي دفعت شاعر القرن التاسع عشر بوجه عام.

مضامين شعر الاستنهاض عند أبي الحب الكبير:

- الثائر للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الأطهار،
والثأر في اللغة: هو الطلب بالدم وقيل الدم نفسه^(٣٠)، وهو: من القيم الأخلاقية والاجتماعية التي عرفها العربي والتي فرضتها عليه طبيعة الحياة آنذاك إذ أصبح ضرورة اجتماعية لا يمكن تجاهلها بحكم الحروب والأحداث التي مرت عليه، إذ جعلت الثأر عند العرب مبدءاً من مبادئهم وقانوناً من قوانينهم، وأن الأخذ به دليل على الشجاعة وتركه دليل على الضعف والاستهانة بالقبيلة والفرد معا حتى يصبح هدفاً لمن شاء من الأعداء^(٣١).

وقد تناول الشعراء على مختلف العصور الثأر في أشعارهم حاولوا من خلاله تحريض الآخرين على الأخذ به، إذ كانوا يعتقدون أن روح القتيل لا تهدأ إلا بالثأر لدمه والاقتصاص من قاتليه إذ كانوا يقولون في ذلك:^(٣٢)

البس لكل حالة لبوسها إنا نعيمها وإنا بؤسها

وعندما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم الذي يعد دستوراً قلب حياة العرب، استبدل الثأر بالقصاص إذ قال تعالى في ذلك: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَتْلُ فِي الْقَتْلَى) (٣٣) وقال تعالى أيضاً: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (٣٤) وقد أراد الله سبحانه وتعالى من ذلك حماية النفس البشرية من القتل وإراقة الدماء، ولقد كان لمصائب أهل البيت عليهم السلام وما حل بهم من مأساة جعلت المسلمين يرغبون في أن ينهض من يطلب بثأرهم وينتقم لهم ويقتص من أعدائهم حتى صار الطلب بثأر الحسين عليه السلام

(٢٧) الشعر العراقي في القرن التاسع عشر أهدافه وخصائصه: ٧٧، تطور الشعر العربي الحديث في العراق: ٢٨، ديوان الشيخ (محسن أبو الحب الكبير)، دراسة في الموضوع الشعري، د.علي كاظم المصلاوي، وم. كريمة نوماس المدني، مجلة جامعة أهل البيت (عليهم السلام)، العدد السابع، آذار، ٢٠٠٩: ٥٧.

(٢٨) التفسير النفسي للأدب: ٣٧، وينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق: ٣٤.

(٢٩) ديوان السيد حيدر الحلبي ينظر: على سبيل المثال لا الحصر: ٤٧/١، ٦٥/١، ٧٣/١، ٨٨/١، ١١١/١...

(٣٠) ينظر: لسان العرب، مادة: (ثأر).

(٣١) ينظر: الفروسية في الشعر الجاهلي: ١١٢.

(٣٢) ينظر: نهاية الإرب في فنون الأدب: ١٢/٣، كتاب الأمالي: ١٢٨/١ - ١٢٩.

(٣٣) سورة البقرة: الآية: ١٧٨.

(٣٤) سورة البقرة: الآية: ١٧٩.

شعر الاستنهاض بالإمام الحجة (عجل الله فرجه) عند أبي الحب الكبير (دراسة في المضمون الموضوعي) شعاعاً لبعض الحركات السياسية^(٣٥)، فكان في نفوس المطالبين بثأر الإمام الحسين عليه السلام أمل كبير في الانتقام من أعداء أهل البيت عليه السلام ولما كانت عقيدتهم بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام راحوا يستنهضونه لأخذ ثأر أهل البيت عليه السلام وذلك لأن من صفاته عليه السلام بأنه هو القائم أي «الطالب بالثأر ثأر أهل البيت عليه السلام وبالأخص ثأر الإمام الحسين عليه السلام...»^(٣٦)، وقد جسد الشعراء هذا الاستنهاض بالإمام المهدي عليه السلام من أجل الأخذ بالثأر في أشعارهم وكان محسن أبو الحب واحداً من هؤلاء الشعراء الذين طالبوا بالقصاص من أعداء أهل البيت عليه السلام... وعلى الرغم من توالي المصائب والنكبات على أهل البيت عليه السلام وأتباع مدرستهم إلا أن ما حل بالإمام الحسين عليه السلام وأسرته وأنصاره في كربلاء كان بحق الفاجعة الأليمة التي علقت في أذهان البشرية على مر العصور، فكان الحدث الحسيني حاضراً في ذهن أبي الحب لم يغيب عن باله، فلذلك نراه يطالب بالثأر قائلاً: ^(٣٧) (من الطويل)

متى تدرك الثأر الذي أنت طالبة متى تملك الأمر الذي أنت صاحبة
لقد ملأ الدنيا سناك ولم يلح لعيني يوماً من جبينك ثاقبة

فالدلالة النفسية لهذا النص تكشف عن رغبة الشاعر في الانتقام من أعداء أهل البيت عليه السلام لذلك راح يستنهض الإمام المهدي (عج) ويطلب منه التعجيل في الظهور من أجل الأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الأطهار عليه السلام... ومن ثم يتساءل في أبيات أخرى عن قيام المهدي (عج) إذ يرى أن انتظاره قد أودى بالقلوب فيقول في ذلك: ^(٣٨) (من الطويل)

متى الخيل يعلو للسماء غبارها متى الحرب يومي للنجوم شرارها
متى تلبس البيض الرقاق مطارفاً من الدم غاد بالعيون احمرارها
متى تطلع الشمس التي طال مكثها احتجاباً وأودى بالقلوب انتظارها
متى تخفق الرايات فوق أشاوس ألا يا لثارات الحسين شعارها

فالملاحظ من خلال هذا النص أن الشاعر يجد في غياب الإمام المهدي عليه السلام شمساً قد طال غيابها ويتمنى أن تقوم الثورة المهدوية وتخفق الرايات على رؤوس المسلمين وذلك لتحقيق النصر والانتقام من أعداء أهل البيت عليه السلام وبذلك ينصر الله إمام الحق عليه السلام.

ويخاطب الشاعر في أبيات أخرى سيف الإمام المنتظر عليه السلام معاتباً إياه، فيقول: ^(٣٩) (من الخفيف)
أيها الصارم الذي لم يبارح غمده طالما انتظارك طالاً
أنت والله منعش الحي بعد الـ موت أو مهلك العدى استئصالاً

(٣٥) ينظر: الكامل في التاريخ: ٤ / ١٥٨ وما بعدها، الإمام المهدي (عج) في كتب الأمم السابقة وعند المسلمين: ٣٠٩.
(٣٦) موسوعة بقية الله الأعظم الإمام المهدي (عج) المصلح الرباني وصانع العالم الجديد: ٣٦٥ / ٢.
(٣٧) الديوان: ٥٢.
(٣٨) الديوان: ٨٠.
(٣٩) الديوان: ١٢٢.

فالشاعر في هذا النص يعاتب سيف الإمام المهدي عليه السلام ؛ وذلك لأنه لم يبارح غمده ويأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام فالشاعر يرى في ظهور الإمام المهدي عليه السلام (عج) إعادة الروح للجسد الإسلامي بعد أن أعياه الظلم والانحراف ، ويرى فيه كذلك استئصالاً لهؤلاء الأعداء الذين ظلموا سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وآل بيته الأطهار .

وبلغ الشاعر من شدة شوقه للفوز برؤية يوم تحقيق العدالة الإلهية أنه تمنى أن يدرك اليوم الذي يخفق فيه علم ثورة إسلامية تنتقم من الظالمين وتثأر للمظلومين وتعمل على سيادة العدل الذي نادى به شريعة الإسلام إذ يقول في ذلك :^(٤٠) (من الكامل)

أذنت ثوابت عزها بزوال	ما حاجتي في هذه الدنيا وقد
فيه بلوغ مطالب الآمال	لولا انتظاري يوم ثأرهم الذي
حاولت من نصرهم وشمالي	يا رب إن قصرت يميني دون ما
ان لا يفوز بمثلها أمثالي	فاجعل نصيبي بعدما أنا خائف
تلهو الأسود بها عن الأشبال	مع ثائر لهم يثور بعصبة
فيها إلى أمد الزمان وصالي	حرى القلوب لثأر قتلى لم تنخ

وفي أبيات أخرى من قصيدة الاستنهاض نرى الشاعر يتمنى لو سلَّ الإمام المهدي عليه السلام سيف الجهاد لينتقم من الظالمين الذين اعتدوا على النبي صلى الله عليه وآله عندما سفكوا دماء أهل بيته عليه السلام وهو في ذلك يقول على لسانه :^(٤١) (من الخفيف)

ساعة أو يقال جزّ جزور	قم لها عاجلاً فما هي إلا
في عراض الطفوف هل من مجر	ليتني كنت شاهداً يوم يدعو
اليوم كأس الردى بغير مدير	لست من هاشم إذا لم أذقها
من دماء الكمأة مثل البحور	لست من هاشم إذا لم أدها
عنهم لا ومن إليه مصيري	قتلوا أهلي الكرام وأعفو
منهم ما اشتفى بذاك ضميري	لو ملئت السماء والأرض قتلى
فوق ما قد رأيت من نكير	نههوا عن ملاكم إن ثاري

ومن ثم يبين الشاعر في أبيات أخرى موقف السيدة زينب عليها السلام وهي لا تجد ما يهون عليها وقع فاجعة الطف على نفسها ويشفي غليلها سوى صليل السيوف وظهور المهدي المنتظر عليه السلام الذي يأخذ بثأر أخيها الحسين عليه السلام إذ عبر الشاعر عن ذلك قائلاً :^(٤٢) (من الوافر)

(٤٠) الديوان : ١٣٤ .

(٤١) الديوان : ٩٢ .

فلا والله لا يشفي غليلي سوى قرع الحسام على الحسام
يوم تزعق الأملاك فيه ألا ظهر الكريم ابن الكرام
طلوب الثأر ليس لها ولي سواك فقم بسيف الانتقام
على الدنيا العفاء إذا تشقت بكم أكباد أبناء الطغام

فيجسد الشاعر في هذه الأبيات زينب (عليها السلام) وهي تجدد الأمل في نفسها وترى أن دفع الشامتين بالرسول محمد ﷺ والانتقام منهم لا يكون إلا بقيام المهدي (عج).

ونعى الشاعر في أبيات أخرى على بني هاشم طول صبرهم على ما عملته الحكومات المعاقبة من

إفصائهم وقتلهم ونشريدهم فيقول أبو الحب مخاطباً إياهم: ^(٤١) (من الطويل)

ولله ثار قد أضيع مثاره فهل ثائر يرجى لثأر مضيع
وإن تدعوها يالهاشم فانهضوا ولألا اسكتوا لا يدعي بعد مدع
فلو كنتم أكفاء يوم طلابها لشرتم إليها مسرعا لثمر مسرع
لقد كنتم من أمنع الناس جانبا وأحماهم إن ذل صعب التمتع
فما بالكم أصبحتم بعد عزكم تهب عليكم كل نكباء زعزع
تذودكم عن موطن لثمر موطن وتقذفكم في بلقع بعد بلقع
ويا عجبا كيف استطعتم تصبرا وتهجع منكم أعين غير هجع
حرىكم بين اللثام صوارخ وأنتم بمرأى من حماها ومسمع
رضيتم وأنتم أعظم الناس غيرة تسير أسارى فوق أكوار ضلع

كما توجه الشاعر مخاطباً بني هاشم، فإنه توجه كذلك إلى بني أمية وغيرهم من الظالمين محذراً إياهم من عواقب ظلمهم لآل البيت ﷺ فيقول في ذلك: ^(٤٢) (من الطويل)

ألا فاستعدي يالك الويل وارقبني طلائع رايات الهدى وتطلعي
فإن لها يوماً عظيماً لقاءه على كل مرهوب اللقاء سميع
يثير به نفع الملاحم للسما أخو عزمات ليس بالمتضعع

(٤٢) الديوان : ١٤١ .

(٤٣) الديوان : ١٠٠ .

(٤٤) الديوان : ١٠٠ .

هنالك يسمو طائلاً رأساً خاضع ويشمخ منه عاطساً أنف أجده

ـ الشفاعة :

الشفاعة في اللغة : الدعاء ، والشفاعة : كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره.^(٤٥) وفي الإصطلاح : «هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه».^(٤٦) ويعد مبدأ الشفاعة من المحاور الموضوعية التي تضمنتها قصيدة الاستنهاض عند أبي الحب ، فكان في أكثر قصائده التي كتبها في الاستنهاض يهتمها بطلب الغفران والشفاعة من آل النبي ﷺ والتوسل بهم ومناجاتهم ، لما لهم من مكانة سامية عند المسلمين ، إذ أنهم امتداد طبيعي للرسول محمد ﷺ فضلاً عن وجاهتهم عند الله سبحانه وتعالى بوصفهم الطريق الأمثل للخلاص من ذنوب الدنيا ، فيعترف الشاعر في هذا الجزء من قصيدة الاستنهاض بتقصيره في أداء واجباته الدينية والدنيوية ، ويذكر عيوبه وزلاته المشينة وكثرة ذنوبه في الدنيا ، مناجياً أهل البيت ﷺ بصدق وخوف مستعطفاً إليهم طالباً منهم التوبة والمغفرة ، طامعاً في وساطتهم وشفاعتهم عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وبذلك تكون غاية الاستنهاض بالإمام المهدي (عج) غاية تكفيرية للذنوب والتقصير في حق الدين والدنيا ، وتكون هذه الغاية مصحوبة بإحساس الندم وطلب التوبة.

ولم يكن الشاعر محسن أبو الحب وحده من الشعراء الذين اختتموا قصائدهم بطلب الشفاعة والاعتراف بالذنوب ، فهناك كثير من الشعراء قد اختتموا قصائدهم بالاعتراف بالذنوب وطلب الشفاعة من النبي وآله ﷺ^(٤٧) ، وبذلك نرى أبا الحب يستعطف الإمام المهدي ﷺ ويطلب الشفاعة منه فيقول :^(٤٨) (من الوافر)

أنا العبد الذي طوّقتموه	من الإحسان أطواقاً جساماً
أسمى محسناً بكم وإنّي	لشرّ الناس للذنوب اجتراماً
فخذ بيدي فقد ثقلت ذنوبي	عليّ فلم أطق منها القياماً
وكن لي ملجأ من كلّ خطبٍ	وكن لي من يد البلوى عصاماً
وكن بي راضياً في الحشر عبداً	فإني قد رضيتك لي إماماً

فالشاعر في هذا النص قد رسم صورة له وهو بين يدي الله سبحانه وتعالى في يوم القيامة ، وهو كثير الذنوب والعيوب الدنيوية ، حيث ضاقت به السبل ولا مفر له من حساب الله جل وعلا... وفجأة تكون ثمة كوة أمل تتمثل بمجيء الشفيع - الإمام المهدي (عج) - لينقذ من استشفع به ويكون له وسيطاً عند الله سبحانه وتعالى ، فيظفر الشاعر بما كان يأمله عند الإمام المهدي ﷺ .

ويبدو من خلال استقراء هذه الأبيات أن أبا الحب كان مطلعاً على قصيدة البوصيري المسماة بـ «البردة»^(٤٩) ، والتي عارضها أحمد شوقي ، في قصيدته المسماة بـ «نهج البردة»^(٥٠) ؛ وذلك من حيث طبيعة

(٤٥) ينظر : لسان العرب : مادة «شَفَعَ» .

(٤٦) كتاب التعريفات : ٩٢ .

(٤٧) ينظر : المهدي المنتظر في الشعر العربي إلى نهاية العصر العباسي ، رسالة ماجستير : ٦٧ .

(٤٨) الديوان : ١٣٨ .

(٤٩) ينظر : ديوان البوصيري : ٤١٩ .

شعر الاستنهاض بالإمام الحجة (عجل الله فرجه) عند أبي الحب الكبير (دراسة في المضمون الموضوعي)
الغرض والعناصر الإيقاعية المتمثلة في القافية وهي قافية (الميم) التي تعد قافية صالحة وطبعة لرصد التجربة
الشعرية الروحانية^(٥١)، وهذا الأمر إن دل على شيء إنما يدل على سعة اطلاع الشاعر لنتاج من سبقه من
الشعراء، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن أبا الحب كان محاكياً ومقلداً لنماذج شعرية سابقة في بعض
الأحيان.

وفي هذا الشأن أيضاً يقول أبو الحب: ^(٥٢) (من البسيط)

يا أطيب الناس من عجم ومن	وأنجب الناس من عرب ومن عجم
وأفأك عبدك لم تنفق بضاعته	ألا عليك ولم تعرض ولم تسم
إن كنت تقبلها فضلاً فأنت له	أهلاً وإلا فيا ويلي ويا ندمي
وإن وهبت فهبني ما أوئله	في النشأتين ففبك اليوم معتصمي

فلنحظ أيضاً من خلال هذه الأبيات أن ملازمة الشاعر لطلب الشفاعة في قصيدة الاستنهاض دليل
واضح على إيمانه بشفاعة المهدي (عج) إذ أن للإمام المهدي منزلة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى ذلك
أنه (عج) من نسل حبيبه المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا ما جعل الشاعر يؤمل في شفاعته.
وبذلك تكون الشفاعة من أهم المحاور الموضوعية التي تضمنتها قصيدة الاستنهاض في ديوان أبي الحب.

- عرض مظلومية أهل البيت (عليه السلام) على الإمام المهدي (عج):

أما المحور الثالث الذي وظفه الشاعر في قصيدة الاستنهاض بالإمام المهدي (عج) هو عرض مظلومية
أهل البيت (عليه السلام) للإمام المهدي ليكون ذلك مدعاة لخروجه والتعجيل في ظهوره، إذ راح الشاعر يبين
للإمام (عج) ما حل بالحسين (عليه السلام) وأهل بيته الطيبين الطاهرين، فبعد أن تتلاطم الأمواج النفسية لدى
الشاعر من جراء ما يعانيه هو ومجتمعه، نراه يلجأ إلى الإمام المهدي (عج) عارضاً عليه مصائب أهل
البيت (عليه السلام)؛ وذلك لتهوين معاناته ومأساة مجتمعه وبذلك «تجسد في الفنان المبدع همومه وهموم عصره،
ويستقطب قلباً إنسانياً، فيتفاعل في داخله قلقه الذاتي وقلق مجتمعه وأتمه وقلق إنساني عام»^(٥٣).
فترى الشاعر يخاطب الإمام المهدي (عج) ويذكره بمصائب آبائه فيقول: ^(٥٤) (من البسيط)

دع عنك ما نشتكه من مصائبنا	واذكر مصابك في آبائك الصيد
التاركي مقل العلياء ساخنة	حتى القيامة لم تمسس بتبريد
والجاعلين بيوم الروع أدرعهم	نحورهم بدلاً عن نسج داود
باتوا بجرعاء وادي الطف تندبهم	جن الوعور وكل الوحوش في البيد

(٥٠) ينظر: الشوقيات: ٢٣٧/١.

(٥١) ينظر: بناء القصيدة العربية في العصر المملوكي (البنية الاحالية)، د. يوسف أحمد إسماعيل، حوليات الآداب والعلوم
الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية الخامسة والعشرون، الرسالة ٢٢٠، ٢٠٠٥ م: ٩٢ وما بعدها.

(٥٢) الديوان: ١٥٣.

(٥٣) الإبداع في الفن: ٦٦.

(٥٤) الديوان: ٦٦.

قتلا كأنهم لم يظفروا بمنى
رامورضا الله في إلتلاف أنفسهم
تظما البسيط فتروى من دمائكم
تراك تنسى دماء أنت طالبتها
وإن شخصا رسول الله والده
لم يكفهم قتله عن وطئ جثته
ألقي عليك رسول الله هيبته
لم ينتظر جدك الهادي لنصرته
نصر من الله أو فتح يقرب به
على سواك لواه غير معقود
فجردوها له في أي تجريد
فليس تنبت شيئا غير منكود
راحت هباء يوم غير معهود
ما باله بات شلوا غير ملحود
بالعاديات ألا حرقتي زيدي
فكنت وارثه يا خير مولود
إلا حسامك فالخطه بتجريد
على سواك لواه غير معقود

فالملاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يُذكر الإمام المهدي (عج) بمصائب آبائه ويعرض عليه ما حلَّ بهم لعل ذلك يكون سببا في تعجيله بالظهور وإعلان الثورة على الظالمين في كل بقعة من بقاع الأرض. ومن ثم نرى الشاعر في أبيات أخرى يخاطب المهدي عليه السلام قاصدا عليه أنباء ما جرى في كربلاء وما حل بالحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في فاجعة الطف الأليمة فيقول: ^(٥٥) (من الطويل)

أقص عليك اليوم أخبار ما جرى
وأنت الذي لم يعد عن علمك الذر
لمن أعين سالت نجيعا بكربلا
زمانا وجفت ثم ساعدها القطر
لمن جثث فوق الرمول تلاعبت
عليها عوادي الخيل لا جازها العقر
لمن أروؤس في كل مجلس ريبة
تلذ لمراها لشاربها الخمر

فالشاعر في هذا النص يبين للمهدي المنتظر عليه السلام ما حلَّ بأهل البيت عليه السلام في كربلاء حيث تلاعبت خيول الأعادي فوق أجساد أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وكيف تهادوا رؤوسهم الطاهرة في المجالس التي يحلو لهم شرب الخمر فيها ، ونرى الشاعر أيضا يكرر أسلوب الاستفهام مرات عدة في هذا النص ذلك لكي يعبر من خلاله عن مرارة الحزن والأسى في داخله على مصاب سيد الشهداء عليه السلام لعل ذلك يكون سببا في تعجيله بالظهور.

ويؤكد الشاعر للإمام المنتظر (عج) أن جلَّ مصائبنا وما جرى علينا من أحداث أليمة وعظيمة لا تماثل مصائب أهل البيت عليه السلام وما جرى عليهم فلا مصيبة أعظم من مصابهم ولا فاجعة أشد من فاجعتهم فيقول في ذلك واصفا أحوالهم عليه السلام: ^(٥٦) (من البسيط)

(٥٥) الديوان: ٨٢.

(٥٦) ينظر: مقتل الحسن والحسين: ١٠٣.

(٥٧) الديوان: ٥٦.

مولاي كل رزاينا وإن عظمت أدنى رزاياكم في الدهر أصعبها
نفسى فداء جسوم بالعرا نبذت أيدي السلاهب في الرمضاء تقلبها
وأرؤس كبدور الستم ترفعها على الرماح وبالأحجار تضر بها
ونسوة بعد هتك الستر مؤسرة العلج يسلبها والله يحجبها
تبكي لها أعين الأملاك من جزع والجن تحت طباق الأرض تندبها
ذا بعض ما نالكم فانهض فذاك أبي كل الرزايا بكم ينجاب غيبها

وينادي الشاعر في جوانب أخرى من قصيدة الاستنهاض الإمام المهدي (عج) طالباً منه التعجيل في الظهور، وذلك لأن غيبته الطويلة قد أدت بالمسلمين إلى الهلاك مجسداً له حال أهله (عليه السلام) وما جرى بهم في أرض الطف فيقول: ^(٥٨) (من البسيط)

يا أيها الملك المحجوب أنت لها لقد هلكنا انتظاراً فاكفنا الهلعا
هذا أبوك أتسى يوم مصرعه وصنع شمر به يا جل ما صنعا
وذا أخوك وذا سهم ابن مرة قد أودى به ليته في مهجتي وقعا
وذاك عمك حول النهر جثته كالطود أصبح من أرجائه انقطعا
وتلك عمتك الحوراء تحملها مصاعباً تشتكي مع هزلها الضلعا
وذا عليك أمسى وهو مرتهن يشكو إلى الله مع أغلاله الوجعا

ويخاطب الشاعر الإمام المهدي (عليه السلام) أيضاً مبدياً له تلهفه ليوم ظهور الحق الذي عقد عليه آماله وعارضاً عليه مصائب أهل بيته الأطهار (عليهم السلام) إذ يقول في ذلك: ^(٥٩) (من الكامل)

يا أيها الملك المحجب وثبة يعنولها بالذل كل حرون
أترى سواك اليوم راتق فتقها هيهات ليس سواك بالمأمون
ذهب الحسين بطخية لن تنكشف إلا بضوء حسامك المسنون
خشعت له حتى السباع قلوبها وترقرقت حتى العيون العين
غضب الإله لعقر ناقة صالح حتى أذاقهم عذاب الهون
وابن النبي رضيعه في حجره رضع السهام بنحره المطعون

(٥٨) الديوان: ١٠٧.

(٥٩) الديوان: ١٦٨.

ولقد خشيت بأن تزور منيتي قبل انتصاركم بني ياسين
لا خير في عمر الفتى ما لم يكن يفنى بنصرة صاحب وخدين
هي بغية لو أنني أدركتها لعلمت أنني لست بالمغبون

ويبدو واضحاً من خلال استقراء هذا النص أن الشاعر كان يتمنى أن يبقى على قيد الحياة حتى يظهر الإمام الحجة (عج) وذلك لكي يكون من أنصاره وأعوانه والمطالبين بحق الحسين وأهل بيته (عليه السلام) الذين اغتصب حقهم بليلة ظلماء لن تنكشف إلا بوميض سيف المنتظر (عليه السلام) عند ظهوره.

- رفض الشاعر للواقع السياسي:

لطالما كان الشاعر إنساناً فناناً إلا أن شأنه شأن غيره من الناس من حيث رغباته وحاجاته النفسية المتمثلة في حاجته إلى الاستقرار والسلام والحرية... لذلك فإن مثل هذه الحاجات التي يرنو الشاعر إليها لا يمكن أن تتحقق في ظل مجتمع تحيط به الأعداء من كل الجوانب، وعليه فإن الشاعر لم يجد ما يهون عليه مأساته ومأساة مجتمعه سوى اللجوء إلى المهدي المنتظر (عج) واللجوء به... لذلك راح الشاعر يصرخ بغضب ونقمة معبراً عن سخطه على دولة أهدرت كرامة الإنسان العربي المسلم^(٦٠)، إذ عبر الشاعر عن رفضه للواقع السياسي المنحرف والظالم رفضاً قاطعاً، وبهذا فإن رفض الشاعر للواقع السياسي مثل أحد المحاور الموضوعية التي تضمنتها قصيدة الاستنهاض بالإمام الحجة (عج) إذ نجد الشاعر يث حزنه وشكايته من جراء هذا الواقع الأليم إلى الإمام (عليه السلام) معبراً عن سخطه من سياسة الحكام الجائرين الذين يتحكمون في الناس وأحوالهم من دون حق إذ يقول في ذلك: (من الطويل)

أفي كل يوم فاجر أو ابن فاجر يحكم فينا باديات معايه
تروح بك الدنيا وتغدو منيرة ويملكها من ليس تحفى مثالبه

فالشاعر في هذين البيتين يؤكد أن كل من تسلّم الحكم لا يستحقه، ذلك لأنه حكم بغير ما في كتاب الله سبحانه وتعالى ولا في سنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم).^(٦٢) ويخاطب الشاعر الإمام المهدي (عليه السلام) أيضاً مبيناً له مدى الظلم والجور والاضطهاد الذي حل بالمسلمين، فيقول في ذلك: (من البسيط)

يا قانع الشرك ماذا أنت مرتقب أحيا الزمان لنا أديان نمرو
طغت علينا بحار الجور زاخرة حتى كأنك فينا غير موجود
والله لو لم تكن في الأرض جبالها ولساخت بعد تمهيد
١٤:٧ ٣٠

(٦٠) ينظر: الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر: ٢٩.

(٦١) الديوان: ٥٢.

(٦٢) ينظر: تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني: ١٣٩.

(٦٣) الديوان: ٦٦.

لولا طلائع نصر منك نرقبها ما بات منا فؤاد غير مكمود

لكننا كل ما اشتد الزمان بنا نرنو بطرف إلى عليك ممدود

فالشاعر في هذه الأبيات يصف المهدي المنتظر (عج) بـ «قامع الشرك» ومن ثم يسأله عن سبب تأخير ظهوره إلى هذا الوقت، ويصف له حال المسلمين بعدما أعاد الزمان الظلم والجور والقهر الذي كان في عهد نمرود عند نبوة إبراهيم عليه السلام، وبين له أن هذا الظلم والجور قد بلغ حده ولا يمكن السكوت عليه، ولكن إيمان المسلمين بوجود الإمام المهدي (عج) أن يقو متفائلين مستبشرين بغد مشرق يسود فيه العدل وتجتث فيه أصول الظالمين؛ ذلك لأن الأرض لا يمكن أن تخلو من حجة ولو خلت لانخسفت بأهلها، إذ قال الإمام الباقر عليه السلام: «ما خلت الدنيا - منذ خلق الله السموات والأرض من إمام عدل إلى أن تقوم الساعة حجة لله فيها على خلقه»^(٦٤).

وفي أجزاء أخرى من قصيدة الاستنهاض نرى الشاعر يستغيث بالإمام الحجة (عج) متسائلاً عن وقت ظهوره وطالباً منه التعجيل في هذا الظهور، إذ يقول في ذلك: ^(٦٥) (من الوافر)

متى يا أيها المحجوب عنا تزيل بضوء طلعتك الظلما

أغتنا بالذي سواك شرعاً فقد بلغ العدو بنا المراما

أما وأبيك لا يرضى وترضى إذا ما قمت منتضياً حساما

طغت حتى الكلاب الجرب لما أطلت فداك أنفسنا المقاما

لقد شابت نواصينا انتظارا ولم نشدد لنصركم حزاما

فمن خلال هذا النص تبين أن شعر الاستنهاض قد حفل بمعان سياسية رافضة للجور والظلم، وذلك حين جعل الشاعر ينعته بالكلاب الجرب داعياً إلى مناهضة السلطة آنذاك.. فكان لدى الشعراء آنذاك صوت عال للمطالبة بالحرية والثورة، إذ كان الألم والوقعية سبباً في لجوء الشعراء للإمام المهدي (عج) وطلب الإغاثة منه والتعجيل في ظهوره.^(٦٦)

ونرى الشاعر في أبيات أخرى يث شكايته إلى الله سبحانه وتعالى من جراء فقد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وغيبة الإمام المنتظر (عج) التي يضيق لها الصدر، فضلاً عن إحاطة الأعداء بالمسلمين من كل الجوانب، فيقول في ذلك: ^(٦٧) (من الطويل)

إلى الله نشكو اليوم فقد نبينا وغيتك اللاتي يضيق لها الصدر

عسى الله بعد اليوم يبدل عسرنا بيسرك إن العسر يعقبه اليسر

أحاطت بنا الأعداء من كل جانب ولا وزر ناوي إليه ولا لزر

(٦٤) الإمامة والتبصرة من الحيرة: ٢٥.

(٦٥) الديوان: ١٣٨.

(٦٦) ينظر: الشعر العراقي خصائصه وأهدافه في القرن التاسع عشر: ٢٩.

(٦٧) الديوان: ٨٢.

مللنا وملتنا بطول قراعها فحتى متى نحن القطا وهم الصقر

فالشاعر في هذا النص نراه يشكو إلى الله سبحانه وتعالى فَقَدْ النبي ﷺ وغيبة الإمام المهدي (عج) وقد وظف الشاعر فقرة من دعاء الافتتاح في خدمة نصه الشعري: «اللهم إنا نشكو إليك فقد نبينا صلواتك عليه وآله وغيبة ولينا وكثرة عدونا وقلة عددنا وشدة الفتن بنا...»^(٦٨) فضلاً عن توظيفه للآية الكريمة (فَلْيَنْمَعْ الْمُسْرِيَّاهُ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)^(٦٩) وبذلك استطاع الشاعر ومن خلال ثقافته الدينية أن يقدم لنا صورة حيّة لطبيعة الأحداث السياسية في عصره، إذ كان سعي الشاعر إلى مجتمع حر لا عبودية فيه ولا ظلم سبباً في بث شكايته إلى الله سبحانه وتعالى.

وبذلك فإن شعر الاستنهاض بالإمام المهدي يُعد من أهم الموضوعات التي تناولها الشاعر محسن أبو الحب في ديوانه؛ ذلك أنه موضوع يتناسب مع طبيعة الأحداث السياسية والاجتماعية التي عاشها الشاعر آنذاك فكانت «تعبيراً عن صرخة سياسية عقائدية في إطار ذاتي نفسي».^(٧٠)

الخلاصة

- فمن خلال مسيرة البحث تمكنا من الوصول إلى جملة من النتائج وهي على النحو الآتي :
- يعد الشاعر محسن أبو الحب الكبير واحداً من الشعراء الكربلايين البارزين في الحقبة التي عاشها الشاعر - القرن التاسع عشر - ، والذي سخر جل موضوعاته الشعرية في خدمة قضية أهل البيت ﷺ ومن بينها شعر الاستنهاض بالإمام الحجة (عجل الله فرجه) .
- يعد شعر الاستنهاض من الموضوعات القديمة في الشعر العربي ، اذ تناوله الشعراء من العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث ، إلا أن هذا النظم في الإسلام قد ارتبط بإيمان المسلمين بالدين الإسلامي وبالرسول محمد ﷺ وعقيدتهم بظهور المهدي المنتظر ﷺ .
- كان لا اعتقاد المسلمين بالإمام المهدي ﷺ حضور سابق على ولادة المنتظر (عجل الله فرجه) ، إذ اعتمد المسلمون في اعتقادهم هذا على القرآن الكريم أولاً والحديث النبوي الشريف ثانياً ، إذ أن كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية قد بينت ذلك .
- وكان لطبيعة الأحداث في القرن التاسع عشر على صعيد الناحية السياسية اثر كبير في توجه أنظار الشاعر صوب الإمام المهدي ﷺ عارضا عليه المصائب والمحن التي ألمت به خاصة وبمجتمعه عامة من جراء سياسة الدولة العثمانية .
- يعد مبدأ الثأر من ابرز المضامين التي أكد عليه أبو الحب في قصائده التي استنهاض فيها الإمام المهدي ﷺ ، إذ كان في نفسه أمل كبير في الانتقام من أعداء أهل البيت ﷺ ولما كانت عقيدته بالإمام المهدي ﷺ عقيدة راسخة قوية راح يستنهاضه من اجل الأخذ بثأر أهل بيت النبوة ﷺ .
- أما الشفاعة فقد كانت هي الأخرى أيضاً من المضامين الموضوعية التي تضمنتها قصيدة الاستنهاض بالإمام الحجة ﷺ عند أبي الحب الكبير ، فكان في أكثر قصائده التي كتبها في الاستنهاض يختمها

(٦٨) مفاتيح الجنان: ٢٢٤.

(٦٩) سورة الشرح: الآية: ٦٠٥.

(٧٠) ديوان الشيخ (محسن أبو الحب الكبير) دراسة في الموضوع الشعري، د. علي كاظم محمد علي المصلاوي، و.م. كريمة نوماش المدني، مجلة جامعة أهل البيت ، العدد السابع، آذار ٢٠٠٩: ٥٩.

- شعر الاستنهاض بالإمام الحجة (عجل الله فرجه) عند أبي الحب الكبير (دراسة في المضمون الموضوعي)
- بطلب الغفران والشفاعة من آل النبي ﷺ والتوسل بهم ومناجاتهم لما لهم من منزلة سامية عند المسلمين من أتباع مدرسة أهل البيت ﷺ .
- ولعل مصيبة أهل البيت ﷺ وما حل بهم من ظلم وجور كانت أيضاً من مضامين قصيدة الاستنهاض بالحجة (عجل الله فرجه) ، إذ راح الشاعر يبين للأمام ﷺ ما حل بجده الحسين ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين من ظلم وقمع ليكون ذلك سبباً في تعجيله بالظهور وإعلان الثورة على الظالمين في كل بقعة من بقاع الأرض .
- مثل رفض الشاعر للواقع السياسي أحد المحاور الموضوعية التي تضمنتها قصيدة الاستنهاض بالإمام الحجة (عج) ، إذ لم يجد ما يهون عليه مأساته ومأساة مجتمعه سوى اللجوء إلى المهدي المنتظر (عج) واللوذ به... لذلك راح الشاعر يصرخ بغضب ونقمة معبراً عن سخطه على دولة أهدرت كرامة الإنسان العربي المسلم

المصادر والمراجع

أولاً / القرآن الكريم

ثانياً / الكتب المطبوعة:

- الإبداع في الفن ، قاسم حسين صالح ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، دار الرشيد ، دار الطباعة للنشر ، بيروت ، د. ط ١٩٨١ م.
- أثر البيئة في أدب المدن العرقية في القرن التاسع عشر ، د. محمد حسن علي مجيد ، المكتبة العصرية ، بغداد ، د. ط. ١٩٩٨ م.
- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) ، تحقيق الأستاذ عبد أ. علي مهنا ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ٢٠٠٢ م.
- الإمام المهدي (عج) في كتب الأمم السابقة وعند المسلمين ، محمد رضا الحكيمي ، ترجمة حيدر آل حيدر ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م.
- بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار) ، محمد باقر المجلسي ، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨ م.
- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، د. نوري حمودي القيسي ، ود. عادل جاسم البياتي ، ود. مصطفى عبد اللطيف ، جامعة بغداد ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٠ م.
- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩ .
- تاريخ الغيبة الكبرى ، محمد الصدر ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، د. ط ، ١٩٩٢ م.
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق (اتجاهات الرؤيا وجهالات النسيج) ، د. علي عباس علوان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٥ م.
- التفسير النفسي للأدب ، عز الدين إسماعيل ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، د. ط ، ١٩٦٣ م..
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ م.
- ديوان البوصيري ، شرح وتعليق د. محمد التونجي ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م.

- ديوان دعل بن علي الخزاعي ، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م.
- ديوان السيد الحميري ، اعتنى به وقدم له وعلق عليه نواف الجراح ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م.
- ديوان السيد حيدر الحلي ، تحقيق علي الخاقاني ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٤م.
- ديوان الشيخ محسن أبو الحب الكبير ، (ت ١٣٠٥هـ) ، تحقيق ، جليل كريم أبو الحب ، بيت العلم للناشرين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م.
- ديوان الكميت بن زيد الأسدي ، جمع وشرح وتحقيق د. محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م.
- سنن ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد الربيعي ابن ماجه القزويني ، (ت ٢٧٣هـ) ، أشرف ومراجعة صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م.
- الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ، د. يوسف عز الدين ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، د.ط ، ١٩٥٨م.
- شعر الكميت بن زيد الأسدي ، جمع وتقديم د. داود سلوم ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٧م.
- الشعر والشعراء ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، حقق نصوصه وعلق حواشيه وقدم له د. عمر الطباع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م.
- الشوقيات (ديوان أمير الشعراء) ، أحمد شوقي ، حققه وقدم له د. عمر فاروق الطباع ، شركة الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، د.ط ، د.ط .
- فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام ، إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن عبد الله بن علي بن محمد الجويني الخراساني (ت ٧٣٠هـ) ، حققه وعلق عليه وتصدى لنشره محمد باقر المحمودي ، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م.
- الفروسية في الشعر الجاهلي ، الدكتور نوري حمودي القيسي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م.
- الكامل في التاريخ ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، د.ط ، ٢٠٠٣م.
- كتاب الأمالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم بن عبدون القالي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٦م.
- كتاب التعريفات ، علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن الحسيني الجرجاني الحنفي (ت ٨٢٦هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥م.
- كمال الدين وتمام النعمة ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) ، منشورات الفجر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩م.

- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفرقي المصري (ت ٧١١هـ)، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه عامر أحمد حيدر، مراجعة، عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الوردي، مكتبة الصدر، قم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- مختصر أخبار شعراء الشيعة (أخبار السيد الحميري)، أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تقديم وتحقيق وتعليق د. محمد هادي الأميني، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
- مشاهير شعراء الشيعة، عبد الحسين الشبستري، المكتبة الأدبية المختصة، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- مقتل الحسن والحسين، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، أخرجه وحققه وعلق عليه مصطفى مرتضى القزويني، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
- منتخب الأنوار المضيئة، علي بن عبد الكريم النيلي النجفي، تحقيق، عبد اللطيف الكوهكمري، مطبعة الخيام، قم، د.ط، ١٤٠١هـ.
- موسوعة الإمام المهدي المنتظر (عج) من المهد إلى يوم القيامة، إعداد وإشراف سالم الصفار النجفي، ساعد في الإعداد علاء الدين العاملي، ومنتظر امهز، وعلي حسن الطفيلي، وعلي حسين وسخان، دار نظير عبود، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- موسوعة بقية الله الأعظم الإمام المهدي (عج) المصلح الرباني وصانع العالم الجديد، جعفر عتريسي، دار البهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- نهاية الارب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، (ت ٧٣٣هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ط، د.ت.
- النور المبين في قصص الانبياء والمرسلين، نعمة الله الجزائري، قدم له وعلق عليه علاء الدين الأعلمي، ذوي القربي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

ثالثاً / الأطروحات والرسائل الجامعية:

- المهدي المنتظر في الشعر العربي إلى نهاية العصر العباسي، أحمد كاظم جواد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٧م.

رابعاً / الدوريات:

- بناء القصيدة العربية في العصر المملوكي (البنية الاحالية)، د. يوسف أحمد إسماعيل حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية الخامسة والعشرون، الرسالة ٢٢٠، ٢٠٠٥م.
- ديوان الشيخ (محسن أبو الحب الكبير)، دراسة في الموضوع الشعري، د.علي كاظم المصلاوي، وم. كريمة نوماس المدني، مجلة جامعة أهل البيت، العدد السابع، آذار، ٢٠٠٩م.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الأدب الصغير والأدب الكبير

آ.م.د. سيد محمد رضا ابن الرسول^(١)
م.م. فهيمه سلطاني نژاد^(٢)

الملخص

كان لظهور عبد الله ابن المقفع في القرن الثاني من الهجرة، أثر عام وتام في الثقافة الإسلامية والعربية فهو أول من قام بترجمة الكتب المنطقية، كما كان مشبعاً بالثقافة الفارسية وملماً بالتراث واللغة العربية. للمتفحص في كتابيه الصغيرين **الأدب الصغير والأدب الكبير** أن يلاحظ تأثره البالغ بكلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

استخدم ابن المقفع كلام الإمام - حرفياً ومضموناً - لكن دون أن يذكر اسمه وليس ذلك إلا خوفاً من السلطات العباسية التي كان يعمل موظفاً لديها.

حاول هذا البحث - بعد إعطاء صورة لحياة ابن المقفع ومعتقداته - أن يبين مدى تأثر ابن المقفع في **الأدب الصغير والأدب الكبير** بكلام سيد البلغاء وإمام العارفين نصاً ومضموناً.

إن ما اعتمدناه من كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو ما جمع في **نهج البلاغة** و**غرر الحكم** و**درر الكلم**، وأشرنا إلى كتب أخرى من تأليف السلف، حيث نسبوا تلك العبارات والعبر والحكم للإمام عليه السلام، ولكن ابن المقفع - كما أشرنا - لم ينسب أيها منها للإمام بل ليس له دور فيها سوى نقلها كما هي أحياناً وبتحويرها في أحيان أخرى.

المفردات الرئيسية: الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، غرر الحكم ودرر الكلم، ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير

المقدمة

لقد أطل ابن المقفع على عصره إطلالة الحكيم الذي لا يهتم إلا بالعقل وأموره وكان من أبرز كتّاب القرن الثاني للهجرة. حاول من خلال كتاباته أن يأتي بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية غايتها إصلاح المجتمع، ففاض كتاباه **الأدب الصغير والأدب الكبير** بهذه الحكم والوصايا.

١ - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أصفهان - إيران

٢ - فرع اللغة العربية، امعة أصفهان - إيران

هناك من نسب نص الكتييب للفرس باعتبار أنها ترجمة من الأدب الفهلوي، وحكمها مأخوذة من ثقافة حكماء الفرس، من قائل أرجع مادة الكتاب إلى ما استفاه ابن المقفع من كلام الإمام علي عليه السلام، وقال بعض أن مرجع هذه الحكم والنصائح، كتاب **كليلة ودمنة** الذي قام ابن المقفع بترجمته إلى العربية. حاول هذا البحث استجلاء الرأي السليم وذلك نظراً لما ورد في هذين الكتابين الصغيرين والإجابة عن بعض الأسئلة: هل تأثر ابن المقفع بكلام الإمام عليه السلام؟ ولو كان الجواب بالإيجاب فما هو مدى تأثره به؟ وبأي طريق استفاد من كلام الإمام عليه السلام؟ وهل هذه العملية تسمى سرقة أدبية؟ لهذه الدراسة تمهيدات هي: عرض موجز من حياة ابن المقفع ومذهبه، وذكر آثاره، ثم معالجة مدى تأثر ابن المقفع في كتابه بكلام الإمام عليه السلام في قسمين: ما أورده ابن المقفع من نص كلام الإمام عليه السلام بعينه وحرفيته، وما أتى به ناقلاً لمضمون كلامه عليه السلام.

كان على الباحثين لهذا المقال أن يقرأ **الأدب الصغير والأدب الكبير** وما ورد عن الإمام عليه السلام في نهج **البلاغة** وكتاب **غرر الحكم ودرر الكلم** وبعد هذا العناء، كان عليهما أن يقوموا بمقايضة كلام الإمام عليه السلام وكلام ابن المقفع. يعترف الباحثان بأنهما - وإن بذلا قصارى جهدهما - لكنه لولا عناية الله بهما ورحمته عليهما لما تكامل البحث، كما يعترفان أن بحثهما لم يقم بكل صغيرة وكبيرة، فهناك ما خفي عنهما، ويأملان أن يكون جهدهما المتواضع، تمهيدا لدراسات أخرى، ولا كمال إلا لله.

حياته

هو أبو محمد عبدالله روزبه بن داؤويه المعروف بابن المقفع، فارسي الأصل والمولد. كان والده من مجوس مدينة جور الفارسية وهي مدينة فيروز آباد الحالية. ولد نحو سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م وقضى بضع سنين في فارس متعلماً للثقافة الفارسية يدين بالزرداشتية (الزركلي، د.ت، ج٤، ص ٢٨٣؛ البغدادي، د.ت، ج٣، ص ٤٥٩؛ العسقلاني، ١٩٨٦م، ج٣، ص ٣٦٦؛ ابن خلكان، د.ت، ج٢، ص ١٥١؛ الجهشيار، ١٩٣٨م، ص ٧٤؛ كرد علي، ١٩٦٩م، ص ٨٧؛ كرد علي، ١٩٥٠م، ص ٥٧-٦٦؛ الفاخوري، ١٣٧٧هـ.ش، ص ٤٣٧؛ ضيف، د.ت، ص ٥٠٧؛ محمدي ملايري، ١٣٨٠هـ.ش، ج٤، ص ١٢٩-١٣٠؛ آشتياني، ١٣٨٢هـ.ش، ص ٣١-٣٣).

نزل البصرة راغباً في تحصيل العلم ومصاحبة الأدباء والشعراء والمتكلمين. وكان مولى لآل أهتم الذين ذاع صيتهم بالفصاحة والبلاغة والبيان فاستعرب بسرعة وحصل على القسط الوافر من اللغة العربية وأتقنها إلى جانب الفارسية.

كان أبوه يعمل في دواوين الخراج للحجاج فمداً يده في أموال السلطان فضربه الحجاج ضرباً حتى تقفعت يده ولقّب بالمقفع فسمي روزبه ابن المقفع (ابن خلكان، د.ت، ج٢، ص ١٥٥). أخذ طريقة أبيه، فعمل في دواوين العراق في عهد بني أمية وكتب لعمر بن هبيرة. ولما ولي العباسيون الحكم، اتصل بعبسى بن علي - عم السفاح و المنصور - والي الأهواز وعلى يده أعلن إسلامه وتكنى بأبي محمد (ابن النديم، د.ت، ص ١١٨).

تحدثنا آثاره أنه كان بليغاً فصيحاً، وكاتباً مبدعاً، يضع كلامه في الموضع الدقيق، وعالماً فطناً. يقول فيه الجاحظ: «إنه كان مقدماً في بلاغة اللسان، والقلم، والترجمة، واختراع المعاني، وإبداع السير» (الجاحظ، ١٩٩١م، ج٣، ص ٤٤). كما كان واسع الإطلاع على ثقافات الأمم الأخرى كالإغريقية والهندية. يقول أبوحيان التوحيدي في توصيف مدى اطلاعه: «كان ابن المقفع يقف قلمه كثيراً، فقليل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدهم في صدري فيقف قلمي لأتخيره» (التوحيدي، ١٩٩٧م، ج١، ص ٥٢).

كان متضلعا في الأدب الفارسي قدر اطلاعه من العربية وجمع بين الأدبين ونقل إلى العربية عن الفارسية وقام بترجمتها حسب القوالب العربية الملائمة للذوق العربي. والحق أنه كان آية في البلاغة وجزالة القول ورصانة الكلام مع سهولته ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته للسائل عن البلاغة، فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها» (الحموي، ١٤٨٠م، ج ١٦، ص ١٢٩).

وهو إلي جانب ذلك، كان نبيل الخلق، عفيف النفس، طيب المعشر، بذل جهده في إصلاح الراعي والرعية وزين نفسه بكل ما يمكن من الخصال الحسنة، كالمروءة والكرامة. يقول الجهشيارى: «إنه كان سخيا، سريا، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه» (الجهشيارى، ١٩٣٨م، ص ٧٥). فكانت نهايته أن أغرى به المنصور سفيان بن معاوية والي البصرة فقتله سنة ١٤٢هـ / ٧٦٠م (المصدر السابق، ص ٧٥ - ٧٥). للباحث المدقق المنصف أن يجد ابن المقفع قد اتخذ في حياته حرية الرأي والصدق في القول والعمل، ولعل كل ذلك أدى إلى قتله كما قال شوقي ضيف: «كان طبيعيا أن يثور المنصور لكرامته وأن يوغز سفيان بقتله» (ضيف، د.ت، ص ٥٠٩).

مذهبه وإسلامه

سبق أن والد روزبه كان مجوسيا نشأ على دين آبائه حتى اتصل بعبسى بن علي؛ والي الأهواز وأعلن إسلامه على يده. وأما نفسه فقد تضاربت الآراء في الكتب التاريخية بصدد مذهبه وإسلامه. هناك من اتهمه بالزندقة (ابن خلكان، د.ت، ج ٢، ص ١٥١؛ ضيف، د.ت، ص ٥٢٣)، مستندين إلى أقوال كقول المنصور العباسي وعامله سفيان بن معاوية والمهدي العباسي. يقول المهدي: «ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع» (ابن خلكان، د.ت، ج ٢، ص ١٥١). لكن ومن جانب آخر، هناك أخبار تدل على بغض هؤلاء وعداوتهم إليه، كما أشار الجهشيارى إلى عداوة سفيان بن معاوية - قاتل ابن المقفع: «كان يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة منها أنه كان يهزأ به» (الجهشيارى، ١٩٣٨م، ص ٧٥). وهناك من يلجأ إلى الشك والظن في دين ابن المقفع ولا دينيته: «والظاهر أنه لم يسلم إلا مراعاة للأحوال وتقربا إلى مواليه العباسيين وقد اتهم بالزندقة والظاهر أنه لم يخل من شيء من ذلك» (الفاخوري، ١٣٧٧هـ، ش، ص ٤٣٨).

ومنهم من يعتقد بإسلامه وصحة إيمانه؛ وهو رأي صاحب كتاب أمراء البيان: «صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان متماثلان في ابن المقفع مهما تقول عليه المتوكلون... ليس فيه جمود الفقهاء ولا استهتار الأدباء، فهم من الدين ما فهمه منه كل عاقل» (كرد علي، ١٩٦٩م، ص ١٠٧). وعلى أية حال، سواء آمن قلبا أو طمعا في الوصول إلى مراكز الصدارة والسلطة، علينا أن ننظر في آثاره دون الاكتراث إلى التقولات، فإنها أصدق دليل على خلجات نفسه وعقيدته وسلوكه، وعلينا نحترم فهمنا علنا نصل إلى حكم سديد في مؤلف الأدب الصغير والأدب الكبير الذي دعا إلى طاعة الله وشكر نعمه، حيث قال: «من أخذ بحظه من شكر الله وحمده... فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله القربة عنده والوسيلة إليه» (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٣٢). ليس ابن المقفع أول من اتهم بالإلحاد والكفر فقد اتهم قبله وبعده الكثير من عباقرة الأمة - كالجاحظ - حسدا عليهم وحقدا؛ فليس الاتهام بالزندقة سوى ادعاء كذب، أتى به مبغضوه (أشتياني، ١٣٨٢هـ، ش، ص ٤٢).

آثاره

لابن المقفع آثار كثيرة تشهد بعظم فضله وسعة علمه أكثرها ترجمت من اللغات الأخرى سيما لغته الأم، الفارسية. يمكننا أن نقسم آثاره إلى قسمين:

آثاره المفقودة

لابن المقفع كتب تناول عليها الزمان ولم يصلنا منها سوى عناوينها، منها: **خداي نامه** في سير ملوك العجم، و**آيين نامه** في عادات الفرس وآدابهم، و**التاج** في سيرة أنوشروان، و**كتاب مزدك**، و**اليتيمة** في الرسائل، وكتبه المنقولة من آثار ارسطو.

آثاره الموجودة

- **كليلة ودمنة**؛ كتاب وضع على ألسنة البهائم والطير؛ نقله من الفهلوية في قوالب اللغة العربية لإصلاح النظام الحاكم آنذاك.
- **الأدب الصغير والأدب الكبير**؛ ألفهما بعد كتاب **كليلة ودمنة** لأنهما يتضمنان بعض الحكم والأمثال الواردة فيه. وهذان الكتيبان يتناولان قضايا أخلاقية ونصائح في المعاش والسلوك.
- رسالة الصحابة؛ كتبها ابن المقفع لأبي جعفر المنصور.
لم ينسب إليه أثر منظوم وعندما سئل عنه لم لا تقول الشعر؟ قال: الذي يجيئني لا أرضاه والذي أرضاه لا يجيئني (الزنجشيري، ١٤١٠هـ، ج ٤، ص ٢٥٧).

تأثر ابن المقفع بكلام الإمام علي عليه السلام في الأدب الصغير والأدب الكبير

إن **الأدب الصغير** كتيب يتضمن الوصايا الخلقية والاجتماعية المحمودة للعلم والعقل، وتشجع المرء في تأديب النفس وتحذره عن الخصال المذمومة، كالعجب والحرص والطمع. يذكر فيه الكاتب بعض خصال الصديق وكيفية تعامل الأصدقاء بعضهم بعضاً ويتحدث عن سياسة الملوك.
أما **الأدب الكبير**، فهو كتيب أكثر طولاً من **الأدب الصغير**، فإنه مقسم إلى بابين؛ يتضمن الباب الأول الكلام حول السلطان وذلك في قسمين: قسم يتعلق بالشؤون الشخصية في حياة السلطان وصفاته وكيفية التعامل مع عماله ورعيته وما يتعلق به. والآخر يتعلق بكيفية تعامل الرعية مع السلطان. أما الباب الثاني فيحوي كلامه في الصديق وحسن العلاقة بين الناس والتأدب في معاملة الأصدقاء. فلابن المقفع نصائح في اختيار الصديق، يحاول فيها تبين خصاله وكيفية المعاشرة له. فهما كما يبدو من اسميهما، كتابان في مجال الأخلاقيات والاجتماعيات. وعلى كل حال فالكتيبان مقرونان من قديم الزمن في المخطوطات والمنشورات ولهذا نعتبرهما في هذا المقال كتاباً واحداً تسهيلاً للكتابة والقراءة.

هناك من يعتبر هذا الكتاب - كله أو أكثره - ترجمة من الأدب الفهلوي واللغة الفارسية، ويعتقد بنقل ابن المقفع لهذه الحكم والوصايا الإيرانية من الأدب الساساني إلى العربية؛ فذكرها ابن النديم في **الفهرست** إلى جانب ما نقل من كتب الفرس (ابن النديم، د.ت، ص ١٣٢)، كما قال شوقي ضيف في **الأدب الكبير** إن «وصايا الرسالة إما نقل عن القدماء مما قرأ في الأدب الساساني السياسي والأخلاقي وإما استنباطات وصل إليها على هديهم» (ضيف، د.ت، ص ٥١٣).

فكثير من اعتبر جذور هذا الكتاب ومادته مستقاة من أصل فارسي، ونلاحظ أنهم ينسبون بعض حكمها وجملها إلى حكماء الفرس كأردشير، وبزرجمهر، وكسرى، فعلى سبيل المثال جاء في **الأدب الصغير**: «وليستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان فإنما يصول الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع» (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٧٨)؛ نسبها الزنجشيري في **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار** (١٤٤٢م، ج ٣،

ص ٢٢١)، وابن خلكان في وفيات الأعيان (د.ت، ج ٣، ص ٢٣١) لأردشير، وما أكثر هذه النسب لغير ابن المقفع من حكماء بلاد فارس وكنوزهم.

إن ابن المقفع، هو الذي اعترف قبل كل أحد وصرح بنقل كلام الآخرين في كتابيه الأدب الصغير: «قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا فيها عون على عمارة القلوب» (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ١٥)، و الأدب الكبير: «منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسنتنا أن يقتدي بسيرتهم... ولم نجدهم غادروا شيئا يجد واصف بليغ في صفة له مقالا لم يسبقوه» (المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥).

ومضافا إلى هذا التصريح للباحث في هذا الكتاب أن يجد كثيرا من العبارات التي توحى بالأخذ والاعتباس بقول الكاتب «قال الحكيم» و«سمعت العلماء قالوا» وما شابه ذلك. وكل هذه تدل على عملية جمع ونقل الأقوال والآراء الحكمية والوصايا العظيمة المتوفرة قبله.

ونقله عن حكام فارس وحكمائها، لا ينفي اقتباسه عن علي بن أبي طالب عليه السلام، وتأثره بكلامه فإن ابن المقفع قد بلغ من البلاغة ذروتها، وكان بليغا فصيحاً اعترف بفصاحته وبلاغته أكثر العلماء والباحثين. فكيف له أن يكون مستغنيا عن بلاغة إمام الفصحاء وسيد البلغاء - على حد تعبير أبي الحديد المعتزلي - وهو الذي اعترف الأدباء والكتاب قديما وحديثا ببراعة أسلوبه وجمال بيانه.

وابن المقفع صديق وفي لعبد الحميد الكاتب، بحيث أراد أن يبذل نفسه في سبيل حفظ هذا الآخر (الجهشياري، ١٩٣٨م، ص ٥٢؛ ابن خلكان، د.ت، ج ٣، ص ٢٣١)، والحال أن عبد الحميد هو القائل: «حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع فغاضت ثم فاضت» (ابن أبي الحديد، ١٣٧٧هـ.ش، ج ١، ص ٢٠٥-٢٠٦).

لا ينبغي أن نكتم مدى أثر الكلام العلوي وبلاغته وانطباعاته على آثار ابن المقفع سيما الأدب الصغير والأدب الكبير؛ كما صرح إليه بعض الباحثين، كمحمد كردعلي (١٩٦٩م، ص ٨٩)، وحسين علي جمعة (٢٠٠٣م، ص ١٠٨). ويجلي الأثر أكثر وضوحا عند إمعان النظر في هذا الكتاب ومقارنة بعض جمل ابن المقفع بكلام الإمام عليه السلام.

منها على سبيل مثال ما جاء في الأدب الصغير: «سمعت العلماء قالوا: لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق...» (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٥٧)، فلا شك بأن هذه العبارة تبادر إلى الذهن الحكمة ١١٣ من نهج البلاغة حيث قال عليه السلام: «ولا عقل كالتدبير، ولا كرم كالتقوى ولا قرين كحسن الخلق» (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش).

لقد سلك ابن المقفع شتى الطرق والأساليب للأخذ من كلام علي عليه السلام؛ من الإيتان بنفس كلام الإمام والاعتباس منه والتضمن لكلامه حينما استخدم مضمون كلامه وجعله في قالب جديد وصياغة مختلفة.

• الإيتان بنفس تعبير الإمام عليه السلام

والمراد منها كل عبارة أتى بها ابن المقفع في كتابه من تعبيرات أمير المؤمنين عليه السلام لم يغيرها؛ من حكمة وخطبة وكتاب وهي حسب ما حققنا ١٦ عبارة، تأتي بها واحدة بعد أخرى، ذاكرين مصادرها، وذلك تأكيدا بأنها وردت من الإمام عليه السلام، لم يكن ابن المقفع قائلها ومبدعها، بل نقلها كما هي برمتها إلا أنه قد تصرف يسيرا بنصها في مواضع.

١. قال أمير المؤمنين عليه السلام: الظفر بالخرم، والحرم بإجالة الرأي والرأي بحصين الأسرار (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ٤٨).

- فلم يفعل ابن المقفع إزاء هذه الحكمة شيئاً إلا أنه ذكرها تماماً: الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي والرأي بتحصيل الأسرار (ابن المقفع، ١٩٧٢م، ص ٥٣).
٢. قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاحِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ مَرَمَةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أَوْ لَذَةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ٣٩٠).
- قال صاحب الأدب الصغير والأدب الكبير: وعلى العاقل أن لا يكون راغباً إلا في إحدى ثلاث: تزود لمعاد، أو مَرَمَةٍ لِمَعَاشٍ، أو لَذَةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٢٢).
- اعتبرها ابن حمدون في التذكرة الحمدونية من كلام الإمام عليه السلام ولكن نسبها ابن القتيبة في عيون الأخبار (د.ت، ج ١، ٢٨٠)، والمعافي بن زكريا في المجلس الصالح (٢٠٠٣م، ص ٢١١٣)، وأبو أحمد العسكري في المصون في الأدب (١٩٦٠م، ص ١٣٨) إلى النبي داود عليه السلام.
٣. قال أمير المؤمنين عليه السلام: مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ٧٣).
- يقول ابن المقفع: مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فِي الدِّينِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٢٤).
- وهي عند ابن حمدون في التذكرة الحمدونية (٢٠٠٣م، ص ٤٩٩)، والإبشيهي في المستطرف في كل فن مستظرف (١٩٩٣م، ص ٢٥)، والزنجشيري في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١٩٩٢م، ج ٤، ص ٢١) من كلام الإمام عليه السلام.
٤. قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَلَا عَقْلَ كَالْتَدْيِيرِ وَلَا كَرَمَ كَالْتَقْوَى وَلَا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ. (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ١١٣).
- كما قال عليه السلام: لَا وَرَعَ كَالْكَفِّ (غرر الحكم ودرر الكلم، د.ت، ج ٢، ش ١٨، ص ٨٣٠).
- ونسبها ابن المقفع للعلماء حيث قال: وسمعت العلماء قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالکف، ولا حسن كحسن الخلق (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٥٧).
- قالها الإمام عليه السلام كما نقل ابن الشجري في الأمالي الشجرية (٢٠٠٣م، ص ٨١٩)، وابن حمدون في التذكرة الحمدونية (٢٠٠٣م، ص ٤٩٩).
٥. قال أمير المؤمنين عليه السلام: لَا يَتِمُّ حُسْنُ الْقَوْلِ إِلَّا بِحُسْنِ الْعَمَلِ (غرر الحكم ودرر الكلم، د.ت، ج ٢، ش ٣٦١، ص ٨٤٨).
- فلم يغير ابن المقفع إلا مفردة تحمل نفس المعنى: لَا يَتِمُّ حُسْنُ الْكَلَامِ إِلَّا بِحُسْنِ الْعَمَلِ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٥٧).
٦. قال أمير المؤمنين عليه السلام: إِخْوَانُ الصَّدَقِ زِينَةٌ فِي السَّرَّاءِ وَعَدَّةٌ فِي الضَّرَّاءِ (غرر الحكم ودرر الكلم، د.ت، ج ١، ش ١٨٢٩، ص ٧٣).
- لقد أعاد صياغتها ابن المقفع بقوله: اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا، هم زينة في الرخاء، وعدة في الشدة (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ١٠٨).
- وهي كما ادعى الجاحظ في المجالس والأضداد (٢٠٠٠م، ص ٤٦)، وإبراهيم بن البيهقي في المجالس والمساوي (١٩٨٤م، ص ٣٧٦) من كلام النبي ﷺ.
٧. قال أمير المؤمنين عليه السلام: الصَّبْرُ صَبْرَانِ صَبْرٌ عَلَى مَا تُكْرَهُ وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ٥٥).

وَنَرَى نَفْسَ الْمُشْهَدِ لِلصَّبْرِ عِنْدَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ بِإِضَافَةِ مُفْرَدَاتٍ: وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ صَبْرَانِ: صَبْرُ الْمَرْءِ عَلَى مَا يَكْرَهُ، وَصَبْرُهُ عَمَّا يَحِبُّ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ١١٠).

٨. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): **الْثَّمَامُ أَصْبَرُ أَجْسَادًا، الْكَرَامُ أَصْبَرُ أَنْفَاسًا** (غرر الحكم ودرر الكلم، د.ت، ج ١، ش ٦٤٥، ص ٢٣).

وَلَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا قَالَهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ بَعْدَ عِدَّةِ أَعْوَامٍ: وَاعْلَمْ أَنَّ الثَّمَامَ أَصْبَرُ أَجْسَادًا، وَأَنَّ الْكَرَامَ هُمُ أَصْبَرُ نَفُوسًا (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ١٠٩).

٩. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): **اخْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّيْمِ إِذَا شَبِعَ** (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ٤٩).

وَقَدْ قَامَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ بِتَوَزِيعِ النَّصِّ الْعُلُوي فَأَخْرَجَهَا عَلَى صُورَةٍ مِمَّا ثَلَّةَ فِي الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي: وَلَيْسَتْ وَحِشٌ مِنَ الْكَرِيمِ الْجَائِعِ وَاللَّيْمِ الشَّبِيعَانِ فَإِنَّمَا يَصُولُ الْكَرِيمُ إِذَا جَاعَ وَاللَّيْمُ إِذَا شَبِعَ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٧٨).

١٠. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): **مِنْ أَشَدِّ عِيُوبِ الْمَرْءِ أَنْ تَخْفَى عَلَيْهِ عَيْبُوهُ** (غرر الحكم ودرر الكلم، د.ت، ج ٢، ش ٤٢، ص ٧٢٧).

ذَكَرَهَا ابْنُ الْمُقَفَّعِ بِتَغْيِيرِ طَفِيفٍ جَدًّا: مِنْ أَشَدِّ عِيُوبِ الْإِنْسَانِ خَفَاءُ عَيْبُوهُ عَلَيْهِ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٥٠).

١١. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): ... **أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تُدْفَعْ بِقُوَّتِكَ** (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الرسالة ٧٢).

لَمْ يَحْذَفْ ابْنُ الْمُقَفَّعِ مِنَ الْعِبَارَةِ إِلَّا التَّأَكِيدَ الَّتِي تَصَدَّرَتْ بِهِ: وَالدُّنْيَا دُولٌ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفٍ، وَمَا كَانَ عَلَيْكَ لَمْ تُدْفَعْ بِقُوَّتِكَ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٢٧).

١٢. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): **لَا مَالٌ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ** (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ١١٣).

يَقُولُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: لَا مَالٌ أَفْضَلُ مِنَ الْعَقْلِ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٢٧).

وَهِيَ لِلْإِمَامِ (عليه السلام) كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْدَلُسِيُّ فِي الْعَقْدِ الْفَرِيدِ (١٩٨٣م، ج ٢، ص ٢٥٢)، وَابْنُ الْيُوسُفِيِّ فِي زَهْرِ الْأَكْمِ (٢٠٠٣م، ج ٣، ص ٤٩).

١٣. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): **لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ فَسَاعَةٌ يَنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يَرْتَمِ مَعَاشَهُ وَسَاعَةٌ يَخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَحْتَمِلُ** (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ.ش، الحكمة ٣٩٠).

وَلَقَدْ اسْتَلَّ ابْنُ الْمُقَفَّعِ رُوحَ عِبَارَةِ الْإِمَامِ وَأَضَافَ عَلَيْهَا حَسَبَ الظُّرُوفِ قَائِلًا: عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَشْغَلَهُ شُغْلٌ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يَرْفَعُ فِيهَا حَاجَتَهُ إِلَى رَبِّهِ، وَسَاعَةٌ يَحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَفْضِي فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ وَثِقَاتِهِ الَّذِينَ يَصْدُقُونَهُ عَنْ عِيُوبِهِ وَيَنْصَحُونَهُ فِي أَمْرِهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلِي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَحْتَمِلُ (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٢٢).

وَالْعِبَارَةُ مِمَّا نَسَبَهَا ابْنُ حَمْدُونٍ فِي التَّذَكُّرَةِ الْحَمْدُونِيَّةِ (٢٠٠٣م، ص ٤٩٩) إِلَى الْإِمَامِ (عليه السلام).

١٤. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): **كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللَّهِ وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ وَلَا يَكْتُمُ إِذَا وَجَدَ وَكَانَ أَكْثَرُ دَهْرِهِ صَامِتًا فَإِنْ قَالَ بَدْءُ السَّائِلِينَ وَنَفْعُ غَلِيلِ السَّائِلِينَ وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا إِنْ جَاءَ الْجَدُّ فَهُوَ لَيْتَ غَابَ وَصِلَ وَإِذَا لَا يُدْرِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِي قَاضِيًا وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا عَلَيَّ مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعًا إِلَّا عِنْدَ بُرْتِهِ وَكَانَ يَقُولُ مَا يَفْعَلُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ وَكَانَ إِذَا غَلَبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ وَكَانَ إِذَا بَدَّهَهُ أَمْرَانِ**

يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَىٰ فَيَخَالِفُهُ فَعَلَيْكُمْ بِهِذِهِ الْخَلَائِقُ فَالزَّمُّوْهَا وَتَنَافَسُوا فِيْهَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوْهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخَذَ الْقَلِيلَ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الحكمة ٢٨٩).

وهذه الحكمة البالغة خير شاهد على تأثر ابن المقفع في كتابه بابن أبي طالب عليه السلام: إني مخبرك عن صاحب لي، كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه عندي، صغر الدنيا في عينه، كان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم إلّا على ثقة أو منفعة، وكان مروءته، ولا يستحق رأيا ولا بدنا وكان خارجا من سلطان الجاهلية فلا يقدم إلّا على ثقة أو منفعة، وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بذ القائلين، كان يرى متضعفا مستضعفا فإذا جاء الجد فهو الليث عاديا. وكان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في رأي ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا، وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجعا إلّا لمن يرجو عنده البرء، ولا يصحب إلّا إلى من يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى فهو لا ينتقم من الولي، ولا يغفل عند العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ١٣٣).

وهي على ما نقله الزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (١٩٩٢ م، ج ٢، ص ١٥٧) من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

١٥. قال أمير المؤمنين عليه السلام: احترسوا من سورة الحمد والحد والخصب والحسد وأعدوا لكل شيء من ذلك عدةً تجاهدون بها (غرر الحكم ودرر الكلم، د.ت، ج ١، ش ٨٧، ص ١٣٩).

ذكرها ابن المقفع بتغييرات موجزة: احترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل وأعد لكل شيء من ذلك عدة تجاهد بها (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ١٠٩).

١٦. قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَلَا تَدْعُ تَقَعْدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ أَتُكَالًا عَلَى جَسِمِهَا فَإِنَّ لِلْبَاسِ مِنْ لَطِيفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَقِعُونَ بِهِ وَلِلْجَسِمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَعْتُونَ عَنْهُ (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الرسالة ٥٣).

جاء بها ابن المقفع كرسالة أمير لعامله، وكان دون شك، مكررا قول الإمام: حق الوالي أن يتفقد لطيف أمور رعيته فضلا عن جسيمها فإن لللطيف موقعا ينتفع به وللجسيم موقعا لا يستغنى عنه (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ٧٧).

ذكرها ابن حمدون في التذكرة الحمدونية (٢٠٠٣ م، ص ٤٠٤)، والنويري في نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٠٠٣ م، ص ٣٦٨) من أقوال الإمام علي عليه السلام.

• الإتيان بالمضمون

هناك عبارات من كلام أمير المؤمنين عليه السلام أوردها ابن المقفع بمضامينها لا بنصها، صاغها في قوالب جديدة تأتي بها.

إن هذا الكتاب حافل بحكم ومواعظ اتخذت مادتها وجوهرها من كلام سيد البلغاء. تحتوي على مواعظ في محاسبة النفس، وصفات الحاكم وحقه على الرعية وحق الرعايا عليه، وآداب المعاشرة مع الصديق وضرورة اختياره وكيفيته، وذم الخصال المذمومة كالخسد والحقد.

والجدير بالذكر أن ابن المقفع لم يكتف بنقل مضمون كلام الإمام بل قام بدور مفسر لكلامه عليه السلام محاولا تبين مصاديق كلامه وخباياه.

١. قال عليه السلام في تعريف الزهد: وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْبَاقِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الحكمة ٤٣٩).
- وقال ابن المقفع: على العاقل أن لا يحزن على شيء فاتته من الدنيا أو تولى. (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ٢١)، ولا شك أن كليهما تأثر بكلام الله عز وجل: "لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ" (الحديد ٥٧: ٢٣).
- لقد اعتبر ابن حمدون في التذكرة الحمدونية (٢٠٠٣ م، ص ٧٩)، والزنجشيري في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١٩٩٢ م، ج ٢، ص ١٧١) هذه العبارة من كلامه عليه السلام.
٢. قال أمير المؤمنين عليه السلام: أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَخَفَّ بِهَا صَاحِبُهُ (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الحكمة ٤٧٧).
- فذكرها ابن المقفع وأضاف عليها في التعبير وبادر ببيان بعض مصاديق هذه الذنوب وقال: على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والإغفال في الأمور. فإنه من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً فإذا الصغير كبير (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ٢٣).
- وهذه العبارة على رأي ابن حمدون في التذكرة الحمدونية (٢٠٠٣ م، ص ٦٤)، والزنجشيري في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١٩٩٢ م، ج ٢، ص ١٠٨) من كلامه عليه السلام.
٣. أوصى الإمام عليه السلام مالك الأشتر النخعي حين ولاء مصر في القيادة والعلاقات الاجتماعية قائلاً: وَلَئِنْ كُنْتَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيداً لِلْأَهْلِ إِلَى الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وَتَذْهِيباً لِلْأَهْلِ إِلَى الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الرسالة ٥٣/ ٣٤).
- لقد جاء ابن المقفع بهذا المشهد ناصحاً الحكام والعمال وقال: ثم على الملوك بعد ذلك تعهد عمالهم وتفقد أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن وإساءة مسيء. ثم عليهم بعد ذلك أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقرؤا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءة والعجز (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ٢٦).
٤. وفي وصيته لابنه الحسن (عليهما السلام): يَا بَنِيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحِبُّ لْغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاتَّكِرْ لَهُ مَا تُكْرَهُ لَهَا (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الرسالة ٥٥/ ٣١).
- فاستمد ابن المقفع بكلام الإمام عليه السلام وقال: إعدل السير أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ٣٩).
٥. قال عليه السلام: وَلَيْسَ لِرَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ مِنَ الْحَقِّ فِيمَا آتَى إِلَّا مَحْمَدَةُ اللَّئَامِ وَتَنَاءُ الْأَشْرَارِ وَمَقَالَةُ الْجَهَّالِ (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الرسالة ١٤٢).
- وقال عليه السلام في موضع آخر: وَاضِعِ الْعِلْمَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ظَالِمٌ لَهُ (غرر الحكم ودرر الكلم، د.ت، ج ٢، ش ٦٨، ص ٧٨٦).
- فاقتبس ابن المقفع هذا المضمون بقوله: واعلم أنه ليس من علم تذكره عند غير أهله إلا عابوه (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ١٢٧).
٦. قال أمير المؤمنين عليه السلام: فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَنْقُطُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الرسالة ٥٣/ ٣٦).
- استمد ابن المقفع بهذا الكلام حين كتب: لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروح به عن قلبه ويصدر عنه في أعماله (ابن المقفع، ١٩٧١ م، ص ٧٨).
٧. قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَأَمَّا حَمِيٌّ عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالتَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعَوْكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ أَمَرُكُمْ (نهج البلاغة، ١٣٨٧ هـ.ش، الخطبة ١٠/ ٣٤).

ذكر ابن المقفع هذا المضمون تحت عنوان "حق السلطان المقسط" وقال: إن للسلطان المقسط حقا لا يصلح بخاصة وعامة أمر إلا بإرادته، فذو اللب حقيق أن يخلص لهم النصيحة، ويبدل لهم الطاعة، ويكتم سرهم، ويذب بلسانه ويده (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٣٧).
٨. قال أمير المؤمنين عليه السلام: **صَاحِبُ السُّلْطَانِ كِرَاكِبُ الْأَسَدِ يُعْبَطُ بِمَوْقِعِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ** (نهج البلاغة، ١٣٨٧هـ، ش، الحكمة ٢٦٣).

ونرى ابن المقفع يكرر نفس الصورة ويأتي بنفس المفردات: إنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه وهو لمركه أهيّب (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٧٥).
نسب هذا القول لعلي ابن أبي طالب عليه السلام من قبل كل من ابن حمدون في التذكرة الحمدونية (٢٠٠٣م، ص ٤٣٧)، وبهاء الدين العاملي في الكشكول (٢٠٠٣م، ص ٢١٥)، والزنجشيري في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١٩٩٢م، ج ٥، ص ١٩٠).

يستنتج مما سبق أن ابن المقفع استعان في بيان الحكم والمواعظ بكلمات الإمام عليه السلام تعبيراً ومضموناً، كما خط في بداية كتابه أنه نقل من كلام الناس المحفوظ، فإنه وإن نقل من كلام الإمام عليه السلام دون أن يذكر اسمه لكنه لم يقصد السرقة الأدبية المعروفة، فإنه أشار في كتابه: «إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأيت منه رأياً يعجبك فلا تنتحلّه تزينا به عند الناس... واعلم أن انتحالك ذلك مسخطة لصاحبك وأنه فيه مع ذلك عارا وسخفا» (ابن المقفع، ١٩٧١م، ص ٩٨).

فكيف بمن يعتبر الانتحال عيباً وعاراً ويحذر الآخرين منه ويذمه يورد من كلام غيره وينسبه لنفسه وهو القائل: «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه» (المصدر السابق، ص ٢٤)؟ نعم، ليس ذلك إلا خوفاً من السطوة العباسية التي كان هو من عمالها من جانب ومن شيعة ابن أبي طالب عليه السلام من جانب آخر فاتخذ التقية طريقاً لنقل كلام الإمام حتى قيل: «إنه كان علوي السياسة، فارسي النزعة» (الفاخوري، ١٣٧٧هـ، ص ٤٣٨).

لم يورد ابن المقفع كلام إمامه سارقاً له ناسبه لنفسه، وإنما قساوة الظروف أملت عليه أن يعيد كتابة ما قد قاله الإمام إجلالاً له، وليس لأحد أن يتهمة بالسرقة الأدبية.

الخلاصة

- كان ابن المقفع من أكبر مترجمي القرن الثاني للهجرة، متضلعا بحرفة الكتابة وصناعة التأليف، باذلاً غاية جهده وهمه في إصلاح النظام الحاكم آنذاك.
- وقد ترك آثاراً كثيرة من ترجمة وتأليف وسقط أكثر إنتاجه من يد الزمان ولم يصل إلينا إلا كليله ودمته، والأدب الصغير والأدب الكبير، ورسالة الصحابة.
- يجمع الأدب الصغير والأدب الكبير بين دفتيه، المواعظ والحكم الأخلاقية والاجتماعية وكما ذكر المؤلف في بداية الأدب الصغير، أنه وضع هذا الكتاب من كلام الناس، ولم يذكر اسم من نقل عنه، وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ممن أخذ ابن المقفع من معينه.
- كان ابن المقفع شديد التأثر ببلاغة الإمام عليه السلام، حيث نهل من كلامه ما نهل تعبيراً ومضموناً لكن دون أن يذكر اسم الإمام وذلك خوفاً من بطش العباسيين.
- وهناك عبارات ليست بقليلة نقلها ابن المقفع من كلام الإمام عليه السلام بنصها دون أي تغيير.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- نهج البلاغة . ترجمه محمد دشتي . قم : دار الفكر ، ١٣٨٧ هـ . ش .
- ١ . آشتياني ، اقبال . شرح حال عبدالله بن المقفع . تدوين عبدالكريم جزيره دار . تهران : اساطير ، ١٣٨٢ هـ .
- ٢ . الإشبهي ، محمد بن احمد . المستطرف في كل فن مستطرف . شرحه مفيد محمد قميحه . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
- ٣ . ابن أبي الحديد ، عز الدين أبوحامد . شرح نهج البلاغة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . قم : مكتبة آية الله المرعشي النجفي ، ١٣٧٧ هـ . ش .
- ٤ . ابن حمدون ، محمد بن الحسن . التذكرة الحمدونية . الموسوعة الشعرية . الإصدار ٣ . القرص الكمبيوتر . أبوظبي ، الإمارات العربية المتحدة : المجمع الثقافي ، ٢٠٠٣ م .
- ٥ . ابن خلكان ، أحمد بن محمد . وفيات الأعيان . تحقيق حسن عباس . بيروت : دار الثقافة ، د . ت .
- ٦ . ابن الشجري ، هبة الله بن علي . الأمالي الشجرية . الموسوعة الشعرية . الإصدار ٣ . القرص الكمبيوتر . أبوظبي ، الإمارات العربية المتحدة : المجمع الثقافي ، ٢٠٠٣ م .
- ٧ . ابن عبد البر الأندلسي ، محمد . العقد الفريد . شرحه وضبطه أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري . بيروت : دار الكتب العربية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٨ . ابن المقفع ، عبدالله . الأدب الصغير والأدب الكبير . بيروت : دار صادر ، ١٩٧١ م .
- ٩ . ابن نديم ، محمد بن إسحاق . الفهرست . بيروت : مكتبة خياط ، د . ت .
- ١٠ . أنصاري ، محمد علي ، غرر الحكم ودرر الكلم . قم : دار الكتاب ، د . ت .
- ١١ . البغدادی ، عبد القادر بن عمر . خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية . د . ت . د . ن . د . ت .
- ١٢ . البيهقي ، إبراهيم بن محمد . المحاسن والمساوي . بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- ١٣ . التوحيدي ، علي بن محمد . الإمتاع والمؤانسة . صححه خليل المنصور . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
- ١٤ . الجاحظ . عمرو بن بحر . الرسائل . بيروت : دار الجيل ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- ١٥ . — . المحاسن والإضداد . صححه وقدم له علي بوملحم . بيروت : دار مكتبة الهلال ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .
- ١٦ . الجريري النهرواني ، معافي بن زكريا . المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافعي . الموسوعة الشعرية . الإصدار ٣ . القرص الكمبيوتر . أبوظبي ، الإمارات العربية المتحدة : المجمع الثقافي ، ٢٠٠٣ م .
- ١٧ . جمعة ، حسين علي . ابن المقفع بين حضارتين . دمشق : المستشارية الثقافية الإسلامية الإيرانية ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .
- ١٨ . الجهشياري ، محمد بن عدوس . الوزراء والكتاب . تحقيق عبد الحميد أحمد حنفي . مصر : مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٣٨ م .
- ١٩ . الحموي ، ياقوت بن عبدالله . معجم الأدباء . د . م : دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ٢٠ . الزمخشري ، محمود بن عمر . ربيع الأبرار ونصوص الأخبار . تحقيق عبدالأمير مهنا . بيروت : مؤسسة الأعلمي للطبوعات ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

٢١. ضيف، شوقي. العصر العباسي الأول. القاهرة: دار المعارف بمصر، د.ت.
٢٢. العاملي، محمد بن حسين. الكشكول. الموسوعة الشعرية. الإصدار ٣. القرص الكمبيوتر. أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة: المجمع الثقافي، ٢٠٠٣م.
٢٣. العسقلاني، أحمد بن علي. لسان الميزان. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٤. العسكري، الحسن بن عبدالله. المصون في الأدب. تحقيق عبد السلام محمد هارون. الكويت: د.ن، ١٩٦٠م.
٢٥. الفاخوري، حنا. تاريخ الأدب العربي. تهران: توس، ١٣٧٧هـ.ش.
٢٦. كرد علي، محمد. أمراء البيان. بيروت: دار الأمانة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
٢٧. كنوز الأجداد. دمشق: مطبعة الترقى، ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م.
٢٨. محمدي ملايري، محمد. تاريخ و فرهنك ايران. تهران: توس، ١٣٨٠هـ.
٢٩. النويري، محمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. الموسوعة الشعرية. الإصدار ٣. القرص الكمبيوتر. أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة: المجمع الثقافي، ٢٠٠٣م.
٣٠. اليوسي، حسن. زهر الأكم في الأمثال والحكم. تحقيق قصي الحسين. بيروت: دار مكتبة الهلال، ٢٠٠٣م.

السيد حسن نصر الله في الشعر العربي المعاصر

د. عبد العلي آل بويه^(١)

بيوند سفري^(٢)

د. عبد الحسين عباس الحلبي^(٣)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين
يكتسب النتاج الأدبي أهميته من المواضيع التي يتناولها، فأشرف المديح مديح محمد وآله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وأفضل الفخر الفخر بنعم الله سبحانه. من إيمان وتوفيق للجهاد والأعمال الصالحة..
الكتابة الأدبية التي تجعل من حب الأوطان والالتفاف حوا قاداتها الشجعان غرضاً لها من ذلك النتاج الأدبي الشريف الذي ينبغي الاهتمام به وتسلط الضوء عليه ودراسته وتحليله.
وقد وجدنا ان حركة المقاومة الإسلامية اللبنانية وقائدها المجاهد السيد حسن نصر الله، قد لفتت انتباه الأدباء فخصوها بنماذج جميلة من الشعر بنوعيه العمودي والحر وبقصيدة النثر، إلا أن هذا النتاج لم يجد من يخصصه بالدراسة والبحث، فأثرنا أن نكون في مقدمة من يقتحم هذا الميدان ونكتب بحثاً تحت هذا العنوان: (السيد حسن نصر الله في الشعر العربي المعاصر)، جعلناه بتمهيد سلطنا الضوء فيه على أهمية ظهور حركة المقاومة الإسلامية اللبنانية لتعبر عن رفض الشعب العربي المسلم للوجود الأجنبي والاحتلال الاستعماري، ووزعنا بعد ذلك مواد بحثنا على عناوين فرعية أولها: قرين النصر، في الإشارة إلى النتاج الأدبي الذي نظر بتفاؤل إلى الحركة وسيدها وقرن وجودهما بالغد المتألق الذي يتحقق فيه النصر المؤزر على العدوان والاحتلال، وكان ثاني العناوين الفرعية: مواجهة العدو وهزيمته، وأدرجنا فيه ما كتبه الأدباء في جهاد المقاومة الذي حطّم أسطورة العدو الذي لا يقهر من خلال الصمود الأسطوري والقتال البطولي في ساحات المنازلة. وجعلنا (الإمام الحسين عليه السلام) ثالث هذه العناوين، إذ قرن عدد من الأدباء العرب جهاد هذه الفئة من المجاهدين وصمودها إزاء دولة الصهيونية ومن يقف وراءها من القوى الصليبية، بيوم كربلاء

١- جامعة الإمام الخميني الدولية

٢- جامعة الإمام الخميني الدولية

٣- جامعة أهل البيت عليه السلام

الخالد سنة ٦١ هـ وقف سبط رسول الله ﷺ ليهتف هيهات منا الذلة. فكان دريساً ثورياً يستمد منه الثوار في كل مكان وزمان دروس التضحية والإصرار على مواصلة الرفض للظلم بكل أشكاله. وقد اعتمدنا على عددٍ من المصادر منها ما طبع ونشر في الكتب الأدبية والمجموعات الشعرية ومنها ما نشر على شبكة المعلومات العالمية العنكبوتية. نسأل الله - سبحانه - أن يتقبل منها هذا الجهد وأن ينفعنا به وإن نكون قد أدينا بعض الواجب تجاه أمتنا الكريمة ونتاجها الأدبي الملتزم والله من وراء القصد.

تمهيد:

أهمية ظهور حركة المقاومة الإسلامية اللبنانية

خضعت مساحات واسعة من بلاد المسلمين لسيطرة الدولة العثمانية، التي استمرت سنوات طوالاً، عانى المسلمون فيها أصناف التخلف حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨، فهب المسلمون من سباتهم العميق على دوي مدافع نابليون ليروا ما أحضره الفرنسيون معهم من مظاهر المدنية الحديثة من مسارح ومدارس وطباعة وصحف... إلخ^(٤)، وشهدت بلاد المسلمين موجة احتلال أجنبي جديدة فاحتلت فرنسا مصر والجزائر وبلاد الشام واحتلت بريطانيا العراق ودول الخليج العربي واحتلت إيطاليا ليبيا... فقاوم المسلمون هذا الاحتلال، وعبر الشعراء عن رفضهم له بقصائد عدة، تحتل مساحة واسعة من ديوان الشعر العربي الحديث، من ذلك قصيدة الشاعر المصري حافظ إبراهيم التي مطلعها^(٥):

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت

حواشيه حتى بات ظلماً منظماً

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر العراقي محمد حسن أبي المحاسن^(٦):

الشرق يشكو الغرب من أسهم	ترشقه بالكلمات الرشاق
ينظم عصر النور في عهدهم	من ظلمة الظلم بديع الطباق
السيف والمدفع فصل القضا	هذا بأطلاق وذا بامتشاق
والعالم اليوم غدا منهما	في نقطة الظلمة والاحتراق
ما للضعيف عندهم رحمة	ولإن يكن ضاق عليه الخناق

إلى غير ذلك من نماذج أدبية: شعرية، ونثرية كثيرة تحفل بها كتب الأدب العربي الحديث^(٧).

وقد أعقب ذلك زمن خضعت فيه البلاد العربي لحكومات تعلن بعض الشعارات التحريرية والثورية، ولكنها - مع ذلك - لم تقو على صد الهجمات التوسعية العدوانية التي كان يشنها الكيان الصهيوني الغاصب بين الحين والحين.. فقد أنشأ نواة دولته على جزء من فلسطين وصار يتوسع سنة بعد أخرى حتى احتل فلسطين بأكملها، ولم يكتف بذلك وإنما احتل جزء من الأردن وآخر من سوريا وآخر من مصر، ليحقق الحلم اليهودي الصهيوني بالسيطرة على بقعة واسعة من بلاد المسلمين تمتد من الفرات إلى النيل..

٤ - ينظر: في الأدب الحديث، عمر الدسوقي ١: ١٥ - ١٦.

٥ - ديوان حافظ إبراهيم ٢: ١٩.

٦ - ديوان محمد حسن أبي المحاسن ص ١٤١.

٧ - ينظر مثلاً: الأدب العربي الحديث، دراسة في شعره ونثره للدكتور سالم أحمد الحمداني والدكتور فائق مصطفى أحمد ص ٦٢ و ص ٧٨ و... الأدب العربي في كربلاء من إعلان الدستور العثماني إلى ثورة تموز ١٩٥٨ اتجاهاته وخصائصه الفنية للدكتور عبود جودي الحلي ص ٥٧ وما بعدها

كل ذلك ولم يرَ العالم من الحكومات العربية غير الشعارات الثورية، وصارت قواتها المسلحة أداة من أدواتها في قمع شعوبها كما حصل في العراق في أثناء انتفاضة شعبان الباسلة سنة ١٩٩١م، إذ زج النظام الدكتاتوري الطائفي الحاكم -في تلك الحقبة- بالجيش لجرب الشعب الأعزل الذي ثار مطالبا بحقه في الحرية والكرامة والحياة الإنسانية... وهكذا هي الأنظمة الطاغوتية: قمع واضطهاد وفقير مدقع تعاني منه الشعوب المستضعفة، وفساد وإثراء غير مشروع لرجال الحكم..

وهكذا احاطت بإسرائيل المعتدية الغاصبة دول ضعيفة تقوم على أسس طائفية وفتوية واهية نخرتها الانقسامات والتناحرات والقمع والاضطهاد، استطاعت إسرائيل معها أن تتلصق أجزاء جديدة من أرض الدول العربية المجاورة لها.. إلى أن كان ظهور السيد حسن نصر الله، وقيادته لقوة مسلحة من الشعب العربي المسلم في لبنان، استطاعت أن تصمد أمام العدوان الصهيوني وتقف بوجه محاولاته التوسعية بل تمكنت من تحرير بقاع من الأرض اللبنانية من الاحتلال الإسرائيلي.. وهكذا حققت هذه الفئة المؤمنة القليلة من الانتصارات ما عجزت عنه الأنظمة العربية.. التي لم تمد يد الدعم والمساندة للمقاومة اللبنانية وإنما وقفت موقف العداء منها وظهرت فتاوى عدد من وعاظ السلاطين بتحريم تقديم الدعم لهذه الفئة المجاهدة المؤمنة.. بل وحتى تحريم الدعاء لها بالنصر.

والأدباء العرب -كما هو شأنهم وشأن غيرهم من الأدباء في العالم كله- ينظمون إعجابهم بالشخصيات المهمة أوسمة يقلدون بها الأبطال الشجعان من رجال هذه الأمة الكريمة الذين ثبتوا على مبادئهم، وسقوا شجرة الحرية من دمائهم.

لقد استطاعت حركة المقاومة الإسلامية اللبنانية -على قلة عددها- أن تصمد بوجه العدوان الصهيوني متسلحة بإيمان صادق وعزيمة أكيدة فحققت قول الله تعالى: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين)^(٨). وقد كان الشعراء العرب وبخاصة شعراء الجنوب اللبناني الثائر ينشدون مع البندقية الشريفة التي يحملها المجاهدون أناشيد النصر، فتشتد عزيمة المجاهدين على مواصلة السير على طريق المقاومة والجهاد.

١. قرين النصر

سلط بعض الشعراء الضوء على الماضي القريب الذي اقترن بالهزائم المتلاحقة، منذ سنة ١٩٤٨ عندما قام كيان إسرائيل الغاصب إلى انتكاسة ١٩٦٧ عندما استطاعت هذه الدولة الصهيونية الصغيرة، أن تهزم جيوش مصر وسوريا والأردن والعراق مجتمعة، وأن تحتل أراضي جديدة.. واستمرت مسيرة الهزائم إلى أن شد حاكم مصر الرحال إلى هذه الدولة الغاصبة ليستجدي من زعمائها سلاما ذليلا، وليحقق مرحلة جديدة يمكن أن تطلق عليها مرحلة الخنوع والاستسلام، وفي ليل الاستسلام الحالك الظلام يسطع فجأة نجم السيد حسن نصر الله موحدًا جهود فتية آمنوا فزادهم الله هدى.. يقول الشاعر عمر الفراء عن هذا المعنى^(٩):

كنا نعاني القهرَ حتى جئنا

ربّ البرية دون وعْدٍ أرسلك

ريحَ موأينة وفجرَ قادمٍ

أبشر بصر الله قد دارَ الفلك

٨ - القرآن الكريم، سورة البقرة: ٤٩.

٩ - رجال الله، عمر الفراء، بيروت - دار الولاء، ٢٠٠٦، ص ٣٥.

سرب الملائك رافقتك وأنت في

حرّ الهجير بفيء ريش ظلك

يلاحظ على الأبيات الروح الإيمانية والمعاني الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم، فالقائد هياً رب البرية وهو مبشر بنصر الله، تؤيده الملائكة، كما أيدت المؤمنين في زمن الرسول الأكرم محمد ﷺ (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تمزيروا وتكفروا ويأتوك من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين...) (١٠).

ويقترن النصر كذلك بالسيد نصر الله في قصيدة للشاعر هشام عمران، أولها (١١):

بشائر النصر لاحت في سما الوطن

هدية الله أهداها مع الحسن

على يديه تعالى الصوت متشياً

الله أكبر عادت دورة الزمن

وجعله في بيت من القصيدة سيد النصر، يُبشّر به الأجيال من غير أن يمن عليهم:

ياسيد النصر أنت المستعاث به

أنت المبشر في نصر بلا مين

والشاعر يرى أن الله خصّ السيد حسن نصر الله بالنصر، لأنه صاحب حق، ولقد شاء الله - سبحانه - أن يجعل النصر من نصيب أصحاب الحق المدافعين عنه والداعين إليه، يقول:

فصاحب الحق سلطان بقدرته

وقدرة الله تعلو قدرة السفن

وأحسب أنه يريد بـ(قدرة السفن) هذه العدد القتالية، والأسلحة الفتاكة، فإنها مهما بلغت من قوة، فان قوة الله فوقها، وقدرته اللامحدودة.. أكبر من قدراتها في التدمير والفتك، والشاعر يوميء إلى أن قيادة السيد حسن نصر الله مؤيدة من الله - سبحانه وتعالى - لأن السيد من العلماء المؤمنين والله يدافع عن الرجال المؤمنين وينصرهم، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كُورٍ) (١٢)، وقد أفاد الشعراء من لقب السيد حسن الذي يجمع بين النصر ولفظ الجلالة، يقول الشاعر محمد قدسي العاملي (١٣):

يا قائد الركب نصر الله يامثلاً

وياسفينة هذا النصر ربّاناً

ورأى الشاعر حمود درويش في الإستعمار وعملائه: رجلاً مريضاً آن رحيله، وإن المستقبل للمؤمنين الذين يقاثلون في سبيل الله ويتخلقون بأخلاق الإسلام العالية، يقول (١٤):

وتساءل الرجل المريض بعقله

عن سيدي ولمن سيهدى الانتصار

١٠ - القرآن الكريم، سورة آل عمران: ١٢٤.

١١ - بشائر الوعد الصادق، هشام عمران - الشبكة العنكبوتية، الموقع: www.wa3ad.org.

١٢ - القرآن الكريم، سورة الحج: ٣٨.

١٣ - قناديل النصر، محمد قدسي العاملي، بيروت - دار الولاء، ٢٠٠٦، ص ٣١.

١٤ - قصيدة (نصر به شهد العداة)، حمود درويش، الشبكة العنكبوتية، الموقع: www.wa3ad.org.

سأجيبه فيما يليق بشخصه

من غير تكريم له ، بل بإحتقار

النصر يهدى للكرامة نفسه

والطيب الأفعال في كل اعتبار

وكان الشاعر يشير إلى الاستعمار وعملائه ، بأن انفسهم لثيمة وأفعالهم خبيثة ، وهذا واقع كثير من الانظمة الحاكمة التي تغدر بمناوئها وتسوم الأحرار سوء العذاب وتذيقهم مرارة السجون وآلام التعذيب وقد تنتهي بهم إلى القتل ، ومع ذلك هي تعلن شعارات الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان ، حتى أوصلت بلاد العرب والمسلمين إلى مرحلة من الدكتاتوية وانتهاك الحريات والاعتداء على الشعوب .. ربما تفوق في ظلامها عصور التخلف والاستعباد السالفة ، وفي ظل هذا الواقع المؤلم يبرز فجر جديد تسوده المبادئ السماوية والخلق السامية ، وهو يبشر برفعة الأمة وبلوغها المرحلة التي ارادها الله لها في قوله الكريم : (كُتِبَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...) ^(١٥) ، يقول الشاعر في القصيدة نفسها :

في نصر نصر الله رفعة أمي

وسموها وبلوغها مجد الفخار

وقد أفاد الشاعر عباس علي فتوني من وعد الله بنصر المؤمنين ، كقوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) ^(١٦) . فقال الشاعر ^(١٧) :

والنصر وعد من نصير قاهر	نعم النصير الواحد القهار
هذا أبو هادي شعاع هداية	يعلو محياه الوسيم وقار
لن يخرق الديجور نافذة الضحى	والسيد "الحسن" الأمين منار

ويستلهم الشاعر العراقي مظفر النواب آيات القرآن الكريم ، وهو ينظم مشاعره تجاه نصر حقيقي صنعتها سواعد رجال مؤمنين توكّلوا على الله - سبحانه - فأيدهم ونصرهم ، بخلاف ما تحقّقه بعض الأنظمة من نصر تهبه الدول العظمى للعملاء وللحكومات المتحالفة معهم . يقول ^(١٨) :

يا سيدي حسن
في جنبك الخوف أمان

.....
يتلفع نصر الله إذا جاء
بآيات القرآن

هذا الفتح من الله ومن مارون الراس

١٥ - القرآن الكريم ، سورة آل عمران : ١١٠ .

١٦ - القرآن الكريم ، سورة النور ٥٥ .

١٧ - باقات شعرية : عباس علي فتوني ، بيروت - دار الهادي ط / ١ - ٢٠٠٧ ، ص ١٢٥ .

١٨ - قتاديل النصر : قدسي العاملي ، بيروت - دار الولاء ، ٢٠٠٦ ، ص ١٠٤ .

لا من عند الأمريكان

فسبح بحمد ربك

واستغفره

لن تبقى حيفا هادئة

بعد الآن

فالشاعر يستلهم القرآن الكريم فينظر في سورة النصر (ذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ دَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) ^(١٩) ويصوغ منها قلائد مشاعره، متوقعا أن رنين أجراس النصر في جنوب لبنان سيتردد صداها في (حيفا) وفي المدن الفلسطينية الأخرى. ويفيد الشاعر من لقب السيد حسن (نصر الله) فيستعمله على سبيل التورية في قوله: يتلفع (نصر الله) إذا جاء

بآيات القرآن

ولعل في ذلك إشارة إلى ان السيد حسن نصر الله هو من رجال الدين الإسلامي، ويتخذ من زيههم شعاره.

ويعرض الشاعر أحمد مطر ان ظهور المقاومة في جنوب لبنان بقيادة السيد حسن نصر الله تحول كبير، فقد كان لبنان بشكل عام -والجنوب اللبناني- بشكل خاص- مسرحا لعمليات عسكرية تقوم بها القوات المسلحة الصهيونية ولا يردعها رادع، وكانت سماء لبنان مباحة للطيران الصهيوني، وكانت يد الصهاينة تمتد إلى أية بقعة من البلاد العربية والإسلامية تعبت بها وتسيء إلى شعبها، حتى كانت المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان، يقول الشاعر ^(٢٠):

الجهات الأربع الجنوب

كل وقت

ما عدا لحظة ميلادك فينا

هو ظل لنفايات الزمان

كل أرض

ماعد الأرض التي تمشي عليها

هي سقط من غبار اللامكان

كل كون

قبي أن تلبسه.. كان رمادا

كل لون

قبي أن تلمسه.. كان سوادا

كل معنى

قبل ان تنفخ في معناه نار العنفوان

كان خيطا من من دخان

١٩ - القرآن الكريم، سورة النصر.

٢٠ - روائع الشعر العربي في المقاومة وسيدها: أحمد علي، بيروت - دار زيوان ط / ١ - ٢٠٠٧م، ١٤٢٨هـ، ص ٥٩.

يلاحظ في أبيات الشاعر مقدار تمكنه من أدوات فنّه ومقدرته على توظيف الحواس ومقدرته على الموازنة بين ما كان من أوضاع الأمة من تردي وانهايار وبين ما صار عليه الأمر بعد انطلاق انتفاضة الجنوب. ويؤكد هذه المعاني في قوله:

لم يكن قبلك للعزة قلب
لم يكن قبلك للسؤدد وجه
لم يكن قبلك للمجد لسان
كل شيء حسن ما كان شيئاً
ياجنوبي
ولما كنت كان

.....

كانت الساعة لا تدري كم الساعة
إلاً

بعد ما لقنها قلبك درس الحفقان
كانت الأرض تخاف المشي
حتى علمتها دقات الدم في قلبك
فن الدوران.

وهكذا كان الشعر العربي يزغرد لبشائر النصر التي لاحت في سماء جنوب لبنان الذي احتضن المقاومة الإسلامية الرائعة بقيادة المجاهد السيد حسن نصر الله.

٢. مواجهة العدو وهزيمة:

وكما تغنى الشعر العربي بالنصر وبما لاح من بشائره في سماء المقاومة الإسلامية، فإنه وجد في شجاعة المقاتلين العرب والمسلمين ما يشير بهزيمة الباطل المتمثل بالعدو الصهيوني المحتل، الذي عجزت الحكومات العربية والانظمة المتخاذلة من الوقوف بوجه أطماعه، لكن العقل الراجح والقيادة الحكيمة أحالت اسطورة الكيان الصهيوني الذي لا يغلب إلى سراب، ويستلهم الشاعر ما ضربه القرآن الكريم من مثل للذين (اتخذوا من دون الله أولياء) (٢١)، فيقول (٢٢):

أسطورة هذا الكيان وخدعة

الطفل يهزأ خفة ونساء

أو عنكبوتاً بل وأوهى ركنه

من صفة لا يستقيم بناء

إن العدو يتمكن من احتلال الأرض ونهب الثروات متى ما تخاذلت الدول عن صده والوقوف بوجهه، إلا أن الشعب المؤمن بالله وبحقه في الدفاع عن ثرواته وأرضه فانه سيسحق غطرسة الأعداء ويمزق صفوفهم، يقول الشاعر هشام عمران (٢٣):

ياسيد النصر يا نبراس أمتنا

حطم بسيفك رأس المارد العفن

٢١ - القرآن الكريم - سورة العنكبوت: ٤١.

٢٢ - الملحمة الكبرى: أيام الوعد الصادق، محمد قدسي العاملي - بيروت، دار الولا، ٢٠٠٦، ص ٧٢.

٢٣ - شبكة المعلومات العنكبوتية: www.wa3ad.org.

مزق بكفك أرتالاً مدرعة

وارفع لواءك بالأرجاء والمدن

ومما أفاد منه الشعراء في صورهم الشعرية، ان للسيد حسن نصر الله نسبا شريفا يتصل بأمر المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الذي قاتل الطغاة وجندل سيفه "ذي الفقار" الأبطال، ولا سيما في يوم خيبر، عندما وصفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً عنه (رجلا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار)^(٢٤) وهكذا كان وفتح الله خير على يد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ولذا لاحظ الشاعر قدسي عاملي ذلك وأشار إلى الصلة بين الجد وحفيده، فوصف السيد حسن نصر الله بسيف (ذي الفقار) الذي يرغب الأعداء من اليهود والصهيانية في الماضي والحاضر، فقال^(٢٥):

هو أنت موت للأعادي قادم

فلا سمك ارتجف العدى وانهاروا

ياذا الفقار العصر يا ابن محمد

ارجم بكفك فاليدان جمار

ارم الطغاة بوعدك الزاهي ضحى

فبوعدك انسحق الطغاة وخاروا

ورأى الأديب تيم البرغوثي في السيد حسن نصر الله الأمل الذي انتظرت له الأمة طويلاً بعد قرون لم يعرف المسلمون فيها غير الانتكاسات وكأنه الفجر الذي أعقب ليلاً طويلاً كان الرجحان فيه من نصيب الأعداء من صليبيين وصهيانية امتلكوا سلاحاً لم يكن مع المسلمين مثله.. إلى كانت الحركة التي قادها السيد حسن نصر الله.. يقول^(٢٦):

وامتدت اليد إلى السماء

ونزعت الليل عنها برفق

نزعت الضماد أو اللثام

فاذا تحته ليل آخر

فنزعت أيضاً

وهكذا ليلاً بعد ليل

كأنها تقلب صفحات في كتاب

وكلما قلبت صفحة منه

شفت الصفحات الباقيات عن كلام ما:

ألا ترى النبوءة

سلاحهم يهوي

وسلاحنا يصعد

٢٤ - السيرة النبوية لأبن هشام ٣: ٣٤٨ وينظر في (يوم خيبر) أيضاً كتاب حياة محمد لمحمد حسين هيكل ط / إيران ١٤٢٨ هـ.

٢٥ - الملحمة الكبرى، أيام الوعد الصادق، قدسي عاملي، ص ٢٤.

٢٦ - المقطوعة في شبكة المعلومات الدولية www.elshare3-adab.blogspot.com.

ان الأسلحة مهما كانت قوتها التدميرية كبيرة، فانها لا تقوى على ان تهزم النفوس المؤمنة، وان النصر لا تحققه البنادق وحدها وانما الأيادي المؤمنة التي يضعف إزاءها الأعداء مهما خططوا وسلحوا وأشاروا واستشاروا، يعبر الشاعر درويش محمود عن ذلك بقوله^(٢٧):

فحصون أمريكا وكل عتادكم صاروخ جند الله أصلاها بنار
والمروحيات التي قد أسقطت وغدت بوارجكم رمادا في البحار

وهنا يلاحظ ان الشاعر يذكر الأسلحة من صاروخ ومروحيات وبوارج، مما يزيد على ما في الشعر من فن، بأن يتحول إلى وثيقة تؤرخ لمعارك جند الله التي دكت فيها بوارج العدو ومروحياته، وزاد على ذلك بذكر أسماء عدد من طغاة الأعداء كقوله:

أولرت لم ينفك بوش بسلاحه وبمدكم في كل أشكال الدمار

٣. الإمام الحسين عليه السلام:

الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، نموذجٌ فريد لا يزال الأجيال تعجب من صلابته رفضه للظلم، وعظيم تضحيته: بالأصحاب والأولاد والنفس... من أجل إعلان مبادئ الإنسانية التي بشر بها سيد الكائنات جده محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ويمثل أعداؤه النموذج السيء للظلم والاستكبار والطغيان، إذ عمد هؤلاء إلى منعه من الماء وقتل أبنائه أطفالا وكبارا.. ولم يكتفوا بكل ذلك وإنما جالوا بخيولهم على جسده الشريف وأجساد أبنائه وأنصاره، واحتزوا رؤوسهم ورفعوها على الرماح وساروا بها وبأسر الشهداء من بلد إلى بلد وسط إعلام ظالم يصف الثوار بما لا يليق بهم^(٢٨).

والسيد حسن نصر الله، شأنه شأن عدد كبير من الشخصيات الثورية، جعل من الإمام الحسين عليه السلام مثالا يقتدى به، مع انه من أحفاده، ولذا أكثر الشعراء من ذكر الإمام الحسين عليه السلام في أثناء ذكرهم لحفيده السيد حسن نصر الله. وللأديب تميم البرغوثي مقطوعة يستلهم بها التراث الأدبي القديم وبخاصة الوقوف على الأطلال والبكاء على ذكريات الأجداد ثم يشير إلى علاقة النسب الشريف التي تربط السيد حسن نصر الله بسيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام، يقول^(٢٩):

لقد كنت أبكي في طول لأجدادي
فأصبحت أبكي في طول لأحفادي

امتدت يد من روائي

تعدت أربعة عشر قرنا

لا تخف لست وحدك، مادنا معك فلن تنقطع

والتفت فاذا بهم جميعا هنا

.....

وسطهم على شاشة الفضائية

نظرت إليه

٢٧ - من قصيدة (نصر به شهد العداة)، في شبكة المعلومات الدولية www.wa3ad.org.

٢٨ - ينظر في التعريف بالإمام الحسين ونهضته المقدسة.

١ - ترجمة ريحانة رسول الله (ص) الإمام الحسين (ع) من تاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر.

٢ - مقتل الحسين (ع)، لوط بن يحيى الأزدي الغامدي.

٣ - حياة الإمام الحسين بن علي (ع)، باقر شريف القرشي.

٢٩ - النص على شبكة المعلومات الدولية www.elshare3-adab.blogspot.com.

أُمير المؤمنين بعمامة سوداء
علامةً نسبةً للحسين بن علي بن أبي طالب
ثم إن العرب إذا طلبت الثأر تعممت بالسواد
ثم انه ذكرني
وكنت قد نسيت
إنني ذو كرامة على الله
من آل بيت الرسول يا حسين
ولقد رأى بعض الشعراء في انتساب السيد حسن نصر الله إلى الإمام الحسين عليه السلام تعبيراً عن استمرارية الثورة ورفض الظلم منذ يوم كربلاء الخالد كقول الشاعر عبد الله الأسعد^(٣٠) :
حيّاك يا ابن الحسين الفذ يا أملاً

ريان لأمسه الاملاق والجرد

يا جذوة المجد في هذا الدجى سلمت

على المدى تلتظي فينا وتتقد

وفي مقطوعة للأديب رامي فارس لم يكتف الشاعر بأن ينظر للسيد حسين نصر الله على انه ورث الثورة عن جده الإمام الحسين عليه السلام وإنما يجعله وارثاً لقيم السماء ومطبقاً لشرائع الأنبياء، يقول^(٣١) :
السلام على العمامة السوداء
وعلى حفيد الأنبياء
وعلى سيد الشهداء
وأصدق الأبناء
السلام على السيد حسن نصر الله.

وفي مقطوعة أهداها كاتبها إلى سماحة السيد حسن نصر الله وأبطال المقاومة، رأى ان وجه هذا السيد هو امتداد لوجه الإمام الحسين عليه السلام ولعل هذا يدل على إحساس الأديب بأن ثورة الجنوب اللبناني التي يقودها السيد حسن نصر الله ما هي الا امتداد للثورة الحسينية.. بقول الأديب فتحي حمد الله في قصيدة "يوم النصر"^(٣٢) :

القذائف أخطأت

صدر البطولة

والقصائد أخطأت

وأنت يا من تحممت بالحن

أخطأت من

يممت وجهك شطر نصر

وقبضت بالكف المناضل

مشهدك

وصرخت في جوف

٣٠ - نشيد المقاومة: عبد الله الأسعد، قم، المؤسسة الإسلامية العامة للتبليغ والإرشاد ط/١ - ٢٠٠٧م، ص ٤٢.

٣١ - ينظر النص على شبكة المعلومات الدولية www.wa3ad.org/arabik

٣٢ - النص في شبكة المعلومات العنكبوتية 2006 tliff.blogspot.com

الضمير المتهرئ

اليوم أمر

وجه الحسين يطل من

بين العمامة كل يوم

ان وحدة الهدف ، وسبل الجهاد وعظيم التضحية وغيرها من أمور تفرض على الذهن ان يحاول إيجاد رابطة مع رابطة النسب ، تؤثق حركة المقاومة الإسلامية بيوم كربلاء الخالد سنة إحدى وستين للهجرة . وجاءت هذه الموازنة بين كربلاء والمقاومة اللبنانية الباسلة في أجلى صورها بقصيدة (هو أنت نصر الله) التي يفتتحها شاعرهما محمد قدسي العاملي بقوله^(٣٣) :

ياسيد الشهداء يأتيك الصدى عن ثلة هي للفخار عماد
من كربلاء نهلت معين لبائها ولنينوى من شوقهم كم نادوا
دحروا اليهود عن الجنوب وأصبحوا رمز الفداء وفي الوطيس جهاد

وفي القصيدة ظهر الماضي المجيد لأمة شهدت جهاد المرتضى علي بن أبي طالب عليه السلام وشهدت كذلك نهضة أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام ، وهي تشهد اليوم هذا الصمود الاسطوري الذي جعل اسطورة التفوق العسكري الصهيوني تتهاوى أمام قيادة السيد حسن نصر الله.. ويكرر الشاعر ضمير الغائب (هو) ليزيد من بيانه وليؤكد إعجابه بقيادة هذا السيد المجاهد ، والتكرار من أساليب الكلام العربي في التوكيد ، وقد اتخذ منه القرآن الكريم وسيلة بيانية لتوكيد معاني كلام الله المجيد ، ولعل ما ورد في سورة الرحمن - عز وجل - من تكرار ما يؤكد ذلك^(٣٤) ، يقول الشاعر :

هو سيد التحرير قائد نهضة هو في الصلابة صخرة وعناد
هو من هتاف المرتضى انشودة ولصبحنا ذاك الخبا ميلاد
هو من حسين غضبة ومودة جمعت بشخصه هذه الأضداد
هو أنت نصر الله قائد زحفنا أنت البطولة والورى أشهاد

ان الانظمة العربية وعلى امتداد التاريخ لم تقو على تسجيل انتصار عسكري على الكيان الصهيوني الغاصب ، وقد استطاعت المقاومة الباسلة ما لم تستطعه الدول الكبيرة بفضل قيادتها الحكيمة المتمثلة بالسيد حسن نصر الله الذي أحب الله وأحب شعبه فأحبه الله وأحبه الشعب ، يقول الشاعر محمد البرغوثي^(٣٥) :

رجل في أمة يدعى "حسن" ثم أضحي أمة في رجل هذا "الحسن"
ما الذي يرفع إنساناً إلى هذا المقام غير حب الله والناس معاً

والقادة العظام -على مر التاريخ- يبادلون شعوبهم وداً بود ، وهكذا كان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الكرام عليهم السلام وكانوا يوصون بحبيهم بذلك ، روى ان اسحق بن عمار قال : قال لي أبو عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) : (يا إسحاق صانع المنافق بلسانك وأخلص ودك للمؤمن ، وإن جالسك يهودي فأحسن مجالسته)^(٣٦) ، وفي النص كذلك استلهم قرآني إذ (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله

٣٣ - قتاديل النصر: محمد قدسي العاملي ، بيروت - دار الولاة ، ٢٠٠٦م ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

٣٤ - ينظر البحث الموسوم (دلالة الثنية في سورة الرحمن) للدكتور عبود جودي الحلبي المنشور في مجلة جامعة بابل ، العدد ١ ، المجلد ٧ ، تموز ٢٠٠٢ ، ص ٣٥٥ - ٣٧٤ .

٣٥ - شبكة المعلومات العنكبوتية www.majeedbarghouthi.net .

٣٦ - من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤ : ٤٠٤ .

حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٣٧) وقد أخذ هذا المعنى شاعر آخر عندما جعل الإمام الخميني أمة وشبه به سماحة السيد حسن نصر الله، قال الشاعر عباس علي الفتوني^(٣٨):

هو نصر الله مهوى المقل بسمه القدس شعاع الأمل
هو منوال الإبا بل إنه كالخميني أمة في رجل

ومما يشبه النهضة الحسينية من المقاومة اللبنانية الباسلة أن فئة قليلة ثبتت إزاء جيش دولة، فالإمام الحسين بن علي عليه السلام أثار بسبعين من أصحابه وأهل بيته ضد دولة كبيرة بما تملك من قوات مسلحة وأموال وأجهزة إعلامية، وكذلك الأمر بالنسبة للمقاومة الإسلامية اللبنانية التي لا تمتلك إلا الإيمان بعدالة قضيتها وحكمة قائدها فانها استطاعت ان تحقق الانتصار على دولة الكيان الصهيوني الغاصب بكل ما يملكه من أجهزة عسكرية وإعلامية وبكل ما يحصل عليه من دعم استعماري صليبي، حتى اعتاد الذهن على فكرة التفوق العسكري الصهيوني الذي عجزت الدول العربية عن الصمود في معاركها المتعددة معه، وعندما ظهرت المقاومة الباسلة بقيادة السيد حسن نصر الله توقع الكثيرون انها ليس أكثر من حركة جنونية انتحارية سرعان ما يقضي عليها العدو، ولعل في قصيدة شاعر المدينة المنورة عبد المحسن حليت إشارة جلية إلى ذلك.. يقول^(٣٩):

وفي جنونك عقل نستتير به فكلنا معك مجنون ومنتحر
نعم عشقناك خبأناك في دمننا لأنك الطيش والأهوال والخطر
فأنت في شارع التاريخ منعطف وأنت "مبتدأ" التاريخ و"الخبر"

ولا يخفى ما في ثالث الأبيات من توظيف جميل للمصطلح النحوي، في تورية جميلة نحسب أن الشاعر يريد ان يعبر عن حركة المقاومة الإسلامية بأنها فجر عصر جديد يبشر بالنصر المؤزر بعد ليل الانتكاسة الطويل، وانه سيحقق أمل الأمة في القضاء على العدو الصهيوني وكيانه الغاصب، لأن الجملة بمبتدئها وخبرها تتم فلا تحتاج إلى ما يوضح معناها..

ومن أوجه الشبه بين قيادة السيد حسن نصر الله والإمام الحسين عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى - جعل في قلوب اتباع كل منهما من الود لهما والحب الصادق لشخصيهما، فالإمام الحسين عليه السلام جعل الله له من الأتباع والجنود الذين صمدوا وهم ليسوا غير فئة قليلة إزاء جيش دولة يملك من القوة والعدة والعدد ما يضمن له التفوق العسكري، وقد سمح الإمام الحسين عليه السلام لأتباعه بالتفرق عنه والنجاة بأنفسهم مساء يوم التاسع من شهر محرم الحرام سنة ٦١ هجري إلا أنهم رفضوا بإباء وكان الشهيد منهم يوصي في آخر لحظات عمره بالاستمرار في صراع الدولة الأموية ونصرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام... وهكذا هو الأمر في مقاتلي حركة المقاومة اللبنانية الإسلامية فان هؤلاء التقوا حول قيادة السيد حسن نصر الله التفافا واعيا وصمدوا صمودا عجيبا ازاء دولة لها من الامكانيات العسكرية والقدرات التسليحية مما تمدها به الدول الصليبية الاستعمارية ومع ذلك عجزت هذه الامكانيات والقدرات عن القضاء على الفئة القليلة التي آمنت بربها وبعقيدتها وحقها وحق بلدها في الحياة الآمنة المستقرة، وقبل هذا وذاك فانها محضت قائدها السيد حسن نصر الله الود واخلصت له في الحب.. يقول الشاعر محمد قدسي العاملي^(٤٠):

يا قائد الزحف نصر الله يا مثلاً يهواك شعبي فأنت الرمز والعلم

٣٧ - القرآن الكريم - سورة النحل: ١٢٠.

٣٨ - باقات شعرية: عباس علي فتوني، بيروت - ٢٠٠٤، ص ١٦٣.

٣٩ - شبكة المعلومات العنكبوتية www.wa3ad.org.

٤٠ - قناديل النصر: محمد قدسي العاملي، بيروت - دارالولاء ٢٠٠٦م / ١٤٢٧هـ ص ٩٧.

وقولك السيف والهندية الخزم
فالحرف قبله والمدفع القلم

ماضي عزمك الصوان جوهرها
فترعب الكفر من قول ومن نطق

إلى ان يقول :

كنا جنودك والأسوار نقتحم

لو خضت نهرأ وبحراً أو علوت سماً

ويتضح من مقطوعة الأديب علي عباس "مشتاقون" أنّ المقاتلين المسلمين اللبنانيين انما يجدون في الدفاع عنه والالتزام بأوامره لانهم يرون فيه امتداداً لأجداده الطاهرين الذين أمر الله بمودتهم يقول^(٤١) :

ياورث الأنبياء

يا حفيد الحسين

...

...

لن يصلوا إليك وأصابنا جمر

توقدها كلماتك

...

...

أني شئت صوبنا سلاحنا

لك العهد يا ابن فاطمة

يا أسد المقاومة

أنت الوعد الصادق

انه.. الوعد الصادق

لن نترك السلاح

ولقد بنى الشعراء العرب -وهم لسان حال الأمة- الآمال الجسام على المقاومة الإسلامية، ليس في المحافظة على لبنان من أن تبتلعه الأطماع الصهيونية والصليبية فحسب وانما في انتزاع الأراضي العربية التي احتلها الصهاينة المستعمرون، وإنقاذ المقدسات من الاحتلال، يقول الأديب علي عباس من مقطوعته "يا وادي"^(٤٢) :

فلسطين..

إننا قادمون

فقد سبقتنا رايتنا

وفيها وجد محمد

والذين معه

أشد من جبروتهم

يرجعون وديعة الأرض

فالأرض يرثها الغالبون

"فان حزب الله هم الغالبون"

٤١ - ما بعد بعد: علي عباس - بيروت، دار الهادي ط/٢ - ٢٠٠٧، ص ٧٢.

٤٢ - قناديل الذاكرة: علي عباس، بيروت - دار الهادي ٢٠٠٦، ص ١١٧.

يلاحظ على المقطوعة حرص الأديب على الإعلان عن انتماء المقاومة للإسلام ولمحمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام، مع ما فيها من استلهاهم قرآني إذ (أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)^(٤٣)، ووظف الأديب كذلك قوله تعالى (فَإِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)^(٤٤) للتفاؤل بالنصر والغلبة إن شاء الله -تعالى- لهذه الفئة المجاهدة.

وتتصاعد وتائر التفاؤل لدى أديب آخر فيرى أن الأهداف الرائعة التي تتطلع الأمة إليها هي التي تسعى لتكون بين أيدي المجاهدين وليسوا هم من يسعون إليها، ويرون في فجر المقاومة الإسلامية بشرى تحرير المقدسات من أسر الاعداء، يقول الشاعر عدنان الموسى من قصيدة (نصر الهامات الخاشعة)^(٤٥):

مسرى النبي المصطفى يسعى لنا

يا صخرة ميدي فلا عاش الخضوع

لبي ندا العدنان لا تستسلمي

بالروح نفدي قدسنا لا بالدموع

وهكذا تبنى الأمة آمالها على هذه الفئة المجاهدة التي ستكون نواة تجمع طاقات الأمة جميعها لتحقيق النصر المؤزر على الأعداء والطامعين ويزنغ عندئذ الفجر المتألق الذي يجعل أمتنا الكريمة في المكانة التي يريدها الله لها (كنتم خير أمة أخرجت للناس)^(٤٦)، تقودهم إلى غدهم الذي يحيا الناس فيه العدالة الحقيقية والسعادة الأبدية والنعيم الذي خلقهم الله من أجله.

وفي الختام، فإن الأدب العربي عموماً والشعر منه خصوصاً واكب عدداً كبيراً من الحركات السياسية والثقافية، قديماً وحديثاً، وحركة المقاومة الإسلامية اللبنانية وقائدها سماحة العلامة السيد حسن نصر الله من الحركات التحررية الإسلامية الحديثة، ساندتها الأدباء بما أبدعوه من نتاج ثوري إسلامي ساند وأزر البنديقية الشريفة التي تحملها أيدي المجاهدين الأبطال. وهذا النتاج الأدبي توافرت فيه عناصر الإبداع ومظاهر الجمال الفني، مع أنها من ذلك النوع من الأدب المقاتل الذي تكمن قيمته في المناسبة الجهادية التي يؤرخ لها ويخلد مآثرها. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم (تنزيل من رب العالمين).

٢. الكتب المطبوعة:

٢. الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره / د. سالم أحمد الحمداني و د. فاروق مصطفى أحمد. طبع في مطبعة جامعة الموصل، العراق.
٣. الأدب العربي في كربلاء من إعلان الدستور العثماني إلى ثورة ١٩٥٨ / د. عبود جودي الحلي. ط ٢ / كربلاء. مكتبة الحكمة ٢٠٠٩م / ١٤٣٠هـ.
٤. باقات شعرية / عباس علي فتوني، بيروت ط ١ / دار البادي ٢٠٠٤م / ١٤٢٥هـ.
٥. ترجمة ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الحسين (عليه السلام) في تاريخ مدينة دمشق للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر ت ٥٧١هـ / تح / الشيخ محمد باقر المحمودي ط ٢ / قم، إيران ١٤١٤هـ.

٤٣ - القرآن الكريم - سورة الأنبياء: ١٠٥.

٤٤ - القرآن الكريم - سورة المائدة: ٥٦.

٤٥ - شبكة المعلومات العنكبوتية www.wa3ad.org/2008.

٤٦ - القرآن الكريم - سورة آل عمران: ١١٠.

٦. حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام دراسة وتحليل / باقر شريف القرشي / تح: مهدي باقر القرشي ، إصدار: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة ط ٢ / ٢٠٠٨م / ١٤٢٩هـ.
٧. حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم / محمد حسين هيكل - تعليق وتحقيق: المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام ط ١ / سنة ١٤٢٨هـ.
٨. ديوان حافظ إبراهيم ، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه : أحمد أمين وأحمد الزين ، وإبراهيم الاياري ط / دار الجيل بيروت ١٩٨٨م - ١٤٠٨هـ.
٩. ديوان محمد حسن أبي المحاسن الكربلائي / تحقيق: محمد علي اليعقوبي ، ط ٢ / مؤسسة المعارف للمطبوعات - بيروت ٢٠٠٠م / ١٤٢١هـ ، طبع مع كتاب محمد حسن أبي المحاسن دراسة في حياته واتجاه شعره السياسي. للباحث نوري كامل محمد حسن.
١٠. رجال الله / عمر الفراء. بيروت ط ١ / دار الهادي ٢٠٠٧م / ١٤٢٨هـ.
١١. روائع الشعر العربي في المقاومة وسيدها / علي أحمد ، بيروت ط ١ / دار زيان ٢٠٠٧م / ١٤٢٨هـ.
١٢. السيرة النبوية لأبن هشام تح: مصطفى السقا ، إبراهيم الاياري ، عبد الحفيظ شلبي ط / بيروت دار إحياء التراث العربي.
١٣. في الأدب الحديث / عمر الدسوقي ط / دار الفكر العربي.
١٤. قناديل الذاكرة / علي عباس - بيروت ط ١ / دار الهادي ٢٠٠٦م / ١٤٢٧هـ.
١٥. قناديل النصر / قدسي العاملي - بيروت / دار الولاء ٢٠٠٦م / ١٤٢٧هـ.
١٦. ما بعد بعد / علي عباس - بيروت ط ٢ / دار الهادي ٢٠٠٧م / ١٤٢٨هـ.
١٧. مقتل الحسين عليه السلام / لوط بن يحيى بن سعيد بن مخلف بن سليم الازدي الغامدي المطبعة العلمية / قم. تاريخ مقدمة الناشر ١٥ شوال ١٣٩٨هـ.
١٨. الملحمة الكبرى (أيام الوعد الصادق) بيروت - دار الولاء ٢٠٠٦م / ١٤٢٧هـ.
١٩. من لا يحضره الفقيه لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ت ٣٨١هـ. تح: السيد حسن الموسوي الخرسان ط ٥ / طهران ١٣٦١هـ.
٢٠. نشيد المقاومة / عبد الله الاسعد ، قم / المؤسسة الإسلامية العامة للتبليغ والإرشاد ط ١ / سنة ٢٠٠٧م / ١٤٢٠هـ.

- الدوريات

٢١. مجلة جامعة بابل المجلد ٧ / العدد ١ / تموز ٢٠٠٢. دلالة الثنية في سورة الرحمن / د. عبود جودي عبود الحلبي ص ٣٥٥ - ٣٧٤.

- شبكة المعلومات العالمية العنكبوتية:

- www.elshare3-adab.blogspot.com
- www.majeedbarghouthi.net
- www.wa3ad.org
- tlafif.blogspot.com/2006

الطباق في الصحيفة السجادية

د. جعفر علي عاشور^(١)

م.م. هدى حسين

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق محمد وآله الطاهرين، وبعد
فالعربية زاخرة بالاساليب والفنون البلاغية، التي تثير النص، وتشظي الدلالة، والطباق أحد هذه
الفنون، ومن هنا ارتأينا ان ندرس هذا الفن في كتاب (الصحيفة السجادية) للإمام زين العابدين عليه السلام، لنتبين
كيفية توظيف هذا الفن، وأثره في الدلالة، وقد قسم البحث على فقرات عدة؛ بدأنا ببيان معنى الطباق،
ومن ثم دراسة تحليلية لنماذج تطبيقية من أقوال الإمام عليه السلام، تلاها ملاحظ احصائية حول الطباق في
الصحيفة، وختمنا ذلك بخلاصة ثم اهم نتائج البحث.
وبعد، فلم يدع باحث قبلنا لبحثه الكمال، وما كان لنا ان ندعيه لبحثنا هذا، ومن الله التوفيق

الطباق

الطباق احد فنون علم البديع، وهو "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى
الحال ووضوح الدلالة".^(٢)
والبديع على قسمين: بديع يحسن به الكلام من جهة المعنى، فهو معنوي، وبديع يحسن به الكلام من
جهة اللفظ فهو لفظي. والى البديع المعنوي يرجع الطباق^(٣).
وقد ورد في العين ان الطباق لغة من قولهم "طابقت بين الشيئين : جمعتهما على حذو واحد،
وألزقتهما"^(٤)، اي ان الطباق له دلالة الموافقة بين الشيئين. اما اصطلاحا فهو على العكس من ذلك، "الجمع

(١) كلية الآداب، جامعة أهل البيت عليه السلام

(٢) الإيضاح، الخطيب القزويني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: ٣٣٤.

(٣) على ذلك اجماع البلاغيين، وشذ عنهم السكاكي إذ أدخل الطباق والمقابلة في المحسنات اللفظية. ط: مفتاح العلوم،
السكاكي، القاهرة، ١٩٦٠ ما بعد ص ٢٠٠.

(٤) العين: مادة طبق

بين لفظين متضادين (متقابلين) في الكلام^(٥). كالبياض والسواد، والعلم والجهل، والحق والباطل، الخ. ورأى البعض ان الطباق له دلالة المشقة، بدلالة قوله تعالى "لتركن طبقاً عن طبق"^(٦) اي مشقة بعد مشقة، ولما كان الجمع بين الضدين شاقاً سمي الكلام الذي يجمع بين الضدين وطباقاً^(٧). وللطباق أسماء أخرى عدة منها: المطابقة، والتطبيق، والتضاد^(٨).

والطباق من الاساليب العربية المعروفة، اغرم بها الادباء، وارودوها في نصوصهم للتدليل على تمكنهم من اللغة، وتبحرهم في المفردات، وقدرتهم على الامساك بخاصية المعاني، كما زخر القرآن الكريم بباقيات من هذا الاسلوب البلاغي.

ويتجلى تأثير الطباق في انه يجمع بين الاضداد فيخلق بذلك صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه فيتبين ما هو حسن منها، ويفصله على ضده.

ولتوضيح الكلام نقراً قول الإمام عليه السلام: **"اللهم إني أعوذ بك... ومن نار نورها ظلمة.... وبَعِيدُهَا قَرِيبٌ"**^(٩)

فقد أجرى الإمام طباقاً بين النور والظلمة، وبين البعد والقرب، والتقابل بين هاذين الزوجين من الوحدات موجود في المعجم ويمكن اجراءه في الكلام على وجوه عدة، وايراد الطباق هنا يحدث اثراً دلالياً يقوم عليه وجه من وجوه الادبية؛ لأن الإمام لم يجعل كل من الوجدتين متضادتين دلالياً، بل متطابقتين، أي أن النور نفسه هو ظلمة، ومعروف ان للنار نور، لكن الإمام يتحدث عن نار خاصة هي نار الآخرة، ليس لها نور بل تشع ظلمة، أو قل إن نورها هو ظلام.

والنار التي يتحدث عنها الإمام لا يقاس بعدها بالزمن الفيزيائي المعروف، بل بزمن الآخرة؛ لذلك وصفه بالقرب، مستثمراً الحزين القرآني **"إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَكُنَّا قَرِيبًا"**^(١٠) فالقرب والبعد في ظاهر اللفظ متقابلان، ولكن التمعن يبين أنهما مترابطان ترابطاً منطقياً يجعلهما وجهين لعملة واحدة

أنواع الطباق:

للبلّاغين مذاهب عدة في انواع الطباق، نأخذ منها التقسيم الأشهر وهو:

أ. طباق الأيجاب: "وهو طباق موجود في المعجم يتقابل طرفاه على وجه الضدية"^(١١)، مثل قريب وبعيد، في المثال السابق.

ب. طباق السلب: "وهو طباق يكون التقابل فيه بين وجهين للفظ الواحد المذكور في الكلام مرتين مثبتاً ومنفياً"^(١٢)، مثل:

"يَا مَنْ يَرْحَمُ مَنْ لَا يَرْحَمُهُ الْعِبَادُ"^(١٣)

(٥) دروس البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٢: ١٧٢.

(٦) الانشقاق: ١٩.

(٧) ظ: أنوار الربيع في أنواع اللبديع، ابن معصوم المدني، تحقيق شاعر هادي شكر، النجف، ١٩٦٨: ٣٢/٢.

(٨) ظ: دروس البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، ١٧٢.

(٩) الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام زين العابدين عليه السلام، دار العلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨: ١٣٨.

(١٠) المعارج: ٦ - ٧.

(١١) دروس البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة: ١٧٣.

(١٢) ظ: دروس البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة: ١٧٤.

(١٣) الصحيفة السجادية: ١٨٤.

ضاد الإمام بين الرحمة وعدمها، ولم يلجأ إلى دال لفظي مغاير للجذر اللغوي الأول، مثل (يقسو عليه، ينبذه، يظلمه... الخ) مما هو شائع في العربية، بل لجأ إلى التضاد باستعمال النافية (لا)، وهذا يجعل القارئ للدعاء يردد كلمة الرحمة مرتين، (يرحم، لا يرحمه)، فإذا أخذنا بالاعتبار مناسبة الدعاء وهي (يوم عيد الفطر بعد انصرافه من الصلاة، وفي يوم الجمعة) نجد أن المناسبة جمعت ملائمت الرحمة والمغفرة: عيد الفطر فيه رحمة للصائم، وصلاة الجماعة فيها رحمة للمصلين، ويوم الجمعة وهو يوم الرحمة والاستغفار كما ورد في بعض الآثار، لذا جاء مفتتح الدعاء مؤكداً على رحمته تعالى، وحين انتقل إلى نقيض ذلك عند العباد، أكد دلالة الرحمة بنفيها عن العباد، كما أنه ندب إليها، بشكل غير مباشر، إذ تكرر كلمة الرحمة من الداعي أو السامع يجعل المعنى راسخاً في ذهنه، أي أن الطباق جاء من نوع طباق السلب لغرضين؛ الأول مباشر: وهو تأكيد صدور الرحمة من الله مقابل انتفائها عند الناس، والثاني غير مباشر، وهو الندب إليها عن طريق ترسيخها في ذهن المتلقي حين يتلقاها مرتين.

ويدخل الأمر والنهي في طباق السلب كقوله **إِيَّاكَ**:

"وَاهْمَلْنِي بِكَرَمِكَ عَلَى النَّفْصِ، وَلَا تَحْمِلْنِي بِعَدْلِكَ عَلَى الْإِسْحَاقِ" (١٤)

فهنا أمر ونهي نابعان من جذر لغوي واحد هو الحمل.

ومثله:

"اللَّهُمَّ فَصِّلْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَكِدْ لَنَا وَلَا تَكِدْ عَلَيْنَا، وَامْكُرْ لَنَا وَلَا تَمْكُرْ بِنَا، وَأَدِلْ لَنَا وَلَا تُدِلْ

مَنَا" (١٥)

يعاقب الإمام هنا بين ثلاثة ثنائيات من الأمر والنهي، هي (وَكِدْ / لَا تَكِدْ)، و(امْكُرْ / لَا تَمْكُرْ)، و(أَدِلْ، لَا تُدِلْ)، ويتلو كل من الوحدة الأولى من الثنائيات بالجار والمجرور (لنا)، بينما يتنوع الجار والمجرور المرافق للوحدة الثانية (علينا، بنا، منا)

المقابلة:

وهي "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها أو ييقابلها على الترتيب" (١٦)، وهناك خلاف في كون المقابلة من مباحث الطباق، أو هي أسلوب مستقل عنه، ونؤيد ما ذهب إليه القزويني في كونها أحد أساليب الطباق، لأنها قائمة على التضاد، مثلها مثل الطباق، ولا يتعارض ذلك مع كونها أعم منه، وقيل أن الطباق يكون في المتضادين، أما المقابلة فتكون في المتضادين وفي غيرهما (١٧).

ومن أمثلة المقابلة في الصحيفة، قول الإمام:

"حتى لا أحب شيئاً من سخطك، ولا اسخط شيئاً من رضاك" (١٨)

فقد قابل هنا بين زوجين من الوحدات الدلالية المتضادة (أحب / اسخط)، (سخطك / رضاك)، ومثل:

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ اللَّيْلَ مُظْلِمًا بِقُدْرَتِهِ، وَجَاءَ بِالنَّهَارِ مُبْصِرًا بِرَحْمَتِهِ" (١٩)

(١٤) الصحيفة السجادية: ٦٤.

(١٥) الصحيفة السجادية: ٦٤.

(١٦) الإيضاح: ٣٣٦.

(١٧) الإيضاح: ٣٣٦.

(١٨) الصحيفة السجادية: ٩٥.

(١٩) الصحيفة السجادية: ٢٥٦.

والمقابلة هنا تقوم على تأكيد حمد الله تعالى على كل ما ينعم به فيقترن الحمد بكل وقتي (اليوم/الليل والنهار) والحالين الذين هما عليهما (الإظلام والإبصار)، والمصدر الفاعلية (القدرة والرحمة) زيادة على فعلي الإذهاب والمجيئ، فاجتمعت في العبارة مقابلة رباعية:

أذهب / جاء

الليل / النهار

مظلمًا / مبصرًا

بقدرته / برحمته

أنواع المقابلة: جرى تصنيف المقابلة حسب عدد الأزواج المتقابلة فيها:

١. المقابلة الثنائية: ما قامت على زوجين من المقابلات، مثل:

"أَجْزَلُ لَنَا فِيهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَأَخْلَنَّا فِيهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ" (٢٠)

٢. المقابلة الثلاثية: ما قامت على ثلاث وحدات متقابلة على التوالي، مثل قوله:

"وَأَقْصَى الْأَدْنَيْنِ عَلَى جُحُودِهِمْ، وَقَرَّبَ الْأَقْصَيْنِ عَلَى اسْتِجَابَتِهِمْ لَكَ" (٢١)

فالمقابلة هنا بين (أقصى / أدنى)، و(الأدنين / الأقصين)، و(جحود / استجابة)

٣. المقابلة الرباعية، أن تذكر أربع معان ثم يأتي بما يقابل تلك المعاني، مثل قوله:

"قُلْ عِنْدِي مَا أَعْتَدُ بِهِ مِنْ طَاعَتِكَ، وَكَثُرَ عَلَيَّ مَا ابُوءُ بِهِ مِنْ مَعْصِيَتِكَ" (٢٢)

فقد قابل بين فعلي (قل وكثر)، ثم تلا ذلك مقابلة بين الظرف (عندي) والحرف (علي) وهذا المقابلة لسيت معجمية، بمعنى أن (عند) لا تتضاد معجمياً مع (على) لكن السياق النصي يشحن (عندي) بمدلولات إيجابية منها امتياز الامتلاك، في حين يحمل (على) دلالات الضدية، أي كثر ضدي ما ابوء به من معصيتك، تلا ذلك التقابل بين فعلي (اعتد وابوء)، ومن ثم جاء باسمي (الطاعة والمعصية). ولم نجد في الصحيفة مقابلة تزيد على الرباعية.

نظرة احصائية:

في ضوء دراستنا للصحيفة السجادية وجدنا:

أن أكثر ما استعمل الإمام من الطباق هو طباق الإيجاب، فقد ورد قرابة ٢٣٠. تليه المقابلة، فقد وردت نيف وخمسين مرة، في حين لم يرد طباق السلب أكثر من ٢٥ أو نحو ذلك وقد خلت بعض أدعيته عليه السلام من الطباق مثل دعائه في الصلاة على حملة العرش (٢٣)، ودعائه إذا قتر عليه رزقه (٢٤)، دعائه إذا ابتلي أو رأى مبتلى (٢٥)، كما خلت مناجاتيه عليه السلام المعروفتين بمناجاة المحبين (٢٦)، ومناجاة الزاهدين (٢٧) من الطباق أيضاً.

وأكثر الوحدات اللغوية المستعملة في الصحيفة هي الثنائيات القرآنية، فقد ورد الزوج اللفظي (سما / أرض) بتنويعاته المختلفة (سما، السماء، أرض الأرض، سماؤك، سماوات، ... الخ) ١٥ مرة، كما

(٢٠) الصحيفة السجادية: ٤٧ - ٤٨.

(٢١) الصحيفة السجادية: ٣٣.

(٢٢) الصحيفة السجادية: ١٣٣.

(٢٣) ظ: الصحيفة السجادية: ٣٥.

(٢٤) ظ: الصحيفة السجادية: ١٢٢.

(٢٥) ظ: الصحيفة السجادية: ١٤٠.

(٢٦) ظ: الصحيفة السجادية: ٢٧٧.

(٢٧) ظ: الصحيفة السجادية: ١٨٩.

وردت ثنائية (دنيا / آخرة) بتنوعاتها ١٥ مرة ايضاً، يلي ذلك ثنائية (ليل / نهار) اذ جاءت ١٣ مرة، ثم (معصية / طاعة) فقد وردت ١١ مرة، يلي ذلك ثنائيات اقل استعمالاً مثل (سيئة / حسنة)، و(رضا / غضب)، و(موت / حياة)، و(عفو) مع مقابلات عدة مثل (نقمة، وعقاب، وسخط).

الخلاصة

ورد في العين ان الطباق لغة من قولهم "طابقت بين الشيئين : جمعتهما على حذو واحد، وألزقتهما"، اي ان الطباق له دلالة الموافقة بين الشيئين. اما اصطلاحاً فهو على العكس من ذلك، الجمع بين الشيء وضده في الكلام، كاليابض والسواد، والعلم والجهل، والحق والباطل، الخ. ورأى البعض ان الطباق له دلالة المشقة، بدلالة قوله تعالى "لتركن طبقاً عن طبق" اي مشقة بعد مشقة، ولما كان الجمع بين الضدين شاقاً سمي الكلام الذي يجمع بين الضدين مطابقة وطباقاً.

والطباق ينقسم على اساس الاثبات والنفي قسمين رئيسين:

١. طباق إيجاب: إذا اجتمع في الكلام لفظين مثبتين متضادين، مثل قوله عليه السلام: "عز سلطانك عزاً لا حد له باولية، ولا منتهى له باخرية"، فقد جمع في الكلام بين الاولية، والاخيرة.
٢. طباق سلب: هو أن يجمع بين لفظين أحدهما مثبت، والآخر منفي، أو أحدهما أمر والأخر نهي، مثل: "اللهم يا من يرحم من لا يرحمه العباد، ويا من يقبل من لا تقبله البلاد"، فهنا طباق بين يرحم ولا يرحم، والفعل هو نفسه، نفي بلا، وقوله "وأحملي بكرمك على التفضل، ولا تحملني بعدلك على الاستحقاق" فهنا امر ونهي نابعان من جذر لغوي واحد هو الرحمة.

المقابلة:

وهي احد مصاديق الطباق، تعني أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

النتائج

ويمكن اجمالاً ابرز نتائج البحث بالنقاط التالية:

١. غلبة طباق الإيجاب على طباق السلب الذي قل استخدامه، في حين تموضعت المقابلة في موضع بين الاثنين من حيث الكم.
٢. خلت بعض الادعية من اسلوب الطباق.
٣. ان الطباق لم يكن اسلوباً زخرفياً، زائداً، بل جاء لاغراض دلالية، منسجماً مع السياق النصي، غير اجنبي ولا دخيل عليه.
٤. ان اكثر المقابلات الواردة في الصحيفة هي مقابلات ثنائية وثلاثية، ووردت مقابلات رباعية في حين انعدمت المقابلات الخماسية أو أكثر.
٥. ان اكثر المفردات الداخلة في الطباق هي ثنائيات دينية (دنيا/آخرة)، (حسنات سيئات)، (هدى/ضلال) وتأتي المفردات الاخرى في المرتبة الثانية مثل (ليل/نهار)، (سما/ارض)، ونرى انها الثنائيات القرآنية نفسها.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. أنوار الربيع في أنواع اللبديع ، ابن معصوم المدني ، تحقيق شاكِر هادي شكر، النجف ، ١٩٦٨ .
٣. الإيضاح ، الخطيب القزويني ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة.
٤. دروس البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط ١ ، ١٩٩٢. مفتاح العلوم، السكاكي، القاهرة.
٥. الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام زين العابدين عليه السلام، دار العلوم، بيروت، ط ١ ، ٢٠٠٨.
٦. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، القاهرة، ١٩٦٦.
٧. مفتاح العلوم، السكاكي، القاهرة، ١٩٦٠.

السجود على الأرض أبلغ صور التذلل لله سبحانه وتعالى

فريدة الاعرابي^(١)
سيد مسعود السيادي

ملخص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل خلقه وخاتم رسله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين هم عيبة علمه وحفظة سننه.

فإن الإسلام عقيدة وشريعة، فالعقيدة هي الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، والشريعة هي الأحكام الإلهية التي تكفل للبشرية الحياة الفضلى وتحقق لها السعادة الدنيوية والأخروية. مما لا ريب فيه أن الإسلام قام على عدة ركائز ثابتة ومن بينها الصلاة التي اعتبرت عمود الدين والتي ان قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها. وعلى هذا الأساس كان التمسك بها من قبل المسلمين والاهتمام بها أشد اهتمام.

لكن مع وفاة الرسول الأكرم ﷺ وافتراق المسلمين فرق شتى ظهرت الخلافات فيما بينها حول طريقة أداء الصلاة، كل يحاول إظهار صحة صلاته واقتدائه برسول الله ﷺ، فلم يبق ركن من أركانها إلا وظهر حوله الخلاف. الخلاف الذي أدى إلى اختلاف كلمتهم فيها.

فالخلاف في هذه المسائل، ليس خلافاً في جوهر الدين وأصوله حتى يستوجب العداء والبغضاء، وإنما هو خلاف فيما روي عن رسول الله ﷺ، وهو امر يسير في مقابل المسائل الكثيرة المتفق عليها بين المذاهب الإسلامية.

وبعد، هذه وجيرة، في مسألة من مسائل فقهية خلافية كانت، ولا تزال، مثار جدل ونقاش بين فقهاء السنة والشيعة، وهي السجود على الأرض. فإن المسلمين متفقون بأجمعهم على ضرورة السجود لله سبحانه وتعالى ومتفقون على وجوب سجدين في كل ركعة من كل صلاة ويعتبرون ذلك من ضروريات الإسلام؛ لأن السجود من الواجبات الركنية في الصلاة فلا يجوز تركها بأي حال من الأحوال، وإنما يختلفون فيما يصح السجود عليه، ولهم في هذه المسألة آراء متعددة.

ونحن سنتناول هذه الآراء وغيرها مما يتعلق بمفهوم السجود، ونحاول دراستها تفصيلاً، وفقاً لمنهج البحث العلمي الموضوعي، مستهدين بآيات القرآن الكريم وبما ثبت من السنة النبوية الشريفة وسيرة أهل البيت ﷺ.

ورائدنا في هذا السبيل قوله سبحانه : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا... »^(٢).

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل خلقه و خاتم رسله محمد و علي آله الطيبين الطاهرين ، و صحبه اجمعين و من اقتدي به إلى يوم الدين .
اما بعد ، لا شك ان الاتحاد عامل قوة و كل مسلم في اعماقه رغبة شديدة و شوق كبير لرؤية الاسلام يشمخ علوا و ترف رايته على كل رابية ، كل مسلم يجب ان يري العالم الاسلامي قويا عزيزا منيعا و من البديهي لا يمكننا ان نري الاسلام قويا عزيزا منيعا الا ان نعمل على اصلاح اوضاعنا في جميع انحاء العالم اسلامي . فاصلاح الجزء هو مقدمة ضرورية لاصلاح الكل .

هنا رؤية مفادها أن الخلافات الفكرية و المذهبية على مستوى المعتقد و على مستوى المنهج الفقهي و الأصولي تشكل عاملا أساسيا من عوامل التشتت و الافتراق ، و سدا منيعا أمام كل مساعي الوحدة و التقارب بين المذاهب الاسلامية .

و الحقيقة أن الخلافات الفكرية بمنزلة إختلاف اللغة و إختلاف القومية و أمثال ذلك ، ليست في واقعها من عوامل الافتراق و النزاع ، ولكنها ثغرة قد يستغلها الاعداء و زارعوا الفتن فيتخذون منها ذريعة لبث الفرقة و النزاع و الخصومة .

لذلك في هذا العصر ، في لحظة زمنية حساسة ، حيث تكالب الاعداء على امة المسلمين في كل حذب و صوب و يريدون ان يمزقوا شمل الأمة و يفرقوا وحدتهم ، نحن أحوج ما نكون الى الحوار ، الحوار العلمي ، البناء ، النزيه ، الهادف الذي يتوخى توضيح معالم الحقيقة و استجلاء ملامح الواقع .

الحوار من اجل التقارب ، فالتأخي ، فاقامة جبهة اسلامية واحدة عريضة ، متماسكة قوية ، ترهب عدو الله و عدو المسلمين و هذا من القوة التي أمرنا الله تعالى باعدادها . « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تَرَاهُمْ بِهَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَبَ مِنْ دُونِهِمْ »^(٣) .

و يجب أن يبدأ الحوار من مناطق الخلاف التي هي في الجزئيات دون الكليات و في بعض التفاصيل دون الاساسيات و رحم الله الامام السيد عبدالحسين شرف الدين حيث قال : « ان ما يجمعنا اكثر مما يفرقنا » .

إن هذا العصر هو عصر التحاور و التحالف ضد الاسلام فلماذا لا يكون عصر التقارب و التآلف بين المسلمين عملا بقوله تعالى : « و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »^(٤) ؟

بل لماذا لا نصرف عنان اقلامنا الى بيان مواضع الوفاق بدلا من اثاره و تكبير مواطن الخلاف ؟
و لماذا لا نتبع قول الله تعالى اذ يقول : « الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ »^(٥) فنعرض القول كله ثم نختار افضله .

و لماذا لا نعرض الآراء على بساط البحث في جو من الصفاء و الاخاء و بموضوعية و تجرد ليزول الوهم و تنداح حجب الشقاق و تنزاح نسحب الخلاف ؟

هذا المقال خطوة على هذا الطريق السليم نرجو أن يوفقنا الله تعالى الى ما يحب و يرضي .

(٢) - آل عمران / ١٠٣

(٣) - سورة الانفال / ٦٠

(٤) - سورة توبه / ٣٦

(٥) - سورة زمر / ١٧

لقد كرم الله تعالى الإنسان وفضله على كثير ممن خلق بما أعطاه من العقل ليميز به الأشياء، ويختار ما يراه مناسباً ومتوافقاً مع ما أَرَادَهُ الله تعالى له من الوصول إلى الكمال من خلال العبودية لله وحده، قال تعالى: « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ^(٦) ».

لقد شرف الله تعالى هذا الإنسان على بقية مخلوقاته بالعبادة، وجعل الصلاة من أفضل العبادات، فهي صلة العبد بربه، ومعراج المؤمن، وقربان كل تقي، والحد الفاصل بين المسلم والكافر، والميزان في قبول الأعمال، وفي الأثر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « إن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، فإذا قبلت قبل سائر عمله، وإذا ردت عليه، رد عليه سائر عمله ^(٧) ».

والصلاة هي العبادة التي يمثل بها العبد أمام خالقه واهب الحياة، وهي التي تطهر روحه، وتصده عن الفحشاء والمنكر، وتهديه إلى سواء السبيل، قال تعالى: « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ^(٨) ».

وأفضل أجزاء الصلاة وأهمها هو السجود لله سبحانه وتعالى، والسجود - في نظر الإسلام - هو غاية الخضوع والتواضع البشري أمام الله عز وجل - خالق الكون ورب العالمين - وذروة التحليق والسمو الإنساني في مسيرة العبودية لله وحده، لذا يحرم السجود لغير الله سبحانه وتعالى بأي شكل كان، وليس السجود مقتصراً على الإنسان وحده، قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^(٩).

إن المسلمين متفقون بأجمعهم على وجوب السجود في الصلاة في كل ركعة مرتين، ولم يختلفوا في المسجود له، فإنه هو الله سبحانه الذي له يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ^(١٠) وشعار كل مسلم قوله سبحانه: « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ^(١١) ». وإنما يختلفون فيما يصح السجود عليه، ولهم في هذه المسألة آراء متعددة.

و يرى الشيعة المسلمون وهم الأتباع الصادقون للقرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة، وسيرة أهل بيته الطيبين، يرون تبعاً لأحاديث رسول الله ﷺ وعترته الطاهرة والسيرة العملية التي كان عليها أصحابه الكرام أن السجود لله يجب أن يكون على الأرض وما ينبت منها (إلا ما يؤكل ويلبس) لا غير.

ومن جانب آخر يتوسع المسلمون من أهل السنة في موضع السجود ويرون أنه لا يجب السجود على خصوص ما ذكر فقط، بل يجوز للإنسان أن يسجد في الصلاة على أشياء أخرى أيضاً.

مما ذكر تبين بجلاء أن كلا الفريقين المسلمين يسجدون بهدف اظهار الخضوع والتواضع لله تعالى، و امتثال أمره، وتوخيا لرضاه، و طلباً لمرضاته، و لا خلاف بينهم في هذا المجال، و في هذه النقطة.

و على هذا فإن ما يقوله بعض الكتاب الذين تصوروا أن السجود على التراب، أو تربة الحسينية نوع من الشرك، لأنه يعني عبادتهم، وهم باطل، و كلام لا أساس له من الصحة ^(١٢).

و ها نحن بعد تعريف السجود في اللغة و الاصطلاح - و للتوضيح الاكثر - نطرح في ما يأتي بحثاً يعكس وجهة نظر الشيعة في هذا الصعيد.

(٦) - الذاريات / ٥٦.

(٧) - وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٣٤، ح ٤٤٤٢.

(٨) - سورة العنكبوت / ٤٥.

(٩) - سورة النحل / ٤٩.

(١٠) - إشارة إلى قوله سبحانه: « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمُ الْغُذُو وَالْأَصَالُ »، سورة الرعد

١٥/.

(١١) سورة فصلت / ٣٧.

(١٢) - السجود علي الارض، ص ١٠، منشورات موسسه الامام المهدي، عام الطبع ١٤١٣ هـ.

السجود في اللغة:

الطاعة والخضوع، يقال: سَجَدَ، سُجُودًا، أي: خضع وتطامن^(١٣)، ومنه قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...) (١٤). فهذا لسان حال تلك المخلوقات في الطاعة والخضوع، وكل شيء ذلَّ فَقَدِ سَجَدَ^(١٥)، وهو ساجد. والجمع: سَجَدَ، وسجود^(١٦). والسجادة: الكثير السجود^(١٧)، ورجل سجاد: على وجهه سجادة، أي: فنة من أثر السجود^(١٨). وقد اشتهر به الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام لكثرة سجوده لله تعالى ولهذا لقب عليه السلام بالسجاد، وذوي الثنات.

والمسجد: جهة الرجل حيث يصيبه أثر السجود^(١٩)، والجمع مساجد، والمساجد من بدن الانسان: الأعضاء السبعة التي يسجد عليها، وهي: الجبهة واليدين والركبتان والقدمان^(٢٠). والمسجد: بيت الصلاة^(٢١)، ومكانها المخصص. والمسجد الحرام: الكعبة، والمسجد الأقصى: مسجد بيت المقدس، قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) (٢٢). والجمع: مساجد.

السجود في الاصطلاح:

لا شك أن السجود من فرائض الصلاة وهو الانحناء ووضع أعضاء السجود^(٢٣) على الأرض، بحيث يساوي موضع جبهته موقفه، أو يزيد بقدر لبنة لا غير^(٢٤). وحقيقته: وضع الجبهة وباطن الكفين والركبتين وطرفي الابهامين من القدمين على الأرض^(٢٥)، بقصد التعظيم^(٢٦). وقد روى الفريقان عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُسْجِدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظَمٍ: على الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين^(٢٧). وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام تسمية مثل هذا السجود بالسجود الجسماني، وهو أقل رتبة من السجود الآخر المسمى بالنفساني، قال عليه السلام: «السجود الجسماني: هو وضع عتائق الوجوه على التراب، واستقبال الأرض بالراحتين والركبتين وأطراف القدمين مع خشوع القلب وإخلاص النية.

(١٣) - المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤١٦ (سجد)، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ١٤١٢ هـ، ط ٤.

(١٤) - سورة الحج ١٨/٢٢.

(١٥) - المصباح المنير، ج ١، ص ٢٦٦ (سجد).

(١٦) - المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤١٦ (سجد).

(١٧) - المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤١٦ (سجد).

(١٨) - الزمخشري، أساس البلاغة، ٢٨٥ (سجد)، دار الفكر، بيروت ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ م.

(١٩) - صحاح اللغة، ٢٢٩ (سجد)، انتشارات ناصر خسرو، طهران ١٣٦٣ هـ ش. وأساس البلاغة: ٢٨٥ (سجد).

(٢٠) - المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤١٦ (سجد).

(٢١) - المصباح المنير، الفيومي، ج ١، ص ٢٦٦ (سجد).

(٢٢) - سورة الاسراء ١/١٧.

(٢٣) - أعضاء السجود سبعة، وهي: الجبهة، والكفان، والركبتان، وابهاما الرجلان.

(٢٤) - جامع المقاصد في شرح القواعد، المحقق الكركي ج ٢ ص ٢٩٨، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم ١٤١٤ هـ، ط ٢.

(٢٥) - المقنعة، الشيخ المفيد ص ١٠٥.

(٢٦) - مهذب الاحكام في بيان الحلال والحرام، السيد السبزواري ٦: ٤١٦، مؤسسة المنار، ١٤١٢ هـ، ط ٤.

(٢٧) - أخرجه الشيخان البخاري ج ١ ص ٢٠٦ ومسلم ج ١، ص ٣٥٤.

والسجود النفساني: فراغ القلب من الفانيات، والاقبال بكنه الهمة على الباقيات، وخلع الكبير والحمية، وقطع العلائق الدنيوية، والتحلي بالاخلاق النبوية^(٢٨).
ومع ذلك فإن حقيقة السجدة وواقعها ومقومها هو وضع الجبهة على الأرض، وأما الباقيون فأشبهه بالشرائط ويدل على ذلك قول أصحاب المعاجم حيث لا يذكرون في تعريف السجدة إلا وضع الجبهة على الأرض فكان غيرها من شرائط السجدة التي فرضها الشارع وأضافها إلى حقيقتها اللغوية والعرفية.
قال ابن منظور ناقلا عن ابن سيده: سجد يسجد سجودا: وضع جبهته بالأرض، وقوم سجدا وسجود^(٢٩).

وقال ابن الأثير: سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض، ولا خضوع أعظم منه^(٣٠).
وفي «تاج العروس من جواهر القاموس»: سجد: خضع، ومنه سجود الصلاة وهو وضع الجبهة على الأرض، ولا خضوع أعظم منه، والاسم، السجدة (بالكسر)^(٣١).
وهذه الكلمات من أصحاب المعاجم ونظائرها المبثوثة في كتب اللغة، تعرب عن أن حقيقة السجدة وواقعها ومقومها هو وضع الجبهة على الأرض، ولولا أن النبي ﷺ فرض السجود على سبعة أعظم لكفى وضع الجبهة على الأرض، ولكنه ﷺ أضاف إلى الوضع أمورا أخرى، فصار الواجب السجود على سبعة أعظم.
فإذا كان كذلك فلا غرو في أن يختص وضع الجبهة بشرط خاص دون سائر الأعضاء، وهو اشتراط كون المسجود عليه هو الأرض أو ما ينبت منها ولا يجوز السجود على غيرها دون سائر الأعضاء^(٣٢).

نظرية الشيعة

يذهب أتباع أهل البيت - عليه السلام - إلى أن السجود لله تعالى إنما يجوز - تبعاً للسنة والسيره - على خصوص الأرض وما ينبت منها (إلا ما يؤكل ويلبس)، ويرجحون السجود على التراب لظاهر غاية الخضوع والتذلل أمام الله سبحانه، لأن السجود على التراب الذي هو أقوى مظهر لتواضع الإنسان أمام الخالق العظيم يمنح الإنسان رسوخاً وثباتاً أكبر في مقام العبودية، ويقربه إلى هدف الخلق أكثر فأكثر^(٣٣).

الفرق بين المسجود له والمسجود عليه

كثيراً ما يتصور أن الالتزام بالسجود على الأرض أو ما أنبت منها بدعة وتخييل التربة المسجود عليها وثناً، وهؤلاء، هم الذين لا يفرقون بين المسجود له، والمسجود عليه، ويزعمون أن الحجر أو التربة الموضوعه أمام المصلي وثن يعبد المصلي بوضع الجبهة عليه. ولكن لا عتب على الشيعة إذا قصر فهم المخالف، ولم يفرق بين الأمرين، وزعم المسجود عليه مسجوداً له، وقاس أمر الموحد بأمر المشرك بحجة المشاركة في الظاهر، فأخذ بالصور والظواهر، مع أن الملاك هو الأخذ بالبواطن والضمائر، فالوثن عند الوثني معبود ومسجود له، يضعه أمامه ويركع ويسجد له، ولكن الموحد الذي يريد إظهار العبودية إلى

(٢٨) - غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الأمدي، ج ١، ص ١٢٢ / ٢٢٣ و ٢٢٣٥، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م ط ١. ومستدرک وسائل الشيعة، الميرزا حسين النوري، ج ٤، ص ٤٨٦ / ٥٢٣٢ باب ٢٣ من أبواب السجود، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤٠٧ هـ، ط ١.

(٢٩) - لسان العرب، ج ٦، مادة سجد.

(٣٠) - النهاية، ج ٢، مادة سجد.

(٣١) - تاج العروس، ج ٨، مادة سجد.

(٣٢) - السجود على الأرض علي ضوء الكتاب والسنة، الفقيه المحقق جعفر سبحاني ص ٩٠ و ٩١.

(٣٣) - حسيني، سيد رضا، السجود على الأرض، ص ١١، ١٤١٣ هـ.

نهاية مراتبها، يخضع لله سبحانه ويسجد له، ويضع جبهته ووجهه على التراب والحجر والرمال والحصى، مظهرًا بذلك مساواته معها عند التقييم قائلًا: أين التراب ورب الأرباب؟
نعم: الساجد على التربة غير عابد لها، بل يتذلل إلى ربه بالسجود عليها، ومن توهّم عكس ذلك فهو من البلاهة بمكان، وسيؤدي إلى إرباك كل المصلين والحكم بشركهم، فمن يسجد على الفرش والقماش وغيره لا بد أن يكون عابدا لها على هذا المنوال فيا للعجب العجيب!!^(٣٤)
روى الآمدي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: السجود الجسماني: وضع عتائق الوجوه على التراب^(٣٥).

لماذا يصّر الشيعة على السجود على الأرض (التراب) وما ينبت منها؟

ولدي الإجابة على هذا السؤال لا بد أن نذكر: بأنه كما أن أصل العمل العبادي يجب أن يعين من قبل الشرع المقدس، وبعبارة أخرى كما أن أصل العمل العبادي أمر توقيفي يتوقف على بيان الشرع المقدس وأذنه، كذلك شرائطه وأحكامه هي الأخرى يجب أن توضح وتبين من جانب مبين الشريعة ومبلغها ونعمي رسول الله ﷺ - لأن رسول الله ﷺ - هو الأسوة بنص القرآن الكريم وهو المبين للكتاب العزيز، وعلي المسلمون جميعاً أن يتعلموا منه أحكام دينهم، وتفصيل شريعتهم إذ قال تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»^(٣٦).
«وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»^(٣٧).

وعلى هذا الأساس اقتبسنا في هذا المجال مقاطع بارزة من أحاديث رسول الله ﷺ وسيرته العملية، و نماذج من كلمات، وسيرة أصحابه والتابعين له عليهم السلام وأغلبها من كتب أهل السنة الحديثية، ونعرضها على القاري الكريم، ليري كيف أنها تشهد بمرمتها على أن رسول الله ﷺ وصحابته وتابعيه كانوا يسجدون على التراب وما ينبت من الأرض مثل الحصى، تماماً كما يصنع الشيعة الامامية اليوم في السجود.

أدلة الشيعة لأذهبيهم:

١- حديث «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»:

لقد روي جماعة من المحدثين الاسلاميين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(٣٨).

ولقد وردت هذه الرواية بألفاظ متنوعة في كثير من المؤلفات والمجاميع الحديثية الاسلامية:

وفي لفظ: «جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وطهوراً»^(٣٩).

وفي لفظ: «جعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً»^(٤٠).

(٣٤) - السجود على الأرض علي ضوء الكتاب والسنة، جعفر سبحاني، ص ٨.

(٣٥) - غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١ ص ١٠٧ برقم ٢٢٣٤.

(٣٦) - سورة الأحزاب / ٢١.

(٣٧) - سورة الحشر / ٧.

(٣٨) - صحيح مسلم، ج ١ ص ٣٧١، والبخاري ج ١ ص ٩١ و ١١٩، ومسنند احمد، ج ١ ص ٢٥٠ و ٣٠١، وج ٢ ص ٢٢٢ و ٢٥٠ و ٤٤٢ و ٥٠٢ و ٤١١، وج ٣ ص ٣٠٤ و ٨٠٣، وج ٤ ص ٤١٦، وج ٥ ص ١٤٥ و ٢٤٨ و ١٤٨ و ١٦١ و ٢٥٦ و ٣٨٣، والبداية والنهاية ج ٦ ص ٤١، واقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٣٣٢ والوسائل ج ٢ ص ٩٦٩ وج ٣ ص ٤٢٢، عن الكافي والخصال والفتية والفتية ج ١ ص ٢٣١ ط الغفاري، والسنن للبيهقي، ج ٢ ص ٤٣٣ و ٤٣٥، وج ١ ص ٤٥ و ٢١٢ باسانيد متعددة، والبحار ج ١٨ ص ٣٠٥، وج ٨٠ ص ١٤٧، وج ٨٣ ص ٢٧٦، وارشاد الساري ج ١ ص ٤٣٥، وفتح الباري، ج ١ ص ٣٧٠ و ٣٧١، والينابيع ص ٢٤٤، وابو داود ج ١ ص ١٣٢، وسنن الدارمي ج ٢ ص ٢٢٤.
(٣٩) - صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٧١، وسيرتنا عن ابي داود والنسائي والترمذي.

وفي لفظ: « جعلت لك ولا تمتك الأرض كلها مسجدا وطهورا »^(٤١).
 وفي لفظ: « ان الله جعل لي الأرض مسجدا وطهورا اينما كنت أتيهم واصلي عليها »^(٤٢).
 وفي لفظ: « الأرض لك ولا تمتك طهورا ومسجدا »^(٤٣).
 وفي لفظ: « جعلت لي الأرض مسجدا ترابها طهورا »^(٤٤).
 وفي لفظ: « جعلت الأرض مسجدا ترابها وطهورا »^(٤٥).
 وفي لفظ: « عن ابي امامة الباهلي: ان رسول الله ﷺ قال فضلتني ربي على الانبياء عليهم الصلاة والسلام أو على الامم باربع قال ارسلت إلى الناس كافة، وجعلت الأرض كلها لي ولا امتي مسجدا وطهورا فاينما ادركت رجلا من امتي الصلاة فعنده مسجده وعنده طهوره »^(٤٦).
 في ضوء هذه الأحاديث المتواترة والمقبولة لدى جميع علماء الاسلام ومحدثيه يتضح ويثبت بجلاء أن وجه الأرض، ترابا كان أو صخرا، أو حصي أو نباتا هو الأصل في السجود، أي هو الذي يجب أن يتخذ موضعا للسجود، ولا يجوز التعدي عن ذلك من دون عذر مشروع.
 كما أن لفظة (جعل) هنا تعني - من دون ابهام - : التشريع والتقنين، فيكون معنى الحديث أن هذا الأمر (أي السجود على وجه الأرض) حكم الهي شرعه الله لأتباع الاسلام، وهكذا تثبت مشروعية السجود على الأرض وأجزائها.

٢- حديث تبريد الحصى للسجود عليها:

- عن جابر بن عبد الله الانصاري قال: « كنت اصلي مع النبي ﷺ الظهر فاخذ قبضة من الحصى فأجعلها في كفي ثم احوّلها إلى الكف الاخرى حتى تبرّد ثم أضعها لجبيني حتى اسجد عليها من شدة الحر »^(٤٧).
 وعلّق عليه البيهقي بقوله: قال الشيخ: « ولو جاز السجود على ثوب متصل به لكان ذلك أسهل من تبريد الحصى بالكف ووضعها للسجود »^(٤٨).
 ونقول: « ولو كان السجود على مطلق الثياب سواء كان متصلا أم منفصلا جائزا، لكان أسهل من تبريد الحصى، ولأمكن حمل منديل أو سجادة أو ما شابه للسجود عليه ».
 - روى أنس قال: « كنا مع رسول الله ﷺ في شدة الحر، فيأخذ أحدنا الحصباء في يده فإذا برد وضعه و سجد عليه »^(٤٩).

(٤٠) - صحيح مسلم ج ١، ص ٣٧١، والسنن للبيهقي، ج ٦، ص ٢٩١، وسيرتنا، ص ١٢٦، ويقرب منه ما في تاريخ الذهبى، ج ٢، ص ٣٧٥، وفتح الباري، ج ١، ص ٣٧١ عن ابن المنذر وابن الجارود، وقريب منه ما في الجامع الصغير للسيوطي ج ١، ص ١٤٤.
 (٤١) - البحار، ج ٨٣، ص ٢٧٧.
 (٤٢) - البحار، ج ٨٣، ص ٢٧٧ عن مجالس ابن الشيخ بسندين.
 (٤٣) - البحار، ج ٨٣، ص ٢٧٨.
 (٤٤) - البحار، ج ٨٣، ص ٢٧٨ ومسنّد ابي غواته ج ١، ص ٣٠٣.
 (٤٥) - شرح عون المعبود، ج ١، ص ١٨٢.
 (٤٦) - مصباح المسند للشيخ قوام الدين القمي الوشوي (مخطوط)، وقريب منه ما في تيسير الوصول، ج ١، ص ٣١٥.
 (٤٧) - كنز العمال، ج ٤، ص ١٨٨، وفي طبعة، ج ٨، ص ٢٤، والنسائي، ج ٢، ص ٤٠٢، وابوداود، ج ١، ص ١١٠، ومسنّد احمد، ج ٣، ص ٣٢٧، وسنن البيهقي، ج ١، ص ٤٣٩ عن جابر، وج ٢، ص ١٠٥ و١٠٦ عن جابر وأنس، وشرح الاحوذى لجامع الترمذى، ج ١، ص ٤٠٥، وشرح عون المعبود لسنن ابي داود، ج ١، ص ٢٤٩ عن أنس، وسيرتنا ص ١٢٧ نقلوه بالفاظ متقاربة.
 (٤٨) - سنن البيهقي، ج ٢، ص ١٠٥.
 (٤٩) - السنن الكبرى، ج ٢، ص ١٠٦.

- عن خباب بن الأرت قال: « شكونا إلى رسول الله ﷺ شدة الرمضاء في جباهنا وأكفنا فلم يشكنا »^(٥٠).

- قال ابن الأثير في معنى الحديث: « إنهم لما شكوا إليه ما يجدون من ذلك، لم يفسح لهم أن يسجدوا على طرف ثيابهم »^(٥١).

هذه المأثورات تعرب عن أن السنة في الصلاة كانت جارية على السجود على الأرض فقط، حتى أن الرسول ﷺ لم يفسح للمسلمين العيول عنها إلى الثياب المتصلة أو المنفصلة، وهو ﷺ مع كونه بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً أوجب عليهم مس جباههم الأرض، وإن آذتهم شدة الحر.

٣- أمر النبي ﷺ بالسجود على التراب:

إن طائفة من الروايات تدل على هذه النقطة، وهي أن رسول الله ﷺ كان يأمر المسلمين بالسجود على التراب،

و ندرج نماذج من هذه الأحاديث:

- عن خالد الجهني: « قال: رأى النبي ﷺ صهيياً يسجد كأنه يتقي التراب فقال له: ترّب وجهك يا صهيب »^(٥٢).

والظاهر أن صهيياً كان يتقي عن التريب، بالسجود على الثوب المتصل والمنفصل، ولا أقل بالسجود على الحصر والبواري والأحجار الصافية، وعلى كل تقدير، فالحديث شاهد على أفضلية السجود على التراب في مقابل السجود على الحصى لما دل من جواز السجدة على الحصى في مقابل السجود على غير الأرض.

- روت أم سلمة: رأى النبي ﷺ غلاماً لنا يقال له «أفلح» ينفخ إذا سجد، فقال: « يا أفلح ترّب »^(٥٣).

وفي رواية: «يا رباح ترّب وجهك»^(٥٤).

- روي أبو صالح قال: دخلت على أم سلمة، فدخل عليها ابن أخ لها فصلّى في بيتها ركعتين، فلما سجد نفخ التراب، فقالت أم سلمة: ابن أخي لا تنفخ^(٥٥)، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لغلام له يقال له يسار: و نفخ -: «ترّب وجهك لله»^(٥٦).

ولقد جاء نظير هذه الأحاديث في كثير من المصادر والجوامع الحديثية الإسلامية السنية والشيعة.

ويتضح من لفظة (ترّب) في كلام رسول الله ﷺ أمران:

الاول: أن على الانسان أن يضع جبهته - عند السجود - على التراب^(٥٧).

والآخر: أن هذا المطلب، للأمر به، مطلب واجب التنفيذ، لأن لفظة (ترّب) التي هي مشتقة من التراب جاءت في صيغة الأمر الدالة على الوجوب.

(٥٠) - سنن البيهقي، ج ٢، ص ١٠٥ باب الكشف عن الجبهة.

(٥١) - النهاية، لابن أثير، ج ٢، ص ٤٩٧، مادة «شكا».

(٥٢) - كنز العمال، ج ٧، ص ٤٦٥ برقم ١٩٨١٠.

(٥٣) - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٥٩ برقم ١٩٧٧٦.

(٥٤) - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٥٩ برقم ١٩٧٧٧.

(٥٥) - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٦٥، برقم ١٩٨١٠؛ مسند أحمد، ج ٦، ص ٣٠١.

(٥٦) - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٦٥، برقم ١٩٨١٠؛ مسند أحمد، ج ٦، ص ٣٠١.

(٥٧) - ارشاد الساري، ج ١، ص ٤٠٥.

السجود على الأرض أبلغ صور التذلل لله سبحانه وتعالى
و واضح أنّ فلسفة تفضيل السجود على خصوص التراب، هي أنّ هذا العمل أصدق مظهر للتواضع و
الخضوع أمام الله خالق الكون و رب العالمين، و هو كفيل بأن يحرر الانسان من الاستمرار في التكبر و
العجب.

ولهذا يقول رسول الاسلام ﷺ: « إذا صلي أحدكم فليلزم جبهته و أنفه الأرض حتى يخرج منه
الرغم ». ^(٥٨)
قال صاحب النهاية: أي يظهر ذلّه و خضوعه ^(٥٨).

٤- الأمر بحسر العمامة عن الجبهة:

إن من الأدلة على وجوب السجود على التراب أمر النبي الأكرم ﷺ بأزاحة العمامة عن الجبهة عند
السجود.

و لقد أورد المحدثون الاسلاميون روايات كثيرة تحكي عن أنّ رسول الله ﷺ نهى الأشخاص الذين
فصلوا بين جباههم و وجه الأرض بشيء من عمامتهم.

و نذكر فيما يأتي نماذج من هذه الأحاديث:

- روي ان النبي ﷺ كان إذا سجد رفع العمامة عن جبهته ^(٥٩).

- روي صالح بن حيوان السبائي ان رسول الله ﷺ رأى رجلا يسجد بجنبه وقد اعتم على جبهته،
فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته ^(٦٠).

- عن عياض بن عبد الله القرشي قال: « رأى رسول الله ﷺ رجلا يسجد على كور عمامته فاوماً
بيده: ارفع عمامتك وأوما إلى جبهته » ^(٦١).

- عن النبي ﷺ: « انه نهى أن يسجد المصلي على ثوبه أو على كفه أو على كور عمامته » ^(٦٢).

هذه الروايات تكشف عن أنه لم يكن للمسلمين يوم ذلك تكليف إلا السجود على الأرض وهذا كان
امراً مسلماً في زمن رسول الله ﷺ الى درجة ان بعض المسلمين كان إذا أراد أن يسجد على كور عمامته
بدل وضع الجبهة على الأرض نهائاً رسول الله ﷺ عن ذلك، على حين إذا كان السجود على كل شيء
حتى الملابس كالعمامة لما كان يمنع منها رسول الله ﷺ.

٥- حديث لزوم الجبهة و لصوقها و تمكينها بالأرض:

قال رسول الله ﷺ: « إذا صلي أحدكم فليلزم جبهته و أنفه الأرض حتى يخرج منه الرغم » ^(٦٣).
من ارغم الله أنفه أي الصقه بالرغم و هو التراب، هذا هو الاصل ثم استعمل في الذل والعجز عن
الانتصاف والانتقياد على كره فالمراد من قوله ﷺ: « حتى يخرج منه الرغم » أي يظهر ذله وخضوعه.
- وعن ابن عباس أنه قال: « إذا سجدت فالصق انفك بالأرض » وقال: « لا صلاة لمن لا يمس أنفه
الأرض » ^(٦٤).

(٥٨) - النهاية لابن الأثير، ج ٢، مادة رغم.

(٥٩) - الطبقات ج ١، ص ١٥١ ق ٢.

(٦٠) - السنن الكبرى للبيهقي ج ٢، ص ١٠٥، وسيرتنا ص ١٢٨ عنه، وعن نصب الراية للزليعي ص ٣٨٦، والبحار ج
٨٥، ص ١٥٧، وفي الإصابة ج ٢، ص ٢٠١ في ترجمة صالح بن حيوان، واسد الغابة ج ٣، ص ٩ في ترجمة صالح المدونة الكبرى ج
١، ص ٧٣.

(٦١) - المصادر المتقدمة.

(٦٢) - البحار، ج ٨٥، ص ١٥٦ عن الدعائم.

(٦٣) - النهاية لابن الأثير كلمة « رغم ».

(٦٤) - المصنف، ج ٢، ص ١٨١ و ١٨٢، والمستدرک للحاكم ج ١، ص ٢٧٠، والسنن الكبرى للبيهقي ج ٢، ص ١٠٣ و ١٠٤

باسانيد متعددة.

- وقال ابن عباس: «من لم يلزق أنفه مع جبهته الأرض إذا سجد لم نجز صلاته»^(٦٥).
- الدلالة في الحديث الاول بالاولوية، إذ ايجاب الصاق الانف يدل على ايجاب إلصاق الجبهة طبعاً، كما في قوله تعالى: (ولا تقل لهما أف) حيث تدل على حرمة الايذاء والعقوق بالاولوية وأما الحديث الثاني، فقد صرح فيه ابن عباس بحكم الجبهة وأن الصلاة تكون باطلة مع عدم الالصاق.
- روي عن النبي ﷺ: «إذا سجدت فمكن جبهتك وأنفك من الأرض»^(٦٦).
- قال ﷺ لابي ذر: «الأرض لك مسجد فحيثما ادركت الصلاة فصل»^(٦٧).
- عن رفاعه بن رافع مرفوعاً: «ثم يكبر فيسجد فيمكن جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتستوي»^(٦٨).
- روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «إذا سجدت فمكن جبهتك وأنفك من الأرض»^(٦٩).
- تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة (عن سلمان ره)^(٧٠).
- «لا تقبل صلاة من لا يصيب أنفه الأرض» (عن امعطية)^(٧١).
- «لا صلاة لمن لا يمس أنفه الأرض ما يمسه الجبين» (عن عكرمة)^(٧٢).
- «لا يقبل الله صلاة لا يصيب الانف منها ما يصيب الجبين» (عن عكرمة)^(٧٣).
- «اسجدوا على الأرض أو على ما انبتت الأرض»^(٧٤).
- «لا صلاة لمن لم يضع أنفه بالأرض مع جبهته في الصلاة»^(٧٥).
- «لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض»^(٧٦).

٦- سيرة النبي ﷺ:

إن المسلمين متفقون جميعاً على أن رسول الله ﷺ أسوة للمسلمين في كل عصر ومصر، وأن سيرته العلمية مشعل وضاء ينير طريق المسلمين في جميع أبعاد الحياة.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا»^(٧٧).

من هنا لا بد حتى في مسألة السجود من التأسي بسيرة رسول الله ﷺ والافتداء بسيرته واتباع سنته.

والآن لا بد من دراسة السيرة العملية لرسول الله ﷺ في هذا المجال في ضوء الروايات الإسلامية، وبخاصة الأحاديث الواردة في مؤلفات أهل السنة.

- (٦٥) - كنز العمال، ج ٤، ص ١٠٠، وفي طبقة ج ٧ ص ٣٢٨، ومجمع الزوائد ج ٢، ص ١٢٦ عن الطبراني في الكبير والوسط.
- (٦٦) - احكام القرآن للجصاص ج ٣، ص ٣٦ وفي طبقة، ج ٥، ص ٣٦.
- (٦٧) - النسائي، ج ٢، ص ٣٢، وسيرتنا ص ١٢٦ عنه.
- (٦٨) - سيرتنا ص ١٢٧ عن السنن الكبرى للبيهقي، ج ٢، ص ١٠٢.
- (٦٩) - احكام القرآن للجصاص، ج ٣، ص ٢٠٩، وفي طبقة، ج ٥ ص ٣٦.
- (٧٠) - كنز العمال، ج ٧، ص ٣٢٥، والبحار ج ٨٥ ص ١٥٨.
- (٧١) - كنز العمال، ج ٧، ص ٣٢٨.
- (٧٢) - كنز العمال، ج ٧، ص ٣٢٨.
- (٧٣) - كنز العمال، ج ٧، ص ٣٢٨.
- (٧٤) - البحار، ج ٨٥، ص ١٥٤.
- (٧٥) - كنز العمال ج ٧، ص ٣٢٨.
- (٧٦) - الدارقطني، ج ٢، ص ٣٤٩.
- (٧٧) - سورة الاحزاب / ٢١.

يستفاد من ثانيا الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا المجال أن النبي ﷺ كان يسجد على تكرض و الأشياء المصنوعة مما ينبت من الأرض كالحصير وهذا الطريق هو الذي يسلكه الشيعة اتباعا لرسول الله ﷺ واستئنا بسنته.

و على هذا ينبغي ان ندرج الروايات و الأحاديث المذكورة في الصنفين الآتين :

الصنف الأول:

- الأحاديث التي وردت حول سجود النبي على الأرض (تراباً كان أو صخر أو غيره).
- و نذكر من هذه الأحاديث نماذج للاطلاع :
- يقول الوائل بن حجر: «رأيت النبي ﷺ إذا سجد وضع جبهته وأنفه على الأرض» (٧٨).
- يقول ابن عباس: « أن النبي ﷺ سجد على الحجر» (٧٩).
- روي عن عائشة: « ما رأيت رسول الله ﷺ متقيا وجهه بشيء» (٨٠) تعني في السجود.
- إن الكلام المذكور يكشف عن أن رسول الله ﷺ كان - بشهادة زوجته - يسجد دائما على الأرض، و يتجنب الفصل بين جبهته الشريفة و الأرض بأي مانع و عائق.
- روي أحمد بن شعيب النسائي في سننه عن أبي سعيد الخدري وهو من صحابة النبي ﷺ - قوله: «بصرت عينا رسول الله ﷺ على جبينه و أنفه أثر الماء والطين» (٨١).
- فعن أبي هريرة: «سجد رسول الله ﷺ في يوم مطير حتى أني لأنظر أثر ذلك في جبهته و أرنبتة» (٨٢).
- من هذه الأحاديث و نظائرها يتضح بجلاء أن النبي ﷺ كان يرجح السجود على وجه الأرض حتى في حال نزول المطر، بحيث شوهد أثر الماء و الطين على جبهته الشريفة.
- يقول ابن عباس: « رأيت رسول الله ﷺ يصلي في كساء أبيض في غداة باردة يتقي بالكساء برد الأرض بيده و رجله» (٨٣).
- و يقول في موضع آخر:
- « لقد رأيت رسول الله ﷺ في يوم مطير و هو يتقي الطين إذا سجد بكساء عليه يجعله دون يديه الى الأرض إذا سجد» (٨٤).
- يستفاد من ظاهر هذه الأحاديث أن النبي ﷺ كان حتى في الحالات الاضطرارية كالطمر والبرد الشديد، لا يضع قطعة من القماش بين جبهته و الأرض كعازل يمنع من الرطوبة والبرودة الشديدة، لأنه ليس في الأحاديث المذكورة اشارة الى وضع اللباس بين جبهته و وجه الأرض.

الصنف الثاني:

الأحاديث التي تحكي عن السجود النبي ﷺ على أجزاء بعض النباتات كالحصير.

و قد أورد المحدثون الاسلاميون من الشيعة والسنة هذا النوع من الأحاديث في كتبهم أو مؤلفاتهم الحديثية المعتبرة.

(٧٨) - أحكام القرآن للجصاص، ج ٣، ص ٢٠٩ طبعة بيروت.

(٧٩) - سنن البيهقي، ج ٢، ص ١٠٢.

(٨٠) - المصنف، ج ١، ص ٣٩٧ و كنز العمال، ج ٤، ص ٢١٢ وفي طبعة أخرى، ج ٨، ص ٨٥.

(٨١) - سنن النسائي، ج ٢، ص ٢٠٨، السجود علي الجبين.

(٨٢) - مجمع الزوائد، ج ٢، ص ١٢٦.

(٨٣) - سنن البيهقي، ج ٢، ص ١٠٦.

(٨٤) - سيرتنا و سنتنا ص ١٣٢ نقلا عن أحمد بن حنبل.

- و في هنا نذكر فيما يأتي نماذج من هذه الأحاديث و خاصة ما ورد منها في جوامع اهل السنة الحديثية :
- قال أبوسعيد : « دخلت على رسول الله ﷺ و هو يصلي على حصير »^(٨٥).
 - وقد روي عن أبي سعيد الخدري مايلي : « ... فرأيتَه يصلي على حصير يسجد عليه »^(٨٦).
 - وروي عن عائشة - زوجة النبي ﷺ - في « فتح الباري » انها قالت : « إن النبي كان له حصير يسطه و يصلي عليه »^(٨٧).
 - وروي عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في بحار الأنوار أنه قال : « إن رسول الله ﷺ صلي على حصير »^(٨٨).
 - يقول أنس : « كان رسول الله ﷺ يصلي عن الخمرة و يسجد عليها »^(٨٩).
 - وروي مسلم بن الحجاج في صحيحه : « عن أبي سعيد الخدري : إنه دخل على رسول الله ﷺ - فوجده يصلي على حصير يسجد عليه »^(٩٠).
- في ضوء الأحاديث المذكورة التي تبين و تعكس سيرة النبي ﷺ في مجال السجود يتبين بوضوح أنه كان ملتزما بأن يسجد على الأرض و التراب و بعض ما ينبت من الأرض مثل الحصير المصنوع من خوص جريد النخل ، ولا نري في هذه الروايات أي أثر من سجوده ﷺ على المأكولات والملبوسات أبداً. و هذه الحقيقة هي التي يعتقدها الشيعة و هذا العمل هو الذي يقومون به في سجودهم لأن الشيعة يعتقدون أن السنة و السيرة الحمديدية المباركة هي - بعد الوحي الالهي ، و القرآن الكريم - الهادي و المرجع للمسلمين ، و على المسلمين جميعاً أن يعملوا وفقه ، و يتبعوه ، و لا يجاوزوه و لا يتقدموه : عملاً بقول الله تعالى :
- « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا يَدَيَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »^(٩١).

٧- سيرة الصحابة و التابعين:

- نقل المؤلفون و المحدثون الاسلاميون في جوامعهم الحديثية أحاديث و روايات عديدة تحكي برمتها عن سيرة الصحابة و التابعين العملية في قضية السجود هذه ، و تكشف جميعها عن أن صحابة النبي ﷺ و تابعيه كانوا يلتزمون السجود على مجرد الارض (تراباً كان أو حجراً أو غيره) و بعض أجزاء النبات كالحصير في حال الاختيار و في الظروف العادية و كانوا يتجنبون السجود على الثوب أو القماش و غيرها من الملبوسات.
- و نشير فيما يأتي الى طائفة من هذه الأحاديث :
- يقول نافع : « إن ابن عمر كان إذا سجد و عليه العمامة يرفعها حتى يضع جبهته بالأرض »^(٩٢).
 - كان مسروق بن الأجدع من أصحاب ابن مسعود لا يرخص في السجود على غير الأرض حتى في السفينة ، و كان يحمل في السفينة شيئاً يسجد عليه^(٩٣).

-
- (٨٥) - سنن البيهقي، ج ٢ ، ص ٤٢١ ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة علي الحصير.
 - (٨٦) - سيرتنا و سنتنا ، ص ١٣٠ نقلاً عن صحيح مسلم.
 - (٨٧) - فتح الباري، ج ١ ، ص ٤١٣.
 - (٨٨) - بحار الأنوار، ج ٨٥ ، ١٥٧.
 - (٨٩) - المعجم الأوسط و الصغير للطبراني.
 - (٩٠) - صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٤٥٨.
 - (٩١) - سورة الحجرات / ١.
 - (٩٢) - سنن البيهقي، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، طبعة حيدرآباد الدكن ، كتاب الصلاة ، باب الكشف عن الجبهة في السجود.
 - (٩٣) - الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٦ ص ٥٣ ، و المصنف عبد الرزاق ، ج ٢ ، ص ٥٨٣.

- يقول رزين: « كتب الى علي بن عبدالله بن عباس - رضي الله عنه - أن أبعث الى بلوح من أحجار المروة أسجد عليه »^(٩٤).
- يقول أبو أمية: « إن أبا بكر كان يسجد أو يصلي على الأرض... »^(٩٥).
- و يقول أبو عبيدة: « إن ابن مسعود لا يسجد - أو قال: لا يصلي - الا على الأرض »^(٩٦).
- وروي عن عبدالله بن عمر أنه ما كان يستحب السجود على كور عمامته إلا أن يزيحه عن جبهته: « عن عبدالله بن عمر أنه كان يكره أن يسجد على كور عمامته حتى يكشفها »^(٩٧).
- وروي البيهقي حول عبادة بن الثابت: « إنه كان إذا قام الى الصلاة حسر العمامة عن جبهته »^(٩٨).
- كان إبراهيم النخعي الفقيه الكوفي التابعي يقوم على البردي ويسجد على الأرض.
- قال الراوي: قلنا ما البردي، قال: الحصير^(٩٩). وفي لفظ انه كان يصلي على الحصير ويسجد على الأرض.

- كان عمر بن عبدالعزيز لا يكتفي بالخمرة بل يضع عليها التراب ويسجد عليه^(١٠٠).
- كان عروة بن الزبير يكره الصلاة على شيء دون الأرض^(١٠١).
- في ضوء هذه الأحاديث و الروايات الإسلامية يتجلى بوضوح أن المسلمين و في مقدمتهم رسول الله ﷺ كانوا - في صدر الاسلام و منذ تشريع السجود - يسجدون على الأرض، و ينهون كل من يعمد الى الفصل بين جبهته و الأرض بقماش أو عازل آخر.
- بناء على هذا يتضح بيقين أن السنة و السيرة النبوية، و كذا السيرة العملية للصحابة و التابعين كانت هي السجود على اجزاء الأرض (مثل التراب و الحجر) و بعض أجزاء النبات مثل الحصير.

٨- احاديث اهل البيت عليه السلام:

- عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام انه قال: « لا تسجد الا على الارض أو ما أنبتت الارض الا القطن والكتان »^(١٠٢).
- وعنه عليه السلام أنه قال: « دعا أبي بالخمرة - السجادة الصغيرة من سعف النخل - فابطأت عليه، فاخذ كفا من حصي فجعله على البساط فسجد عليه »^(١٠٣).
- وعنه عليه السلام أو عن أبيه عليه السلام أنه قال: « لا بأس بالقيام على المصلي من الشعر والصوف إذا كان يسجد على الارض فان كان من نبات فلا بأس بالقيام عليه والسجود عليه »^(١٠٤).
- وعن الصادق أو أبيه الباقر عليهما السلام:

- (٩٤) - أخبار مكة، ج ٣، ص ١٥١ نقلا عن رزين.
- (٩٥) - المصنف، ج ١، ص ٣٩٧.
- (٩٦) - المصنف، ج ١، ص ٣٦٧، و مجمع الزوائد، ج ٢، ص ٥٧ نقلا عن الطبراني.
- (٩٧) - سنن البيهقي، ج ٢، ص ١٠٥، والمصنف، ج ١، ص ٤٠١.
- (٩٨) - سنن البيهقي، ج ٢، ص ١٠٥.
- (٩٩) - المصنف لعبد الرزاق، ج ١، ص ٣٩٧.
- (١٠٠) - فتح الباري، ج ١، ص ٤١٠.
- (١٠١) - فتح الباري، ج ١، ص ٤١٠.
- (١٠٢) - الكافي ط الاخوندي، ج ٣ ص ٣٣٠ و ٣٣١، وفي البحار، ج ٨٥، ص ١٤٩ - ١٥٩ نقل اخبارا كثيرة في هذا المعنى فراجع وتدبر.
- (١٠٣) - الكافي، ج ٣ ص ٣٣٠ و ٣٣١، وفي البحار، ج ٨٥ ص ١٤٨ عن ابي عبد الله عليه السلام انه قال (الراوي عنه) سمعته يقول: « السجود على ما أنبتت الارض الا ما اكل ولبس ».
- (١٠٤) - الكافي، ج ٣ ص ٣٣٠ و ٣٣١، وفي البحار ج ٨٥ ص ١٤٨ عن ابي عبد الله عليه السلام انه قال (الراوي عنه) سمعته يقول: « السجود على ما أنبتت الارض الا ما اكل ولبس ».

- « كان أبي - علي ابن الحسين (عليه السلام) - يصلي على الخمرة يجعلها على الطنفسة ويسجد عليها فإذا لم تكن خمرة جعل حصى على الطنفسة حيث يسجد عليها » (١٠٥).
- روى عبد الرحمن بن ابي عبد الله عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) : « عن الرجل يسجد وعليه العمامة لا يصيب وجهه الأرض قال : لا يجزئه ذلك حتى تصل جبهته الأرض » (١٠٦).
- عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام قال : « السجود على ما أنبتت الأرض الا ما أكل ولبس » (١٠٧).
- وعنه عليه السلام : « لا يسجد الا على الأرض أو ما أنبتت الأرض الا المأكول والقطن والكتان » (١٠٨).
- عن أحدهما عليهما السلام قال : « لا بأس بالقيام على المصلى من الشعر والصوف إذا كان يسجد على الأرض وإن كان من نبات الأرض ، فلا بأس بالقيام عليه والسجود عليه ».
- عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال : « سألته عن الرجل يصلي على البساط والشعر والطنافس قال لا تسجد عليه وإن قمت عليه وسجدت على الأرض فلا بأس ، وإن بسطت عليه الحصر وسجدت على الحصر فلا بأس » (١٠٩).
- قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) - : « السجود لا يجوز إلا على الأرض أو على ما أنبتت الأرض إلا ما أكل أو لبس » (١١٠).
- ويقول في موضع آخر : « السجود على الأرض فريضة و على الخمرة سنة » (١١١).
- وعنه (عليه السلام) أيضا عندما سأله إسحاق بن الفضيل عن السجود على الحصر والبوري. فقال : « لا بأس وإن يسجد على الأرض أحب الي ، فإن رسول الله ﷺ كان يحب ذلك أن يمكن جبهته من الأرض ، فأنا أحب لك ما كان رسول الله ﷺ يحب » (١١٢).
- وروي في موضع آخر : «... إن رجلا أتني أبا جعفر (الامام الباقر) وسأله عن السجود على البوريا والخصفة والنبات ؟ قال : نعم » (١١٣).
- وقال الحلبي : « عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سألته عن الرجل يصلي على البساط والشعر والطنافس ؟ قال : لا تسجد عليه ، وإن قمت عليه وسجدت على الأرض فلا بأس ، وإن بسطت عليه الحصر وسجدت على الحصر فلا بأس » (١١٤).
- في ضوء هذه الأحاديث المذكورة يتبين جيدا أنه لا يجوز - في نظر عتبة النبي ﷺ - السجود إلا على الأرض وما ينبت منها ما عدا الملابس والمأكولات.

(١٠٥) - الكافي، ج ٣، ص ٣٣٢ ، والوسائل ج ٣ ص ٥٩٤ الطبعة الحديثة.

(١٠٦) - الكافي، ج ٣، ص ٣٣٤ ، والتهذيب ج ٢ ص ٣٣٤ الطبعة الحديثة.

(١٠٧) - الوسائل، ج ٣، ص ٥٩٢ ، والبحار ج ٨٥ ص ١٤٩.

(١٠٨) - الوسائل، ج ٣، ص ٥٩٢ ، والبحار ج ٨٥ ص ١٤٩.

(١٠٩) - الوسائل، ج ٣، ص ٥٩٢ و ٥٩٤ ، والروايات من طرق اعلامنا الامامية رضوان الله عليهم كثيرة جدا وانما تركناها مخافة الاطناب وإذا اردت الوقوف عليها.

(١١٠) - وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٩١ كتاب الصلاة، أبواب ما يسجد عليه، الحديث ١.

(١١١) - وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٩٣ كتاب الصلاة، أبواب ما يسجد عليه، الحديث ٧.

(١١٢) - وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٦٠٩.

(١١٣) - وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٩٣.

(١١٤) - وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٩٤.

و هذا هو الحكم الذي يستفاد من مجموعة أحاديث سنة رسول الله ﷺ و سيرته ، و أفعال أصحابه و أقوالهم . و من جانب آخر نعلم أن ما قاله الأئمة المعصومون و أهل بيت النبي ﷺ من الأحكام الشرعية قد أخذوه من جدهم رسول الله ﷺ و هذه الرؤية نابعة من أن حق التشريع و التقنين للمجتمع البشري خاص بالله سبحانه وحده ، و قد أوصل القوانين و الأحكام الشرعية الى البشر عن طريق نبيه محمد ﷺ - و من الواضح البين أن رسول الله ﷺ - مجرد واسطة بين الله و الخلق لإبلاغ الوحي و إيصال التشريعات الإلهية.

من هذا البيان يتضح أن الشيعة إذا اعتبروا أحاديث أهل البيت أيضا من مصادر الفقه و التشريع عندهم فإنما هو لأجل أن أحاديث العترة مبينة لسنة رسول الله ﷺ (١١٥). قال الإمام الصادق (عليه السلام) في هذا المجال :

« حديثي حديث أبي ، و حديث أبي حديث جدي ، و حديث جدي حديث الحسين ، و حديث الحسين حديث الحسن ، و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين ، و حديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ و حديث رسول الله ﷺ ، قول الله عز وجل » (١١٦).

السجود الاضطرابي

في ضوء الأبحاث المتقدمة اتضح بالدلائل الآتية أن السجود يجب أن يتم على الأرض و ما ينبت منها (ماعدات المأكولات و الملابس) :

- ١ - سنة النبي الأكرم ﷺ المتمثلة في أوامره بالسجود على التراب و وجه الأرض .
 - ٢ - سيرة النبي ﷺ العملية .
 - ٣ - أقوال صحابة النبي ﷺ .
 - ٤ - سيرة صحابة النبي و تابعيه و مسلمي صدر الاسلام العملية .
 - ٥ - أقوال أهل البيت و عترة رسول الله ﷺ .
- و هناك أحاديث أخرى كذلك تبين كيفية السجود في الحالات الاضطرابية مثل الحر الشديد المضني ، أو البرد الشديد القارص ... ويستفاد من مجموعة هذه الطائفة من الأحاديث أنه يجوز في حالات الاضطراب و العذر الشرعي على السجود على جانب من الثوب أو قطعة من القماش .
- إن هذه الروايات كما ذكر إنما هي بصدد بيان كيفية السجود في الحالات الاضطرابية و لكن بعض المسلمين من أهل السنة تصور أن الأحاديث المذكورة تدل على جواز السجود على السجاد و الفرش و أمثالها في جميع الحالات ، حتى الحالات العادية و عدم وجود العذر الشرعي . و لهذا تعدوا حدود السنة و السيرة النبوية ، و أقوال و أفعال صحابة النبي ﷺ و قالوا : لا يجب السجود على مجرد الأرض و ما ينبت منها (ماعدات المأكولات و الملابس) بل يمكن السجود على كل شيء جامد آخر مثل السجاد و البساط و القماش ، و جانب من اللباس و المأكول ... في جميع الحالات و الشرايط .
- و على هذا من الأفضل أن نستعرض هنا الأحاديث المتضمنة لذكر موارد الاضطراب ، حتى يتضح عدم صحة هذا التصور :

أخرج البخاري - في باب : السجود على الثوب في شدة الحر - عن أنس بن مالك قال : « كنا نصلي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر في مكان السجود » (١١٧).

(١١٥) - الحسين ، سيد رضا ، السجود على أرض ، ص ٥٢ .

(١١٦) - جامع أحاديث الشيعة ، ج ١ ص ١٢٧ .

(١١٧) - البخاري ، ج ١ ص ١٠٧ .

- أخرج مسلم في باب: استحباب تقديم الظهر - عن أنس قال: "كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في شدة الحر فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه" ^(١١٨).
قال الشوكاني في (نيل الأوطار): «الحديث يدل على جواز السجود على الثياب لانتفاء الحر وفيه إشارة إلى أن مباشرة الأرض عند السجود هي الأصل لتعليق بسط الثوب بعدم الاستطاعة وقد استدل بالحديث على جواز السجود على الثوب المتصل بالمصلي. قال النووي: وبه قال أبو حنيفة والجمهور» ^(١١٩).
يتضح من العبارات المذكورة بجلاء أن السجود على الأشياء الأخرى غير الأرض وما ينبت منها إنما يجوز فقط في حالة الاضطرار لأن العبارات المذكورة تصرح بوجود الأعذار الشرعية المقبولة مثل الحر الشديد، أو البرد القارس. ومن هنا يتبين أن بعض المسلمين في صدر الاسلام كانوا يتوقون من حر الحجاز الشديد عند سطوع الشمس في ذلك المناخ الساخن بوضع قطعة من القماش بين الأرض وبين جباههم، ولهذا قال ابن حجر:
« وفيه إشارة الى أن مباشرة الأرض عند السجود هو الأصل لأنه علق بعدم الاستطاعة » ^(١٢٠).
إن الحكم بجواز السجود على جانب من الثوب في حالة الاضطرار (مثل الحر الشديد المضي) لا يختص بكتب أهل السنة الحديثية، بل يشاهد أيضا في أحاديث أهل البيت (صلوات الله عليهم) أيضا.
ولقد عقد صاحب كتاب «وسائل الشيعة» فصلا تحت عنوان «جواز السجود على الملابس و على ظهر الكف في حال الضرورة» نقل فيه أحاديث أهل البيت النبوي في هذا المجال، ونحن نورد بعض هذه الأحاديث:

- و يقول قاسم بن فضيل:
- « قلت للرضا عليه السلام: جعلت فداك، الرجل يسجد على كفه من أذي الحر و البرد ؟ قال: لا بأس به » ^(١٢١).
- وروي جماعة من الإماميين هكذا:
- « قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنا نكون بأرض باردة يكون فيها الثلج أفسجد عليه ؟ قال: لا، ولكن اجعل بينك وبينه شيئا قطنا أو كتانا » ^(١٢٢).
- يقول عينية: « قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أدخل المسجد في اليوم الشديد الحر فأكره أن أصلي على الحصى، فأبسط ثوبي فأسجد عليه ؟ قال: نعم ليس به بأس » ^(١٢٣).
- عبد الله بن جعفر عن أخيه عليه السلام قال: سألت عن الرجل يؤذيه الأرض و هو في الصلاة و لا يقدر على السجود هل له أن يضع ثوبه إذا كان قطنا أو كتانا؟ قال إذا كان مضطرا فليفعل ^(١٢٤).

صفوة القول

هذه خلاصة ما أوردناه من الصحاح والمسانيد في ما يصح السجود عليه وهي تدل على أن الأصل في ذلك - مع وجود القدرة والاستطاعة - هو السجود على الأرض مباشرة أو على ما نبت منها غير مأكول ولا ملبوس أخذا بأحاديث الخمرة والفحل والحصير المصنوعة من سعف النخيل ولا يمكن العدول عنها إلى غيرها عند فقدان العذر أما في حالة وجود عذر مانع عنها فإنها يمكن السجود على الثوب المتصل

(١١٨) - مسلم، ج ٥ ص ١٢١.

(١١٩) - نيل الأوطار، ج ٢، ص ٢٨٩.

(١٢٠) - الفتح، ج ١، ص ٤١٤.

(١٢١) - وسائل الشيعة، ج ٣، كتاب الصلاة، أبواب ما يسجد عليه، باب ٤، الحديث ٢.

(١٢٢) - وسائل الشيعة، ج ٣، كتاب الصلاة، أبواب ما يسجد عليه، باب ٤، الحديث ٧.

(١٢٣) - وسائل الشيعة، ج ٣، كتاب الصلاة، أبواب ما يسجد عليه، باب ٤، الحديث ١.

(١٢٤) - وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٥٩٣ - ٥٩٦ والبحار، ج ٨٥، ص ١٥٢ - ١٤٩

بالمصلي فحسب دون الثوب المنفصل لعدم وروده في السنة وأما السجود على الفرش والسجاد والبسط المنسوجة من الصوف والوبر والحرير والثوب المنفصل وغيرها فإن ذلك مما أحدثه الناس واخترعوه ولا يوجد دليل يعتد به يسوغ السجود عليها ولم يرد أي مستند قوي يمكن الركون اليه والتعويل عليه فيها هي الصحاح الستة الكفيلة ببيان الشرائع والأحكام ليس فيها حديث يمكن الأخذ به في هذه المسألة وكذلك سائر كتب الحديث والسنن المعتمدة في القرون الثلاثة الأولى وهي خير القرون لا يوجد بها أثر صحيح صريح يقوم به الاستدلال وتنهض به الحجة على جواز ذلك.

وقد أخرج الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده في (مصنفه) الجزء الثاني عن سعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين « أن الصلاة على الطنفسة محدث ». (الطنفسة: النمرقة فوق الرحل وقيل: هي البساط الذي له خمل رقيق).

ما هو السر في التزام الشيعة استحباب السجود على التربة الحسنية ؟

قد تبين - مما تقدم - أن السجود على الأرض مباشرة هو الأصل المعمول به على عهد رسول الله ﷺ والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان وهو الذي يلتزم به الشيعة الإمامية حتى يومنا هذا ولا يحدون عنه قيد أنملة، فهم يسجدون على الأرض شريطة التأكد من عدم نجاستها وخلوها من الأقدار، ويستحبون من بين تراب الأرض تربة كربلاء، حيث استشهد بها أبوالأحرار وسيد الشهداء أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام الذي خرج في ثلة من أهل بيت النبوة الأطهار الأطهار وصحابته الأبرار من أجل مقارعة الظلم والطغيان والإثم والعدوان المتمثل في طاغية عصره وطاغوت دهره يزيد بن معاوية الذي تسلط على رقاب المسلمين بغير الحق وأذاقهم صنوفا وألوانا من المحن والمصائب، من قتل وتشريد وانتهاك للحرمات والمقدسات وإهلاك للحرث والنسل وضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق وإحراقها وتدنيس حرمة المدينة المنورة واقتحامها وإباحتها وقتل الصحابة الأبرار فيها في وقعة الحرة وتخريب بيوتهم ونهب أموالهم وهتك أعراض بناتهم... إلى غير ذلك من الجرائم البشعة التي تقشعر الأبدان عند ذكرها وترتعد الفرائص من مجرد سماعها وتشمئز النفوس من هؤلاء المجرمين الذين اقترفوها.

وقد سجل التاريخ أروع ملحمة بطولية على أرض كربلاء التي ارتوت بدماء الحسين عليه السلام وأهل بيته الأطهار وصحابته الأبرار، تلك الدماء التي أريقَت على صعيدها من أجل عزة الإسلام وإعلاء كلمة الله في يوم عاشوراء وقد دلت بعض الأحاديث على فضل هذه التربة الطاهرة ومكانتها السامية فترى الواحد منهم يحمل معه تربة نقية طاهرة منها كيما يسجد عليها لله رب العالمين.

ولا شك أنه أمر مستحسن فطريا أن يتخذ المصلي لنفسه تربة طاهرة طيبة يتأكد من طهارتها بخلوها من النجاسات ولا فرق في ذلك بين أن تكون من هذه الأرض أو تلك من حيث الأصل الواجب، فهي كلها في الشرع سواء لا امتياز لإحداهن على الأخرى في جواز السجود عليها وما ذلك الحرص والاهتمام إلا لحفاظ المصلي على طهارة جسده وملبسه ومصلاه. وعليه، فإن المسلم يقوم باتخاذ صعيد طيب لنفسه يسجد عليه في حله وترحاله وفي سفره وإقامته لا سيما في حال السفر لعدم الثقة بطهارة كل أرض ينزل بها ويتخذها مسجدا من المدن والفنادق ووردهات المنازل والساحات العامة والمطارات ومحطات وسائل المواصلات المختلفة التي تشهد فئات من البشر من مختلف الملل والأجناس... من المسلمين وغيرهم من أخلاط الناس الذين لا يبالون ولا يكثرثون لأمر الدين وبخاصة موضوع الطهارات والنجاسات.

فأي مانع - عندئذ - من أن يحتاط المسلم لدينه ويتخذ معه تربة طاهرة يطمئن بنقاها وطهارتها يسجد عليها في صلاته متوخيا الحيطة ومحترزا من السجود على الأرجاس والنجاسات التي لا تسوغ السنة الشريفة السجود عليها ولا تقبله الفطرة السليمة، لا سيما وإن أوامر الشرع الحنيف تؤكد على الاهتمام

بطهارة أعضاء المصلي ولباسه وتنهى عن الصلاة في أماكن معينة لمظنة اختلاطها بالنجاسات منها: المزابل والمجازر والمقابر وقارعة الطريق والحمام ومعادن الإبل وكذلك الأمر بضرورة تطهير المساجد وتطيينها. ووفق هذه النظرة الصائبة جرى بعض فقهاء السلف الورعين والمحتاطين لدينهم من أهل القرون الأولى وحسبك أن التابعي الفقيه الكبير المتفق على جلالته، مسروق بن الأجدع كان يأخذ في أسفاره لبنة (أي حجرا) يسجد عليها:

يكتب ابن سعد في كتابه « الطبقات الكبرى » قائلا: « كان مسروق إذا خرج يخرج بلبنة يسجد عليها في السفينة »^(١٢٥).

هذا في ما يتعلق بالسجود على الأرض مباشرة من حيث أصل الوجوب وأخذ الحيطة بحمل تربة طاهرة. أما في ما يتعلق باستحباب السجود على تربة كربلاء فإن قاعدة التفضيل المطردة في هذه الحياة تدل عليه وتؤكد فضلها عن ورود بعض الأحاديث التي تعضده.

فلا شك أن الله سبحانه قد اصطفى مكة وانتجها من بين الأماكن وجعلها مقرا لبيته الحرام الذي أوجب على الناس الحج إليه والطواف حوله وخصها بميزات معينة بوصفها حرما آمنا لا يجوز انتهاكه وما يرتبط من ذلك بشجرها ونبتها ومن نزل بها وكذلك اختار المدينة المنورة وجعلها حرما إلهيا - أيضا - يجب تعظيمه وعدم تجاوزه. وما ورد في السنة الشريفة في إجلالها وفي فضائل أهلها وتربتها ومن حل بها ومن دفن بأرضها وجميع ذلك ليس إلا باعتبار الإضافة والنسبة إلى الله تعالى وكونها عاصمة لنبيه الخاتم صلوات الله عليه.

بل إن قاعدة التفاضل وتفاوت الدرجات ممتدة ومطردة على الدوام حتى بين الأنبياء والمرسلين والأوصياء والأولياء والشهداء والصالحين وأفراد المؤمنين. وكذلك بين الأوقات والازمنة، لاختصاص بعضها بفضائل وخصال معينة فشهر رمضان خير الشهور وليلة القدر أفضل الليالي ويوم عرفة أفضل الأيام.. وما إلى ذلك من الاختصاصات والتفاضلات بين الأعيان نتيجة تعلقها بالله سبحانه ونسبتها إليه.

وكانت تربة كربلاء هي التربة التي ضمت بين ثناياها أطهر الأجساد وأطيبها وهم أبناء الرسول صلوات الله عليه الذين سجلوا على صعيدا أعظم صفحات البذل والتضحية في سبيل الله سبحانه واختلطت ذراتها بدمائهم الزكية التي أهرقت قربة إليه جل وعلا فحري بها أن تلازم الإنسان المسلم في حله وترحاله وإقامته وتجوّاله وتذكره دائما بما كتب عليها من معاني البطولة والفداء والبذل والعطاء وأن تكون نصب عينيه شاهدة عليه وكأنما تأخذ عليه البيعة كل يوم بالوفاء لتلك الدماء الطاهرة والالتزام بالخط الرسالي التضحي الذي سلكه أصحابها الأبرار الذين قدموا أرواحهم قربانا إلى الله تبارك وتعالى.

إن تربة كربلاء هي رمز الجهاد الثوري الذي خاضه أهل بيت النبي صلوات الله عليه في كفاحهم المرير ضد الظلم والاستكبار والفساد والانحراف.

وهي رمز الاعتزاز بالإسلام دينا ومنهجيا للحياة في مواجهة القوى الشيطانية التي تسعى إلى استئصاله وإقصائه بعيدا عن ساحة الوجود.

كما أنها رمز الشجاعة والصمود في وجه الطغاة والمستبدين من أجل إحقاق الحق وتثبيت أركانه وإزهاق الباطل وتقويض بنيانه.

وما إلى ذلك من الدروس القيمة والعظات البالغة التي يجب إلى تغيب عن ذهن الإنسان المسلم أبد الدهر ومن هنا كانت قيمة تربة كربلاء المعنوية والعبرة من الارتباط بها والسجود عليها^(١٢٦).

(١٢٥) - الطبقات الكبرى، ج ٦ ص ٧٩، في أحوال مسروق بن الأجدع، طباعة بيروت.

(١٢٦) - عاطف سلام، فقيها بين السنة والشيعة، ص ٢٠ - ٢١.

ولذلك جاءت الأحاديث الشريفة لتعظم تلك التربة الطاهرة وتشيد بفضلها :

- روي ابن حجر الهيثمي في كتابه «الصواعق المحرقة» :

«... إذ دخل الحسين فاقترح فوثب على رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يلشمه ويقبله ، فقال له الملك : أتجبه ؟ قال : نعم ، قال : إن أمتك ستقتله وإن شئت أريك المكان الذي يقتل به . فأراه فجاء بسهولة أو تراب أحمر ، فأخذته أم سلمة فجعلته في ثوبها . قال ثابت : كنا نقول إنها كربلاء .»

- وأخرجه أيضا أبو حاتم في صحيحه ، وروي أحمد نحوه ، وروي عبد بن حميد وابن أحمد نحوه أيضا ... وزاد الثاني أيضا أنه ﷺ شمه ، و قال : ويح كرب وبلاء»^(١٢٧) .

- وهكذا روي عن ابن سعد وهو أيضا عن الشعبي :

«مر علي رضي الله عنه - بكربلاء عند مسيره الى صفين و حاذي نينوا - قرية على الفرات - فوقف وسأل عن إسم هذه الأرض . فقيل : كربلاء . فبكي حتى بل الأرض من دموعه ثم قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : كان عندي جبرئيل أنفاً وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطي الفرات بموضع يقال له : كربلاء . ثم قبض جبرئيل قبضة من تراب شمني إياه ، فلم أملك عيني أن فاضت»^(١٢٨) .

- ويقول ابن حجر في موضع آخر :

«... فقال جبرئيل : ستقتله أمتك . فقال ﷺ ابني ؟ قال : نعم وإن شئت أخبرتك بالأرض التي يقتل فيها ، فأشار جبرئيل بيده الى الطف بالعراق فأخذ منها تربة حمراء فأراه إياها و قال : هذه من تربة مصر»^(١٢٩) .

- روي الحاكم النيسابوري ، عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ اضطجع ذات ليلة للنوم فاستيقظ وهو حائر ، ثم اضطجع فرقد ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيت به المرة الأولى ثم اضطجع فاستيقظ وفي يده تربة حمراء يقبلها ، فقلت له ما هذه التربة يا رسول الله ؟ قال : أخبرني جبرئيل ﷺ أن هذا يقتل بأرض العراق للحسين ، فقلت أرني تربة الأرض التي يقتل بها فهذه تربتها... (ثم قال الحاكم) : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين (البخاري ومسلم) ولم يخرجاه^(١٣٠) .

في ضوء المجموعة الكبرى من الأحاديث الواردة في صحاح السنة و سننهم و مسانيدهم من هذا القبيل يتضح أن أرض كربلاء كانت تعد عند رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والمحدثين الإسلاميين من الأماكن والبقاع المقدسة المحترمة ، وأن ترابها الطاهر المطهر يحظى بأهمية وميزة خاصة . ولذا كان الشيعة المسلمون يستحبون السجود عليها في صلواتهم لما اختصت به من ميزات وفضائل معنوية .

و تجب الإشارة هنا إلى أن ذلك ليس من الفرض المحتم عندهم ولا من واجبات الشرع والدين ولا يلتزمون به في ما بينهم بل إنه من قبيل الاستحسان والاستحباب فحسب .

(١٢٧) - الصواعق ، ص ١٩٢ .

(١٢٨) - الصواعق المحرقة ، ص ١٩٣ .

(١٢٩) - الصواعق المحرقة ، ص ١٩٣ . إن الأحاديث الإسلامية في هذا الصدد في كتب الشيعة والسنة كثيرة ، وللتوسع و مزيد الاطلاع يمكن مراجعة : كنز العمال ، ج ١٣ ، ص ١١١ - ١١٢ ، والخصائص (السيوطي) ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، و مناقب ابن المغازلي ، و بحار الأنوار ج ٤٤ ، والمعجم الكبير (للطبراني) ، ص ١٤٤ ، والعقد الفريد ، ج ٢ ، والصواعق المحرقة ، و عشرات الكتب الحديثية الأخرى .

(١٣٠) - الحاكم النيسابوري : المستدرک ، ج ٤ ، ص ٣٩٨ / ط بيروت .

والحاصل أنّ التذلل والخضوع في مقابل عظمة الله سبحانه يتحقّق بأفضل مجاله بوضع الجبهة والأنف على التراب والطين، قائلا: أين التراب ورب الأرباب وأنه التراب سواسية ولا تجد ذلك في السجود على المصنوعات وللعلامة الأميني كلمة قيمة واليك نصها:

والأنسب بالسجدة التي إنّ هي إلّا التصاغر والتذلل تجاه عظمة المولى سبحانه ووجه كبريائه، أن تتخذ الأرض لديها مسجدا يعفر المصلّي بها خده ويرغم أنفه لتذكّر السّاجد لله طينته الوضيعة الخسيسة التي خلق منها واليها يعود ومنها يعاد تارة أخرى حتى يتعظ بها ويكون على ذكر من وضاعة أصله ليتأتى له خضوع روحي وذل في الباطن وانحطاط في النفس واندفاع في الجوارح إلى العبودية وتقاعس عن الترفع والأنانية، ويكون على بصيرة من أن المخلوق من التراب حقيق وخليق بالذل والمسكنة ليس إلّا.

ولا توجد هذه الأسرار قطّ وقطّ في المنسوج من الصوف والديباج والحرير وأمثاله من وسائل الدعة والراحة ممّا يري للإنسان عظمة في نفسه، وحرمة وكرامة ومقاما لديه ويكون له ترفعا وتجبها واستعلاء وينسلخ عند ذلك من الخضوع والخشوع^(١٣١).

المصادر والمراجع:

◆ القرآن الكريم

- ابن سعد زهري، الطبقات الكبرى؛ داراحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٧.
- ابن كثير دمشقي، البداية و النهاية؛ مكتبة المعارف؛ بيروت.
- ابن منظور، لسان العرب؛ ادب الحوزه، قم ١٤٠٥ هـ.
- امام مالك، مالك بن انس اصبحي، المدونة الكبرى، دارالكتب العلمية، بيروت، ط ١.
- البخاري، محمد بن اسماعيل؛ صحيح البخاري؛ دارالفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ.
- بيهقي، احمد بن حسين بن علي موسي؛ السنن الكبرى؛ دارالفكر؛ بيروت.
- ترمذي، ابو عيسي محمد بن عيسي؛ جامع الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تميمي آمدي، عبدالواحد بن محمد؛ غررالحكم و دررالكلم؛ مؤسسة الاعمي؛ بيروت ١٤٠٧ هـ، ط ١.
- جزري، ابن الاثير؛ النهاية في غريب الحديث؛ دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ.
- الجصاص الحنفي؛ احكام القرآن؛ بيروت.
- الحر العاملي، محمد بن اسماعيل؛ الشيخ محمد بن الحسن؛ وسائل الشيعة؛ مؤسسة آل البيت عليه السلام لاحياء التراث.
- الحسيني واسطي زيبيدي حنفي، محمد مرتضي؛ تاج العروس من جواهر القاموس؛ مكتبة الحياة.
- الحسيني، سيد رضا؛ السجود على الارض؛ مؤسسه الامام المهدي، ١٤١٣ هـ.
- الحاكم النيسابوري؛ المستدرک، ج ٤ / ط بيروت.
- دارمي تميمي، عبدالله بن عبدالرحمن؛ سنن دارمي؛ دارالكتب العلمية؛ بيروت ١٤١٠ هـ.
- زمخشري؛ أساس البلاغة؛ دارالفكر، بيروت ١٤٠٩ هـ.
- سجستاني، سليمان بن اشعث؛ سنن ابي داود؛ دارالفكر؛ بيروت ١٤١٠ هـ.
- السيد السبزواري؛ مذهب الاحكام في بيان الحلال و الحرام؛ مؤسسة المنار، ١٤١٢ هـ. ط ٤.

- شيخ طوسي ؛ النهاية ؛ دارالاندلس ؛ بيروت.
- الشيخ المفيد ، المقنعة ؛ مؤسسة النشر الإسلامي ، الثانية ، ١٤١٠ هـ.
- طبراني ، سليمان بن أحمد بن أيوب ؛ المعجم الأوسط ؛ دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥ هـ.
- طبراني ، سليمان بن أحمد بن أيوب ؛ المعجم الكبير ؛ مكتبة العلوم والحكم ، موصل ، ١٤٠٤ هـ ، ط ٢.
- عاطف سلام ، فقيهاً بين السنة و الشيعة ، مركز الغدير للدراسات الإسلامية ، ط ٢٠٠٠
- عسقلاني ، ابن حجر ؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، دارالمعرفة ؛ بيروت.
- علامه مجلسي ، محمد باقر ؛ البحار الانوار ؛ موسسه الوفاء ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ.
- علامه اميني ، سيرتتا و سنتتا.
- الفيومي المقرئ ، احمد بن محمد ؛ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ؛ دارالهجرة ، قم ١٤١٤ هـ.
- القزويني ، محمد بن يزيد أبو عبدالله ، سنن ابن ماجه ، دار الفكر - بيروت.
- القسطلاني المصري الشافعي ؛ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك ، إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري.
- القشيري النيشابوري ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين ؛ صحيح مسلم ؛ دارالفكر ، بيروت ، لبنان.
- كليني ، محمد بن يعقوب بن اسحاق ؛ اصول الكافي ؛ علمية الإسلامية ؛ طهران ١٣٦٢ هـ. ش ، ط ٢.
- مباركفوري ، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم ؛ تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- متقي هندي ، علي بن حسان الدين ؛ كنز العمال في سنن الاقوال و الافعال ؛ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٩ هـ.
- المحقق الكركي ؛ جامع المقاصد في شرح القواعد ؛ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، قم ، ١٤١٤ هـ. ط ٢.
- مشكيني اردبيلي ، علي ؛ المصباح المنير ؛ الهادي - قم ١٣٦٤ هـ. ش.
- المعجم الوسيط ؛ مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، ١٤١٢ هـ. ط ٤.
- النسائي ، أحمد بن شعيب ؛ (سنن نسائي) ؛ تحقيق عبدالفتاح أبو غدة ؛ مكتب المطبوعات الإسلامية ، الحلب ، ٤٠٦ هـ ، ط ٢.
- النوري ، الميرزا حسن ؛ مستدرک الوسائل الشيعة ؛ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، ١٤٠٧ هـ ، ط ١.
- نيشابوري ، مسلم بن حجاج ، صحيح مسلم ؛ دارالفكر ؛ بيروت.
- هيثمي شافعي ، ابوالحسن نورالدين علي بن ابي بكر ؛ مجمع الزوائد و منبع الفوائد ؛ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٤٠٨ هـ.

الحكمة في شعر الصعاليك (دراسة تحليلية)

د. عمار المسعودي^(١)

المقدمة

تعد الحكمة من الموضوعات المهمة في تاريخ الأدب العربي لما يرافقها من معرفة تشي بمدى تطور الذهنية المنتجة للأدب والفن وسائر الفعاليات الثقافية لأمة ما، ولا سيما إذا ما كانت تلك الحكمة تقترن بمجموعة من الشعراء لا بد لدارس الأدب من التعرف عليهم بشكل عميق لما لهم من معطيات تفارق التقاليد والأعراف القبلية، هذه المجموعة تعرف بالصعاليك، الذين أنتجوا حكمة أدبية طريفة ومختلفة، هذه الطرافة وذلك الاختلاف جاء من مفارقة ومباينة لأعراف عامة منصوص عليها.

هذا الاختلاف وتلك المباينة في إنتاج الحكمة ربما يضيفي على هذه الدراسة أهمية خاصة، مما شكل باعثاً في تناول هذا الموضوع بالدرس.

وتبعاً لطبيعة المادة المدروسة فقد قسم البحث على ثلاثة مباحث سبقها تمهيد في ثلاث فقرات كانت الأولى في التعريف بالحكمة في اللغة والاصطلاح فيما عالجته الفقرة الثانية مفهوم الصعلكة والصعاليك وكانت الفقرة الثالثة في الجذور الاجتماعية للحكمة في شعر الصعاليك أما المباحث الثلاثة فقد خصص الأول منها لعرض حكمة الخلاص من الجوع في شعر الصعاليك وكان المبحث الثاني خصص لدراسة حكمة المروءة فيما تناول المبحث الثالث حكمة النجاة من الموت والإغارة.

وخلص البحث إلى خاتمة حاولنا إدراج أهم ما توصل اليه وقد عولجت فقرات البحث على وفق المنهج التحليلي، فقد التزم الباحث بما تنطق به النصوص ثم محاولة تحليلها واستخراج ما تتضمنه من نتائج دون تعسف، نسأل الله التوفيق في عملنا.

التمهيد : الحكمة في اللغة والاصطلاح :

أولاً : الحكمة لغة واصطلاحاً :

الحكمة لغة : مرجعها إلى العدل والعلم والحلم، ويقال أحكمته التجارب إذا كان حكيماً. وأحكم فلان عنى كذا أي : منعه، ومن ذاك الحكم وهو المنع من الظلم، والحكمة هذا قياسها لأنها تمنع من الجهل، والمحكم : المجرب؛ المنسوب إلى الحكمة.

ومن هذا المعنى وصف الله سبحانه وتعالى بأنه أحكم الحاكمين وأنت أحكم الحكمين^(٢).

واستحكم الأمر : وثق، واحتكم في ماله، إذا جاز فيه حكمه. والاسم، الحكومة والأحكام^(٣) قال الأعشى^(٤) :

١ - الكلية التربوية المفتوحة، كربلاء.

٢ - (سورة هود، الآية ٤٥)

ولمثل الذي جمعت لريب الدهر يأبى حكومة المقتال

أي لا تنفذ حكومة من يتكلم عليك من الأعداء . والمقتال : المفتعل من القول . والتحكيم : قول الحرورية^(٥) : (لا حكم إلا الله) وحكمنا فلانا أمرنا أي : يحكم بيننا وحاكمناه إلى الله : دعواناه إلى حكم الله . ويقال عني أن يسمى رجل حكماً^(٦) .

وحكمة اللجام : ما أحاط بحنكيه ، سمي به لأنها تمنعه من الجري . وكل شيء منعه من الفساد فقد حكمته ، وحكمته وأحكمته قال جرير (من الكامل)^(٧) :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم أني أخاف عليكم أن أغضب

وتقترب تقيليات (ح . ك . م) بعض الشيء من معنى حكم وهي على النحو الآتي : محك : التماذي في اللجاجة عند المساومة والغضب ونحوه وتماحك البيعان ؛ وبهذا تكون هذه اللجاجة في حاجة ماسه إلى المسك والحكم .

حكم : من نعت الأدلاء تقول : حَمَكَ يَحْمِكُ وهذا المعنى هو الأقرب إلى الخبرة والحكمة .

كمح رد الفرس باللجام ، وهو الأقرب لمادة حكم كونه يصرح في الرد والمسك والمنع^(٨) .

وقد تطلق الحكمة على معنى النبوة وعلى القرآن أو التكاليف الشرعية المرادة من العباد^(٩) ، قال تعالى : (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)^(١٠) .

أما الحكمة اصطلاحاً : فإنها (علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ماهي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية ، فهي علم نظري غير آلي)^(١١) .

والحكمة بهذا المعنى هي الفلسفة عينها ، أي معرفة الأشياء بأفضل العلوم ، بمعنى آخر إن الحكمة تمثل الغاية في العلم والتفقه ، ووضع الشيء في موضعه ، وهي إحدى الفضائل الأصلية عند فلاسفة اليونان ثم أطلقت على العلم مع العمل ، والحكمة صفة الحكيم وهي كذلك الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه ، والحكميون هم الفلاسفة^(١٢) .

ومثال الحكيم كان المثل السامي الأعلى في العصور القديمة ، ومن أهم ما يميزه العيش بانسجام مع العالم وكأن لكل قوانين الكون صدى في ذاته ، وبهذا عدت الحكمة مفهوماً أخلاقياً يدل على التوازن في الشخصية أي العفة والاعتدال في الرغبات ، وبهذا المعنى فإن الحكمة تتعارض مع الأهواء^(١٣) .

ومما تقدم نخلص إلى أن الحكمة هي نظرات الإنسان في الحياة وتصرفات من فيها ، وما فيها تستقي من تجارب الآخرين ، وهي كذلك تجارب شخصية يتم تعميمها بفعل أثرها الخالد ثم أنها ثمرة تجارب طويلة

٣- . ينظر : كتاب العين : ١٢٧ ومعجم مقاييس اللغة ولسان العرب : ٩٥١/٢ .

٤- . شرح ديوان الأعشى : ١٩٦٩ ، والبيت في لسان العرب بهذه الصورة :

ولمثل الذي جمعت لريب الدهر يأبى حكومة المقتال

ينظر : لسان العرب : ٩٥٢/٢ .

٥- الحرورية : فرقة من الخوارج ، نسبة إلى حروراء ، قرية بالكوفة كان بها أول تجمع مسلح لهم . معجم لغة الفقهاء ، محمد قلنجي ، ط ٢ ، ١٩٨٨ م : ١٧٩ .

٦- . ينظر : لسان العرب : ٩٥٢/٢ .

٧- . ديوان جرير : ٤٧ .

٨- . ينظر : كتاب العين : ١٢٩ .

٩- . ينظر : القاموس المحيط : ٣٠٩ .

١٠- . سورة الإسراء ، الآية : ٣٩ .

١١- . كتاب التعريفات : ١٥٤ .

١٢- . ينظر : المعجم الفلسفي : ٤٩١/١ .

١٣- . ينظر : قاموس الفلسفة : ١٩٢ .

وفطنة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم وبالماضين ومصائرهم وتأمل في سعي الإنسان وغايته ونهايته، ثم هي إحساس دقيق بالحياة^(١٤).

ثانياً : الصعلكة والصعاليك :

تصعلكت الإبل : خرجت أوبارها وأنجرت وطرحتها، ورجل مصعلك الرأس : مدوره . والتصعلك : الفقر، وصعاليك العرب، ذؤبانها وكان عروة بن الورد يسمي : عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حضيرة فيرزقهم مما يغنمه^(١٥).

والصعلوك هو : الفقير الذي لا مال له، وزاد الأزهري، ولا إعتما د ؛ وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك^(١٦).

ولقد تطورت لفظة الصعلوك فلم تعد تعني الفقير بل غدت تعني من يتجردون للغارات وقطع الطرق وبذلك يمكن تقسيم هذه الطائفة على ثلاث فئات :

١. الخلاء الشذاذ، المطرودون من قبائلهم لكثرة شغبهم مثل حاجز الأسدي وقيس بن الحداية وأبو الطمحان القيني .

٢. أبناء الحبشيات السود، المنبوذون من آبائهم خشية العار مثل السليك بن السليكة، وتأبط شراً، والشنفرى، وعنترة بن شداد في أول أمره .

٣. المحترفون للصعلكة ممن لم ينضموا إلى الفئتين السابقتين وقد يكونوا أفراداً مثل عروة بن الورد وقد يكونوا قبيلة برمتها مثل : هذيل وفهم^(١٧).

وأهم ما يميز شعر الصعاليك نبرة الرفض الواضحة لمظاهر الفقر والجوع والتمرد على الأغنياء وأعراف القبيلة التي تميز بين الغني والفقير، ويمكن أن نلاحظ أن الصبر وشدة التحمل سمة يكاد يشترك فيها الصعاليك^(١٨) كذلك امتازوا بالعطف على الفقراء والنجدة والمساواة بالغنائم والمفاخرة بغاراتهم على القبائل الأخرى^(١٩) !

إن شعر الصعاليك صدى للواقع المعيش فهو صورة صادقة لنفسيات من ينتمي لهذه الطائفة وأعمالهم وأخلاقهم وقد تميز بوحدة الموضوع فقلما نجد مقدمات غزلية أو طلليلة أو وصفية لأن معظم أشعارهم كانت مقطعات، لا قصائد فلم يألفوا التمهيل والتنميق والتروي، وما أمتاز به شعرهم، الإكثار من مخاطبة الزوجة ولعل ذلك دليل على الغربة التي كانوا عليها^(٢٠).

وفي نص لعمر بن بركة الهمداني نرى أن معنى الصعلكة ينتقل من دلالة الضعف إلى دلالة أخرى، تتضمن الروح المتمردة والنفس الكبيرة التي تحمل بين جوانحها طاقات وجودية، تحاول إثباتها بعد أن حطمت القبيلة كل جسور الاتصال بينها وبين الصعاليك ؛ لذا صار التمرد سمة لهذه الأرواح الشائرة المنفلتة من أسارها لتخرج "الصعلكة" من دائرة الذل والاستكانة والفقر إلى دائرة الثورة والغزو والسلب والإغارة . قال عمرو بن بركة الباهلي^(٢١) :

١٤ - ينظر : موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء : ١٨ ، وينظر الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ١٢/٢٤٥١ ، وينظر مصادر الشعر الجاهلي : ١٦٥ ، وينظر الحكمة في شعر المتنبي : ٩ .

١٥ - ينظر : لسان العرب : ٤/٢٤٥٢ .

١٦ - ينظر : م.ن. : ٤/٢٤٥١ .

١٧ - ينظر : المعجم المفصل في الأدب : ٢/٥٨٥ .

١٨ - ينظر : م.ن. : ٢/٥٨٦ .

١٩ - ينظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٣٠٦ .

٢٠ - ينظر : المرجع نفسه : ٣٠٦ .

٢١ - الأمالي : ٢/١٢١ ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب : ٣١٥ مع إختلاف يسير في الألفاظ.

تقول سليمي لا تعرّض لتلفه
وكيف ينام الليل من جل همه
ألم تعلمي ان الصعاليك نومهم
ليلك عن ليل الصعاليك نائم
حسام كلون الملح ابيض صارم
قليل إذا نام الخلي المسالم

فالصعلكة إذن هي الإنجراد والضمور، وفي المفهوم اللغوي يكون معناها الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله ويظهره ضامرا هزيعا ومن إضافة الأزهري ولا إعتدال، يكون الصعلوك : هو الفقير الذي يواجه الحياة وحيدا، فالمسألة إذن ليست فقرا وحسب، بل هي إغلاق أبواب الحياة وسد جميع المسالك أمام هذه المجموعة .

ثالثاً : الجذور الاجتماعية للحكمة في شعر الصعاليك

تعد البنية الاجتماعية القبلية، وما فيها من طبقة وتميز عنصري من أهم العوامل التي أسهمت في تبلور هذه الظاهرة وما أفرزته من سحق وتهميش للفقراء والمعدمين من تلك الطبقات الأقل منزلة من طبقة الأحرار والأسياد، الذين يستحوذون على كل شيء، بما في ذلك الدفاع عن القبيلة، وتسجيل الوقائع والأيام، يقتصر على السادة والأحرار دون سواهم^(٢٢). قال السليك بن السلعة^(٢٣) :

لا يكشف الغمء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

إذن ظلت الطبقة والعنصرية حجراً لتحطم عليها آمال شريحة واسعة من العبيد والموالي والخلعاء الذين شكلوا الأساس لقيام ظاهرة الصعاليك . فالسليك بن السلعة كما يصرح أنه شاب رأسه مما تقاسيه حالاته من ضيم وهوان ومذلة ويعجز لفقره عن إنقاذهم^(٢٤).

لذا فإن الدوائر ظلت تزداد ضيقاً على هؤلاء الأغربة^(٢٥) المنسوين إلى أمهاتهم، وهذا أول تحليل من سلطة الأب الذي هيأ التحلل من سلطة القبيلة . وهياً للأفراد المنتمين لهذه الفئة المحرومة أو تلك الهروب بذاتها لتحقيقها بعيداً عن القبيلة المزدهمة بأبنائها البيض الأحرار والأسياد . لهذا يمكن أن نسجل بناءً على ما تقدم ظاهرة التحلل من الشخصية القبلية، وذلك لفقدان الصعاليك، التوافق الاجتماعي بينهم وبين قبائلهم ؛ مما أفقدهم الإحساس بالعصبة القبلية .

إن على المتصدي لأي جانب من جوانب شعر الصعاليك فنياً كان أم موضوعياً . ملاحظة هذا الانفصال وما يأتي به من معطيات مخالفة لقوانين القبيلة وأعرافها . لذا لا يمكن أن ننظر إلا بعين مختلفة لأية ظاهرة تتصل بهذه الجماعة .

إن الحكمة التي نحن بصدد تقصيصها عند الشعراء الصعاليك، لابد أن ننظر إليها خارج سياق المعارف عليه في بنية المتن السيادي، إذ لا تخرج عن كونها خبرات للحفاظ على المنظومة العرفية القبلية وإدامتها محافظة على مصالح الطبقة العليا، بقيم تربو على التقديس بمحاكاتها قيم القبيلة العليا فهي لا تقبل ولا تستساغ . إلا ممن يمتلكون السلطات السيادية والعرفية، لذا يمكن أن يكون إنتاج الحكم من عند طبقة أعرض وأوسع، ثم يتم قصرها على مجموعة حرصاً منهم على عدم تبديدها خارج قبضة الطبقة العليا، إذ لم يتجاوز إنتاج الحكمة في عصر الإسلام أسماء من مثل لقمان الحكيم وزهير بن سلمى، وليبد بن ربيعة وطرفة بن العبد وأحيحة بن الجلاح وأمية بن الصلت^(٢٦).

٢٢- ينظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٢٣٠، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ١١١ .

٢٣- م.ن : ١١٥ .

٢٤- ينظر : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ١١١ .

٢٥- سمو كذلك تشبيهاً لهم بذلك الطائر المشؤوم في لونه الأسود . ن : ١١١ .

٢٦- ينظر : الحكمة في شعر المتنبي : ٢١، وينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه : ٢٨٧ .

إن نخطينا المتن السيادي والقبلي باتجاه الهامش الذي يملأه الصعاليك حياة منفلة من القوانين والأعراف ليطلعنا على عالم آخر وقناعات أخرى يستبدل بها الصعلوك ما حطمه أو كسره من قيم القبيلة .
إن ظروف الصعاليك القاسية وما لاقوه من تهيش وامتهان وجوع ، لبي المنتج للحكمة فهناك من يرى ^(٢٧) أن أصل الحكمة مصائب الدهر ، ونكبات الحياة فالجرح النازف والألم اللازم ، يولدان الشعور باليأس فتكون المكابدة اللاهثة خلف العلة فتنشأ الحكمة التي تترجم الحقائق وتعالج التجارب لتخلق من الفشل والمصائب والآلام ، وتفرض على البشر ، تتبع الأسباب الرادعة والوسائل المعينة وتكون الحكمة الصائبة والفكرة الهادفة ^(٢٧) .

لذا نجد أن ظروف الصعاليك القاسية قد أنتجت شعرا يفيض حكمة تتضمن تجاربهم ورؤاهم ومكابداتهم ^(٢٨) فالحكمة هي ثمرة تجارب طويلة وفطنة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم ثم إحساس دقيق بالحياة ^(٢٨) .

إن حكمة الصعاليك وجدت مختلفة ومفارقة للحكمة القارة في قوانين القبيلة وأعرافها ؛ وذلك للفرق والمباينة بين ما يعيشه الصعلوك وما يعيشه الحر في القبيلة المدحية لذا جاءت حكمهم مباينة وحكيمهم مخالفا كونه ^(٢٩) الخبير بطبائع النفوس لأنه يعبر عما اعتلج فيها وعجزت هي للتعبير عنه ، ومما يزيد الناس قبولا للحكمة وتمسكا بها ، توافقها والمشارع الإنسانية وأن تكتسب صفة التعميم في المدلول والاتجاه ^(٢٩) .

ولهذا فإن الاهتمام بالحكمة وتدوين الأفكار الذهنية الصالحة لكل زمان ومكان قد شغلت الشاعر الصعلوك ، حتى جعلوها متصدرة على خلاف القصيدة القبلية الملتزمة بالمقدمة الطللية وما يتلوها من تقسيمات فنية ، وكأنهم جادون في كتابة أفكار جديدة أو تاريخ بديل لما تحطم على أياديهم من بنى اجتماعية وثقافية وفنية خلفوها وراءهم ظهريا .

لذا نجد عروة يفتتح شعره قائلا :

إذا المرء لم يبعث سوا ما ولم يرح
عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته
فقيرا ومن مولى تدب عقابه ^(٣٠)

أو الشنفرى في قوله :

ولولا اجتناب الدام لم يبق مشرب
يعاش به إلا لذي ومأكلا ^(٣١)

إن حكمة الصعاليك المبثوثة في تجاربهم الشعرية يمكن أن ينظر إليها من خلال ثلاثة محاور تنتج الحكمة من إطارها وهي :

المبحث الأول : حكمة الخلاص من الناقة والجوع

إن أخبار الشعراء حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء حتى سيدهم عروة بن الورد ^(٣٢) فالرواة يذكرونه أنه كان فقيرا صعلوكا مثلهم إذ نجده يقول :

ذريني للغنى أسعى ، فإنني رأيت الناس شرهم الفقير

٢٧- . النقد الأدبي الحديث : ٣٦٢ .

٢٨- . الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه : ٢٨٧ .

٢٩- . موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعرا أبي العلاء المعري : ٢٠ .

٣٠- . ديوان عروة : ٣٥ .

٣١- . ديوان الشنفرى : ١٠٦ .

٣٢- . الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ٢٨ .

وأدناهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدريه حليته وينهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جَمٌّ ولكن للغنى رب غفور^(٣٣)

يسجل عروة بن الورد فلسفته إزاء ما يراه من مظاهر اجتماعية عاشها حراً وليس عبداً أو مولىً أو خليعاً لذا تصبح دعوته للثورة ممثلة لإحساس هذا الشاعر بما يعانيه المضطهد المعدم . فهو لا يطلب الغنى لذاته ، بل لحفظ الكرامة الإنسانية بعد أن أصابها الهوان والدونية ومباعدة الأقرباء وازدراء الخليلات ، ونهر الصغير ، كل هذا يحمل بذور فراق ينزع نحو تحطيم بنية المجتمع التي أسها الحفاظ على هذه القيم ؛ ويطلق عروة بن الورد صرخته الداعية للحرب والغزو ، ويجهر بدعوة تتضمن حكمة مفادها أن الموت خير من حياة في ظل الجوع والهزال إذ قال :^(٣٤)

أقيموا بني عمي صدور ركابكم فإن منايا القوم خير من الهزل

ونجد في نص شعري آخر لعروة ، إن الجوع والفقر صارا هاجسين محركين لنيل الغنى . إذ يفهم عروة ويدرك كل الإدراك أن المال سر على أساسه تقام وتقيم كرامات الإنسان ؛ لذا لم يعبا بشيء يثني قراره في طلب المال وبلوغ الغنى لحفظ الإنسان حينما تلم به الملمات إذ قال^(٣٥) :

دعيني أطوف في البلاد لعلي
أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيماً أن تلم مَلَمَةً
وليس علينا في الحقوق معول
فإن نحن لم نملك دفاعاً بمحادث
تلم به الأيام فالموت أجمل

عروة هنا ساع بدلالة "أطوف" خارج المكان ليس له مستقر منفلتاً من قبضة لائمه ، وهي تحاول جاهدة حبسه في دائرتها الذاتية ؛ لكنه يأبى إلا أن يكون مشروعا جماعيا ؛ ليجيب عن اسئلة ذاته ووجوده المبني على أساس إغاثة الآخر (ليس علينا في حقوق معول) (لم نملك دفاعاً بمحادث) . إن تأثير النص الشعري غير متأث من اللغة وإمكانات انزياحها وعدولها أو شحنها بمعان جديدة ، بل من عمق ما تشكله أسئلة الوجود ومن حشده لتضادات تخلق مسافات توترها على أساس التواجد الحي والشخصي للكائن وهو يتفاعل داخل دائرة الكون فيبدأ منه الفعل فهو متعجب ومستغرب أن يستغاث به ولا يغيث وما بين ذلك تكمن تجربته الشعرية المرتبطة "بتجربة الخروج جذريا وبالموقف الثوري لتصبح أحد تجلياته البارزة ، فهي تستقي شعريتها من منابع الشعرية التي تختفي وراء الموقف الثوري"^(٣٦) .

وفي سياق آخر نجد أن الشنفرى يبت في نسيج لاميته إرادته المتحدية التي ترسم الإباء والصبر على الضيم والأذى من دون اللجوء إلى الإذلال والإهانة ، وكأن سهم الموقف يهرب بالصعلوك من إذلاله في مجتمع متماسك بطبقاته حتى لا يترك من مسافة يحقق بها ذاته ، إلى فرصته الواقعة خارج التقاليد والأعراف تلك التي يحقق بها أمله في كسب شخصي فردي يصبر عليه حفاظا على ذات هربت لتحقيق لها وجودا خارج منظومة العلاقات الطبقية والعنصرية المذلة والمهينة إذ قال^(٣٧) :

٣٣- ديوان عروة : ١٩١ .

٣٤- م.ن : ١٠٦ . ومنتهى الطلب من أشعار العرب : ٢٢٦ مع اختلاف في الألفاظ .

٣٥- ديوان عروة : ٢٠٦ .

٣٦- في الشعرية : ٤٥ .

٣٧- الأمالي : ٢٠٤ .

أديمَ مطالِ الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
واستفَّ ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب يعاش به إلا لذي ومأكّل

ويكون الجوع حافظاً تتبناه النفوس الكبيرة وهي تسعى جاهدة لاجتياز واقعها المؤلم : فعروة يختار الموت على الحياة الذليلة وقال^(٣٨) :

إذا المرء لم يبعث سوا ما ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ومن مولى تدب عقاربه

ولأن الحكمة تعود في جوهرها الى تجربة ذهنية تستحضر للتعبير عن قضية وجودية وحياتية ؛ لذا يكون التركيز فيها منصبا على إظهار الأفكار جلية وبلغة سليمة سهلة .

المبحث الثاني : حكمة المروءة

إن جوهر الحكمة يكمن في قدرتها على رفع المستوى الاجتماعي ، فهي تحت على تحسين الأخلاق والزهد في الدنيا والقناعة بما تيسر من خبراتها ، فيتخلى الأفراد عن التناحر والتشاجر والتحاسد^(٣٩) .
فهذا عروة بن الورد يوزع جسده في أجساد طالبيه ويكتفي بالماء موفراً ما عنده لإطعام المحتاجين حتى صار شاحباً هزيلًا فقال^(٤٠) :

أنسي امرؤ عافٍ أنائي شركة وأنت امرؤ عافٍ لإنائك واحد
أتهزأ مني إن سمعت وقد ترى بجسمي مس الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

إن نص عروة يعتمد في إظهار الحكمة على وجود كيانين أحدهما يقف مواجهاً للآخر ، هذه المواجهة تخلق مزاجاً جدلياً في التلقي إذ يتأرجح النسخ الشعري بما يحمل من أفكار وحكم وتجارب ورؤى بين ذات الشاعر والآخر . وبهذا تخوض ذات الشاعر في مواجهة مع الآخر في قيمه وخلقه وعلاقته بالآخرين . ويدافع تأبط شرا في إحدى قصائده عن كرمه واسرافه اللذين جلبا عليه كثيراً من اللوم فقال^(٤١) : (من الطويل)

أعاذلني إن اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاع وان أبقيتَه باقي

فالشاعر يحث على إنفاق المال لمن يستحقه من الفقراء والمحرومين فلا خير يرتجى بمتاع في الحياة مالم ينتفع به الآخرون .

إن حكمة المروءة في شعر الصعاليك كانت خلاصة حياة نكدهم التي عاشوها في الصحراء ، وكانت أيضاً نتيجة تجاربهم القاسية التي مروا بها ، لذلك فليس من المستغرب أن نلمح فيها حرارة الانفعال ، وهذا واضح في ثانيا قصائد الشعراء والصعاليك . ولابد من التنبيه على أن تلك الحكمة تكون في أغلب الأحوال في نهايات القصائد . فهذا تأبط شرا وهو يرثي زميله في الصعلكة الشنفرى يبدأ بذكر الموت مبينا نوع الميته التي يجب أن يموت عليها الإنسان ، فلا بد أن يختارها بنفسه لتكون ميته عز وشرف ، ثم يتدرج الى ما عليه نفسه من مروءة وكرم نفس^(٤٢) قائلا^(٤٣) :

٣٨ - ديوان عروة : ١٥٠ .

٣٩ - م.ن : ٢٢ .

٤٠ - ديوان عروة : ٨٣ .

٤١ - شعر تأبط شرا : ١١١ ، ومنتهى الطلب : ٩٥٢ والمفضليات : ١٨ وفيه : (عاذلني ...) دون همزة .

٤٢ - ينظر : شعر تأبط شرا : ٣٩ .

وأجملَ موت المرء - إن كان ميتاً
وخصَّضَ جأشي أن كل ابن حرة
ولا بد يوماً موته وهو صابر
إلى حيث صرت لا محالة صائر
وإن سوام الموت تجري خلأنا
روائح من أحداثه وبواكر

فالشاعر الذي خبر الحياة لا يرتضي لنفسه أو لغيره - وهو في معرض رثاء الشنفري - أن يموت ميتة لا تستحق الذكر، فإن ما هداً من روعه هو أن كل الناس سوف يموتون، فالأحرى بالعاقل أن يختار ميتة العز على ميتة الذل من أجل ذلك مدح الشعراء الصعاليك المغامرة معبرين فيها عن المروءة التي يتحلون بها فإن تلك المغامرة لم تك يوماً طيشاً بل من أجل إشباع الفقراء الذين لا حول لهم . يقول عروة بن الورد^(٤٤) :

لما الله صعلوكاً إذا جن ليله
يعد الغنى من نفسه كل ليلة
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً
يعين نساء الحي ما يستعنه
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه
فذلك أن يلحق المنية يلقيها
مصافى المشاش ألفاً كل مجز
أصاب قراها من صديق ميسر
يحث الحصى عن جنبه المتعفر
ويعسى طليحاً كالبعير المحسر
كضوء شهاب القابس المتنور
حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

هذه هي مروءة الصعاليك، التي ترجمها سيدهم عروة بن الورد في وصفه للصعلوك في لوحة شعرية جميلة ينام على التراب والحصى وعينه يقظة انتظارا للحظات تحقيق معنى الإنسانية في نظره وهل من معنى أنبل من أن تغيث نساء جائعات وهنا تبدو مفارقة الحكمة في شعر الصعاليك وطرقتها .

المبحث الثالث : حكمة النجاة من الموت، والإغارة .

على الرغم مما يتصف به الصعلوك من شجاعة وجراة إلا أنه يؤثر الحياة على الموت، والنجاة على المهلكة وقد يعود ذلك إلى ظروف حياته وانفصاله عن القبيلة لذا توجهت أعرافه بمغايرة تامة لأديبات المتن الاجتماعي المتمثلة بأعراف القبيلة وتقاليدها المفارقة لقوانين الفرد المنفصل والمفرد^(٤٥) .

إن الصعلوك جسد متفرد تمثل له النجاة مكسباً آخر في سجله الشخصي، لذا تمثل أحاديث الفرار وصوره ظاهرة واضحة وسمه من سمات شعره، فهذا تأبط شرا يدافع عن فراره وعن جسده مؤجلاً فناءه لتتراكم في صالحه أزمان تشكل تأريخاً شخصياً يقف بديلاً لأيام ووقائع وتواريخ حطمها الصعلوك بمفارقه لكل ما يتصل بالقبيلة إذ قال^(٤٦) :

ولم أنتظر أن يدهموني كأنهم
ولا أن تصيب النافذات مقاتلي
فأرسلت مثنياً عن الشر عاطفاً
ورائي نحل في الخلية داكنا
ولم أك بالشد الذليق مداينا
وقلت تزحزح لا تكونن صائناً

فالصعلوك مفتخر بحيله وحكمه في الفرار والنجاة والخلاص، فالمقاتل فرد (لم أنتظر) والأعداء كثيرون (أن يدهموني) أوهم كالنحل كثافة وهو فرد موتور بهذه المسافة المتدرجة بين الواحد والجماعة والواحد

٤٣ - شعر تأبط شرا : ٨٦، والأغاني : ٨٨/٢١ وفيه "وأجمل موت المرء إذ كان ميتاً" .

٤٤ - ديوان عروة : ١٥ .

٤٥ - تاريخ الشعر السياسي : ٣٥ .

٤٦ - شعر تأبط شرا : ١٤٥، والأغاني ٢١٣/١٨ .

وكثافة النحل، تفعل حكمة تأبط شراً فعلها الشعري على مستوى الدهاء والمكيدة أو على مستوى الشاعرية.

وأضفى أبو خراش على قراره مشروعية، حتى جعله مذهباً في النجاة، فهو يفر ليس لأنه جبان بل لأنه مناور، يوفر بأي طريقة سبل نجاته وبقائه حياً فهو يرى في الثبات فرصة لإهلاكه، لذا يكون حريصاً على تبديد هذه الفرصة ومنح جسده امتداداً جديداً بالمكان والزمان إذ قال^(٤٧):

فإن تزعمني أنني جنت فإني
أفر وأرمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لأرى لي مقاتلاً
وأنجو إذا ما فطن بعض المهالك

إن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة في أخبار الصعاليك الهذليين إذ تأخذ في بعض مناحيها شكل القصة بما فيها من سرد وحوار حتى^(٤٨) «إن التحليل النفسي لشخصية الهارب وتصويره الدقيق لحوفه وذعره من الموت وحرصه على الحياة يجعلها قريبة جداً من القصة النفسية»^(٤٩).

وتقف الإغارة في صدارة الوسائل التي ينيء عليها الصعاليك اقتصادهم لذا يعد الاهتمام بتفاصيلها من حذق وحذر ومعرفة جيدة بالمكان ومن أسلحة وخيول من روافد الخبرة التي يؤدي تراكمها إلى إنتاج الحكمة والمعرفة اللازمين لإنجاح الإغارة، فتكون الحيلة وسيلة للشخص الحازم الذي يستعين بها في مواطن الخطر، وهو الذي يعمل للأمر حساباً قبل أن يؤخذ على حين غرة، وعلى المرء أن يكون مرناً في تصرفاته، لتكون الحكمة وسيلة عبور ونجاة وانتصار يقول تأبط شراً^(٤٩):

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده
أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً
به الأمر الا وهو للحزم مبصر
فذاك قريع الدهر ما كان حولا
إذا سدّ منه منخر جاش منخر

ويكون اختيار المكان أو المرقب المنيع جزءاً من خبرة الصعلوك، في انجاز مهمته في الإغارة، وفي مفاجأة أهدافه. فهذا الشنفرى يقدم لوحة رائعة لمرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر الخفيف الذي يخرج بكلايه المضرة للصيد. يصف كيف ارتقاها متربصاً وحذر يقول الشنفرى^(٥٠):

ومرقبة عنقاء يقصر دونها
أخو الضروة الرجل الحفي المخفف
نميت إلى أدنى ذراها وقد دنا
من الليل ملتف الحديقة أسدف
ومرقبة تأبط شراً ذات تجاعيد، كأنها عجوز شمطاء عليها ثياب بالية يقول تأبط شراً^(٥١): (من الطويل)
ومرقبة يا أم عمرو وطمرة
مذبذبة فوق المراقب عيطل
نهضت إليها من جثوم كأنها
عجوز عليها هدمل ذات خيعل

إن اختيار المراقب بهذا العلو والبعد عن الخطر يعود فيما يعود إلى مدى خبرة الصعلوك وحكمته وربطه بين هذه المراقب والعجوز الشمطاء، بما تحمله من تجاعيد تلف الصعلوك بين طياتها، والتي تتموج بين أشكال الصخور والتفافها على وجه الحقيقة، وبين عمر هذا المرأة وما تدخره من خبرات تكدست تجاعيد على مر السنين.

٤٧- ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ٢١٥.

٤٨- البناء الفني في شعر الهذليين / ٢٤٧.

٤٩- شعر تأبط شراً: ٨٩، الأغاني: ٢١/٢١٥.

٥٠- ديوان الشنفرى الأزري: ٣٧.

٥١- الأمالي ٣٨/١.

ويكون السلاح عند عمرو بن براقة أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد تجنب المظالم في مجتمع الحرب يقول عمرو بن براقة^(٥٢) :

مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا
وَإِنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِّبُكَ الْمَظَالِمَ
إذ يكون الذكاء، وما ينجم عنه من حسن تصرف مع سلاح الصعلوك الملازم له، وقوة العزيمة وعلو الهمة هو ما يحقق للصعلوك رغبته وأهدافه .

الخاتمة

- يكاد يتطابق مدلول الحكمة لغوياً واصطلاحاً، وتتفق جميع المعجمات اللغوية منذ العين وحتى لسان العرب في المعاني المتقاربة .
- إن تقليات مادة "حكم" تقترب أو تكون في دائرة واحدة للمعنى المراد .
- اجتمعت عوامل عدة منها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لقيام ظاهرة الصعاليك .
- لا بد لمن يتصدى لأي ظاهرة عند جماعة الصعاليك من أن ينظر إليها من زوايا مختلفة سواء كان نظره لجانب موضوعي أو فني إذ أن اختلاف الظروف ينتج دائماً أدبا وقيما واعرافا مختلفة .
- إن الحكمة عند الصعاليك جاءت مفارقة لعادات وأعراف وقيم وحكم القبيلة فهم (الصعاليك) حكماء فيما يحفظ ذواتهم الفردية وليست الجمعية مثلما هي عند أفراد القبيلة .
- تبين من خلال البحث أن أهم حكمهم قد انطوت ضمن الخلاص من الفقر والنجاة من الموت وحكم المروءة والإغارة .
- يرى الباحث أن وعي الصعاليك جاء مخالفاً قيمياً لما ترسب في الذاكرة الجمعية للمتن القبلي فإن كان الفرد في القبيلة جزءاً من مشروع جمعي في حياته ومماته فإن الصعلوك على الضد من ذلك إذ يفارق بتجربته كل ماهو سائد وثابت فهو في ذلك يحتفي بوجوده الفردي وبجسده الذي يمثل لديه الكون لذا إحتال بكل الوسائل للحفاظ عليه فهو يهرب من المواجهات المؤذية ماتسنى له ذلك ولا يعني هذا الهروب أنانية مطلقة بل هي حكمة أملت عليها ظروف حياته كونه منفصلاً وجد في الحفاظ على جسده مشروعا من أجل الإنسانية المعذبة .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، نسخه عن طبعة بولاق الأصلية منشورات دار الفكر للجميع، ١٩٧٠ بلا تحقيق .
٢. الأمالي (وذيل الأمالي والنوادر) ابو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي القالي (ت ٣٥٦هـ)، ط ١، مطبعة السعادة، ١٩٥٣ م .
٣. البناء الفني في شعر البهذلين، دراسة تحليلية، د. اياد عبد المجيد إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠ م .
٤. تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب، ط ١، القاهرة، ١٩٤٢ .
٥. الحكمة في شعر المتنبي، د. حسين علي قرقاوي، ط ١، دار عمار، عمان، الأردن، ١٩٨٦ م .

٦. الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الدكتور أحمد محمد الحوفي، ط ٤، مكتبة نهضة مصر ومطبعاتها، مصر، مزودة ومعدلة، د.ت.
٧. ديوان جرير، دار صادر، بيروت، د.ت.
٨. ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك الأزدي، ت ٥٢٥م، ضمن الطرائف الأدبية، تحقيق عبد العزيز الميمنى، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م.
٩. ديوان عمر بن ورد بن زيد العباسي، ت ٥٩٤، تحقيق عبد المعين الملوحي، دمشق، ١٩٦٦.
١٠. شرح ديوان الأعشى، حسن إبراهيم جزي، ط ١ دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٨.
١١. شعر تأبط سرا، تحقيق: سلمان داود القرغولي وجبار تعبان جاسم، ط ١ مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٣.
١٢. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، دار التربية، ١٩٧٢.
١٣. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، ط ٢، دار المعارف بمصر، بلا تاريخ.
١٤. الشعرية العربية، أدونيس، ط ١، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
١٥. في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، د.ت.
١٦. قاموس الفلسفة، ديديه جوليا، نقله الى العربية د. فرانسوا أيوب وإيلي نجم وميشال ابي فاضل، مكتبة أنطوان، بيروت، دار لاروس، باريس، ط ١، ١٩٩٢.
١٧. كتاب التعريفات؛ علي بن محمد علي الحسيني الجرجاني الحنفي، ت ٨١٦هـ، تحقيق: نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصدير، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧.
١٨. كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق، د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، ط ١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٨.
١٩. لسان العرب، ابن منظور، ت ٧١١هـ، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.ت.
٢٠. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦.
٢١. المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ط ١ دار ذوي القربى، مطبعة سليمان، ١٣٨٥هـ.
٢٢. معجم القاموس المحيط، مجد الدين يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، رتبة ووثقه خليل مأمون شيما، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٧.
٢٣. المعجم المفصل في الأدب، الدكتور محمد التونجي، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
٢٤. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.
٢٥. المفصليات، مختارات العلامة ابي العباس الفضل بن محمد الضبي، ت ١٧١هـ، تحقيق: د. عمر فاروق الطباع، شركة الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١: ١٩٩٨.
٢٦. منتهى الطلب من اشعار العرب، تأليف ابي غالب محمد المبارك بن ميمون البغدادي، ت ٥٨٩هـ، اعتنى به محمد مصطفى محمود زهران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
٢٧. موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري، د. زهير صبري الخواجا. منشورات دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ط ١، ١٩٨٢م.
٢٨. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧.

خلاصات البحوث

باللغة الانكليزية

-Critical study in the concept of renaissance in Arabic syntax in shawqi Dhaif's works

Mr. Mohammad Baqir Al-Huseini
Mr. Ahmad Hanafi Zade

Abstract

Dr. Shoghi Zif is one of the greatest literates tried to rebuild and revise Arabic syntax. Since in that period many literates including Taha Hosein recognized the necessity of rebuilding and revising Arabic syntax and they were very serious in this respect, Shoghi Zif was influenced by such invitations and wrote many books worthy of appreciation. However, he couldn't succeed completely and his efforts were limited to few books which weren't received attention. The main reason of his unsuccessfulness was contradiction between his old and modern thoughts in his scientific character. His perplexity in the extent to which he accepted old and new principles to build a new syntax conforming to contemporary human requirements and the necessity of protecting correctness and eloquence of Arabic language is clear. He first revolted against factor theory which is the fundamental of Arabic syntax of Basreh School. However, he supported its principles elsewhere. Then he tried to suggest an abstract of Koofi and Basri syntaxes to resolve the problem of Arabic syntax. So, he questioned some of the main principles of Basreh School and preferred theories of its old competitor, Koofeh School. Thereafter, he tried to defend his early efforts and find a problem directly and indirectly in some syntax theories or correct and complete them. Finally, he turned his efforts to language rather than syntax.

**-Methods and styles of commands , negations
and interrogations in part of Alsaifa Alsaadayah
(the blessed days as sample)**

Asst. Prof. Dr. Baqir Jawad Al-Zojaji
Asst. Prof. Dr. Mohammad Mohsin Al-Asadi

No doubt , the stem study of this research concerning the linguistics / literature sorts which are more emphasised on the viewed which hanged over of the scientific point of spectrums , spiritual phobia which prevealed various aspect of queries , on to AL – SAJADiA – Encyclopedi , inclusively decrees .

Imam zain AL Abedeen (peace be upon him) in tended to show the eloquent , fluert , options foresecn into excessive mignonette .

Following the major characteristic of the trinity mitigative recitation of the holy Koran psalam . All that civics potential concorded , categorized a glory visions for the foreseeable future turbines .

The research in - troductory prevealed the emphasis of three subject matter approach which Categorised inclusively on Al-Fitty , Araffa , and AL – Adhaa mandatory as well as the Fridays preponderance reverberation and echoarrangements .

Indeed we prepondered to deal with the Major eloquent – syntay-
symatics intense symbols which over shaded masonry erection a well back
ground quadratic educatc .

The Phenomena of the Monetary Inflation in Iraq and its Economical Reflexions

Asst. Prof. Dr. Kamal Abed Hamed Al Ziara
Asst. Prof. Dr. Hikmat Abd-Al-Razaq Al-Dabagh

Iraq has passed many important development within the last decades that left their effects on different aspects of life, including economic aspect. Iraqi economics has witnessed fluctuations in different economic variables according to the political reality and surrounding conditions. In spite of all these developments and differentiation in economic policy directions and how to use its tools. Yet, the common standard during the last years was the monetary inflation Iraq has witnessed increase in the general level of prices during the nineties of the last century and the first decade of this century and it was of the creeping inflation which characterized by its continuity during that period. This was the main reason behind conducting this paper. Both Researchers tried to study this phenomenon to find out its reasons and its reflections on Iraqi economy.

This paper based on the following two hypotheses:

1. Continuity in issuing the currency as a major reason in the monetary inflation.
2. The huge operative budget in Iraq particularly salaries and wages section for officials and public sector employees with all economic total demand that implies in contrast with the decreased inefficient production system .

This paper includes six sections:

The first section deals with the concept of inflations while the second one deals with the inflation in the economic theory. The third section deals with the methods of inflation measuring, while the fourth one deals with measuring of monetary inflation level in Iraq. The fifth section care with economic reflections for the monetary inflation phenomena in Iraq. The sixth section is devoted to the conclusions and recommendations

A Summary of Arabic Researches

inEnglish

e-Library.

Watson, J. (2007) *The Phonology and Morphology of Arabic*. Oxford:
Oxford University Press.

References

- Aronoff, M. (1976). *Word-Formation in Generative Grammar*. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Bauer, L. (1983). *English Word-Formation*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Crystal, D. (2008). *A Dictionary of Linguistics and Phonetics*. UK: Blackwell Publishing Ltd.
- Haywood, J. and Nahmad, H. (1962). *A New Arabic Grammar of the Written Language*. Cambridge: Harvard University Press.
- Holes, C. (2004). *Modern Arabic Structures, Functions and Varieties*. Revised ed. Georgetown University Press.
- Katamaba, F. and Stonham, J. (2006). *Morphology*. New York : Library of Congress.
- Lyons, J. (1963). *Introduction to Theoretical Linguistics*. Cambridge: Cambridge University Press.
- MacCarthy, A. (2002). *Current Morphology*. New York: Taylor & Francis e-Library.
- Marchand, H. (1969). *The Categories and Types of Present-day English Word-formation*. München: Beck.
- Matthews, P. (1974). *Morphology and Introduction to the Theory of Word Structure*. New York: CUP Press.
- Plag, I. (2002). *Word-Formation in English*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Robins, H. (1971). *General Linguistics An Introductory Survey*. London: Longman Group Ltd.
- Ryding, K. (2005). *A Reference Grammar of Standard Arabic*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Stageberg, N. (1971). *An Introductory English Grammar*. USA: Holt, Rinehart and Winston Inc.
- Stranzy, Ph. (2005) *Encyclopedia of Linguistics*. New York: Taylor & Francis

semantic indication if they are class-maintaining affixes or class-changing, or if they form concrete nouns or the ones which have a deverbal function. Moreover, all the derivational affixes occur closer to the root than the inflexional affixes.

2. Differences

The main differences between English and Arabic in Affixation are:

There are no infixes at all in English, while the Arabic language depends mainly on infixes to make new derivative lexemes. Suffixes in Arabic are restricted in their use to certain situations, such as the feminine marker [t] or the suffix [iyyah] which forms abstract nouns from verbal or concrete nouns, while the English language tends to use suffixes in a productive manner to generate a huge corpus of nouns. Prefixes, on the other hand, in Arabic seem to be limited; they are just six (a, t, ?, in, ist, ma/ mu), while the English prefixes are numerous and varied. The affixes in Arabic may often be realized orthographically with one letter, but the English affixes are often realized with more than one letter.

Arabic morphology differs from that of English or other Indo-European languages because it is to a large extent based on discontinuous morphemes. It consists primarily of a system of consonant roots which interlock with patterns of vowels (and sometimes certain other consonants) to form words, or word stems.

In English, derivational affixes are stem-forming. Derivation is a continuing process, with some affixes still producing new words. English has derivational prefixes and suffixes as well. Arabic and English do not share any derivational affixes (equivalent forms).

Arabic words are marked for more grammatical categories than are English words. Some of these categories are familiar to English speakers (such as tense and number) while others, such as inflection for case or gender, are not. There are eight major grammatical categories in Arabic: tense/aspect, person, voice, mood, gender, number, case, definiteness. Six of these apply to verbs (tense/aspect, person, voice, mood, gender, number), four apply to nouns and adjectives (gender, number, case, definiteness), and four apply to pronouns (person, gender, number and – to a limited extent – case).

To sum up, there are two ways in which Arabic differs from English in its morphology: there are many more affixes, which change across regional dialects, and the stem morphemes have an additional internal structure. The number of different affixes in Arabic leads to a large number of word forms: the combinations of prefix, stem, and suffix multiply as the number of affixes increase. Consequently, there are a larger number of word forms.

تدرسون	tadrusun	You(mp)study	ta-, -n	
تدرس	tadrusna	You(fp)study	ta-, -na	
يدرس	jadrusu	He studies	ja-	-ies
تدرس	tadrusu	She studies	ta-	-ies
يدرسان	Jadrusa:n	They (dual)study	Ja-, -a:n	
يدرسون	jadrusun	They (mp)study	Ja-, -n	
يدرسن	jadrusna	They (fp)study	Ja-, -na	

4. Discussion and Conclusions

Morphology deals with the internal structure of word-form (Lyons, 1968:194). In morphology, the analyst divides word-forms into their component formatives (most of which are morphs realized realizing roots or affixes), and attempts to account for the occurrence of each formative. Morphology can be divided into two main branches, inflectional morphology and word-formation (also called lexical morphology: Matthews, 1974:41). Inflectional morphology deals with the various forms of lexemes, while word-formation deals with the formation of new lexemes from given bases. Word-formation can, in turn, be subdivided into derivation and compounding (composition). Derivation is concerned with the formation of new lexemes by affixation, compounding with the formation of new lexemes from two (or more) potential stems. Derivation is sometimes also subdivided into class-maintaining derivation and class-changing derivation. Class-maintaining derivation is the derivation of new lexemes which are of the same form class (part of speech) as the base form which they are formed, whereas class-changing derivation produces lexemes which belong to different form classes from their bases.

From the generally previous outlook one can conclude that there are some similarities and other differences between English and Arabic Language in the issue of affixation which can be summarized as follows:

1. Similarities

English (as an Indo-European language) and Arabic (as a Semitic language) are completely different in their linguistic forms, but they share the same universals of language, for example, similarities of affixation terms. There is also similarities of affixation function in English and Arabic which give a certain

أدرس	?adrusu	I study	a-	
ندرس	nadrusu	We study	na-	
تدرس	tadrusu	You (ma)study	ta-	
تدرسين	tadrusin	You (fs)study	ta-, ina	
تدرسان	Tadrusa:n	You(dual)study	ta-,a:n	
تدرسون	tadrusun	You(mp)study	ta-,-n	
تدرسنا	tadrusna	You(fp)study	ta-,-na	
يدرس	jadrusu	He studies	ja-	-ies
تدرس	tadrusu	She studies	ta-	-ies
يدرسان	Jadrusa:n	They (dual)study	Ja-,-a:n	
يدرسون	jadrusun	They (mp)study	Ja-,-n	
يدرسنا	jadrusna	They (fp)study	Ja-,-na	

Arabic	Transliteration	Translation	Arabic Affixes	English Affixes
أدرس	?adrusu	I study	a-	
ندرس	nadrusu	We study	na-	
تدرس	tadrusu	You (ma)study	ta-	
تدرسين	tadrusin	You (fs)study	ta-, ina	
تدرسان	Tadrusa:n	You(dual)study	ta-,-a:n	

3.4. Inflectional Morphology: Affixes and Clitics

Just as the prefix /شـ / *ja-* attaches to the imperfect stem /شهر / *Sharu* to create the third person singular masculine form of the verb, other affixes may be added to achieve other grammatical details. Inflectional affixes refer to phonological changes a word undergoes as it is being used in context. In English, some common inflectional categories are: number (singular and plural), tense (e.g., past, present), and voice (active and passive).

Generally speaking, Arabic words are marked for more grammatical categories than are English words. Some of these categories are familiar to English speakers (such as tense and number) while others, such as inflection for case or gender, are not. There are eight major grammatical categories in Arabic: tense/aspect, person, voice, mood, gender, number, case, definiteness. Six of these apply to verbs (tense/aspect, person, voice, mood, gender, number), four apply to nouns and adjectives (gender, number, case, definiteness), and four apply to pronouns (person, gender, number and – to a limited extent – case). Affixes are a closed class of morphemes, and they encode predictable information. In addition to inflection, cliticization is commonplace in Arabic text. Prepositions, conjunctions, and possessive pronouns are all expressed as proclitics or enclitics.

The Arabic stem /درس / *drs*/, meaning *to study*, combines with the imperfect tense verb pattern and vocalism /فعل / *fʕulu* to form the imperfect tense stem /درس / *drusu*/. This stem can be combined with 11 different combinations of inflectional affixes, creating as many unique word forms. The English counterpart stem, however, can take on the same meanings using far fewer unique word forms. Instead, English uses separate words - I, they, he, etc. - rather than affixes to express person and number. The verb itself has only two forms, *study* and *studies*.

The list can be expanded with stems from the same root representing different tenses. For instance, the stem (and word) [درس] [*darasa*] means *he studied*. Or, the root can be combined with a different pattern to obtain different meanings, for instance, to teach or to learn. Each of these stems can combine with the same or different affixes to create a similar number of varying word forms. Adding a single clitic to the words will double the number of word forms. For instance, the word [درس] [*ʔadrusu*], meaning *I study*, can take on the enclitic /هـ / *ha* to form [درسهـ] [*ʔadrusuha*] *I study it*. Various clitics can be combined, both before and after the stem. This process quickly increases the number of possible word forms.

Arabic	Transliteration	Translation	Arabic Affixes	English Affixes
--------	-----------------	-------------	----------------	-----------------

integral to the morphological processes of Arabic. The choice of paradigm determines the shape of the word (regarding whether there are consonants in the stem other than the root letter) as well as the meaning of the word. The pattern / فاعل / /fa:ʔ/ used in the last example is that of the first *paradigm*, also considered a base form, the pattern from which all others are derived. If the root / شهر / /Shr/ instead combines with the pattern of paradigm III, / فاعل / /fa:ʔ/, the letter alif is inserted between the first and second radicals to derive the stem

شاهر / /Sa:hr/. Together with the same vocalism as before, the word [شاهر]

[Sa:hara] is created, a perfect tense word with the meaning “hired or rented on a monthly basis”. The short vowel after the first radical is assimilated into the long vowel of the pattern.

By combining the same root with the pattern of paradigm VIII, / افتعل / /ʔftʔ/, and the same vocalism, [استهر] [ʔStahara] is derived, with the meaning “to be or become well-known, famed, famous, to be known; to be widespread, common”. Here the first short vowel comes after the ت /t/ of the pattern because the pattern has caused a change in the syllable structure: the letters ا /ʔ/ and ت /t/ inserted around the first radical ف /f/ cause the /ف/ to be at the end of the syllable, rather than the beginning. The short vowel is therefore moved to the second syllable.

Some of the patterns have a predictable semantic effect on the word. Stems formed from paradigm II are often transitive or causative, for instance, the word [علم] [ʔal:ama] “to know” in paradigm I becomes علم [ʔal:ama] “to teach” in paradigm II. Stems formed with paradigm V tend to have a reflexive meaning: the same example becomes [تعلم] [taʔal:ama] “to learn” in paradigm V. Other vocalisms are also possible, and these can change the word either inflectionally or derivationally. For instance, the vocalism /a-u/ is used to form stems in the imperfect tense. This vocalism combined with شهر / /Shr/ and the pattern / فعل / /f/ produces the stem / شهر_ / /Sharu/, meaning “to make famous...” in the imperfect tense. However, this stem is not yet a grammatical word; inflectional affixes must be added to specify the person, number, and gender of the verb. For instance, the prefix /يـ / /ja-/ is added to the stem to derive the third person singular masculine form [يشهر] [jaSharu]. As a further exploration of the ways in which a single root can be transformed into many different words, Table reproduces the entries for the root شهر / /Shr/ as given in the Hans Wehr Arabic-English Dictionary, annotated with information about patterns, vocalisms, and pronunciations.

functions, such as the derivational prefix *mu-* for many participles, the prefix *ma-* for a noun of place, or the relative adjective suffix *-iyy*. Consonants that are included in Arabic pattern formation are: /ʔ/ (*hamza*), /t/ (*taaʔ*), /m/ (*miim*), /n/ (*nuun*), /s/ (*siin*), /y/ (*yaaʔ*), and /w/ (*waaw*). These consonants may be used as prefixes, suffixes or even infixes.¹⁴ One further component of patterning is gemination or doubling of a consonant. Therefore, the components of Modern Standard Arabic pattern-formation include: six vowels (three long: /aa/, /ii/, /uu/; three short: /a/, /i/, and /u/); seven consonants (ʔ, t, m, n, s, y, w); and the process of gemination.

Patterns are said to possess grammatical (rather than lexical) meaning because they signify grammatical or language-internal information; that is, they distinguish word types or word classes, such as nouns, verbs, and adjectives. They can even signal very specific information about subclasses of these categories. For example, noun patterns can readily be identified as active participle, noun of place, noun of instrument, or verbal noun, to name a few. Because patterns are limited to giving grammatical or intralinguistic information, there are fewer Arabic patterns than roots.

3.3 Derivational Morphology: Roots, Patterns, and Vocalisms

Most Arabic words are analyzed as consisting of two morphemes – a root and a pattern – interlocking to form one word. Neither an Arabic root nor a pattern can be used in isolation; they need to connect with each other in order to form actual words.

An example letter sequence is illustrating the morphological process which is /شهر/ /Shr/ this sequence is a *root* a series of three, or sometimes four, letters (radicals) that signifies some broad set of concepts. The set of concepts expressed by words of a given root may be related, but may also vary widely. A root alone is not a fully-formed word; it has no part of speech, and is usually highly ambiguous in its meaning. In the theory of (McCarthy, 2002: 43) and others, a root is a morpheme. In order to become a word, the root must be combined with two other morphemes, a pattern and a vocalism. For instance, the root /شهر/ /Shr/ can combine with the *pattern* /فعل/ /f ʔ l/, where 'f' represents the first radical, 'ʔ' represents the second radical, and 'l' the third radical. By combining the root with this pattern, the stem /شهر/ /Shr/ is realized. The *vocalism* is the third morpheme, crucial both to the pronunciation of the word and to giving the word its specific grammatical properties. The vocalism /a-a-a/, when combined with this root and pattern, forms [شهر] [Sahara], now a fully-formed word with a dictionary-defined meaning: "made well-known, famous, renowned, notorious." The verb is in the perfect tense, and agrees with a subject that is third person, singular, and masculine.

Each pattern and vocalism is part of a paradigm. There are approximately 14 paradigms, each with its own pattern and set of vocalisms. These paradigms are

However, the boundaries between derivation and inflection are not as clear-cut in Arabic as they are in English because Arabic morphology works on different principles, and because Arabic morphological theory views elements of word structure and sentence structure from a different perspective .

(Watson, 2007:4) states that Arabic has a rich morphology characterized by a high degree of affixation, interspersed vowel patterns, and roots in word stems. Arabic is a Semitic language. The grammatical system of the Arabic language is based on a root-and-pattern structure and Arabic is considered as a root-based language with many roots and patterns .The root is the bare verb form. It is commonly three or four letters and, rarely, five. Pattern can be thought of as a template adhering to well-known rules. Arabic words are divided into nouns, verbs, and particles. Nouns and verbs are obtained from roots by applying templates to the roots in order to generate stems and then by introducing prefixes and suffixes.

3.2.1 A definition of root

A **root** is a relatively invariable discontinuous bound morpheme, represented by two to five phonemes, typically three consonants in a certain order, which interlocks with a pattern to form a stem and which has lexical meaning(Ryding,OPCIT:47).

The root morpheme /*k-t-b*/ is “discontinuous” because vowels can be interspersed between those consonants; however, those consonants must always be present and be in the same sequence: first /*k*/, then /*t*/, then /*b*/ . The usual number of consonants in an Arabic root is three and these constitute “by far the largest part of the language” (Haywood and Nahmad, 1962: 261). However, there are also two-consonant (biliteral), four-consonant (quadriliteral) (such as *z-l-z-l*, *b-r-h-n*, *t-r-j-m*), and five-consonant roots (quinquiliteral) (such as *b-r-n-m-j*).

The root is said to contain lexical meaning because it communicates the idea of a real-world reference or general field denotation (such as “writing”). It might say that a lexical root is denoting a semantic field because it is within that field that actual words come into existence, each one crystalizing into a specific lexical item .

3.2.2 A definition of pattern

A **pattern** is a bound and in many cases, discontinuous morpheme consisting of one or more vowels and slots for root phonemes (radicals), which either alone or in combination with one to three derivational affixes, interlocks with a root to form a stem , and which generally has grammatical meaning (ibid:48).

The pattern is defined as discontinuous because it intersperses itself among the root consonants (as in the word *kaatib*). It is considered as a kind of template onto which different roots can be mapped (ibid). The derivational affixes mentioned in the definition include the use of consonants that mark grammatical

the class of count nouns; non-count nouns (such as *rice* and *milk*) regularly do not take plural. In contrast to the inflectional verbal and nominal endings just mentioned, not all verbs take the adjectival suffix *-ive*, nor do all count nouns take adjectival suffix *-al*.

The nature of the restrictions that are responsible for the impossibility in derivational morphology in general are not always clear, but are often a complex mixture of phonological, morphological and semantic mechanisms. One can say, no matter what these restrictions in derivational morphology turn out to be, inflectional domains usually lack such complex restrictions.

3. Arabic Affixation

3.1 From Words to Morphemes

The main language modeling challenge posed by Arabic is brought on by its complex *morphology*, the way that words are built up from smaller parts. In Arabic, as in English, most words can be broken down into morphemes. Three morphemes comprise each word: a prefix, a stem, and a suffix. Taken together, prefixes and suffixes are called *affixes*. For instance, in the English word *unthinkable*, there is a prefix: *un-*, a stem: *think*, and a suffix: *-able*. The affixes *un-* and *-able* are used in many English words with reliable meaning.

3.2 Arabic Word Formation

Morphology, or word structure, revolves around the organization, rules, and processes concerning meaningful units of language, whether they are words themselves or parts of words, such as affixes of various sorts. Meaningful components and subcomponents at the word level are referred to as morphemes (Aranoff, 1976:7). Arabic morphology is different from English in some very basic respects but it is highly systematic. In fact, Arabic and the Semitic languages have had substantial influence on the development of certain key concepts in theoretical morphology (ibid: 9).

Theories of word structure, or morphology, usually focus on two essential issues: how words are formed (**derivational or lexical morphology**) and how they interact with syntax (**inflectional morphology**, e.g., marking for categories such as gender, number, case, tense).

Ryding (2005:44) defines derivational or lexical morphology as the principles governing word formation (such as analysis of the English words “truthful” or “untruthfulness”) derived from the base word “true”). While Inflectional morphology describing how words vary or inflect in order to express grammatical contrasts or categories, such as singular/plural or past/present tense. Derivation, since it is the process of creating words or lexical units, is considered procedurally prior to inflection, which subsequently acts upon the word stem and modifies it, e.g. affixing */-s/* in English for plural, or */-ed/* for past tense). These are two fundamental categories, therefore, in approaching language structure.

syntax whether the noun ends in *-er*, *-ee*, *-ion*, or whether the noun is morphologically complex at all. In that sense, derivational suffixes are not relevant for the syntax.

Concerning the position of the morphemes, in English derivational morphemes can occur at either end of the base words whereas regular inflection is always expressed by suffixes. Only irregular inflection makes use of non-affixational means, as for example in *mouse* - *mice* or *sing* - *sang*. There is no inflectional prefix in English. Furthermore, forms like *workers* or *colonializing* indicate that inflectional morphemes always occur outside derivational morphemes, they close the word as closed system, while derivational suffixes like *un-truthful-ness* or *dis-establish-ment-arian-ism*, can and do occur inside other derivational suffixes and involve many variables in an open system (Bauer, Opcit.29).

Additionally, there is a difference related to the part of speech. The suffixes in the derivation change the part of speech of the base word. For instance, the suffixation of *-less* makes an adjective out of a noun, the suffix *-ity* makes a noun out of an adjective, and the suffix *-ize* turns an adjective into a verb. The inflectional suffixes do not change the category of the base word. A plural marker on a noun does not change the category, nor does the past tense marker on the verb. However, not all derivational affixes are category-changing, for example, *post-war*, *decolonialize*, *non-issue*), or by the nominal suffix *-ism*, which can attach to nouns to form nouns (e.g. *Terrorism*).

Derivation has a property which is not found in inflection exemplified by the two derivatives *interview* and *curiosity*. that is called semantic opacity. If you consider the meaning of *interview* and the meaning of the ingredient morphemes *inter-* and *view*, you can observe that the meaning of *interview* is not the sum of the meaning of its parts. The meaning of *inter-* can be paraphrased as 'between', that of (the verb) *view* as 'look at something' (definitions according to the *Longman Dictionary of Contemporary English*), whereas the meaning of (the verb) *interview* is 'to ask someone questions, especially in a formal meeting'. Thus the meaning of the derived word cannot be inferred on the basis of its constituent morphemes, it is to some extent opaque, or nontransparent. Nontransparent formations are quite common in derivational morphology, but rare in inflection.

Closely related to this generalization is the fact that inflectional categories tend to be fully productive, whereas derivational categories often show strong restrictions as to the kinds of possible combinations. A productive morpheme is one that can be attached regularly to any word of the appropriate class. For example, a morpheme expressing past tense can occur on all regular main verbs. And a morpheme expressing plural on nouns can be said to be fully productive, too, because all count nouns can take plural endings in English (some of these endings are irregular, as in *ox-en*, but the fact remains that plural morphology as such is fully productive). Note that the 'appropriate class' here is

compounding as part of word-formation (or rather:lexeme formation) (Bauer, 1983: 22).

If we look at the following data which show further characteristics by which the two classes of morphological processes, inflection vs. word-formation, can be distinguished

a. derivation

worker

useless

untruthfulness

interview

curiosity

passivize

Terrorism

b. inflection

(the) *workers* (noun plural)

(is) *discussing* (present participle)

(she) *works* (present third-person singular)

(we) *picked* (past tense)

chosen game (past participle)

Susan's (house) (noun possessive)

She is *older* (comparative)

She is the *oldest* (superlative) (Stageberg,1971:112).

As previously mentioned, the most critical difference is that inflectional morphemes encode grammatical categories such as plural (*workers*), person (*works*), tense (*picked*), or case (*Susan's*). These categories are related to the building of sentences and are referred to by the grammar. For example, there is a grammatical rule in English that demands that a third person singular subject is followed by a verb that is also marked as third person singular. This is called subject-verb agreement, which is also relevant for plural marking in sentences (*The views are/*is wonderful*). The plural and person suffixes are therefore syntactically relevant, hence inflectional.

One can say that the suffix *-er* in *worker* is also syntactically relevant, in the sense that it is important for the syntax whether a word is a noun or a verb. That is of course true, but only in a very limited way. Thus, it is not relevant for the

Modifying verbs and nouns (with similar bracketing problems as those mentioned above for *dis-*), *mis-* conveys the meaning 'inaccurate(ly), wrong(ly)': *misalign*, *mispronounce*, *et.*

non-

When attached to adjectives this prefix has the general meaning of 'not X': *nonbiological*, *non-commercial*, *non-returnable*. In contrast to *un-* and *in-*, negation with *non* does not carry evaluative force, as can be seen from the pairs *unscientific* vs. *nonscientific*, *irrational* vs. *non-rational*.

un-

un- can attach to verbs and sometimes nouns (mostly of native stock) to yield a reversative or privative ('remove X') meaning: *unbind*, *uncork*.

2.3 Infixation

Morphologists mainly agree that English has no infixes. However, there is the possibility of inserting expletives in the middle of words to create new words expressing the strongly negative attitude of the speaker (e.g. *kanga-bloody-roo*, *absoblooming-lutely*). Thus we could say that English has a process of infixation of (certain) words, but there are no bound morphemes that qualify for infix status (ibid).

In this section we have looked at numerous affixational processes in English. A survey of affixes was provided that exemplified the wide range of derivational patterns available in the language. We saw that suffixation and prefixation are very common, whereas infixation is a marginal and extremely restricted phenomenon in English word-formation.

2.4 Inflection and derivation

'word-formation' is the study of the ways in which new complex words are built on the basis of other words or morphemes (Matthews, 1974:132). If we consider the italicized words in *kicks* in He *kicks* the ball, or *drinking* in The baby is not *drinking* her milk. They should be regarded as 'new words' according to the definition. The italicized words in are certainly complex words, both of them consist of two morphemes. *Kicks* consists of the verb *kick* and the third person singular suffix *-s*, *drinking* consists of the verb *drink* and the participial suffix *-ing*. However, we would not want to consider these complex words 'new' in the same sense as we would consider *kicker* a new word derived from the verb *kick*. Here the distinction between word-form and lexeme is useful. We would want to say that suffixes like participial *-ing*, plural *-s*, or third person singular *-s* create new word-forms, i.e. grammatical words, but they do not create new lexemes. In contrast, suffixes like *-er* and *-ee* (both attached to verbs, as in *kicker* and *employee*), or prefixes like *re-* or *un-* (as in *rephrase* or *unconvincing*) do form new lexemes. On the basis of this criterion (i.e. lexeme formation), a distinction can be made between **inflection** (i.e. conjugation and declension in traditional grammar) as part of the grammar on the one hand, and **derivation** and

Third, there are temporal prefixes expressing notions like 'before' (*ante-*, *pre* and *fore-*, as in *antechamber*, *antedate*, *preconcert*, *predetermine*, *premedical*, *forefather*, *foresee*), 'after' (*post-*, *poststructuralism*, *postmodify*, *postmodern*), or 'new' (*neo-*, *neoclassical*, *Neo-Latin*). A fourth group consists of prefixes expressing negation (*a(n)-*, *de-*, *dis-*, *in-*, *non-*, *un-*).

Numerous prefixes do not fit into any of the four groups, however, and express diverse notions, such as 'wrong, evil' (*mal-*, *malfunction*, *malnutrition*), 'badly, wrongly' (*mis-*, *misinterpret*, *mistrial*), etc. The vast majority of prefixes do not change the syntactic category of their base words, they merely act as modifiers (Katamba and Stonham, 2006: 138). Furthermore, it can be observed that they generally attach to more than one kind of syntactic category (verb, adjective, or noun) and do not influence the stress pattern of their bases (Robert, 1978: 200).

In the following we look in more detail at the negative prefixes and two of their close relatives, *mis-* and *anti-*. The negative prefixes appear to be more complex in their distribution and behavior than most of the other suffixes and their domains overlap considerably.

a(n)-

This prefix only occurs in Latinate adjectives. With denominal adjectives, the meaning can either be paraphrased as 'without what is referred to by the nominal base', cf. for example *achromatic* 'without color', *asexual* 'without sex', or can be paraphrased as 'not X', as in *ahistorical*, *asymmetrical*.

anti-

This polysemous prefix can express two different, but related notions. In words like *anti-war*, *anti-abortion*, *anti-capitalistic*, *anti-scientific*, *anti-freeze*, *anti-glare* it can be paraphrased as 'against, opposing'.

de-

This prefix attaches to verbs and nouns to form reversative or privative verbs: *decolonize*, *decaffeinate*, *deflea*, *depollute*, *dethrone*, *deselect*. Very often, *de-* verbs are parasynthetic formations, as evidenced by, *decaffeinate*. *dis-*

Closely related semantically to *un-* and *de-*, the prefix *dis-* forms comes from foreign verbal bases: *disassemble*, *disassociate*, *discharge*, *disconnect*.

in-

This negative prefix is exclusively found with Latinate adjectives and the general negative meaning 'not': *inactive*, *intolerable* *implausible*, *illegal*.

mis-

-ish

This suffix can attach to adjectives (e.g. *clearish, freeish, sharpish*), numerals (*fourteenish, threehundredfourtyish*).

-ive

This suffix forms adjectives mostly from Latinate verbs and bound roots that end in [t] or [s]: *connective, explosive, fricative, offensive, passive*.

-less

Semantically, *-less* can be seen as antonymic to *-ful*, with the meaning being paraphrasable as 'without X': *expressionless, hopeless, speechless*.

-ly

This suffix is appended to nouns and adjectives. With base nouns denoting persons, *-ly* usually conveys the notion of 'in the manner of X' or 'like an X', as in *brotherly, daughterly, fatherly, womanly*.

-ous

This suffix derives adjectives from nouns and bound roots, the vast majority being of Latinate origin (*curious, barbarous, famous, synonymous*).

2.1.4 Adverbial suffixes

-ly

The presence of this exclusively de-adjectival suffix is for the most part syntactically obligatory, and it can therefore be considered inflectional.

-wise

This suffix derives adverbs from nouns, with two distinguishable sub-groups: manner/dimension adverbs, and so-called view-point adverbs. The former adverb type has the meaning 'in the manner of X, like X' as in the towel wound sarongwise about his middle, or indicates a spatial arrangement or movement, as in The cone can be sliced lengthwise.

2.2 Prefixes

Plag (ibid:98) believes that prefixes of English can be classified semantically into the following groups: firstly, there is a large group that quantify over their base words meaning, for example, 'one' (*uni-, unilateral, unification*), 'twice or two' (*bi-, bilateral, bifurcation* and *di-, disyllabic, ditransitive*), 'many' (*multi-, multi-purpose, multi-lateral* and *poly-, polysyllabic, polyclinic*), 'half' (*semi-, semi-conscious, semi-desert*), etc.

Secondly, there are numerous locative prefixes such as *circum-* 'around' (*circumnavigate, circumscribe*), *counter-* 'against' (*counterbalance, counterexample*), *endo-* 'internal to X' (*endocentric, endocrinology*), etc.

adjective. For example, *algebraic mind* means 'a mind having to do with algebra, referring to algebra, characterized by algebra'. On the other hand, there is a large group of derived adjectives that express more specific concepts, and which are often called qualitative adjectives. Sometimes, relational adjectives can adopt qualitative meanings, as can be seen with the derivative *grammatical*, which has a relational meaning 'having to do with grammar' in the sentence *she is a grammatical genius*, but which also has a qualitative sense 'conforming to the rules of grammar', as in *this is a grammatical sentence*.

-able

The suffix chiefly combines with transitive and intransitive verbal bases, as in *detractable* and *perishable*, respectively, as well as with nouns, as in *serviceable*, *fashionable*.

-al

This relational suffix attaches almost exclusively to Latinate bases (*accidental*, *colonial*, *cultural*, *federal*, *institutional*, *modal*).

-ary

Again a relational adjective-forming suffix, *-ary* usually attaches to nouns, as in *complementary*, *evolutionary*, *fragmentary*, *legendary*, *precautionary*.

-ed

This suffix derives adjectives with the general meaning 'having X, being provided with X', as in *broad-minded*, *pig-headed*, *wooded*.

-esque

The suffix *-esque* is attached to both common and proper nouns to convey the notion of 'in the manner or style of X': *Chaplinesque*, *picturesque*.

-ful

Adjectival *-ful* has the general meaning 'having X, being characterized by X' and is typically attached to abstract nouns, as in *beautiful*, *insightful*, *purposeful*, *tactful*, *forgetful*, *mournful*, *resentful*.

-ic

Being another relational suffix, *-ic* also attaches to foreign bases (nouns and bound roots). Quite a number of *-ic* derivatives have variant forms in *-ical* (*electric* - *electrical*, *economic* - *economical*, *historic* – *historical*).

-ing

This verbal inflectional suffix primarily forms present participles, which can also be used as adjectives in attributive positions (and as nouns, see above).

-ion

This Latinate suffix has three allomorphs: when attached to a verb in *-ify*, the verbal suffix and *-ion* surface together as *-ification* (*personification*).

-ist

This suffix derives nouns denoting persons, mostly from nominal and adjectival bases (*ballonist, careerist, fantasist, minimalist*).

-ity

Words belonging to this morphological category are nouns denoting qualities, states or properties usually derived from Latinate adjectives (e.g. *curiosity, productivity, profundity, solidity*).

-ship

The suffix *-ship* forms nouns denoting 'state' or 'condition', similar in meaning to derivatives in *-age, -hood* and *-dom*. Like *friendship, relationship*

2.1.2. Verbal suffixes

There are four suffixes which derive verbs from other categories (mostly adjectives and nouns), *-ate, -en, -ify* and *-ize*.

-ate

Forms ending in this suffix represent a rather heterogeneous group. There is a class of derivatives with chemical substances as bases, which systematically exhibit so called or native and resultative meanings. These can be paraphrased as 'provide with X' (o mative), as in *fluorinate*.

-en

The Germanic suffix *-en* attaches to monosyllables that end in a plosive, fricative or affricate. Most bases are adjectives (e.g. *blacken, broaden, quicken, ripen*), but a few nouns can also be found e.g. *strengthen, lengthen*.

-ify

This suffix attaches to base words that are either monosyllabic, stressed on the final syllable or end in unstressed *ll*. Neologisms usually do not show stress shift, but some older forms do (*húmid - humidify, sólíd - solídify*).

-ize

Both *-ize* and *-ify* are polysemous suffixes, which can express a whole range of related concepts such as locative, ornative, causative/factitive, resultative, inchoative, performative, similitive.

2.1.3 Adjectival suffixes

The adjectival suffixes of English can be subdivided into two major groups. A large number of derived adjectives are relational adjectives, whose role is simply to relate the noun the adjective qualifies to the base word of the derived

As already mentioned in connection with the suffix *-ancy*, this suffix attaches productively to adjectives in *-ant/-ent* (e.g. *convergence*, *efficiency*, *emergence*), or *agency*, *presidency*, *regency*.

-dom

The native suffix *-dom* is semantically closely related to *-hood*, and *-ship*, which express similar concepts. *-dom* attaches to nouns to form nominals which can be paraphrased as 'state of being X' as in *apedom*, *clerkdom*, , or which refer to collective entities, such as *professordom*, *studentdom*, or denote domains, realms or territories as in *kingdom*, *cameldom*, *maoridom*.

-ee

The meaning of this suffix can be rather clearly discerned. It derives nouns denoting sentient entities that are involved in an event as non-volitional participants. Thus, *employee* denotes someone who is employed, a *biographee* is someone who is the subject of a biography.

-eer

This is another person noun forming suffix, whose meaning can be paraphrased as 'person who deals in, is concerned with, or has to do with X', as evidenced in forms such as *auctioneer*, *budgeteer*, *cameleer*, *mountaineer*.

-(e)ry

Formations in *-(e)ry* refer to locations which stand to connect to what is denoted by the base, like: *bakery*, *brewery*, *fishery*, *pottery*.

-ess

This suffix derives a comparatively small number of mostly established nouns referring exclusively to female humans and animals (*princess*, *stewardess*, *lioness*, *tigress*, *waitress*, *hostess*, *burgheress*, *clerkess*).

-ful

The nominal suffix *-ful* derives measure partitive nouns (similar to expressions such as *a lot of*, *a bunch of*) from nominal base words that can be construed as containers: *bootful*, *cupful*, *handful*, *tumblerful*, *stickful*.

-hood

Similar in meaning to *-dom*, *-hood* derivatives express concepts such as 'state' (as in *adulthood*, *childhood*, *farmerhood*), and 'collectivity' (as in *beggarhood*, *Christianhood*, *companionhood*).

-an (and its variants *-ian*, *-ean*)

Nouns denoting persons and places can take the suffix *-an*. Derivatives seem to have the general meaning 'person having to do with X' (as in *technician*).

(Crystal, OPC.:12) states that affixes are limited number in a language, and are generally classified into three types, depending on their position with reference to the root or stem of the word: those which are added to the beginning of a root/stem are called (prefixes), e.g. *unhappy*, those which follow are (suffixes), e.g. *happiness*, and those which occur within a root/stem are (infixes). There are some other less common terms include **circumfix** or **ambifix**, for a combination of prefix and suffix (as in *en-light-en*). The morphological process whether adds grammatical or lexical information to a stem is known as **affixation** ('prefixation', 'suffixation', 'infixation').

2.1. Suffixes in English Language

2.1.1 Nominal suffixes

Plag (2002:97) states that nominal suffixes are frequently employed to derive abstract nouns from verbs, adjectives and nouns. Such abstract nouns can indicate actions, results of actions, or other related concepts, but also properties, qualities and the like. Another large group of nominal suffixes derives person nouns of various sorts. Very often, these meanings are extended to other, related senses so that practically each suffix can be shown to be able to express more than one meaning, with the semantic domains of different suffixes often overlapping. There are many example of nominal suffixes like:

-age

This suffix derives nouns that express an activity (or its result) as in *coverage*, *leakage*, *spillage*, and nouns denoting a collective entity or quantity, as in *acreage*, *voltage*, *yardage*.

-al

A number of verbs take *-al* to form abstract nouns denoting an action or the result of an action, such as *arrival*, *overthrowal*, *recital*, *referral*.

-ance (with its variants *-ence/-ancy/-ency*)

Attaching mostly to verbs, *-ance* creates action nouns such as *absorbance*, *riddance*, *retardance*. The suffix is closely related to *-cy/-ce*, which attaches productively to adjectives ending in the suffix *-ant/-ent*. Thus, a derivative like *dependency* could be analyzed as having two suffixes (*depend-ent-cy*) or only one (*depend-ency*). (Marchand 1969:248).

-ant

This suffix forms count nouns referring to persons (often in technical or legal discourse, cf. *applicant*, *defendant*, *disclaimant*), *attractant*, *dispersant*.

-cy/-ce

2. What is an affix?

'Affix' is a bound morpheme that attaches to bases or stem (Robert, T, 1993:11). It is a collective term for the types of formative that can be used only when added to another morpheme (the root or stem), e.g. **unhappy** or **happiness**, etc. (Crystal, 1998:12). Although this seems like a clear definition, there are at least two major problems. First, it is not always easy to say whether something is a bound morpheme or a free morpheme, and second, it is not always obvious whether something should be regarded as a root or an affix.

Bound morpheme is one that must appear with at least one other morpheme (Robins, 1971:196). It is a morpheme that can only occur if attached to some other morpheme. When we apply this definition to the affixes *-free*, *-less*, *-like*, and *-wise* in morphemes like *error-free*, *careless*, *lawless*, *prison-like*, it turns out that all four morphemes also occur on their own, and should therefore be classified as free morphemes, and not as affixes.

We can say that an element can occur both as part of a complex word and as a free morpheme. In such cases, only a careful analysis of its linguistic properties can reveal whether the element in question is really the same in both cases. If there are significant differences between the two usages we can safely assume that we are dealing with two different items. If there are no significant differences, the element should be treated as a free morpheme and the pertinent complex word as a compound.

The second problem is concerned with the notion of affix, namely the distinction between an affix and a bound root. Affixes are also obligatorily bound; it is not particularly obvious what the difference between a bound root and an affix may be. (Root is a form which is not further analyzable, either in terms of derivational or inflectional morphology (Bauer, 1983:20). It is the central meaningful element of the word, to which affixes can attach. But when can we call an element central, when non-central? This problem is prominent with a whole class of words which are formed on the basis of morphemes that are called neoclassical elements. These elements are lexemes that are originally borrowed from Latin or Greek, but their combinations are of modern origin. Examples of neoclassical word-formation like *biochemistry*, *photograph*, *geology*, *biarhythm*, *photoionize*, *biology*, etc.

It is not clear whether the italicized elements should be regarded as affixes or as bound roots. If *bio-* is considered prefix, and *-logy* is suffix, we are faced with the problem that words such as *biology* would consist of a prefix and a suffix. However, we are not dealing here with affixes, but with bound roots, so that we are in fact talking about cases of compounding, and not of affixation. Speakers of English that are familiar with such words or even know some Greek would readily say that *bio-* has the meaning 'life', so they behave as compounds on the basis of native words. For instance, a *blackboard* is a kind of board, a *kitchen sink* is a kind of sink, a *university campus* is a kind of campus, etc.

Contrastive and Comparative Study of Affixation in English and Arabic Languages

Shaima' Al-Mi'mar

Kerbala University
College of Education
Department of English

1.Introduction:

Affixation is a morphological process that adds phonological material to a word in order to change its meaning, syntactic properties, or both (Stranzy,2005:11). It is the morphological process in which a grammatical or lexical information is added to a stem to form: ('prefixation', 'suffixation', 'infixation').

It is important to understand that the comparison between English and Arabic suffixation is an interesting subject to investigate. Therefore, this study attempts to identify, analyze, and contrast the process of affixation in these two languages in order to reveal the possible universals of the two languages in this field, and to determine as much as possible the similarities and differences between them.

This study provides a general view of the affixation processes in English and Arabic Languages. Section one discusses some related concepts like affix, affixations. Then some general properties that characterize the system of English affixation are introduced, and a survey of some range of suffixes, prefixes, and infixation is presented. Finally derivations and inflection are investigated.

Section two sheds some light on Arabic word formation, some definitions of root, pattern. Then derivational morphology and inflectional morphology as affixes and clitics also investigate.

Finally, section three is specified to discussion and conclusions.

Editorial Issue

Karbala : The Capital of Revolution

Revolutions do not take place out of vacuum and they never come out from the unknown womb, but they occur from the history of the glory of the nation. They take their power from the stands of the Muslims who stood against the regime and oppression shedding their blood on the way of freedom. Above all, is Imam AL Hussain bin Ali whose anniversary of his martyrdom passed few days ago.

Al Hussain set a lively example to be followed by all revolutionists throughout history even for non-Muslims like Ghandi and Jivera. Al Hussain was dug in their hearts considering him as source of power in the struggle against the powers of regime and tyranny.

Undoubtedly, the history of Al Hussain's revolution found its way to Arab revolutions whose slogans were 'No to Humiliation'. This slogan Which Al Hussain called for on the day of Ashoraa; The so-called, son of the so-called, has given two options: death or humiliation, when Al Hussain said no for humiliation. This call changed into a spark which created the spirit of revolution among the suppressed people.

Thus Al Hussain inspired the revolutionists, paving for them the way to revolution and styles of challenge, putting between their hands the way to victory which is accompanied with blood rather than power of the sword.

The blood which was shed in Karbala on the tenth of Muharam, 61 Hijri outraged the tyrant's throne Yazeed and those who ruled under him, even after many years. The blood enhanced the spirit of revolutions which we witnessed in Tunisia and Egypt overcoming the canon and rifles. From the above facts, Karbala has become a holy place to be visited by revolutionists throughout the history. All revolutions passed through this path and considered its land as a weapon for them. A few days ago, we witnessed millions of visiting who come to Karbala from all over the world on the occasion of the passage of forty days after Al Hussain Martyrdom to witness the drama of the victory of blood against the sword and to emphasize again that Karbala is not an ordinary city rather the capital of all revolutions that happened before and those on the way.

-THE CONSTITUTIONAL AND RESTRICTIONS ON THE WORK OF THE EXECUTIVE AND LEGISLATIVE POWERS IN IRAQ.....	
Mr. Khaled Abd-Al-Amir Al-Jaroush	
Mr. Jawad Rasha Shakir Hamid	
-THE APPEARANCE OF RESURRECTION AND DEATH IN LABEED'S AND AL SAYAB'S WORKS.....	
Dr. Layla Naid Atia Al-Khafaji	
-THE POLITICAL RESPONSIBILITY OF THE EXECUTIVE BODY (CONTRASTIVE STUDY)	
Mr. Maytham Husein Al-Shafei	
- THE POETRY OF URGING IMAM AL MAHDI (PBOH) IN ABUL HAB ALKABEER . (A STUDY IN THE OBJECTIVE CONNOTATION)	
Prof. Dr. Abud Judi Al-Hilli	
Ms. Rawaya Mohammad Hadi Hasun Al-Kalash	
-THE INFLUENCE OF IMAM ALI'S SPEECH IN LITERATURE	
Mr. Sayed Mohammad Reza Ebn Al-Rasul	
Ms. Fahima Sultan Nezaad	
-MR HASSAN NASRULAH IN CONTEMPORARY POETRY	
Dr. Abd-Al-Ali A'l Buye	
Ms. Peyvand Safari	
Dr. Abd-Al-Husein Abbas Al-Hilli	
-AL TEEBAQ IN AL SAHIFA AL SAJADIYAH	
Dr. Jafar Ashur	
Ms. Huda Husein	
-PROSTRATION IS THE BEST PICTURE FOR HUMILIATION FOR GOD	
Mr. Farid Al-Arabi	
Mr. Sayed Masoud Siadati	
-WISDOM IN AL SAALEEK POETRY (ANALYTIC STUDY).....	
Dr. Ammar Al-Masoudi	

Contents

Editorial	5
CONTRASTIVE AND COMPARATIVE STUDY OF AFFIXATION IN ENGLISH AND ARABIC LANGUAGES	
Shaima' Al-Mi'mar	
Arabic Researches	
-EDITORIAL	
-PIONEER POETS AND COMPOUND POETRY	
Prof. Dr. Abud Judi Al-Hilli Mr. Alawy Kadhém Kishish	
-THE PROPHET'S HOUSEHOLD (PBOT) IN AL SAHIFA ALSAJADIYAH (IMPLIED READING)	
Prof. Dr. Hakim Habib Al-griti	
- THE PHENOMENA OF THE MONETARY INFLATION IN IRAQ AND ITS ECONOMICAL REFLEXIONS	
Asst. Prof. Dr. Kamal Abed Hamed Al Ziara Asst. Prof. Dr. Hikmat Abd-Al-Razaq Al-Dabagh	
-THE MOTHER'S ROLE IN MOVING THE NATIONALITY TO THE CHILDREN IN ARABIC AND IRAQI LEGISLATIONS.(CONTRASTIVE STUDY)	
Dr. Hasan Al-Yaseri	
-METHODS AND STYLES OF COMMANDS , NEGATIONS AND INTERROGATIONS IN PART OF ALSAHIFA ALSAJADOYAH (THE BLESSED DAYS AS SAMPLE)	
Asst. Prof. Dr. Baqir Jawad Al-Zojaji Asst. Prof. Dr. Mohammad Mohsin Al-Asadi	
AL KADHUMAIN CITY ,RELIGIOUS- TOURIST SYMBOL (HISTORICAL STUDY)	
Mr. Ali Jasim Talal Al-Mosawi	
-CRITICAL STUDY IN THE CONCEPT OF RENAISSANCE IN ARABIC SYNTAX IN SHAWQI DHAIF'S WORKS	
Mr. Mohammad Baqir Al-Huseini Mr. Ahmad Hanafi Zade	
-THE USE OF SEMANTIC ARTICLES AND THEIR EFFECT ON THE RHYTHMIC STRUCTURE IN AL JAWAHRI'S WORKS	
Mr. Jawad Oude Sabhan	

Consultant staff

Prof. Dr.
Hassan A. Al-Zaal

Prof. Dr.
Hakim M. Mohammed

Prof.Dr.
Nadhim Shiko.

Prof. Dr.
Khadija Al-Hadithy.

Prof.Dr.
Abbas Zboon Al-Abboodi

Prof. Dr.
Subhe N. Hussein

Prof. Dr.
Hadi Hussein Al-Gara'awi

In The Name Of Allah Most Gracious, Most Merciful

ISSN 1819-2033

issue:1 2

Ahlulbait

Refereed Journal (Quarterly)
Issued By Ahlulbait University

Chief Editor

prof.Dr. Abbood J Al-Hilli

Editorial Secretary

Dr. Baqer Jawad Al-Zajajy

Editors

Dr. Mohammed A. Al-Khateeb
Dr. Hassan Hantoush Rashid
Dr. Hakmat Aobaid Hassan
Dr. Mehdi Dakhel Al-Aobaidi
Dr. Kamal Abed-Hamed Al-Ziyara
Dr. Abid Hamza Muhsin

Karbala, Fatimah-al-Zahra street, P.O.Box: 1 0 1 9, Tel: 351 257-9
karbala@ahlulbaitonline.com . www.ahlulbaitonline.com
